أبو حامد صخر بن محمد الهادي

قدر الصلاة
ولحوق تاركيها بأهل الكتاب

قدر الصلاة

﴿قُلْ: مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ[1] ؟!﴾ [الفرقان 77]

باسم الله الرحمن الذي لا يضرُّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء أبدَ الدهور، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ [الأنعام 1]، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله: الْمَلكُ الحق ذو العرش الحيُّ القيوم العليمُ الخبير الْمُدبِّر القدير الفعّال لما يُريد الْمُتكلِّم السميع البصير الْمُبدئُ الْمُعيد العفوُّ الصَّبور، الْمُثيبُ الْمُنتَقِم التوّاب الرَّحيم الوَدود الشكور. وأشهد أنَّ أبا القاسمِ مُحمّدَ بنَ عبدِ الله الهاشميَّ القُرَشيّ عبدُه ورَسوله ونبيُّ التوبة ونبي الرحمة وأنَّه أحمدُ الذي بشَّر به عيسى الْماحي الذي مَحى الكفر، الحاشرُ الذي يُحشر الناسُ على قدَمه، الْمُقفِّي آثارَ الرسل قبلَه، العاقبُ الذي لا نبيَّ بعدَه إلى يوم النشور؛ شهادةَ حقٍّ صدقًا وعَدلا لا شهادةَ زُور. وأُصلِّي على محمّد صلاةً تتوالَى ما دامت الأفلاك تدور وتزكُو على مَرّ الساعات والعصور، وأُسلِّم عليه تسليمًا أرجو أن أسلَمَ به في دار العُبور من جُنود إبليسَ الغَرور ومن سَبُع النفس العَقور ومن صُحبة القوم البُور، لأثبُتَ في البرزَخ حينَ يُفتتَن مَن في القبور وأنجوَ يومَ البعث والحشر من الويل والثُّبور وأبلُغ السُّرور الدائمَ والْحُبور، ليس رجاءَ مَثوبة على عمل صالح خالص أسلَفتُه ولكن رحمةً وفضلا من ربٍّ كريم غفور.

أما بعد، فيا مَن تتساءلُ عن جَدوى جُهودك ورَحَى الموتُ تدور وعن مغزى وُجودك وقد فَنِيَ مَن سبَقك مِن حُضور؛ فدونَك الإسلامَ دينًا تزكو به أدنى النفوس برحمة الملك القدّوس، ويُخضِعُ رقابَ أولي الألباب لربّ الأرباب، وتتخضَّب بالدّماء فيه نُحور ذَوي الحُجور لذي الجبروت الشديد

---

[1] للآية وجهان: ﴿دُعَاؤُكُمْ﴾ إياه أي عبادته، وذلك لأنّ الدعاء هو العبادة، والصلاة أم العبادات، وأصل الصلاة في اللغة الدعاء لتضمنها معنى الدعاء؛ وعليه يكون المعنى: لا يبالي بكم ربِّي ولا وزنَ لكم عنده تعالى إلا إذا قمتم بعبادته، كيف ولا علّة لخلقه إياكم سوى أن تعبدوه؟! والوجه الآخر ﴿دُعَاؤُكُمْ﴾ أي دعاؤه إياكم أن تعبدوه وتطيعوه باستجابتكم لرُسله بعد إيمانكم بهم ولهم، ويقوّي هذا الوجه قولُه تعالى بعدها ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا!﴾ وكِلا الوجهين يرجع إلى وجوب عبادة الله تعالى وعلى رأسها الصلاة.

البأس الغيور:[1] وخُذها رسالةً من ناصح مُشفقٍ جَسور قد حالَف الغُربةَ وخالَف الجُمهور ونظر بعقله على بصيرة من ربِّه ونُور في حقائق الأمور، دَأْبَ سلَفه الصالِح في وُرودهم والصُّدور، كتبَها لنفسه ولِمَن أذن الله أن تبلُغ من أهل السعادة وأصحاب الدُّثور التي لا تبور؛ ليعلموا قدرَ الصلاة عند الله وأنّها عَمود الدِّين الذي عليه يقوم وأصلُه الذي إليه يرجِع وقُطبُه الذي عليه يدور، عسى أن يُرفع عن عظمَتها ما تراكم من سُتور.

وليُعلَم أنّ مَن ادَّعى الإسلامَ وقال "لا إلهَ إلا الله محمّدٌ رسول الله" بلسانه ثمّ سمع الأذانَ فلم يَستجب لِداعي الله بل زاوَلَ الْمُرور، مُتَجاهلا تلك الصلاة مُعرضًا عنها حتى انقَضتْ وفاته بلا عُذرٍ الحضور؛ فما ذاك إلا كافرٌ مغرور قد شقيَ من قَبل انقلابه في البطون والظُّهور وإنه لَمِن جُملة الذين قال الله فيهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا؛ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ!﴾ [فاطر 36] وإن أظهرَ إحسانًا فإنّه في الباطِن يَجور، وإن ادَّعى الإيمانَ فهو في شكٍّ من البَعث والنشور و﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ!﴾ [هود 14]

أيكون مُسلمًا مَن صرَم ما يصلُه بربِّه من أسباب وهدمَ ما يبلِّغُه إليه تعالى من جُسور؟! بل مأواه جهنَّم وبئسَ المصير، ولا فرقَ بينه وبين مَن أُوتوا كتابَ الله من قبلُ فنَبذوه وراءَ الظُّهور. ثم ليُعلَم أنّ بابَ الإسلام مَفوتح، فمَن تابوا من بعد ما كفروا، فقد وعدَهم الله خيرًا فقال وهو الرحيم الغفور ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ! أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟!﴾ [المائدة 39-40] وأساسُ التوبَة اتِّباعُ القرآن وإقامةُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً؛ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ! لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ؛ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ!﴾ [فاطر 29-30]

---

[1] عن عبد الله بن مسعود أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «لا أحدَ أَغْيَرَ من الله؛ من أَجل ذلك حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَن! ولا أحدَ أحبَّ إليه المَدْحُ من الله تعالى؛ من أجل ذلك مَدَحَ نَفْسَهُ!» خرَّجه البخاري في التفسير من صحيحه ومسلم والترمذي وأحمد.

ليس من الفُضول أن نُذكِّر بسوء حال المسلمين، فإنَّهم صاروا أمَّةً ضئيلة هَزيلة مريضة قد أشرَفت على الهلاك، ولا دواءَ يوصَف إلا بعد الفَحص ومعرفَة الدّاء. وأصل الداء ابتعادُهم عن دين محمدٍ رسولِ ربّ العالَمين وخاتَم النبيِّين، ودواؤُهم في الرُّجوع إلى ما جاءَهم به من الحقِّ المُبين. ولا نَعني بالمسلمين الْمُتسَمِّين بالإسلام المستَسِبين إليه لانتمائهم العِرقي أو السياسي وهم غيرُ مُتَّصفين ولا مُتلَبِّسين به فعلا؛ فهؤلاء ضُلاّل ومُغترّون، وهذا شرّ ما يصيب البَشر ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُون!﴾ [الزُّخرف 37] ذلك لأنّ كلاًّ منهم مُتشبِّثٌ بباطله وبما لديه فلا سبيلَ له للتَّعريج على ما عسى أن يكون فيه نجاتُه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ! قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا! أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُون؟!﴾ [المائدة 104] فأنّى لِمَن هذه حالُه أن يُفلِح وهذه حالُه؟! ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم! فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِين؟!﴾ [الروم 29]

فهم إذًا لا يريدون أن يتعلَّموا دينَ الله الذي بلغَهم وهم لا يعلَمون أن أساسَه الصلاة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا؛ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ؛ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ! مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا؛ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ!﴾ [الروم 30-32] قرأ حمزة والكَسائي ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ وهي قراءةُ عليِّ بن أبي طالب وروايةٌ عن أبي هريرة يرفَعها إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم. قال الطبري: إنهما قِراءتان معروفتان، قد قرأت بكل واحدة منهما أئمةٌ من القُرّاء. وهما متَّفقتا المعنى غيرُ مختلفتَيه، وذلك أن كل ضالّ فلدينه مُفارق، وقد فرَّق الأحزابُ دينَ الله الذي ارتضاه لعباده، فتهوَّد بعضٌ وتَنصَّر آخرون وتَمجَّس بعض؛ وذلك هو التفريقُ بعينه. ومصير أهله شِيَعاً مُتفرِّقين غيرَ مجتمعين، فهم لدين الله الحقِّ مفارقون، وله مفرِّقون.[1] والشِّيَع جمع شيعة وهي الفِرقَة التي اتَّبَعت زعيمًا أو رأيًا وتحزَّبت له وفارَقت ما عليه غيرُها، وهكذا تفرَّق المسلمون واتَّبَعوا أهواءَهم وفارقَ مُعظَمهم دينَهم وهم لا يشعُرون.

---

[1] 'جامع البيان في تأويل القرآن' ج12/ص268-269، بتحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

لا يخفى على عاقل أنّ أمر الدين مُنذُ عهدِ رسول الله في تراجُع؛ فالعالِمون به في تضاؤُلٍ والعامِلون بِعلمِهم أقلُّ وأقلّ، ورُقعَتُه في انكماش والجماعةُ في تقلُّص. وقد أنبأنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بهذا حين قال لصَحابَته «اصبروا، فإنّه لا يأتي عليكم زمانٌ إلاَّ الذي بعده شرٌّ منه، حتى تَلقَوْا ربَّكم!»[1] فلا جرمَ أن تراكَمت على مَرّ الزَّمان مَصائبُ هذه الأمّة ورَزاياها. ومن أعظمها ما نبَّأَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين قال «يوشِك الأممُ أن تداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها!» فقال قائلٌ "ومِن قِلّةٍ نَحنُ يومَئذٍ؟" قال «بل أنتم يومَئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْل. ولَينزَعنَّ اللهُ مِن صُدور عَدوِّكم الْمَهابَةَ منكم، ولَيَقذفنَّ الله في قلوبِكم الوَهَنَ!» فقال قائلٌ "يا رسولَ الله، وما الوَهَنُ؟" قال «حبُّ الدُّنيا وكَراهيةُ الْمَوْت!»[2]

فلَمَّا نَخر داءُ حبِّ الدنيا في الناس حبلَ الوازِع الديني، وأنهَكَت اختلافاتُهم قواهم؛ تداعَى عليهم التَّتار من الشرق والأوروبيّون من الغرب، وأعانهم أعداءُ الداخل من أتباع الهوى وشتَّى الفِرق المارقة الضالَّة، فجَمعوا كيدَهم وحَشَدوا عَدَدهم وأعدُّوا عُدَدهم، واقتحَموا على المسلمين أرضَهم مِن كلّ جهة، واجتَمعوا عليهم في عُقر ديارهم كما يفعَلُ الأَكَلَةُ الْمَنهومون إذا دعا بعضُهم بعضًا إلى طَبَقٍ شَهيّ؛ لا يَقومون عنه إلاّ وقد أتَوا على آخرِ ما فيه. فلبِثَ الأوروبيُّون دَهرًا وطال التطاحنُ، ثم استرجَع المسلمون شيئًا من أرضهم، ولكن ضاع منهم ما ضاع...

ثمّ أعادوا الكرَّة في القرن الثالث عشر هجري، حين ذهبت ريحُ العُثمانيين، فاحتلُّوا أرضَ الإسلام واستَضعَفُوا أهلَها وامتَهَنُوهم وأذلُّوهم، وأجبروهم رغبةً ورهبة على أشغال استنفدت قُواهم وأضاعت منهم وَقتَهم النَّفيس، ثم قَهَروهم وأخضَعوهم لقوانينهم الوضعيَّة، فحكموا بينهم بما لم ينزّل الله به سلطانا. ثمّ استرجَع الأهالي أرضَهم وديارَهم صُوريًّا بعد جهد جهيد وثَمنٍ باهِظ، وقد ضاع منهم ما ضاع... والذي ما فتئَ يضيع من الناس إنّما هو دينُهم؛ قال عبد الرحمن المجدوب المتوفَّى سنة 1085، وقد أطلعه الله على ما سيحصُل بعد قرنين من الزمن:

---

[1] خرَّجه البخاري في الفتن والترمذي وأحمد، عن أنس بن مالك.

[2] خرّجه أبو داود في الفتن وأحمد وابن أبي شيبة عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا سايلني على القرن ثَلطَّاعشْ: أكْــحل ما فيه مـــارَةَ!
الكَـــسوَة كسْوَة المسلمـــين والقلوب قلوب النصارى[1]

أمّا اليوم فلا كِسوةَ ولا قلوب، فطولُ مُكْثِ الصليبيِّين في القرون الوُسطَى والمُستعمِرين حديثا، كالفرنسيين الذين أبدَوا الرغبةَ في إعادة تَنصير المغرب وما أرادوا إلا 'علمانيَّته' في الحقيقة، وكذلك الإنجليز في المشرق وقد نفَثوا فيه روح 'البراغماتيّة'، قد أتاح لعَدوَى الأهواء والضلالات أن تُصيب الأهالي؛ فتسرَّب الداءُ في جِسم الأمَّة الإسلاميّة وأصبحت شبحًا بلا روح. بلغنا عن عبد الله بن لُحَيّ أنه قال: حجَجْنا مع مُعاوِيةَ بنِ أبي سُفيان، فلما قَدِمنا مَكَّةَ قام حينَ صلّى صلاةَ الظُّهر فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنّ أهلَ الكتابَين افترَقوا في دينِهم على ثِنتين وسبعين مِلّة، وإنّ هذه الأمة ستفترِق على ثلاثٍ وسبعين ملة -يعني الأهواءَ- كلُّها في النار إلا واحدة؛ وهي الجماعة! وإنه سيَخرُج في أمَّتي أقوامٌ تَجارَى بهم تلك الأهواءُ كما يَتجارَى الكَلَبُ بصاحبه؛ لا يَبقى منه عِرْقٌ ولا مفصَل إلا دَخَله!» -ثم قال معاوية "والله يا معشرَ العرب، لئن لم تَقوموا بما جاء به نبيُّكم صلى الله عليه وسلم، لَغيرُكم مِن الناس أحرَى أن لا يَقومَ به!!"[2] ولقد صدق رضي الله عنه فالناس في الإسلام أتباع للعرب، هذا مشاهدٌ بيِّن.

ومن الرزايا أيضًا ترك جُمهور المسلمين العملَ بالكتاب والسنّة واعتِمادهم التقليدَ دينا. فعَكفوا على كتب الفقه والعقيدة بغير أدلَّة، مدَّةَ الانحطاط التي كان بدؤها في منتَصف القرن الرابع حين فشا التَّقليد وسُدّ باب الاجتهاد المطلَق، فهان عليهم اتِّباعُ كلِّ ناعق. ولما انحلَّت عُروةُ الحكم، ما تلبَّثوا إلا قليلاً عن العمل بما وضعَه لهم الغربيّون، فاعتَمَدوا قوانينَهم وتشبَّهوا بهم في آدابهم وزيِّهم ومأكَلهم ومسكَنِهم، وتكلّموا بلُغَتِهم وأرَّخوا بتأريخِهم، والذي هو مَزيجٌ من الأثارة الرومانيّة وشيءٍ من الطقوس المسيحيَّة، وحَسَبوا بالشهور الشمسيّة وعلَّموا أبناءَهم على المناهج الكُفريَّة المادِّية وأخذوا عُطَلَهم في مواسم مُنكري البَعث واحتفَلوا بأعيادِهم وأحدَثوا أعيادًا زائدة من عند أنفُسِهم، كأعياد

[1] حكم عبد الرحمن المجدوب الشعبية، نشر وترجمة دي كاستري، لورو، باريس 1896م.
[2] خرّجه أحمد ح16979 وأبو داود والدارمي، قال الأرنؤوط: حسن وحديث افتراق الأمة منه صحيح.

المواليد والأعياد الوطنيَّة وعيد العُمّال وعيد المرأة..، إلى غير ذلك من تقليد الضَّعيف لِمَن غلَبَه والغبيّ لَمن احتال عليه، وصدَق فيهم قولُ الله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُم!﴾ [النساء 140] وصدَق فيهم قولُ النبي «مَن تَشبَّه بِقومٍ فهو مِنهم!»[1]

فما زالوا كذلك إلى أن بلَغ بهم الأمرُ فقسَّموا ساعات أيامِهم طِبقَ مَواقيت الكَفرَة، حتى ضاعت منهم مواقيتُ الصلاة واشتغَلوا عِوَضَها بطلَب العلم الغير النافع في المدارس العلمانيَّة وبالركض وراءَ الرِّزق الْمَشبوه في المكاتب والوُرش، وبالعبَث بالملاهي وبالْمُكث في الملاعب والمقاهي، فإذا قرعَ آذانَهم الأذانُ لَم يستَجب منهم إلا أقلُّ القليلُ؛ وصدَق فيهم قولُ الله ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ؛ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا!﴾ [مريم 59]

لا شكَّ أن مُعظم هذه الأمّة قد ذَهب دينُهم وكفروا والتَحَقوا بأهلِ الكتاب مِن يهودٍ ونصارَى. وليتهم وقفوا عند هذا الحدّ ولَم يشطُّوا في غيِّهم، بل إنّهم مع ذلك يرَون أنفُسَهم ومَن اتَّبعوهم من كُفّار أحسَنَ حالاً من المسلمين ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ؟! يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا!﴾ [النساء 51] لذا خالَفوا المسلمين في كل شيء وقلّدوا أهلَ الكتاب في كل شيء. هكذا ذَهابُ الدين؛ كان أوَّلُه تَركَ الْحُكم بما أنزلَ اللهُ وآخرُه تَرك الصلاة، وحصل ما نبَّأ به النبي، فإنّه قال صلى الله عليه وسلم «لَتُنقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُروة، فكلَّما انتَقَضتْ عُروَةٌ تَشبَّث الناسُ بالتي تَليها؛ فأَوَّلُهنّ نَقضًا الْحُكمُ، وآخرُهنّ الصلاةُ!»[2] وصدَق أحمد بن حنبل، رحمة الله عليه، إذ قال "ليس بعدَ ذهابِ الصلاة إسلامٌ ولا دين، فإذا صارت الصلاةُ آخرَ ما يَذهب من الإسلامِ؛ فكلُّ شيءٍ يذهَبُ آخرُه فقد ذهب جَميعُه!"[3]

***

[1] رواه أبو داود في اللباس وأحمد عن عبد الله بن عمر.

[2] رواه ابن حِبان في كتاب التاريخ من 'صحيحه'، وأحمد بن حنبل بسند صحيح عن أبي أُمامةَ، وله شاهد عند الحاكم في كتاب الفتن والملاحم وأحمد من حديث ابن عمر.

[3] نقله عنه ابن أبي يعلى في 'طبقات الحنابلة' في ترجمة مهنا بن يحيى، ج1-ص323، دار الكتب العلمية.

يقول الله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ؛ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ. وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ؛ بَغْيًا بَيْنَهُمْ! فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة 213] فالناس كانوا لا تجمَعهم إلا مَصالحُ الدُّنيا اضطِرارًا لاشتراكهم في النَّسَب أو القَبيلة أو الوَطن، أو اختيارًا لما بينَهم من تجارة وإجارة. ولكن بعد مَجيء رُسل الله ظهرت لَهم مصالِحُ أخرى تتعدّى الدار الفانية وتفتَح لهم آفاقًا لا حدَّ لها في الدار الباقية، فافتَرَقوا لذلك. فمنهم مَن اتَّبَع الهُدى ومنهم مَن ظلَّ على ما كان عليه وكأنَّه لَم يبلُغه شيء ولا خبرَ عندَه عن الدار الآخرة، بل قد قامت بينَهم حروبٌ تَصادم خلالَها الخيرُ والشَّرّ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا؛ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ! وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ!﴾ [البقرة 253]

سيتبيَّن لك إن شاء الله في مَوضعه أن أوَّل سبب التقاتل بين المسلمين والكفار إنما هو إقامةُ الصلاة، لأنَّها الفَيصل بين الإسلام والكُفر. فمَن أقامها فقد شارك في إنشاء المجتَمَع الذي يريدُه الله شرعًا وقد سلَك سبيلَ الرُّشد، ومَن أبى فقد ظلَّ في ضلاله لا يخرُج عن اجتماعه المحصور في مصالحه الفانية ﴿قُلْ: أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ، الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ؛ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ!﴾ [الأعراف 29-30] وتلك بالضبط حالُ أكثرِ مَن يسكُنون البلاد الإسلاميّة، كما يسمونَها، يحسبون أنَّهم مسلمون لِمُجرَّد انتمائهم، ولا يقومون بما يقتضيه دينُ الله، بل يعبَثون ولا يعبؤون.

ليس الإسلام انتماءً عِرقيًا ولا بيئةً حضاريّة ولا دَعوى عاريةً عن بُرهان. ذلك ما يبثُّه أعداءُ الله وينشرونَه في الناس غرورا، ليظنُّوا أنَّهم على شيء وهم في الحقيقة كُفار لا قيمةَ لهم عند الله.

بل الإسلام تكليفٌ تقتضيه نعمةٌ ربّانيّة واجتباءٌ إلهيّ كما عبَّر عنه قولُ الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا!﴾ [المائدة 3] الإسلام نعمة لَم يرضَها الله إلاّ لِمَن استَجاب لرسوله محمَّد واتَّبعه، وحينها فقط يُسمَّى المستَجيب مسلما، لأنَّ الله سمّاه كذلك ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا؛ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ! فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ؛ هُوَ مَوْلاَكُمْ!﴾ [الحج 78] فلا إسلامَ إلا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله لتكون الوَلايةُ له سبحانه ولعباده المسلمين في ظلِّ وَلايته تعالى لَهم ﴿قُلْ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ؛ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا: وَمَن يَهْدِ اللَّهُ؛ فَهُوَ الْمُهْتَدِ! وَمَن يُضْلِلْ؛ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِه!﴾ [الإسراء 96-97] فهذه شهادة اللهِ للمسلمين: أي أن مَن هداه الله فهو المسلم ومَن أضلَّه فليس بمسلم ولا وَلاية له عند الله ولا عند المسلمين من عباده.

أمّا أن يوصَف أُناسٌ بالإسلام وهم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعتصِمون بالله ولا يرجون له وقارا، بل لِمجرَّد كونهم من الأهل أو من القبيلة أو من المواطنين أو من العرب أو غير ذلك ممّا يبدو للناس من صلات لا حصرَ لها، فهذا باطل في شرع الله تعالى الذي يقول ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟! وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا!﴾ [النساء 88] والمعنى: أتريدون أن تُسمّوا الضُّلاّلَ مسلمين وقد أضلَّهم الله؟! شتان بين هؤلاء وأولئك! ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقا؟! لاَ يَسْتَوُون!! أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات؛ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى، نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ! وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّار...﴾ [السجدة 18-19]

المسلمُ مصيرُه إلى الجنَّة ومصيرُ الكافر إلى النار! وهل الجنَّة والنار في عقول هؤلاء شيءٌ واحد؟! فكيف يسمّون الكافرَ مسلما؟! ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّة؛ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ!﴾ [الحشر 20] لا سبيلَ إلى تسميَة أحد من الناس بالمسلم إلا بأن يدخُل في الإسلام كما بيَّنه الله ورسولُه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّة!﴾ [البقرة 208] أي اِستسلموا لله وأطيعوه ولا تخرُجوا عن أمره في شيء.

ويدخُل في ذلك تسميَةُ الكافر مُسلما، لأنَّها خروج عن طاعة الله الذي أبى أن يجعلَه مسلما ونهى عن تسميته بذلك؛ ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا﴾ أي أن تجعلوا من جُملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ اللهُ؟!﴾ فجعله تعالى من جملة الضُّلاّل وحكَم عليه بالكفر؛ وهل هذا إلا اعتراضٌ على الله، أي جهلٌ، بل كفرٌ في حدّ ذاته؟! لا معنى، أيُّها القارئُ، لهذه الآية إلا ما أصفُ لك، وإلا لكانت نهيًا عن دَعوة الناس إلى الإسلام، وهذا لا يكون لأنّنا مأمورون بنشر الدّين وتبليغه الناسَ جميعا؛ فالآية تحذير وتوبيخ للمسلمين وغيرِهم من الذين يُطلقون الإسلامَ على مَن ليسوا بمسلمين.

أعني الذين أضلَّهم الله تعالى فهم لا يتقيَّدون بشعائر الإسلام ويحسبون أنَّهم على شيء، وإن كانوا يؤمنون ببعض ما أنزَل الله ولا يُنكرون أركانَ الإيمان ولا يعتَرضون على شعائر الإسلام، فقد قال الله فيهم ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟! فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ! وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ!﴾ [البقرة 85] فالحكم لهؤلاء الكفَرة بالإسلام اعتراضٌ على الله وتكذيب له تبارك وتعالى ولرسوله، وما هو في الحقيقة إلا كَذبٌ وافتراء. بل الواجب حتما إعلامُ الضُّلاّل بما هم عليه من ضلالهم، ولا بدَّ مع ذلك أيضًا من تَحذير ونَهي الذين يسمّونَهم مسلمين، وإن كانوا مَعدودين في جُملَة العلماء. هذا واجبُ كلّ مسلم صادق: تسميةُ الكافر كافرًا وتنبيهُ مَن يُسميه مسلما على خطورة موقفه، فالحذَرَ الحذر!

ومع هذا فقلَّما يحرِّك أحد من الناس ساكنًا لتغيير الأمور من شرّ إلى خير. يقول العامّة "لا نملكُ من الأمر شيئًا؛ الله غالب!" ويقول علماء الأمَّة "تلك حالُ الناس منذ قُرون، وفي إجبارهم على ما يكرَهون ونَهيِهم عمّا يحبّون ما يسبِّب الفتنَة، وهي أشدُّ ضررًا مما هم عليه الآن؛ فالأحسن أن نذَرهم وما اعتادوه!" ويقول أصحابُ الطُّرُق "مَن نظر إلى الناس بعين العِلم مَقتَهم، ومَن نظر إليهم بعين الحقيقة عذَرَهم!" وكلُّهم يدعو الله ليُصلِح حال المسلمين، وهم مطمئنّون راضون معتَمِدون على قول الله ﴿قُلْ: إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾! نعم، ما أصاب الأمَّةَ إلا ما قدّره

تعالى وقضاه، لكنَّ تمامَ الآية ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد 27] فمَن تاب ورجع إليه قَبِلَه تعالى وهداه؛ فالآية دليل على استغناء الله عنّا لا على الرضا بما قضاه ممّا يخالِف شرعَه تعالى.

***

لقد جعل الله أكبرَ أسباب إنابَة الناس إليه أمْرَهم بالمَعروف ونهيَهم عن المنكَر، وبذلك بعث رسلَه وأمر أنبياءَه، بل قد جعلَ ذلك أعلى ما تبلُغه أمَّة من إيمان وذلك قوله سبحانَه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؛ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه!﴾ فالخيريَّة في الأمر والنَّهي لا في مجرَّد الإيمان، وقد ذكر بعدها أهلَ الكتاب، الذين لا يخلون من إيمان، فكأنّه تعالى جعل الإيمان هنا شرطًا للأمر والنَّهي خلافًا لما في غير هذا المقام ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ؛ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُون!﴾ [آل عمران 110] فأكّد هذا ما قلناه من أنَّ إيمانَ أهل الكتاب لَم يكن كافيًا ليقام فيهم أصلُ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر الذي هو سبيل الفلاح. والآية شاهد لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلَّم وصحابتُه رضي الله عنهم من إيمان؛ من دعوةٍ للنَّفس وللناس إلى الفضائل ومحاربةٍ للرذائل، كما قال أبو هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ خيرَ الناس للناس؛ تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخُلوا في الإسلام![1] ودخولُهم في الإسلام إنّما هو نجاةٌ من النار ودخولٌ الجنَّة؛ قال النبي صلى الله عليه وسلَّم «عَجِبَ الله مِن قَومٍ يدخلون الجنَّة في السَّلاسِل!»[2] ولولا الأمر والنَّهي لظلُّوا في ضلالِهم، فما الدَّعوة إلى الله إلا أمرٌ ونَهي. فلا حُجَّة في قدَر الله ولا في قضائه إذا خالَف إرادَتَه الشَّرعية. وصدق مَن قال "الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس" لأنه عاصٍ راضٍ بما يراه من شرّ ولا يراه من خير.

ثم اعلَم أنَّه لا يخلو مُجتمَع ألبتة مِن أمر ونَهي، وإن كان أمرًا بالفساد ونهيا عن الصلاح، كما عليه حكَّام السوء الجائرين على الناس في هذا الزمان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادا﴾ [سبأ 33] وكذا المنافقون،

[1] خرجه البخاري في التفسير والنسائي في 'السنن الكبرى'.

[2] خرجه البخاري في الجهاد وأبو داود وابن حبان عن أبي هريرة.

علموا ذلك أم لم يعلَموه، قال الله ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ، بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ: يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة 67] فلا يخلو مجتَمعٌ، بل ولا فردٌ عن الأمر والنَّهي.

وما دينُ الله إلا أمرٌ ونَهي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل 90] أمرًا بالخير ونهيًا عن الشرّ، وبذلك بعثَ نبيَّه محمدًا ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ!﴾ [الأعراف 157] والمسلمون في ذلك تبَعٌ له صلى الله عليه وسلم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ: يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ!﴾ [التوبة 71] وعليه فمَن جرَّد دينَه من الأمر بالخير والنَّهي عن الشرّ فليس من الله في شيء، سواءً في خاصَّة نفسه، كما أنبأنا الله بقوله ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى!﴾ [النازعات 40-41] أو إزاءَ غيره كما في قوله تعالى ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ: كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ؛ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُون!!﴾ [المائدة 78-79] فدخل في ذلك كلُّ مَن فعل المنكَر ومَن رضي به على السواء.

مَن أضاع هذا الأصل فهو مَلعون في كتاب الله، فقد بلغنا عن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله «إن أوّل ما دخل النَّقصُ على بني إسرائيل، كان الرجُل يلقى الرجلَ فيقول "يا هذا، اتَّقِ الله ودَعْ ما تصنع، فإنه لا يَحلُّ لك!" ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشَريبَه وقَعيدَه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ! كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ؛ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ! تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ! وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ!﴾ [المائدة 78-81] ثم قال صلى الله عليه وسلم «كلا والله! لتأمُرُنَّ بالْمَعروف ولَتنهَوُنّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ على يدي الظالم،

ولَتأطُرُنَّه على الحق أَطرا، ولتَقصُرنّه على الحق قصرا!»[1] الأَكِيل هو الْمُؤاكل والشَّريب المشارب والقَعيد المقاعد أي الْمُجالِس، والأَطْر هو الثَّني، أي: رُدُّوه إلى الحق الذي خالفه وليرجع إليه! والقصر هو الحبس، أي على الحقّ حتى لا يتعدّاه.

وبلغنا عن قَيس بن أبي حازم أنه قال: قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنَى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرؤُون هذه الآية وتضعونَها على غير مَواضعها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ؛ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ!﴾ [المائدة 105] وإنّا سَمِعنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول «إنّ الناس إذا رأَوا الظالِمَ فلم يأخُذوا على يدَيه، أَوشَك أن يَعُمّهم الله بعقاب!» أو قال: إني سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما مِن قوم يُعمَل فيهم بالمعاصي، ثم يَقدِرون على أن يُغيِّروا، ثم لا يغيروا إلا يُوشِك أن يعُمَّهم الله منه بعقاب!»[2] وروى مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول "كان يقال أنّ الله تبارك وتعالى لا يعذِّب العامّةَ بذَنب الخاصّة، ولكن إذا عُمِلَ المنكَرُ جِهارًا؛ استَحقُّوا العقوبةَ كلَّهم!"[3] ذلك لأنَّ عدم الْمُبالاةِ بالمعاصي علامةٌ على نقصٍ كبير في الإيمان.

لِذا حذّر النبي مِن تَرْك هذا الأصل، والذي هو عُروة الدين الوُثقَى، وشدَّد أيّما تشديد فقال صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده، لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنهَوُنَّ عنِ المنكر، أو لَيُوشِكنَّ اللهُ أن يَبعثَ عليكم عِقابًا منه، ثم تَدعونَه فلا يُستجابَ لكم!»[4] أي وتُصلّون فلا يُتقبَّل منكم لأنّ تركَكم الأمرَ بالمَعروف والنهيَ عن المنكر يَؤول بكم إلى إضاعة الصلاة نفسها، وذلك معنى قول الله ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ، لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ؛ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ! الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ؛

---

[1] خرجه أبو داود في الملاحم والترمذي وابن ماجة وأحمد عن ابن مسعود، وقال الترمذي: حسن غريب.

[2] خرَّجه أبو داود في الملاحم والترمذي وابن حبان وأحمد وصححه الأرناؤوط.

[3] الموطَّأ برواية يحي ح1799، ومن طريقه البيهقي في 'شعب الإيمان' وأبو نُعيم في 'حلية الأولياء'.

[4] حديث حسن خرّجه الترمذي في الفتن وأحمد عن حذيفة بن اليمان.

أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج 40-41] فتركُ الأمرِ والنَّهي يعني موتَ الدين. لذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم «مَن رأى منكم مُنكَرا، فَلْيُغيِّرْه بيده! فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعفُ الإيمان!»[1]

الآن وقد رسخَ في ذهنك جيِّدا أن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر واجبان عليك حتمًا فاعلَم أن الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه!﴾ [الفتح 28] معنى هذا أن سياسة الناس بالحقّ الذي جاء به الرسول من عند الله تعالى فرضٌ على الناس ﴿يَا دَاوُودُ، إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ؛ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ! وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّه! إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّه لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَاب! وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً! ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار! أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ؟! أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟!﴾ [ص 26-28] وقد مضى معَنا أنّ الفوضى ليست مقبولة ولا جائزة في دين الله.

إذًا فمِن حقِّ المسلم بل ومن واجبه أن يتساءَل عمّا يُسمَّى 'العالَمَ الإسلاميَّ' وعن حقيقة هذا المُصطَلَح. والواقعُ يشهَد أنّه لا يوجَد اليومَ مجتَمعٌ يعيش في كنَف الإسلام، لا في المشرق ولا في المغرب ولا في الشمال ولا في الجنوب، إلا أن يكون عبارةً عن شراذم لا نعلَم مَواضعَها، وإلا فما ثَمَّة غيرُ أكاذيب وأوهام. فما مصيرُ المسلمين بين أيدي حُكّام ما سُلِّطوا عليهم إلا عُقوبةً لهم؛ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ؛ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ!﴾ [السجدة 21] وبين ألسُنِ وأقلامِ علماء إمّا عُملاء لأولَئك الحكّام، وإما مُقلِّدةٍ لا يفقَهون أو مجتهدين بغير آلة؟ نعم، ثَمّةَ مُحقّقون علماءُ عاملون، بل ولا يحقّ للأرض أن تخلو من هؤلاء، ولكنّهم خامِلون قليلٌ ما هم وقلَّما يؤبَه لَهم. كيف والحاجة ماسّةٌ جدًّا إلى إصلاحٍ عاجل وجذري وشامل؟!

الله يعلَم أنّه لن يَكون إصلاحٌ بالمَعنى الشَّرعيِّ إلا على أيدي من يعلَمون معناه وسبيلَه، إذ لا إصلاحَ إلا بإقامةِ الصلاة ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا؛ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ.

---

[1] خرجه مسلم في الإيمان وأصحاب السنن وأحمد عن أبي سعيد الخدري.

وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّـــيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون! فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ؛ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ "سَيُغْفَرُ لَنَا!" وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ! أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّه إِلاَّ الْحَقَّ، وَدَرَسُوا مَا فِيه، وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ؛ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟! وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ؛ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِين!﴾ [الأعراف 168-170] أَمْعِن النَّظرَ في هذه الآيات على قِصَرِها، فقد عرضت حالَ المجتمعات التي تدَّعي الإسلامَ، ودلَّتنا دون أدنى شك على أن الْمُصلحين هم الذين يُمسِّكون أنفُسَهم والناسَ بالكتاب، أي يتعلَّمون ويُعلِّمون غيرَهم القرآنَ والسنَّة ويسعَون لإقامة المجتَمع على أساس الصلاة لأن الصَّلاح إنما هو التمسُّك بالكتاب وإقامةُ الصلاة. وما سوى هذا فغرورٌ وتغرير، وإن كان القائلون به أعظمَ الناس عند الناس من علماء أعلام وحُكماء وحكّام.

ولكن، ولله المنّة والحمد، فكثرةُ المبطلين لا تجعل الباطلَ حقًّا كما أن قِلّة المحقين لا تجعل حقَّهم باطلا؛ فرَغبتي في أن أكون من أهل الحق هي التي فرضَت عليَّ جمعَ هذا الكتاب وجعلت من واجبي نشرَه بين الناس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدينُ النصيحةُ!» قالوا: لمن؟ قال «للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم!»[1] وقال لقمانُ لابنه ﴿يَا بُنَيَّ، أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ؛ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ!﴾ [لقمان 17] فعسى أن لا أكون ممّن قال الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ؛ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ!﴾ [البقرة 159] وعسى أن أكون ممّن قال النبي عنهم «لا تزال طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم مَن خذلَهم، حتى يأتِيَ أمرُ الله وهم كذلك!»[2] هذا ما عليَّ. وليَقل الناس ما شاؤوا، فالله تعالى يعلَم أني لست من الْمُتكلِّفين ولا من المتطفِّلين ولا من الفُضوليِّين ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدا؟ قَالُوا: مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُون!!﴾ [الأعراف 164]

[1] خرجه مسلم في الإيمان وأبو داود عن تميم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة والدارمي عن ابن عمر.

[2] خرّجه مسلم في الإمارة وأبو داود والترمذي عن ثوبان مولى رسول الله.

يا ربِّ، قد عظُمَ البلاءُ فنجِّني بعميم عَفْوك من عَذاب النار
إن لَم أَكُن بَرَّ الفَعالِ، فإنّ لي قَولاً يقُضُّ مَضاجعَ الفُجّار!

***

نقول بعد هذا التذكير الوجيز ببديهيّات ديننا الحنيف والتنبيه على واقع الناس المؤسف: اعلم أن الصلاة أصلُ أُصول دين الله تعالى وشعارُ المسلمين المؤمنين؛ بها نُبِّئَ مُحمّدٌ ولإقامتها عُرِجَ به ومن أجلها هاجرَ وبها أوصَى قبلَ وفاته صلى الله عليه وسلّم. فهي مَبدأُ رسالَته وأوسَطُها وآخرُها، هي أوَّل ما يَلزَمُ الْمُكلَّفين، بل والصِّبيانَ قبل التّكليف لقوله صلى الله عليه وسلم «مُروا أولادَكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سنين، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرِّقوا بينهم في الْمَضاجعِ!»[1]

الصلاةُ أوَّلُ ما يُسأل الناسُ عنه يومَ العرض على ربِّ العالَمين كما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «إنّ أولَ ما يُحاسَب به العبدُ بصلاتِه؛ فإن صَلَحت فقد أَفلَحَ وأَنجَح وإن فَسدَت فقد خابَ وخَسِر!»[2] إن كان هذا شأنُ الصلاة بهذه العظمة، فواجبُ كلِّ عاقل أن يَحرِص ويُحافظ عليها مِن سنِّ التمييز إلى أن يُفارِق هذه الحياةَ الدنيا. وإن كان هذا شأنُ الصلاة، فإنه لا يتهاونُ بها مَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر.

فتذكيرًا لنَفسي وتنبيها لبني جنسي جمعتُ ما منَّ الله به وعزمت أن أقدِّمه للمسلمين ولِمَن يظنّ أنه كذلك، وإن كان في الحقيقة مُحادًّا للهِ ورسولِه مُناوِئًا للإسلام مُناهِضًا لأهلِه. هذه خُلاصةُ ما توصَّلت إليه مِن علم بمَوقع الصلاة في دين الله وبعِظَم شأنها عنده تعالى. وما ركبتُ هذا الصَّعبَ إلا بعدَ وُقوفي على عَجز العلماء، والرسميّين منهم خاصَّة، عن فهم الصلاة بسَعة وعُمق وعن بيان حكم الله فيمَن يقول "لا إلهَ إلا الله محمّدٌ رسول الله" وقد جرَّد الدينَ من شَعائرِه وبخاصَّةٍ الصلاة التي هي عموده. حاصلُ ما بلَغه العلماءُ فيما أعلم، أنهم انقسَموا في المسألة فريقَين: فذهب أكثرُهم إلى أن تاركي الصلاة مُسلمون، فهدَموا الدينَ من أساسِه وهم لا

---

[1] رواه أبو داود في الصلاة عن عبد الله بن عَمرٍو والترمذي عن سَبْرَةَ بن مَعْبَدٍ وقال: حسن صحيح.
[2] رواه النسائي في الصلاة عن أبي هريرة والترمذي وابن ماجه، والدارمي عن تميم الداري وصحَّحه.

يشعرون. وصرَّحَ قليلٌ بأنهم كفار، وهو الحقّ، إلا أنّهم أنكروا ما معهم من إيمان، فأحلّوا أعراضًا وأباحوا دماءً قد حرَّمها الله وحرَّموا طيّبات قد أحلَّها تعالى، وهذا خطأ كبير وتعدٍّ لحدود الله. الحاصل أنّه لَم يأت أيٌّ من الفريقين بطائل!

أما الذي تبيَّن لي، بعد أكثر من رُبع قرن من البَحث والتفكُّر، مستلهمًا الله الصوابَ، أنّ تاركَ الصلاة الذي يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" كافرٌ، أي غير مسلم، ولكن يبقَى معه شيءٌ من الإيمان لا يجوز تَجاهُلُه. هو كافر لإبائه الصلاةَ، فلو كان مؤمنًا كفايةً لَما تركَها ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى!﴾ [القيامة 31-32] لَمّا كان التصديقُ التامّ يقتضي منه الصلاةَ حتما، فلا عِلَّةَ لتَولِّيه عنها إلا التكذيبُ؛ فهو بهذا كافرٌ غيرُ مسلِم، لكنّ تكذيبَه ليس مطلَقاً ما دام يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وعليه فإباؤُه الصلاةَ لا يترع عنه مُطلَقَ الإيمان بأصول دين الله العامّة، وإن لم يُصدِّقْه العملُ ويُدخلْه في الإسلام، إلا أنّه يبقَى من جنس الإيمان ولا يَحقُّ لأحدٍ إنكارُه بدليل قول الله تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ﴾ أيًّا كان مِقدارُه ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ هو، وكَفر هو، ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ!﴾ [المائدة 5]

أهل السنَّة والجماعة لا يَسْلُبونَ الفاسق مُطلَق الإيمان مع أنَّ الله سمّاه كافرًا في مواضع من القرآن كقوله ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة 99] وقوله تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور 55] فالفاسق الذي يُقرُّ بأصول الدين ولا ينكرُها جملةً يبقَى محتَفظا بقدرٍ من الإيمان مهما قلَّ، ولا ينبَغي، بل ولا يحلُّ لغيره أن يُعْرِيَه من إيمانه ذاك. فكذلك تارك الصلاة ليس معه من الإيمان ما يجعلُه مسلمًا لأنَّ الله قد سلبَه هذا الوصفَ وأمر بذلك رسولَه والمؤمنين، فهو خارج عن دائرة الإسلام وإن نطق بالشهادتين صادقا، لكنَّه لَم يخرج من دائرة الإيمان المطلَق لما بقي معه من تصديق. وتلك بالضَّبط حال أهل الكتاب؛ يؤمنون بالله ويُقرّون بالتَّوحيد ويعظِّمون أنبياءَهم ولكنَّهم لا يعبؤون بشعائر الله ولا يحترمون شرائعه تعالى. وعليه فتاركُ الصلاة الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يُعدُّ من أهل الكتاب وكِتابُه القرآن، لكنَّه اتّخذه ظِهريًّا؛ كما فعل اليهودُ بالتوراة والنصارى بالإنجيل.

كان هذا الفَهم بديهيًّا في صَدر الإسلام ولكنّه غابَ مُنذ دُهور، منذُ أن عُطِّلَ الحكمُ بالقرآن والعملُ بالسنّة. فاستدعى التذكيرُ به جُهدا واقتَضَى تجديدُه تلطُّفا فجاء الكتابُ في فصول أوّلُها بيان مَوقع الصلاة من دين الله، حيث أوردتُ الأدلّةَ في ضرورَتها وأفضليَّتها على سائر العبادات وكيف أنها شَملَت الدينَ كلَّه، ثم تطرَّقت إلى بيان فرضِها ومعنى إقامَتها. ثم بيَّنت كراهة أعداء الله من بني آدم لها وحِرصَ الشيطان على الصدِّ عنها، لعلمه بأنها الْمِعراجُ الذي يرتقي عليه الإنسان بتلاوة القرآن إلى حضرة الرحمن. ثم عمَدتُ إلى مناقشة نصٍّ جاء في كتاب فقه مُعتمَد، حاصلُه أن "تارك الصلاة مسلم ولكنه يجب قتلُه!" لَعمري إن هذا لَقول مُستَغرَب مِن أوّل وَهلة، وإن كان قد سُبِق صاحبُه إليه وتوبِع عليه. فعَرضتُه على كتاب الله فإذا به يُعارِض صريحَه، ثم قابلتُه بسُنة النبي فألفَيته مُخالِفًا لصحيحها، ثم وجدته على غير هَديِ الصحابة، بل هو نَقضٌ لأقوال أفرادهم وخرقٌ لإجماعهم، ثم تتبّعت ما فيه من نُقول عن العلماء فإذا جلُّها عكسٌ لِما بلغنا عنهم ولما في كُتُبهم التي بين أيدينا. ثم فصَّلت بعد ذلك ما بانَ لي من خلال دراستي للقرآن والسنة وهَدي الصحابة في حُكم تاركي الصلاة الذين يأتون بالشهادتين وأنَّهم كفّارٌ ولكنّ شهادتهم وعدمَ إنكارهم لِما جاء به محمّدٌ من عند ربِّه يَضمَن لهم في الدنيا حُرمةَ أهلِ الكتاب، ويوجب على المسلمين تجاهُهم أن يتبرَّؤوا منهم أوَّلا ويُقصوهم من دائرة الإسلام، ثم أن يدعوهم إلى دين الله من جديد كما فعل النبي مع اليهود والنصارى وفْقَ قولِ الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ! إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ!﴾ [النحل 125]

فهاك كتابا بديعا على غير مِنوال، عُمدتُه الكتاب والسنّة دون سائر الأقوال، لَم أقلِّد فيه أحدا لا مِن القُدماء ولا مَن دونهم، و لم أعتَمد مذْهبًا ولَم أُقصِ من علماء المسلمين أحدا، و لم ألتَزم غيرَ القرآن والسنَّة مُعتَمدا على العزيز الوهاب في إصابة الصّواب. جمعت فيه من شتّى العلوم ووشَّيتُه بالحِكم والأشعار وحلَّيتُه بآثار الصحابة الأبرار للاستِشهاد والاستبصار وبأقوال العلماء الكبار للاعتضاد والاعتِبار، وبكلام أصحاب الشُّهود العارفين الذين جاهدوا حقَّ الجهاد وتخلَّصوا من

الأغيار فأنطَقَهم ربّ العباد بما غاب عن الأفكار وسمَّيتُه '**قدر الصلاة ولحوق تاركيها بأهل الكتاب**'.

قيل "مَن صنَّف فقد استُهدف" وقيل "من وضع كتابا فقد جعل عَقْلَه على طَبَقٍ يَعْرِضُه على الناس"؛ ذاك مصير كل كاتب وكتاب. فلا غَروَ أن لا يسلَم هذا المجموع ولا جامعُه من قَدح ومَدح، ذلك لما سيُثير من حفيظَة مَن اطَّلع عليه من العامَّة والعلماء على مُختَلف مَشاربهم. لا شكّ أنَّه سيتعرَّض لسِهام المفسّرين والمحدِّثين والأصوليّين والفقهاء والمتصوِّفة والمُتكلِّمين وأصحاب الفِرق والمؤرّخين والطبيعيين والسياسيين، المتديِّنين منهم والعلمانيين، وغيرهم، لما تطرَّق إليه من علوم تخصُّ كلاًّ منهم من دون سلوك مذاهبهم، مع مُقارعتهم في مَيادينهم وجدالِهم في يقينيّاتهم وأصولهم وفروعهم وردِّ نتائجهم عليهم. على أني لا أدَّعي علمًا ولكنّني طالبُه، وما قصدتُ بهذا التصنيف غيرَ تحصيل ما لا بدَّ لي منه.

أمّا مَن نوّر الله قلبَه فسينعَم بقراءته ويغنم ويَقرّ به عينا، ومن علامات ذلك وبشائره أنّي كنتُ بالقَيرَوان والكتابُ على وشَك الانتهاء، فقصدتُ مكتبةً ودخل على أثري أحدُ المَجاذيب فأخذ كتابًا يتصفّحه، فانتهرَته صاحبةُ المكتبة فقال بلَهجته "لا، باشْ يحُطّه هذا في كْتابه!"[1] وأشار إليّ وإلى عبارَة في الكتاب الذي بيده، فنظَرتُ فإذا هي "التفكُّر يُحرِّر من التبَعيّة" ثم خرج هارباً، فلقيتُه بعد أيام في بعض الأزِقّة فسألته عن اسمه قال "سِيري!" فهاتان سانحتا خير، تُنبئان بأن هذا المكتوب محرَّر للّه وأنَّه سيسير بإذنه تعالى ليَفُكَّ أُناسا، مهما قلّوا عددا، من قَيد التقليد ويُسرِّحم من أَسْر الهوى والغفلة والغُرور والجهل، ليرفُلوا في فُسحَة رحمة الله ونور الحقّ وعبودية الخالق ﴿قُلْ: بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِه، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا؛ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُون!﴾ [يونس 58]

وأخيرا فهذه نصيحتي لَمن طالَع هذا المجموع: فقد أخبرني إجازةً محمّد بن علَوي بن عباس المالِكي المكّي عن أبيه قراءةً على عمَر حَمدان قراءةً على محمد علي الوَتري عن أحمد العَدوي عن محمد الأمير الكبير عن علي بن محمد العربي السقاط عن إبراهيم الفيّومي عن أحمد الفرقاوي

[1] أي "لا –تُؤاخذيني– ولكن لكي يَضع هذا في كتابه!" فها أنا ذا قد وضعتُه.

عن علي الأجهوري عن علي القَرافي عن عبد الرحمن السُّيوطي عن علَم الدين البُلقيني عن إبراهيم التَّنوخي عن سليمان بن حمزة عن علي بن الحسين بن المقير عن محمد بن ناصر السلامي عن أبي القاسم عبد الرحمن بن مَندَه عن أبي بكر محمد بن عبد الله عن أبي حاتِم مَكّي بن عَبدان النَّيسابوري عن أبي الحسين مسلم بن الحجّاج القُشَيري قال: حدَّثنا أبو جعفر محمد بن الصباح حدثنا إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حدثنا أبي عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن أَحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ!»[1] أي مَن جاء في الدين بغير ما شرَعه الله وبيَّنه رسولُه فقد خالَف أمرَه، ولا يقبَلُ الله منه عملَه ذاك بل ويؤاخِذه تعالى عليه يومَ القيامة أشدَّ مؤاخَذة، فالحذَرَ الحذَر!

لكنّني أرجو ممَّن وقع بيَده هذا المجموع أن يتريَّث إن صادمَه قولٌ لَم يخطُر له ببال من ذي قبلُ، ففيه مواضيعُ لَم يُتطرَّق إليها فيما أعلَم، وخلافُ ما ألِفَه الناس في مُعظَم الأحيان، فَليصبرْ إلى حين ينتَهي مِن قِراءَته. لا يعني هذا أن يأخذَ بكل ما فيه، فإنّي أوَّل مَن يعلَم أنّه لن يخْلُوَ من غَلط وخطأ وخطَل وزَلل وباطل ووَهْم مهما تحرَّيتُ إصابةَ الحقّ وادَّعَيتُ الفَهْم، فتلك حال كل الكُتب وليس يسلَم عملُ بشر من عيب أبدا. أما الكتاب الوحيد الذي ﴿لاَ يَأْتِيه الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ فهو القرآن الكريم لأنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيد!﴾ [فُصّلت 42] سبحانَه وتعالى. لذا فإنّي أبرأ إلى الله عزّ وجلّ ممَّن أخذَ بخطَئي، وأرجو أن أكون مأجورا على نيّتي واجتهادي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجتَهَدَ ثم أصابَ فله أجران وإذا حَكم فاجتهد ثم أَخطَأ فله أجر!»[2]

ثم اعلَم أخيرًا أن كلّ مَن حَسُنت نيَّتُه مع الله وأخذ ما اطمأنَّ إليه بدليله وترَك ما عداه فقد اجتَهد. فاتَّخِذ أيُّها القارئُ اللَّبيبُ معي مَسلَكًا للتحرُّر من التبعيّة وللنجاة من وَرطة التقليد، ومَنهَجا لعلم الدين بفهم قدر الصلاة وتعظيمها، وحافِزًا لطلب مَزيدِ علمٍ من معادنه، بتدبُّر آيات

[1] خرّجه مسلم في الأقضية وابن ماجه، ورواه البخاري وأبو داود بلفظ «ما ليس فيه».

[2] خرّجه البخاري في الاعتصام ومسلم وأبو داود وأحمد عن عمرو بن العاص.

القرآن وتتبُّع السُّنة التي أنقُلها لك مَع تحرّي ثُبوتِها قدرَ الطّاقة، حتى نكونَ شريكَين في الاجتهاد والأجرِ لا في التَّقليد والوِزر. فخُذ ما ترضاه لعقلِك ودينك وقلْ لي:

كلامُك الفاسِد لستُ أتَّبِع؛ حَدُّ الكلامِ ما أفاد الْمُستَمِع!

وقد صدَقتَ، فلا تأخُذ من أقوالي غيرَ ما ترضَى أن تلقَى به ربَّك تعالى:

فافتحْ لَها بابَ قَبول يُجتَلَى وإن تَجدْ عَيباً فسُدَّ الخَللا!

واعلم أن الرَّحمة كامنة في اقتِفاء أثر محمَّد صلى الله عليه وسلَّم بالاتباع والعذابُ في الصدِّ عن هَديِه والابتداع، والعلمُ ما قال الله وقال الرسولُ وأجمع عليه الصحابةُ، رضي الله عنهم، ونحن لهم تَبعٌ في أدبهم مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلّم؛ قال الله تعالى ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ! فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ؛ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف 156-157].

لذا فاللهَ أسألُ أن يكون ما خطَّه بَناني مُوافقا لما عقَله جَناني من نَصّ قرآني وحديث عدناني، بنيّة حسنة وسريرة سليمة وصِدق عزيمة؛ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ تقليدًا للغير بلا دليل ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ من قرآن ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ وبين أيديكم سُنَّتُه ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ فيلزَمْ الكتابَ ويعَضَّ على السنّة ويتوكَّل على الله ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ!﴾ [آل عمران 101] فما كان من صواب فمِن الله والحمد لله، وما كان من خطأ فمنّي واللهُ ورسولُه منه براءٌ.

"وصلَّى الله على نَبيِّنا مُحمَّد كُلَّما ذكرَه الذاكِرون وغَفَل عن ذِكره الغافلون. وصلَّى عليه في الأوَّلين والآخرين أفضلَ وأكثرَ وأزكَى ما صلَّى على أَحدٍ مِن خَلقه، وزكَّانا وإيّاكم بالصّلاة عليه أفضلَ ما زكَّى أحدًا من أمَّته بصلاته عليه، والسلامُ عليه ورحمةُ الله وبركاتُه. وجَزاه اللهُ عنّا أفضلَ ما جَزَى مُرسَلاً عَمَّن أُرسِل إليه، فإنّه أنقذَنا به من الْهَلَكة وجعلَنا في خير أمَّة أُخرجت للناس، دائنين بدينِه الذي ارتضَى واصطفَى به ملائكتَه ومَن أنعم عليه مِن خَلقِه؛ فلَم تُمسِ بنا نِعمَةٌ ظَهرَت ولا بَطَنَتْ، نِلْنا بها حَظًّا في دينٍ ودُنيا، أو دُفِع بها عنّا مَكروهٌ فيهما وفي واحدٍ منهما، إلاّ ومُحمَّدٌ صلى الله عليه سَبَبُها، القائدُ إلى خَيرِها والهادي إلى رُشدِها، الذَّائدُ عنِ الْهَلَكة

ومَوارِدِ السُّوءِ في خِلافِ الرُّشْد، الْمُنبِّهُ للأسباب التي تُورِدُ الْهَلَكَةَ، القائمُ بالنّصيحَة في الإرشادِ والإنذارِ فيها. فصلَّى الله على محمد، وعلى آل محمد كما صلّى على آل إبراهيم إنه حَميدٌ مَجيد!"[1]

[1] قاله محمد بن إدريس الشافعي في 'الرسالة' ص107، طبعة أحمد شاكر.

فضل الصلاة

الحمد لله خالق الإنسان من عدم فمنه سعيدٌ وشقيّ في القِدم، أغدق في الدنيا على ذا وذاك من النِّعم، فلَم يمنعه كُفر الكافر من اتِّصافه بالكرم، ثم يوم القيامة يجزي ذا بالجنَّة ويَزجُّ بذاك في جهنَّم. أحمدُه حمدَ مَن آمن بالغيب لا بالظنّ رجَم، مَن عرفَ آلاءَه وفضلَه وصدَّق بكتابه المنزَّل الأكرم وبرُسله المبعوثين بالدين الأقوم في سائر الأمم.

وأشهد أن لا إلهَ إلا الله الرحمنُ الرحيم السميعُ العليم الحليمُ الكريم العليُّ العظيم العزيزُ الحكيم الحيُّ القيوم العدْلُ الحكَم، وأشهد أن محمدا خيرَ ولد آدم عبدُه ورسولُه الأشفَقُ الأرحم أرسلَه رحمةً للعالَمين للعرب والعجم فأكملَ به الدين والنِّعمةَ أتمّ، مَن اتَّبعه وسلَّم فقد آمَن وأسلَم وإلا فقد كفرَ وظلم، ومَن نأَى عن سنَّته فالدينَ هدَم جهلَ ذلك أو عَلم.

﴿حـــم عـــســـق؛ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ! لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ! تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ، وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ؛ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ!﴾ [الشورى 1-5] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ! وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا؛ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا! وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ: صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ؛ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ!﴾ [الشورى 51-53] فصلِّ اللهمّ عليه وملائكتُك والمؤمنون وأنا صلاةً تُبلِّغنا صراطَك المستقيم ما دُمنا نسير على الأديم، وننجوا بها من عذاب الجحيم وننال بها النعيم المقيم إنّك أنت الرؤوف الرحيم وسلّم تسليما نسلَم به من كيد الشيطان الرجيم إنّك أنت السميع العليم.

أمّا بعد، قد علِمتَ ممّا سبق أصولَ الدين الإسلامي كما أظهرها القرآن وبيَّنتها السنَّة ووفقًا لفَهم الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، وأنَّ لُبَّه وقِشرَه إنما هو عبادَة الله تعالى كما جاء بها

رسولُه محمَّد صلى الله عليه وسلَّم. فاعلَم أنَّ الصلاةَ قد عمَّت الخلقَ كلَّهم عُلْوِيَّهم وسافِلَهم، مُطيعَهم وعاصيَهم، حيَّهم وجمادَهم، ظاهرَهم وغائبَهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؟! وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أجنحتَها ﴿كُلٌّ﴾ من تلك المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ!﴾ [النور 41] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا﴾ أي كلُّ شيءٍ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ!﴾ [الحديد1] بل السموات ذاتُها تسبِّح لله وكذا الأرض وذاك قولُه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ! وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ!﴾ [الإسراء44] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ؟! وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ، وَالْمَلاَئِكَةُ، وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ؛ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ!﴾ [النحل 48-50]

بلغنا عن أبي ذر الغفاري أنه قال: إني لشاهِدٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم في حلقة وفي يده حَصَياتٌ؛ فسبَّحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، يَسمع تسبيحَهنّ مَن في الحلقة. ثم دفعَهنّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر، فسبَّحن مع أبي بكر، يسمع تسبيحهن مَن في الحلقة. ثم دفعهن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمر، فسبحن في يده، يسمع تسبيحَهنّ من في الحلقة. ثم دفعهن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عُثمانَ، فسبحْن في يده. ثم دفعهن صلى الله عليه وسلم إلينا، فلَم يُسبِّحن مع أحد منّا![1] ولكن انتبِه جيّدا، فليست المُعْجزة في تسبيح الحصى، فالله تعالى يقول ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ!﴾ [الإسراء44] ولكنَّ المُعْجزة في سَماعِ الصحابةِ تسبيحَ الحصَى بآذانهم وفقهِهم لذلك التسبيح، أي فهمهم له، ببركة المصطفى. والحديثُ من أعلام نبوَّة محمَّد صلى الله عليه وسلَّم.

فالحاصل أنَّه ما من شيء إلا ويسبِّح لله وما من شيء إلا ويسجُد له تعالى، ذلك لأنَّ التسبيح والسجود، أي الصلاة، هي الحكمة من إيجاد الخلق كلِّهم. وهي عمادُ الدين الذي لا تقوم له

[1] خرجه أبو نعيم في 'دلائل النبوّة' ح327، وقال الهيثمي في 'مجمع الزوائد' ح8924: رواه الطبراني في الأوسط، وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة وإسناده صحيح.

قائمة بدونها، وأنَّها عينُ العبادةِ لما أولاها الله تعالى من قدر عظيم ولما حوت من الدين أوفَر الحُظوظ وجمعت منه أعلى المَقاصِد، ولما استَغرَقت من حياة العبد المسلم أوفر الاجتهاد وأوفَى المحافظة وأصفَى الأوقات.

هذا الذكر إنما هو صلاة، قال الله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ!﴾ [النساء 103] وقد بلغنا عن عبد الله بن مسعود أنه رأى الناسَ يَضُجُّون بالذِّكر والدُّعاء في المسجد، فقال "ما هذه الضَّجّة؟" قالوا "أليس الله تعالى يقول ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾؟" قال "إنّما يعني بهذا الصلاةَ المكتوبة؛ إن لم تستَطِعْ قائمًا فقاعدًا، وإن لم تَستطِعْ فَصلِّ على جَنبِك!" فالمرادُ بذكر الله في الآية نفسُ الصلاةِ، لأنّ الصلاة ذكرٌ للهِ تعالى وقد اشتملت على الأذكار المفروضة والمسنونة.[1] وإلى ذلك يشير ما بلغنا عن محمد بن كعب القرظي، قال: لو رُخِّص لأحد في ترك الذكر لرُخص لزكريا عليه السلام، قال الله تعالى ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا، وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران 41] ولو رخِّص لأحد في ترك الذكر لرُخّص للذين يقاتلون في سبيل الله، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال 45][2] أي أنَّه لا رُخصة لأحد في ترك الصلاة لأنَّها الذكرُ الذي جاء به النبي من عند الله تعالى.

والأدلَّة على هذا كثيرةٌ لَمن نوَّر الله عقلَه وسلَّم قلبَه من الشهوات والشبُهات، فمِن ذلك قوله تبارك وتعالى لنبيِّه ولنا من بعده ﴿قُلْ: أَنَدْعُو﴾ أي أنَعبُدُ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا؟! وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ فنَكفُر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ إلى الإسلام المتمثّل في إقامة الصلاة، فنكونَ ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ أي هوَت به في الضلال ﴿الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ﴾ حتَّى تيَّهته وبقيَ ﴿حَيْرَانَ﴾ لا يدري أين هو، وإن كان قد بقيَ ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ على الحقّ ظاهرون ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ فيقولون له ﴿ائْتِنَا!﴾ ولكنَّه لا يجيبُهم لكثرة ما يرِد عليه من دُعاة الضلال من حولِه، لا يفرِّق بين

---

[1] قاله القُرطُبي في 'الجامع لأحكام القرآن' ج5-ص374، عالم الكتب، الرياض.

[2] 'حلية الأولياء' ج3-ص215.

دعوة الحق ودعوة الباطل فيتَّبع هواه بغير هدًى من الله تعالى ﴿قُلْ: إِنَّ هُدَى اللَّه هُوَ الْهُدَى!﴾ لا هُدى غيرُه وما دونَه غيٌّ ﴿وَأُمِرْنَا﴾ باتِّباع هدى الله لا غير ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لكي نكون على الإسلام حقيقةً، ثمَّ بيَّن حقيقة الإسلام لربّ العالَمين فقال ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذي إِلَيْه تُحْشَرُونَ!﴾ [الأنعام 71-72] فإقامةُ الصلاة والتقوى هما الإسلامُ الذي هو الدينُ عند الله ولا يقبَل غيرَه.

ذاك هو الهدى وتلك هي سبيلُ المؤمنين من النبيِّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ﴿الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبسُوا إِيمَانَهُمْ بظُلْمٍ﴾ فلَم يكفُروا و لم يُشرِكوا ولَم يبدِّلوا، بل آمنوا واتَّبعوا هدى الله فـ﴿أُولَئكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ!﴾ حقيقةً ﴿وَتلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمه﴾ حيث بيَّن لهم بأنَّ الآمنون حقًّا إنّما هم المؤمنون حقًّا، وأنَّ ذلك من فضل الله القائلِ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ!﴾ بمَن هو أهلٌ للهدى أو الضلال ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، كُلاًّ هَدَيْنَا، وَنُوحًا هَدَيْنَا من قَبْلُ!﴾ من قبل إبراهيمَ ﴿وَ﴾ هدينا ﴿من ذُرِّيَّته دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ؛ وَكَذَلكَ نَجْزِي الْمُحْسنينَ! وَ﴾ هدينا ﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعيسَى وَإِلْيَاسَ؛ كُلٌّ منَ الصَّالِحينَ! وَ﴾ هدينا ﴿إِسْمَاعيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا؛ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمينَ! وَ﴾ هدينا ﴿منْ آبَائهمْ وَذُرِّيَّاتهمْ وَإِخْوَانهمْ؛ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صرَاط مُّسْتَقيمٍ!﴾ ثم كرَّر ليبيِّن حقيقةَ الهُدى فقال ﴿ذَلكَ هُدَى اللَّه: يَهْدي به مَن يَشَاءُ منْ عبَاده! وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ فجاؤوا بالأعمال الظاهرة على وجهها ولكن شابوها بشرك فإنَّ الله لا يقبَل إلا ما كان صوابًا خالصًا ﴿لَحَبطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ! أُولَئكَ﴾ المذكورون هنا هم ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ!﴾ فاتَّبعوا سبيلَهم ﴿فَإِن يَكْفُرْ بهَا هَؤُلاَءِ﴾ الذين ذكَرهم من قبل أي ﴿الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَعبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا!﴾ [الأنعام 70] فأضاعوا الدينَ واتَّبعوا غيرَ سبيل النبيِّين ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بهَا بكَافرينَ!﴾ فأبقى الله على الأرض صالحين على مرِّ السنين، إنَّما ﴿أُولَئكَ﴾ الأنبياء المذكورون هنا هم ﴿الَّذينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فجمعوا الصواب إلى الإخلاص والشُّكرَ مع الصبر والخوف مع الرجاء ﴿فَبهُدَاهُمُ اقْتَدهْ!﴾ الهاء في ﴿اقْتَدهْ﴾

زائدة للوَقف، و لم يقل "بهم اقتَدِ" ولكن بهُداهم أي بعَملهم الذي وُفِّقوا فيه فوافق الشَّرع، ومنهاجهم الذي سلكوه إلى مرضاة الله، فالاتِّباع لا يكون أبدا للأشخاص لكن لأعمالهم، فتبيَّن أنَّ التقليد باطل باطل، و﴿قُلْ﴾ للّذين اقتدَوا بك بدورهم واتَّبَعوا سبيلَك إلى يوم الدين فأفلحوا وأنجَحوا ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا! إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ!﴾ [الأنعام 82-90]

يقولُ الله تبارك وتعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ، وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ثم التفتَ فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اُذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا﴾ مُطلَقًا ﴿كَثِيرًا﴾ لا حدَّ له ولا قيْد وهو صلاة النافلة ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وصلّوا الفرائض المُقيَّدة بالجماعة والأوقات الخَمْس في مواقيتها ومواضعها، لأن الله في الحقيقة ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ باسمه تعالى 'الرحمانِ' ﴿وَمَلائِكَتُهُ﴾ يصلّون عليكم ويدْعون لكم ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ الله عزّ وجلّ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الطبيعيّة كالشهوات والعقلية كالشُّبُهات ﴿إِلَى النُّورِ﴾ والصلاةُ نورٌ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَانَ﴾ اللهُ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ للرحمانيّة التي يصلّي تعالى بها على الذين آمنوا؛ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ في صلاةٍ أحسَنوا أداءَها ﴿سَلاَمٌ﴾ يُحيِّي به بعضُهم بعضًا في حياتهم الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ في الآخرة، ثم رجع تعالى إلى مُخاطبة النبي صلى الله عليه وسلّم فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ فالنبي من نور الله ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا!﴾ [الأحزاب 40-47] مُعيَّناً إذا هم صلّوا كما يجب، وسيأتي بيان هذا الفضل آخرَ الكتاب إن شاء الله تعالى.

الصلاة شرعًا هي ما يعلَمه كلُّ مسلم، ولكنَّ العلماء اختلفوا في معناها اللغوي وممَّ اشتُقَّ اسمُها. فمنهم مَن قال أنّها الدعاء فسميت الصلاة صلاةً لما فيها من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاءً معروفة في كلام العرب. ومنهم من قال أنها سميت بذلك من الرحمة كما في قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب 56] أي أنَّه منه تعالى رحمةٌ ومن الملائكة استغفارٌ ومن الناس دعاء، كما بلغنا عن عبد الله بن أبي أوفَى قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال «اللهمَّ صلِّ على آل فلان!» فأتاه أبي بصدقته فقال «اللهم صَلِّ على آل أبي

أوفى!»[1] أي ارحمهم وذلك بأمر من الله تعالى إذ قال له ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ؛ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة 103] أي يسمَع دعاءَك لهم ويعلَم ما ينفَعُهم. وقيل سميت الصلاة صلاةً لأنّها تبعث على الاستقامة من قولهم "صَلَّيتَ العود على النار" إذا قوَّمتَه، والصلاة تُقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه قال الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ!﴾ [العنكبوت 45] أي أنَّ الصلاة التي يسمِّيها الله صلاةً ويتقبَّلها إنَّما هي تلك التي تنهى عن الفحشاء والمنكَر، وهذا منعى ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «مَن لَم تَنهَه صلاتُه عن الفَحشاءِ والْمُنكَر لم يَزدَدْ من الله إلاّ بُعدا!»[2] وبلغنا عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم إني أعوذ بك من صلاة لا تنفع»[3]

وقيل سميت الصلاة صلاةً لأنها صِلَة بين العبد وربه كما بلغنا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عَلَمُ الإيمانِ الصلاةُ؛ فمَن فرَّغ لَها قلبَه وحَادَ عليها بِحَدِّها ووَقتِها وسُنَنِها فهو مُؤمن!»[4] أصل العَلَم الجبَل، ثم قيل علَمٌ لكلِّ علامَة لا تَخفَى، والمؤمن هو مَن كان مَوصولاً بالله لا يقوم ولا يقعُد إلا وهو يراقب ربَّه تعالى. وقيل الصلاة مأخوذة من الصَّلا وهو ما عن يَمين ذَنَبِ الفَرَس وشِمالِه، ويقال "صَلَّى الفَرَسُ" إذا جاء مُصَلِّياً أي تاليًا للفرس

---

[1] خرّجه البخاري في الزكاة وباقي الجماعة غير الترمذي.

[2] أورده الهيثمي في ’مجمع الزوائد‘ ح3557 وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة ولكنه مدلِّس. وقال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا بإسناد صحيح ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود "من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر" وإسناده صحيح. ’إحياء علوم الدين‘ ج1-ص150، دار االمعرفة، بيروت.

[3] خرَّجه أبو داود في الاستعاذة آخر كتاب الصلاة وابن حبان وصحَّحه الأرناؤوط.

[4] خرجه أبو نعيم الأصبهاني في ’أخبار أصبهان‘ ح1530 المروزي في ’تعظيم قدر الصلاة‘ والقُضاعي في ’مسند الشهاب‘.

الذي أنهى السباق أوَّلا أي قبل غيره، فذاك السابق والذي يليه هو المُصلّي. قال الصاحب ابن عبّاد: إذا جاء الفرَس على أثَر الفرس قيل: صلَّى وجاء مُصلِّيا؛ لأن رأسَه عند صَلا السابق، وقيل: الصلا ما حول الذنَب عن يمينه وشماله.[1]

هذا ما أعلَمه ممّا قيل في اشتقاق لفظَة 'صلاة' وأمَّا عن مدلولها الشرعي وفضلِها فقد بلغنا عن حُمران بن أبان مولى عثمان بن عفان عن عثمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مَن علِم أن الصلاة عليه حقٌّ واجبٌ؛ دخلَ الجنة!»[2] والعلمُ يقتضي العمل، فمَن علم أن الصلاة حقٌّ لله واجبٌ على العباد فقام بها كما شرع تعالى على لسان نبيِّه محمَّد دخل الجنَّة، وهذا يبيّن حديث معاذ حيث قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا معاذُ، هل تدري حقَّ الله على عباده وما حقُّ العباد على الله؟» قلت "الله ورسوله أعلم" قال «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحقُّ العباد على الله أن لا يعذِّب مَن لا يشرك به شيئا!»[3] والصلاة هي أعظم العبادات. ولقد شبّهَ رسول الله الدين بالجِسم والصلاة عمودُه، منها يتفرّع وعليها يرتكز كالعمود الفقَري للجسد؛ عليه يعتمد الرّأسُ وبه يستوي الظّهر والبَطن، به تتعلَّق الأحشاء ومنه تتفرّع الأعضاء. وإليه يشير قول الله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى؛ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ بإقامة الصلاة ﴿وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى 13] والْزَموا الجماعة التي أسَّسها النبي صلى الله عليه وسلّم بإذن الله تعالى ولا تُفارقوها!

فعن مُعاذ بن جبل قال: كنتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في سَفَرٍ، فأصبحتُ يومًا قريبًا منه ونحن نَسيرُ، فقلتُ "يا رسولَ الله، أخبرْني بعَمل يُدخلُني الجنةَ ويُباعِدُني عن النار!" قال «لقد سألتَني عَن عَظيم، وإنه ليَسيرٌ على مَن يسَّرَه الله عليه: تَعبدُ اللهَ ولا تشركُ به شيئا؛ وتقيمُ الصلاة

[1] 'المحيط في اللغة'، حرف الصاد، باب المضاعف: الصاد واللام.

[2] خرَّجه الحاكم في الإيمان وأحمد والبيهقي في 'الكبرى' وابن خزيمة في 'التوحيد' والبزار وقال الهيثمي ح1595 رجاله موثقون.

[3] خرجه البخاري في الجهاد ومسلم وغيرُهما.

وتُؤتِي الزكاةَ وتصومُ رمضانَ وتَحُجُّ البيتَ!» ثم قال «ألاَ، أدلُّك على أبواب الخير؛ الصَّومُ جُنَّة والصدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ كما يطفِئ الماءُ النارَ. وصلاةُ الرّجُل من جَوْف الليل!» ثم تلا قول الله تعالى ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ الْمَضَاجِعِ، يَدْعُونَ رَبّهمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة 16] ثم قال «ألا أُخبرُك برأس الأمر كلِّه وعَموده وذِرْوَةِ سَنامه؟» قلتُ "بلى يا رسولَ الله!" قال «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعَمودُه الصلاةُ، وذِروةُ سَنامه الجهاد» ثم قال «ألا أُخبرك بملاك ذلك كلِّه؟» قلتُ "بلى يا نبيَّ الله!" فأَخذَ بلسانه قال «كُفَّ عليك هذا!» فقلتُ "يا نبيَّ الله، وإنَّا لَمُؤَاخَذون بما نتكلَّم به؟" فقال «ثَكلَتْك أمُّك يا معاذُ، وهَل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلاَّ حَصائدُ أَلسِنتِهم؟!»[1] هذه العبارة الأخيرة بديعة جدًّا وفي غاية القوّة، فكأنّ الناسَ يأتون يومَ القيامَة وآثامُهم القوليّة مُعلَّقةٌ بألسِنتِهم فيَكُبُّهم ثِقَلُها في نار جهنّم. وَاحْفَظ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد سألتَني عَن عَظيم، وإنه ليَسيرٌ على مَن يسَّرَه الله عليه!» فالدين يُسرٌ وهو سعيٌ وتوكُّل كما بيَّنه قال سهل بن عبد الله التُّستَري: مَن طعَن في التوكُّل فقد طَعَن في الإيمان! ومَن طعن في التَّكَسُّب فقد طعن في السنة![2]

الصلاةُ أكثرُ وأجلّ وأَوْجَب ما فرضَ الله على عباده، ذلك لأنها أحبُّ الطاعات إليه تعالى. ولكَم جاء في السنَّة ما يدلُّ على عِظَم شأنِها، فعن مَعدان بن أبي طلحة اليَعمَري قال: لَقِيتُ ثَوبانَ مولَى رسول الله، فقلتُ "أخبِرْني بأحَبِّ الأعمال إلى الله!" فسَكتَ، ثم سألتُه فسكت ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «عليك بكثرة السُّجود؛ لله فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ عنك بها خطيئة!»[3] وعن ثَوْبانَ أيضا أنه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول «سَدِّدوا وقارِبوا واعلَموا أن خيرَ عملِكم الصلاةُ!»[4]

---

[1] خرجه التِّرمذي في الإيمان وصحّحه، ورواه ابن ماجه وأحمد وصححه الأرناؤوط.

[2] 'حلية الأولياء' ج10-ص195.

[3] خرجه مسلم في الصلاة والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد.

[4] خرجه الدارِمي في الطهارة وابن ماجه وأحمد ومحمد بن نصر في 'الصلاة'.

وقال عبد الله بن مسعود: سألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم "أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟" قال «الصلاةُ على وقتِها» قلتُ "ثم أيٌّ؟" قال «بِرُّ الوالِدَيْن» قلتُ "ثم أيٌّ؟" قال «الجِهادُ في سبيل الله»، قال: حدَّثني بِهنَّ، ولو استَزَدتُه لزادَني![1] وعن عبد الله بن عمرو أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله عن أفضل الأعمال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلاة» قال "ثم مَهْ؟" قال «ثم الصلاة» قال "ثم مه؟" قال «ثم الصلاة» ثلاث مرات، قال "ثم مَه؟" قال «ثم الجهاد في سبيل الله» قال "فإن لي والدين" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «آمرُك بوالديك خيرا» فقال "والذي بعثك نبياً لأجاهِدنَّ ولأتركنَّهما!" فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم «فأنت أعلم!»[2] قوله "ثم مه؟" هي ما الاستفهامية وُصلت بِهاء السَّكْت؛ أي "ثم ماذا؟"، وليست مَهْ اسم الفعل للزَّجر بمعنى: اُكفُفْ أو اسكُت.

فانظُر كيف تركه النبي على اجتهاده في تقديم الجهاد على برّ الوالدين، ولو أنّه قال "لأجاهِدنَّ ولأتركنَّها" يعني الصلاة لما قبل ذلك منه، فإنّه لا إسلام بغير صلاة. ويدلُّ عليه ما بلغنا عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص أن وَفْد ثَقيف قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلَهم المسجد ليكونَ أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يُحْشَروا ولا يُعْشَروا ولا يُجَبَّوا ولا يُستعمَلَ عليهم غيرُهم، فقال النبي «إن لكم أن لا تحشَروا ولا تعشَروا ولا يُستعمل عليكم غيرُكم» وقال صلى الله عليه وسلم «لا خيرَ في دين لا ركوع فيه» قال وقال عثمان بن أبي العاص "يا رسولَ الله، علِّمني القرآن واجعلني إمامَ قومي".[3] قولُه: يُحْشَروا بمعنى يُجمَعوا أي للجهاد، ويُعْشَروا أن تؤخذ عُشور أموالهم صدقةً، وأما: يُجَبُّوا، فأصل التجبية أن يقوم الإنسان قيامَ الراكع، أو أن يضع يديه على ركبتيه وينحني وهو قائم. الحاصل أنَّهم اشترطوا أربعة شروط فوافقَهم النبي على ثلاثة منها وهي الجهاد والصدقة وأن يكون أميرهم منهم، ولكن

---

[1] خرجه البخاري في المواقيت ومسلم والنَّسائي وأحمد.

[2] خرجه ابن حبان في الصلاة وأحمد وحسَّنه الأرناؤوط.

[3] خرجه أحمد ح17942 وأبو داود والطيالسي والطبراني وحسَّنه الأرناؤوط.

لَم يُوافقْهم في ترك الرُّكوع وقال «لا خير في دِين ليس فيه رُكوع» أي لا فائدةَ في دين لاصلاةَ فيه.

فالصلاة أحب الطاعات إلى الله، وهذا لا يعارضه قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أُنَبِّئُكم بخيرِ أعمالِكم وأزكاها عند مَليككم وأرفعِها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والورِق، وخيرٌ لكم من أن تلقَوا عدوَّكم؛ فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم؟!» قالوا "بلى" قال «ذِكْرُ الله تعالى»[1] وذلك لأنَّ الصلاة أعلى الذِّكر وأنجعه كما يدل عليه قول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ!﴾ [الجمعة 9] فذكر الله هو الصلاة وكذا في قوله تعالى في حقّ أهل الأعذار الذين لا يستَطيعون الصلاةَ بهيآتها تامّة ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ!﴾ [النساء 103] أي اذكروه في صلاتكم وأنتم قيام أو قعود أو على جنوبكم وقال تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اُذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً!﴾ [الأحزاب 41-42] أي اذكروه كثيرًا بأن تصلّوا له بالغداة والعشي.

وبالجملة فقد دخل فضلُ الصلاة على غيرِها من القرُبات في عموم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «سدِّدوا وقَاربوا، واعلَموا أنه لن يُدخِلَ أحدَكُم عملُه الْجَنّةَ، وأنّ أحَبَّ الأعمال أدْوَمُها إلى الله وإن قلّ!»[2] ولا شكَّ أن الصلاةَ هي المقصودة وأنّها أحبُّ الأعمال إلى الله، وذلك لأنّها أَولَى العبادات بالْمُداوَمة، فتجِب على كل عاقلٍ خمسَ مرات كلَّ يوم طوالَ العُمر.

وقد بلغنا عن مرة عن عبد الله بن مسعود أنَّه قال "ما دُمتَ في صلاة فأنت تَقرَع بابَ الملك، ومَن يقْرعُ باب الْمَلك يُفتَحُ له!"[3] فالْمُحافظةُ على المفروضات والإكثار من التطوُّع يَنقُلان مَحبَّةَ الله من الفِعل إلى الفاعِل، أي من الصلاة إلى المصلّي، كما بلغنا عن رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم «إنّ الله قال: مَن عادَى لي وَلِياً فقد آذنتُه بالْحَرْب! وما تقرَّب إلَيَّ عبدي بشيء

[1] صحيح خرجه الترمذي في الدعوات وابن ماجه وأحمد عن أبي الدرداء ومالك ووقفه عليه ولم يرفَعه.

[2] خرجه البخاري في الرقاق ومسلم وأحمد عن عائشة.

[3] 'حلية الأولياء' ج1-ص130.

أحبَّ إلَيّ ممّا افترضتُ عليه، وما يَزال عبدِي يتقرَّبُ إلَيّ بالنَّوافل حتى أُحبَّه. فإذا أَحبَبتُه، كنتُ سَمْعَه الذي يَسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورِجلَه التي يَمشي بها. وإن سألَني لأُعطِيَنَّه ولئن استعاذَنِي لأُعيذَنَّه! وما تَردَّدتُ عن شيء أنا فاعِلُه تَردُّدِي عَن نفسِ الْمُؤمِن؛ يكرَه الموتَ وأنا أَكرَه مَسَاءَتَه!»[1]

هكذا العبد الكامل الوليُّ الْمُقرَّب الْمُخلَص الذي علِم أنّ الحقَّ هو الله تعالى وأن ما سواه باطل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «أصدقُ كلمة قالها الشاعرُ كلمةُ لَبيدٍ "ألا كلُّ شيءٍ مَّا خَلاَ اللهَ باطِلُ!»[2] فترَك باطلَ الدّنيا وراءَ ظهره ﴿وَقَالَ: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي!﴾ [العنكَبوت 26] ﴿وَقَالَ: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي!﴾ [الصافات 99] فآواه ربُّه وقبِلَه وأحبّه وقرّبَه وجعل تعالى له القَبولَ، فكان بالله يسمَع ويُبصِر ويبطش ويمشي لا بنفسِه وهواه. وهكذا طريقُ الوَلاية التي يجب أن يرتَقيَها كلُّ عبد ﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ!﴾ [الكهف 44] أي القُرْبةُ والزُّلفَى لديه تعالى. فأوّلُ قدمٍ فيها القيامُ بالفرائض وعلى رأسِها الصلواتُ الخمسُ التي يُحبُّها الله، ثمّ الاستكثار من النَّوافل؛ وحينها يشمَل حبُّه تعالى العبدَ. قال النبي «إن الله إذا أحبَّ عبدا دعا جبريلَ فقال: إني أُحبُّ فُلانًا، فأَحِبَّه! فيُحبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماءِ فيقول: إنّ الله يُحب فُلانا، فأحِبّوه! فيُحبُّه أهلُ السماءِ، ثم يوضَع له القَبولُ في الأرض! وإذا أَبغضَ عبدًا دَعا جبريلَ فيقول: إني أُبغِضُ فلانا، فأَبغِضْه! فيُبغِضُه جبريلُ، ثم يُنادي في أهل السماء: إن الله يُبغِضُ فُلانًا، فأبغِضوه! فيُبغضونَه، ثم توضَع له البَغضاءُ في الأرض!»[3] كلّ ذلك في الدنيا قبلَ الآخرة.

للصلاة أنوارٌ؛ فالوُضوء نصفُ الإيمان والفاتحة تملأ الميزانَ والأذكارُ تملأ ما بين السماء والأرض، وبها يُعتِق الله عبادَه من النيران؛ قال النبي «الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ و'الحمدُ لله' تملأُ الميزانَ و'سُبحان الله' و'الحمدُ لله' تملآن ما بين السماوات والأرض؛ الصلاةُ نورٌ! والصدقة بُرهان،

---

[1] انفرد به البخاري في الرقاق عن أبي هريرة، وله شاهد عن عائشة عند أحمد.

[2] خرجه البخاري في المناقب ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

[3] خرجه مسلم في البر والصلة والبخاري والترمذي ومالك وأحمد عن أبي هريرة.

والصبر ضياءٌ، والقرآنُ حُجّةٌ لك أو عليك؛ كلُّ الناس يَغدو فبايعٌ نفسَه فمُعتقُها، أو مُوبقُها!»[1] الصلاة خيرُ ما وَضعَ الله لعباده ولكنّ الناس لا يعلَمون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: لَوْ كَانَ خَيْرًا، مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ!﴾ [الأحقاف 11] ذاك لسانُ حالِهم، فلو علموا أنّها خيرٌ لتفانَوا فيها ولو علموا أن تركها شرٌّ ما تركوها. قال أبو ذَرٍّ الغفاري: أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فجلستُ فقال «يا أبا ذَرٍّ، هل صلَّيْتَ؟» قلتُ "لا" قال «قُمْ فَصَلِّ!» قال: فقُمتُ فصَلَّيت ثم جلستُ، فقال «يا أبا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بالله مِن شَرِّ شَياطينِ الإنس والجنّ» قال: قلتُ "يا رسولَ الله، ولِلإنسِ شياطينُ؟" قال «نعم» قلت "يا رسولَ الله؛ الصلاةُ؟!" قال «خيرُ موضوعٍ؛ مَن شاء أَقلَّ ومَن شاء أَكثَرَ!»[2]

الصلاةُ تحسينٌ للخُلُق كما قال الله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ؛ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ!﴾ [العنكبوت 45] وبيّنه قولُه عزّ وجلّ ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلاَّ الْمُصَلِّينَ؛ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ!﴾ [المعارج 19-23] فالجزَع عند الفَقد والشُّح عند الوَجد من سوء الخُلق، والمُحافظون على الصلاة قد سلِموا من ذلك، وكأنّ حُسن الخُلق أَمارة على حسن الصلاة لذا قال عبد الله بن مسعود: من لم تأمره صلاتُه بالمعروف وتنهَه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بُعدًا![3]

---

[1] خرجه مسلم في الطهارة والترمذي والنسائي وابن ماجه أحمد، عن أبي مالك الأشعري.

[2] هكذا نضبطه على الإضافة، وقد يكون ضبْطُه على النّعتيّة هكذا «خيرٌ موضوعٌ» وكلا المعنيين صحيح، والإضافة أقوى في الدلالة. وهو بطوله في مُسند أحمد ح21586 وضعَّفه الأرناؤوط جدّا، وأورده الهيثمي في 'مجمع الزوائد' كتاب العلم وقال: وفيه المسعودي وهو ثقة لكنّه اختلط، وقد ذكره ابنُ حجر في 'فتح الباري' كتاب الوِتر وقال: صحّحه ابن حبّان، وذكره أيضا الْمُبارَكْفوري في 'تُحفة الأحوذي' فضائل القرآن وصرّح بأنَّه من الصحيح، وهو في 'صحيح' ابن حبان في البرّ وكذا الحاكم في 'المستدرَك' تواريخ المتقدمين.

[3] خرجه الطبراني في 'الكبير' ح8543 والبيهقي في 'الشُّعب' وأبو داود وأحمد في 'الزهد'، وصحّحه العراقي والهيثمي، وجاء مُرسَلا عن الحسن ومرفوعا عن ابن عباس ولا يصحّ.

والصلاة مَطْهَرَةٌ للعباد، كما بيَّنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله «أرأيتم لو أنّ نَهَرًا بباب أَحَدِكُم، يغتَسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمسَ مرّات، هل يَبقى من دَرَنه شيءٌ؟» قالوا "لا يبقَى من دَرَنه شيءٌ!" قال «فذلك مَثَلُ الصّلَواتِ الْخَمسِ؛ يَمحُو اللهُ بهنَّ الخطايا!»[1] والدَّرَنُ هو الوَسَخ. ليس ذلك في نَفس الصلاة فحَسب، بل الْمَشْيُ إلى الْمَساجد وانتظارُ الإمام تطهير ومَحوٌ للخطايا، لِمَن كانت نيَّتُه إقامةَ الصلاة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «صلاةُ الجميعِ تَزيد على صلاتِه في بيته وصلاتِه في سُوقِه خَمسًا وعشرين دَرَجةً؛ فإنَّ أحدَكم إذا تَوضَّأ فأحسَنَ وأتَى الْمَسجد، لا يُريد إلاَّ الصَّلاةَ، لم يَخطُ خُطْوَةً إلا رَفَعَه الله بها دَرجَةً وحَطَّ عنه خَطيئَةً حتى يَدخُلَ المَسجِدَ، وإذا دَخلَ المسجدَ كان في صَلاةٍ ما كانَت تَحبِسُه، وتُصلِّي عليه الْمَلائكَةُ ما دَامَ في مَجلِسِه الذي يُصلِّي فيه: اللهمَّ اغْفِرْ له، اللّهُمّ ارْحَمْه! ما لَم يُحْدِثْ فيه»[2] ما دام على وُضوئه، فإذا انتَقضَ توقَّف الدعاءُ.

الصلاةُ كَفّارةٌ للذُّنوب، بذلك فسّر رسولُ الله عليه السلام قولَه تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ: إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود 114] فعن أنسِ بن مالك قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسولَ الله، أَصَبتُ حدًّا فأقِمْه عليَّ!" وحضرتِ الصَّلاةُ، فصلَّى مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فلما قضَى الصلاةَ قال "يا رسولَ الله، إنِّي أَصبْت حدًّا، فأقِمْ فِيَّ كتابَ الله!" قال «هَل حَضرتَ الصلاةَ معنا؟» قال "نعم" قال «قد غُفِر لك!»[3] وقد شهِد أبو أُمامَةَ الباهليُّ الحادثةَ، قال: بينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ونحن قُعودٌ معه، إذ جاء رجلٌ فقال "يا رسولَ الله، إنِّي أَصَبتُ حدًّا فأقِمْه عليَّ!" فسكتَ عنه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم. ثم أعاد فقال "يا رسولَ الله، إنّي أَصَبتُ حدًّا فأقمه عليّ!" فسكت عنه، وأُقِيمَتِ الصلاةُ. فلما انصَرَفَ نبيُّ الله اتَّبعَه الرجلُ حين انصرف،

---

[1] خرجه مسلم في المساجد والبخاري ومالك والترمذي والنسائي وأحمد، عن أبي هريرة.

[2] خرجه البخاري في مواضع الصلاة ومسلم عن أبي هريرة.

[3] خرجه مسلم في التوبة والبخاري.

واتَّبعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، أنظُرُ ما يَردُّ على الرجلِ. فلحِق الرجلُ رسولَ الله فقال "يا رسولَ الله، إنّي أصبتُ حدًّا، فأقِمْهُ عليَّ!" فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «أَرأَيْتَ حين خَرَجْتَ من بيتك، أليس قد توضَّأْتَ فأحسَنتَ الوُضوءَ؟» قال "بلَى، يا رسولَ الله!" قال «ثُم شَهِدتَ الصلاةَ معنا» فقال "نعم، يا رسولَ الله" فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «فإنَّ الله قد غَفَر لك ذنبَك!»[1] وكان عبدُ الله بنُ مسعود ممَّن حضَر الحادثة، وبيَّن أنَّ الرجُلَ كان قد قبَّل امرأةً لا تَحِلُّ له، قال: أصاب رجلٌ من امرأة قُبلةً، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فذَكر ذلك له، فنَزلت ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ؛ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ: ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ!﴾ [هود 114] فقال الرجلُ "أَلِي هذه، يا رسولَ الله؟" قال «لِمَن عَمِلَ بها من أُمَّتي!»[2] أي بقوله الله ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ!﴾ وهو قولُه تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي؛ أَذْكُرْكُمْ! وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ!﴾ [البقرة 152]

قال رسول الله «أتاني الليلةَ ربّي تبارك وتعالى في أحسنِ صورة، فقال: يا مُحمَّدُ، هل تَدري فيمَ يَختصِم الملأُ الأعلَى؟ قلتُ: لا! فوَضع يدَه بين كَتِفَيَّ حتى وَجدتُ بردَها بين ثديَيّ فعَلِمتُ ما في السماوات وما في الأرض! قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، في الكفّارات؛ والكفارات: الْمُكثُ في المساجد بعدَ الصلوات والْمَشيُ على الأقدام إلى الجَماعات وإسباغُ الوضوء في الْمَكارِه؛ ومَن فعلَ ذلك عاشَ بخير ومات بخير، وكان من خَطيئَته كيَومِ وَلدَته أمُّه! وقال: يا محمد، إذا صلّيت فقُل "اللهمَّ إني أسألُك فعلَ الخيرات وتركَ المنكَرات وحُبَّ المساكين، وإذا أَردتَ بعبادك فِتنةً فاقبِضني إليك غيرَ مَفتون!" قال والدرجات: إفشاءُ السلام وإطعامُ الطعام والصلاة بالليل والناس نِيام!»[3]

---

[1] خرجه مسلم في التوبة وأبو داود.

[2] خرجه مسلم في التوبة والبخاري والترمذي وابن ماجه وأحمد.

[3] خرجه الترمذي في التفسير عن ابن عباس، وله شواهد عن ثوبان وابن عمر وأبي أمامة ومعاذ.

وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ قال: كانت علينا رِعايةُ الإبل، فجاءت نَوبتي فرَوَّحْتُها بعَشيٍّ، فأدركتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قائمًا يُحدِّث الناسَ، فأدركتُ مِن قوله «ما مِن مُسلم يتوضَّأ فيُحسِن وُضوءَه ثم يَقومُ فيُصلّي رَكعتين، مُقبِلٌ عليهما بقلبه ووَجهه، إلاّ وَجبَت له الجنَّةُ!» فقلتُ "ما أَجوَدَ هذه!" فإذا قائلٌ بين يَدَيَّ يقول "التي قبْلَها أَجوَدُ!" فنظرتُ فإذا عُمَرُ، قال "إنّي قد رأيتُك جئتَ آنفًا؛ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «ما منكم مِن أحدٍ يتوضَّأ فيُسبِغُ الوُضوءَ ثم يقول "أشهَد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبدُ اللهِ ورسولُه" إلا فُتِحت له أبوابُ الجنَّةِ الثمانيةُ؛ يَدخُل مِن أيِّها شاءَ!»[1] هذا في أحدِ شُروط الصلاة، فما ظنُّك بالصلاة نفسِها؟! وفيه دليل على أن شرط الصلاة عبادة قائمة بذاتها.

بلغنا عن أنس بن مالك أن رجلا لعَن بُرغوثا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال «لا تلعنْه؛ فإنه أيقظَ نبياً من الأنبياء للصلاة!»[2] فإن صحَّ الخبر فهو من فضائل الصلاة على أهون خلق الله. ولا جرم ففضائل الصلاة لا تُحصى، فإنَّها الجائزة الكُبرى والآية العُظمى دُنيا وأُخرى التي أبى الله إلاَّ أن يعطيَها محمَّدا كِفاحاً فرفَعه جسدًا وروحا إلى السماء السابعة حيث منَحه إيّاها بغير واسطة وكما قيل: كلُّ الصّيد في جَوف الفَرا! فكذلك جمعت الصلاةُ أنواعَ العبادة، فهي أوفقُ المواضع للذّكر والدعاء وهما معنى العبادة ولبُّها، ولها مِن كلِّ رُكن من أركان الإسلام حظٌّ؛ ففيها الشهادتان وهما التشهُّد، ولها تعلُّقٌ بالصوم لأنّها إمساكٌ عن العمل والقولِ إلاّ ما فُرِض ويَحرُمُ فيها الأكلُ والشُّرب، ولها تعلُّق بالحجّ لاستقبال الكعبة، ولها تعلُّقٌ بالزَّكاة لقول النبي صلى الله عليه وسلم «يُصبح على كل سُلامَى مِن أحدكم صَدَقةٌ؛ فكلُّ تَسبيحةٍ صدقَةٌ، وكلّ تَحميدة صَدقة، وكل تَهْليلة صَدَقة، وكل تَكبيرة صدَقة، وأمرٌ بالْمَعروف صدقة، ونَهيٌ عن

---

1 خرجه مسلم في الطهارة وأبو داود والنسائي وأحمد.

2 خرجه البخاري في 'الأدب المفرد' ح 1237 والبيهقي في 'شعب الإيمان' والبزار والطبراني في 'المعجم الأوسط' عن قتادة وحسَّنه الهيثمي، والله أعلم.

الْمُنكر صدقة! ويُجزئ من ذلك رَكْعتان يَركَعُهُما من الضُّحَى!»[1] وقد جمعت الصلاة الإيمانَ كلَّه، فلا يُتصوّر أن يصلّي أحدٌ وهو لا يؤمن بالله ومَلائكتِه وكُتبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخرِ وبالقَدَرِ، ومَن يؤمن بهذا حقًّا فلا يُتصوّر أن لا يصلّي. وضمَّت الصلاة الإحسانَ كلَّه، فلا تكون تامّةً إلا بِهمَّة ومُجاهدة ومُحاسَبة ويَقظة وبنيّةٍ وإخلاص وصِدق ويقين وخوف ورجاء وبتدبُّر وتفكُّر وبشُكر وصبر ورِضا وخُشوع وضراعة وتوكُّل وبتوبة ومَحبّة وشوق وحياء وبأنس ورغبة ورهبة، وغيرِها مِن مقامات وأحوال هي روح الصلاة وحياتُها.

قال رَبيعةُ بن كَعبٍ: كنت أبيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتَيته بوَضوئه وحاجته فقال لي «سَلْ!» فقلت "أسألك مرافقتَك في الجنة!" قال «أو غيرَ ذلك» قلت "هو ذاك!" قال فأعِنِّي على نفسك بكثرة السجود!»[2] أكثِرْ من الصلاة لتكون أهلاً لأن يُستجابَ لي فيك! فبها وفيها تظهَر الآيات وتُقضَى الحاجات ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا، قَالَ: يَا مَرْيَمُ، أَنَّى لَكِ هَذَا؟ قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ! هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ!! قَالَ: رَبِّ، هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ! فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى!﴾ [آل عمران 37-39]

الحمدُ للّه قد أصبحتُ في دَعةٍ ... أرضى القليلَ ولا أهــتمُّ بالقوتِ
وشاهدٌ خالقي أنّ الصلاةَ لــهُ ... أجلُّ عندي من دُرٍّ وياقــوتِ
ولا أُعاشِرُ أهلَ العَصرِ إنّـــهُمُ ... إن عوشِرُوا بينَ محذورٍ ومَمقوتِ
يسيرُ بي وبغيري الوَقتُ مُبتَدِراً ... إلَى مَحلٍّ من الآجال مَوقــوتِ

العَهد

---

[1] خرجه مسلم في صلاة المسافرين وأحمد وأبو داود عن أبي ذر والبخاري عن أبي هريرة.

[2] خرجه مسلم في الصلاة وأبو داود وأحمد عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

بلغنا عن أنس بن مالك أنّه قال: ما خطَبنا نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم إلا قال «لا إيمانَ لمن لا أمانة له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له!»[1] قال ابن فارس: العين والهاء والدال أصلُ هذا الباب عندنا دالٌّ على معنىً واحد، قد أومأ إليه الخليل. قال: أصلُه الاحتفاظُ بالشَّيء وإحداثُ العهدِ به. والذي ذكَرَه من الاحتفاظ هو المعنى الذي يرجع إليه فُروع الباب، فمن ذلك قولُهم عَهِد الرجل يَعْهَدُ عَهْداً، وهو من الوَصيَّة. وإنّما سمِّيت بذلك لأنَّ العهدَ مما ينبغي الاحتفاظُ به. ومنه اشتقاق العَهد الذي يُكتَب للوُلاة من الوصيّة، وجمعه عُهود. والعَهْد: المَوْثِق، وجمعه عُهود. ومن الباب العَهْدُ الذي معناه الالتقاء والإلمام، يقال: هو قريبُ العهد به، وذلك أنّ إلمامَهُ به احتفاظٌ به وإقبال.[2]

فأصل العهد في اللغة الاحتفاظُ بالشَّيء وإحداثُ الصِّلَة به. فلا بدَّ في الدين من عَهد لِمَن أراد الاحتفاظَ بدينه، ولا شيءَ أحفَظُ للدين من الصلاة، فهي العهد بين العبد وربِّه وهو قول الله ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا! قَالَ: وَمِن ذُرِّيَّتِي! قَالَ: لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ! وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً، وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى!﴾ ذكر هنا الصلاة تبيانًا للعهد ثم عاد فذكَره فقال تعالى ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ!﴾ [البقرة 124-125] فإمامةُ إبراهيمَ خليلِ الرحمن باقيةٌ إلى يوم القيامة وهي حِسّيّةٌ ومَعنوية، وكذا مَقامُه فإنّه ليس ما يقابل المُلتزَم من الكعبة فحَسب بل إنّه أيضًا ذاك العهد وهو الصلاةُ المَكتوبة منها والنافِلة؛ فتاركُها ظالِمٌ ولا ينالُه عهدُ الله تعلى لإبراهيم عليه السلام.

وقال سبحانه ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ، إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم 87] روى الطبري بسنده عن ابن عباس أنه قال: العهد هو شهادة أن لا إله إلا الله، ويتبرأ إلى الله من الحَول والقوّة

---

[1] خرَّجه أحمد ح12166 وهو عند ابن حبان البيهقي وابن أبي شيبَة والطبراني والبزار والبَغوي وحسَّنه وكذا الأرناؤوط.

[2] 'معجَم مقاييس اللغة' مادّة عهد ج4-ص137، اتحاد الكتاب العرب.

ولا يرجو إلا الله.[1] وقال بعضُ المفسرين العهد هو الصلوات الخمس.[2] وعند النظَر لا تَعارُضَ هنا؛ الصلاة هي موضع التشهُّد، فمَن تركها فقد ترك الشهادةَ لله، ولن يكون له عهدٌ عنده. ثم الشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله، وإلاّ ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه؟!﴾ [البقرة 255]، والله لَم يأذن للنبي أن يشفَع لتاركي الصلاة لأنّهم ليسوا من أمَّته، قال صلى الله عليه وسلّم «شَفاعَتِي لأَهلِ الكَبائرِ من أُمّتِي»[3] لا لغيرهم! وأمَّة محمّد هم المصلّون في الدنيا وهم الذين عليهم آثارُ الصلاة في الآخرة، ومَن دونهم فليسوا من أمّته. فمعنى الآية أنّ الشفعاء، وعلى رأسهم نبيُّنا، لا يملكون أن يشفَعوا إلا لَمن كان من المُصلّين.

خرج رسول الله ذاتَ يومٍ إلى المقبَرة فقال «السلامُ عليكم، دارَ قَومٍ مؤمنين، وإنّا إن شاءَ اللهُ بكم لاحِقون؛ وَدِدتُ أَنّي قد رَأيتُ إخواننا!» قالوا "يا رسولَ الله، أَلَسنا بإخوانَك؟" قال «بل أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لَم يأتوا بعدُ؛ وأنا فَرَطُهم على الْحَوْض!» فقالوا "يا رسولَ الله، كيف تعرِف مَن يأتي بَعدك مِن أمَّتك؟" قال «أرأيتَ لو كان لِرَجُلٍ خَيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ في خَيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ؛ ألاَ يَعرِفُ خَيلَه؟» قالوا "بلى، يا رسولَ الله" قال «فإنّهم يأتون يومَ القيامة غُرًّا مُحَجَّلين من الوُضوء؛ وأنا فَرَطُهم على الْحَوض!»[4] فمن لا يصلِّي لَم يتميَّز يومَ القيامة عن الكفَّار، لا بالغُرَّة التي هي بياضٌ في الجَبهة ولا بالتَّحجيل الذي هو بياض في أطراف اليدين والرِّجلين، وهي أعضاءُ الوضوء، ولَم يعرِفه رسولُ الله في المَوقِف. ومَن لَم يَعرِفْه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فليس من أمَّته، ومن ليس من أمّته لَم تَحِلَّ له شفاعتُه.

ومَن دخَل النارَ من المسلمين بعدَ رُجْحان كفَّة سيِّئاته، فإنّه لن يُخلَّد فيها بإذن الله تعالى. جاء في حديث الشفاعة أنّ النبي قال «حتى إذا فَرغَ اللهُ من القَضاء بين العباد، وأراد أن يُخرِج برحْمته

---

[1] 'تفسير الطبري' ج18-ص255.

[2] ذكر أبو طالب في 'قوت القلوب' ج2-ص167.

[3] خرجه أبو داود في السنّة وأحمد عن أنس بن مالك.

[4] الحديث خرجه مالك في جامع الوضوء ومسلم وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

مَن أراد من أهل النار، أمرَ الْمَلائكةَ أن يُخرِجوا مِن النار مَن كان لا يُشرِك بالله شيئا، مِمَّن أراد الله أن يرحَمه مِمّن يشهد أن لا إله إلا الله. فيَعرِفونَهم في النار بأثر السُّجود؛ تأكلُ النارُ ابنَ آدم إلاّ أثَرَ السجود؛ حرَّم الله على النّار أن تأكُلَ أثَرَ السُّجود!»[1] فأثرُ السُّجود مِيزةُ مَن 'لا يُشرِك بالله شيئا ويشهد أن لا إله إلا الله' فمَن لَم يصلِّ في الدنيا فلا شهادةَ له وهو مشركٌ بالله، فلا يسلَم منه عضوٌ من نار جهنّم، بل تأكله كما تفعل بسائر الكُفَّار والعِياذ بالله.

ومع هذا فأكثرُ الناس يُطالبون بما يظنّونه لهم، وما هم بأهله ولا هو يحقُّ لهم، إذ أنَّهم لم يأتون بما يستحقّونه به ﴿وَقَالُوا: لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً! قُلْ: أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا؟!﴾ [البقرة 80] أي أجئتم بالصلاة كما فُرضت عليكم؟! وإلا فقد قال رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم «قال اللهُ تعالى: إنِّي فَرَضْتُ على أُمّتِك خَمسَ صلَوات؛ عَهِدتُ عِندي عَهْدًا أنّهُ مَن جاء يُحافِظُ عليْهِنَّ لِوَقْتِهِنَّ أَدْخَلْتُه الجَنّةَ، ومَن لَم يُحافِظْ علَيْهِنّ فلا عَهْدَ له عِندي!»[2] فالصلاةُ ذاك العَهدُ الذي بين الله وبين عباده، هي رأسُ مالِ المسلمِ وهي رِبحُه، وأوْلَى ما يَلزَمُه حِفْظُه، وإلاَّ فلا عهدَ له عند الله.

فقد بيَّن رسول الله بجلاءٍ في أحاديث كثيرة أن الصلاة هي العهد بين العبد وربِّه، ومن ذلك قولُه «إنّ العَهد الذي بيننا وبينهم الصلاة؛ فمن ترَكَها فقد كفر!»[3] فالصلاةُ هي ما يتميَّز به المسلمون عن الكفار في الدُّنيا، وهي أوَّلُ ما يتميَّزون به في الموَقف يومَ القيامة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ!﴾ [القلم 42] وقد بيَّن صلى الله عليه وسلّم هذا المَوقفَ فقال «يَكشِفُ رَبُّنا عن ساقِهِ، فَيَسجُدُ لَه كلُّ مُؤمِنٍ وَمُؤمِنَةٍ. فَيَبقَى كُلُّ مَن كان يَسجُدُ في الدُّنيَا

---

[1] خرجه البخاري في التوحيد ومسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

[2] حسن خرجه أبو داود في الصلاة وابن ماجه عن أبي قتادة بن رَبعي.

[3] خرجه النسائي في الصلاة والترمذي وابن ماجه وأحمد وابن حبان والحاكم عن بُرَيدة.

رياءً وسُمعَةً، فَيَذهَبُ لِيَسجُدَ فيَعودُ ظَهرُه طَبَقًا واحدًا!»[1] تلك حالُ مَن كان يصلّي ولكن بدون إخلاص، فماذا عسى أن تكون حالُ مَن أبى واستكبر ولَم يُصلّي رأسًا؟

أما الْمُحافظون على صلواتهم فأولئك مع الْمُنعَم عليهم الْمَقصودين بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا؛ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ: خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا!﴾ [مريم 58] فمن جُملَة هؤلاء زكريّا الذي وَهَبَ له الرحمنُ يحيَى ﴿يَا زَكَرِيَّا، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ: اسْمُهُ يَحْيَى، لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا!﴾ [مريم 7] ومن جُملَتهم مريمُ، وهبَ لها الرحمنُ عيسى ﴿قَالَ﴾ لها الروحُ القدُس ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ؛ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا!﴾ [مريم 19] ومن جُملَتهم إبراهيمُ الذي هَجَر قومَه الكافرين فأبدَلَه الرحمنُ بهم وَلَديْن وجعلَهما نَبيَّين وجعلَ منهما عَقباً طيّبا ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ؛ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا!﴾ [مريم 49] ومن جُملَتهم موسى الذي جعل الرحمنُ من أخيه هارونَ وزيرًا له ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا!﴾ [مريم 53] ومن جُملَتهم إسماعيلُ الذي كان يَحمل أهلَه على الْمُواظَبة على الصلاة ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ؛ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا! وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا!﴾ [مريم 54-55]

إلى أن قال تبارك وتعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا؛ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ: خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا!﴾ [مريم 58] هؤلاء الْمَذكورون أمّةٌ واحدةٌ، أوَّلُهم آدمُ وآخرُهم آخرُ مَن صلّى لله قَبل قيام الساعة؛ هم قومٌ اصطَفاهم الله فهداهم وألْهَمَهم عبادتَه تبارك وتعالى، فكان التَّقرُّب إلى الرحمن غايتَهم. أخصُّ خصائصهم الفَزعُ إلى الصلاة عند وُرود الآيات، سواءً كانت شرعيّةً

---

[1] خرجه البخاري في التفسير عن أبي سعيد.

أو كَونيَّة، كما كان النبيُّ إذا نَزَل به هَمٌّ أو أصابَه غمٌّ فَزِع إلى الصلاة؛ فعن حُذيفة قال "كان صلى الله عليه وسلَّم إذا حزَبه أمرٌ؛ صلَّى!"[1] وحزَبه الأمرُ أي أهمَّه أو أغمَّه.

ثم ذكر اللهُ في مُقابِل هؤلاء الْمُصطَفَين الأخيارِ الْمُنعَمِ عليهم، الذين جاءَهم الفَضلُ الرَّبّاني والوَهْبُ الرّحْماني ورُزِقوا الذُّريّةَ الزّكيَّةَ الطيّبةَ والتي هي من جنس الأعمال الْمُبارَكة الصالحةَ، ذَكَر تعالى في مُقابِلهم مَن يناقضُهم ويُخالفُهم. فوصفَه بقوله ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ: لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا! أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا؟! كَلاَّ، سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا! وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا؟! كَلاَّ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا! أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا؟! فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا؛ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا! لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ؛ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا!﴾ [مريم 77-87]

ذاك الْمُبعَد إنسانٌ كفَر بآيات الرحمن بدَلَ أن يقَع عندها ساجدًا وباكيًا، لم يطلُب الرِّزقَ ولا الذُّرِّيةَ من الرحمن، بل اعتدَّ بنفسه وأقسم أنَّه سيكون له مالٌ وولد. وما هي إلاّ دعوَى كاذبة، لا يتحقَّقُ له شيءٌ من ذلك إلاّ إذا كان قد أُخبِرَ بالغيب أو أن يكون له عهدٌ عند الرحمن. وكِلا الأمرَين غيرُ وارد لقوله تعالى ﴿كَلاَّ!﴾ فلا عِلمَ له بذلك ولا عهدَ له عند الرحمن تعالى. ولكنَّه البَعيدُ الخاسر الْمَغبونُ مُشرِكٌ يتعبَّد لآلهة باطِلة أغرَته بها نَفسُه وغرَّته بها شياطينُ الإنس والجنّ وأغوَته واستَحوذت عليه. فهذا لن تنفَعه شفاعة الشافعين يومَ القيامة، لأنَّه لم يتَّخذ عند الرحمن عهدًا، أي أنّه لم يُصلِّ مثلَ أولئك الْمُنعم عليهم الذين جاء وصفُهم في سورة مريم. فالصلاة هي العهد بين العبد وربِّه، عِلمه مَن علمه وجهِله من جَهله!

البدْء والانتِهاء

[1] خرجه أبو داود في الصلاة وأحمد، وحسّنه ابن حجر وضعَّفه الأرناؤوط.

الصلاةُ أوّل ما يجب تعلُّمُه وتعليمُه لِمن دخل في الدين، فقد كان الرجل إذا أسلمَ علَّمه النبيُّ الصلاةَ ثم أمره أن يدعو فيها بهؤلاء الكلمات «اللهمّ، اِغفِرْ لي وَارْحَمْني وَاهْدِني وعافِني وَارْزُقني!»[1] هذا هَديُ المصطفى صلى الله عليه وسلّم في تعليم الدين، ولكنّ الناس على خلافه، فإمّا أن يكتَفوا بتلقين الشهادتين لِمن أعلن إسلامَه، أو أن يعلّموه أوّلَ ما يعلِّمونه براهينَ التوحيد أو الرقائق أو أحوال الآخرة، إلى غير ذلك ممّا فيه سَعةٌ، بخلاف الصلاة فلا فُسحةَ في تأخيرها ولا إسلام بدونها.

قال النبي صلى الله عليه وسلّم لِمُعاذِ بن جَبَل حين أرسَلَه أميرًا إلى اليَمن «إنك تأتي قومًا من أهلِ الكتاب؛ فادْعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله. فإنْ هم أطاعوا لذلك؛ فأعلِمهم أنّ اللهَ افترض عليهم خمسَ صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لذلك؛ فأعلِمهم أن الله افترض عليهم صَدَقَةً تُؤْخَذُ من أغنيائهم فتُرَدُّ في فُقرائهم. فإن هم أطاعُوا لذلك؛ فإيّاك وكَرائِمَ أموالِهم. واتَّقِ دعوةَ الْمَظلومِ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حِجابٌ!»[2] هكذا علّمه أصولَ الدّعوة إلى الله. فجِماعُ الدين في الشهادتين ولكنّ أوّلَ التطبيقِ الصلاةُ، فهي تصديقُ الإقرار الشَّفوي بالشهادة بحيث أنَّ أحدًا لو نَطَق بالشهادتين ضُحًى بنيَّة الدخول في الإسلام، فعليه أن يصلِّي الظُّهرَ مِن يومِه ذاك خلفَ الإمام في المسجد، فإن أَبَى سقَطت شهادتُه ولَم يكن دخل في الإسلام رأسًا.

لذا كانَ أوّلَ ما يُكلَّف به الصبيُّ الصلاةُ، قال النبي صلى الله عليه وسلم «مُروا أولادَكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سنين، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرِّقوا بينهم في الْمَضاجعِ!»[3] وانتبه إلى أن الضربَ تعزيرٌ شرعي واجبٌ على الأولياء، يقتضي أنّ الوَلد مكلَّفٌ شرعًا بالصلاة، وليس ذلك من باب تعويده عليها كما يظنُّ الناس، فهو مُجازًى على فِعلها عند الله تعالى

---

[1] خرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه.

[2] خرجه البخاري في الزكاة ومسلم، عن ابن عباس.

[3] خرجه أبو داود في الصلاة عن ابن عَمرٍو، والترمذي عن سَبْرَةَ بن مَعْبَدٍ وصححه.

ومُعاقَبٌ على تركها بنَفسِ ضَرب أهله له. وبخلاف أمره بالصلاة فإنّه لم يَرِد، فيما أعلَم، أمرُ الصبيِّ بالنُّطق بالشهادتين استقلالاً، وذلك لكون الصلاة تتضمَّنُهما، فالتّشهُّد رُكنها الأعظم. فأمرُ الأهل والأولاد بالصلاة عهدٌ أخذه الله على أنبيائه قبل عامّة المسلمين، قال تعالى لنبيّه محمد ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا!﴾ [طه 130] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياًّ؛ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ!﴾ [مريم 54-55]

بلغنا عن الحسن البصري أنه قال: حدّثنا أبو هريرة، إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم «تجيء الأعمالُ يومَ القيامة؛ فتجيء الصلاة فتقول "يا ربِّ، أنا الصلاة" فيقول: إنّكِ على خَيْر! ثم يجيء الصيام فيقول: إنك على خير! ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول: إنكِ على خير! ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب إنّك السَّلام وأنا الإسلام فيقول: إنك على خير؛ بك اليوم آخُذ وبك أعطي!» قال الله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران 58][1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ أوّلَ ما يُحاسَب الناسُ به يومَ القيامة مِن أعمالِهم الصلاةُ؛ يقول ربُّنا جلّ وعزّ لِملائكته وهو أعلمُ: اُنظُروا في صلاة عبدي، أتَمّها أم نَقَصها! فإن كانت تامَّةً كُتبت له تامّة، وإن كان انتَقص منها شيئًا، قال: انظُروا هل لعبدي مِن تَطَوُّعٍ! فإن كان له تطوُّعٌ قال: أتِمُّوا لعبدي فَريضتَه مِن تَطوُّعِه! ثم تؤخَذ الأعمالُ على ذاكُم!»[2] فالصلاة أوّلُ ما يُسأل عنه العبدُ يوم العرض على الله.

---

[1] خرجه أحمد ح8727 وأبو يعلى والطبراني في الأوسط ورجالُه ثقاة، وقد صرَّح الحسن بسماعه من أبي هريرة.

[2] صحيح خرجه أبو داود في الصلاة والنسائي والترمذي وابن ماجه، عن أبي هريرة.

فرض الصلاة

لقد كان ظُهور محمَّد انتهاءَ مرحلة من التاريخ وابتداءَ أخرى كما أشار إليه قولُه صلى الله عليه وسلم «إذا هلَكَ كِسرى فلا كِسرَى بعدَه، وإذا هلك قَيصرُ فلا قَيْصرَ بعده؛ والذي نفسُ محمد بيده لتُنفَقنَّ كُنوزُهُما في سَبيل الله!»[1] كسرى تسميةُ مَلِك الفُرْس وقَيصر تسمية ملِك الروم في القرن الذي أرسَل الله فيه نبيَّنا. وكما تقدَّم بيانُه فمحمد آخرُ الرُّسل قبلَ فناء هذا العالَم، وبِعثتُه أعظمُ حدَثٍ عاشه البشرُ من حيثُ تأثيرُه في مَجرَى تاريخهم وأطوارِه، لقد غيَّرت التوازُنات على وجهَ الكرة الأرضية بصفة جذريّة إلى يوم القيامة؛ هذه حقيقةٌ لا يُمكن تَجاهلُها. وإليه أشار صلى الله عليه وسلم بقوله «بُعِثتُ أنا والساعةُ كهاتَين» وضمَّ السَّبَّابة والوُسطى[2]، ليس بمعنى أنّ النبيَّ كان يتوقّع أن يُشاهد يومَ القيامة في حياته ولا الصحابةُ مِن بعدِه، خلافا لما كتبه بعض المستشرقين، والشريعة الإسلامية بقرآنها الخالد وسُنّتها المحفوظة وفقْهها المتين أقوى وأوضح دليل على بقاء الإسلام مُدَّةً لا يعلمُها إلاّ الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ: أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟ قُلْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي، لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً! يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ!﴾ [الأعراف-187] وإنما قوله «بُعِثتُ أنا والساعةُ كهاتَين» أن البِعثة والساعة مُرتبطتان لا تتخلَّف إحداهُما عن الأخرى، فهو "تمثيلٌ لاتِّصال زمنِه بزمَنها وأنّه ليس بينهما شيءٌ"[3] وإعلامٌ باستمرار دعوتِه وأن لا حَدَثَ أعظمُ من بِعثَتِه حتى تقوم الساعة.

---

[1] خرجه البخاري في علامات النبوّة والترمذي وأحمد في المسند عن أبي هريرة.

[2] خرجه مسلم في الفتن والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد من حديث أنس بن مالك، وقال السيوطي: هذا الحديثُ مُتواترٌ.

[3] نقله المُناوي عن القاضي عِياض في 'فيض القدير بشرح الجامع الصغير' ج3-ص263، الكتب العلمية.

إلى ذلك يشير قولُ الله ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً؟! فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا!﴾ [محمد 18] أي علاماتُها الكُبرى وأولاها مَجيءُ محمَّد صلى الله عليه وسلَّم، وكما قال ابن كثير: بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضَحَه بما لم يؤتَه نبيٌّ قبلَه كما هو مبسوط في موضعه، وقال الحسن "بعثة محمد من أشراط الساعة."[1] ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناسُ على قَدَمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي.»[2] قوله على قدَمي: على أثري، أي بعدَ مَجيئي. فما أحداث العالَم منذ خمسة عشر قرنا إلا عبارةٌ عن آثار ذاك الحدَث سواءً إيجابًا أو سَلبا، مصداقًا لقول الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة 33 والصف 9].

قد علِمَت الدّولتان العظيمتان آنذاك، واللتان هما بيزنطا وفارس، أهميّةَ الإسلام وما فيه من قوَّة لتغيير الموازين لصالحهما، وقد تكلَّمنا فيما سبق بما يكفي عن مُحاولات الفُرس العديدة لاستقطاب الإسلام لأغراضهم الدنيويّة بابتداعهم التشيُّع الذي حاولوا به تفريقَ العرب وكسر شوكتِهم، وهم يحاولون ذلك إلى يومنا هذا. والرُّوم أيضا قد حاولوا اغتنامَ الإسلام كما فعلوا بالنصرانيَّة التي جعلوها 'مسيحيَّة' وما انجرَّ عن ذلك من طمس لمعالم ما جاء به عيسى عليه السلام، ولكنَّ الله تعالى حفظ دينَه كما وعد ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح 28]. حاول الروم البيزنطيون هدمَ الإسلام من الداخل، وعلى رأسهم الإمبراطور هِرَقْلِيُوس، الذي وُلد بعد ثلاث سنوات من مَولد نبيّنا ومات

---

[1] 'تفسير القرآن العظيم' ج7-ص315، دار طيبة.

[2] خرجه الترمذي في الأدب وقال: حديث حسن صحيح، والبخاري ومسلم والدارمي وأحمد، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه. وختم مالك به الموطّأ عن محمد بن جبير بن مطعم مُرسَلا.

بعده بتسعة أعوام[1]. ففي بدء الوحي أوّلَ صحيحه ساق البخاريُّ بسنده إلى عبد الله بن عباس أنه قال: أرسل هِرَقْل إلى أبي سفيان بن حرب في رَكْبٍ من قريش وكانوا تُجّارا بالشام في المدة – يعني صُلحَ الحُدَيبيَّة في ذي القعدة سنة ستٍّ بلا خلاف– التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلْياءَ[2] فدعاهم في مجلسه وحولَه عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال "أيُّكم أقرب نَسَبا بهذا الرجل الذي يزعم أنّه نبي؟" فقال أبو سفيان "أنا أقربُهم نسبا" فقال "أدنوه منّي، وقرِّبوا أصحابَه فاجْعَلوهم عند ظَهرِه" ثم قال لترجمانه "قل لهم أنّي سائلٌ هذا عن هذا الرجل فإنْ كَذَبَني فكَذِّبوه" فقال أبو سفيان: فوالله لولا الحياءُ من أن يَأْثِروا عليَّ كَذِبا لكذبتُ عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال "كيف نَسَبُه فيكم؟" قلت "هو فينا ذو نسب" قال "فهل قال هذا القولَ منكم أحدٌ قطّ قبلَه؟" قلت "لا" قال "فهل كان مِن آبائه مِن مَلِكٍ؟" قلت "لا" قال "فأشرافُ الناس يتَّبِعونه أم ضُعفاؤهم؟" فقلت "بل ضعفاؤهم" قال "أيزيدون أم يَنقُصون؟" قلت "بل يزيدون" قال "فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يَدخُلَ فيه؟" قلت "لا" قال "فهل كنتم تَتَّهِمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟" قلت "لا" قال "فهل يَغدِرُ؟" قلت "لا، ونحن منه في مُدَّةٍ–يعني صلحَ الحدَيبيّة؛ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها" قال أبو

---

[1] Héraclius 1er, né en Cappadoce vers 575, exarque de Carthage, il renverse le tyran Phokas et devient empereur de Byzance en 610. Il entreprend le redressement de l'empire et réorganise l'armée. En 613 les Perses prennent Damas, en 614 Jérusalem tombe entre leurs mains, et ils empotent en Iran le bois de la «vraie Croix», en 619 ils conquièrent l'Egypte, puis concluent une alliance offensive avec les Avars contre Byzance. Héraclius, après avoir connu les pires heures et vu, en 626, Constantinople assiégée par la coalition des Perses et des Avars, mènera la guerre sainte jusque dans Ctésiphon. Sa croisade ramènera la «vrai Croix» en 630 à Jérusalem. Aux moments les plus angoissants de la lutte, alors que Byzance semblait perdue, un homme cependant avait jaugé les deux adversaires et deviné l'épuisement de cette Perse Sassanide en apparence triomphante. Dans sa Sourate des «Grecs», Mahomet prédit la victoire byzantine.(cf. Dumoulin Delaplante, Histoire générale synchronique, tome 1er, pp.317-318). ..Mais, tirant profit de l'épuisement des deux adversaires, les Arabes s'emparent de la Syrie en 635, détruisent l'armée byzantine sur le Yarmouk en 636, enlèvent Jérusalem en 638, conquièrent la Mésopotamie en 639 et l'Egypte en 642. Héraclius cherche à l'intérieur un compromis entre monophysites et orthodoxes, soutient le monothélisme, aggravant ainsi la confusion, il meurt en 641. *Larousse Encyclopédie Universelle Classique 2005.*

[2] Ilyâ': Transcription arabe de la première partie du nom que portait à cette époque Jérusalem, Ælia Capitolina. *Cf. les traditions islamiques, el-Bokhari, tr. Par Houdas et Marçais, t.1er p. 5, Leroux 1903*.

سفيان: و لم تُمْكنِّي كلمةٌ أُدخل فيها شيئًا غيرُ هذه الكلمةُ. قال "فهل قاتلتموه؟" قلت "نعم" قال "فكيف كان قتالُكم إيّاه؟" قلت "الحرب بيننا وبينه سجالٌ، يَنالُ منّا ونَنالُ منه" قال "ماذا يأمرُكم؟" قلت "يقول «اُعبدوا الله وحدَه ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم» ويأمرُنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف، والصِّلَة!" فقال للتُّرجُمان "قُلْ لَه، سألتُك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب؛ فكذلك الرسل تُبعث في نَسب قومها. وسألتُك هل قال أحدٌ منكم هذا القولَ، فذكرتَ أن لا. فقلتُ لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ رجل يَأْتَسِي بقولٍ قيل قبلَه. وسألتك هل كان من آبائه من مَلك، فذكرتَ أن لا. قلتُ فلو كان من آبائه من ملك، قلتُ رجلٌ يطلُب مُلْكَ أبيه. وسألتك هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرتَ أن لا. فقد أعرف أنّه لم يكن ليَذَر الكَذب على الناسِ ويكْذبَ على الله. وسألتُك أشرافُ الناسِ اتَّبَعوه أم ضعفاؤُهم، فذكرتَ أنّ ضعفاءَهم اتَّبَعوه؛ وهم أَتباعُ الرُّسُل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يَتمَّ. وسألتك أَيَرْتَدُّ أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرتَ أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخالط بَشاشَتُه القلوبَ. وسألتُك هل يغدر، فذكرتَ أن لا، وكذلك الرّسل لا تَغدِر. وسألتك بما يأمركم، فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعَفاف. فإن كان ما تقول حقًّا فسيَملك موضِع قدمَيَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارجٌ، لم أكن أظنّ أنه منكم؛ فلو أنّي أعلم أنّي أخلُص إليه لتجشَّمْتُ لقاءَه، ولو كنتُ عنده لغسَلْتُ عن قَدَمه. ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعثَ به دِحْيَةُ إلى عظيم بُصْرَى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من مُحمّدٍ عبدِ الله ورسوله إلى هِرَقْلَ عظيمِ الرومِ. سلامٌ علَى مَنِ اتَّبعَ الْهُدَى. أما بعدُ، فإنّي أَدْعوكَ بدعايَة الإسلام: أَسْلمْ تَسْلَمْ، يُؤتك الله أَجرَك مَرَّتَين. فإن تَوَلَّيْتَ فإنَّ علَيك إِثْمَ الأَريسيِّينَ. و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَن: لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ! فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا: اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ!﴾ [آل عمران 64]»

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفَرَغَ من قراءة الكتاب كَثُرَ عنده الصَّخَبُ وارتَفعت الأصواتُ، وأُخرِجْنا. فقلت لأصحابي حين أُخرِجنا "لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ؛ إنّه يَخافُه مَلِكُ بني الأَصفَر!" فما زِلتُ مُوقِنًا أنّه سيظهَرُ حتى أدخلَ اللهُ عليَّ الإسلامَ. وكان ابن الناطور، صاحبُ إيلياءَ وهِرَقْلَ، سُقُفاً على نصارى الشام، يُحَدِّث أنّ هِرَقْلَ حين قدِم إيلياءَ أصبح يوما خبيثَ النفس، فقال بعض بَطارِقَته "قد استنكرنا هيئتَك!" قال ابن الناطور: وكان هرقل حَزّاءً يَنظُرُ في النجوم، فقال لهم حين سألوه "إنّي رأيت الليلةَ حين نظرتُ في النجوم مَلِكَ الخِتانِ قد ظَهَرَ؛ فمَن يَخْتَتِنُ من هذه الأُمَّة؟" قالوا "ليس يَختتن إلاّ اليهود، فلا يَهُمَّنَّك شأنُهم، واكتُب إلى مَدائنِ مُلكِك فيقتلوا مَن فيهم من اليهود!" فبينما هم على أمرهم أُتيَ هِرَقْلُ برجل أَرسل به مَلِكُ غَسّانَ يُخبِرُ عن خَبَر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما اسْتَخْبَرَه هِرقل قال "اذهبوا فانظروا أَمُخْتَتِنٌ هو أم لا؟" فنظروا إليه فحدَّثوه أنّه مُخْتَتِن، وسأله عن العرب فقال "هم يَختتنون" فقال هرقل "هذا؛ مُلْكُ هذه الأمَّة قد ظهر!" ثم كتب هرقل إلى صاحبٍ له برُومِيَّة –هي روما عاصمة إيطاليا– وكان نظيرَه في العلم، وسار هِرَقْل إلى حِمْص. فلم يَرِم حمصَ حتى أتاه كتابٌ من صاحبه يوافق رأيَ هرقل على خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنَّه نَبيٌّ، فأذَّن هرقل لِعُظماء الروم في دَسْكَرَة له بِحِمْص ثم أمَر بأبوابها فغُلِّقَت، ثم اطَّلَع فقال "يا معشرَ الروم، هل لكم في الفلاح والرُّشْد وأن يثبت ملكُكُم؛ فتُبايِعوا هذا النبيَّ؟" فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُر الوَحْش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت. فلمّا رأى هرقلُ نفرتَهم وأَيِس من الإيمان قال "رُدُّوهم عليَّ!" فقال "إنّي قلتُ مَقالتي آنِفا أختبِرُ بِها شِدَّتَكم على دينكم؛ فقد رأيتُ!" فسَجَدوا له ورَضُوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل.

استغرَقَت مُدّة الوَحْيُ ثلاثا وعشرين سنة، فكان من آخر ما نزل به جبريلُ على محمد عليهما السلام قولُه تعالى ﴿اليومَ أَكْمَلتُ لكم دينَكم وأَتممتُ عليكم نِعمتي ورضِيتُ لكم الإسلامَ دينا﴾ [المائدة3] وكان ذلك يومَ الجمعة تاسعَ ذي الحجة لعشرٍ من الهجرة، كما أَخبَرنا أميرُ المؤمنين عمر

بن الخطّاب رضي الله عنه وجزاه خيرا[1]، فقام رسول الله من غده يخطُب الناسَ فقال «الزمانُ قد اسْتدارَ كهيئة يومِ خَلَق اللهُ السموات والأرض؛ السَّنةُ اثنا عشر شهرًا منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ مُتَوالياتٌ: ذو القَعْدة وذو الحِجّة والمُحَرّم، ورَجَبُ مُضَر الذي بين جُمادَى وشَعْبان؛ أيُّ شهرٍ هذا؟» قالوا "الله ورسولُه أعلم" فسَكتَ حتى ظَنُّوا أنه سيُسمِّيه بغيرِ اسمه. قال «أليس ذو الحِجّة؟» قالوا "بلى" قال «فأيُّ بَلَدٍ هذا؟» قالوا "الله ورسوله أعلم" فسكت حتى ظَنُّوا أنه سيسمّيه بغير اسمه. قال «أليس البَلْدَة؟» قالوا "بلى" قال «فأيُّ يومٍ هذا؟» قالوا "الله ورسوله أعلم" فسكت حتى ظَنُّوا أنه سيسميه بغير اسمه. قال «أليس يوم النَّحْر؟» قالوا "بلى" قال: «فإنّ دماءَكم وأموالَكم وأَعراضَكم عليكم حَرامٌ كحُرْمَة يومِكم هذا في بَلَدِكم هذا في شهركم هذا! وستلقَوْن ربَّكم فسيسألُكم عن أعمالكم؛ ألا فلا ترجِعوا بعدي كُفّارًا يضرِب بعضُكم رِقابَ بعض! ألا لِيبلِّغْ الشاهدُ الغائبَ، فلعلَّ بعضَ مَن يُبلَّغُه أن يكونَ أَوْعَى له من بعض مَن سَمِعه!» ثم قال «ألا هل بلَّغْتُ، ألا هل بَلّغت؟!»[2] ونحن نشهد أنَّه بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على مَحجَّةٍ بيضاءَ، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالِك، فصلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يقول الله ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؛ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ، وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ثم بيَّن أن نتيجةَ هذه المقدِّمات إنما هي الصلوات الخمس المشارُ إليها بالتسبيح والحمد فصدَّرها تعالى بفاء التعقيب قال ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ وهما صلاتا المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر، ثم شرع سبحانه في سَرد الآيات الدالَّة على صِدق هذا فقال ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

[1] خرجه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي.

[2] خرجه البخاري في المغازي عن أبي بَكرَةَ، واسمه نُفيع بن الحارث.

الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ! وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ! وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ! وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ! وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ! وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ! وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً، مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ!﴾ فذكر آياتٍ عظيمةً تدلُّ على قُدرته وهي خلقُنا من تراب وخلق أزواجنا منّا وخلق السماوات والأرض واختلاف لغاتنا وألواننا ومَنامنا بالليل والنهار وسعينا لطلب الرّزق، وما في البرق والمطر من إحياء للأرض بعد القحط وما في قيام السماء والأرض من غير أعمدة بل بأمره وخروجنا يومَ البعث، يسردُها تعالى بعد قوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ...﴾ ما لا يقلُّ عن ستّ مرات ليُنبِّهنا على أنَّه مالك كلِّ شيء والمتصرِّف فيه وهو قولُه سبحانه ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؛ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ!﴾ أي مطيعون، والمطيع هو القانت، كما في قوله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ والصلاة أجلى مظاهر القنوت، فالعبدُ لا يأتي فيها بشيء من عند نفسه، بل بما أمره الله به على لسان رسوله، فهو في الصلاة قانتٌ مُتلبِّسٌ بالطاعة التامَّة، إلى أن قال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ؛ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا: كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ!﴾ [الروم 30-32] فإمَّا أن تُحافظوا على صلاة الجماعة أو أن تقعوا في الشِّرك، إمّا أن تكونوا أهلَ سنَّة وجماعة أو أصحابَ بدعة وفُرقَة. فدلَّت هذه الآيات على أنَّ إيجادَ كلِّ واحد منّا يقتَضي منه الصلاةَ جماعةً لأنَّها مُقتَضَى الخَلق.

فالشرك طارئٌ والأصلُ فينا موافقةُ دين الله، وذلك لأنَّه كلُّه موافق لفطرة الله، بل وقد جاء في تفسير عبد الرزاق أن الحسن البصري قال "فطرَةُ اللهِ الإسلامُ" ويعضُده ما بلغنا عن عبد الرحمن بن أبزَى قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما.»[1] وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسَانه كما تُنتَجُ البهيمةُ بَهيمَةً جَمعاءَ هل تُحسُّون فيها من جَدْعاء؟» ثم يقول أبو هريرة ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ؛ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[2] ومرّ عمر بن الخطاب بمُعاذ بن جبل فقال "ما قِوام هذه الأُمَّة؟" قال معاذ "ثلاثٌ وهُنّ المنجيات: الإخلاص وهي الفطرةُ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاة وهي الْمِلَّة، والطاعة وهي العِصْمَة" فقال عمر "صدقتَ!"[3] ورأى حذيفة مُصلِّياً لا يُتِمُّ الركوعَ والسجود فقال "ما صلَّيتَ، ولو مُتَّ مُتَّ على غير الفطرة التي فطر الله محمدا عليها!"[4] فالصلاةُ أصيلَةٌ في بني آدم لأنّها من فطرة الله تعالى.

قال النبي ذاتَ يوم في خُطبة «ألا إنّ ربي أمرني أن أعلِّمَكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا: كلُّ مال نَحَلْتُه عبدا حلالٌ! وإنّي خلقتُ عبادي حُنفاءَ كلَّهم، وإنّهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالتهم عن دينهم وحرّمَت عليهم ما أحْلَلتُ لهم وأمرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّل به سُلطانا!»[5] فما جاء الأنبياءُ إلا لإصلاح العالَم وليُعلِّموا الناس كيف يقيمون فِطَرَهم التي غيَّرتها الشياطين وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم «إنّما بُعثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاق!»[6] حتى يكون سلوك

[1] خرجه الدارمي في الاستئذان وأحمد عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه.

[2] خرجه البخاري في الجنائز ومسلم وأحمد.

[3] رواه في 'جامع البيان في تأويل القرآن' ج20-ص89، بتحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

[4] خرجه البخاري في الأذان و النسائي في السهو وأحمد.

[5] جزء من حديث قد سيق بتمامه خرجه مسلم في الجنة وأحمد والبزار عن عياض بن حمار المجاشعي.

[6] خرجه أحمد ح8939 عن أبي هريرة، وصححه الأرناؤوط، ورواه الحاكم ومالك بلاغًا.

الناس موافقًا لما عليه الخَلق، وسبيل ذلك في اعتناق الإسلام واتباع الرسل والمحافظة على العبادات وعلى رأسها الصلاةُ، كما بلغنا عن الحسن البصري قال: حدّثنا أبو هريرة، إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم «تجيء الأعمالُ يومَ القيامة؛ فتجيء الصلاة فتقول "يا ربِّ، أنا الصلاة" فيقول: إنّكِ على خَيْر! ثم يجيء الصيام فيقول: إنك على خير! ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول: إنكِ على خير! ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب إنّك السَّلام وأنا الإسلام فيقول: إنك على خير؛ بك اليوم آخُذ وبك أعطي!» قال الله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا؛ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ!﴾ [آل عمران 58][1] فأوَّل ما يسأل العبد عنه الصلاةُ.

الصلاةُ أهمُّ وظائف الرسل عليهم السلام لقول الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ؛ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ!﴾ [الأنبياء 73] وقال إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ، وَمِن ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ!﴾ [إبراهيم 40] أي صلاتي. لذا فرضها الله تعالى عليهم من أوّل وَهلة، فأوّلَ ما تكلَّم عيسى ﴿قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا!﴾ [مريم 30-31] وأوَّل ما كلَّم الله موسى قال له ﴿إِنَّنِي أَنَا، اللَّهُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا؛ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي!﴾ [طه 9-14] وكذلك فرضَ الله على محمّد الصلاة أوّلَ ما أوحَى إليه.

قالت عائشة: كان أوَّلُ ما بُدِئَ به رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، مِن الوَحْيِ الرؤيا الصادقةَ في النَّوم؛ فكان لا يَرى رُؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ؛ فكان يَخلُو بغار حِراءٍ يَتَحَنَّثُ فيه، وهو التَّعبُّد، اللياليَ أُولاتِ العَدَد، قبلَ أن يرجِع إلى أهله ويَتَزوَّدَ لذلك، ثم يرجِع إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لِمِثلِها. حتى فَجئَه الحقُّ وهو في غار حِراءٍ. فجاءه الْمَلَكُ فقال «اقرَأْ!» قال «ما أنا بقارئ؟» قال «فأخذني فغطَّني، حتى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثم أرسلني فقال: اقرأْ!» قال «قُلتُ: ما أنا بقارئ؟» قال «فأخذني فغطَّني الثانيةَ، حتى بَلغ مني الْجَهد، ثم أرسلني فقال "اقرأْ!" فقلتُ: ما أنا بقارئ؟ فأخذني فغطَّني الثالثةَ، حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال ﴿اقْرَأْ

[1] خرجه أحمد ح8727 وأبو يعلى والطبراني ورجالُه ثقاة، وقد صرَّح الحسن بسماعه من أبي هريرة.

باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ؛ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذي عَلَّمَ بالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ!﴾ [العلق 1-5]» فرجَع بِها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَرجُفُ بَوادِرُه حتى دخل على خديجةَ فقال «زَمِّلوني، زمّلوني!» فزمَّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوْعُ، ثم قال لخديجة «أَيْ خديجةُ، ما لِي؟» وأخبَرها الخبرَ، قال «لقد خَشيتُ على نفسي!» قالت له خديجةُ "كَلاَّ، أَبشِرْ؛ فَوَاللهِ لا يُخْزِيك اللهُ أبدًا؛ واللهِ، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتَصدُقُ الحديثَ وتَحمِلُ الكَلَّ وتُكسِبُ الْمَعدومَ وتَقري الضَّيفَ وتُعينُ على نوائِبِ الْحَقِّ!" فانطَلَقتْ به خديجةُ حتى أتتْ به وَرَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أَسَدِ بنِ عبد العُزَّى، وهو ابنُ عمِّ خديجةَ، أخي أبيها. وكان امرَأً تَنَصَّرَ في الجاهليَّة، وكان يكتُب الكتابَ العربيَّ ويكتبُ من الإنجيل بالعربيّةِ ما شاء اللهُ أن يكتُب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجة "أيْ عَمِّ، اِسْمَعْ مِن اِبنِ أخيك!" قال ورقةُ بنُ نوفلٍ "يا ابنَ أخي، ماذا ترى؟" فأخبره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَبَر ما رآه. فقال له ورقةُ "هذا النامُوسُ الذي أُنزِلَ على موسى صلَّى الله عليه وسلم! يا لَيْتَنِي فيها جَذَعا، يا لَيتَني أكونُ حيًّا حين يُخرِجُك قومُك!" قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «أَوَمُخْرِجِيَّ هُم؟» قال ورقةُ "نعم، لم يأتِ رجلٌ قَطُّ بما جئتَ به إلاّ عُودِيَ! وإن يُدرِكْني يومُك؛ أَنصُرْك نَصرًا مُؤَزَّرا!!"[1] فهكذا أسلَم ورقة وآتاه الله أجرَه مرَّتين.

لقد كان محمّد صلى الله عليه وسلَّم في أتَمّ الاستِعداد لِتلقّي الوحي، ولولا ذاك ما ثَبت لرؤية جبيرلَ ذي القوَّة ولزَهَقت نَفسُه عند ضمّاته الثلاث، بل قال «ما أنا بقارئ؟» يسألَ عمّا يلزَمه أن يقرأَ. وهنا مسألة وهي أن 'ما' ليست نافيةً بل هي للاستِفهام، وإن دخلت الباءُ على اِسم الفاعل في قوله «بقارئ» فقد نقل ابنُ حَجَرٍ أنّه حُكي جوازُه عن الأخفش، ثم ساق ثلاثَة أقوال، ثالثُها أنَّ 'ما' اِسمُ استِفهام ثم قال: ويؤيِّدُه أنّ في رواية أبي الأسود في 'مَغازيه' عن عُروة أنّه قال «كيف أقرأ؟» وفي رواية عُبيد بن عُمير عن ابن إسحاق «ماذا أقرأ؟» وفي مُرسَل الزُّهري في

[1] خرجه مسلم في الإيمان والبخاري وغيرهما.

’دلائل‘ البيهقي «كيف أقرأ؟»؛ كل ذلك يؤيِّد أنها استفهامية.[1] ولو كانت ’ما‘ حرفَ نَفي لكان معنى جوابِ النبي "لَن أقرأ أبدًا!" وخاصَّةً بعد دخول ’باء‘ التوكيد على اسم الفاعل، وهذا مُمتنع قطعًا لأنّ المقام مَقامُ امتثالٍ ومُبادرَة لا مقام إباء وإدلاءٍ بالموانع.

ثم إنَّ جبريلَ لَم يأتِ محمّدا برِسالَة مكتوبة يطلُب منه قراءتَها، حتى يعتَذر بعدم قُدرته على القِراءة، بل قد جاءَه لِيُعلِّمَه القُرآنَ؛ فالْمَلَكُ يأمُر بالقِراءة والنبيُّ يسأل عمَّا تَلزمُه قراءتُه. أما ’الباء‘ في قوله «ما أنا بقارئ؟» فإنّها تفيدُ تقويةَ تَّشوُّفِ النبيِّ وإرادتَه تَمامَ الامتثالِ للأمر بالقراءة والْمُدوامَة عليها؛ لا يحتمِل السياقُ غيرَ هذا. أمّا ما وردَ بأنَّ جبريل جاء النبيَّ بصحيفةٍ وأمرَه بقراءتها فهذا لا يصحُّ، فقد روى الحاكم في كتاب التفسير من ’المستَدرَك‘ قال: حدّثنا أبو علي الحافظ أنبأ علي بن سالم الحافظ ثنا محمد بن حماد ثنا عبد الرزاق أنبأ مَعمر عن عمرو بن دينار عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بحِراء إذْ أتاه الملَكُ بنَمَط مِن دِيباجٍ فيه مَكتوبٌ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ!﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق 1-5] فسمعتُ أبا علي الحافظ – هو النيسابوري شيخ الحاكم وكان أحدَ أئمَّة الحديث– يقول "ذكرُ جابر في إسناده وَهمٌ، فقد أخبرناه محمد بن إسحاق الثقفي أنبأ محمد بن عبد الملك بن زِنجُويَه ثنا عبد الرزاق أنبأ معمر أخبرني عن عمرو بن دينار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بحراء.. فذكرَه، انتَهى. فالصواب أن الخبر مُرسَل كما قال الذَهبي في ’التَّلخيص‘، وكذلك رواه عبدُ الرزاق في ’التَّفسير‘ عن الزُّهري مُرسلاً وكذا ابن إسحاق في ’السيرة‘ عن عُبيد بن عُمير مرسلاً أيضا؛ فجبريل لَم يأتِ بمَكتوب.

اتّفق المفسرون على أن جبريل تلا على النبي هذه الآيات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ! خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ! وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ؛ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق 1-5] ووقَف عند هذا الحدّ وذهب وترَكه، وهو ظاهر حديثِ عائشة. وعن محمد بن عباد المَخزومي التابعي، أنه سمع بعضَ علماء الصحابة يقول "كان أوّل ما أنزل الله عزّ وجل على نبيه صلى الله

[1] ’فتح الباري‘ ج1-ص24، دار المعرفة، بيروت.

عليه وسلم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذا صدرُها الذي أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ حِراءٍ، ثم أنزل آخرُها بعد ذلك بما شاء الله"[1]. فلم يكن قوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ جوابًا على سؤال «ما أنا بقارئ؟» بل هو إشارة إلى ما تكون به القراءةُ لا عين الْمَقروء. وبعد بُرهَة من الزمن رجع جبريلُ بفاتحة الكتاب إجابةً لسؤال النبيِّ «ما أنا بقارئ؟»

ذلك ما بلغنا عن عَمرِو بنِ شُرَحْبيل يُخبِر أنّ رسول الله قال لخديجة «إني إذا خَلَوتُ وَحْدي سَمِعتُ نداءً، وقدْ واللهِ خشيتُ أن يكون هذا أمرا!» فقالت "مَعاذَ الله، ما كان اللهُ ليفعلَ بك؛ فوَاللهِ إنك لتؤدِّي الأمانةَ وتَصِلُ الرَّحِمَ وتَصدُقُ الحَديثَ!" فلمَّا دخل أبو بكر، وليس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثَمَّ، ذكرتْ خديجةُ حديثَه له، وقالت "يا عَتيقُ، اذهبْ مع محمد إلى وَرَقةَ!" فلمّا دخل رسولُ الله أخذ أبو بكر بيَده فقال "انطلقْ بنا إلى ورقةَ!" فقال «ومَن أَخبرَك؟» قال "خديجةُ!" فانطلَقا إليه فقصَّا عليه، فقال «إذا خَلَوتُ وَحدي سَمِعتُ نداءً خَلفي "يا مُحمّدُ، يا مُحمد!" فأنطلِقُ هاربًا في الأرض» فقال ورقةُ "لا تفعلْ، فإذا أتاك فَاثبُتْ حتى تسمَعَ ما يقول، ثم ائْتني فأَخبرني!" فلما خَلا، ناداه «يا مُحمَّدُ، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [البسملة] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 1 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ 2 مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ 3 إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ 4 اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 5 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ 6 غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ 7﴾ [الفاتحة] قُلْ: لا إله إلا الله!» فأتى النبيُّ ورقةَ فذَكر ذلك له، فقال له ورقةُ "أَبشِرْ ثم أبشر! فأنَا أَشهَدُ أنّك الذي بَشَّرَ به ابنُ مريمَ، وأنّك على مِثل ناموسِ موسَى، وأنك نبيٌّ مُرسَل، وأنّك سوف تُؤمَر بالجهاد بَعد يومِك هذا! ولئن أدرَكني ذلك، لأُجاهِدنَّ معك!" فلما تُوُفِّيَ ورقةُ قال رسول الله صلى الله

[1] وخرَّج البيهقي في 'دلائل النبوّة' رقم 462، ج2-ص26، دار الحديث.

عليه وسلم «لقد رأيتُ القِسَّ في الجنة عليه ثِيابُ الحرير، لأنَّه آمن بي وصدَّقني» يعني ورقة[1]. فالحادِثتان مُختلفتان تُبيِّن إحداهما الأخرى.

ويدلّ هذا الحديث الأخير على أن 'الفاتحة' نَزلت مباشرةً بعد فواتح 'العلق' وأنها جوابُ النبي صلى الله عليه وسلَّم عن سؤاله «ما أنا بقارئ؟» وسبقَتها آيةُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مع أنّها ليست من الفاتحة لتكون تبَعًا لما أُنزلَ قبلَها والتي مفادُها القراءة باسم الذي خلق وعلَّم، وذاك الاسم هو 'الرحمن' كما بيّنه قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن 1-4] فالبسمَلة آيةٌ مستقلّة تقديرُها في قلبِ الْمُصلِّي "أَقرأُ باسم ربي الذي خلق وعلَّم وهو الرَّحمنُ"، هذا سرُّ قراءة البسملة في الفاتحة وفي غيرها دون الجهر بها أحيانًا.

وقد اختلف الصحابة في ذلك اختلافًا كبيرا، فعن أنس بن مالك قال: صلَّيتُ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر وعمر وعثمان، وكانوا لا يجهرون بـــ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[2] وعن الحسن عن سمرة قال: كان لرسول الله سَكتَتان؛ سكتةٌ إذا قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

[1] خرجه البيهقي في 'دلائل النبوّة' رقم 463، ج2-ص27، المصدر السابق. وقال "فهذا مُنقَطِع، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعدَما نزل عليه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ و ﴿يا أيها المدثر﴾ والله أعلم" قلتُ: لا شك أنها نزلت بعد الآيات الخمس من سورة العلق، أما المدّثر فالظاهر لا. وإنَّما عنَى البيهقي بقوله "منقطع" أنّ عَمرَو بن شُرَحْبيل راوي الحديث من التّابعين ولم يذكر اسمَ الصحابي الذي سمعه منه، فيكون الحديث على هذا مُرسَلا. إلا أنَّه مع ذلك مقبولٌ وحجّة لجلالَة أبي ميسرة عَمرو بنِ شُرَحْبيل الْهَمْداني الكوفي، فهو مُخَضرمٌ مِن كبار التَّابعين، سمع عُمر بنَ الخطّاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، وكان من أكابر أصحابه، وحُذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي وقيس بن سعد بن عُبادة ومعقل بن مُقرِن الْمُزَني وعائشة أمّ المؤمنين والنُّعمان بن بَشير، وآخرين رضي الله عنهم. قال يحيى بن مَعين، وهو مَن هو: أبو مَيسَرة ثِقَةٌ. ويكفي تعديلا له أن خرَّج له أصحاب الأمّهات سوى ابن ماجه. انظر 'تهذيب التهذيب' لابن حجر ج8-ص43، دار الفكر. أما باقي رجاله فذكر السيوطي نقلا عن ابن حجر أنّه قال عنه: هذا مُرسَل رجالُه ثقاةٌ، كما في 'الإتقان في علوم القُرآن' ج1-ص82، دار الجيل.

[2] خرجه أحمد رقم 12868، والنسائي وابن خزيمة، وصحّحه الأرناؤوط، وأصلُه في الصحيحين.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وسكتة إذا فرَغ من القراءة! فأنكر ذلك عِمران بن حُصين، فكتبوا إلى أُبَيٍّ بن كَعب فكتب أن "صَدَق سَمُرَةُ" هذان الخبران يدلاّن على عدم الجهر بالبسملة، وفي المقابل فقد بلغنا عن عبد الله بن أبي مُليكة عن أمِّ سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ يُقطِّع قراءتَه آيةً آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهذا يدلُّ على أنّه كان يجهر بها ويعضده ما بلغنا عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجهر بــ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[1]؛ هذا الاختلاف لا يدع شكّا في أن البسملة ليست من الفاتحة، ولو كانت منها لما اختُلف في كونها آية أم لا ومنها أم لا، ولقُرئت كسائر آياتِها.

البسمَلة آيةٌ من سورة النَّمل، أما سائر السُّوَر فلا. وهي آيةٌ من القرآن ولكنَّها مستقِلّة تفصلُ بين السُّور، إلا سورتَي التوبة والأنفال. قال الشوكاني "وقد جزم قُرّاء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وخالفهم قُرّاء المدينة والبصرة والشام، فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا: إنما كتبت للفصل والتبرّك." ويعضد هذا ما بلغنا عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعرف فَصلَ السورة حتى تنزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.[2] وإلى هذا ذهب جماعةٌ من العلماء، فإن العثيمين يقول "ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله؛ وهذا القول هو الحق.. الصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة، كما أن البسملة ليست من بقيَّة السور." ويقول في كتاب آخر "ليست البسملة من الفاتحة، بل هي آيةٌ مستقِلّة يُفتتح بها كلُّ سورة مِن القرآن؛ ما عدا براءة.. فإن قال قائل: إذا قلتم ذلك فكيف الجواب عمَّا نجدُه في المصاحف أنّ أول آية في الفاتحة هي البسملة؟ فالجواب: هذا الترقيم على قول بعض أهل العلم: أنَّ البسملة آية من الفاتحة. ولهذا في بقية السُّور لا تُعدُّ مِن آياتها ولا تُرقَّم. والصَّحيحُ أنها ليست مِن الفاتحة، ولا مِن غير الفاتحة، بل

---

[1] خرج الأخبار الثلاثة الدرقطني في في سننه في أبواب البسملة من الصلاة إسنيد صحيحة.

[2] صحيح خرجه أبو داود في القراءة في الصلاة والبيهَقي في 'السنن الكبرى'.

هي آية مستقلَّة." ويقول ابن تيميّة "إن البسملة آيةٌ من كتاب الله حيث كتبها الصحابة في المصحف، إذ لم يكتبوا فيه إلا القرآن وجرَّدوه عما ليس منه كالتخميس والتعشير وأسماء السور. ولكن مع ذلك لا يقال هي من السورة التي بعدها كما ليست من السورة التي قبلها، بل هي كما كُتبت: آيةٌ أنزلها الله في أول كل سورة، وإن لم تكن من السورة؛ وهذا أعدل الأقوال في هذه المسألة. وسواء قيل بالقطع في النفي أو الإثبات، فذلك لا يمنع كونها من موارد الاجتهاد التي لا تكفير ولا تفسيق فيها للنافي ولا للمُثبِت. بل قد يقال ما قاله طائفة من العلماء: إنّ كل واحد من القولين حقٌّ وإنها آية من القرآن في بعض القراءات، وهي قراءةُ الذين يفصِلون بها بين السورتَين، وليست آية في بعض القراءات، وهي قراءة الذين يَصِلون ولا يفصلون بها بين السورتين.[1]

فالفاتحة نَزلت بعد فواتح العلق جوابًا لسؤال النبي «ما أنا بقارئٍ؟» وسبقَتها البسملة ثم جاء تمامُ سورة العلق وهو قول الله ﴿كَلاَّ، إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى؛ إنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى! أَرَأَيْتَ الَّذي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى؛ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى؟! كَلاَّ، لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ؛ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ! فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ. كَلاَّ، لا تُطِعْهُ! وَاسْجُدْ! وَاقْتَرِبْ!﴾ [العلق 6-19] وموضوع هذه السورة هو الصلاةُ، قد افتتَحها بقوله ﴿اقْرَأْ!﴾ واختتَمها بقوله تعالى ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ!﴾ وقد بيّن رسولُ الله هذا الارتباطَ بين القراءة والارتقاء والقُرب، فقال «يُقال لصاحِب القرآن: اقرَأ وَارْتَقِ، ورَتِّلْ كما كُنتَ تُرتِّل في الدنيا؛ فإنّ مَترِلَك عند آخرِ آيةٍ تقرؤُها!»[2] وقال عليه السلام «أَقربُ ما يكون العبدُ مِن ربه وهو ساجدٌ!»[3] وهذا ما أكّده صلى الله عليه وسلم بقوله «مَن قرأَ حَرفًا مِن كتاب

---

[1] نقلا من 'فتح القدير' للشوكاني ج1-ص1 وتفسير العثيمين ج2-ص3 و'شرح زاد المستقنع' له ج3-ص57 و 'مجموع الفتاوى' لابن تيميّة ج13-ص399.

[2] خرجه أبو داود في الصلاة والترمذي عن ابن عَمرٍو وزاد عن أبي هريرة وصحّحهما.

[3] خرجه مسلم في الصلاة وأبو داود عن أبي هريرة.

الله فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها، لا أقولُ ﴿الـــم﴾ [البقرة 1] حرفٌ، ولكن ألِف حرفٌ ولام حرفٌ وميم حرف!»[1] ولكن ليست هذه الحسنات المُضاعَفَة على القراءة كيفما اتّفق وإنّما هي خاصّة بالقراءة في الصلاة. ثم لا يزال القارئُ يرتَقي في صلاته إلى أن يبلُغ مُنتهَى القُرب حيث لا مَجال للقراءة، كما أشار إليه النبيُّ بقوله «إني نُهيتُ أن أقرأ القرآنَ راكعا أو ساجدا!»[2]

المعراج

كان فرضُ الصلاة على النبي أوّلَ الوحي، ولكنهم يُطلِقون القولَ بأنّها فُرِضت ليلةَ المِعراج. وهذا يثير اللَّبس والاضطِرابَ في الأذهان، كيف وقد اتَّضح أن سورتَي العلق والفاتحة خاصّتان بالصلاة، وفي السيرة ما يدلُّ قطعا على أنَّ النبي كان يؤُمُّ أصحابَه منذ البعثة، وهو ظاهر فيما نزَل بعد العَلق والفاتحة كالمُزَّمِّل والمدَّثر حيث جاء ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثِّر 41-42] و'مِن' تفيد هنا المَعيّة أي: لم نكن معهم حين كانوا يُصلون جماعةً، وهذا واضحٌ.

بل وقد أمَّ محمدٌ الأنبياءَ قبلَ أن يُعرَجَ به، قال صلى الله عليه وسلم «أُتيت بدابَّة فوقَ الحمار ودونَ البَغل، خَطْوُها عند مُنتهَى طَرْفها، فركِبتُ ومعي جبريلُ، فسِرتُ فقال "انزِلْ، فصَلِّ!" فصلَّيْتُ، فقال "أتدري أين صلّيتَ؟ صَلَّيت بطَيْبة وإليها الْمُهاجَرُ" ثم قال "انزِل، فَصلِّ!" فصلَّيتُ، فقال "أتدري أين صلَّيتَ؟ صلّيتَ بطُور سيناءَ، حيث كلَّمَ اللهُ موسى" ثم قال "انزِل، فصلِّ! فصلَّيتُ، فقال "أتدري أين صلّيت؟ صلَّيتَ ببَيت لَحْمٍ، حيث وُلِد عيسى بنُ مريم" ثم دخلتُ بيتَ الْمَقْدِس فَجُمِع لِيَ الأنبياءُ، فقدَّمني جبريلُ حتى أمَمتُهم»[3] أما الدابَّة التي «خَطْوُها عند مُنتهَى طَرْفِها» وفي رواية «يَقعُ خَطْوُه عند أقْصَى طَرْفِه»[4] فهي البُراقُ، والطرْف النَّظَر، ومَعناه أنّها تسير

---

[1] خرجه الترمذي في فضائل القرآن عن عبد الله بن مسعود، وقال: حسن صحيح.

[2] خرجه مسلم في الصلاة وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن خزيمة عن عبد الله بن عباس.

[3] أول جزء من حديث المعراج، خرجه النسائي في أوّل كتاب الصلاة عن أنس بن مالك.

[4] خرجه مسلم في الإيمان عن أنس بن مالك والبخاري في المناقب عن مالك بن صعصعة.

بسُرعة الضَّوء، لذا اشتُقَّ اسْمُها مَن البَرْق. فأُسرِيَ بالنبيِّ في تلك الليلة الْمُباركة وعُرِجَ به جسدًا وروحًا ويقظَةً، وقَطع ما بين مكة وبيت المقدس ثم ما بين الأرضِ وسِدرة الْمُنتَهى، في سَرْبٍ زَمانيٍّ، دون أن يَمرَّ الزمانُ على الأرض.

الذي فُرِض تلك الليلةَ إنّما هو الصلوات الخمس جماعةً، كما جاء في سورة الإسراء حيث يقول الله ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي مِن زوالِها ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إلى ظلامِه، وفيه أربعُ صلوات متتاليات وهنّ الظُّهر العصر والمغرب والعِشاء ثم قال ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاتَه لكونها فذَّة غيرَ متّصلة بغيرها ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا!﴾ [الإسراء 78] هكذا، فنصُّ فرضِ الصلوات الخمس في سورة الإسراء نفسِها!

وقول الله تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ له معنًى شرعي دقيق، ويدل عليه ذكرُ الصلوات الأربعِ المتتاليات. بحيث يظَلّ الناس قائمين على صِلة لا تنقطع بالمسجد إلى أن يُصلُّوا العشاءَ، فينقطعون عن المسجد إلى حين صلاة الفجر. تسمية هذه الصلاة قرآنَ الفجر تدلُّ على جمعيَّتها وأنها تُقابل الصلوات الأربع الأولى، وما سُمِّيَ القرآن قرآنًا إلا لجَمْعِه كلمات الله الشرعيّة، ومنه القَرية التي تجمع الناس والقِرَى وهو إكرام الضيف وضمُّه إلى الأهل. وأمّا كونُها مشهودةً فيدلّ عليه قولُ رسول الله «ينزِل ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقَى ثُلثُ الليلِ الآخرُ، يقول: مَن يدعوني فَأستجيبَ له، من يَسألني فأعطِيَه، من يَستغفِرُني فأغفرَ له!»[1] وقال صلى الله عليه وسلّم «يتعاقَبون فيكم مَلائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار ويَجتَمعون في صلاةِ الفَجر وصلاة العَصر، ثم يَعرُج الَّذين باتوا فيكم فَيسألُهم، وهو أعلم بهم: كيف تركتُم عبادي؟! فيقولون: تَركناهم وهم يُصلُّون وأتيناهم وهم يصلون!»[2] فقابلت وَسَطِيّةَ صلاةِ العصر جَمعيَّةُ صلاة الفجر ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا!﴾ [العاديات 5] وذاك قولُ الله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى، وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ!﴾ [البقرة 238] وصلاة العصر هي الصلاة الوُسطى، فعن علي أنّه قال: لما كان

---

[1] خرجه البخاري في التهجد ومسلم وأصحاب السنن إلا النسائي.

[2] خرجه البخاري في مواقيت الصلاة ومسلم والترمذي والنسائي ومالك وأحمد عن أبي هريرة.

يومُ الأحزاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَلأَ الله بيوتَهم وقبورَهم نارا؛ شَغَلونا عن الصلاة الوُسطَى حتى غابت الشمس!»[1] فهي العصر وقد اختلفت الروايات حولَها، فقيل هي الصُّبح وقيل الظّهر وقيل المغرب.

إقامُ الصلاة أمرٌ زائد على فعلها؛ فالصلاةُ ما يُفتَتَح بالتكبير ويُختَتم بالتسليم وهي دعاءٌ وذكرٌ بين يدَي شهادة لله بأنه الإله الحق الواحد ولنبيّه بالرسالة الصادقة، يُبتَغى بذلك التقرُّب إلى الله والتحبُّب إليه تعالى، أما إقامَتها فاجتماعُ الناس لها ليكوِّنوا الجماعةَ أي الأمَّة الواحدة المتَّحدة على عبادة الله وَحدَه. قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ، اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ، وَمِن ذُرِّيَّتِي! رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ!﴾ [إبراهيم 40] أي صلاتي، ففرَّقَ بين الإقامة والدعاء مع أن كليهما ينطلق على الصلاة، ذلك لأن إقامتها هي إقامةُ الدين كما بيّنه قوله سبحانه ﴿قُلْ: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى! وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ!﴾ ثمّ التَفتَ ليبيّن الإسلامَ لرب العالَمين فقال ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ!﴾ [الأنعام 71-72] وذلك قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ: أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي أقيموا الجماعةَ للصلاة ﴿وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ!﴾ ولا تتخلَّفوا عنها، فلمَّا كان هذا تشتيتًا لاجتماع الناس على الدّنيا وصدًّا لهم عن الإذعان للطواغيت ونَهيا لهم عن اتِّباع شياطين الإنس والجنّ، جاء بعدَه ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ!﴾ [الشورى 13] يا محمّدُ من إقامها وبناءِ المجتمع على أساس تلك العبادة لتكون بينهم وبين خالقهم تواصُلا دائمًا لا ينقطع.

يقتضي ذلك نزع السُّلطة من أيدي الحُكّام المستبدّين وبَسطَ كلمة الله الشرعية في البلاد لتكون هي العُليا، فيُبايَع الإمام ويُتلى القرآن وتَحيى السنّة ويعيش الناس على وقع الأذان لتُؤدَّى الصلاة جَماعةً ولتكون محورَ الحياة. هذا ما دلّ عليه قول الله ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى 38] أوّلُ الاستجابة إقامة الصلاة، عندها يتسنّى للأمَّة المسلمة أن تَظهر ليَجمَعَها الأمرُ الواحد فيتشاورون عند الحاجة ويُنفق

[1] خرجه البخاري في الجهاد ومسلم والأربعة.

أغنياؤهم على فقرائهم؛ هذا أصلُ الاجتماع الشرعي الذي أمر الله به ونهى عن خلافه فقال ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى! وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَان، وَاتَّقُوا اللَّهَ!﴾ [المائدة 2] فأمرَ بالأوَّل ونهى عن الثاني وتلك هي التّقوى، وقال سبحانَه ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ؛ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ!﴾ [آل عمران 104]

كان الْمعراج مُنعَرَجًا في مَسار الدَّعوة الْمُحمَّديَّة وإيذانًا بالتمكين لدين الله، قال النبيُّ «بينما أنا في الحِجْر مُضطجعا إذْ أتاني آت، فشقَّ ما بين هذه إلى هذه فاستَخرَجَ قَلبي، ثم أُتيتُ بطَسْتٍ من ذَهَبٍ مَملوءَة إيمانًا، فغُسل قلبي، ثُمّ حُشيَ..» وذكر مراحلَ المعراج إلى أن قال «ثم فُرِضَتْ عليَّ الصّلَواتُ؛ خَمسين صلاةً كلَّ يَوم. فرَجعتُ فمَرَرْتُ على موسَى فقال "بما أُمِرتَ؟" قلتُ "أُمِرتُ بخَمسين صلاةً كلَّ يوم!" قال "إنّ أُمَّتَك لا تَستَطيعُ خَمسين صلاةً كلَّ يوم، وإنّي واللهِ قد جرَّبْتُ النَّاسَ قَبلَكَ، وعالَجْتُ بَني إسرائيلَ أَشدَّ الْمُعالَجَة؛ فارجعْ إلى ربِّك فاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ لأَمّتك!" فرجَعتُ، فَوَضَعَ عنِّي عَشرًا، فرَجعتُ إلى موسى فقال مثلَه. فرجعتُ فوضَع عنِّي عشرًا، فرجعتُ إلى موسى فقال مثلَه. فرجعتُ فوَضع عني عشرا، فرجعتُ إلى موسى فقال مثلَه. فرجعتُ فأُمِرْتُ بعَشْرِ صَلَوَاتٍ كلَّ يوم، فرجَعتُ، فقال مثلَه. فرجَعتُ فأُمرتُ بخمْس صَلوات كُلَّ يوم، فرجعتُ إلى موسى فقال "بِمَا أُمِرْتَ؟" قلتُ "أُمِرتُ بِخمسِ صَلَوَاتٍ كلَّ يوم!" قال "إنّ أُمّتَك لا تَستَطيع خَمْسَ صَلوَاتٍ كُلَّ يوم، وإنِّي قَدْ جرَّبتُ النّاسَ قَبلَكَ وعالَجْتُ بَني إسرائيلَ أَشَدَّ الْمُعالَجَة؛ فارجعْ إلَى ربِّك فاسأَله التّخفيفَ لأمَّتك!" قلتُ "سألتُ ربِّي حتَّى اسْتَحْيَيْتُ، ولكنِّي أرضَى وأُسَلِّمُ!» قال «فلمّا جاوزتُ، نادَى مُناد: أَمضَيْتُ فَرِيضَتي، وخَفَّفْتُ عن عِبادي!»[1] وفي رواية «فقال: هي خَمسٌ وهيَ خَمسونَ؛ لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ!»[2]

مُحمَّد الْمَبعوثُ للخلق رحمةً؛	فَصَلِّ عليه ما حَيِــيتَ مُسْلما!
وأسرَى به نَحوَ السموات ربُّه	وأَركَبَه ظَهرَ البُـــراقِ وأكْرَما

---

[1] خرجه البخاري في المناقب وابن حبان وأحمد عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

[2] خرجه البخاري في أوّل الصلاة ومسلم وابن ماجه وأحمد عن أنس بن مالك عن أبي ذرّ.

وقَد فُتحت أبوابُـــها لِصُعوده فما زال يَرقَى مِن سماءٍ إلى سَما
ولاقَى بها قومًا من الرُّسْل؛ كلُّهم يقول له "يا مَرحبا" حين سلَّما
وكان به فَرضُ الصلاة وحـــبَّذا تَردُّدُه بين الكَـــليم مُـــكلَّما
وصيَّرها مِن بَعد خَمسين خمسةً فُروضًا، وأمرُ الله قَد كان مُبرَما

قولُه الله تعالى «هي خمس وهي خمسون» يعني أنَّ الصلاةَ عينٌ واحدة لا تتعدَّد في الحقيقة لأنّها صِلة. ولكن ما دامت خمسًا في أعيُن الناس فهي كذلك عند الله لقوله تعالى «أنا عند ظَنِّ عبدي بي!»[1]، بل وهي خمسون لما أعلَمنا الله، ثم يضاعِف تبارك وتعالى لِمَن يشاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أسلم العبدُ فحَسُنَ إسلامه كتب الله له كلَّ حسنة كان أَزلَفَها ومُحِيَتْ عنه كلُّ سيِّئة كان أزلفها. ثم كان بعد ذلك القِصاص؛ الحسَنةُ بعَشرَة أمثالِها إلى سَبعِ مائَةِ ضِعف، والسيئة بمِثلها، إلا أن يتجاوز الله عزّ وجل عنها!»[2]

ولَمَّا آذنَت كلمةُ الله الشَّرعية بأن تُبسَط في الأرض عند المعراج، لَم يَلبث النبي صلى الله عليه وسلم أن صدَع بما أُمِر به. ولكنّ كفّارَ قُرَيشٍ مَنَعوه واشتدَّ أذاهم له، إلى أن يسَّر الله جماعةً من الْخَزرَج فأسلموا، ثم رجعوا من عامِهم القابل فبايعوه على النُّصرة وأنّ مدينة يَثربَ ستكون له مُهاجَرًا آمِنًا. فهاجر صلى الله عليه وسلّم وكان أوّلَ ما فَعله عند قُدومِه المدينةَ بناءُ مسجد قُباء ثم المسجد النبوي، كما اتّفقت على بيانِه كتبُ السيرة.

فإذًا لَم تَكن الهجرةُ لتتحقَّقَ لولا المعراج، وذلك لأنّه سببُها وهي نتيجتُه. لَم يُهاجر محمّد صلى الله عليه وسلَّم إلاّ للتَّمكُّن مِن فَرض إقامة الصلاة كما هو واضح في قول الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء التي كرّست هذا والناسُ لا يعلمون ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ؛ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ، عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا! وَقُلْ: رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ إلى المدينة ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي﴾ من مكّة

---

[1] خرّجه البخاري في التوحيد ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

[2] خرجه النسائي في الإيمان عن أبي سعيد الخدري.

﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا!﴾ آمَنُ به رهبةَ أعدائك ﴿وَقُلْ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ! إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا!!﴾ [الإسراء 78-81] وهذه مُجاهَرة صارخَة بالقتال لا لَبس فيها، لذا اشتدَّت على النبي وطأةُ المشركين.

ولَما أُخرَج صلى الله عليه وسلم من مكّة وثبت الدينُ وارتفع الأذانُ بالصلاة، جاءه التّمكين في الأرض وآتاه الله السُلطانَ النصيرَ الذي طلبَه. قال تبارك وتعالى في الحديث القُدْسي «إنّما بعثْتُك لأَبتَليَك وأبتليَ بك، وأنزلتُ عليك كتابا لا يَغسلُه الماءُ؛ تقرؤُه نائمًا ويَقظانَ!» قال النبي صلى الله عليه وسلّم «وإنَّ الله أمرني أن أُحرِّق قُرَيشًا، فقلتُ: رَبِّ، إذَن يَثْلَغُوا رأسي فيَدَعوه خُبْزةً! قال: اسْتَخرِجْهم كما اسْتَخرَجوك واغْزُهُم نُغزِك وأَنفق فسُنُنفقْ عليك، وابعثْ جَيشًا نَبعَثْ خَمسةً مثلَه وقاتِلْ بِمَن أطاعَك مَن عَصاك!»[1] وذلك ما بلغنا عن ربعي بن حراش قال: حدثنا علي بن أبي طالب قال: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أتاه ناس من قريش فقالوا "إنه قد لَحِقَ بك ناسٌ مِن مَوالينا وأرِقّائنا ليس لهم رَغبَةٌ في الدين إلا فِرارًا من مَواشينا وزَرعِنا!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والله يا معشرَ قريش لتُقيمُنَّ الصلاةَ ولَتُؤتُنَّ الزكاةَ أو لأَبعَثَنَّ عليكم رَجُلاً فَيضرِبَ أعناقَكم على الدين!»[2] يعني على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

قال الله ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ، فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ! فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ!﴾ [التوبة 5] فقال صلى الله عليه وسلم عند ذلك «أُمرتُ أن أقاتِل الناسَ حتى يشهَدوا أن 'لا إله إلا الله وأنّ مُحمدًا رسولُ الله' ويقيموا الصلاةَ ويُؤْتوا الزكاةَ! فإذا فعَلوا ذلك؛ عصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم، إلاّ بِحَقّ الإسلام! وحِسابُهم على الله!»[3] هذا هو السلطانُ النصيرُ

---

[1] خرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها عن عياض بن حمار الْمُجاشِعي.

[2] خرّجه الحاكم في الأيمان وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة والبزار عن عبد الرحمن بن عوف.

[3] خرجه البخاري في الإيمان ومسلم عن عبد الله ابن عمر.

من لَدُن الله تبارك وتعالى، هيبَة للمسلمين ورهبة في قلوب المشركين. وهكذا أباح الله لنبيِّه دمَاءَ وأموالَ مَن أبَوا الإسلام، وجعلَ أمارتَهم تركَ الصلاة، كما دلَّ عليه قولُه تعالى ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فإقامة الصلاةِ غايةٌ والجهاد وسيلَةٌ إلى تحقيقها والدفاع عنها، لذا ضمن الله نُصرتَه لمن سعَى في إقامتها فقال بعدها ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ، إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ!﴾ ثم بيَّن تعالى مَن يَنصرونَه فقال ﴿الَّذِينَ إن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ؛ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ. وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ!﴾ [الحج 40-41]

ليس السلطانُ والتمكين مَقصورين على النبي، بل هما ماضيان لكلِّ مَن خلفَهُ في إقامة الصلاة إلى أن يأتيَ أمرُ الله، كما كانا لخُلَفائه الراشدين. معنى هذا أنّ النبيَّ لَم يستَخلف أحدًا على رأس دَولة، وإنّما استخلَف أبا بكر على إقامة الصلاة. قالت عائشة: لَمّا مَرِضَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَرَضَه الذي ماتَ فيه، أتاه بلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة، فقال «مُروا أبا بكر فَلْيُصلِّ!» قلتُ "إنّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ، إن يَقُمْ مَقامَك يَبكي فلا يقدرُ على القراءَة!" فقال «مُروا أبا بكر فَلْيُصلِّ!» فقلتُ مثلَه، فقال في الثالثة أو الرابعة «إنّكنّ صَواحِبُ يوسُفَ، مُروا أبا بكر فَلْيُصلِّ!!» فصلّى، وخرج النبيُّ صلّى الله عليه وسلم يُهادَى بين رجلين، كأنّي أنظر إليه يَخُطُّ برِجلَيْه الأرضَ، فلمّا رآه أبو بكر ذَهبَ يتأخَّرُ فأشار إليه أن "صَلِّ!" فتأخّر أبو بكر وقَعد النبي إلى جَنبه، وأبو بكر يُسْمِع الناسَ التكبيرَ[1]. ولا جرم أن يشتدّ غضبُ المصطفى صلى الله عليه وسلم لَمّا روجِع؛ لقد كان في آخر لَحظاتِ عمُرِه، ولا بُدَّ من الاستخلاف على الصلاة، و التي هي أعظَم أمور الدين كما مرَّ بيانُه؛ فاختارَ أبا بكرٍ الصِّدّيق بلا خلاف بين الصحابة كلِّهم.

وهناك نصوصٌ صريحة تدلُّ على استخلاف النبيِّ أبا بكر دون غيره، لا على رأس دولة كما يظنُّ الناس بل على إقامة الصلاة وما يترتَّب عليها من أمور المسلمين قاطبةً. فقد صحَّ عن القاسم بن محمد بن أبي بكر يروي عن عمَّته قال: قالت عائشة "وَارأساهْ!" فقال رسول الله صلى الله

[1] خرجه البخاري في الأذان ومالك ومسلم وابن ماجه وأحمد.

عليه وسلم «ذاكِ لو كان وأنا حَيٌّ، فأستغفرُ لكِ وأدعو لكِ!» فقالت عائشةُ "وَا ثُكلَيَاه، واللهِ إنّي لأظنُّك تُحبُّ مَوتِي؛ ولو كان ذاكَ لظَلَلْتَ آخرَ يَومِكَ مُعرِّسًا بِبَعض أَزواجِك!" فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «بل أنا وَارأساهْ! لقد هَمَمتُ -أو أردت- أن أُرسِل إلى أبي بكر وابنِه فأَعْهَدَ، أن يقول القائلون أو يتمنَّى الْمُتَمَنّون! ثم قلتُ: يأبَى الله ويدفَع المؤمنون أو يدفَع الله ويأبى المؤمنون!» وعن محمد بن شهاب الزُّهري قال: أخبرني أنس بن مالك أنه سَمِع خُطبةَ عمر الآخرةَ حينَ جلس على المنبر، وذلك الغدَ من يومِ تُوُفِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم. فتَشهَّدَ، وأبو بكر صامتٌ لا يتكلَّم، قال "كنتُ أرجو أن يعيشَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرَنا -يريد بذلك أن يكون آخرَهم- فإن يكُ محمد صلى الله عليه وسلم قد ماتَ فإن الله تعالى قد جَعَل بين أَظهُرِكم نورًا تَهتَدون به هُدَى اللهِ مُحمّدًا صلى الله عليه وسلم. وإنّ أبا بكر صاحبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ثاني اثنَين، فإنَّه أَولَى المسلمين بأمورِكم؛ فقوموا فبايِعوه!" وكانت طائفةٌ منهم قد بايَعوه قبلَ ذلك في سقيفة بني ساعِدةَ وكانت بيعةُ العامَّة على المنبر. قال الزُّهري عن أنس بن مالك سمِعتُ عمرَ يقول لأبي بكر يومئذ "اِصعَدِ الْمِنبَرَ!" فلم يزل به حتى صَعِدَ المنبر فبايَعه الناسُ عامَّة. وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتت النبيَّ صلى الله عليه وسلم امرأة فكلَّمته في شيء فأمرَها أن ترجع إليه قالت "يا رسولَ الله، أرأيتَ إن جئتُ ولَم أجِدْك؟" كأنها تريد الموتَ قال «إن لَم تَجديني فَأتي أبا بَكر!»[1]

فكأنّ النبيَّ يقول للمرأة "إذا أنا مِتُّ فهذا أبو بكر يخلُفُني!" وذاك قوله صلى الله عليه وسلَّم في حديث عائشة «لقد هَمَمتُ أن أُرسِل إلى أبي بكر وابنِه فأَعْهَدَ، أن يقول القائلون أو يتمنّى المتمنون! ثم قلتُ: يأبَى الله ويدفَع المؤمنون أو يدفَع الله ويأبى المؤمنون!» فإنَّه أراد أن يَعهَد لأبي بكر بالخلافَة قبل وفاته صلى الله عليه وسلَّم حتى لا يدَع لِمُعتَرِض مَقالا ولا لِطامع في الحُكم مَجالا، ولكنَّه توكَّل على الله لأنَّه تعالى يأبى غيرَ أبي بكر واطمأنَّ للمسلمين الذين يدفَعون كلَّ

[1] أخرج الأخبار الثلاثة البخاري في الاستخلاف كتاب الأحكام وحديثي عائشة والمرأة مسلم وأحمد.

مَن نازَعَ أبا بكر الخلافةَ، وكذلك كان الأمر ولله الحمد. فانجرَّ عن استخلاف أبي بَكر في الصلاة أن صار إمامَ المسلمين في شؤونهم جميعًا.

ولَّما أحسَّ أبو بكر الموتَ نصبَ على إقامة الصلاة عُمرَ بن الخَطّاب، وكان يقول "إنّ أهمَّ أمركم عندي الصلاةُ؛ فمَن حفظها وحافَظ عليها، حفظَ دينَه، ومَن ضيَّعها فهو لِما سواها أضْيَعُ!"[1] وبلغنا أنّه فَقَدَ رجُلاً في الصلاة، فأتى مَنزِلَه فصوَّتَ به، فخرج الرجلُ فقال "ما حَبَسَك عنِ الصلاة؟" قال "عِلَّةٌ، يا أميرَ المؤمنين، ولولا أنّي سَمِعتُ صوتَك ما خرجتُ!" فقال عمر "لقد تركتَ دَعوَةَ مَن هو أَوجَبُ عليك إجابةً منّي؛ مُناديَ الله إلى الصلاة!"[2] يُفيدنا هذا أنَّ المُؤذِّن أولَى بالإجابَة من الحاكِم وأنّ الصلاة أعظم من الوِلاية العامَّة، بل أن لا ولايةَ ولا إمارَةَ كُبرى بغير صلاة. وقال التابعي محمد بن سِيرين: نُبِّئتُ أنّ أبا بكرٍ وعمرَ كانا يُعلِّمان الناسَ الإسلامَ "تعبدُ الله ولا تُشركُ به شيئاً، وتُقيمُ الصلاة التي افتَرض الله تعالى بِمواقيتها؛ فإنّ في تفريطِها الْهَلَكَة!"[3]

فتلك هي الخلافة الشَّرعية التي نصَّ عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأوصى باحتِرامها فقال «أُوصيكم بتقوَى الله والسمعِ والطاعةِ وإن كان عبدا حَبشيًّا؛ فإنّه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرَى اختلافا كثيرا! فعليكم بسُنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين؛ عضُّوا عليها بالنواجذ! وإيّاكم والمحدَثاتِ؛ فإن كلّ مُحدثَة بِدعة وإن كلَّ بدعة ضَلالة!»[4] وتلك البدعة إنَّما هي التَّشيُّع، حيث قام اليهود والمَجوس يُظهِرون الإسلام ليهدِموه من الداخل فأرادوا أن يجعلوه دولةً يتداوَلُها عليّ بن أبي طالب وأبناؤه من دون الناس. فاغترَّ بهم مَن خَذله الله وقاموا يدفَعون السنَّة ويدّعون أنَّ النبيَّ أوصَى بالخلافة لعليّ بأمر من الله وبمَحضر الصحابة جميعا عند رجوعهم من حجَّة الوداع

---

[1] خرجه مالك في الوُقوت عن نافع والبيهقي في 'السنن الكُبرى' عن هشام بن عُروة عن أبيه.

[2] ابن أبي يعلى 'طبقات الحنابلة' ج1-ص336، دار الكتب العلمية.

[3] خرجه المروزي في 'تعظيم قدر الصلاة' ج2-ص897 وعبد الرزاق في المصنّف.

[4] صحيح خرجه الدارمي في المقدّمة والترمذي وابن ماجه وأحمد عن العرباض بن سارية.

بموضع بين مكة والمدينة قريب من الجُحفَة يقال له غَديرُ خُمٍّ، وأنّ الله أنزل عند ذلك ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي!﴾ [المائدة 3] و لم يجدوا في القرآن كلّه دليلاً على دعواهم غيرَ آيتَين وهما ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الآية 55 من المائدة] و ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [الآية 59 من النساء][1] ولا حاجةَ لطول الكلام في أنّ الآية الثالثة من المائدة إنما نزلت يومَ عرفة الذي وافق الجمعة في الحَجَّة ذاتِها لا بعدها، وأنّ الآيتين الأُخرَيَـــيْن عامّتان لا تدلاّن على شيء مما أرادوه. وهذا بحدّ ذاته دليل على بُطلان دعواهم، فإن الله تعالى لو أراد أن يجعل الوِلاية العُظمى من أصول الإسلام لبيَّن لنا ذلك جليًّا كما هي الحال في غيرها من أمور ديننا، وقد بيَّن تعالى لنا أدقَّ الآداب فضلا عن أصول الدين.

الذي بلغنا من قصّة غدير خُم ما رواه ابن حِبّان في 'صحيحه' قال: أخبرنا عبد الله بن محمد الأزدي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا أبو نُعيم، ويحيى بن آدم، قالا: حدثنا فِطْرُ بنُ خَلِيفَةَ عن أبي الطفيل قال: قال عليٌّ "أُنشِدُ الله كلَّ امرئٍ سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يومَ غدير خم لما قام، فقام أناس فشهدوا أنهم سمعوه يقول «ألستم تعلمون أنّي أَولَى الناس بالمؤمنين مِن أنفسهم؟» قالوا "بلى يا رسول الله" قال «مَن كنتُ مولاه فإن هذا مولاه؛ اللهمَّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه!» قال -فِطْرُ بن خَليفة- فخرجتُ وفي نفسي من ذلك شيء، فلقيت زَيد بن أرقم، فذكرت ذلك له، فقال "قد سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك له"[2] أي لعلي بن أبي طالب. هذه هي الرواية التي بلغتنا وليس فيها ذكرٌ للوِلاية بمعنى الخلافة، ولكنّه ذكَرَ الوَلاية بمعنى المُوالاة، كما في خبر «أنّ الله قال: مَن عادَى لي وَلِياً فقد آذنتُه بالْحَرْب» هذا ما

---

[1] وانظُر مثلاً كتاب 'شرح أصول الكافي' للمازندراني ج1-ص36، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

[2] 'مناقب الصحابة' وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير فطر بن خليفة وهو صدوق، روى له البخاري حديثا واحدا مقرونا بغيره، واحتج به أصحاب السنن، أبو نعيم هو الفضل بن دكين، وأبو الطُّفيل هو عامر بن واثلة، صحابي صغير. ورواه أحمد ح961 عن ابن أبي ليلى قال: شهدت عليا..، وحسّنه الأرناؤوط لغيره. ورواه البزار وقال: قد روي عن علي من غير وجه.

نفهَمه من صريح كلام أفصَحِ العرب، صلى الله عليه وسلّم. وقد يكون وراءَ الخبر أمرٌ شجر بين الصحابة في ذلك الحين، لا نعلَمُه نحن. ولكنّ الشيعة، كعادتهم، أخذوا أصلَ القصَّة وحاكُوا حولَه نسيجًا يرتَدونَه خِداعًا وزورا.

وعن يزيد بن حيّان قال: انطلقتُ أنا وحُصين بن سَبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقَم فلما جلسنا إليه قال له حصين "لقد لقيتَ يا زيدُ خيرًا كثيرا؛ رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعتَ حديثَه وغزوتَ معه وصلَّيتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا! حدِّثنا يا زيدُ ما سمعتَ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم" قال "يا ابنَ أخي والله لقد كبِرَت سِنّي وقَدُمَ عَهدي ونسِيتُ بعضَ الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما حدّثْتُكم فاقبَلوا وما لا فلا تُكَلِّفونيه" ثم قال: قامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماءٍ يُدعَى خُمًّا، بين مكة والمدينة، فحَمد اللهَ وأثنَى عليه ووَعَظَ وذَكَّر ثم قال «أماّ بعد ألا أيها الناسُ فإنما أنا بشَر يوشِك أن يأتِيَ رسولُ ربي فأُجيبَ، وأنا تارِكٌ فيكم ثَقَلَين: أوَّلُهما كتابُ الله فيه الهدى والنور؛ فخذوا بكتاب الله واستمسِكوا به» فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه ثم قال «وأهلُ بيتِي؛ أُذكِّركم اللهَ في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي!»[1] فهذه وصيَّة لَهم بالخير، بمحبَّتهم واحترامهم وتكريمهم، هذا إن صحَّ الخبر، فقد صرَّح زيدٌ بضَعف ذاكرته. ولكن الشيعة يستدلّون بهذا على لُزوم حصر الخلافة في أهل البيت. ولو صحَّ استِدلالُهم لوَجبت طاعةُ النساء والعبيد بدليل قوله «استَوصوا بالنساء خيرا»[2] وقوله «الصلاةَ الصلاة وما ملكت أيمانُكم»[3] وليس يقول هذا إلا أهبل فاقدٌ عقلَه أو أعجمي جاهل بلسان العرب.

الحاصل أنَّه لَمّا لَم يُسعِف القرآنُ ولا السنّةُ الشيعةَ بطَلِبَتهم لجؤوا إلى تكفير الصحابة قصدَ التشكيك في نَقلِهم وعدالتهم، وجاؤوا بكذب وبهتان عظيم ونسبوه إلى أبناء رسول الله صلى الله

---

[1] خرجه مسلم في فضائل الصحابة، وأبو داود والدارمي والنسائي في الكبرى وابن خزيمة وأحمد.

[2] خرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة.

[3] صحيح خرجه أبو داود في الأدب وابن ماجه وأحمد وله شواهد عدّة.

عليه وسلّم، فمن ذلك ما وضَعوه على أبي جعفر محمَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، أنّه قال "كان الناسُ أهلَ رِدَّة بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة: المِقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي، ثم عرَف أناسٌ بعدَ يسيرٍ. هؤلاء الذين دارت عليهم الرحَى وأبوا أن يُبايعوا حتى جاءوا بأمير المؤمنين مُكرَها فبايع، وذلك قول الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟! وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ!﴾ [آل عمران 144]"[1]

راحوا يختَلقون لدينهم الجديد الذي أنتجته عقولُهم السقيمة أخبارًا لا أصلَ لها وجَعلوا الوِلاية –أي الخلافة، أو الوَلايَة أي المُوالاة– لعليٍّ دون غيره من الصحابة، وأرادوها آخرَ أركان الإسلام التي بها يتمُّ ويكمُل بزعمهم، فإنَّهم يدَّعون أنَّ محمّدَ بن علي بن الحسين قال "أمرَ الله عز وجلّ رسولَه بوَلايَة عليٍّ، عليه السلام، وأنزل عليه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة 55] وفرض وَلاية أُولي الأمر. فلم يدْروا ما هي، فأمر الله محمدا صلى الله عليه وآله أن يُفَسِّر لهم الوَلاية كما فسَّر لهم الصلاةَ والزكاة والصوم والحجَّ، فلمّا أتاه ذلك من الله ضاقَ بذلك صدرُ رسول الله وتَخوَّفَ أن يَرتدُّوا عن دينهم وأن يُكَذِّبوه فضاق صدرُه وراجَع ربَّه عزَّ وجل فأوحى الله إليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ! وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ؛ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ! وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ!﴾ [المائدة 67] فصدَع بأمر الله تعالى ذِكرُه، فقام بوِلاية عليٍّ عليه السلام يومَ غدير خُمٍّ، فنادَى "الصلاةَ جامعةً!" وأمرَ الناسَ أن يبلِّغَ الشاهدُ الغائبَ. وقال أبو جعفر: وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأُخرَى وكانت الوَلاية آخرَ الفرائضِ، فأنزل الله عزّ وجل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي!﴾ [المائدة 3] قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عزّ وجل: لا أُنزلُ عليكم بعد هذه فَريضةً؛ قد أكملتُ لكم الفرائض!" فما أقلَّ عقول هؤلاء القوم، كيف اجترؤوا على هذا التَّحريف لكلام الله تعالى

---

[1] 'الروضة' للكُليني ج8-ص246، الشاملة، و'الاختصاص' للمفيد ص18، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

وتسوَّروا على هذا الكذب على رسوله صلى الله عليه وسلم، واجتَنَوا على هذا الافتراء والتَّقوُّل على أبي جعفر محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

ولهم مِن مثل هذا الكثيرُ الكثير، فإنّهم ينسبون إلى سلمان الفارسي أنه قال: أتيتُ عليًّا وهو يُغسِّل رسولَ الله صلى الله عليه وآله فأخبرتُه بما صنع الناس وقلت "إن أبا بكر الساعةَ على منبر رسول الله، والله ما يرضَى أن يبايعوه بيَدٍ واحدة؛ إنهم ليبايعونه بيديه جميعا؛ بيمينه وشماله!" فقال لي "يا سلمانُ، هل تدري مَن أوّلُ مَن بايعه على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله؟" قلت "لا أدري إلاّ أني رأيت في ظُلَّة بني ساعدة حين خُصِمت الأنصارُ وكان أوَّلَ من بايعه بشير بنُ سعد وأبو عُبَيدة بن الجرّاح ثم عُمر ثم سالم" قال "لستُ أسألك عن هذا، ولكن تدري أوّلَ مَن بايعه حين صعد على منبر رسول الله؟" قلت "لا ولكني رأيت شيخا كبيرا مَتَوَكِّئاً على عَصاه بين عينيه سَجّادة، شديدَ التشمير صَعِد إليه أوّل مَن صعد وهو يبكي ويقول: الحمد لله الذي لم يُمِتْني من الدنيا حتى رأيتُك في هذا المكان؛ اُبسُطْ يدَك! فبَسط يدَه فبايَعه ثم نزل فخرج من المسجد" فقال عليٌّ "هل تدري مَن هو؟" قلت "لا، ولقد ساءتني مَقالَتُه؛ كأنه شامتٌ بموت النبي صلى الله عليه وآله!" فقال "ذاك إبليسُ، لعنه الله! أخبرني رسولُ الله أن إبليسَ ورُؤساءَ أصحابه شهدوا نَصْبَ رسول الله إيَّايَ للناس بغَدير خُمٍّ بأمرِ الله عز وجلّ، فأخبرهم أني أَولَى بهم من أَنفُسهم وأمرَهم أن يُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ. فأقبل إلى إبليس أبالِستُه ومَرَدَةُ أصحابه فقالوا: إن هذه أمّة مَرحومة ومَعصومة وما لك ولا لنا عليهم سبيل؛ قد أُعلِمُوا إمامَهم ومَفزَعَهم بعد نبيِّهم! فانطلَق إبليسُ، لَعنَه الله، كئيبًا حَزينا. وأخبرني رسول الله أنّه لو قُبِضَ أنّ الناس يُبايعون أبا بَكرٍ في ظُلَّة بني ساعِدَةَ بعد ما يَختَصِمون ثم يأتون المسجدَ فيكون أوَّل مَن يبايعه على منبري إبليسُ، لعنه الله، في صورة رجل شيخ مُشَمِّر يقول كذا وكذا، ثم يخرج فيجمَع شياطينَه وأبالِسَتَه فيَنخُرُ ويَكسَعُ ويقول: كلاَّ، زَعمتُم أن ليس لي عليهم سبيل؛ فكيف رأيتم ما صنعتُ بهم حتى ترَكوا أمرَ الله عزّ وجل وطاعتَه وما أمرَهم به رسولُ الله؟

هكذا الشيعةُ يقطَعون بأنَّ الصحابة الذين بايَعوا أبا بكر أتباعٌ لإبليس، مع أنّ عليًّا قد بايَع أبا بكر فيما بعد، وأنّ مَن يقول بعدَهم بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان فهم كُفّارٌ. ويستَشهِدون على ذلك بأقوالٍ وَضعوها على مَن ادَّعَوا أنَّهم أئمَّتُهم، وهم بُرآء منهم، فإنَّهم ينسبون إلى أبي جعفر محمَّد بن علي بن حسين أنّه قال "عليٌّ، صلوات الله عليه، بابٌ فتَحه الله؛ مَن دخله كان مؤمنا ومَن خرج منه كان كافرا!" وينسبون إلى عليٍّ أنه قال لأبي بكر يوما: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران 169] وأشهدُ أن محمدا صلى الله عليه وآله رسولُ الله ماتَ شهيدا؛ والله ليأتينَّك! فأَيقنْ إذا جاءَك، فإنّ الشيطانَ غيرُ مُتخَيِّل به! فأخذ عليٌّ بيد أبي بكر فأراه النبيَّ، فقال له: يا أبا بكر آمِن بعليٍّ وبأَحَدَ عشرَ مِن وَلَدِه؛ إنّهم مثلي، إلا النبوَّةَ، وتُب إلى الله مما في يدِك فإنَّه لا حقَّ لك فيه! قال: ثم ذهب فلم يُرَا! انتهى. وإن تَعجب فاعجَب من هذا اللَّعب والهُراء والكَذب والافتراء!

ومع أن هذه الأخبار كلَّها كَذبٌ لا حقيقة لها، وقد ضعَّفَها مِن علمائهم المجلسيُّ والبَهبودي[1]، وأنَّها مِن وضع شيوخ الشيعة الإثنَي عشريّة في القرنين الثالث والرابع. إلا أنّ هذا لا عِبرَة له عند الشيعة ولا يُعرِّجون على علمٍ صحَّتها من بُطلانها، بل لا يشكّون في أنّ ذلك قد وقع حقيقة، لأنَّ الكَذب من صميم اعتقادهم كما بيَّنه ابن تيميّة قال: والقومُ مِن أكذب الناس في النَّقليّات ومن أجهَل الناس في العقليات؛ يُصدِّقون مِن المنقول بما يعلم العلماءُ بالاضطرار أنه من الأباطيل، ويكذِّبون بالمعلوم من الأضطرار المتواتر أعظمَ تواتُر في الأمّة جيلاً بعد جيل، ولا يُميّزون في نقَلة العلم ورُواة الأحاديث والأخبار بين المعروف بالكذب أو الغلَطِ أو الجهل بما ينقُل وبين العَدْل الحافِظ الضابِط المعروفِ بالعلم بالآثار. وعُمدَتُهم في نفس الأمر على التقليد، وإن ظنُّوا إقامتَه بالبُرْهانِيّات فتارةً يتَّبعون الْمُعتَزِلة والقَدَريّة وتارة يتَّبِعون الْمُجَسِّمة والْجَبْريّة،

---

[1] وقد جاءت هذه اللأكاذيب كلُّها في كتاب 'الكافي' للكُليني طبعة عبد الرحمن دمشقية. فأمّا الكَذبُ الأوَّل ففي ج2-ص21 والثاني ج17-ص393، والثالث ج6-ص264، والرابع ج3-ص39. المكتبة الشاملة، إصدار 3.28.

وهم مِن أجهَل هذه الطوائف بالنظَريّات. ولهذا كانوا عند عامَّة أهل العلم والدين مِن أجهَل الطوائف الداخلين في المسلمين.[1]

وإنَّ عَناءً أن تُفهِم جاهلاً فيَحسَب جَهلاً أنّه مِنك أَفهَمُ
متى يبلغ البنيانُ يوماً تمامَه إذا كنت تَبنيه وغيرُك يهدم؟!

كُتبُ الشيعة مشحونة بالأقاصيص الخُرافية كشأن كتاب الملوك 'شاه نامه' وغيره. نجد المؤلفين في علوم الشريعة عندَهم يَخُطّون خُرافات دون أن يخشوَا إتلافَ كتُبهم، ولا شكَّ أنَّ العاقل إذا وجد هذه التُّرَّهات في كتابٍ مّا ألقاه مِن يده! غير أنّ الخُرافة أهمُّ أسباب رَواج تلك الكُتبِ وذيوعِها بين الشيعة، وذلك راجع إلى ما سَمَّاه بعض المفكِّرين 'العُقدة الفارسيّة' وهي شعور دائم بالتهديد والاضطهاد، يلجئُ المُصابَ بها إلى أنواع الخيللات والكذب حِفاظًا على نفسه وكيانه، حتى يعتَقد هو صحَّة ما ولَّده عقلُه السقيم، لذا يدافع عنه مُستَمستًا، فيظنُّ مَن لا يعرِف داءَه وضلالَه أنَّه مُحقٌّ وهو في الواقع مَجنون؛ فلا عقلَ ولا دين ولا مروءة ولا ضمير ولا رحمة ولا مبادئ ولا قيم ولا أعراف. ولهم في هذا نسبَة حميميّة باليهود وهو ما يفسِّر سِرَّ العلاقة التاريخية الجامعة بين اليهود والفُرس منذ أقدَم العصور وفي كلِّ عهود الإسلام كما مرَّ عند ذكر العقبية الفارسيّة وشخصيَّة ابن سبأ اليهودي. ولكنَّهم يُخادعون ويدفَعون هذه الحقيقة، وأوضحُ دليل في أيّامنا عليه المناوشاتُ الكلاميّة والسبّ والتهديد المتبادَل بين إسرائيل وإيران، وإن كانت من حين لآخر تنشُب حربٌ بين حزب الله اللبناني وإسرائيل، فما ذلك إلا إعطاء لتمثيليَّتهم شيئًا من الواقعيَّة.

وأمَّا الذي حصل بغدير خُمٍّ فهو ما بلغنا عن يزيد بن حَيان بالسَّند الصحيح، قال: انطلقتُ أنا وحُصين بن سَبْرةَ وعُمر بن مسلم إلى زَيدِ بن أرقمَ فلما جلَسنا إليه قال له حُصين "لقد لَقيتَ، يا زيدُ، خيرًا كثيرا؛ رأيتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وسَمعتَ حديثَه وغزَوتَ معه وصلَّيتَ خلفَه! لقد لَقيت، يا زيدُ، خيرًا كثيرا! حدِّثنا يا زيدُ، ما سمعت مِن رسول الله صلى الله

[1] 'منهاج السنة النبوية' ج1-ص68.

عليه وسلم؟" قال "يا ابنَ أخي، واللهِ لقد كَبِرت سنِّي وقدِم عهدي ونسيتُ بعضَ الذي كنتُ أَعِي مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما حدَّثتُكم فَاقبَلوا، وما لا فلا تُكَلِّفونيه!" ثم قال "قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومًا فينا خطيباً بماءٍ يُدعَى خُمًّا بين مكّة والمدينة، فحَمِدَ الله وأثنَى عليه ووَعَظَ وذكَّر ثم قال «أمّا بعدُ، ألا أيُّها الناس، فإنّما أنا بَشَرٌ يُوشِكَ أن يأتِيَ رسولُ ربِّي فأُجيبَ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَين: أوَّلَهُما كتابَ الله، فيه الهُدَى والنورُ؛ فخُذوا بكتاب الله وَاستَمْسِكوا به!» فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه ثم قال «وأهلَ بَيتي؛ أُذَكِّرُكُم اللهَ في أهلِ بيتي! أُذكِّركم الله في أهل بيتي! أُذكّركم الله في أهل بيتي!» فقال له حُصين "ومَن أهلُ بيته يا زيدُ، أليس نِساؤُه مِن أهل بيته؟" قال "نساؤه مِن أهلِ بيته، ولكن أهلُ بيته مَن حُرِمَ الصدقةَ بعدَه!" قال "ومَن هم؟" قال "هم آلُ عليٍّ وآل عَقيلٍ وآل جَعفرٍ وآلُ عباسٍ!" قال "كلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقةَ؟" قال "نعم!"[1] هذا خبر صحيح صريح واضح لا يحتاج إلى تعقيب.

لكنَّ الشيعةَ أخذوا أصلَ هذا الخبر فزيَّفوه وحرَّفوه وجاؤوا فيه بكذب وبُهتان عظيم. وكذلك يفعلون بغيره من الأخبار الصحيحة، فما عددُ أئمَّتهم الاثنَي عشر إلا إلحادًا فيما بلغنا عن جابر بن سَمُرة حيث قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا يزال الإسلامُ عزيزا إلى اثني عشر خليفة!» ثم قال كلمةً لَمْ أفهمْها، فقلتُ لأبي "ما قال؟" فقال «كلُّهم من قُريش!»[2] فالأئمَّة الاثنا عشر مِن عامَّة قُريش، كما هو الأمرُ عندَنا معشَرَ أهلِ السنَّة، لكنَّ الرافضةَ حَصروه في أهل البيت دون غيرِهم.

ثم إنَّ مَفهوم أهل البيت عند الشيعة من أغرَب المفاهيم، فإنَّهم لا يعدُّونَ نساء النبيِّ من أهل البيت وخالَفوا قولَ الله تعالى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ، لَسْتُنَّ كَأَحَد منَ النِّسَاءِ إِن اتَّقَيْتُنَّ!﴾ اللهَ حقَّ تُقاته ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فلا تُرَقِّقْنَ الكلامَ للرِّجال ﴿فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبه مَرَضٌ، وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا! وَقَرْنَ﴾ اُمْكُثْنَ ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ﴾ تخرُجْن كلَّما بدَا لكنَّ كفعلِ الرجال ثمَّ

---

[1] خرجه مسلم في فضائل الصحابة والبيهَقي في 'السنن الكُبرى' وأحمد وصححه الأرناؤوط.

[2] سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

تُزاحمنَهم في الطرُقات وتتبختَرن بين أيديهم ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ حيثُ لَم يكن دينٌ ولا حُكم ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذه هي التقوى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ، أَهْلَ الْبَيْتِ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا!﴾ [الأحزاب 32-33] فقد ضمَّهنَّ الله إلى أهل بيت محمَّد صلى الله عليه وسلّم. ويَعضُده قولُه تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ!﴾ [الأحزاب 6] والأمُّ لا تُنكَح، لذا حرَّم الله عليهنّ الزواجَ بعد النبي أبدًا فقال مُخاطبًا الصحابَة ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ! وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا! إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا!﴾ [الأحزاب 53] ليبقَين أهلَ بيت النبوَّة إلى أن يتوفَّاهنّ الله وهنَّ كذلك، رضي الله عنهنّ كلِّهن. ولكنَّ الشيعة يرمون عائشةَ أمَّ المؤمنين إلى يومنا هذا بأشنَع البُهتان، وهذا كلُّه كُفرٌ لأنَّه معارضة للقُرآن.

ثم هم يرفُضون أن يدخُلَ في عِداد أهل البيت سِوى عليٍّ وفاطمة وابنَيهما الحسن والحسين وذُرِّيتهما، فمثلاً محمَّد وأبو بكر وعمر وعُثمان وهم أبناءُ عليٍّ، قد أعطاهم أسماء هؤلاء الفُضلاء حبًّا لهم وتبجيلا، ليسوا من أهل البيت. بل وإن الروافِض لَيردُّون هذا الجَور إلى أهل البيت أنفسهم، كذبًا عليهم وزورًا، ويدَّعون أنَّ عليًّا لَم يرض بأبي بكر ولا عمر ولا عُثمان ولكنّه استَعمل في وقتهم التقيَّة. وحاشاه فقد كان، وهو أميرُ المؤمنين، راضيًا عنهم ومتَّبعا لسنَّتهم، كما صحَّ عن محمد بن سِيرين عن عَبيدَةَ عن عليٍّ رضي الله عنه قال "اُقضُوا كما كُنتم تَقضُون؛ فإني أكرَه الاختلافَ! حتى يَكون للناس جَماعةٌ أو أموتَ كما مات أصحابي!" فكان ابن سيرين يرَى أن عامَّة ما يُروى عن علي الكذبُ![1] ولكن كما قال الشافعي "لَم أر أحدًا من أصحاب الأهْواء أشهدَ بالزُّور مِن الرافضة!"[2]

يرجع استِخفافُ الروافض هكذا بالقرآن وبالأخبار الصحيحة عن النبيّ صلى الله عليه وسلَّم وبالآثار الثابتة عن الصحابة، بما فيهم أهل البيت، يرجع هذا الاستِخفافُ وافتِراؤُهم الكذبَ على

1 خرجه البخاري في المناقب وانفَد به.

2 رواه أبو نعيم عن حَرمَلة قال: سمعتُ الشافعي 'حلية الأولياء' ج9-ص114، الكتاب العربي، بيروت.

الله ورسوله وصالحي المؤمنين إلى كونهم لا يرَونَ النُّبوَّة إلاَّ كأحَد الأنظمة السياسيَّة التي وُضعت لمَصلَحة الناس ولتَوفير العيش الرَّغد لهم في هذه الحياة الدُّنيا. لذا راحوا يُسيِّسون الدين ويفرِغونه من مُقوِّماته الإيمانيَّة، فأرادوا أن يقطَعوا الأمَّة عن رَعيلها الأوَّل لينقَطِع مدَدُ الوَحي المحمَّديّ ولينضَب مَعين الشريعة المطهَّرة ولينقضَّ صرحُ دين الله بالمرَّة ويندَرس إلى الأبد. فقاموا يفرِّقون بين الصحابة ويتخيَّرون أهلَ البيت كذبًا وزورا، ودخلوا، وهم الفُرسُ يقودُهم اليهود، بين النبي وآلِه الأطهار وصحابته الأخيار كما تدخُل السوسة بين القِشر واللُّبّ، قاتَلَهم الله وجعل كيدَهم في نحورهم إلى يوم القيامة!

وإلاَّ فأفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، وهم أصهارُه وأقربُ الناس إليه منذ بَدْءِ الإسلام، كما هي حال أبي بكر وعليٍّ، ثم أسلَم عثمان على يد أبي بكر مع الزُّبير بن العوّام وطَلحة بن عُبيد الله، وكانوا أوّلَ ثمانيةٍ أسلَموا. ولَمّا أسلَم عثمان، وأمُّه أَروَى بنت البيضاء بنت عبد المطَّلِب، أي عمَّة النبي؛ فعُثمان بن عفّان ابنُ بنت عمَّة رسولِ الله، ولمّا أسلَم زوَّجَه النبيُّ ابنتَه رُقيَّة.[1] ثم أسلَم عُمر بن الخطّاب سنةَ ستٍّ بعدَ حمزَة عمِّ النبي، وكان حمزة الرَّجلَ الأربعين ممَّن أسلَموا، فأعزَّ الله بهما الإسلام. عليٌّ مِن خيرَة هذه الأمَّة وهو رابعُ الخلفاء الراشدين الذين أقام الله بهم الدين، ولكنّه ليس عليَّ الروافِض الذي يعلَم الغيبَ والذي اقتَلَع بابَ خيبر، الذي يعجَز عن حَملِه أربعون رجلا، واتّخَذه تِرسًا يتَّقي به السِّهامَ إلى أن فتح خيبَرَ. ثم إذا به هو ذاتُه يعجَز عن دَفع رجلٍ اعتَدى على امرأَتِه فكسَر ضِلعَها وأَسقَطَ جَنينَها، بل ويستعمل معَه التقيَّة إلى أن يموت!

كذبوا والله، فعن عَمرِو بنِ العاصِ يذكُر حينَ بعثَه النبيُّ على جيشِ ذات السلاسل، قال: فأتيتُه فقلتُ "أي الناسِ أحبُّ إليك؟" قال «عائشة» فقلت "من الرجال؟" فقال «أبوها» قلت "ثم مَن؟" قال ثم «عمر بن الخطاب»[2] أمَّا عائشة فقد حبَّبها الله تعالى لنبيِّه، وأمّا أبو بكر وعمَر

---

[1] ذكره أبو القاسم ابن عساكر في 'تاريخ دمشق' ج39-ص15، دار الفكر، بيروت.

[2] خرجه البخاري في المناقب.

فللإيمان الذي فاقا به غيرَهما من صحابة رسول الله كما يدلُّ عليه ما صحَّ عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول «بينما راعٍ في غَنَمِه، عَدا عليه الذئبُ فأخذَ منها شاةً فطلبَه الراعِي فَالْتَفتَ إليه الذئبُ فقال: مَن لها يومَ السَّبُعِ، يوم ليس لها راعٍ غيري؟! وبينما رجلٌ يسوق بقرةً قد حَمل عليها، فالتفتَت إليه فكلَّمتْه فقالت: إني لَم أُخلَقْ لِهذا ولكنِّي خُلقتُ لِلحَرْث!» قال الناس "سبحان الله!" قال النبي صلى الله عليه وسلم «فإني أومِن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب!»[1] وعن أنس بن مالك قال: صَعِد النبيُّ صلى الله عليه وسلم أُحُدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف فقال «اُسكُنْ أُحُدُ! –أظنُّه ضَرَبه بِرجلِه– فلَيس عليك إلاَّ نَبِيٌّ وصِدّيق وشَهيدان!»[2]

ما كان بغضُ الشيعةِ الصحابةَ حبًّا لعلي، بل الشيعة شرُّ بليَّة وقعت بأهل البيتِ، عليٍّ فمَن دونه، وما دفعَ بالحسين إلى القتل غيرُهم، حتى أنّهم إلى يومنا هذا يضربون وجوههم وظهورَهم في عاشوراء شهادةً على أنفسهم بأنَّهم تسبّبوا في قتله، وهل وراء هذا الخزي مِن خزي؟! ما دعوتُهم إلى الرَّفض والتشيُّع إلا من ضلالهم الناتج عن إسرافهم في حب الجاه وارتيابهم في حكمة الله وجدالهم بالباطل لِيُدحضوا به الحقّ ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ! الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ؛ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا! كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ!﴾ [غافر 34-35] والمقت أشدُّ البَغض، وما مَقتُنا لَهؤلاء العُتاة إلا في ذات الله الذي مَسَخهم على مكانتهم فبَقيت عقولُهم مسجونةً في ذاك العهد بُعيدَ وفاة رسول الله، وظلّت قلوبُهم معلَّقةً بالخلافة، فتحقّق فيهم وعيدُ الله ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ؛ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ!﴾ [يس 67] حُصِروا في ذاك الخِصام بين المجوسيَّة والإسلام فلا هم رَجعوا إلى قديم عهدهم ولا تقدَّموا إلى الأمام.

---

[1] خرجه أبو نعيم في 'حلية الأولياء' ج9-ص114، دار الكتاب العربي، بيروت.

[2] خرجه البخاري في المناقب

ما من شيء في الكون إلا وله حكمة كما قال الله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ!﴾ [القمر 49] وكَم من أمر يسوؤُنا أوَّلا فإذا صبرنا وجدناه خيرًا وقال تعالى ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا!﴾ [النساء 19] فكذل ظاهرَة التشيُّع عند الاعتبار، فإنها آيةٌ من أعظَم آيات الله على صدق نبوَّة محمّد ووثيقةٌ حيَّة بأن باقيةٌ فينا إلى أن يأتيَ أمر الله ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ!﴾ [الصف 8] ولو كان غيرُ ذلك لنَسفَ الفُرسُ الدينَ لأوَّل وَهلَة ولكنَّهم مُسخوا وانتُكِسوا وارتُكسوا والعياذُ بالله الذي نبَّأَنا من أخبارهم من قبل أن يُخرجهم إلى الوجود فقال تعالى محذِّرًا منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ؛ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ! قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ! هَا أَنتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا؛ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا! إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران 118-120]

انتبه إلى قول الله فيما سبق ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي القرآن وما أنزل الله على أنبيائه من قبلُ. هذه حال المسلمين، ولكن الشيعة لا يؤمنون بالقرآن الذي بين أيدينا، فقد روى الكُليني كذبًا عن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبد الله -يعني جعفرَ بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب- فقلت له "جُعلت فداك، إني أسألك عن مسألة؛ هاهنا أحد يسمع كلامي؟" فرفع أبو عبد الله سِترا بينه وبين بيت آخر فاطَّلع فيه ثم قال "يا أبا محمد سلْ عما بَدا لك!" قلت "جعلت فداك إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله علم عليا بابا يُفتح له منه ألفُ باب" فقال "يا أبا محمد علَّم رسول الله عليا ألفَ باب يُفتح من كل باب ألفُ باب" قلت "هذا والله العلم!" فنَكت ساعة في الأرض ثم قال "إنه لَعلمٌ وما هو بذاك!"...[إلى أن قال] "وإن عندنا لَمَصحفَ فاطمة وما يدريهم ما مصحف فاطمة!" قلت "وما مصحف فاطمة؟" قال "مصحف فيه مثلُ قرآنكم هذا ثلاثَ مرات والله ما فيه من قرآنكم حرفٌ واحد!" قلت "هذا والله العلم!" قال "إنه

لعلم وما هو بذاك" فسكت ساعة ثم قال "إن عندنا علمَ ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة" قلت "جعلت فداك هذا والله هو العلم! " قال "إنه لعلم وليس بذاك" قلت "جعلت فداك، فأيُّ شيءِ العلم؟" قال "ما يَحدُث بالليل والنهار؛ الأمرُ من بعد الأمر والشيءُ بعد الشيء إلى يوم القيامة!"[1]. هذا معتَقدُهم؛ فما في قرآننا حرفٌ يصلُح! ولمّا سئل بعضُ دعاتهم عن مصحف فاطمة قال "ليس المصحف قرآنًا، فكلمة مصحف لا تعني سوى كتاب، فَهو كتاب تاريخ نزل به جبريل على فاطمة ليقُصَّ عليها كا هو كائنٌ إلى قيام الساعة، تسليةً لها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليه وآله، وكان عليٌّ هو الكاتب!" فما أجرأهم على الله!!

لا جَرمَ أن الرَّوافض مُنافقون يُظهرون الإسلام ويُبطنون المجوسيَّة، كفَّار يؤمنون ببعض الكتاب ويكفُرون ببعض، بل هم في الحقيقة لا يؤمنون به أصلاً، لكن يستَعملونه ليأخذوا منه ما يَخدُم آرابَهم الدنيويّة ويتركون ما وراءَ ذلك. أما الصَّحابَة الكِرام، هؤلاءِ الرجال الذين أقام الله بهم الدينَ فكانوا يعلَمون أنّ جماعَه الصلاةُ، لا الخلافة والسياسة والمناصب وفَرضُ السُّلطة على خلق الله. كانوا المُحافظةُ على الصلاة أكبرَ همِّهم، وقد شهد الله تعالى بذلك لهم حيث يقول بعد آيات النور ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ؛ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ﴾ النبيُّ محمّد وصَحْبُه ومَن تبعهم بإحسان ﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ!﴾ بمَفهومها الشامل كما مرّ أوائلَ الكتاب ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ!﴾ فأطلعنا ربُّنا على خبايا نفوسهم وخفايا ضمائرهم وشهد أنّهم مُخلصون له الدينَ، فوقع أجرُهم عليه تعالى ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ!﴾ [النور 36-38]

ثم انتَبه إلى ذِكر الرزق هنا، فإنَّما داءُ الشيعة طلبُ الدّنيا، وهمُّهم الوحيد تحصيل الرّزق المَضمون لكن من غير وجوهه التي أحلَّها الله. حتَّى جعلوا الصلواتِ الخمسَ ثلاثاً، وذلك بأنّهم يجمعون الظهرَ والعصر، والمغربَ والعشاء دائما دون ضرورة، يَخشَون تفويتَ إقامةِ الصلاة

[1] 'أصول الكافي' ص136 باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة، الأعلمي، بيروت.

للرِّزق، وما فاتَهم سوى قولِ الله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي القرآن ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة 66] وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا؛ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف 96] وهذا وَعدٌ منه تعالى ولكنّ المنافقين لا يفقَهون ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ؛ لَعَلَّكَ تَرْضَى! وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ: زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ؛ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى! وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا؛ نَحْنُ نَرْزُقُكَ! وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه 130-132] قال رسولُ الله عليه السلام «نَفثَ روحُ القُدُس في رُوعي أنّ نفسًا لن تخرُج من الدنيا حتى تَستَكمِلَ أجلَها وتَستَوعِبَ رِزقَها؛ فأجْمِلوا في الطَّلَب ولا يَحمِلنَّكم استِبطاءُ الرِّزق أن تَطلُبوه بِمَعصية الله. فإن الله لا يُنالُ ما عندَه إلا بطاعَته»[1]

ومِــــمّا زادَني عُــــجْــباً وتــــيهاً وكِدتُ بأَخْمَصي أَطَأُ الثُّرَيّ
دُخولي تَحتَ قولك ﴿ياَ عِبادِي﴾ وأن صَيَّرتَ أحْمَدَ لي نَبياً

بلغنا عن السَّرِيِّ السَّقَطي خالِ أبي القاسم الجُنيد أنه قال: سَمِعتُ بِشْرَ بنَ الحارث يقول "ما أنا بِشيءٍ مِن عمَلي أوثَقُ به منّي بِحُبّي أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم!" وعن عبيد بن محمد الوراق قال: سمعتُ بشر بن الحارث يقول "أوثَقُ عَمَلي في نفسي حُبُّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم!"[2] فالحمد لله الذي جعلني مسلمًا وحبّب إليّ أصحابَ رسول الله وآلَ بيته جميعًا وأظهر لي عدالَتهم وأَنزلَهم في قلبي وعقلي مَنازِلَهم التي أنزَلَهم تعالى ورسولُه إذ قال صلى الله عليه وسلم «لا تسبُّوا أصحابي! فلو أنّ أحدَكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذَهبًا، ما بَلغَ مُدَّ أحدِهم ولا

---

[1] خرّجه الطبراني في 'المعجم الكبير' ح7694 وابن عبد البر في 'التمهيد' والقُضاعي عن أبي أمامة، وابن ماجة والحاكم عن جابر وصححه ووافقه الذهبي، ورواه البزار عن حُذيفة وله شواهد عديدة.

[2] 'حلية الأولياء' ج8-ص338.

نَصيفَه!»[1] والله يعلَم أن لا أحد في هذه الأمّة أدّى لله ورسوله ما أدّاه الصحابةُ، رضي الله عنهم وأرضاهم. فإنَّني أُنافح عن عِرضهم وأذود عن حوضهم وأحجُّ مَن ذمَّهم وأُعاديه وأحتسب ذلك عند باريه؛ هذا أدنَ ما يجبُ عليَّ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ! وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ؛ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ!﴾ فأرجو من الله أن أكونَ من الذين آمَنوا ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا، اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا! رَبَّنَا، إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ!﴾ وأرجو منه تعالى أن لا يجعَلني من الروافض الذين ذكرَهم بعد ذلك فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا؟! يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ، وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ: اكْفُرْ! فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ!﴾ [الحشر 8-16]

تلك حال الروافض ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ!﴾ [الأنفال 13] سبّوا الصحابةَ والله يقول ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ! وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا؛ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ! وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ!﴾ [التوبة 100-101] ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا! وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ؛ يَقُولُونَ: لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ! وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ!﴾ [المنافقون 7-8]

تلك حال الروافض الذين لا همَّ لهم سوى تفريق المسلمين وإبعادهم عن سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ريثما يرجع إمامُهم المَفقود. ويزعُمون أنَّ أوَّل ما يقوم يقصد المدينة فيُخرج أبا

---

[1] خرجه البخاري في المناقب ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد عن أبي سعيد الخُدري.

بكر وعمر من قبرَيهما ويلعنهما ويتبرَّأ منهما ويُصلّبهما ويحرقهما ويُذريهما في الريح، ويكسر المسجد. ثم يبعث عائشة أم المؤمنين من قبرها ويجلدها الحد. ثم يقيم خمسمائة من قريش فيضرب أعناقهم، ثم خمسمائة فضرب أعناقهم، حتى يفعل ذلك ست مرات، ويُكثر في العرب الذَّبْح، ويحكم بحُكم داود لا بشريعة محمّد. حتى أنَّهم زعموا أن أبا جعفر قال "لو يعلم الناس ما يصنع القائمُ إذا خرَج، لأحبَّ أكثرُهم أن لا يرَوه؛ ممّا يَقتُل من الناس! أمَا إنه لا يبدأ إلا بقريش فلا يأخذ منها إلا السيف ولا يعطيها إلا السيف حتى يقول كثير من الناس: ليس هذا من آل محمد، لو كان من آل محمد لَرَحِم!"[1] وحاشى لله أن يكون مَن يفعَل ذلك من الآل، ولا أقرَّ الله به أعيُنَ المنافقين الأنذال، بل ما هذا الذي يتصوَّرونه إلا خبَط من التدجيل والخَبال!

وادَّعَوا أنّ أبا جعفر قال في قول الله ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا، إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ! لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ!﴾ [الأنبياء 12-13] قال: إذا قام القائمُ بَعث إلى بني أميّة بالشام فهرَبوا إلى الروم فيقول لهم الروم "لا نُدخلنَّكم حتى تَتنصَّروا!" فيُعلّقون في أعناقهم الصُّلبان فيُدخلونهم، فإذا نزل بحضرتهم أصحابُ القائم، طلبوا الأمانَ والصُّلح فيقول أصحاب القائم "لا نفعل حتى تدفَعوا إلينا مَن قِبلَكم منّا!" قال فيدفعونهم إليهم، فذلك قوله ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ!﴾ [الأنبياء 12-13] قال يسألُهم الكُنوزَ وهو أعلم بها فيقولون ﴿يَا وَيْلَنَا، إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ! فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ!﴾ [الأنبياء 14-15] بالسيف!"[2] هذا ما يتوعَّد به الروافضُ الصحابةَ وأهلَ السنَّة! وعندَهم من مثله الكثير، ثم هم لَن يبرَحوا يخترعون من الأنباء المدسوسة بعُقولهم المنكوسة ما لا يعلَم شناعتَه إلا الله ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ؛ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ!﴾ [الأنعام 5] تلك حال الروافض، أعاذنا الله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق! لكنَّها عداوةُ الحسَد، إذ أنَّ الفرس لا يرضَون أن يكون العربُ أفضلَ منه، حيث شرَّفَهم الله بالإسلام وبمحمَّد!

[1] انظر 'الفاضح لمذهب الشيعة الإمامية' للسيد حامد الإدريسي ص28-29، المكتبة الشاملة.

[2] 'الكافي' ج16-ص416، المكتبة الشاملة.

كلُّ العَداوَةِ قد تُرجَى إزالَـتُها   إلاَّ عداوةَ مَن عاداك مِن حَسَدِ!

وأحسن مَن قال "ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلوم مِن الحاسد: كَمَدٌ دائم ولَهَف لازم! فللَّه دَرُّ الحسَدِ ما أعدَلَه؛ يقتُل صاحبَه!" واعلَم يا مَن شرحَ الله صدرَك للإيمان أنَّ ذمَّ الصحابة مِن طرَف الروافض الزناديق المرضَى القلوب ذوي الفِطر النكوسة، الذين يرَون القبيح حسنًا والحسنَ قبيحا والمعروفَ منكَرا والمنكرَ معروفا، نقول إنَّما ذَمُّ وانتِقاصُ أولئك اللِّئام لِهؤلاء الكِرام هو في الحقيقة مدحٌ لَهم وشهادةٌ على كمال دينهم:

وإذا أتتكَ مَذمَّتي مِن ناقصٍ   فهي الشّهادة لي بأني كاملُ!

ثمّ إنَّ بَغضَ الروافض لنا مِن أجل حبِّنا لأصحاب رسول الله لا تزيدُنا إلاّ حُبًّا لَهم، رضوان الله عليهم أجمعين، ولا تزيدُنا إلاّ تمسُّكا بسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ولا تزيدُنا إلاّ ثقةً وشُكرًا للَّه ربِّ العالَمين، ولا تزيدُنا إلاّ اعتِزازًا وفَخرًا، وقد صدق مَن قال:

لقد زادني مَدْحًا لنفسي أنني   بَغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غَيرِ طائلِ

لا يمكن لأحد أن ينكر ما انجرَّ عن مَقتل عثمان بن عفان من فتَن، حتى تقاتَل الصحابةُ فيما بينَهم. ولكن ليس ذلك بقادح في دينهم ولا في عدالتهم، بل هي اجتهاداتهم في إطار الشرع أدّت بكلٍّ إلى اتّجاهه الخاص. ولقد حصل مثلُه بين مَن هم أفضل من الصحابة؛ وهم الأسباط وأوهم يوسف، وما من شك أن الأسباط أفضل من الصحابة. ولكنهم ظنّوا أنّ أباهُم افتُتِن بيوسُف فكادوا له ليُبعدوه عنه، ولكنّهم كانوا مُخطئين في اجتهادهم، كما أخبرنا الله تعالى به وهو قول يوسف ﴿نزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي!﴾ [يوسف 100]

فلا بدَّ من الفتنة، وذلك ما قرَّره القرآنُ بكل وُضوح ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا "آمَنَّا" وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟! فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ!﴾ [العنكبوت 2-3] فكذلك قد أنبأ الله رسولَه بما سيلقاه الصحابةُ من تلك الفتنة وكذلك أنبأ رسولُ الله صحابتَه بها فقال في حجّة الوَداع «لا ترجِعوا بعدي كُفّارا؛ يضرب بعضكم رقاب

بعض»[1] أي انتَبِهوا فإنّ فتنةً عظيمةً ستصيبُكم بعد وفاتي، فخُذوا حِذرَكم من الآن كي لا تُهلكَكم. وذلك حين أظهَر اللهُ الإسلام من جديد على يدَي أبي بكر وعمر، فأظهرَ كُتّابُ الفُرس واليهودُ الإسلام ثم تحالَفوا مع المنافقين على هَدم الدين ومُحاربة أهله. ولكنّ الله تعالى يأبى ذلك إلى أن يأتي أمرُه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّه الْكَذبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ؟! وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ! يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّه بِأَفْوَاهِهِمْ؛ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِه وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ! هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ!﴾ [الصف 7-9]

إنَّنا معشَرَ أهلِ السنَّة لا نفرِّق بين مَن جمعهم الله على نبيِّه لِيَنصره بهم، وألّف بين قلوبهم، فإنَّه تعالى يقول له ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ؛ هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِه وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ! لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَميعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ؛ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ! يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ!﴾ [الأنفال 62-64] فقد حَفظ تعالى بهم الدّين و﴿هُوَ الَّذي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ! وَلِلَّه جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا! لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ؛ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّه فَوْزًا عَظِيمًا!﴾ أمَّا المُنافقون من أبناء ذلك القرن إلى يومنا هذا، وكذا فِراخُهم من زنادقة الفُرس الشُّعوبيّين الروافض فالويل لَهم ممّا ظَنُّوا من سوء بالله وبرسوله وبالمؤمنين باطلاً، فلا رحمَ الله مَن لَم يتُب منهم وجزاهم بما هم أهلُه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، الظَّانِّينَ بِاللَّه ظَنَّ السَّوْءِ؛ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ! وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ! وَلَعَنَهُمْ! وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا!﴾ ثم كرَّر تعالى ذِكرَ جنوده لنَعلَم

---

[1] خرجه البخاري في الديات ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي عن عبد الله بن عمر، وهو ممّا قاله النبي في خطبته في حجة الوداع، وله شواهد عدَّة أبي بكرة وعبد الله بن عباس عبد الله بن مسعود وجرير بن عبد الله البجلي وأبي سعيد الخدري وأبي أُمامة الباهلي وأنس بن مالك وحُجَيْرِ بنِ مَخْشِيٍّ وأبي حازم الصُّنابحي وأبي غادية وغيرهم.

أن الصحابةَ من جُنودِ الله فقال ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا!﴾ ثم التَفتَ الخطابُ إلى رسول الله تثبيتًا لَه ووَعدًا بالحُسنَى لتقرَّ عينُه بمَن خلفَه من رجال ونساء اصطفاهم الله للدين كما اصطفاه تعالى، قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ثم رجع ليُخاطب المسلمين فقال ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً!﴾ [الفتح 4-9]

فالمَطلوب منَّا أن نَعبُدَ الله بإقامة الصلاة لأوقاتِها التي فرضها وفي مَواضعها التي أمر برَفعها، وأن نُؤمن برسوله وننصُرَه ونُجلَّه صلى الله عليه وسلَّم. ولسنا مُطالَبين بأن نقضيَ أعمارَنا في شَتم ذا ولَعن ذاك. وأمّا ما يفعَلُه الروافض من انتِهاك أعراض الصحابة فجهل ليس بعدَه جَهل، ثم هم يزعُمون أننا، مَعشَرَ أهل السنَّة والجماعة، نكرَه أهلَ البيت وأنّا نَصبْنا لَهم العَداءَ بحجَّة أنّنا لَم نتبرَّأ مِمَّن يزعمون أنَّهم اتَدَوا عليهم، من الصحابة ومَن بعدَهم، وأنَّهم نزعوا من أيديهم ما خصَّهم النبيُّ به واستبدّوا بالحكم دونَهم. وهذا باطلٌ ودَعاوٍ كاذبة وظُلمٌ للرسول ولآله ولصحابته ولعامَّة المسلمين، فنحن معشَرَ أهل السنَّة والجماعة لا نَخوض في هذه المسألَة رأسًا بل نَكِلُ الجميعَ إلى ربِّهم تبارك وتعالى ليفصل بينَهم فيما كانوا فيه يختَلِفون، فلسنا ننصُر أحدًا من الصحابة على أحد، بل قولُنا ما بلغنا عن الشافعي إنّه قال: قيل لعمر بن عبد العزيز "ما تقول في أهل صفِّين؟" قال "تلك دماء طهَّر الله يدي منها فلا أُحِبُّ أن أَخضُب لِساني فيها!"[1] فنحن معشَرَ أهل السنَّة والجماعة نُحبُّ أهلَ البيت جميعا بما فيهم نساءُ النبي والصالِحين من ذُرِّيته، وإنّا لنَعتَرِف لعليٍّ بأنَّه رابعُ الخلفاء الراشدين وأنَّه أفضلُ من مُعاويةَ لا خلافَ عندنا في هذا، بل وأين مُعاوية من عامَّة الصحابة حتى يُزاحِم أفاضلهم في القدر عندَنا؟! إلا أنَّنا لا نقدِّم عليًّا على أبي بكر وعمر وعثمان، ورضوانُ الله على أصحاب رسوله الأخيار الأبرار الأطهار.

يقولون لي: لا تُحبُّ النَّبيَّ! فقلتُ: الحَصَى بفَمِ الكاذِب
وأُعطي الصحابةَ حقَّ الوَلاءِ لأَمشي على السَّنَن الواجبِ

[1] 'حلية الأولياء' ج9-ص114.

فإن كان نَصباً وَلاءُ الجميعِ، فإنّي، كما رفَضوا، ناصبِي!

وصيّة الرسول

قال علي بن أبي طالب: كان آخرُ كلامِ رسول الله «الصلاةَ، الصلاةَ! اتَّقوا الله فيما مَلكتْ أيْمانُكم!»[1] وزاد أنس: حتى جعل صلى الله عليه وسلم يُغَرغِرُ بها صَدرُه وما يكاد يَفيض بها لسانُه![2] هذه آخرُ وصيَّةٍ منه صلى الله عليه وسلم، فِداه نفسي وأمّي وأبي وجزاه الله عنا خير ما جزَى رسولا عن أمّته. ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ، فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ!﴾ [البقرة 132] أي متمسِّكون بالصلاة جماعة! ولا غَرْوَ أن يُوصيَ إبراهيمُ ويعقوبُ ومُحمدٌ عليهم الصلاةُ والسلام بالصلاة قبل مَوتِهم، فهم بُناةُ الْمَساجدَ الثلاثة الْمُحرَّمةِ التي يُشرَع قَصدُها للصلاة كما بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثلاثَةِ مَساجدَ؛ مَسجدي هذا، ومسجدِ الحرامِ، ومسجدِ الأقصَى!»[3] فباني البيتِ الحرامِ بمكّة هو إبراهيمُ، قال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة 127] وباني المسجد الأقصَى ببيت المقدس يعقوبُ بن إسحاق بن إبراهيم[4]، فعن أبي ذرٍّ الغفاري أنه قال: قلتُ "يا رسولَ الله، أيُّ مَسجدٍ وُضِع في الأرض أَوّلَ؟" قال «المسجدُ الْحَرام» قلتُ "ثم أيٌّ؟" قال «المسجد الأقصَى» قلت "كم كان بينهما؟" قال «أربعون سنةً، ثم أينما أدرَكَتْك الصلاةُ بَعدُ فصَلِّهْ؛ فإنَّ الفَضلَ فيه!»[5] وباني مسجدِ المدينة هو محمَّد. فلمَّا أكرم اللهُ إبراهيمَ ويعقوبَ ومحمّدًا برَفع أشرف مساجد الأرض كانوا أَولَى الناسِ بالوصيَّة بالصلاة قبل موتِهم.

---

[1] صحيح خرجه أبو داود في الأدب وابن ماجه وأحمد وله شواهد عدّة.

[2] خرجه أحمد ح12190 وابن ماجه والحاكم عن قتادة وصححه الأرناؤوط.

[3] خرجه مسلم في الحج والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي، عن أبي هريرة.

[4] رجَّحه ابنُ كثير في 'البداية' ج1-ص197 وجزم به ابن القيّم في 'الزاد' ج1-ص50.

[5] خرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ومسلم وأحمد.

عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة قال: دخلتُ على عائشة فقلت "ألا تُحدِّثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟" قالت "بلَى، ثَقُلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال «أصلَّى الناسُ؟» قلنا "لا، هم ينتظرونك!" قال «ضَعوا لي ماءً في المِخْضَب!» قالت: ففعلنا فاغتسل فذهب لِيَنوءَ فأُغمِيَ عليه، ثم أفاقَ فقال صلى الله عليه وسلم «أصلى الناس؟» قلنا "لا هم ينتظرونك يا رسولَ الله" قال «ضعوا لي ماء في المخضب!» قالت: فقعد فاغتسل ثم ذهب ليَنوءَ فأُغمِيَ عليه، ثم أفاق فقال «أصلّى الناس؟» قلنا "لا هم ينتظرونك يا رسول الله" فقال «ضعوا لي ماءً في المخضب!» فقعد فاغتسل ثم ذهب ليَنوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال «أصلَّى الناسُ؟» فقلنا "لا هم ينتظرونك يا رسول الله!" والناس عُكوفٌ في المسجد ينتظرون النبيَّ عليه السلام لصلاة العِشاء الآخرة. فأرسل النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر بأن يُصلِّي بالناس فأتاه الرسولُ فقال "إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرُك أن تصلّيَ بالناس!" فقال أبو بكر -وكان رجلا رَقيقا- "يا عمرُ، صَلِّ بالناس!" فقال له عمر "أنت أحقُّ بذلك!" فصلّى أبو بكر تلك الأيامَ. ثم إن النبيَّ صلى الله عليه وسلم وَجَدَ مِن نَفسه خِفَّةً، فخَرج بين رَجُلين، أحدُهما العباسُ، لِصلاة الظُّهر، وأبو بكر يُصلّي بالناس. فلمّا رآه أبو بكر، ذَهب لِيتأخَّر فأَوْمَأَ إليه النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يَتأخّر، قال «أجلِساني إلى جَنبه!» فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يُصلّي وهو يأتمُّ بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم، والناسُ بصلاة أبي بكر، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قاعدٌ. قال عُبيدُ الله: فدخلتُ على عبد الله بن عباس فقلت له "ألا أَعرِضُ عليك ما حدَّثتني عائشةُ عن مَرَض النبي صلى الله عليه وسلم؟" قال "هات!" فعَرضتُ عليه حديثَها، فما أنكَرَ منه شيئًا غيرَ أنّه قال "أسَمَّت لك الرجلَ الذي كان مع العباسِ؟" قلت "لا" قال "هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه!"[1] فهكذا كان محمَّد صلى الله عليه وسلم حريصًا على إقامة الصلاة إلى آخر رَمَقٍ من حياتِه؛ لأنّها عينُ رسالَته!

---

[1] خرجه لبخاري في الأذان ومسلم والنسائي والدارمي وأحمد.

وقد أقرَّ الله تعالى عينَ رسوله وأتمَّ النعمةَ على يده، فعن الزُّهري قال: أخبرني أنسُ بن مالك الأنصاريُّ، وكان تَبعَ النبيَّ صلّى الله عليه وسلم وخَدَمَه وصَحِبَه، أنّ أبا بكر كان يُصلِّي لَهم في وَجَع النبيِّ صلى الله عليه وسلم الذي تُوُفِّيَ فيه. حتى إذا كان يومُ الاِثنين وهُم صُفوفٌ في الصلاة، فَكشف النبي صلى الله عليه وسلم سترَ الحُجرَة يَنظُرُ إلينا وهو قائمٌ، كأنّ وَجهَه وَرَقَةُ مَصحَف! ثم تَبسَّم يَضحَكُ، فهمَمنا أن نَفتَتِنَ مِنَ الفَرَحِ برُؤيَة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فنَكَصَ أبو بكر على عَقبَيه لِيَصِل الصَّفَّ وظَنَّ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خارجٌ إلى الصلاة، فأشارَ إلينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن: أَتمُّوا صلاتَكم! وأَرخَى السِّترَ، فتُوُفِّيَ مِن يَومه.[1]

بِطَـيبَةَ رَسمٌ للرَّسولِ ومعهَدُ	مُنيرٌ، وقد تعفو الرسومُ وتَهْمَـدُ
ووَاضِحُ آيات، وَبَاقـي مَعَالِمٍ	ورَبْـعٌ لهُ فيهِ مُصلًّى ومَسجِـدُ
إمامٌ لَهمْ يهديهمُ الحقَّ جاهداً	مُعلِّمُ صدقٍ، إن يطيعوهُ يسعَدوا
يَدُلُّ على الرّحمنِ مَن يقتَدي بهِ	وَيُنقذُ مِنْ هَوْلِ الخَزَايَا ويُرْشِـدُ
فَبَيْنَا هُمُ في ذلكَ النّورِ، إذْ غَدَا	إلى نُورِهِمْ سَهْمٌ من المَوْتِ مُقصِدُ
فأصبحَ مَحموداً إلى اللهِ راجعاً	يبكيهِ جَفنُ الْمُرسَلاتِ ويَحمَدُ
فَجُودي عَلَيْهِ بالدّموعِ وأَعْوِلي	لِفَقدِ الذي لا مثلَهُ الدَّهرَ يوجَدُ
فمَا فَقَدَ الْماضُونَ مثْلَ مُحَمّد،	ولا مثلُـهُ، حتى القيامة، يفقَدُ!
وهلْ عَدلتْ يوماً رزيَّـةُ هالكٍ	رزيَّـةَ يومٍ ماتَ فيه مُحمَّـدُ؟!

قائلُ هذه الأبيات هو حسّانُ بن ثابتٍ الأنصاري صاحبُ رسول الله، وحقًّا إنّ وَفاة محمّد صلى الله عليه وسلَّم أفجعُ ما أصابَ المسلمين على الإطلاق، فقد بلغنا عن عائشة أنها قالت: كَشف رسول الله سترًا وفتَح بابا في مَرَضه فنظر إلى الناس يُصلُّون خلفَ أبي بكر فسُرَّ بذلك وقال «الحمد لله! إنه لم يَمُت نبيٌّ حتى يَؤُمَّه رجلٌ من أمَّته!» ثم أقبلَ على الناس فقال «أيها الناس، من أُصيب منكم بِمصيبة مِن بعدي؛ فليتَعَزَّ بمصيبته بي عن مصيبته التي تُصيبه! فإنه لن يصاب

[1] خرجه البخاري في الأذان ومسلم والنسائي وأحمد.

أَحدٌ من أُمّتي مِن بعدي بمثل مصيبته بي!!»[1] فمِن الحق أن نتألّمَ نحن المتأخرون بوفاته أيضا، أوليس الله سبحانَه وتعالى يقول في آحاد المؤمنين «وما تَردَّدتُ عن شيء أنا فاعِلُه تَردُّدي عَن نفسِ الْمُؤمن»[2]؟! والنبي أحبُ الخلق إلى ربّ العالَمين، هو إمام المرسلين وأوّل المسلمين القائل ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ!﴾ [الزمر 12] ولكنّ الله قضى الموتَ على خلقه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ!﴾ [العنكبوت 57] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ!﴾ [الزمر 30] قال أنس بن مالك: لَمّا كان اليومُ الذي دَخل فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ؛ أضاءَ منها كل شيء! فلما كان اليومُ الذي ماتَ فيه؛ أظلمَ منها كلُّ شيء! وما نَفضْنا عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الأيديَ، وإنا لَفي دَفْنه، حتى أَنكَرْنا قُلوبَنا![3]

يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ؛ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟! وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ! وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ: كِتَابًا مُّؤَجَّلاً! وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا؛ نُؤْتِهِ مِنْهَا. وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ؛ نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ! وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا؛ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ! وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا: رَبَّنَا، اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ! فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا، وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ؛ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ! يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا؛ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ!﴾ [آل عمران 143-149]

هذا خطابٌ لكلِّ مَن عاصر النبيَّ أو جاء من بعدِه إلى يوم القيامَة، بل وهو عهدٌ على كلّ نبيٍّ وكل مسلم جاء قبل النبي كما يدل عليه قول الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ: لَمَا آتَيْتُكُم

---

[1] خرجه الطبراني في 'المُعجَم الأوسط' ح4448 وفي 'الصغير' وضعَّفه الهيثَمي، ورواه الدارمي في المقدِّمة عن مكحول مُرسَلا بسند صحيح، والبَيهَقي في 'شُعب الإيمان' عن ابن عباس.

[2] انفرد به البخاري في الرقاق عن أبي هريرة، وله شاهد عن عائشة عند أحمد.

[3] خرجه الترمذي في المناقب وابن ماجه والحاكم وابن حبان وأحمد وصحَّحه الأرناؤوط.

مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ؛ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ! قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي؟! قَالُوا: أَقْرَرْنَا! قَالَ: فَاشْهَدُوا! وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ!!﴾ فمن باب أولَى وُجوبُ نُصرة النبي محمّد على مَن عاصرَه ومَن يأتي بعدَه إلى يوم القيامة بكل ما يملكون من قوّة وحبٍّ عملاً بقول الله جلّ ثناؤه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمّد أخيرًا وختَمنا بك الرسالَة لتكون ﴿شَاهِدًا﴾ للرسل من قبلك وعلى الناس من قبلك وفي زمانك ومن بعدك ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمَن أطاعك بالجنّةَ والرِّضوان ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمَن عصاكَ من الخزيِ والنيران، ثم التَفت إلى الناس جميعًا فقال ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الإيمانَ الحقّ الذي يقتضي العملَ والإخلاصَ له تعالى ﴿وَرَسُولِهِ﴾ ولتؤمنوا بمحمّد ورسالَته ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُعينوه بما أوتيتُم من قوّة لنَشر رسالَته من بعده وإحياءِ سنَّته إلى آخر الدّهر ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتُعظِّموه وتُبجِّلوه على أنفُسكم وفوقَ كل البشر إلى آخر الزمان وفي كل البلدان، فلا تُبايعوا أحدًا إلا أن يكون رافِعًا لراية محمّد النبي الأمّي حامِلاً لرسالته صلى الله عليه وسلم، وذلك بإقامة الصلاة التي هي عمودُ الدين وعِماد مُجتَمع المسلمين الْمُرتَبِط على طاعة الله وبرِّه وتَقواه، ذلك لكي تَعبدوه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ جلَّ وعلا في ركوعكم وفي سجودكم مُخلِصين له الدين في كلّ مكان وظَرف وحين ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً!﴾ [الفتح 8-9]

على ذلك كان المصطفى صلى الله عليه وسلّم فالله تعالى قد قال له ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صلِّ ﴿وَكُن﴾ واحدًا ﴿مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي صلِّ معهم جماعةً ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ!﴾ [الحجر 98-99] وقيل اليقين هو المَوت، ولا مانع مِن أن يكون اليقين هو العلمُ الثابتُ الذي لا يدخُله الشكّ، وهذا أقرب، فكم في الصلاة من آيات كفيلة باكتمال الإيمان!!

إضاعة الصلاة

بلغنا عن شيبة الخُضْري أنه شهد عُرْوَةَ بنَ الزُّبير يُحدِّث عمرَ بنَ عبدِ العزير عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ثلاثٌ أحلف عليهن؛ لا يجعلُ الله مَن له سَهمٌ في الإسلام كمَن لا سهمَ له، وسِهامُ الإسلام الصومُ والصلاةُ والصدقة! ولا يتولَّى الله عبدًا فيولِّيَه غيرَه يومَ القيامة! ولا يُحبُّ رجلٌ قوماً إلا جَعلَه الله معهم!» والرابعة، إن حلِفتُ عليها رَجوتُ أن لا آثَم «ما يَستُر الله على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة!» فقال عمر بن عبد العزيز "إذا سمعتم مثلَ هذا الحديث يُحدِّث عُروةُ عن عائشة فاحفظوه!"[1] قولُه «سِهامُ الإسلام الصومُ والصلاةُ والصدقة» لا يعني أنّ مَن حاز واحدًا من تلك الأسهُم فقد حاز نصيبًا من الإسلام، فالإسلام لا ينقسم، ولكن معناه أنَّه متركِّب من تلك الأقسام، وهي الصلاة والصوم والصدقة؛ فإذا اجتمعت ظهرَ الإسلام. فليس معنى الحديث أن مَن ترك سهمًا بقي معه سهمان، بل معناه أن مَن ترك شيئًا من ذلك فلا حظَّ له في الإسلام كما بلغنا عن رسول الله أنّه قال «لا سَهْمَ في الإسلام لمن لا صلاةَ له، ولا صلاةَ لمن لا وضوء له!»[2] وهذا من أساسيات المنطق وبديهياته، فاسم الكلّ لا يُطلَق على جزء من أجزائه، ولكن إذا عُدمَ الجزءُ عُدِم الكلُّ، فافهم هذا!

الحاصل أنَّ مَن له حظٌّ في الإسلام ليس كمن له حظٌّ فيه بل كما قال صلى الله عليه وسلم «مَن بَطَّأَ به عَملُه لَم يُسرِع به نَسَبُه!»[3] فالإسلامُ تقرُّب إلى الله بالنَّصَب والتوكُّل والعمل لا بالنَّسَب والتواكُل والأمل، ثم كثيرون يظلُّون مُقيمين على كُفرهم ولا يتوبون ثم يتمنَّون في هذه الدنيا أنَّهم مسلِمون. وهذا مُشاهَد كثيرًا وقد ذكره الله تعالى بقوله ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ

---

[1] خرَّجه الحاكم في الإيمان وصححه وأبو يعلى والبيهقي في الشعب وأحمد وحسَّنه الأرناؤوط.

[2] خرَّجه البزار ح8539 عن أبي هُرَيرة وسكت عنه وفيه مَن أجمعوا على ضعفه كما قال الهيثمي، ولكن كما سبق بيانه ليس يعني هذا أنَّ المتن باطل، بل هو صحيح وإن لَم يتلفَّظ به رسول الله.

[3] جزء من حديث خرجه مسلم في الأذكار وأبو داود والترمذي والحاكم عن أبي هريرة.

كَانُوا مُسْلِمِينَ!﴾ [الحجر 2] و'رُبَما' تُفيد التقليل وأنّ وُدَّهم مُحتمَل غيرُ أكيد فدلَّ على أنه في الدنيا، ثم ختم سبحانه وتعالى السورة بوصف الدَّواء الناجع الذي فيه السلامةُ كلّها فقال ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ!﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ!﴾ [الحجر 87-99] أي الموتُ الذي لا ريبَ فيه ولا تدخلُه 'رُبَّما'!

بَدا لِيَ أَنَّ الدهْر يدفَع في القَــفا وأَنَّ بَقــائي إن حَيِيتُ قَــليلُ
طوَيتُ لذا كشحًا وقلتُ لصاحِبي: كأن لَّم يكن مّا كان حِينَ يَزُولُ!

لكنّ أعدادًا هائلة من الناس، مِائَاتِ المَلايين، يُعدّون مسلمين وهم غيرُ مسلمين، بل ويودُّ أكثرُهم أنهم مسلمون. يدَّعون أنّهم يحسِنون الظنّ بالله وأنهم مؤمنون وأن قلوبَهم مُفعمةٌ بحُبّ الله ورسوله، ولكنّهم يكتفون بذلك عن طاعة الله؛ فلا صلاةَ ولا زكاة، ولا يدَعون مُنكرا إلا رَكِبوه ولا حُرمةً إلا تعدَّوها؛ فما هذا الإسلام؟! ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ "آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ" وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ! يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا؛ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ!﴾ [البقرة 8-9] فهم على ضلال مُبين ولكنَّهم في عمًى.

تَعصي الإلهَ وأنت تُظهِر حُبَّهُ؟! هذا مُحالٌ في القِياس شَنيعُ!
لَو كان حبُّك صادِقًا لأَطَعتَهُ؛ إنّ الْمحِبَّ لِمَن يُحبُّ مُطيعُ!!

قال يحيى بن معاذ الرازي: ليس بصادق مَن ادَّعَى حُبَّه ولم يَحفَظْ حَدَّه![1] التَّمَنِّي لا يكفي فالله يقول ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا؛ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً؟! لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَن يَعْمَلْ سُوءًا؛ يُجْزَ بِهِ! وَلاَ يَجِدْ لَهُ من دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا! وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا! وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا؛ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً؟!﴾ [النساء 121-125] وحين

---

[1] 'حلية الأولياء' ج10-ص67.

أنزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء 214] قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يا مَعشرَ قُريشٍ، اشتَروا أنفُسَكم؛ لا أُغني عنكم مِّن الله شيئاً! يا بَني عَبدِ مَناف، لا أغْني عنكم من الله شيئا! يا عبّاسُ بنَ عبدِ الْمُطَّلب، لا أغني عنكَ من الله شيئا! ويا صَفيَّةُ عمَّةَ رسولِ الله، لا أُغني عنكِ مِن الله شيئا! ويا فاطِمَةُ بِنتَ مُحمَّدٍ، سَليني ما شِئتِ مِن مالي؛ لا أغني عنكِ من الله شيئا!»[1]

مَن يتّكل على حسَبه ونسبه فيعمل بعمل أهل النار ثم يرجو جزاءَ أهلِ الجنّة؛ فهو أحمق ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ! أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ؟! أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟!﴾ [ص 26-27] ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ؛ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ!﴾ [الأعراف 30] ذلك عمَى القلوب وتراجُعُ أمرِ الدين وانقلابُ الموازين، ولا سببَ له سوى الإقبالِ على الدنيا ونسيانِ الآخرة ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً!﴾ [الإنسان 27]

ولا تعدِل الدنيا جَناحَ بَعوضَة لَدا اللهِ أو مِعشارَ زَغْبَة طائرِ
فلَم يرضَ بالدنيا ثَوابًا لِّمؤمن ولَم يرْض بالدنيا عقابًا لِّكافرِ!

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا: انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ! قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا! فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ؛ يُنَادُونَهُمْ: أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ؟! قَالُوا: بَلَى، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ!﴾ [الحديد 14] هو الشيطانُ. والغُرور داءٌ عُضال وعلّة يعزُّ دَواؤُها لأنّه جهلٌ مُركَّب: فصاحبُه يجهَلُ الأمرَ ويجهل أنّه يجهَله! بخلاف الجهل البسيط الذي يعلَم صاحبُه أنّه يجهل فيكفيه التّعلُّم. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول «الكيِّسُ مَن دانَ نفسَه وعمِل لِما بَعد الموت، والعاجزِ مَن أتبَع نفسَه هواها وتَمنَّى على الله!»[2]

[1] خرجه البخاري في الوصايا ومسلم والترمذي والنسائي والدارمي عن أبي هريرة.

[2] خرجه الحاكم في التوبة وصححه ووافقه الذهبي والترمذي وحسنه عن شداد بن أوس.

أراكَ امْرأً تَرجو مِن اللهِ عَفْوَه وأنت على ما لا يُحبُّ مُـــقيمُ!
تَدلُّ على التَّقوى وأنت مُقَصِّرٌ أيا مَن يُداوي الناسَ وهو سَقيمُ!

تلك حال أولئك المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويتظاهَرون به، وهم في حقيقة الأمر كفار. وقد فضَحهم حُذَيْفَةُ بنُ اليَمان، صاحبُ سرِّ رسولِ الله، الذي خصّه صلى الله عليه وسلّم من بين الصحابة بعلم النِّفاق، فقلّما كان يخفى عليه شيءٌ من علاماته، وكذا علمُ الفتَن في هذه الأمة. وكان عمر بن الخطّاب إذا مات أحدٌ سأل، فإن حضر حُذيفةُ الصلاةَ عليه صلَّى عليه عمرُ، وإن لم يحضر حذيفةُ الصلاة عليه لم يحضر عمر[1] قال حُذيفةُ "أوَّلُ ما تَفقدون من دينكم الْخُشوعُ وآخرُ ما تفقدون من دينكم الصَّلاةُ. ولتُنقَضنَّ عُرَى الإسلامِ عُروَةً عُرْوة ولَيُصلِّيَنَّ النساءُ وهُنّ حُيَّضٌ ولَتَسْلُكُنّ طَريقَ مَن كان قَبلَكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذّة وحَذوَ النَّعلِ بالنعْل؛ لا تُخطِئون طريقَهم ولا يَخطَأنَّكم. حتى تبقَى فِرقتان مِن فِرَقٍ كثيرة، فتقول إحداهما: ما بالُ الصلواتِ الخمسِ، لقد ضلَّ مَن كان قبلَنا؛ إنما قال الله تبارك وتعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود 114] لا تُصلُّوا إلاَّ ثلاثًا! وتقول الأُخرَى: إيمانُ المؤمنين بالله كإيمان الملائكة؛ ما فينا كافرٌ ولا مُنافق! حقٌّ على الله أن يَحشُرَهما مع الدَّجَّال!!"[2] العُرْوةُ ما يُقبَض منه الإناءُ وغيرُه، والمقصود هنا ما يُستَمسَك ويُستَعصَم به من الدين، وحَذوُ الشيء مُسايَرتُه وموازاتُه، والقُذَّة رِيشُ السَّهم.

كلامُ حُذيفةَ هذا مُقتَبسٌ من أحاديثَ قد صحَّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من وجوه، وحاصلُه أنَّ هذه الأمَّة سوف تتَّبع اليهودَ والنصارَى في كلّ ما أحدَثوه من بِدع حتَّى يكونوا مثلَهم في كلِّ شيءٍ، كالريشِ في مُؤخَّرة السَّهم، كلُّ ريشةٍ على شاكِلَة التي تسبقُها. وصدَق حُذيفةُ، فطوائف الإسلاميّين وإن كثُرت فمَردُّها في زماننا المُتقارب هذا إلى تَينكَ الطائفتين. أُولاهما قَومٌ يدَّعون الاكتفاءَ بالقرآن والاستِغناءَ عن السنّة، وقد ظَهَر قرنُ شيطانِهم في

---

[1] 'أُسْد الغابة في معرفة الصحابة' لابن الأثير، ج1-ص706، الكتب العلمية.

[2] خرجه الحاكم في الفتن وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الطبري في 'الآثار' وابن أبي شيبة.

عهد النبي وفيهم قال صلى الله عليه وسلّم «ألا، هَل عسَى رَجُلٌ يَبلُغُه الْحَديثُ عَنِّي، وَهُو مُتَّكِئٌ على أَريكَتِه، فيقول "بيننا وبينكم كتابُ الله؛ فما وَجَدْنا فيه حَلالاً اِستَحلَلْناه وما وَجدْنا فيه حَرامًا حرَّمناه!" وإنّ ما حرَّمَ رسولُ الله كما حرَّم الله!»[1] وهذه ظاهرة مُتفشِّية في الشيعة والخوارج والُمعتزِلة مما جعلَهم يعتَرضون على السنّة بسهولة مُذهلة. ثم قامت في القرن الثالث عشر بنواحي الهند فِرقَةٌ زَعموا التمسُّكَ بكتاب الله وأعرضوا عن السنّة رأسًا، وسمَّوا أنفُسَهم 'القُرآنيّين' ولا تزال دعوتُهم تنتشر وزيغُهم يَروج على الدَّهماء و'المثقَّفين' النَّوكَى إلى يومِنا هذا. أما الطائفةُ الثانية فهم مَن يسمَّى الْمُرجِئة، وهم أكثرُ الفِرَق عددًا منذ زمان. يقول الشَّهرِستاني في وصفهم:

> كلُّ مَن خرج عن الإمام الحقِّ الذي اتفقت الجماعةُ عليه يسمَّى خارجيا، والمرجئة صِنفٌ منهم. الإرجاءُ على معنيَين: أحدُهما بمعنى التأخير كما في قوله تعالى ﴿قَالُوا: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ!﴾ [الأعراف 111] أي أَمهِلْه وأخِّره، والثاني إعطاءُ الرجاء. أما إطلاق اِسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنهم كانوا يؤخّرون العملَ عن النيّة والعَقْد، وأما بالمعنى الثاني فظاهِر فإنهم كانوا يقولون "لا تَضُرُّ مع الإيمان معصيةٌ كما لا تنفع مع الكفر طاعةٌ" وقيل "الإرجاءُ تَأخير حُكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يُقضَى عليه بحكم مَّا في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار" فالإيمانُ -عندهم- لا يزيد ولا ينقُص، وهو المعرفة بالله تعالى وبرسوله والإقرارُ بما أنزل الله وبما جاء به الرسول في الجملة دون التفصيل؛ فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن، وما سوى ذلك من الطاعة فليس من الإيمان. فما دون الشرك مَغفورٌ لا مَحالة، والعبد إذا مات على توحيده لا يضرُّه ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات.[2]

---

[1] خرجه الترمذي في العلم عن المِقْدامِ وحسّنه، وعن أبي رافع وقال: حسن صحيح، وهو عند غيره.

[2] بتصرُّف قليل من كتاب 'الملل والنحل' ص149-159، المكتبة التوفيقيّة، مصر.

لقد ضلَّ الْمُرجئة حين فصَلوا العملَ عن الإيمان ثم قالوا "الإيمانُ التصديقُ، أي عَدمُ إعلانِ التكذيب، وهو الأصل والعملُ فرع: فمهما أُخلَّ بالعمل فذلك لا يؤثِّر في أصل الإيمان" وهذا هدمٌ للدين من أساسه، ويردّه القرآن ومنه قولُ الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ...﴾ [النساء 136] فلو كان الإيمانُ الأوَّل في قول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني التصديقَ، بمعنى عدَم التكذيب، لما أمرَ تعالى بالإيمان الثاني، والذي هو التصديق لُغةً وحقيقة؛ فدلَّ على أن الإيمان إذا أُطلق في الشَّرع فمعناه العملُ بما أمرَ الله. وإلاّ فقول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ فإنما يعني: يا أيها الذين عَمِلوا بما علِموا من رسالَة ربِّهم التي جاء بها محمَّد...

نعم عبادة الله تصديق، ولكن بمعنى أنَّه عملٌ يشمَل القلبَ واللسان والجوارح جميعا ﴿وَقُلْ: اعْمَلُوا؛ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ!﴾ فرؤيةُ المؤمنين العملَ ضروريّة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة 105] الأصلُ العملُ والفرعُ أيضًا هو العملُ، وذاك معنى التصديق في اللغة، أي أن لا يُكذَّب اللهُ ورسولُه.

لا إسلامَ ولا إيمانَ إلا بطاعة الله ورسوله كما في قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ!﴾ [الأنفال 1] فالطاعةُ هي الشَّرط والإيمان مَشروطُها، فإن فُقدت الطاعَة لَم يتحقَّق الإيمان. فمثلاً تَصديقُ إخبار الله تعالى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا؛ يُجْزَ بِهِ، وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا! وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا!﴾ [النساء 123-124] نقول: تصديقي هذا الخبرَ أن لا أعملَ سوءًا لألاَّ أُجزَى به، وأن أعمَل صالحا لأَدخُل الجنّةَ. وإلاّ فأنا مُكذِّب لهذا الكلام، وهو القرآن، ولمن صدَر عنه، وهو الله تبارك وتعالى، ولِمَن جاء به، وهو الرسول.

اظْفَر به فَهمًا واحفَظْه، فإنَّ الحقّ قريب بسيط! وقد بيَّنه أبو جعفر الطبري فقال: قد دلَّلْنا على أن الإيمانَ: التصديقُ، وأنّ التصديق قد يكون بالقول وحدَه وبالفعل وحده وبهما جميعا. فمعنى قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة 143] على ما تظاهرَت به الرواية مِن أنه الصلاة:

وما كان الله ليُضيع تصديقَ رَسوله عليه السلام بصَلاتكم التي صلّيتموها نحو بيت المقدس عن أمره، لأن ذلك كان منكم تصديقًا لرسولي، واتِّباعًا لأمْري، وطاعةً منكم لي![1] ويؤكِّد هذا قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم «الإيمانُ الصلاةُ، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بِحَدّها ووقتها وسنَّتِها؛ فهو مؤمن!»[2]

اعلَم أن الذي ساعَد الإرجاءَ على الانتشار بين الناس كونُه مُوافقًا لِهَوى أكثَرهم، فهم يتَّبعون الحياةَ العاجلة ويفرُّون ممّا يُفوِّت عليهم مَصالِحَهم فيها من خِلافات تسبِّب الفُرقة؛ فوقعوا في الكفر والشِّرك وهم لا يشعرون. كما قال إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا؛ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ!﴾ [العنكَبوت 25] لقد ضَمِن الإرجاءُ، بإخراجه الأعمالَ عن الإيمان، الأمنَ للكَفرة الفجَرة فأفسادوا في الأرض. ووفَّر على حكّام السوء وجُعَبِ العلم مَتاعِبَ الأمرِ بالَمعروف والنهيِ عن المنكَر والوَلاء والبَراء والجهاد في سبيل الله، فقالوا "الإيمانُ في القلب، وهو خاصٌّ بكل فرد، ليس للغير التدخَّلُ فيه!"

فالتبسَ الأمرُ وسمَّوا مَزيجا طغَى فيه الكفّارُ على المسلمين 'العالَم الإسلامي'. نعم الإيمانُ في القلب، ولكن ليس هكذا مطلقًا، وإلا فهي كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل! كما قال علي بن أبي طالب. لا بدَّ من عمل ظاهرٍ يصدِّق ما في القلب، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «الإسلامُ عَلانيَةٌ والإيمانُ في القلب!» ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول «التّقوَى

[1] تفسير الطبري ج3-ص169.

[2] وخرّجه المروزي بسنده في 'تعظيم قدر الصلاة' ح337 وابن النجار، وهو عند أبي نُعيم في 'أخبار أصبهان' والقُضاعي في 'مسند الشهاب' عن أبي سعيد الخدري بلفظ «عَلَمُ الإيمان الصلاةُ». وعند البيهقي من حديث أبي هريرة يرفعه «صَفوَة الإيمانِ الصلاةُ» 'شعب الإيمان' ح2909.

هَاهُنا، التقوى هاهنا!»[1] وعن الحَسن البصري قال: إنّ الإيمان ليس بالتحلّي ولا بالتَّمَنّي، إنما الإيمانُ ما وَقرَ في القَلب وصدَّقه العَمَلُ![2]

والحق الذي يجب إظهارُه ولا يَجوزُ إخفاؤُه أنَّ جُمهورَ العلماء الْمَعدودين على أهل السنَّة، ومنذ قرون طويلة، تبَعٌ لِلْمُرجئَة في مُعظَم مسائل الإيمان، غيرَ مسائل الإمامة. فإنّهم وإن لم يفصِلوا الإيمانَ عن الأعمال في تنظيراتِهم، إلا أنّهم يفصِلونهما في واقع الأمر؛ ذلك حُكمُهم في تارك الصلاة، فإنه لا يدع شكًّا في هذا! ما دام تاركُ الصلاة ينطِقُ بالشهادتين ويقرُّ بوجوب الصلاة فهو عندهم مسلمٌ ذو حُرمة تامّة، حتى قال بعضُ متأخِّريهم: تاركُ الصلاة مع إيمانه بوُجوبها لا يَخرُج من الْمِلَّة ولا يُخلَد في النار مع المشركين. ولذلك فإنّي لأرجو مُخلِصًا كلَّ مَن وقف على هذه الرسالة أن يتراجع عن تكفير المسلمين التاركين للصلاة مع إيمانهم بها والموحِّدين لله تبارك وتعالى؛ فإنّ تكفير المسلم أمرٌ خطير جدّا![3]

انظُر كيف قرَّر الألباني أنّ تاركَ الصلاة الذي لا يَجحَد وُجوبَها مسلمٌ ومؤمنٌ ومُوحِّدٌ ثم نَصَحنا بِعَدَم تكفيره لأنَّ تكفيرَ المسلم أمرٌ خطير جدّا! وهل هذا إلا تأخيرٌ للعمل عن الإيمان، وتغليبٌ للرجاء على الخوف؟ فإن لَم يكن هذا إرجاءًا فليس على الأرض إرجاء! وإلا فقولُنا بأنّ تارك الصلاة كافرٌ ليس إكفارا لِمُسلِم، فالذي عليه أهلُ السنّة أن ’لا يُكفَّر أحدٌ مِن أهل القِبلة‘

---

[1] خرجه أحمد ح12404 قال: حدثنا بَهز ثنا علي بن مَسعدة ثنا قَتادة عن أنس... وضعّفه الأرناؤوط. والصواب أنّه حسن وإن كان مدارُه على ابن مَسعدة الباهلي، نعم ضعّفه ابنُ عدي وقال النسائي "ليس بالقوي" وقال البخاري "فيه نظر"، ولكن وثّقه الطيالسي ويحيى بنُ مَعين وقال "صالح" وقال أبو حاتم الرازي "لا بأس به" وقال ابن حجر "صدوق له أوهام". ويقوّيه جدًّا أن أحمد سمعه من بَهز بن أسد البصري وقد قال عنه "إليه المنتهىَ في التَّثبُّت!" وقال جرير بن عبد الحميد "اختلطَ عليّ حديث عاصم الأحول وأحاديث أشعث بن سوار حتى قدِم علينا بَهْزٌ فخلّصها لي، فحدَّثتُ بها". وقال عنه أبو حاتم "إمام صَدوق ثقة" وانظره في ’تهذيب الكمال‘ ج4-ص458 مؤسسة الرسالة، بيروت. ورواه البزار وابن أبي شيبة وأبو يعلى والمروزي.

[2] خرجه ابن أبي شيبة في المصنّف رقم 30988.

[3] محمد ناصر الألباني ’حكم تارك الصلاة‘ ص91، المكتبة الإسلامية، عمّان.

وكيف يكون تاركُ الصلاة من أهل القبلة وهو لا خبرَ عنده عن القبلَة ولا الصلاة، بل وأيُّ نَصيب له في قول النبي «مَن صلَّى صلاتَنا واستَقبل قِبلتنا وأكل ذبيحتَنا، فذلك المسلم الذي له ذِمَّة الله وذِمة رَسوله؛ فلا تُخفروا اللهَ في ذِمّته!»[1]، كيف وقد أكَّد مقتضَى هذا فقال صلى الله عليه وسلم «لا تُشركْ بالله شيئا وإن قُطِّعتَ أو حُرِّقت، ولا تَترُكنَّ الصلاةَ الْمَكتوبة مُتعمِّدا؛ ومَن تركها متعمِّدا بَرِئَت منه الذِّمّة!»[2]؟! ألا يكفي هذا في بيان أنَّ رسول الله قد تبرَّأ من تاركي الصلاة، وأنَّهم ليسوا من أهل القبلة.

يقول محمد رشيد رضا: لقد أحسن مَن عبَّر عن المسألة بقوله "لا نكفِّر أحدًا من أهل القبلة" أي مَن ثبت إسلامُه بإذعانه لما جاء به نبيَّنا؛ بأن كان يصلّي معنا إلى قبلتنا، ويلتزِم أحكامَنا وشعائرنا. فإننا لا نحكُم بكُفره لذنبٍ يقترِفه بجهالة: كثَورة غضَب أو نَزوةِ شهوة أو فَريضةٍ يترُكها لشُغل عارض أو بَرد قارِس، ثم يتوب من قريب، إذعانًا لمُقتضى الوعد والوعيد ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّه لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ؛ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ!﴾ [النساء 17] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ! وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ؟! وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ!﴾ [آل عمران 135] لا إيمانَ لِمَن لا إذعانَ له، ولا إذعان لمن لا إسلامَ له، ولا إسلام لمن لا عملَ له. وأعمال الإسلام قسمان: أركان كأركان البيت يتوقَّف عليها وجودُه، وواجبات ومندوبات يتوقَّف عليها كمالُه؛ فهذا هو الإسلام الديني. وهناك إسلامٌ آخر هو عبارة عن جِنسيّة سياسية أو اجتماعية تُنال بالوراثة، أو بالانتماء إلى قوم يسمُّون مسلمين. وهذا الإسلام لا يُشترَط فيه العلمُ بعقائد الإسلام الديني، ولا القيامُ بأركانه وشعائره الظاهرة، ولا تركُ مُحرَّماته الْمُجمَع عليها ولا استقباحُها، ولا ينافيه إنكارُ شيء من القرآن ولا استقباحُ شيء من شَرعه، كتحريم تبرُّج النساء والخمر والقمار؛ وإنما يُعْرَف بالاسم وبمشاركَة المسلمين في بعض احتفالات أعيادهم ومَواسمهم المشروعة والمبتدَعة،

[1] خرجه البخاري في الصلاة والنسائي وأحمد عن أنس بن مالك.

[2] حسن خرجه ابن ماجه والبخاري في 'الأدب المفرد' عن أبي الدرداء.

وبعدَم الْتزام شعائر دينٍ آخر. وإننا نرى بعضَ الْمَلاحِدة من هذا الجنس يريدون هدمَ الإسلام الديني بالإسلام الاصطلاحي الجنسي، حتى أنهم يبيحون جَحدَ المجمعِ عليه المعلوم منه بالضرورة؛ وأولئك هم المرتدون المنافقون![1]

تاركو الصلاة ليسوا بمسلمين لأنَّهم ليسوا من أهل القِبلَة، وإن تسمَّوا بذلك اصطلاحًا سياسيا وافقَ عليه الألباني، فراح ينصحُنا بعدم تكفير أولئك الكفرة الفجرة. ولَو عمل الألباني بما ينصح به من عدم تكفير المسلمين لكان له بعض العُذر، ولكنَّه لَم يتأخَّر عن تكفير رجال مسلمين مصلّين عُلماء لمجرَّد مخالفَتهم لما هو عليه من آراء، وذلك عند تعليقه على خبر «إن أبي وأباك في النار» الذي صحَّحه، مع أنَّ فيه اختلافًا كثيرا، فإنَّه يقول:

اِعلم أيها الأخُ المسلم أنّ بعض الناس اليوم وقبل اليوم لا استعدادَ عندهم لقَبول هذه الأحاديث الصحيحة وتبنّي ما فيها من الحكم بالكفر على والِدَي الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إن فيهم مَن يظنُّ أنه من الدعاة إلى الإسلام لَيستنكِر أشدَّ الاستنكار التَّعرُّضَ لذكر هذه الأحاديث ودَلالتها الصريحة! وفي اعتقادي أن هذا الاستنكار إنما ينصبُّ منهم على النبي صلى الله عليه وسلم الذي قالها إن صدَّقوا بها؛ وهذا كما هو ظاهر كفرٌ بَواح، أو على الأقل على الأئمة الذين رَووها وصحَّحوها؛ وهذا فُسق أو كفر صراح. لأنه يلزم منه تشكيك المسلمين بدينهم، لأنه لا طريق لهم إلى معرفته والإيمان به إلا من طريق نبيِّهم صلى الله عليه وسلم كما لا يخفَى على كل مسلم بصيرٍ بدينه. فإذا لم يصدِّقوا بها لعدم موافقتها لعواطفهم وأذواقهم وأهوائهم، كان في ذلك فتحُ بابٍ عظيم جدًّا لرد الأحاديث الصحيحة. وهذا أمر مشاهَد اليوم من كثير من الكُتّاب الذين ابتلِي المسلمون بكتاباتهم كـــ.. و.. و.. و.. [وذكرَ أربعةً من العلماء لا حاجةَ لاتِّباعه في هذا] وأمثالِهم ممن لا ميزانَ عندهم لتصحيح الأحاديث وتضعيفها إلا أهواؤهم! واعلم أيها المسلم، المشفق على دينه أن يُهدَم بأقلام بعض المنتسبين إليه، أن هذه الأحاديث ونحوها مما فيه الإخبار بكفر أشخاص أو إيمانهم، إنما هو من الأمور الغيبية التي يجب الإيمانُ بها وتلقِّيها بالقَبول.

---

[1] من مجلة المنار، مجلد 18-ص 662.

فالإعراضُ عنها وعدَم الإيمان بها يلزَم منه أحدُ أمرين لا ثالثَ لهما، وأحلاهما مُرّ: إما تكذيبُ النبي، وإما تكذيب رواتها الثقات.[1]

فالألباني لا يقبَل تأويل هذا الحديث، والذي إن صحَّ فهو غريب بل شاذّ. فما بالُه يردُّ الآيات المصرِّحة بكفر تارك الصلاة كقولِ الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ؛ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام 92] وقوله تعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: ارْكَعُوا! لاَ يَرْكَعُونَ؛ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ!﴾ [المرسلات 47-49] وقوله ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ!﴾ [الروم 31] وقوله ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ!﴾ [المدثر 42-43] ويردّ الأحاديث المصرِّحة بكفر تارك الصلاة كقول النبيّ صلى الله عليه وسلّم المُؤكَّد الذي لا يحتَمل التأويلَ «إنّ بين الرّجُلِ وبين الشركِ والكُفر تركَ الصلاة!»[2] وغيره؟! استنكَرها وقال "إنّما هي للتَّخويف" بل "هو كفرٌ دونَ كُفر". فخرَق بذلك إجماعَ الصحابةِ الذي أعلَنه التابعيُّ الجليل عبد الله بن شَقيقٍ العُقَيْلي البَصري بقوله "كان أصحابُ مُحمد، صلى الله عليه وسلم، لا يَرَون شيئا من الأعمال تركُه كفرٌ غيرَ الصلاة!"[3] وهذا إجماعٌ صريحٌ قائمٌ دائم، كما قرَّره الْمَروَزيُّ إذْ يقول: قد ذكرنا في كتابنا هذا ما دلَّ عليه كتابُ الله وسُنَّةُ رسوله من تعظيم قَدْر الصلاة وإيجابِ الوَعد بالثواب لِمَن قام بها، والتغليظِ بالوَعيد على مَن ضيَّعها، والفرقَ بينها وبين سائر الأعمال في الفضل وعِظَم القَدْر. ثم ذكرنا الأخبارَ المرويَّة عن النبي صلى الله عليه وسلم في إكفار تاركِها وإخراجه إياه من الْمِلّة وإباحة قتال مَن امتنع من إقامتها، ثم جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم مثلُ ذلك. و لم يَجِئْنا عن أحد منهم خلافُ ذلك![4]

---

1 'السلسلة الصحيحة' ح2592، ج6-ص91.

2 خرجه مسلم في الإيمان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عَن جَابر بن عبد الله.

3 خرجه الترمذي في الإيمان وابن نصر في 'تعظيم قدر الصلاة'، والحاكم عن أبي هريرة.

4 'تعظيم قدر الصلاة' ج2-ص925.

هذا في منتَهَى الوُضوح، وناهيك بإخبارات محمد بنِ نصر المَروزي، فقد شهد له الأكابر بالإمامة، وهذا ابنُ حزم يقول في سياق إبطالِ التقليد، على سبيل مُسايرة الخصم لدحض حُجَّته: ..قَلِّدْ مُحمَّد بنَ نَصرٍ الْمَروَزِيَّ، فإنّه أتَى مُتعقِّباً بَعد أَحمَد. ولقد لَقِي أحْمد وأخَذَ عنه وحَوَى علمَه، ولَقِيَ أصحابَ مالكٍ والشّافِعِيِّ وأَصحابَ أصحابِ أبي حَنيفَةَ وأخَذ عِلمَهم، وقد كان في الغايَةِ التي لا وَراءَ بَعدَها في سَعَةِ العِلم بالقُرآن والْحَديث والآثار والْحِجاجِ ودِقَّة النَّظَر، مع الوَرَع العَظيم والدِّين الْمَتين![1]

فقد تضافَرَ صريحُ القرآنِ وصحيحُ السنّة وإجماعُ الصحابة ليدلّوا على أن مَن تركَ الصلاة فهو كافِر غير مسلم. ولكنّ الألباني ومَن سبقه وتبعَه ممَّن قابَل هذا بالرَّد، أعرَضوا وأخذوا يتنطَّعون ويُفرِّعون المسائلَ ويَلوُون أعناقَ الآيات والأحاديث إلحادًا في دين الله تعالى، ثم قامُوا يَعْتبون على السلَف والعلماء الأعلام وصالحي الأمّة الذين وقَفوا على ظاهر تلك النصوص ولم يتأوّلوها، واتّهموهم بالسَّفَه وقلَّة الفِقه في الدين والغفلة عن مصالح الخلق وسَمَّوهم 'جماعةَ التَّكفير' وجعلوهم من جنس الخوارج؛

وكَم مِّن عائبٍ قوْلاً صَحيحاً وآفَــتُهُ مِنَ الفَهْمِ السّقيمِ
ولــَكِن تأخُــذُ الآذانُ منهُ على قَدْرِ القَرائحِ والعُلُومِ!

يقول ابن القيِّم: العجب أن يقع الشكُّ في كُفرِ مَن أصرَّ على تركها ودُعِيَ إلى فعلها على رؤوس الملأ وهو يرى بارِقةَ السيف على رأسه ويُشَدُّ للقَتْلِ وعُصِّبَتْ عيناه وقيل له "تُصلِّي وإلا قتلناك!" فيقول "اُقتُلوني؛ ولا أصلّي أبدًا!" ومَن لا يكفِّر تارِكَ الصلاة يقول "هذا مؤمن مسلم يغسَّل ويُصلَّى عليه ويُدفَنُ في مَقابر المسلمين" وبعضُهم يقول "إنه مُؤمنٌ كامِلُ الإيمان؛ إيمانُه كإيمانِ جبريلَ وميكائيلَ!" أفلا يستحي مَن هذا قولُه من إنكاره تكفيرَ مَن شهِد بكُفره الكتابُ والسنةُ واتفاقُ الصحابة؟! والله الموفِّق"[2]

---

[1] 'الإحكام في أصول الأحكام' ج2-ص283، الكتب العلمية، بيروت.

[2] 'الصلاة وحكم تاركها' ص81-82، الجفان، قبرص/دار ابن حزم، بيروت.

قَصص القرآن

المؤمن دائم الفكرةِ فيما هو فيه، ولكن لا كغيره من الناس بل على نور من ربِّه. وهذا النور هو وحي الله تعالى إلى أنبيائه الذين بلَّغوه إلى الناس ليمشوا في الأرض على بصيرة. جاء الوحي إنشاءً وإخبارا، جامعا للأحكام الخاصَّة بأمّة التبليغ ولقَصص مَن قبلَهم من أمم سالفة. ولا يقلُّ القصص أهميَّةً عن الأحكام الشرعيَّة، بل إنَّه يضمُّ فقهًا جَمّا. وممّا يبيِّن هذا المعنى قولُ الله ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ! وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ: اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ! إِنَّا عَامِلُونَ!﴾ [هود 120] قال ابن كثير: كل أخبار نقصُّها عليك من أنباء الرسل المتقدّمين قبلَك مع أُمَمهم وكيف جرى لهم من الْمُحاجّات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصرَ الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءَه الكافرين؛ كلُّ هذا مما نثبِّت به فؤادَك يا محمد، أي قَلبَك ليكون لك بمن مضَى من إخوانك من المرسَلين أسْوة.[1]

ومنه قولُ الله ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ، فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا! وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا! وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وما يَتبَعُها من سُنن كونيَّة وشرعيَّة وما تسبِّبُه من تحوُّلات في مجرى تاريخ الناس وسلوكهم، وبيانُها فيما قصَّه الله على محمَّد فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ!﴾ [الأنعام 34] فالقَصص تثبيتٌ وترسيخ للعبد بعلمٍ ما جرَى بين الرسل وأقوامهم ليقيس سلوكَ قومه على ما بلغه من أخبارهم، فلا يَحيد إذا حاد الذين لا يعلَمون. كما يدلّ عليه قول الله لرسول محمد ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ، لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً!﴾ [الإسراء 74] فقد ثبَّته تعالى بقَصص الأنبياء الذي أوحاه إليه للتَّدبُّر والتفكُّر ليفقهَ الواقعَ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ؟! قُلْ: فَانتَظِرُوا؛ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ! ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا؛ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ!﴾ [يونس 102-103]

---

[1] 'تفسير القرآن العظيم' ج4-ص363،دار طيبة للنشر والتوزيع.

القصصُ القرآني مادَّةُ فقه مَتين للعمَل الشَّرعي في البيئة التي يَعيش فيها المسلم على مرِّ الزمَن. وحتَّى يكون على نور من ربِّه، يَلزَمُه أن يفهمَ واقعَه على ضَوء القرآن والسنَّة. فقولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قَبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع؛ حتى لو دَخلوا في جُحْر ضَبٍّ لاتَّبَعتُموهم!»[1] يدلُّ على أنّ أُمَّة الدّعوة لن تَخرُج عن شيءٍ ممَّا كان عليه اليهودُ والنصارَى على اختلاف فِرَقهم، وهو معنى قول الله ﴿وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّه!﴾ [الأنعام 34] وقوله تعالى ﴿سُنَّةَ اللَّه فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّه تَبْدِيلاً!﴾ [الأحزاب 62] ومَعنَى سُنَّة الله هنا من مثل قولهم في القاعدة المشهورة "الجزاءُ من جنس العمَل" أي أنَّ العبرَة بالعمل لا بالعامل، وأن على كلِّ عمل جزاءً بغضّ النَّظَر عمَّن يعمَله ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ!﴾ [المائدة 29] ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ!﴾ [التوبة 82] ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ!﴾ [المائدة 85] فإذا كان العَملُ من جنسٍ واحد كان الجزاءُ عليه كذلك من جنس واحد، أي أنّ كلَّ عَمل يترتَّب عليه ثوابٌ مَّا فإنَّه يثابُ عليه كلُّ إنسان عملَ به كائنًا مَن كان، وكذلك العمل الذي يترتَّب عليه عقابٌ. فكل مَن تصرَّف تصرُّفًا مّا جُوزيَ بما يترتب على فعله ذاك، ولا دخلَ للمكان والزمان في هذا.

القَصصَ القُرآني روايةٌ صادقة لأمور قد تَحقَّقَ وُقوعُها فيما مضَى في سالف الدَّهر ولما ترتَّبَ عليها من جزاء في الدُّنيا وفي الآخرَة، فهو معيار يقاسُ به الحاضر ويُبنَى عليه المُستقبَل وفقَ ما مضَى مثلاً بمثْل، كما قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَاب؛ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى! وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْه وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ!﴾ [يوسف 111] ومَن لَم يثق بما في القرآن، فليَنظُر في آثار الذين تقدَّموه وتواريخهم الْمُتناقَلَة ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ؟!﴾ فهل ينتظرُ أهلُ هذا العصر جزاءً غيرَ جزاء الذين مَضَوا، وهم يعمَلون نفسَ أعمالهم؟ كلاّ بل سوف يكون جزاؤهم دنيا وآخرةً جزاءَ الذين سبَقوهم دُنيا وآخرة ﴿جَزَاءً وِفَاقًا!﴾ [النبأ 26] ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّه تَبْدِيلاً! وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّه تَحْوِيلاً! أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟!﴾ [فاطر 43-44] ومن ذلك استهزاؤهم بدُعاة

[1] خرجه مسلم في العلم والبخاري في حديث الأنبياء وأحمد عن أبي سعيد الخدري.

الدين المخلصين الذين هم ورثة الأنبياء على الحقيقة ﴿وَلَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ؛ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ! قُلْ: سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ!!﴾ [الأنعام 10-11]

فالعقلُ يقتضي منا النَّظرَ في أيّامِ مَن سبقَ للاعتبار ولفَهم سُنَّة الله في خَلقه ولاستخلاص أحكامه تعالى الثابتة التي لا تتحوَّل ولا تتبدَّل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً! وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً!﴾ [فاطر 43] فبالقَصَصِ القُرآنيِّ يتسنَّى للناس وزنُ الأحداثِ التي يعيشونَها بميزان الشَّرع؛ فيضبطوا فيها سُلوكَهم وفقَ سبُلِ السلام. وها هو القرآنُ فلنَعرِضْ على قَصصه أحوالَنا ولنَقس ما نحن فيه على ما كان الأوَّلون عليه لنعلَم قَدْرَنا عند الله. هذا ما بيّنه شُعَيب عليه السلام لقومه إذ قال لهم ﴿وَيَا قَوْمِ، لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ!﴾ [هود 89] يعني: إن تصرَّفتُم تصرُّفَ قومِ نوح أصابكم ما أصابَ قومَ نوح، وإن تصرَّفتُم تصرُّفَ قومِ هودٍ أصابكم ما أصاب قومَ هود، وإن تصرَّفتُم تصرُّفَ قومِ صالِح أصابَكم ما أصابَهم. وإن لَم يكن ذلك في الدنيا لِما عليه نظامُ الكَون واختلافه عبرَ الدُّهور حسبَ ما يُصلِح الناسَ وتَصلُح به الحياة على الأرض، إلا أن الجزاء في الآخرة واحدٌ لا مَحالَة.

ومَن لَم يُدرك من القَصص القرآني هذا المعنى فاتَه فهمُ نَهي الله عن التشبُّه بالكفار من أهل الكتاب، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ!﴾ [آل عمران 105] وقوله ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا! وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ!﴾ [الأنفال 21] وقوله عز وجلّ ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ، فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ!﴾ [الحشر 19] وفاته كذلك نَهيُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التشبُّه بهم في أحاديثَ كثيرةٍ جدًّا، فمن ذلك قولُه صلى الله عليه وسلم «خالِفوا اليَهودَ، فإنَّهم لا يُصلُّون في نِعالِهم ولا خِفافِهم!»[1] أي لا تخلَعوا أحذيَتَكم للصلاة ولا تتشبَّهوا بهم في ذلك. وقد بيَّن علَّةَ النهيِ، فقال صلى الله عليه وسلم «مَن تشبَّه بقوم فهو

---

[1] رواه أبو داود في الصلاة عن شدّاد بن أوس.

منهم!»[1] حقيقةً، أي بعَمله في الدنيا وبالجزاء الذي سينالُه في الآخرة. وأمّا المتمسِّك بالسنّة فهو من أتباع الأنبياء وذاك قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم «مَن رَغِبَ عَن سُنَّتي؛ فَلَيس مِنِّي!»[2] وهو كما قال إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَني؛ فَإِنَّهُ مِنِّي!﴾ [إبراهيم 36].

ويدلّ عليه قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أي أُمَميّون من غير بني إسرائيل كالفُرس والروم والعَرب وغيرِهم ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ!﴾ أي أن قُصارى ما بينهم وبين الكتاب الذي أنزله الله أنهم يتبرَّكون به، ولكن لا هم يدرسونه ولا يعملون بما فيه. كما هي حال الذين ينتَسبون إلى دين مّا، فإن أكثرهم لا يعلمون منه إلا القليل ولكنَّ دعاواهم فيه كبيرة عريضة، ثم بيّن تعالى مآلَ هذا الاتِّجاه المشؤوم فقال ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ "هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ!" لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً! فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ!﴾ ولا يخفى على عاقل ما بلغته طوائفُ هذه الأمّة مِن كذبٍ على الله خِدمةً للسُّلطان أو للوطن أو للْمَذهب أو للنفس والشيطان أو لغيرها مِن طواغيت، إلا من رحم ربي، وهم في قَرارَة أنفُسهم يعلمون إجرامَهم، ولكنّهم اغترُّوا ﴿وَقَالُوا: لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً!﴾ وقد اشترك في هذه الدعوَى عامّةُ اليهود والنصارى ومن يدَّعون الإسلام من هذه الأمة ﴿قُلْ: أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ بأن يُخرجَكم من النار ولا يُخلِّدكم فيها ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟!﴾ فإن كان ما تقولون صحيحا، فاللهُ لا يُخلِفُ وَعدَه ويسُخرِجُكم من النار بعد حين ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟!﴾ ولستم تعلمون أنّ ذلك العهد الذي أعطاه الله من إخراجٍ من النار بعد حين إنّما هو الصلاةُ، وأنّه للمسلمين الذين يداومون على عبادة ربهم فقط، والذين إن اجترَحوا بعضَ المعاصي رَجَعوا لِتوِّهم وتابوا واستغفروا ولم يصرُّوا ﴿بَلَى؛ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ فاستلبَته وصارت له خُلُقًا

---

[1] خرجه أبو داود في اللباس وأحمد عن عبد الله بن عمر.

[2] خرجه البخاري في النكاح ومسلم عن أنس بن مالك.

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ؛ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ!﴾ ولا ينفعهم ما يدَّعون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ؛ فِيهَا خَالِدُونَ!﴾ [البقرة 78-82]

فلنعتَبر في قول ربّنا ﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ! وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ! لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ! ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ: كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ؛ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ! تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا! لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ؛ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ! وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ؛ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ!﴾ [آل عمران 77-80] تنطبق هذه الآياتُ تمامًا على ظاهِرَة ترك الصلاة في هذه الأمّة؛ وإن اختَلَف العلماء في أنّها كُفرٌ، فهم مُجمعون على أنّها مُنكَر. ومع هذا فقلّما يوجَدُ مَن يتكلّم في هذا المَوضوع فضلاً عن أن يَجرُؤَ على تسميته كُفرًا وخُروجا عن الإسلام. والأفظَع منه أنّ الذين يُصلُّون لا يتردَّدون في اتِّخاذ أصدقاءَ من بين تاركي الصلاة وفي التَّودُّد لَهم.

لا فرقَ بين هؤلاء وبين أولئك الذين جاء ذِكرُهم في الآيات من آل عمران. ومَن غاب عنه فَهمُ هذا على وُضوحه فهو على خَطر عظيم ولا يغيِّر تجاهُلُه من الحق شيئا؛ فليَحذَر مَغبَّةَ مُداهَنَته لأهل الكُفر وعاقبَةَ مُوالاتِهم وسُكوته عن باطِلهم وضَلالهم ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ؟!﴾ [البقرة 77] ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ: الإِسْلاَمُ! وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ؛ بَغْياً بَيْنَهُمْ! وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ! فَإِنْ حَاجُّوكَ، فَقُلْ: أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ، وَمَنِ اتَّبَعَنِ!﴾ وأسلم وجهَه لله ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّـيِّينَ: أَأَسْلَمْتُمْ؟! فَإِنْ أَسْلَمُوا، فَقَدِ اهْتَدَوْا! وَإِن تَوَلَّوْا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ! إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهم الدعاة إلى دين الله الحق في كل زمان ومكان ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ! أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فدلَّ على أنّهم مسلمون في الظاهر، كعُلماء السوء عمَلاء

الطُّغاة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ! أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ؟! يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ! ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ!﴾ [آل عمران 19-24]

مردُّ هذا كلِّه إلى آفة التقليد، الذي هو أوّلُ ذهابِ الدين والْحُكمُ بغير ما أنزلَ اللهُ، كما أن آخر ذهابِ الدين الصلاةُ، مصداقًا لقول مَن لا ينطق عن الهوى «لَتُنقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُروة، فكلَّما انتَقَضتْ عُروَةٌ تَشَبَّث الناسُ بالتي تَليها؛ فأَوَّلُهنّ نَقضًا الْحُكمُ، وآخرُهنّ الصلاةُ!»[1] قال أحمد بن حنبل مُعقِّبا على الحديث "ليس بعدَ ذهابِ الصلاة إسلامٌ ولا دينُ إذا صارت الصلاةُ آخرَ ما يَذهب من الإسلامِ؛ فكلُّ شيءٍ يذهَبُ آخرُه فقد ذهب جَميعُه!"[2] لم يكن هذا بخارجٍ عن علمِ الله تعالى، فإنَّه هو الذي نبَّأ رسولَه، وهو الصادقُ الْمَصدوق، حتى قال صلى الله عليه وسلم «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبلَكم شبرًا بِشبر، وذراعًا بذراع، حتَّى لَو سَلَكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكتُمُوهُ!» قالَ الصحابةُ "يا رسولَ الله، آليَهودَ والنّصارَى؟" قال «فَمَن؟!»[3] فقولُ حملة العلم بإسلام تارك الصلاة ظاهرةٌ من ظواهرِ هذا الفساد، وإلاّ ما احتقَروا أعظمَ ما جاء به الرسلُ من عند الله. ولكنَّهم استخفُّوا بالصلاة لجهلِهم بحقيقة شأنها، ولسوء فَهمهم لأساس الدين، وقد أُثر عن أبي سليمان الدَّاراني أنه قال: مَن فَقد الأصولُ فاتَه الوُصول! وأوَّلُ أصلٍ فقدوه كونُ الصلاة هي الدينَ بعينه.

يقول ربُّنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ، أَوْلِيَاءَ! وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ! وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ!﴾ [المائدة 57-58] ألا ترى أنه تبارك وتعالى قد وصف

---

[1] صحيح خرجه ابن حبان في التاريخ وأحمد عن أبي أُمامةَ، والحاكم عن ابن عمر.

[2] نقله عنه ابن أبي يعلى في 'طبقات الحنابلة' ج1-ص323، دار الكتب العلمية.

[3] خرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ومسلم وأحمد، عن أبي سعيد الخدري.

الصلاة والدين بكون أهل الكتاب اتَّخذوهما هزوًا ولَعِبا؟! فهذه مُجانسة واضحة بين الدين والصلاة؛ فالدين هو الصلاة والصلاة هي الدين.

هذا ما أعلَنه كلُّ رسولٍ لقومه أوَّلَ ما جاءَهم، فأهلُ مَدْيَنَ ﴿قَالُوا: يَا شُعَيْبُ، أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟﴾ أدينُك يأمُرك بهذا؟ فسَمَّوا الدينَ صلاةً و لم يُنكرْه شعيبٌ، بل أكَّده فقال عليه السلام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ!﴾ [هود 87-88] وهذا قريبٌ من قول الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت 45] فكنّى عن الدينَ بها لكونها جامعةً له، وقريبٌ منه قولُه تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ!﴾ [البقرة 143] أي صلاتَكم إلى بيت الْمَقدس قبل تحويل القِبلة، فسمّى الصلاةَ إيمانًا، وكذلك سمَّاها رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إيمانا في قوله «الإيمانُ الصلاةُ، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحَدها ووقتها وسنَّتِها؛ فهو مؤمن!»[1] فالإيمان هو الصلاة والصلاة هي الإيمان أي أنَّها عينُه، شيء زائد عليه.

ثم إنّها أكثر العبادات تكرارًا وهي أَولاها بأن تسمَّى عبادةً، فهي مُراد الله من الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ!﴾ [الذاريات 56] لذا يقول العبدُ استجابةً لربِّه وَسَط الفاتحة من كلِّ ركعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة 4] فالصلاة إعطاءٌ للحقِّ حقَّه وللخَلق مَعناه. هذا ما فَهِمهُ مُشرِكُو قريش من دَعوة محمد كما يشهدَ عليه قول الله ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ!﴾ [الشورى 13] أي كبُرت عليهم الصلاةُ بدليل قوله ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ!﴾ [البقرة 45] بذلك ردّ عليهم فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ﴾ بالْمُذكَّر ﴿صَلاَتُهُمْ﴾ أي دينُهم ﴿عِندَ الْبَيْتِ﴾ بمكَّة ﴿إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال 35] إلا صَفيرًا وتصفيقًا.

فالصلاة أصلُ الدين كما يدلُّ عليه قول يحيى بن أبي كثير "تعلُّمُ الفقه صلاةٌ، ودراسةُ القُرآن صلاة"[2] فجعل الصلاة مشبَّها به وهذا يدلُّ على عِظَمِها، إذ أنَّ الْمُشبَّه دون المشبَّه به، ذلك لأنَّ

---

[1] خرجه المروزي في 'تعظيم قدر الصلاة' ح337 أبو نُعيم في 'أخبار أصبهان' والقُضاعي في 'مسند الشهاب' عن أبي سعيد الخدري.

[2] 'حلية الأولياء' ج3-ص67.

التَّفقُّه في الدين وسيلة والصلاة غاية، وكذا تلاوة القرآن فإنَّها من أعمال الصلاة. وهو ما فَهِمهُ الصحابةُ والتابِعون وتابِعوهم بإحسان، وما يلزَم الناسَ جميعًا فهمُه مِن رِسالَة الإسلام ومن خِطابِ السنّة والقرآن؛ بأن الصلاة هي الدينُ وبأن ضياعَها ضياعٌ للدين! هذا معنى قول الله على الحقيقة ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ: أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ أي أضاعوا الدين واتَّبعوا الدنيا ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا!﴾ [مريم 59] وهو قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أوَّلَ ما يُحاسَب به العبدُ يومَ القيامة مِن عَمله صلاتُه؛ فإن صلَحت فقد أَفلَحَ وأَنجَح! وإن فَسدَت فقد خابَ وخَسِر! فإن انتَقصَ مِن فَريضَته شيءٌ، قال الربُّ عزّ وجلّ: أُنظُروا هَل لِعبدي مِن تَطَوُّع! فيُكمَّلُ بها ما انتَقَص مِن الفريضة، ثم يَكون سائرُ عَمله على ذلك!»[1] فما حالُ مَن لا فريضَةَ له ولا تطوُّع؟!

عَجبًا لأرباب العُقولِ	والحِرْصِ في طَلب الفُضولِ
وَضَعوا عُلومَـــهم مِنَ	الدنيا بِمَدْرجَة السُّـــيولِ
وتَـــتبَّعوا جَمعَ الحُطا	مِ وفارَقوا سَـــنَنَ العُدولِ
ولَهَوْا بِأطرافِ الفُـــرو	عِ وأهمَلوا أصلَ الأصولِ!

العلماء

يشترك في اسم العلمِ الشرعي صِنفان من الناس: حامِلُ عِلمٍ وعالِمٌ، وإن شئتَ فقل: عالِمُ دنيا وعالِم آخرَة، وإن شئتَ: عالِمٌ ربّاني وعالِمٌ رسميّ، وإن شئتَ: عالِمُ أُمَّة وعالِمُ مِلَّة. ولكلٍّ آيةٌ، فآيةُ عالِمِ الأمّة ﴿كَذَلِكَ زَيَّـنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ!﴾ [الأنعام 108] فهو حامل للقرآن ضَليع بعِلم الفقه والجَدل والمناظَرة، بصير بدقائق الْمَذهَب، ولكن قلّما يَعتَمد على الكتاب والسنَّة إذا أفتى، بل على الَمذهَب، وقَد يعرِضُ على مستَفتِيه ما لدَى المذاهب الأُخرى في المسألة، ثم يرجّح أخيرًا ما في مذهبه هو. فإن طولِب ببُرهانٍ أبرقَ وأرعَد وأرغَى وأزبد ونصحَ باتِّقاء الله وعاتَب على

---

[1] خرجه الترمذي في الصلاة وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد والحاكم عن أبي هريرة.

الفُضول وحذَّرَ من التَّعرُّض للعلماء وقال: لُحومُهم مَسمومة! فالْمُستَفتي عنده أقلُّ من أن يعقِل دليلا أو يفهَم تعليلا، بل يكفيه ما قيل وقُضِيَ الأمرُ.

كثيرا ما يُجاوِزُ عالِمُ الأمّة الحَدَّ في مُراعاةِ أحوالَ الُمجتمَع، وقلّما يَجرُؤُ على مُعارَضَة الواقع العُرفي الذي يعيش فيه، وبالتالي قلّما يستطيعُ إصلاحًا، بل قد لا يخطُر بباله الإصلاحُ أصلاً. لذا كثيرًا ما يُخفي آياتِ القرآن وأحاديثَ النبي، فإن لَم يستطع إخفاءَها لَوَى أعناقها وأخضَعَها لما عليه الناسُ، وأتى بأحكام ينسُبها إلى الله وقد شابَ فيها شَرعَه تعالى بعُرفِ الناس وإن لَم يشعُر. يحسَب ذلك من الدين وهو مُناقض له تمامًا، ولكنَّه لا يكتَرثُ لشيءٍ، فهَمُّه الوحيد أن يُضفيَ على أفعالِ الناس وأفاعيلهم صبغةً شِبهَ شرعيّةٍ تَحفَظ عليهم مكانتَهم وتَحفَظ له منصبَه بينَهم. ثم مَن نظَرَ في أحوال علماءِ الأمَّة عَبْرَ العُصور وجدَ جلَّهم مُوظَّفين رَسْميّين، منهم مُستَشارون لدَى السُّلطان وقُضاةٌ وعُمداءُ مدارِس، إلى غير ذلك من وَظائفَ يُحصِّلون بها مبالِغ تُدفَع إليهم مِن طرَف الحُكام أو غيرِهم مِن جهات ذات نُفوذ. فهمُّ هؤلاء العلماء ليس الآخرة ولكن الدنيا، ثم إن صحَّ لهم شيء من أمور الَمعاد فبه وإلا فهمُّهم الأوَّل الدُّنيا. لذا فمواعظهم لا تُفيد شيئًا ولا يتأثَّر لها إلا الحمقَى المغفَّلون حين يسمَعونها، ثم سرعان ما ينسَون ما سمعوا من كلامهم، وذلك بأنَّهم أوَّل مَن يعبث بالدين ولا يعبأ بكلام ربِّ العالَمين، مع أنَّه من المفروض أن أوَّل من يكتَرث للأمر قائلُه، وقد بلغنا في بعض الكتب أن الله تعالى أوصى عيسى بن مريم عليهما السلام: يا ابنَ مريم عِظْ نفسَك، فإن اتَّعظتَ فعِظِ الناسَ وإلا فاسْتحْيِ مني! أي كيف يجابِه أحدٌ غيرَه بعيوبٍ هي فيه؟!

فإن عِبتَ قوما بالذي فيك مثلُه فكيف يَعيبُ الصُّلْعَ مَن هو أصلَعُ؟!

وكمثالٍ على ذلك ما بلغنا من قصَّة شريكٍ القاضي والخليفة العباسي الْمَهدي. فعن الفضلِ بن الربيع، قال: دخل شَريكٌ القَاضي على الْمَهديِّ يوماً فقال له "لا بُدَّ أن تُجيبني إلى خَصْلَة من ثلاث خِصال!" قال "وما هُنَّ يا أميرَ الْمُؤمنين؟" قال "إمّا أن تَليَ القَضاءَ، أو تُحدِّثَ وَلَدي وتُعَلِّمَهم، أو تَأكُلَ عندي أُكلَةً!" ففكَّر ثم قال "الأُكلَة أَخفُّهنَّ على نَفسي" فَاحتَبسَه وقدَّم إلى

الطَّبّاخ أن يُصلِح له أَلوانًا من الْمُخّ الْمَعقود بالسُّكَّر والعَسَل. فلمَّا فَرَغ من غَذَائه قال له القَيِّمُ على الْمَطبَخ "يا أميرَ المؤمنين، لَيس يُفلِحُ الشيخُ بَعد هذه الأُكلَة أَبداًا!" قال الفضل بن الربيع: فحدَّثهم واللهِ شريكٌ بعد ذلك، وعَلَّم أَولادَهم، ووَلِيَ القَضاءَ لهم! ولَقد كُتِبَ بأَرزاقه إلى الْجَهبَذ -أي القيِّم على بيت الْمَال- فضايَقَه في النَّقص -أي ضيَّقَ عليه وأبَى أن يسلِّمَ له الْمبلَغ الْمُقرَّر لعِظَمِه- فقال له الجِهْبِذُ "إنك لم تَبع بَزًّا!" -أي لستَ من تُجَّار الأقمشة والأثاث الذين يُحصِّلون مثلَ هذه الْمبالِغ- قال له شريكٌ "بلى واللهِ، لقد بِعتُ أكبرَ من البَزّ؛ لقد بِعتُ ديني!!"[1]

القاضي شريك بن عبد الله النخَعي من علماء الكوفة، روى عنه عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجرّاح وعبد الرحمن بن مهدى، ولكن ليس بحجَّة وصفه الذَّهبي في ’سيَر أعلام النبلاء‘ بقوله "أحدُ الأعلام، على لِين ما في حديثه"، وقد وثَّقَه ابنُ مَعين وجماعةٌ وضعَّفه القطَّان وأبو زُرعة وأبو حاتم والبخاري والدارَقُطني، اختَلط في آخر عمُره وقطَع ابن تيميَّة بأنَّه شيعيّ قال: شريك بن عبد الله القاضي قاضي الكوفة من أقران الثوري وأبي حنيفة وهو من الشيعة الذي يقول بلسانه "أنا من الشيعة".[2]

إن ثبت خبرُه مع المهدي دلَّ على أنّ اللذَّة مَصيَدَة لا تُخطِئ، فلَمَّا ذاق شريكٌ رحمه الله رَغَدَ العيشِ عجزَ بعد ذلك أن يتخلَّص منه، وفي الْمَثل الشعبي "مَن ذاق البَنَّة، ما يتهنَّا" وليس معنى هذا أنَّ شريكًا القاضيَ لَم يكن يحكُم بالحقِّ أبدًا، ولا أنَّ علماءَ الأمَّة لا يُصيبون الحقَّ بتاتًا، حاشى لله، وإلا ما سَميناهم علماءَ. ولكن لنَعلَم أنَّهم كانوا يُصيبون ويُخطئون وأنّ الواجب إزاءَهم أخذُ ما جاؤُوا به من حقٍّ بدَليله، وتَركُ ما خالَفوا فيه الحقَّ مع تبيينِه لَهم ولغيرِهم بدليله ما أمكَنَ ذلك.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: اعلم أنه لما غلبت الأهواءُ على النفوس وطلبت العلماءُ الْمَراتِب عند الملوك تَركوا الْمَحجةَ البيضاءَ وجنَحوا إلى التأويلات البعيدة ليُمَشُّوا أغراضَ الملوك

---

[1] ذكره على بن الحسين الْمَسعودي في ’مروج الذهب‘ ج3-ص293، دار القلم، بيروت.

[2] ’منهاج السنة النبوية‘ ج1-ص92، بتحقيق الشبراوي، دار الحديث، القاهرة.

فيما لهم فيه هوَى نَفسٍ ليستندوا في ذلك إلى أمرٍ شَرعي، مع كون الفَقيه ربَّما لا يعتَقد ذلك ويُفتي به. وقد رأينا منهم جماعةً على هذا مِن قُضاتِهم وفُقهائهم، ولقد أخبرني الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد وقع بيني وبينه في مثل هذا كلامٌ، فنادى بمملوك وقال "جئني بالحرمدان" فقلت له "ما شأن الحرمدان؟" قال "أنت تُنكرُ عليَّ ما يَجري في بَلَدي ومَملَكَتي مِن الْمُنكَرات والظُّلمِ وأنا واللهِ أَعتَقِدُ مثلَ ما تعتقد أنت فيه مِن أنّ ذلك كلَّه مُنكَر، ولكن واللهِ يا سيّدي، ما منه مُنكَر إلا بفَتوَى فَقيه وخطٍّ يَدِه عندي بجواز ذلك؛ فعليهم لَعنَةُ الله! ولقد أفتاني فقيهٌ هو فُلان –وعيَّنَ لي أفضلَ فَقيهٍ عندَه في بلده في الدين والتَّقشُّف– بأنه لا يَجبُ عليّ صَومُ شهرِ رَمضانَ هذا بعينِه، بل الواجبُ عليّ شَهرٌ في السنة، والاختيارُ لي فيه أيَّ شهرٍ شئتُ من شهور السنة! قال السلطان: فلَعنتُه في باطِني و لم أُظهِر له ذلك، وهو فُلان –وسَمّاه لي، رحم الله جَميعَهم.[1]

يَجرُّ فسادُ العلماء من الآثام والآلام ما لا يعلَمه إلا الله، فضررُهم مُتعدٍّ إلى سائر الأمَّة، لما لَهم من نفوذ ولما جُبلَ عليه الناس من اتِّباعٍ لأقوالِهم، كما لأهل الأموال من تأثير في العامَّة، ولِمَن قُتلوا في الجهاد من اعتبارٍ في قلوب الناس. لذا كان هؤلاء الأصنافُ الثلاثة أوَّلَ مَن يُقضَى عليهم يومَ القيامة كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «إنَّ أولَ النَّاسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليه: رجلٌ استُشْهِدَ، فأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدتُ. فقال: كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ لأن يقالَ "جَرِيءٌ" فقد قيل! ثم أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجْهِهِ، حتى أُلقيَ في النَّارِ. ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وقرأَ القرآنَ، فَأُتِيَ به، فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تَعلَّمْتُ العِلْمَ وعلَّمْتُهُ وقرأْتُ فيكَ القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنكَ تعلَّمْتَ العلم ليقال "عالِمٌ" وقرأتَ القرآن ليقال "هو قارئ" فقد قيل! ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقيَ في النَّارِ. ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه وأَعطَاهُ من أَصنافِ المالِ كُلِّه، فأُتِيَ بِهِ فعرَّفَهَ نِعَمه فعرفها، قال: فما عَمِلْت فيها؟ قال: ما تَركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَق فيها إلا

[1] 'الفتوحات الكيّة' ج5-ص101، دار الكتب العلمية.

أَنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنكَ فعلت ليُقَال "هو جَوادٌ" فقد قيل! ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه ثم أُلقيَ في النَّار»[1] العالِم الذي لا يعمَل بعلمه ضالٌّ والذي يُفتي بغير ما أوحاه الله مُضلٌّ كما أشار إليه قولُ الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً؟! فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ؛ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ؟!﴾ [الجاثية 23]

يا مَعشرَ القُرّاء، يا مِلْحَ البَلَد ... ما يُصلِحُ الْمِلحَ إذا الْمِلْحُ فَسَد؟!

أمّا عالِمُ الْمِلَّة فآيتُه ﴿قُلْ: صَدَقَ اللَّهُ؛ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ!﴾ [آل عمران 95] فذاك العالِمُ بالقرآن العالِمُ بالسنَّة العاملُ بهما، الذي يَبتغي مَرضاةَ ربِّه ويبذُلُ جُهدَه في طَلب حُكمه تعالى في مسائله كلِّها، حتى إذا ظهر له الحقُّ صدَعَ به مهما كلَّفه ذلك، وسواءً رَضيَ الناسُ أم سخطُوا؛ لا تأخُذه في الله لَومةُ لائمٍ. لا تَخفَى عنه أوضاعُ الناسِ ولكن ليأمُرَهم بالْمَعروف وينهاهُم عن المنكر، وإنّه لَيُمعِنُ النَّظَرَ في أحوالِ الْمُستفتي لِلتَّدقيقِ في الفُتْيا ولِتَمحيصِ الحُكم الذي يُصدِرُه، تَحرِّياً للصواب ورغبةً فيما عند العزيز الوهَّاب، ثم يُفتيه بـــ: قال الله وقال الرسولُ وقال السلَفُ الصالِح، رحمهم الله وألحقنا بهم. بلغنا عن عاصم بن ضمرة عن علي أنه قال "ألا إنّ الفقيهَ كلَّ الفقيه الذي لا يُقنِّط الناسَ من رحمة الله ولا يُؤمِّنُهم مِن عَذابِ الله ولا يُرخِّصُ لهم في مَعاصي الله ولا يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنه إلى غيرِه. ولا خَيرَ في عِبادة لا عِلمَ فيها ولا خَير في علمٍ لا فَهمَ فيه ولا خيرَ في قِراءة لا تَدبُّرَ فيها!"[2]

يتكسَّب عالِمُ المِلّة مِن عمل يده، حتى يَحفَظ لنفسه ما يستطيع به قولَ الحقِّ. وقلَّما يقبَل العَطايا أو الهدايا، فعن أبي وائلٍ قال "لَدرهَمٌ مِن تِجارَة أَحَبُّ إلَيّ مِن عَشرَة مِن عَطاء!"[3] والعطاءُ ما يُدفَع مِن بيت المال. وعن مُحمد بن أبي عمرٍو الأَوزاعي قال: قال لي أبي "لو قَبلنا مِن الناسِ

[1] خرجه مسلم في الإمارة والترمذي والنسائي وأحمد عن أبي هريرة.

[2] 'حلية الأولياء' ج1-ص77.

[3] خرجه ابن أبي شيبة ح21721. وأبو وائل هو شَقيقُ بن سَلَمةَ الُمخضرَم صاحب ابن مسعود.

كلَّما يُعطونَا، لَهُناًّ عليهم!"[1] ولا يُخالطُ أصحابَ السُّلطة بل يَحذَرُهم ويُحذِّرُ منهم، سأل رجلٌ سُفيانَ الثّوريَّ فقال "يا أبا عبد الله، أَوصِني" قال "إيّاكَ والأَهواءَ، إياك والخُصومةَ، وإياك والسلطانَ!"[2]

كان محمد بن الْمُنكَدِر التَّيْمي من فُقهاء المدينة وقُرّائها وحُفّاظها وكان عاقلا ومن مَعادن الصدق، سمعَ جابرًا وعائشة وابن عباس وأنسًا وأبا هريرة وأبا قتادة وغيرَهم من الصحابة، وسمع منه الزُّهري وأبو حَنيفة ومالك والثَّوري وابن عُيَينَة وشُعبة وغيرُهم من جلَّة العلماء، وقد روى له الستّةُ. قال محمد بن الْمُنكدِر "العالمُ يَدخُلُ فيما بَين الله وبَينَ عباده؛ فَلْيَطلُبْ لنَفسه الْمَخرَجَ!"[3]

ذلك لأن الله يأمُرُه بإظهار حقِّه تعالى للناس وهم يطالبونه بإظهار حقوقهم وإلاّ فـــ﴿إِنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ!﴾ [البقرة 159] فالذي يتصدَّر للتعليم والإفتاء إمّا أنّه أجهلُ الناس بقَدر الله وأحقَرُهم لِخَلقه تعالى، إن لَم يُبيّن ولم يُبالِ بما هو مُلاقيه يوم العَرْض الأكبَر، أو أنه صَفوةُ الله من خلقه حين يُبالي ويُبيِّن ولا يُحابي ولا يُداهِن، ومن هؤلاء أحمدُ بن حنبل عليه شَآبيبُ رحمة الله، فإنّه صلَّى مع قوم فلمّا رجعَ كتبَ إليهم رسالَةً قال في أوّلها "أَيْ قَومُ، إني صلَّيتُ مَعكم فرَأيت من أهل مَسجدكم مَن سَبَق الإمامَ في الرُّكوع والسُّجود والرَّفع والخَفْض، وليس لِمَن سَبَق الإمامَ صلاةٌ!" وممّا قال فيها:

كلُّ مُستَخِفٍّ بالصلاة مُستَهين بها هو مُستخفٌّ بالإسلام مستْهينٌ به! وإنما حظُّهم من الإسلام على قَدر حَظِّهم من الصلاة، ورَغْبتُهم في الإسلام على قدرِ رغبَتِهم في الصلاة! فاعرِفْ نَفسَك يا عبدَ الله، وَاعلَم أنّ حظَّك من الإسلام وقَدرَ الإسلامِ عندك بِقدر حَظّك من الصلاة وقَدرِها عندك. وَاحذَر أن تلقَى الله عزّ وجلّ ولا قَدرَ لِلإسلام عندك؛ فإن قَدرَ

[1] خرجه أبو نعيم في 'حلية الأولياء' رقم 8318، ج6-ص154. الكتب العلمية، بيروت.

[2] خرجه البيهقي في 'شُعب الإيمان' ح9033 وأبو نعيم في 'الحلية' ج7-ص32.

[3] خرجه الدارِمي في المقدّمة ح137 بسند صحيح عن ابن عيينة عن ابن المنكدر.

الإسلام في قلبك كَقَدر الصلاة في قلبك! وقد جاء الحديثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الصلاةُ عَمودُ الإسلام»[1] ألستَ تعلم أن الفُسطاطَ إذا سَقط عمودُه سقطَ الفسطاطُ ولم يُنتفَع بالطُّنُب ولا بالأَوتاد؟! وإذا قام عمودُ الفسطاط انتفعتَ بالطُّنب والأوتاد؛ فكذلك الصلاة من الإسلام! فانظُروا رَحِمَكم الله وَاعقِلوا وأَحكموا الصلاةَ واتَّقوا الله فيها وتَعاوَنوا عليها وتَناصَحوا فيها بالتَّعليم من بَعضِكم لِبعض والتذكيرِ من بعضكم لبَعض من الغَفلَة والنِّسيان، فإن الله عزّ وجل قد أمرَكم أن تَعاونوا على البرِّ والتقوى، والصلاةُ أفضلُ البر! وجاء الحديثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «أوّل ما تَفقِدون مِن دينِكم الأمانَةُ وآخِرُ ما تَفقدون منه الصلاة، ولَيُصلِّيَنّ أقوامٌ لا خَلاقَ لَهم!»[2] وجاء الحديثُ أن «أوّلَ ما يُسأل عنه العبدُ يومَ القيامة مِن عمله صلاتُه، فإن تُقُبِّلَت منه صلاتُه تُقُبِّلَ منه سائرُ عَمَلِه، وإن رُدَّت صلاتُه رُدَّ سائرُ عمله!»[3] فصلاتُنا آخرُ

---

[1] ما وجدته، وفي جامع التِّرمذي في الإيمان عن مُعاذ «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاةُ» وقال: حسن صحيح، ورواه ابن ماجه وأحمد والبخاري في 'الأدب المفرَد'.

[2] خرَّج ابن أبي شيبة رقم38740 عن شداد بن معقل الأسدي قال: سمعت ابن مسعود يقول "أول ما تَفقدون من دينكم الأمانة وآخرُ ما تفقدون منه الصلاة؛ وسيصلِّي قوم ولا دينَ لهم! وإن هذا القرآن الذي بين أظهُركم كأنّه قد نُزِعَ منكم!" قال: قلت "كيف يا عبدَ الله، وقد أثبتَه الله في قلوبنا؟!" قال "يُسرَى عليه في ليلة فتُرفَع الْمَصاحِف ويُنزَع ما في القلوب!" ثم تلا ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً!﴾ [الإسراء 86] ورواه عبد الرزاق والبيهقي في الشُّعب. ورواه ابن حبان والحاكم وأحمد عن أبي أُمامةَ عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال «لتُنقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُروة، فكلَّما انتَقَضتْ عُروَةٌ تَشَبَّث الناسُ بالتِي تَليها؛ فأَوَّلُهنّ نَقضًا الْحُكمُ، وآخِرُهنّ الصلاةُ!»

[3] خرَّج ابن أبي شيبة رقم37056 قال: حدثنا جرير بن عبد الحميد الضبي عن منصور عن تميم بن سلمة قال "أول ما يسأل عنه العبد يسأل عن صلاته، فإن تُقبِّلت منه تُقبِّل منه سائرُ عمله، وإن رُدَّت عليه رُدَّ عليه سائرُ عمله!" والمرفوع في السنن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال «إنّ أوّلَ ما يُحاسَب الناسُ به يومَ القيامة مِن أعمالِهم الصلاةُ!»

ديننا، وهي أوّل ما نُسأَل عنه غداً مِن أعمالِنا، فليس بَعدَ ذهابِ الصلاةِ إسلامٌ ولا دين! فإذا صارَت الصلاةُ آخرَ ما يَذهَب مِن الإسلام، فكلُّ شيءٍ يَذهب آخرُه فقَد ذهبَ جَميعُه؛ فتمَسَّكوا رَحِمكم الله بآخر دينكم! وَلْيعلَمِ الْمُتهاوِنُ بصلاته الْمُستَخِفُّ بها الْمُسابِقُ الإمامَ فيها أنه لا صلاةَ له وأنه إذا ذهبت صلاتُه فقد ذهب دينُه![1]

ليتَ شِعري؛ مَن كانوا عاجزين عن فَهم أن لا دينَ بغير صلاة، فماذا فهِموا من الدين، وماذا علِموا وما أدخَلَهم بين الله وعباده وما المَخرج لهم مِن وَرطتهم هذه؟! ﴿فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا؟!﴾ [المائدة 3] بل لا علمَ له، فالله يقول ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ!﴾ [فاطر 28] ولا خيرَ فيهم، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول «مَن يُرِدْ الله به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين!»[2] فيُصيِّرُه فقيها، والفقيه مَن وصفه الحَسنُ البَصْري التابعي، فيما بلغنا عن عِمرانَ المنقَريِّ قال: قلتُ للحسنِ يوما في شيء قالَه "يا أبا سعيد، ليس هكذا يقول الفقهاءُ!" فقال "وَيحَك، ورأيتَ أنت فَقيهًا قَطّ؟! إنّما الفقيهُ: الزاهدُ في الدنيا، الراغبُ في الآخرة، البَصيرُ بأمر دينه، الْمُداوِمُ على عِبادة ربِّه!"[3] وعن عبد الله بن المبارك قال: سمعت سفيان الثوري يقول "ليس بفقيه مَن لم يَعُدَّ البلاءَ نِعمةً والرخاءَ مصيبة"[4] وهل يكون هكذا مَن جهِلَ قدرَ الصلاة؟!

إذا ما لم يُفِدْك العلمُ خيرًا ... فخيرٌ منه أن لو قد جَهِلتا
وإن ألقاك فَهمُك في مَهاوٍ ... فليتك، ثم ليتَك ما فَهِمْتا!

---

[1] 'رسالة الصلاة' رواها أبو الحسين محمد بن أبي يعلى عن مُهنّا بن يحيى الشامي عن الإمام أحمد، 'طبقات الحنابلة' ج1/ص348-358، بتحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

[2] خرجه البخاري في العلم ومسلم عن مُعاوية.

[3] صحيح خرجه الدارمي في المقدمة والطبراني في 'الأوسط' وابن المبارك في 'الزهد'.

[4] 'حلية الأولياء' ج7-ص55.

والأفظع من هذا كله غُرورُ هؤلاء العلماء بأنفُسهم، يحسَبون عصرَهم خيرَ العصور، ويقولون "ما فينا كافرٌ ولا مُنافق!"[1] ويظنّون أنَّهم على ما كان عليه الصحابةُ في حَجّة الوداع حين بلَغوا الكمالَ وتحقَّق أنَّهم خيرُ أمّة أُخرجت للناس وأنزل الله عليهم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا!﴾ [المائدة 3] لا يشكّون طرفةَ عين في أنهم على أعلى درجة بلغها الصحابةُ، وأنهم مُخاطَبون بالآية كالصحابة حينئذ؛ هذه عقيدتُهم.

فبالله، كيف يصِحُّ هذا والصحابَةُ كانوا لا يغيب عن أحدهم الخوفُ من الله ولا يأمنون على أنفسهم لحظة؟! فما أبعدَ هَديَ هؤلاء من هدْيِ الصحابة، الذين قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «اصبِروا، فإنّه لا يأتي عليكم زمانٌ إلاَّ الذي بعدَه شرٌّ منه، حتى تَلقَوْا ربَّكم!»[2] ثم ما صلاحُ الزمان ولا فَسادُه إلاّ بأهله؛ فالحديث أقطعُ دليلٍ وأَوضَحُه على أنّ خيرَ القرون الصحابة، وأنّ مَن مَضى خيرٌ ممّن يأتي، وأن أهلَ زماننا شرُّ الخلق منذ ذلك العهد، وأن الذين يلوننا شرٌّ منّا! لا أعني الأفرادَ، فالأمَّة لا تخلو من خير ومن طائفة قائمة على الحق إلى آخر الزمان، ولكن أعني بالفساد فسادَ المجتمَع وما عليه الناس وعلماء السوء خاصّة. كيف وهذه عائشة كانت تتحسَّر على ما مضى وما صار في زمانها وتتمثّل ببيتين للَبيد وهما:

ذَهب الذين يُعاش في أكنافهم ... وبَقيتُ في خَلْفٍ كجلد الأجْرَبِ!
يتحدَّثون مَخانَةً ومَـــلاذَةً ... ويُعاب قائلُهم وإن لَم يَشغَبِ![3]

بلغنا عن ميمون بن مِهران أنه قال: قال عمر بن عبد العزيز لجُلسائه "أخبروني بأحْمَقِ الناس" قالوا "رجل باعَ آخرتَه بدنياه" فقال عمر "ألا أنبئُكم بأحمق منه؟" قالوا "بلى" قال "رجلٌ باع آخرتَه بدنيا غيرِه!" وعن سنيد بن داود يقول: سألتُ ابنَ المبارك "مَنِ الناسُ؟" قال "العلماء" قلت

---

[1] كما وصفهم حُذيفةُ بن اليَمان رضي الله عنه، وقد خرجه الحاكم في الفتن.
[2] خرجه البخاري في الفتن والترمذي وأحمد، عن أنس بن مالك ثم قال "سمعتُه من نبيكم!"
[3] خرجه عبد الرزاق رقم 20448 عن معمر عن الزُّهري عن عروة عن عائشة وابن أبي شيبة.

"فمن الملوك؟" قال "الزُّهّاد" قلت "فمن السَّفَلة؟" قال "الذين يعيشون بدينهم!"[1] فعجبًا لهؤلاء الْمُتعالمين على الناس، المتكالبين على الدنيا؛ الذين باعوا دينَهم لدنيا غيرهم وأخلَقوا مُروءَتَهم، إن صحَّ أنّها كانت لَهم يومًا مّا، وأراقوا ماءَ وُجوههم من أجل أغراض باطلة وأعراض زائلة، قد غرَّهم إبليسُ وأعمَى قلوبَهم الهوَى فأخلَدوا إلى الأرض وأَمنوا مَكرَ الرَّبّ ونَسُوا الآخرة والجزاء ﴿أَفَرَأَيْتَ إن مَّــتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ؛ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ؟!﴾ [الشعراء 205-207]

هَبِ الدُّنيا تُساقُ إليك عَفْوًا؛ أليس مَصيرُ ذاك إلى زَوال؟!

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ! وَلَكِن ذِكْرَى؛ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ! وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا!﴾ [الأنعام 70] قال أبو يزيد طَيفور بن عيسى البِسطامي "أشدُّ المحْجوبين عن الله ثلاثة بثلاثة، فأوّلُهم الزاهدُ بزُهده والثاني العابدُ بعبادته والثالث العالم بعلمه. مسكينٌ الزاهد، قد أُلبسَ زُهدَه وجَرى به في مَيدان الزُّهّاد، ولو عَلم المسكينُ أن الدنيا كلَّها سَمّاها الله قليلا ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ!﴾ [التوبة 38] فكم مَلك من القليل وفي كم زهِد ممَّا مَلك؟! إن الزاهد هو الذي يَلحَظُ إليه بلَحظة فيَبقَى عنده ثم لا تَرجع نَظرتُه إلى غَيره ولا إلى نفسه! وأما العابد فهو الذي يرى منّة الله عليه في العبادة أكثرَ من العبادة حتى تعرف عبادته في المنة. وأما العالمُ فلو علم أن جميع ما أبدَى الله من العلم سَطرٌ واحدٌ من اللَّوح الْمَحفوظ؛ فكم علم هذا العالمُ من ذلك السَّطر وكم عَمل فيما علم؟!"[2] وما أصدقَ قولَ عبدِ الله ابنِ الْمبارَك، عالمِ الملّة؛ حصَر إفسادَ الدين في طوائفَ ثلاثٍ: الملوك والأحبار والرُّهبان، أي حُكّامٍ مُضلّين وعُلماءَ مُسيئين ومُتعبِّدةٍ مُبتدعين فقال:

رأيتُ الذُّنوبَ تُميتُ القُلوبَ وقد يُورِثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتَرْكُ الذنوبِ حَياةُ القلوبِ وخَيرٌ لِّــنفسك عِصيانُها

---

[1] الأثران في 'حلية الأولياء' ج5-ص325، ج8-ص168.

[2] رواه أبو نعيم في 'حلية الأولياء' ج10-ص37.

وهَل أَفسدَ الدينَ إلاّ الْمُلوكُ وأَحبارُ سوءٍ ورُهــبانُها؟!
وباعُوا النفوسَ ولَم يــربَحوا ولَم تَغْلَ في البَــيع أثْمانُها!
لقد وَقعَ القومُ في جِــيفَةٍ يَبينُ لذي العَقل إنــتانُها!!

ومصداقُ هذا في كتاب الله قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ﴾ العلماء ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ النُّسّاك ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّه!﴾ [التوبة 34] وأما الحُكّام فقد أخبرنا ربُّنا عن مَلِكة سبأ أنها ﴿قَالَتْ: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ فصدَّقها تعالى بقوله ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل 34] فتلك حال ملوك الأرض ورؤسائها ورجال السياسة، ولَو صلَحوا لأصلَح الله بهم الناس.

لنا مَــلِك ما فيه للمُلك آلَــةٌ سِــوى أنّه يومَ السَّلام مُتَــوَّجُ
أُقيمَ لإصلاح الورَى وهو فاسِدٌ وكيف استْواءُ الظِّلّ والعُودُ أَعوَج؟

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الله زوَى لِيَ الأرضَ فرأيتُ مَشارقَها ومغاربَها، وإنّ مُلْكَ أمّتي سيبلُغ ما زُوِيَ لي منها، وأُعطِيتُ الكَنزينِ: الأحمرَ والأبيض. وإني سألتُ ربيِّ لأمّتي أن لا يُهلِكها بسَنة بِعامّة ولا يسلِّطَ عليهم عدُوًّا من سوَى أنفسهم فيَستبيحَ بَيضتَهم. وإن ربيِّ قال لي "يا مُحمَّدُ، إني إذا قضَيتُ قضاءً، فإنه لا يُردُّ! ولا أُهلكهم بسَنة بعامّة، ولا أسلِّط عليهم عدُوًّا مِن سوى أنفُسهم، فيستبيحَ بَيضتَهم، ولو اجتَمَعَ عليهِم مَن بينَ أقطارِها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضًا، وحتى يكون بعضهم يَسبي بعضًا!" وإنما أخاف على أُمّتي الأئمَّةَ الْمُضلّين! وإذا وُضِع السيفُ في أمَّتي لم يُرفَع عنها إلى يومِ القيامَة! ولا تقوم الساعةُ حتى تَلحَق قبائلُ مِن أمَّتي بالْمُشركين، وحتى تَعبُد قبائلُ من أمّتي الأوثانَ! وإنه سيكون في أمّتي كَذّابون ثلاثون، كلُّهم يزعُم أنّه نبيٌّ؛ وأنا خاتَم النبيِّين، لا نبيَّ بعدي! ولا تزال طائفةٌ مِن أمَّتي على الحقِّ ظاهرين، لا يضرُّهم مَن خالَفهم حتى يأتِيَ أمرُ الله!»[1]

---

[1] خرجه أبو داود في الفتن وابن ماجة، وأحمد عن ثوبان، وصححه الأرناؤوط.

الكذّابون الثلاثون لا يقولون بأنَّهم أنبياء هكذا صراحةً، ولكنَّهم المشرِّعون الذين يأتون بأحكام من عند أنفسهم ويدّعون أنها من عند الله كَذِبا وافتراءً عليه تعالى. ثم من العجيب أن كلَّ مَن يقرأ هذا الحديث ينسُب ما فيه إلى غيره، إلاّ الفقرَةَ الأخيرة!

وكلٌّ يَدَّعي وَصلاً بِسَلمَى ... وَسَلمَى لا تُقِرُّ لَهم بِذاكا!!

أعداء الله

يقول ربُّنا جلّ ثناؤه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ؛ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا! وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ، مَا فَعَلُوهُ؛ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ! وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ! أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً؟! وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ! وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً! لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ! وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ، يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ! إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ! إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ!﴾ [الأنعام 112-117]

فمِن الإنس والجن أعداءٌ للأنبياء وأتباعهم، ولكن بدأ تعالى بشياطين الإنس لأنّهم أخطر من شياطين الجن في الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ولأنّهم أعداء لله كما في قوله عزّ وجلّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ!﴾ أي من البَشر بدليل قوله بعدها ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة 1] فلا أحدَ يُكنُّ بالمودَّة إلى الجنّ ولا إلى شيءٍ من عالَم الغيب، لأنّ المودَّة تتولَّد عن المشاهدة والْمُؤانسة والْمُعاشَرة، وكما في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ، فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي من البشر بدليل قوله تعالى في الآية بعدها ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا، شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ!﴾ [فُصّلت 19-20] فهذه الجوارحُ تدلُّ على أن أصحابَها من البشر، وكما قال تعالى في بني إسرائيل ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ!﴾ [البقرة 98] فانتبِه لهذا جيِّدا وافهَمه لتعلَم أنّ من البشر مَن هم أجرأُ على الله تعالى من إبليسَ نفسه!

فإن كان من الناس مَن يُعادي الله جلّ وعلا فإنّه لَم يَرد في القرآن أنَّ الشيطان عدوٌّ لله. نعم قد جاء ذلك في السنّة كما في حديث أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال «إنّ عدُوَّ الله

إبليسَ جاءَ بشِهاب مِن نار ليجعله في وَجهي فقلتُ "أعوذُ بالله منك!"»[1] فقد يكون قوله "عدُوَّ الله" مُدرَجا من كلام أبي الدرداء أو غيره. بل مِمَّا جاء في القرآن قولُ إبليس ﴿فَبِعزَّتِكَ، لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ!﴾ [ص 82] وقولُه ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ؛ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ!﴾ [الأنفال 48] وقوله للإنسان الذي كَفر ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ؛ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ!﴾ [الحشر 16] فمَن كانت هذه حالُه مع الله واعتَرَف له تعالى بالعزّة التي هي القدرة والسُّلطان والقهر للخلق كافّةً، وعبَّر صراحةً عن خوفه لا يكون عدوًّا لله تبارك وتعالى. بخلاف الكفرَة من البشر فإنّهم بعضَهم يُعلنون الحرب على الله وأوليائه جهارا ولا يبالون.

صدُّ بعضِ الناس بعضًا عن إقامة الصلاة إنما هو بُغية أكل أموالِهم بالباطِل، فشرَع الله ما يجب أن يكون عليه الْمُسلمون في مُعامَلاتهم فقال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ! وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا! يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ؛ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا! يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ! إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ! وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا! وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا؛ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا! وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا! إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ؛ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا! وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ! وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا!﴾ [النساء 26-32] اُنظر في سياق هذه الآيات، كيف جاء البيانُ الإلهي أوَّلاً بالتنبيه على الحكمة من التشريع فقال تبارك وتعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ!﴾ ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ!﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ!﴾ وهذه كلُّها إرادة شرعيّة لا كونيّة، بمعنى أنّها متعلِّقة باختيار العباد، والأمر لله من قبل ومن بعد. ثم تلاه تَحريمُ الْمُعاملات التي تضرُّ الناسَ فقال عزّ مِن قائل ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ!﴾ ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ!﴾ أي لا يهلكْ بعضُكم بعضا بإرهاقه وتحميله ما لا يحتمل، ثم ختم بالوعد

---

[1] خرجه مسلم في المساجد والنسائي، وهو عند البخاري في الجمعة ومسلم عن أبي هريرة.

الحَسن وبالحثّ على رَبط الثقة بالله فقال سبحانَه وتعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ؛ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِه!﴾

ولن يُتيحَ للناس إمكانيّةَ تطبيق هذه الآيات إلا إقامةُ المجتمع على الصلاة. ولكن قد عجزَ معظمُ الناس عن إقامة الصلاة في مُجتمَعاتهم عَبر التاريخ ﴿وَقَالُوا: إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ؛ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا!﴾ [القصص 57] خافوا أن يُتخطَّفوا مِن أرضهم وكأنَّها لهم ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّه﴾ ليست لكم ولا لغيركم ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه!﴾ [القصص 83] فليس الأمرُ كذلك، وإنّما يخشَونَ تدهوُرَ وَضعهم الاقتصادي إن أقيمَت في مُجتَمَعهم الصلاةُ!

لقد أخبرَنا الله عن حالنا الراهنة هذه بقوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ: لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا! فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ؛ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا!﴾ [الإسراء 4-7] وها نحن نَعيش وعدَ آخر فساد بني إسرائيل، ونرى الناسَ جميعًا تحت وطأتهم، علم هذا مَن علمه وجهلَه مَن جهلَه! مَن نظرَ نظرةَ تأمُّل في حال البشريَّة الآنَ اتَّضحُ له سببُ عجز الناس عن إقامة الدين ورأى أُحبولةَ الشيطان وخُيوطَها الطويلة، ويا لَها مِن مَكيدة وقد ظهرت الآنَ عيانًا لكلِّ مَن له بَصيرة.

ذلك أنّ شِرذِمةً مِن اليهود قامَت في أوروبا منذ فجرِ ما يُسمُّونه ’العصرَ الحَديث‘ أي منذ أوائل القرن الرابع عشر ميلادي، باسم العلم وحريَّة الفكر، وساعدَها قيامُ دولة أمريكا التي مرّ الكلام عليها. ومنهم من يظنّ أن سُكّان أمريكا الأصليين مِن ’القبيلة الثالثة عشرة‘ من بني إسرائيل، كانوا قد ركبوا البحر في غابر الزمان فهاموا إلى أن أرست بهم سفينتُهم بقارّة أمريكا، وهذا اعتقاد ’الْمُرْمون‘ خاصّةً. فتحالَف بنو إسرائيل اليهودُ والأمريكيّون البروتستانت لمُحاربة أفكار الكنيسة الكاثوليكيّة أوّلاً، ثم قَطعوا في آخر الْمطاف كلَّ صلة بالله رب العالَمين. وذلك باختراعهم سَفسطات سمَّوها ’ حقائقَ علميّة‘ بزَعمهم فأجبروا الناس على حصر كلِّ بحث وتعليم في إطار مادّيٍّ ضيّق لا مكان فيه للخالق تبارك وتعالى. ولا زالوا يَحيكون في الظَّلام إلى أن قَلبَوا

ما بقيَ من وَضعَ القُرون الوُسطى بـــ'الثورة الفرنسيَّة' عامَ 1789، فكانت تلك المرحلة الحاسمة من تحقيق خُطَّتِهم للتسلُّط على البشرية جَمعاءَ بِهدَفِ تَملُّكِها واستعبادها، ليس إلاّ!

بَدَؤُوا برَفع الإنسان فوق كلِّ موجود، ثمَّ فَصلوا الدِّينَ عن الْحُكم فعزَلوا الْملوك، وقد كانوا يُعتَبرونَ خُلفاءَ الله في الأرض، وأشعَلوا الثَّورات 'الشعبيَّة' ضِدَّهم ووَعَدُوا السُّوقَةَ والطَّغام والأَوغَاد والنَّوكَى بأن تكونَ لهم السُّلطة وأن ترجعَ الحاكميَّة إليهم في الأمر كلِّه بما سَمَّوه 'الدِّيمُقراطيَّة' أي سُلطَة الشَّعب. وقد سبقهم فِرعَونُ إلى هذه الحيلة حين أعجَزَه موسى عليه السلام بالحُجج القاطعة ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ؛ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟﴾ [الشعراء 34-35] لَم يكن ذلك الطاغية لِينتَظِرَ أمرًا من غيرِه وقد قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى!﴾ [النازعات 21-24] بل كان ذلك منه مكيدةً وحيلة، لذا تناقَلَتها حاشيتُه ونشَروها في أوساط الناسِ البُسطاء ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ؛ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟﴾ [الأعراف 109-110] لَم يكن هؤلاء الْمُتَغطرسين ينتَظِرون أمرًا من عامّة الشَّعب الْهَمَج الرَّعاع فيما يجبُ أن يفعلَه فِرعونُ مع موسى عليه السلام. ولكن هذه هي الديمقراطية؛ يَفعل الحُكّامُ ما يشاؤون ثم يُحمِّلون الشعب مسؤوليّة أفاعيلِهم، لأنَّهم يتصرَّفون بزَعمهم باسم الشعب.

أقامت تلك الشِّرذمة اليهوديّة البروتستانتيّة على أَشلاءِ ومُمتلَكاتِ نُبَلاءِ أوروبّا الذين سَمَّوهم 'إقطاعيِّين' ما سَمَّوه 'الجمهوريّات'، مِن جَمهَر التُّرابَ إذا جمعه وكدَّسه، وهي الكثرة والأعداد والأغلبيَّة الساحِقَة. فلمَّا خلَت لَهم عُروشُ أوروبا في أغلب الأحيان، وفي الأحيان الأخرى سلَّم الْمُلوكُ السُّلطة لتلك الشرذمة على أن يبقَوا بقاءً صوريًّا وأن لا كلامَ لهم في شيءٍ البتَّة، حينها اعتَلَى هؤلاء الانقلابيُّون بطبيعة الحال سُدَدَ الحُكم الشاغِرة. ولكن انتَبه جيِّدا فلست أعني باليهودية جِنسيَّةً أو عُنصُرًا مَّا بقَدر ما أعني عقليَّةً لئيمة وتركيبةً نَفسيّة سقيمة، أبرز أعراضِها حبُّ الأرض والعاجلة وبغض الحقّ وغَمْطُه، وهؤلاء هم المقصودون بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «تُقاتِلون اليَهود حتى يَختبِئَ أحدُهم وَراء الحَجر، فيقول: يا عبدَ الله، هذا يهوديٌّ

ورائي فاقْتُلْه!»[1] فافهَم هذا لتَعلَم سرَّ ذكر الله تعالى لبني إسرائيل في القرآن بهذه الكثرة، ألا ترى أن أغلب الناس مِن عرب وعَجم يتصرَّفون كبني إسرائيل؟ واذكُر قول النبي «مَن تَشبَّه بِقومٍ فهو مِنهم!»[2]

نرجع فنقول لَماّ خلَت لهؤلاء الظَّلَمة عروشُ "العالَم الْمُتحضِّر" وضَعوا قوانينَهم ورسَّموا هَيئاتِهم وأخذوا يَحيكُون حُكوماتِهم بنَسيج من القوانين الجائرة، ولكن دون أن يشعُر الناس. يتقدَّمون بخُطى لا تُثير الانتباه، بتغييرات ضئيلَة جدًّا ومُتتالية وبصِفة تَدريجيَّة يسمّونها 'الاسراتيجيّة' فلَم يظهَر جَورُهم للناس، و لم يتأثَّر الْمَظلومون لِضآلَة التَّجاوُزات وتَفاهَتها، وإن تأثَّر البعضُ فلا يسَعه أن يرفَع ضدَّهم قضيَّة ولا تلحَقهم تَبِعات لأنّ اختلاسَهم ليس من الجنايات حتى تُرفَعَ إلى القضاء للفصل فيها. هكذه نَهبوا أموالَ الناس فجمعوا ما لا يتصوَّره العقل، لأنَّهم سرَقوا مرَّاتٍ لا تُحصى مِئاتِ الْملايين من الناسِ دون أن يشعُروا بشيءٍ. فكانت النتيجة أن شكَّلت تلك الشِّرذمة الشِّرِّيرَة سُلطةً عمَّت في يومنا هذا الَمعمورَ من الكُرَة الأرضيَّة أو كادت، واستَولَت على ثَروات ماليَّة لا يُحصيها إلا الله.

يكفي أن ننظُر الآنَ في وَضع شُعوب أوروبا وأمريكا الْمُستَعبَدين، فإنَّ الدستورُ يعتَبرُ الْمواطِنَ 'مِلكًا للدَّولة' وبالتالي ممتلكات الناس ملكٌ للدَّولة كذلك تتصرَّف فيها كيف تشاء. ولقد عمَّت البَلوَى غيرَهما من القارّات و﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ؛ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ!﴾ [الروم 44] وانتَبِه إلى قولِه تعالى ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لتعلَم حَجمَ إفسادِهم.

هذا على فَظاعَته هو الْمَخطوط في الدَّساتير الوَضعيّة، أمَّا الواقعُ فأشنَعُ بكثير، وهو أنَّ الشعوب مِلكٌ في أيدي تلك الشِّرذمة القليلة التي ما فتئت تعمَل منذ قرونٍ لتسيطر على خلق الله وتفعلَ بهم ما تشاء. ذاك ما وصلوا إليه عَبرَ السلُطات ومن خِلال الْهَياكل وبواسطة الْهَيئات. ألا

---

[1] خرجه البخاري في الجهاد ومسلم والترمذي عن ابن عمر، واتفقا عليه من حديث أبي هريرة.

[2] رواه أبو داود في اللباس وأحمد عن عبد الله بن عمر.

ترى أنَّهم أسَّسوا الْمَجالس التشريعية التي سمَّوها ’البَرلَمانات‘ حتّى ’تُقنِّنَ‘ لَهم ما يُلائمُهم بِـــ’اسمِ الشَّعب‘؟! وكذا ما ابتَدعوه منذ زمن قريب وسمَّوه ’الْهَيئات الغير حُكوميّة‘ والتي تعمَل من أجل ما سمَّوه ’حقوقَ الإنسان‘ فأرغَموا الشُّعوبَ على فعلِ ما يضرُّها وعلى ترك ما ينفعها، بواسطة الحكومات العميلة. وانظُر كيف أصبحَ ’الْمُواطنون‘ يَعمَلون قَهرا بالرَّغبَة والرَّهبَة وبلا انقطاعٍ لهذه الآلهة المسمّاة ’الدّولَة‘ و’الوطن‘ و’الصالِحَ العامّ‘ وغيرِها من الطواغيت. ولو أنّ عبدًا لله اجتهَد في عبادة ربِّه عُشرَ معشارِ اجتهاد هؤلاء في عِبادة تلك الطواغيت فَكرَّسَ لِلّه جُزءًا من المائة من الجهد الذي يُقدِّمه ’الْمُواطنُ‘ في خدمتها لبلغَ أعلى مَقامات الإحسان ولكان من الصِّدّيقين!

شاهِدُه ودليلُه رضاهُم وخضوعهم وخُنوعُهم لِما فَرضوه عليهم من جِبايات لِخزينة الدّولة وضرائب ثقيلة واشتراكات إجباريَّة لصَناديق الضمان الاجتماعي والتقاعُد والتَّأمينات وغيرها، حتى لَم يبقَ للعامل إلاَّ خُمسُ أُجرَته في أحسن الأحوال. هذا غير ما تُصادِرُه الدَّولة من أَخْماسٍ على كلِّ مُعاملة بَيعٍ تتمُّ على ’أرض الوطن‘ وهو ما يسمّونه ’الغَرامة على القيمة الْمُضافة‘ وهي 20 % تُضافُ إلى قيمة البِضاعة فيدفَعها المُشتري للبائع ثم يدفَعها البائعُ إلى مَصلَحة الضرائب، فهي أخماس كأنَّها غنائم حَرب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرسول...﴾ [الأنفال 41].

أضِف إلى ذلك ما لا يُحصَى من عُقوبات ماليَّة جائرة باهضة متكرِّرة وغير مُبرَّرة، وما أجبِروا عليه من دُيون رِبَوِيَّة تُحتِّم عليهم الكدَّ طولَ العمُر لتسديد رؤوس الأموال والفوائد وفوائد الفوائد إلى ما لانهاية، فهم عبيد مقيَّدون لا يُسمَح لَهم بشيء إلا في إطار خلق الثروة التي يستفيدها البنك... ولنُمسك العِنان عن الخوض أكثر في تفاصيل اختلاس أموال الناس بِحُجَّة ’النظام الاقتصادي العالَمي‘ والذي هو في الحقيقة ’فوضَى شاملِة‘. طهَّر الله الأرضَ مِنها ومن سَدنَتَها وجلاَّديها وعُمّالِها والْمُشتَركين فيها! آمينَ آمين!

أما 'تحرير الْمَرأة' وتسويتُها بالرَّجُل فما هو إلاّ لتَكونَ مُستَعبَدةً مثلَه. وذلك بأن إحصائيّاتُهم تقرِّر أنّ عَدد النساء يفوق عدد الرّجال، ولّما لَم تكفهم سواعدُ الرِّجال العاملة ألحَقوا بها مَعاصِمَ النساء، وغيرَها ممّا لا يحسُن ذِكرُه هنا. ويقولون لَهم جميعًا "اعمَلوا رجالاً ونساءً، فالعمل عِبادة!" نعم ولكن لآلِهة زائفة. أغفَلوا عبادةَ الله وانقادوا للكُفر في لِين وكأنَّهم من جنس الغنَم والبقر ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ! أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ!!﴾ [الأعراف 179] وما رِعاية الأمومة والطفولَة إلا ليستمِرَّ مدَدُ العامِلين، لأنّ أطفالَ اليوم هم عُمّال الغَد، فلا بُدّ من تربيتهم وتعليمهم وتكوينهم وفق مصالِح الدولة.

فما يُسمُّونه مُساواة وحريّة ومُؤاخاة وقانونا ودَولة ووطنا وجُمهوريّة وديمُقراطيَّة وحُقوقا وعدالة وصالِحا وأمنًا وما إليها من شِعارات فَضفاضة، فلا مَعنى لشيءٍ من ذلك، وإنّما هي قوالبُ جَوفاء، كما أخبرَنا ربُّنا تبارك وتعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ؛ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ!﴾ [النجم 23] لا تَنفَع ولا تضرّ، ولا يجهَلُ هذا إلاّ أبلَهٌ أحمَق ولا يتجاهَلُه إلا مُخادِعٌ لَئيم.

الحقيقة أن هذه الأسماءَ الْمُزَخرفة تُخفي طُغيانًا وقَمعا يتمثَّل في أجهِزَة لا تعرِف الرَّحمة يسمَّونَها 'أجهزة أَمْن الدّولة' وهي أجهزة لتَرويع الخلق؛ فلا أَمْن للدَولة إلا بتَرويع الناس! يُرهبونَهم ويظلِمونَهم ويُجبرونَهم بالتَّهويل والتَّخويف؛ في هذا يتمثّل الجانبُ القَمْعي الذي يَقتُل في عباد الله الْمُروءَةَ والشجاعة. وهناك جانب يُفقدُهم العِفَّةَ والقناعة، وله أجهزة خاصّة تعمَل على الترغيب والتَّغفيل وتَخنيث الرجال وتَرجيل النساء بأنواع الملاهي من غِناء وأصناف اللَّهو كالأفلام التي تبُثُّها 'أجهزة التَّرفيه' وعلى رأسها الإذاعة والتلفزيون.

لا يَفتُر أعداءُ الله عن العمل ليلَ نَهار على تعظيم 'الدَّولَة' في أعيُن الناس ليعبدوها من دون الله الذي خلَقنا وسيُعيدُنا ليجزيَنا على أعمالنا جميعًا ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا! وَعْدَ اللَّه حَقًّا؛ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ! وَالَّذِينَ كَفَرُوا، لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ!﴾ [يونس 4] لا مَحالة سوف يقضي الْمَلِكُ الديّان يومَ

القيامة في مَسألة 'الدَّولَة' و'الوطن' وما إلى ذلك من كَذب عليه، وسيُوقف الله القادَة والوُزراء وأعوانَهم من شُرْطة وجيش ومُوَظَّفين ومعلِّمين أمامَ رَعاياهُم ليَفصل بينَهم. فكأن ذلك قد حَصل والحَكم العدلُ تعالى قد فصَل ﴿وَقَالُوا: يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ! هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ؛ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ: مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ؟! بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ! وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ؛ قَالُوا: إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ!﴾ إنكم كنتم تأتوننا من قبَل الدين والحق فتخدعوننا بأقوَى الوجوه. واليمين: القوَّة والقُدرة في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

إذا ما رَايةٌ رُفِعتْ لِمَجْدٍ تَلقَّاها عَرَابةٌ بالْيَمين

يعني: بالقوة والقدرة.[1] وتلك الراية هي شعار دعاية السياسيين وأعوانهم للتَّغرير بالناس بلا هوادة، فلمّا جابَه المستَضعفون الأقوياءَ بتلك الحقيقة في جهنَّم أجابوهم ﴿قَالُوا: بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؛ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ كلاَّ ما جعل الله لنا عليكُم من سلطَة لَم يمكنكم الخروجُ عنها ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ تعدَّيتم حدود الله بمَحض إرادتكم ولو شئتُم لكنتم مؤمنين، ولكنَّكم اختَرتُم الكفرَ على الإيمان، كما فعلنا نحن ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ جميعًا، الذي هو ﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ!﴾ [هود 119] فإذًا ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ جميعًا ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ! فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ؛ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ "لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" يَسْتَكْبِرُونَ!!﴾ [الصافات 20-35]

لكنّ هؤلاء الكفرَة الفَجَرَة الكاذبون على الله ورسوله المُخادعون للناس لا يجرُؤون على الجهر بكُفرهم..، ما أغباني؛ كيف أتحدَّث عن الجرأة والقومُ من أصولهم التلبيسُ والتمويه حتى لا يُعلَم شيء من مكائدهم، هلاَّ أقول: هؤلاء الكفرَة الفَجَرَة لا يريدون أن يطَّلع أحدٌ على كُفرهم وكَذبهم... فلا يزالون يدَّعون أنَّهم وجميعُ المواطنين مسلمون ولو كانوا أكفرَ الناس. لقد شهدتُ

[1] قاله أبو جعفر الطبري في 'جامع البيان' ج21/ص32.

بنفسي كذبَ أحدِهم الْمُفلَّق حين كنت مُوَكَّلا بالاتِّصال في إحدى دور النشر بالجزائر العاصمة. كان ذلك حين أصدرت الدار لأحد المثقَّفين كتابا حولَ حدود الوطن الجزائري، وكان صاحبُه وزيرًا سابقا للثقافة واسمُه سليمان الشيخ. فدعونا جماعةً من الصحافيّين لِمُقلبلة المؤلِّف بقصد تقديم عمله للقُرّاء. وكنتُ المشرِف على ذاك اللِّقاء، فانتَظرتُ من الصحافيين سؤالَ المؤلِّف أسئلةً ذات معنًى، ولكن هيهات. فلمّا لَم يأتِ أحدٌ منهم بما كنت أنتظِرُه، سألتُ المؤلِّفَ عدّةَ أسئلة مُحرِجة، كان آخرَها: ما نسبةُ عدد المسلمين بالجزائر؟ فلَم يتريَّث ولا فكَّر بل تجاسرَ وقال: الجزائريون مسلمون مالِكيُّون بنسبة 99%! فقلتُ: وهل لك أن تخبرنا عن ذاك الواحد بالمائة، مِمَّ يتكوَّن؟ فسكت وأعرضَ عني في حيرَة؛ كيف يأتيه سؤال كهذا مِن قِبَل المشرف على اللِّقاء؟! انظُرْ إلى جُرأَة هؤلاء الطَّغام الأوغاد ووَقاحتِهم؛ كيف يقول هذا الكذّاب أنّ 99% من الجزائريّين مسلمون على المذهب المالكي، مع أنَّه هو نفسُه منسوب إلى الطائفة الإباضيَّة، وقد كان أبوه مُفدي زكريّا شاعرَ الثَّورة وناظِم النشيد الوطني الجزائري. كيف جعلَ طائفتَه وسائرَ المذاهب الثلاثة الباقية والمذهبَ الظاهري، الذي كان منتشرًا ولديه بالجزائر فقهاء رسميون إلى حدود الخمسينات، والشيعة والنصارَى واليهود والمَلاحِدة من الشيوعيين والعِلمانيين وغيرهم ممّا لا يُحصيه إلا الله، جعل كلَّ هؤلاء لا يمثِّلون سوى واحد بالمائة من مجموع الشعب الجزائري؟! لا يصدِّق هذا إلا حمارُ أبلَه الناس!

ثم اعلَم أنَّ أعداء الله هؤلاء لَم يكتَفوا بالكَذب، بل لَفَّقوا عِباراتٍ مُنمَّقة تُخفي كذِبَهم ذاك، ودجَّلوا بشعارات مُزَخرَفة تُزيِّن خِداعَهم، فمَوَّهوا على مَن اغترَّ بهم وأهلَكوا مَن اتَّبعَهم. وقد أنبأنا الله بذلك فقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ؛ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا!﴾ [الأنعام 112] فتعبَّدَ مَن لا يَرجُو اللهَ واليومَ الآخر لتلك الآلِهة الباطِلة الزائفة الزائلة، والتي هي ’الدَّولَة‘ و’الوطن‘ و’النظام‘، وسلَّموا لِتلك العصابة الجائرة الغاشمة وهم يظنُّون أنَّهم على خيرٍ لَم يَحلُم به أحدٌ من قبلُ، لِما هم عليه من رَغَد العيش في ظنِّهم. والحقيقةُ أنَّهم أبعَد الخلق عن أيّ خير، فليست الرَّفاهيّة التي بلغَتها ’الشُّعوبُ الْمُتحضِّرة‘

من السعادة في شيء، بل اسمَع قولَ الله الحقّ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ؛ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؟! بَل لاَّ يَشْعُرُونَ!﴾ [المؤمنون 55-56] أنَّه استدراج ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ؛ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ!﴾ [آل عمران 178]

فاعلَم أوَّلا أن الله تعالى هو الذي يُمِدُّ الناسَ جميعًا؛ مُسلمَهم وكافرَهم بَرَّهم وفاجرَهم ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ؛ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا، مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا! وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا!﴾ ثمَّ بيَّن ذلك بمُنتَهَى الوُضوح فقال ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ: هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ، مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ! وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا!﴾ [الإسراء 18-20] أي ممنوعا على أحد، كافرًا كان أو مسلما. فكيف يظنُّ هؤلاء أنّ ما هم فيه من رَفاهية وسُرور هو من بوادِرِ خيرات الآخرة؟! بل هم غافلون لا يدرون أن ما أَمدَّهم به الله من ذلك إنّما هو من كَيده تعالى بهم وهو إملاءٌ وَاستِدراجٌ واضحٌ في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ! وَأُمْلِي لَهُمْ؛ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ!!﴾ [الأعراف 182-183] فكيدُه تعالى لا يُقاوَم، أعاذَنا الله منه!!

واسمَعْ قول الجبَّار سبحانه في بيان كَيده تعالى لأعدائه ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ؛ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ! حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا؛ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً، فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ!﴾ [الأنعام 44] هَلكَى نادِمون على ما فَرَّطوا من حقِّ الله عليهم. ولا تَقصُر قولَه تعالى ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ على الأخذ الجَماعي، كما حصل لقوم نوح وآل فرعون وغيرهم، بل يشمَل كذلك الأخذَ الفَرديَّ الذي هو الْمَوتُ العادِيّ. فالآية قائمةٌ مُشاهَدة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ!﴾ [يونس 92] فكم من هالِكٍ في ضَحوَة النهار والناسُ مِن حوله غافلون عن بطش الملائكة به ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ؟!﴾ [الأعراف 98] أي يَعمَلون للدُّنيا، ويحسَبون أنّهم أهلُ العَزم وأصحاب الحزم، وهم في الحقيقة يلعبون كالصِّبية ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ!﴾ [محمد 36] ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا؟!﴾ [المؤمنون 115]

فإذا جاء أَجَلُ أحدهم ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ: أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ؛ الْيَوْمَ﴾ لا غدًا ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ!﴾ [الأنعام 91-93] فالْهالك المسكين قد وقع في أيدي مَن أقسم الله بهم فقال ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا!﴾ [النازعات 1] وهم الملائكة الذين يَتوفَّون الناس فيُغرِقون في الأجساد ليترِعوا النُّفوسَ من كلِّ عُضو وكل عِرق وخليّة. وذلك أشدُّ ما يَلقَى العبدُ مِن ألَمٍ في حياته الدنيا، ولقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال «إنَ أَهوَنَ الْمَوتِ بِمَنزِلَة حَسَكَة كانت في صُوف! فهل تُخرَج الحسَكةُ من الصوف إلاّ ومعها صُوف؟!»[1] هذا لما بين النَّفس والجسَد من تَعلُّق. والحَسَكة نَبتة صغيرة لها ثَمَرة مُكوَّرة مَكسوَّة بشَوك كثيرٍ من كلِّ جوانبها كالكَلاليب، تَعْلَق كثيرًا بصُوف الغَنَم، فمَن أراد قَلعَها قلَعَ معها الصُّوف. الْمُحتضَر حالَة النَّزع في أهوال لا يعلَمها إلاّ الله ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ! وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ!﴾ [الواقعة 83-85] فتأمَّلْ حالَ الكافر والنازعاتُ مُسلَّطة عليه وأهلُه مِن حولِه لا يرونَ شيئًا ولا يشعُرون، بل وقد شرَعوا في تدبير 'الوَليمة' لجنازته وهو لَم يمُت بعد!

يقول النبي لأصحابه ولنا من بعدهم «لا الفَقرَ أَخشَى عليكم، ولَكِن أَخشَى عليكم أَن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على مَن كان قَبلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسُوها؛ وتُهلِكَكُم كما أَهلَكَتهم!»[2] ما قال صلى الله عليه وسلّم هذا إلا شفقةً على عباد الله فإنّ الله تعالى يقول ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ، لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ!﴾ [الشورى 27] والبَغيُ هو الطُّغيان والاعتداء ومُجاوَزة الحدّ.

هذا ما حصَل بالضَّبط، فقد بسَطَ الله الرِّزق لِلشُّعوب 'الْمُتحضِّرة' فكانت نتيجة ذلك أن طغَى الأقوياءُ على الضُّعفاء واستَعبد الحُكّام الناسَ فساموهم كالأنعام، فأين الخيرُ في هذا البسط والرفاهية والرَّخاء والبَذَخ والإسراف؟ بل ذاك مِن أشراط الساعة الصُّغرى، وهو الزمانُ الذي

---

1 خرجه ابن أبي الدنيا في 'ذكر الموت' عن شَهر بن حَوشَب مُرسَلاً.

2 خرجه البخاري في الجزية ومسلم عن عمرو بن عوف.

نبَّأنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ووَصَفه بقوله «تَقيءُ الأرضُ أَفلاذَ كَبِدها؛ أَمثالَ الأُسطُوانِ مِن الذَّهبِ والفِضَّة»[1] والأفلاذُ جَمع فِلْذَة وهي القطعة الْمَقطوعة طُولاً، والأُسْطُوانَة هي كلُّ شيء مُستدير يكون له سُمْكٌ وقُطْرًا قاعدَته وقِمَّته مُتساويان، كالأعمدة المستديرة التي تحملُ سَقف البِناء. والصورة مؤثِّرة للغايَة، فإنّها من علامات الساعة حيث تُخرِجُ الأرضُ كلَّ ما في جَوفها، كما يَقيءُ الْمُصابُ بداء عُضال قِطعَ فُؤاده لَحَظات قَليلةً جدًّا قبل مَوته.

ونَحن نُشاهِد أُسطوانات الْمَعادن الثَّمينة كيفَ تُستَخرَجُ من باطن الأرض، وهذا من علامات فَناءِ هذه الدُّنيا. ويؤكِّده ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلّم عن قِيام الساعة، حيث قال «فيَتَمثَّلُ لهم الشَّيطانُ فيقول "ألاَ تَستَجيبون؟!" فيقولون "فما تَأمُرُنا؟" فيأمُرُهم بِعبادَة الأَوثانِ. وهُم في ذلك دَارٌّ رِزقُهم حَسَنٌ عَيشُهُم. ثم يُنفَخُ في الصُّور!»[2] قولُه «دَارٌّ رِزقُهم حَسَنٌ عَيشُهُم» دالٌّ على أنَّ الناس يكونون في عَيش رَغْد قبلَ يوم القيامة بقليل ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً؟! فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا!﴾ [النساء 76]

ولَمَّا كانت اليهودية عقليَّةً بقَدر ما هي جِنسيَّة، شُغِفَ الناسُ في كلِّ أنحاء العالَم بحبِّ العاجلة كما عبد اليهود العِجلَ، فأُغرِمَ الخلقُ بالسُّلطة الْمَدنيَّة وقوانينها الوضعيَّة وتغلغَلَ تعظيم ذلك في قلوبهم حتى بلغَ بهم إلى العُبوديّة لتلك الأنظِمة، وهذا شِركٌ صريح. وهِي أنظمة فاجِرَة فاسِقةٌ ماجِنةٌ تُنكِرُ الْمَعروف وتأمر بالمنكَر، فكان من نتائج هذا التسليم الأعمى أن فشت الفاحِشةُ وانتَشر الرِّبا إلى حدِّ أنّهم لَم يعُودوا يتصوَّرون مُعاملةً خاليةً منه. وإنَّ الله العليمَ الخبير قد نبَّأ نبيَّه بأنَّ 'البُنوك' ستُفرَضُ على الناس في آخرِ الزمان كوَسيطٍ في الْمُعاملات الْماليَّة كلِّها بلا استثناء.

هذا ما نُشاهِدُه اليوم، فإنّ القانون التِّجاري في جميع الدُّوَل التي خَضعت للبَنك العالَمي ولصندوق النَّقد الدولي *FMI* لا تسمَح للتُّجّار بأن يُتمّوا صَفقاتهم فيما بينَهم بصورة شرعيّة أبدًا، والصورة الشرعيّة: أن يُحضِر البائعُ بِضاعَتَه والمُشتري دَراهِمَه، فيُسلِّم البائعُ السِّلعةَ ويقبِض

[1] أوَّل جزء من حديث خرجه مسلم في الزكاة والترمذي عن أبي هريرة.

[2] جزء من حديث خرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة وأحمد عن عبد الله بن عمرو.

الدراهم ويُعطي المشتَري الدراهمَ ويستَلِم السلعةَ؛ فتنتقل الملكيّة لِحينها يَدًا بيَد، هاءَ وهاءَ! كما كان النبي صلى الله عليه وسلّم يقول ويأمُر[1]. أمّا القانون التجاري الذي يَخضَع للنِّظام المالي العالَمي فإنّه يجعلَ البُنوكَ مِحوَرًا للتِّجارة ولا يُجيزُ أيَّةَ صَفقَة إلاَّ بالصَّكّ لِتمرَّ الْمَبالِغُ عبرَ البنك ويختلط رأسُ المال، وإن كان من الطيِّب الحلال، بالفوائد الرِّبَويّة الُمحرَّمة؛ فيأخُذ البنك حصَّتَه قَهرًا ويَصير المالُ خبيثًا والصَّفقةُ غير شرعيّة.

ولَمّا كانَ الربا يُؤكَلُ كما في قول الله ﴿الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا..﴾ [البقرة 275] وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا، لا تَأْكُلُوا الرِّبَا!﴾ [آل عمران 131] كان مِن أعلامِ النبوَّة في هذا الموضوع قولُه صلى الله عليه وسلم «لَيَأتيَنَّ على الناسِ زَمانٌ لا يَبقَى أحدٌ إلاَّ أَكَلَ الرِّبا! فإن لَم يَأكُلْهُ أَصابَه مِن بُخارِه!»[2] فجاء هذا التصوير النبوي العجيب الذي يجعَلنا نُحِسُّ بأنَّ البنوك كالقِصَعِ المملوءة طعامًا خبيثًا ممَّا حرَّمه الله والتي يَفور منها البُخار ويتصاعَد حتى يُصيبَ كلَّ مَن حضَرَ المأدُبة ولا يسلَمَ منه أحدٌ.

والطّامّة أنَّ بعضَ 'حَمَلَة العِلم' من المسلمين قد قرَّروا مِن عند أنفُسهم، أو قيلَ لهم أن يُقرِّروا، أنّ للناس أن يتعامَلوا بالرِّبا لأنّه لَم يَعُد هناك مَجالٌ للتعامُل بغير ربًا فـــ﴿قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا!﴾ [البقرة 275] لا فرقَ بينهما ما دام التَّعامُلُ عن تراضٍ بين آخِذِ الربا ومُعطيه، وللمسلمين الحقّ في أن يعيشوا 'حياةً مُحتَرَمة' كسائر الخَلق، ولَهم كلُّ الحقِّ في أن يمتَلكوا ما لا بدَّ منه من بيت وسيارة، ولهم كلُّ الحقِّ في أن يَتمتّعوا بألذِّ الطعام وبالراحة والاستجمام. ومعلومٌ أنّ لذلك ثَمَنًا وأنّه تترتَّب عليه تكاليف، لأن النَّقدَ في 'البُنوك' ولا تُقرِضُ إلاَّ بفائدة، وهي نسبَةٌ ماليَّة يدفعُها الْمُستَقرِضُ للبنك بعد أجَلٍ، زيادةً على مبلَغ القَرض الأصلي الذي هو رأس المال؛ وهذا هو الرِّبا! يقولون باختصار: لا سبيلَ إلى رَفاهية المسلِم، والتي هي حقٌّ مِن 'حقوق الإنسان' إلاَّ بذاك؛ فلا بُدَّ إذَن مِن التعامُل بالرِّبا!

---

[1] انظر مثلا البخاري ح1919 و ح1990 ومنه الكثير الكثير في دواوين السنّة.

[2] خرجه أبو داود في البيوع والنسائي عن أبي هريرة.

نعم للمسلمين الحقُّ في العيشة المُحترَمة، ولكن ليس لهم الحق في التَّرف والبذَخ والإسراف وإن كان من أموالهم الحلال. فالله يقول ﴿يَا بَنِي آدَمَ، خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِد! وَكُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلاَ تُسْرِفُوا؛ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ!﴾ [الأعراف 31] ويقول ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا؛ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ!﴾ [الإسراء 26-27] ذلك لأنّ العباد مسؤولون يومَ القيامة عمّا استمتَعوا به في دنياهم من حلال ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ!﴾ [التكاثر 8] ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ فيقال لهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا! فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ!!﴾ [الأحقاف 20] هذا فيمَن استمتَع بما رزَقه الله من حلال فوقَ القدر المعقول، وجاوز الحدّ حتى أصبح من المستكبرين في الأرض، فهو عند الله فاسقٌ مُستَكبر من إخوان الشياطين.

وأمّا مَن لَم يكن ذا مالٌ ثم راح يقتَرض لدَى البنوك أو غيرها ليستَمتع بما ليس لَه بحقّ، فهذا أدهَى حالا من الأوّل، يدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلّم «الْمُتشَبِّعُ بما لَم يُعطَ كلابسِ ثَوبَي زُور!»[1] والمتشبِّع هو المُتشبِّه بالشَّبعان وهو لا يملك ما يسدُّ رمَقه في الحقيقة، فمثَّله بمن لبس إزاراً ورداءً وهما لغيره، فسرعان ما يأتي صاحبُهما فيخلعهما عنه ويدعه عُريانا بين الناس؛ فتلك حال كلّ مُخادعٍ مُزوِّرٌ مُتحلٍّ بما ليس لَه بحقّ. ثم قِس عليه صاحبَ البيت والأثاث والسيارة وغير ذلك من متاع ليس له في الحقيقة، وإنما هو من مال البنوك الرِّبَوي الحَرام. ومَن أفتى بتحليله فقد دخل في قول الله تعالى ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء 160-161] أعاذني الله وإيّاك من موجبات سخَطِه!

حقًّا قد ضلَّ مَن أحلّ الربا من حَملة العلم وأضلّوا وكفروا بقول الله تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا!﴾ [البقرة 275] اُنظُر كيف جعلَ أربابُ الدنيا الرفاهية ضرورةً ثم سَدُّوا السُّبلَ الحلالَ إليها، ثمَّ أمرُوا حملةَ العلم بأن يُفتوا بتحليلِ الربا لكونه ضرورةً اعتمادًا على قاعدة "الضَّرورة تُبيح

[1] خرجه البخاري في النكاح ومسلم وأبو داود والترمذي عن أسماءَ بنت أبي بكر.

الْمَحظورة". فقدَّموا قاعدةً من جنس الحِيَل الفقهيَّة على قول الله في مُحكَم كتابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا، إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ! فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا، فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ!﴾ [البقرة 278-279] لذا كان السلَف يتَّقون الربا ويجعلونَه من أكبر الكبائر، فعن كعب الأحبار أنه قال "لأن أزنيَ ثلاثا وثلاثين زنيةً أحبُّ إليَّ من أن آكُلَ درهمًا من ربا، يعلمُ الله تعالى أني أكلتُه أو أخذتُه وهو ربا!"[1] ذلك لأنَّ الله يعلَم أنَّ مَرتَع الربا وَخيم وأن عاقبتَه عذاب أليم، فمهما طالَ الأمدُ أو قَصُر فإنَّ فواجِعَ كثيرةً وأهوالا تنتظِرُ هذه الحضارة، وسببُها الربا الذي يزيد أكثرَ الناس فقرًا وهوانا والقليلَ القليلَ تكبُّرا وطُغيانا. حتى إذا أصبَح البَونُ بين الطبقتين كما بين السماء والأرض، سرَى قانونُ الغاب بين الناس، وأكل القويُّ الضعيفَ وصبّ الضعيفُ غضبَه على مَن هو دونَه قوَّةً، وفشت الموبِقات وانتشَرت الفوضَى وانتُهِكت جميع الحُرُمات، والعياذ بالله.

واعلَم أن معدن الربا ومادَّته إنما هو الادِّخار في البنوك. وذلك بأن الناس اعتادوا وضع دراهِمهم في صناديق التَّوفير أو الاحتياط كما يسمونها مُقابلَ فوائد يدفعها لهم الصندوق. حاصل ذلك أن البنك يستَقرض من هؤلاء بنسب ضئيلَة ويُقرِض غيرَهم بنسب أعلى حتى يتحصَّل على الرِّبح الذي يريدُه. ويرجع تعميم صناديق الاحتياط إلى القرن التاسع عشر ميلادي حين احتاجت الدول الصناعيّة إلى أموال طائلة لمشاريعها الهائلة كفتح الطرقات وبناء العمارات الضخمة وصناعة اللموانئ والسدود وغير ذلك من مشاريع تتطلَّب أموالا لا تتوفَّر عليها خزائن الدَّولة.

---

[1] خرجه الدارقطني في البيوع وقوّاه، وأحمد وصحَّحه الأرناؤوط. ورُوي مرفوعا بلفظ "ست وثلاثين زنية" عن عائشة وأنس وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم، ولكنّه لم يثبُت فيه عن رسول الله شيء. قال ابن الجوزي "واعلم أن مما يَردُّ صحّةَ هذه الأحاديث أن المعاصي إنما يُعلم مقاديرُها بتأثيراتها، والزنا يُفسد الأنساب ويصرِف الميراث إلى غير مُستحقّيه، ويؤثر من القبائح ما لا يؤثر أكلُ لقمة لا تتعدّى ارتكاب نَهيٍ، فلا وجهَ لصحة هذا!" 'الموضوعات' ج2-ص248، الموسوعة الشاملة. إن كان استِدلال ابن الجوزي غير مسلَّم، إلا أنّ حاصله بُطلان نسبة الأثر إلى النبي صلى الله عليه وسلّم.

فوضعوا أسس صناديق الاحتياط التي تستقرض بفوائد أقلَّ من تلك التي تُقرِض بها، وجعلوها دعوةً وطنية بأن مَن أقرض فقد ساهم في بناء الوطن وتقويته، مَع ما في ذلك من حفظ لرؤوس الأموال وما يجرُّه من أرباح في آخر المطاف.

هكذا أثْرَت البنوك وطغت وبغت. ثم انتقل ذاك الداء إلى الشعوب الإسلاميّة، بحيلة فقهيّة وهي القرض بنيَّة الادِّخار، أي أنَّ صاحب رأس المال لا ينوي قبض الفوائد الربويَّة، وإنَّما يريد الاحتياط لحفظ رأس ماله من التَلف فقط. فكاد العلماء يُجمعون على جواز هذا، ولا يتردَّد أحدهم في الجواب عن أسألة من قَبيل: هل تجوز الصدقة بالفوائد الربويّة؟ أو: هل في الشرع ما يمنع من دفع الضرائب من الفوائد الربويّة: أو: هل يصحُّ صرف تلك الفوائد في مشاريع خيريّة مثل بناء المساجد أو المستشفيات؟.. إلى غير ذلك من استفتاءات لو طُرحت على عالم ربّاني لانتهر السائل لقلَّة حيائه وعبثه بالدين واستهزائه بالعلماء!

الصواب أنَّ الادِّخار في البنوك حرام لأنَّه عون لها على الفساد وشيوعه بين الناس، وهذا في حد ذاته كبيرة. ثم الادِّخار منهيٌّ عنه شرعًا بقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ؛ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ: هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ!﴾ [التوبة 34-35] عموم الآية يدل على تحريم الادِّخار بدليل الوعيد الشديد الذي يترتَّب عليه، ولا وجه لقولهم أنَّ ما أُخرجت زكاتُه فليس بكنز، بل قولُه ﴿لاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعمَّ من ذلك. فحبْس الأموال مخالف للشَّرع وشرٌّ منه إعطاؤها الكفارَ يعبثون بها ويشتدّون بها قوَّةً. وقد بلغنا عن ثوبان أن رسول الله قال «تَباًّ للذهب والفضة!» يقولها ثلاثا فقال عمر "يا رسول الله، أي المال نتخذ؟" – وفي رواية " أي المال ندَّخِر؟"– فقال صلى الله عليه وسلَّم «لِسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزَوجة مؤمنة!»[1] ونقل الطبري بسنده عن جَعْدَة بن هَبيرة، عن علي بن أبي طالب قال: أربعة آلاف فما

[1] خرجه الطبراني في 'الأوسط' ح2370 وأحمد ح23150 والبيهقي في الشُّعب وصححه الأرناؤوط.

دونها نفقةٌ، فما كان أكثر منه فهو كنز![1] فليحذر الذين يعبَثون بالدين، من مُقرضين ومستَقرضين، مغبَّةَ استحلال الربا، وليتَّقوا الله الذي أوعدهم بحرب منه ومن رسوله. بل لا خير في الحرام، ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لعلموا أنَّ ما حرَّم الله شيئًا إلاَّ لمضرَّته بالناس دنيا وأخرى.

لقد جاء القرآن صريحًا ببيان كُفر آكلي الربا وذلك قول ربِّنا ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؛ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّه فَانتَهَى، فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّه. وَمَنْ عَادَ؛ فَأُولَئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ! يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَات وَاللَّهُ لاَ يُحبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثيمٍ!﴾ [البقرة 275-276] فوصف مَن عاد إلى الرَّبا بعد أن بلغَه النَّهي عنه بأنَّه كفاّر بصيغة المبالَغة، أي كثير الكُفر لأنَّه مُصرٌّ على استباحة مَحارم الله، وأنَّه أثيم بصيغة المبالغة أيضا أي أنَّه كثير الإثم لأنَّه مُنهَمك في هواه منهوم بدُنياه ولذّاتها لا يشبع من الحرام حتى يموت، فكان موعدُ ذاك البعيد الخلود في النار وبئس الوَعيد. وأمَّا قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ فإنَّه يمحوه ويُذهبُه وذلك بأن يُهلك المال الذي يدخُل فيه ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يُزكّيها وينمّيها ويُربِّيها كما بلغنا عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقة من طَيِّبٍ، ولا يقبل الله إلا الطَّيبَ، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تَمْرَةً، فتَربُو في كَفِّ الرحمن حتى تكونَ أعظمَ من الجبل؛ كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه أو فَصيلَه.»[2] وذلك قول الله ﴿وَأَقيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا، وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجدُوهُ عندَ اللَّه هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا!﴾ [المزّمّل 20] وقوله تعالى ﴿مَن ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثيرَةً؟! وَاللَّهُ يَقْبضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة 245] ولاحظ هذا النداء المليئ بالعَطف ﴿مَن ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ أي أيُّكم هذا الذي يقتَطع من ماله الحلال الطيِّب قطعةً فيضعها في يد مسكين المرَّة تلوَ الأخرى،

---

[1] 'تفسير الطبري' ج14-ص219، وأورده ابن كثير عن الثوري بسنده في تفسيره ج4-ص139.

[2] خرّجه مسلم في الزكاة وباقي الجماعة إلا أبا داود. والفَلُوّ هو الْمُهْر أوّلَ مايُولَد، والفصيل: ولدُ الناقة إلى أن يفصِل عن أمه.

كما بلغنا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «سَبْعَة يظِلُّهمُ الله في ظِلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأ في عبادة رَبِّه، ورجل قلبُه مُعَلَّق في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل طلبته امرأةٌ ذاتُ مَنْصِب وجمال، فقال "إني أخافُ الله!" ورجلٌ تَصدَّق؛ أخفى حتى لا تعلم شِمالُه ما تُنفقُ يمينُه، ورجل ذَكَرَ الله خاليا ففاضت عيناه.»[1] فالذي يهمُّنا في هذا الموضع ذاك الذي أخفَى صدقتَه عن شِماله، وإنَّما فعل ذلك حتى لا يشوبَها رياءٌ ولا يدرِكَها حُزْن وذاك هو القرض الحسن الوارد في الآيتَين، والله أعلم.

لا أريد تَعقُّبَ ما يفعله أصحابُ الأموال من دفعهم الناسَ إلى أكل الربا، فمَعلومٌ أن لا قَصدَ لِهؤلاء الأشرار سوَى جمع المال واستعبادِ غيرِهم. لكن لِنَقف وقفةَ صدقٍ على رجال الدين وخاصَّة منهم هؤلاء 'الْمُفتين الْمَفتونين' الذين قال الله فيهم ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً؛ فَمَن يَهْدِيهِ من بَعْدِ اللَّه؟! أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ!﴾ [الجاثية 23] الذين يظنُّون أنَّ مُحارَبَةَ الله ورسولِه لهم أهون من مُخالَفة هواهم وجَشَعِ الناس وحُمقِهم، ففضَّلوا الهلاكَ وإهلاكَ خلقِ الله على قول كلمة الحقِّ في وجه الأنظمَة الغاشمَة الْمُستَبدَّة لنقف على هؤلاء العُلماء الذين عَلَوا المنابر في المساجد وأحلُّوا من فوقها الرِّبا، ولنتلُوَ عليهم قولَ الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ: لَتُبَيِّــنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ! فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً؛ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ!﴾ [آل عمران 187] ولِنُقِمْ عليهم الشهَادةَ لله بأنّهم قد أسلَموا قَومَهم وبني جلدَهم لتلك الشِّرذمة القليلة التي استَحوذت على الْمُجتمَعات، ونَبَذوا كتابَ الله وراءَ ظهورِهم، وكَفروا بما أنزل تعالى على محمد، وذلك مُقابلَ أعراض دنيويَّة يأخذونها؛ فحقَّ عليهم قولُ ربِّ العالَمين ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ!﴾ ولِنُذكِّرهم بأنَّ أبواب التوبة مَفتوحة، وإلاّ فمَوعدُهم يومُ القيامة؛ ﴿قُلْ: إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ! قُلْ: لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ؛ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ! قُلْ: إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ! مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ! إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ: يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ!﴾ [الأنعام 56-57]

[1] خرَّجه البخاري في أبواب الجماعة في الصلاة، وباقي الجماعة إلا أبا داود.

مَنِ اتَّـــقى اللهَ، فذاك الذي سيقَ إليه الْمَـــتجَرُ الرّابحُ
شَمِّرْ، فما في الدين أُغلوطَةٌ ورُحْ لما أنت له رائـــحُ!

الوطن الوثَن

يقول الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟! قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا! أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ! أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ؛ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟! وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ! وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ؛ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ. فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ؛ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ! سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ؛ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ! وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ؛ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا؛ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ!﴾ [الأعراف 172-179] سياق هذه الآيات في بيان تصرُّف بني آدم في الأرض وكذا سبب ضلالهم بعد البيان. وكيف يستوي مَن علم أمورَ الدين التي جاء بها المرسَلون ومَن لَم يكن لديه خبَر عن ذلك، فمَن علم ولَم يعمَل كمَن لَم يعلَم، إلاَّ أن مَن لَم يأته خبرٌ قد يكون عندَه شيءٌ من العُذر. ولكنَّ الناس جُلَّهم، إن لَم نقل كلَّهم، يعلَمون سواءً كانوا عربًا أو عجما، مُنتسبين إلى الإسلام أو إلى غيره من الأديان السماويَّة، بل وكذلك أيضا الوثنيّون، مَن لَم يسمَع منهم عن رسُل الله؟!

قول الله ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ معناه هَبطَ إليها ورَكنَ ولَصِق بها وهو يريد البقاء إلى غير حدّ، لذا اتَّبَع هواه وغفَل عن الحق الذي علِمَه. كذلك الذين أرسَل الله إليهم رُسلَه وأنزل الله إليهم كتُبَه ثمَّ حادوا عن السبيل وغفلوا عن أنفُسهم وظَلموها. مع أن لا عُذرَ لأحد من بني آدم لما

سبق من قوله تعالى يومَ الميثاق ﴿أَن تَقُولُوا﴾ وهنا إضمار مفادُه: فاحذَروا بعدما شَهدتُم على أنفُسكم بأنّي ربُّكم أن تفعلوا ما تقولون من جرَّائه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَة: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافلينَ! أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدهِمْ؛ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟!﴾ نعم قد كان ذلك في موطِن الميثاق، ولكن لا ينبَغي نسيانُه في الحياة الدُّنيا، خاصَّة وقد أنجزَ الله وعدَه وأرسَل عبدَه فبيَّن غايةَ البيان وأقامَ أوضح بُرهان، كما سبق ذِكرُه عند الكلام عن القرآن. فما سبب ضلال الناس إن لَم يكن حبُّ الدُّنيا، أليس كما قيل "حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خَطيئَة، وحبُّكَ الشيءَ يُعمي أو يُصِمُّ"؟! وما حبُّ الدُّنيا إن لَم يكن حبَّ الأرض التي هي الدُّنيا بعينِها؟! وهل حبُّ الأرض إلا حبُّ ما يُسمَّى الوطن في هذا الزمان، زمان الهوان والخُذلان الذي يظل فيه الحليمُ حيران؟!

اعلَم، ألْهَمني الله وإيّاك مَراشدَ أمورنا وأرانا الحقَّ حقًّا ورزَقَنا اتِّباعَه والباطِلَ باطلا وجنَّبنا اتِّباعَه، أن حبَّ الوطن أصلُ الكُفر كلِّه في كلِّ زمان ومكان، وقد تجاوزَ في هذا الزمان أبعدَ الحدود. ويكفيك أن تعلَم أن أصل لفظة 'كفر' في اللغة تعني السِّتر والتَّغطية، ومنه كفرَ إذا زَرَع أي وضع البَذرة في التُّراب وغطّاها. ذلك عمَل الزّارِع أي الفلاّح كما في قول الله ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح 29] فساوَى بين العبارتين، الزّارع والكافر، في التشبيه لأنَّهما في أصل اللغة شيءٌ واحد وهو الفلاّح. وقد يرجع هذا إلى تفاني الفلاّح في حبِّ أرضه وخِدمتها، ولا يغب عن أحد أن الفلاحين أشدُّ الناس حبًّا للأرض. وهذا التقريب موجود في اللغات اللاتينية أيضًا حيث يقال *païen* للكافر و*paysan* للزارع و*paganisme* للكُفر، وكل هذه العبارات مشتقّة من لفظة *pays* وهي الوطن.

يلزم كلَّ عاقل الاعترافُ بواقعٍ مرّ؛ وهو أن الرسالات السماويّة، بما في ذلك آخرها والتي هي الإسلام، لَم تحقّق نُضج البشر عامَّة وتحريرَهم؛ فما استقام منهم إلا أقلُّ القليل. ولا غرابةَ في هذا بل قد دلَّنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم في خبَره عن يوم القيامة حيث قال «ثم يُقال:

أخرِجوا بَعثَ النار! فيُقال: مِن كَم؟ فيقال: مِن كُلِّ أَلفٍ تِسعَمائَةٍ وتِسعَةً وتِسعِين!»[1] أي أن نسبَة النجاة واحد في الألف. ولكن أكثر الناس يُنكرون هذه الحقيقة المؤسفة مع أن الله قد أقرَّها في أكثر من موضع، كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ!﴾ [يوسف 103] وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا!﴾ [يونس 99] فالله لَم يُرِد القضاءَ على الكُفر وإنَّما أراد تعالى أن يبيِّن للناس سُبل الهدى من طرق الضلال ليُخرِجَهم، إن هم أرادوا، من الظُلُمات إلى النور. وأكثر الناس على علم بهذا، أي بأنَّ هناك هُدًى وضلالا، ولكنّهم اختَلَفوا فمنهم مَن سلَك طريق الهدى وعمِلَ لذلك، وأكثرُهم أَبَى دفعَ ما يلزمه للقفزة النَّوعيّة الخُلُقيّة الخليقة بإنجاب الإنسان الكامل الذي يشهَد على العالَمين أمامَ ربِّ العالَمين.

فعِوض أن يتحرَّر الناس ويعمُروا أرض الله الواسعة، ما لَبثوا في تسافُل وتجمُّع كقُطعان الغنم. وبعد حُروب متواصلة انتهَى أمرُهم إلى التكتُّل فتقاسَموا الكرةَ الأرضيّة، وخَلَصوا إلى خطِّ حدود وهميّة، حصَروا في إطارها ما سمَّوه الوطَن، وتسمَّوا هم المواطنين. وأقصت كلٌّ جماعة منهم ما وراء تلك الحدود عن دائرتِها، على أنّه غريبٌ يُجهَل وخطرٌ يُتفادَى. ولَم يكن الأمر كذلك من ذي قبل، فقد كان الناس يسيحون في الأرض ولا يتعرَّضون إلى المناطق النائية عن مواطنهم التي يتواجَدون عليها فِعلا، بل كانوا يتقاسمونها مع غيرهم من البشر. وأوضح مثال على هذا الرعاةُ والبَدو الذين لا يمتَلكون أرضًا وينتقلون في بقاع البسيطة فرارا ممّا يضرُّهم في الحين ذاتِه، وتبعا لما ينفَعهم عند الحاجة.

الوطن المتعارَف عليه بالمعنى الحديث أمرٌ وَهمي غير موجود في الواقع، وإن كانت بعض مركِّباتِه حقيقيَّة. وهنا تكمُن الحيلَة: فالوطن يتركَّب من أرض وبشر، وهاذان لاشكّ في وجودهما، وهناك أمرٌ ثالث وَهمي يدخل في تركيبة الوَطن، وهو الدّولة. ولا حقيقةَ لهذا المسمَّى في الواقع، بل ولا يسوغ عقلاً، وإنَّما هو جريمة في حق الإنسان تمنَعه حقَّ السعادة بسلبِه حُرّيّته

[1] خرجه مسلم في الفتن والحاكم والبيهقي في 'الشعب' وأحمد عن عبد الله بن عَمرو بن العاص.

وبإرغامه على فعل ما يضرُّه وترك ما ينفَعه، بشتى الوسائل؛ من أرذَل تَرغيب إلى أفظَع ترهيب. فلا خيار للإنسان أمام الدَّولة، فإمّا أن يخضع وإمّا أن يُغادر الوطن!

الدّولة إجماع مُحدَث، تلقائي أو إجباري، على مَنح السُّلطة لفئة قليلة من البشر على غيرهم. وهي نِظام هرمي قاعدتُه الشَّعب أو المواطنون وقمَّتُه الرئيس أو الملِك، الأوّل يُنتَخب من طرف الشَّعب والثاني بالوِراثة. فالدّولة تشمَل الشَّعب بشتَّى طبقاتِه وحِرَفه، وكذا القواتِ المسلَّحة، من جيش وشُرطة ودَرك وجُمرُك وأجهزة أمن الدَّولة، ومجلس التشريع والعدالة والتعليم والصحَّة ووسائل الدِّعاية، تُشرِف على كل هذا الحكومةُ المتمثِّلة في رئيسِها ووزاراتها العديدة. علمًا بأن هذه المؤسَّسات بما فيها من موظَّفين بأعداد هائلة، وبما تصرفُه لتسيير مصالحها من مبالغ طائلة، لا تُنتِج أيَّة ثروة. بل تُدفع أجور أفرادِها، ابتِداءً بالرئيس وانتِهاءً بأدنَى الموظَّفين راتبا، من خزينة الدَّولة، أي من الجبايَة، أي من أموال العمّال في شتى النشاطات الاقتصاديَّة، وباستِقطاب عوائد الموارد الطبيعيَّة.

رئيس الدولَة أو المَلِك، والذي هو في الحقيقة عالَةٌ على المواطنين يُنفِقون عليه شاؤوا أم أبَوا، إنسانٌ يحتكِر الحُكم بموجَب الدُّستور، أي لكونه مُختارا من قِبَل الشَّعب أو لأنه ورثَ المنصب ولَم يعتَرض الشَّعب على ذلك. وبما أنّ الوطن مِلكُ للشَّعب بزعمهم، لكن لا كمجموع أفراد متميِّزين بل كشخص معنوي اعتباري، بالمصطَلح القانوني، فهو ملكٌ لِمُمثِّل الشَّعب، بنفس المعنى نظريّا. فكأنَّه قد اجتمع الشَّعب كلُّه في رجل واحد، لذا اجتَمعت بين يدي الرئيس السُّلطات كلُّها ويُرجَع إليه الفَصلُ في أي أمر شاء، لا مُعقِّب لحُكمه لأنَّه مُمثِّل الشَّعب فهو الدَّولة. له أن ينقُض أو يُبرِم ويُحلَّ أو يحرِّم، وله أن يقول إذا اقتضى الأمرُ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي!﴾ [القصص 38] فلا حلالَ إلا ما أُحلُّه ولا حرام إلا ما أحرِّمه! ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى!﴾ [النازعات 24] فلَه أن يأمُر مَن يشاء بما يشاء، وله أن يَعقد الصُّلح مع مَن يرى كما يرى، وله أن يمنع العِفَّة ويُشيع الفحشاء، ولَه أن يُقصي ويُدني ويُميت ويُحيي، وإذا بدا لَه أن يزُجَّ بالناس في حرب طاحنة خارجَ الحدود فليس لأحد منهم أن يعتَرض عليه، وإن اعتَرضت طائفة ولَم تتراجع

بعد التهديد والقَمع لجأ الرّئيس إلى مُحارَبَتِها بمَن يساندون النِّظام وأضرمها حربًا أهليّة، وذلك كلُّه باسم المواطنين وفي صالِحهم بزَعمه.

ومَن اعتَرض على شيء من قانون الدَّولة، الجائر كلُّه من أوَّله إلى آخره، لأنَّه من بنات أفكار البشر، ومهما تحرَّى الآدميُّ الصوابَ ومهما أخلَص نيَّتَه للنُّصح والخير فما أقرب خطأه، وإلاَّ فما الذي يُلجئ هؤلاء إلى اختراعاتِهم وهذا حكم الله بين أيديهم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟!﴾ [المائدة 50] أقول: ومع هذا فكل مَن اعتَرض على شيء من قانون الدَّولة فقد تعرَّض للأذى. وأمّا مَن وافقَ وسلَّم الأمرَ إلى رجال السياسة وعملَ على رَواج الأُغلوطة، فذاك الذي يحظى منهم بالعطاء والمنصب وينعَم بالهناء. لكن ظاهِرًا فقط وإلاّ فإنه سيظَلّ مَقهورًا لا حُرمةَ لَه؛ فلا يقوم ولا يقعُد ولا يتكلَّم ولا يصمُت إلا بإذنِهم، وإن قيل له "مَه!" شكا تغيُّرَ الزمان الذي أوجب عليه أن يتحمَّل ذلك.

أَرَى حُلَلاً تُصانُ علَى رجالٍ وأعراضاً تُـــهان فلا تُـــصانُ
يقولون: الزَّمان به فَـــسادٌ! وهم فَسدوا وما فسدَ الزَّمان!

أقرَّ هؤلاء المواطنون بأن ترجع أمورُهم كلُّها إلى رئيسهم، ولكن أليس لله الأمر كلُّه؟! بلا، وإلا فليراجع كلٌّ نفسَه، فالقرآن واضحٌ في هذه المسألة الإيمانيّة المحضة التي قرَّر فيها بأنّ ليس للناس من الأمر شيئا ألبتّة ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ؛ يَقُولُونَ: هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ؟ قُلْ: إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ!﴾ [آل عمران 154] وعليه فكلّ مَن سلَّم أمرَه إلى غير الله فقد خرج من ربقة الإيمان، وولَّى الإسلامَ ظهرَه، وبرئت منه ذمّةُ الله ورسوله والمسلمين! ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟! بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ!﴾ [النمل 60] ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ!﴾ [النمل 61] ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟! قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ!﴾ [النمل 62] ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ!﴾ [النمل 63] ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟! قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ!﴾ والبُرهان المطلوب هنا على أن يكون أحدُ الناس قادرًا على وضع قوانين وإصدار أحكام لا تحتَمل الخطأ ويرضاها الله، وهذا لا يكون إلاَّ من عالِم لا يخالِطُ علمَه أدنى جَهل، أي يعلَم غيبَ السماوات والأرض،

لذا جاءت الحجَّة بقوله تعالى ﴿قُلْ: لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ! وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ!!﴾ [النمل 64-66] فكيف يدعي الإيمانَ مَن أسلَم أمرَه بل وأمرَ الناسِ كلِّهم إلى غير الله ربِّ العالَمين؟! لذا أقول بأنَّ الوطنَ أعظم صنم على وجه الأرض!

ثم الوطَن آلِهة لا تعرِف الرَّحمة، ألا ترى كيف أثخنت في الأرض قتلاً بعد استِحكامِها فهذا القرن العشرون، والذي هو قرن استِحكام الدُّول وإيهامِها الناسَ بأنَّها ضروريَّة لا قوامَ لهم بغيرِها. فهذا القرن يشهَد على مدى شراسة الطاغية المسمّاة بالوطن، إذ أنه أكثرَ القرون تقتيلاً وتشريدًا للناس على الإطلاق، فقد أحصَت المَراصدُ الرسميّة مائتين وواحد وثلاثين مليون ضحيَّة حرب في العالَم بين عامَي 1900 و2000 من الميلاد، أي بمعدَّل مليونين وثلاثمائة ألف وعشرة آلاف قتيل في السنة الواحدة، أي ما يساوي ست آلاف وثلاثمائة وتسع وعشرين ضحيَّة في كل يوم، عدا ضحايا السُّجون والتَّجويع والتَّهجير! لا حصرَ لويلاتُ الوطنيَّة ورزاياها كمًّا ولا وصفَ لها كيفا. مع هذا فدعاتُها الذين يستَغلّونها لمصالِحهم، وحُماتُها الذين يدافِعون عنها وهم لا يدرون أنَّهم أوَّل ضحاياها، يُقسمون بأنّها خير ما جادت به قرائح البشر منذ أن خلق الله الأرض ومَن عليها. والواقع الذي لا أشكّ فيه أنّها أعظم تدجيل جاء به الناس منذ أن خلق الله الأرض ومَن عليها!

يزعمون أنّ الدولَة ضرورة لا يمكن العيشُ من دونها، لأنَّها في نظرهم الأمرُ الوحيد الذي يضمَن الأمن والنظامَ، وإلا لبغى الناسُ بعضُهم على بعض ولعمَّت الفَوضى وخرب العالَم برمَّتِه؛ هذا قولُهم. وهنا نسألُهم فنقول: إن كان أمنُ الناس في الدولة فماذا تسمّون هذه الحروب الأهليّة وخارجَ الحدود التي يروح ضحيَّتَها مليونَي إنسان في كلّ سنة، وماذا تسمّون هذه الاعتداءات على أملاك الناس من ضرائب ومُصادرات لقسم من رواتبهم والغرائم الماليّة بغير حق، وماذا تسمون الاعتداءات عليهم ومنعهم من الحرّية لمجرَّد مخالَفتِهم نصًّا من أحد قوانينكم الجائرة فيقضي أحدُهم في السجن أشهرًا أو سنين أو يُنفَى؟ كيف تسمّون دفعَكم بالناس للتقاتُل

لأتفه سبب والله يقول ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة 32]؟! إن لَم تكن هذه هي الفوضى بعينِها فلا نعلَم لهذه العبارة معنًى؛ ليست الدولة ضرورة بل هي ضرَر، والضررُ يجبُ أن يُزال!

فليست الدولة ضرورة، كما يظنُّ أكثر الناس منذ زمن ليس بالبعيد جدًّا. كيف وقد أهلكت هذه الفكرة، المُخالِفة للدين وللعقل وللواقع، أجيالاً ممَّن يحسبونها كذلك خطأً، أي ضرورة لا يمكن العيش دونَها، فيبقَون يتصوَّرون الأمور كلَّها في إطار النظام المبني على الدولة، سواءً كانت جمهوريّة أو مملكة أو غيرهما. لا يصحّ في الدين والعقل أن تكون الضرورة مُضِرّة، فالله يقول ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة 195] هذا من جهة، من جهة أخرى لا يخفى على عاقل ينظر بعين الناقد أن الدَّولة مبنيّة على الإضرار بالأفراد والجماعات؛ الحاصل من هاتين المقدّمتين أن الدَّولة لا يمكن أن تكون ضرورة.

فإن قيل "سلَّمنا أنَّ الدولة مُضِرَّة ولكنّها أخفّ ضررًا من الفوضى الناتجة من عدَمِها، فقد يكون الأمرُ مُضِرّا شيئًا مّا ولكنّه يصبِح ضروريّا إذا لَزِم لدفع ما هو شرٌّ منه، عملاً بقاعدة اختيار أخفّ الضرَرين" نقول: معنى هذه القاعدة الدفاع عن حُرمة وفداؤُها بحرمة أهوَن منها وأخفّ، مثالُه أن يُعتدَى على عِرضِك فلك، بل عليك، أن تفتدي بمالك ليسلَم لك عِرضُك. وذلك لأن العِرض أشرَف من المال، فلَو أريد مالُك غصبًا فإنَّه لا يصحُّ أن تفديَه بعِرضِك فتقول "هاؤُم عِرضي؛ افعَلوا بي ما شئتُم، ولكن لا تقرَبوا مالي!" فلو فعلت هذا لكنت مخطئًا ولذهب مالُك وعرضُك هدرًا وخسئتَ في الدنيا والآخرة. نعم دفع المال إلى المعتدي شرّ في حدّ ذاته، لكنَّه ضروري لِحفظ العِرض، وذلك لشرف العرض وأفضليّته على المال كما تقدَّم؛ هذا معنى 'اختيار أخفّ الضرَرين' أي دفع أشدّ الضررين بأخفّهما.

لا أحدَ ينكِر أن تقتضي الضرورةُ الإخلالَ مثلا بالأمن أو بالغذاء، كأن يجب النَّفير للجهاد في سبيل الله فيزول الأمن لمدَّة الحرب، أو أن يُمنَع المريض من الأكل حميَّةً. ولكن هاتان حالتان استِثنائيَّتان لا يليق أن تتجاوزا مدَّة قصيرة ريثما يزول الضررُ الذي هو أكبر منهما، ثم تعود

الأمور إلى طبيعتها. أمّا أن يظلَّ الضررُ باقيًا بل ويتعدّد ويفشو بعد ذلك ثم يصبح عاديًّا؛ فلا! والواقع أن تلك بالضَّبط الحال في إطار نظام الدَّولة حيث أصبح انتهاكُ جميع الحُرُمات أمرًا مُعتادا لا يكتَرِثُ له إلا القليل ولا يكاد يدفَعُه أحد.

مَصالِحُ البشَر، في كل الأعراف وكل الأقطار والأعصار، تدور حول خمسة أصول: وهي الدين والنّفس والنَّسل والعقل والمال. هذه الأصول يجب حِفظُها، على أنّ أعلاها الدين لأنّه يكفُل السعادةَ للعبد في الدارين ولأن خيره متعدٍّ إلى الغير، ثم يليه النَّفس لأنَّها مطيَّة العبد ولولاها ما استَطاع شيئًا، ثم يليها النسلُ وهو أنفُس أقربِ الناس رَحِمًا وهم الأهل والآباء والذُّرّيّة، ثم يليه العقل وهو أداة التَّعريف ومناط التكليف ومَحكُّ التَّشريف، ثم يأتي أخيرًا المالُ، أي الممتَلَكات التي تُحصَّل بطريقة شرعيَّة بحيث تَكتسِب حصانَة من لَدن الله لا يجوز تعدّيها. هذا التفاضل من المال إلى الدين يستَلزِم أسبقيَّة في حفظ الأصول الخمس؛ ما دام الدين أعلاها فاللازِم حتمًا دَفعُ النَّفس لحِفظِه، ثم لكون المال آخرَ الأصول فلا ضيرَ أن يكون فديةً لسائرِها. لكن لا يعني هذا أن يدعَ الإنسان مالَه دون أن يَحميَه، بل مَن واجَه سارِقًا يريد مالَه فتقاتلا فقُتِلَ فقد فاز بالشهادة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن قُتل دونَ ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينِه فهو شهيد، ومَن قتل دون دَمه فهو شهيد، ومَن قُتل دون أهلِه فهو شهيد»[1] فذكر الدين والنفس والمال والعِرض.

هذا ما يجب أن يكون عليه الناسُ عُرفًا وعقلاً وشرعا، في حِفظ المصالِح ودرء المفاسد. أمّا أن يستَفحِلَ الضررُ فيشمَل دينَ الناس ودماءَهم ونسلَهم وعقولَهم وأموالَهم، كما هو الأمر في البلاد التي يحكُمها رجالُ السياسة، فهذه شرُّ المَفاسِد. وإن سمَّوها 'نظاما' فما هي بنظام ولكنَّها فوضى عارمة صارت مُعتادة أي وضعًا مُستَحكِما، يتوهَّم الناسُ أن لا غِنَى عنه مهما لَحِقَهم من شرِّه. أمّا النظام فوضعُ الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وكما قيل "أمور الناس عظام لو كان لها نظام!"

[1] خرجه الترمذي في الديات وأبو داود والنسائي عن سعيد بن زيد، وله شاهد عند الشيخين عن ابن عَمرٍو وقال الترمذي: وفي الباب عن علي وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وجابر.

ولا نظام في الدولة، بل هي إنتهاكٌ سافرٌ شاملٌ دائم لدين الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم، هي إخلالٌ بكل الموازين إلى غير أجَل. فلا خيرَ في شرٍّ بهذه المثابة، بل الواجبُ التَّخلُّص منه في أقرب الآجال.

فإن قيل "فما المَخرَج من جَور الدَّولة، ما دام الخروج منها غير مَعقول؟" فنقول: الذي هو غير معقول بقاءُ توهُّمِك أن الدَّولة شيءٌ خارجٌ عن خيال الناس الجَماعي، مع أنّه لا حقيقةَ للدَّولة في حدِّ ذاتِها، فما هي سوى إيهام كما قال يوسف ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ، أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟! مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ! إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ؛ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ!﴾ [يوسف 39-40] وهذا خطابٌ يجب أن يقرَع أسماعَ الذين رَضوا بأن يكون سُجناء الدَّولة: يا أصحابَ السِّجن، ما تعبدون إلا أسماءً!! فلا حقيقةَ للدَّولَة، ولكن الذي لا شكَّ في كونه واقِعًا هو تصرُّف الناس إزاءَ هذا الطاغوت. فالناس هم الذين يُعطونَه الخضوعَ والتسليمَ الذي يُوهِم بحقيقتِه، فيُبيحونَ أغلى ما عندَهم لرجال السياسة الذين يختَفون وراءَ ذاك التهويل، ولا همَّ لَهم غير مصالِحهم هُم؛ هذا للردّ على قولك "الخروج من الدَّولة غير مَعقول". بل هو معقول جدًّا!

ومن المعقول أيضا والواجب حتما فَضْحُ هؤلاء السَّفلَة وكَشفُ مكيدتِهم التي يسمّونَها بالدَّولة، ومقاطعتُهم ومُخالَفتُهم، والكُفرُ بما يختَلقونَه من أصنام ويوهِمون بأنّه النّظام، والخروجُ من تلك الأوهام. وذلك بالعَودَة إلى بديهيّات الدين الذي جاء به محمَّد والأنبياءُ من قبله، أي بالعِصيان لهؤلاء الطُّغاة والاستِجابَة لأمر الله المتمثِّل في طاعتِه وحدَه وبإرجاع الأمر كلِّه إليه تعالى. ولا يكون ذلك إلا بما جاء في القرآن والسنَّة؛ فمَن عمل بهما تَحرَّر من رِقِّ النَّفس فكفَّ طَمَعها وشُحَّها أوَّلا، ثم أحبَّ خلقَ الله واحتَرمهم فحفِظ دينَه ودينَ غيرِه وكذا النفس والعرض والعقل والمال.

فإذا تحقَّق الناسُ بهذه الأخلاق السامية، أتاحوا المجالَ لمُجتمَع سعيد واعٍ متركِّب من أفراد مسؤولين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي القرآن ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ!﴾ [المائدة 66] فالأمن والإطعام والإسكان من الله تعالى لا من عباد لا يملكون لأنفُسهم نفعا ولا ضرّا، ولكن سكّان البلدان المُغرَمين بحبّ الأوطان في عمًى عن هذه الحقيقة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ! أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ؟! أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟! فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ! أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ؟! وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ! تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ؛ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ! وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ!﴾ [الأعراف 96-102] المسألة متوقّفة على الإيمان والتَّقوى، فاعتَبر.

فإذا اجتمع الناس على الحق كما أمر الله بقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ!﴾ [المائدة 2] عمَّتهم المودَّةُ في ذات الله تعالى وشاع بينهم العدل والقسط. نقول: إذا صلَح أمر الأفراد صلح أمر المجتَمَع وسعِدَ الناسُ؛ فلا حاجةَ إلى دولَة ولا إلى شُرطة ولا جيش ولا قُضاة ولا مؤسَّسات جنائيَّة، فضلا عن الوزارات وما إلى ذلك من مُوظَّفين يعيشون عالةً على غيرهم، ولا وظيفة لَهم سوى قهرهم. بل الناس الواعون الذين يتَّقون يعلَمون تمامًا كيف يعيشون في أمن، من دون تشديد ولا انحِلال، وفي رغد عيش، من دون إسراف ولا إقتار. فمتى حصل خلاف، عرَفوا كيف يقضون فيه بالحقّ، من دون مَطل ولا ظُلم، بل بالحكم بما جاء من عند الله تعالى. وكذا مع غيرِهم من المجتَمَعات؛ لا يظلِمون ولا يُظلَمون.

أعني من هذا أن المجتَمَع المسلم لا حاجة لديه برجال السياسة، ولا بتعيين طبقة من الناس تختصُّ بالوَظائف كالقُضاة أو الأُمراء أو الجيش أو غيرِ ذلك، بل كلُّ فرد بإمكانه أن يحكُم بما

يُرضي الله إن كان ذا علم بما شرعَه تعالى، ولكلّ فرد أن يتأمَّر إن كان ذا قُدرة على الإمْرة، وعلى كل فرد أن ينفر إذا لزم الجِهاد. ثم يرجع كلٌّ إلى حياته العاديَّة بعد ما يقضي المهمَّةَ التي قام لها، لكن أن يُعيَّن أحدٌ قاضيًا أو أميرا أو عسكريّا إلى أن يموت، فما جاء في سنَّة محمّد شيءٌ من هذا. لا نعلَم في عهد النبيِّ أحدا تقلَّد وظيفةً كالقضاء أو الكتابة أو غيرهما ودام عليها فصارت له حِرفة، ولا نصبَ صلى الله عليه وسلَّم الدواوين. بل قد كان صلى الله عليه وسلَّم يكلِّف أحدَ أصحابه بوظيفَة في يوم مّا ثم يكلِّف غيرَه في ذات الأمر في يوم آخر، كما هو بيِّن في السيرة. ثم ما كلَّف أبا بكر ولا عليّا بالإمامة الكُبرى كما يظن الناس، بل أمرَ أبا بكر بإمامة الصلاة التي هي أعظم أمور المسلمين، وترك الأمرَ على طبيعتِه، لا نِسيانًا ولا جُزافا، بل لثقَتِه بالله وبالقوم الذين ربّاهم بالشَّرع.

كذلك كان المجتَمع في المدينة في عهد النبي، وذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «كُلّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رَعِيَّته؛ الإمامُ راعٍ ومَسؤولٌ عن رَعيّته، والرَّجُل راعٍ في أَهلِه وهُو مَسؤولٌ عن رعيَّتِه، والْمَرأةُ رَاعيَةٌ في بَيتِ زَوجِها ومَسؤُولة عن رعيّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِه ومَسؤُولٌ عن رعيته!»[1] فكلٌّ إنسان مُكلَّفٌ برِعاية ما بين يديه ممّا أعطاه الله ومسؤول عنه أمام الله وأمام العباد.

وأمّا شؤون الناس العاديّة التي لا تحتاج إلى حكم شرعي فهي من قبيل الُمباح والعُرف، وقد قضى في ذلك النبيُّ بقوله صلى الله عليه وسلَّم «أنتم أعلم بأمر دنياكم!»[2] أي تصرَّفوا فيما نَحلَكم الله كما علَّمكم الله، أي في حدود ما شرع تعالى لكم ولا تعتَدوا، لأن تلك أمانات وودائع استخلَفَكم الله عليها، فإيّاكم أن تستَهينوا بها أو تسلِّموا أمرَكم إلى غيركم فتخونوا أماناتكم، ولقد حذّر الله من هذا فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا، لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ! وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ

[1] خرجه البخاري في الجمعة ومسلم عن عبد الله بن عمر.

[2] خرجه مسلم في الفضائل وأحمد عن أنس وعن عائشة.

عَظِيمٌ!﴾ [الأنفال 27-28] معنى الخيانة هنا التَّحلُّل من الأمانة، أي التفلُّت من قيود الشَّرع ومن التكليف الذي تقتَضيه المِنحة. سواءً كان ذلك بإغفال حكم الله في التصرُّف فيها أو بمنح الغير حقّ الحكم فيها، فيجعَلها حرامًا إن كانت من المال الحلال فيقضي فيه بالضرائب مثلا، أو بإهمال ربّ البيت تربيةَ أولاده أو بمنح الغير التصرُّفَ فيهم كما يفعل أكثرُ الناس حين يزجّون بأبنائهم في المدارس ويتبرَّؤون من تربيتِهم ورعايتِهم، أو غير ذلك من استقالَة الإنسان إزاء ما بيده من فضل الله. وذلك ما حصل للناس منذ زمان غير بعيد، إذ منحوا غيرَهم حقَّ التصرُّف فيهم وفي ممتلَكاهم فقهَروهم وذهبوا بأعزّ ما لديهم ممّا أعطاهم الله فخسروا الدنيا والآخرة؛ وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلّم للأعرابي الذي سأله عن الساعة «إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتَظِر الساعةَ!» قال "كيف إضاعتُها، يا رسولَ الله؟" قال «إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غير أهلِه فانتظِر الساعةَ!»[1] ولا حاجةَ لبيان أن الذين صارَ بأيديهم الحَلُّ والعَقد في البلاد التي تُسمَّى إسلاميّة ليسوا أهلاً لهذا الأمر ولا كَرامة!

ولكنَّ قومي عَزّهم سُــفهاؤهم	عن الأمرِ حتَّى ليسَ للأمرِ حــاملُ
تُظوهِرَ بالعُدْوان واحتِيل بالغِنَى	وشوركَ في الرَّأي الأنذال الأراذِلُ

الغيث والغُثاء

لا يحقُّ لمسلِم أن يجعلَ مودَّتَه وإخاءَه وولاءَه في غير ذات الله تعالى، فالوطَن ليس خليقًا بأن يكون سبب ولاء وإخاء إلا أن يكون مبنيًّا على الدين الحق الذي هو الإسلام، وحينَها يسمَّى أمَّةً لا وطنًا، وحينَها يمتدُّ في الأرض قاطبةً ليشملَ كلَّ مسلمٍ مهما أقصته المسافة، وحينَها يمتدُّ في الزمان ليغوص في الماضى ويغور في المستَقبَل ليشمل كلَّ مسلمٍ غبَر ومُنتظَر. فعن الحارث الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله أمر يحيى بنَ زكريا بخمس كلمات أن يعمَل بِها ويَأمُر بَني إسرائيل أن يَعمَلوا بِها، وإنه كادَ أن يُبْطِئ بها، فقال عيسى: إنّ الله أمرك بخمس

---

[1] خرجه البخاري في الرقاق مختصرًا وبتمامه ابن حبان وأحمد عن أبي هريرة.

كلمات لِتعمَل بها وتَأمُر بني إسرائيل أن يعمَلوا بها، فإمّا أن تَأمُرَهم وإما أنا آمرُهم! فقال يحيى: أخشَى إن سَبقتَني بها أن يُخسَف بي أو أعذَّب! فجَمع الناسَ في بيت الْمَقدس فَامتَلأَ المسجدُ وقَعدوا على الشُّرَف، فقال: إن الله أمَرني بخمسِ كَلمات أن أعمَل بهِنّ وآمُرَكُم أن تَعمَلوا بهن: أَوَّلُهُنّ أن تَعبُدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئًا! وإن مَثَل مَن أشرَك بالله كَمَثل رَجلٍ اشتَرَى عَبدًا من خالِصِ ماله بِذَهب أو وَرِق فقال: هذه داري وهذا عَملي، فَاعمَل وأَدِّ إليَّ! فكان يَعمَلُ ويُؤدِّي إلى غَيرِ سَيِّدِه! فأيُّكم يَرضَى أن يَكون عَبدُه كذلك؟! وإن الله أَمرَكم بالصَّلاة، فإذا صَلَّيتُم فلا تَلتَفتوا؛ فإن الله يَنصِبُ وَجهَه لِوَجه عَبده في صَلاته ما لَم يَلتَفتْ! وآمرُكم بالصِّيام؛ فإنّ مَثَل ذلك كَمثَل رجلٍ في عِصابة مَعه صُرَّة فيها مِسْكٌ، فكلُّهم يُعجِبُه رِيحُها! وإنّ رِيحَ الصائم أَطيَبُ عند الله من ريح المِسك! وآمرُكم بالصَّدَقة؛ فإن مَثَل ذلك كمثلِ رَجل أَسَرَه العَدُوُّ فأَوثَقوا يَدَه إلى عُنُقه وقَدَّموه لِيَضرِبوا عُنُقَه، فقال: أنا أَفديه منكُم بالقَليل والكَثير! ففَدَى نَفسَه منهم! وآمرُكم أن تَذكُروا اللهَ! فإنّ مَثَل ذلك كمثَل رجُل خَرج العُدوُّ في أَثَره سِراعًا حتى إذا أتَى على حِصْنٍ حَصين فأَحرَزَ نفسَه منهُم؛ كذلك العَبدُ، لا يَحرِزُ نَفسَه مِن الشيطان إلا بذِكر الله!» قال النبي صلى الله عليه وسلم «وأنا آمرُكم بخَمسٍ اللهُ أمَرني بهِنّ؛ السَّمعُ والطاعَة والجهادُ والهجرة والجماعة! فإنّ مَن فارَق الجَماعَة قَيدَ شبر، فقد خَلع رِبْقَةَ الإسلامِ مِن عُنُقه، إلاّ أن يرجع! ومَن ادَّعى دَعوَى الجاهليَّة فإنه من جُثِيِّ جَهنَّم!» فقال رجل "يا رسول الله، وإن صلّى وصام؟" قال «وإن صلَّى وصام! فَادْعوا بِدعوَى الله الذي سَمّاكم الْمُسلمين المؤمنين، عبادَ الله!»[1] الرِّبقة هي الحبل والجُثيّ جَمع جاثٍ وهو البارك على رُكبتيه من الخَوف الرُّعب لِما يرى في جهنّم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا!﴾ [مريم 68]

لقد نفَى رسولُ الله الإسلامَ عمّن عملَ بكلمات يحيى الخمس ولَم يُلحقْهُنّ كلماتِ محمّد الخمس وهنّ: السَّمعُ والطاعَة والجهادُ والهجرة والجماعة. وإنَّما نفى الإسلامَ عمَّن لا يعمَل بهنّ لأنَّهنّ أركانُ الولاءِ في الله ﴿لاَ يَتَّخِذِ﴾ اللاَّم هنا ناهية بدليل الأمر بعدَها ﴿الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ

[1] خرجه الترمذي في الأمثال وابن حبان، وصحّحه الأرناؤوط.

أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ!﴾ [آل عمران 28] فواجب المسلم أن لا يتولّى كافرًا وإن كان أخاه من أمِّه وأبيه، فهذا من صميم الإيمان بالله ومُقتضياته. وقد بلغنا عن معاذ بن أنس أنه سأل النبي عن أفضلِ الإيمان قال «أن تُحبَّ لِلَّه وتُبغض لله وتُعملَ لِسانَك في ذكر الله» قال "وماذا يا رسولَ الله؟" قال «وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك»[1] وقال صلى الله عليه وسلم «إن أَوثق عُرى الإيمان أن تُحِبَّ في الله وتُبغِض في الله!»[2] قال سهل بن عبد الله التُّستَري: ما خلق الله الخلقَ لأنفسهم ولا لغيرهم، إنما خلقهم إظهارًا لِمُلْكه. والملكُ لا يكون إلا بتَوَلٍّ وتَبَرٍّ فقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ!﴾ [الذاريات 56][3] فالتولّي والتبرّي دليل على الإيمان، ولا إيمان بغير برهان!

السَّمعُ والطاعَة والجهادُ والهجرة والجماعة، تلك أسُس بناء الأمَّة وأواصر الميثاق الذي يربطُها بربِّها تعالى. فإذا انتَقضت تلك الأسس، ضاع الولاءُ في ذات الله وانحلَّت روابط الأمَّة واندَثرت، وذلك قولُه صلى الله عليه وسلم «إنه سيَخرُج في أمّتي أقوامٌ تَجارَى بهم الأَهْواءُ كما يَتَجارَى الكَلَبُ بصاحبه؛ لا يَبقَى منه عِرقٌ ولا مَفصِلٌ إلاَّ دَخَلَه!»[4] والكَلَب مرضٌ مُريع يصاب به البشر بعَدوى الكِلاب، يستَهدِف العروقَ والمفاصل فيُشلُّها ويُفضي بصاحبه إلى شرّ الموتات.

ونبَّأ بعَواقب ذلك في الدنيا قبل الآخرة فقال صلى الله عليه وسلم «يوشِك الأممُ أن تداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتها!» فقال قائلٌ "ومِن قِلّة نَحنُ يومَئذ؟" قال «بل أنتم يومَئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْل! ولَيتزَعنَّ اللهُ مِن صُدور عَدوِّكم الْمَهابَةَ منكم، ولَيقذفنَّ الله في قلوبِكم الوَهَنَ!» فقال قائلٌ "يا رسولَ الله، وما الوَهَنُ؟" قال «حبُّ الدُّنيا وكَراهيةُ الْمَوْت!»[5]

---

[1] خرّجه أحمد ح22183 والبيهقي في الشُّعب والطبراني في الكبير وصححه الأرناؤوط.

[2] خرجه أحمد ح18188 والطيالسي وابن أبي شيبة والمروزي عن البراء، وحسّنه الأرناؤوط.

[3] 'حلية الأولياء' ج10-ص207.

[4] خرجه أحمد وأبو داود في السنة عن معاوية بن أبي سفيان.

[5] خرجه أبو داود في الفتن وأحمد وابن أبي شيبة عن ثوبان مولى النبي صلى الله عليه وسلم.

الغُثاء هو الزّبَد والرَّغوَة والأوساخ التي يحملُها الماء الجاري على الأرض، لا وزن لَه فيسوقه التَّيار حيث يشاء.

تلك حال المسلمين منذ زمَن بعيد، منذ أن ابتَعدوا عن دينهم وفشت فيهم الرذائل والأهواء. فبعد أن كانوا تيَّارا يسوق الأممَ ويحملها، وغياثًا يَنهَل منه الناسُ، أصبحوا غُثاءً يحمله الماء وزبدًا يلعب به الهواء وغَنمًا تَقودُه الأرذال وتعبَثُ بهم الْحُثالَة كيف تشاء. ومَن هانت عليه نفسُه فهي على غيره أهون، ومَن نظرَ في الدنيا ببصيرة رآها كما هي وكما وصفها رسول الله بقوله صلى الله عليه وسلَّم «لا الفَقرَ أَخشَى عليكم، ولَكن أَخشَى عليكم أَن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على مَن كان قَبلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسُوها؛ وتُهلِكَكُم كما أَهلَكَتهم!»[1]

أَلَم تَرَ يا دُنــيا تصرُّفَ حالكِ ... وغَدرَكِ يا دنيا بنا وانــتقالَكِ؟!
فَلستِ بدارٍ يَسْتَــتِمُّ بكِ الرِّضا ... ولو كُنتِ في كَفِّ امْرئٍ بكَمالكِ
حَرامُـــكِ يا دُنيا يَعودُ إلَى اللَّظَى ... وذُو اللُّبِّ فينا مُشفقٌ مِّن حَلالكِ
أيا نَفسُ، لا تَسْتَوْطِني دارَ قُلعَةٍ ... ولَكن خُذي بالزّادِ قَبلَ ارتِحالكِ
ومَسْؤولَةٌ، يا نفسُ، أنتِ فيَسِّري ... جَوابًا لِّيوم الْحَشْر قبلَ سُــؤالكِ
ومِسكينَةٌ، يا نفسُ، أنتِ فقيرةٌ ... إلى خَيرِ ما قَدَّمْته مِن فَعالِــكِ!

ضَعُف المسلمون وهانوا حتى تكالَب عليهم الكُفّارُ وغزَوهم في عُقر ديارهم من كلّ جانب مرّاتٍ كثيرةً عبرَ التاريخ، فلم تزل الرَّزايا تتوالى عليهم والدينُ يذهب منهم إلى أن جاءت الفترة الاستعمارية أواخرَ الحكم العثماني. وتلاها الغزوُ الثقافي وطالت الْمُعايَشة فتسرَّبت الأدواءُ في الأمَّة الإسلاميّة حتّى فقدت قيَمَها. غادر أخيرا الْمُحتلّون أرضَ الإسلام، ولكن بعدما مزَّقوها فصارت دُوَيلات عِلمانيّة هزيلة مُتشاكِسَة وحلّت بها الوَيلات، وخلَّفوا أذنابًا سُقّاطاً جُهّالا فُجّارا، يراهم المسلمونَ رؤوسًا فيأتَمِرون لهم وهم يأمُرونَهم بالْمُنكر وينهَونَهم عن الْمَعروف، لا

---

[1] خرّجه البخاري في الجزية ومسلم عن عمرو بن عوف.

وظيفةَ لهم غيرَ تَقييد المسلمين ليسلِّموهم فرائسَ باردةً للغربيّين يستبيحون دينَهم وعقولَهم وأنفُسَهم وأعراضَهم وأموالَهم، فكيف يستقيم أمرُ مَن هذا شأنُهم؟!

لا يصلُح الناسُ فوضَى لا سَراةَ لهم ولا سَراةَ إذا جُهّـــالُهم سادوا
تُلفَى الأُمورُ بأَهلِ الدين ما صلَحَت فإن تَـــوَلَّتْ فبالأَنذال تَنقـــادُ
كَيف الرَّشادُ إذا ما كنتَ مِن خَلَفٍ لَهم عن الرُّشْدِ أَغلالٌ وأَقيادُ؟!

ظلَّ الدينُ يضيع منذ أن فقَدَ القرآنُ مَرجعيَّتَه وصارت السنّة اختصاصًا لا يعلَمُها إلا القليل، وهان على المسلمين الحكمُ بما وضعَه الغربيّون من أنظمة جائرة. فما لبثوا أن قلَّدوهم في آدابهم وزيِّهم ومأكَلهم ومسكَنهم، وأرَّخوا بتأريخِهم ورَطَنوا بألسنتهم وعلَّموا أبناءَهم على المناهج المادّية الكُفريَّة وأخذوا عُطَلَهم في مواسم مُنكري البَعث واحتفَلوا بأعيادهم وأحدَثوا أعيادًا من عند أنفُسِهم مُضاهاةً لَهم وتعامَلوا بالرِّبا. إلى غير ذلك من تقليدٍ قد كان رسَّخه حُكّامُ سُوء مُسلمون في الأمّة منذ القرن الثاني، كما مر بيانُه. مات في المسلمين روح النَّقد وأصالة الرَّأي وانطفأت شعلةُ الإيمان منذ زمن فكأنّهم مُخدَّرون

مَن يَهُنْ يَسهُلُ الْهَوانُ عَليه ما لِجُرحٍ بِمَـــيِّتٍ إيلامُ!

لّما هانت على المسلمين أنفُسُهم سلَّموها لأوّل صُعلوك حملَ السلاح وأراهم سيطرَةً وقوّة، وقد جاء في الأثر "كما تكونوا يُوَلَّ عليكم!" فالقادة من بني جلدتنا ويتكلّمون بألسنتنا إلا أنّهم حربٌ علينا، وتلك سنّة الله في خلقه، فإنّه تعالى يقول ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ؛ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ!﴾ [الأنفال 53] فأضحت بلادُ الإسلام سِجناً كبيرا وقادةُ المسلمين الكفرَة سَجّانين وجلاَّدين يتلقَّون أوامرَهم من رؤوس الكُفر في الغرب الذين يقولون لهم:

يا قادةَ الإسلام، شُدُّوا حَبلَكم وَاسبُوا شعوبَكم وَاظلموا!
لا تحلَموا في حقِّ قومٍ قد قضَوْا مئينَ أعوامٍ بالهداية يَحلُمُوا
مَن منكمُ أبدَى العَطف نحوَهم؛ ستظنُّ أمريكا بأنه مسلمُ!!

يعتزّ قادةُ المسلمين بأنّهم 'لائكيّون' يدعون إلى حرَّية الْمُعتقَد ويفصلون الدين عن السياسة، انطلاقًا من مبدئهم المشؤوم 'الإيمان في القلب' ثم يُقسمون بالله أمامَ الشَّعب أن يعمَلوا بما في 'الدُّستور' الذي أوحاه إليهم الشيطان، وأن يحترموا ما أوحاه الرحمنُ إلى محمد! كذلك يفعلون فيما يُسمُّونَه 'اليمين الدستوريّة' واضعين أيمانَهم على مَصحف القرآن. يكذبون ويُخادعون، فلَو كانت للقرآن عندهم حُرمة لعملوا بما فيه، لا بقوانين الكُفر التي في دساتيرهم الإلحاديّة. ولست أستثني في هذا أيًّا من بلاد المسلمين، فالواقع أصدق شاهد على بُعدهم جميعا عن الدين، كيف ولا وجودَ لَهم إلا في أوطانهم التي اخترعوها، وقد سبق الحديث عن الوطن وأنَّه كُفرٌ مَحض.

هكذا ضلّوا وأضلّوا، وانقَطعت المحبّة الصادقة وأصبح الوَلاءُ في الوَطن لا في الله، والمودّةُ في الدنيا لا في الدين. حتى أنّ المسلِم في أقصَى شرقي سوريا يشعُر بقَرابة الكافر في اللاذقيّة فيشاطرُه الأفراح والأتراح، ولا يأبَه ولا يكتَرِثُ لِجاره المسلمِ الذي يتلوّى هو وأهلُه من الجوع لأنّهم فرّوا من القمع الأمريكي فوجدوا أنفُسَهم بالعَراء وهم على مرمَى حجرٍ من حدود سوريا، لا يشعر بهم السوري لأنهم عراقيّون. والله تعالى يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّه عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا؟!﴾ يكون فيه هلاكُكم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا!﴾ [النساء 144-145] قد نافَقَ والله مَن صلّى وهو قَاطعٌ آصرةَ الدين ومُستَبدلٌ لَها بوَلاء الجنسيّة والْمُواطنة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا؛ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ!﴾ [المائدة 55] ومَن دعى إلى غير هذا فدعواه جاهليّة

وما حَسَبٌ ولو كَرُمَت عُروقٌ — ولكنَّ التُّــقَى زَينُ الكَـــريمِ
دَعـــي القَـــوم يَنصُر مُدَّعـــيه — لِيُلحقَه بذي الحَسَب الصَّميمِ
لِدَعوَى الْجاهلـــيَّة لَم أُجبْهُمُ — ولا يَـــدْعو بِها غيرُ الأَثـــيمِ
أبي الإسلامُ، لا أبَ لِي سِواه؛ — إذا افْـــتَخروا بقَيسٍ أو تَميمِ!

الدَّعوة إلى الوطنيَّة دعوة جاهليَّة وتقهقُر إلى ما قبل الإسلام الذي أنعَم الله به على الناس منذ القدَم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ؟! جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ! وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ؛ قُلْ: تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ!﴾ [إبراهيم 28-30] وهؤلاء هم رؤساء ومُلوك العرب الذين يستَعبِدون رَعاياهم ويَمكرون بهم ليلَ نهار بالتَّرغيب والتَّرهيب، فكفَروا هم وكفرَ أتباعُهم وأحدثوا تثليثًا شرًّا من تثليث النصارَى، والذي هو "الأب والابن والروح القدُس"، فجاء تثليثُهم هكذا "الله والوطَن والزّعيم" وهذا شركٌ أكبر، ما من شكّ فيه؛ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا "إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ"﴾ وهؤلاء يقولون "الله والوطَن والزّعيم" ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ! وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ؛ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ! أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ؟!﴾ [المائدة 73-74] فلا سَمعَ لهؤلاء الكَفرَة ولا طاعة ولا كرامة؛ فقد بلغنا عن عُبادة بن الصامت أنّه قال: دعانا النبيُّ صلى الله عليه وسلم فبايَعناه، ففيما أَخذَ علينا أن بايَعْنا على السَّمع والطاعة في مَنشَطنا ومَكرَهنا وعُسْرنا ويُسْرنا، وأَثَرةً علينا وأن لا نُنازِع الأمرَ أهلَه؛ «إلا أن ترَوا كُفرًا بَواحًا عندَكم من الله فيه بُرهان!»[1] وهذا الذي عليه الناس كُفرٌ لا لَبسَ فيه وبُرهانُه قولُ الله سبحانه ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا "إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ!﴾ فليَحذَر مَن خاف مقامَ ربِّه هذا الكُفرَ الجهار ﴿وَلاَ تَقُولُوا: ثَلاَثَةٌ﴾ "الله والوطَن والزّعيم" ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ! إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ! سُبْحَانَهُ!﴾ [النساء 171]

ذلك نصْبُهم الوَطنَ آلهةً وحَملُهم الناسَ على التَّفاني في حُبِّه وعلى القتال دفاعًا عنه وفي سبيله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ! فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ؛ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا!﴾ [النساء 76] يَكذبون على الناس ويدَّعون لهم أنَّ النبيّ قال "حبُّ الوطن من الإيمان" والنبيُّ صلى الله عليه وسلّم بريئٌ من هذا البُهتان، بل حبُّ الوَطن من الإيمان بالجبت والطاغوت واتِّباعٌ للشيطان، ومن الشِّرك بالله الذي لا يغفره تعالى ويَغفر ما دونه، تلك حالُ الحُكَّام وأتباعِهم وإن ادَّعَوا أنَّهم على شيء من الإسلام لِما معهم من قُرآن

[1] خرجه البخاري في الفتن ومسلم وأحمد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا "هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً!" أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا!﴾ [النساء 51-52]

يُلبِّسُ رجال السياسة على الناس ويدَّعون لهم أنّ مَن مات في سبيل الوطن فهو شهيدٌ. وهذا باطلٌ، بل من مات في سبيل الوطَن فمأواه النار وبئس المصير! فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن خَرجَ من الطاعَة وفارَقَ الجماعةَ فماتَ؛ ماتَ ميتةً جَاهليّة! ومَن قاتلَ تحتَ رايَة عُمِّــيَّة، يَغضَبُ لعَصَبَة أو يَدْعو إلى عَصبَةٍ أو يَنصُرُ عَصَبَة، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جاهليّة! وَمَن خرَج عَلى أُمّتي، يَضرِبُ بَرَّها وفاجرَها، لا يَتَحاشى من مؤمنها ولا يَفي بعَهد ذي عَهدها؛ فلَيسَ مني ولستُ منه!»[1] وعن أبي موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسولَ الله، ما القتالُ في سبيل الله؟ فإن أحدَنا يقاتل غضبًا ويقاتل حَميَّة!" فقال «مَن قاتَل لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا؛ فهو في سبيل الله عزّ وجل!»[2] على مثل ذلك قام أمثالُ صلاحِ الدين الأيوبي وعبد القادر الجزائري وشاميل الداغِستاني والُمختار الليبِي الذين حاربوا الكفّار نُصرةً للدين لا مُقاتَلةً على الأرض.

ثم من رَحمة الله تعالى أن لَم يحصُر الشهادة في القتال، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما تعُدّون الشهيدَ فيكم؟» قالوا "يا رسولَ الله، مَن قُتلَ في سَبيل الله فهو شهيد" قال «إنّ شُهداءَ أمّتي إذَن لَقليلٌ!» قالوا "فمَن هُم، يا رسولَ الله؟" قال «مَن قُتل في سبيل الله؛ فهو شَهيد! ومن ماتَ في سبيل الله؛ فهو شهيد! ومَن مات في الطاعون؛ فهو شهيد! ومن مات في البَطن؛ فهو شهيد!»[3] وعن سعيد بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مَن قُتل دونَ ماله؛ فهو شهيد! ومن قُتل دون دينه؛ فهو شهيد! ومَن قتل دون دَمه؛ فهو شهيد! ومَن قُتل دون أهله فهو

[1] خرجه مسلم في الإمارة والنسائي وابن حبان وأحمد عن أبي هريرة.

[2] خرجه البخاري في العلم ومسلم وأصحاب السنن.

[3] خرجه مسلم في الإمارة وابن ماجه وابن حبان وعبد الرزاق وأبو عوانة عن أبي هريرة.

شهيد!»[1] إيجابًا لحفْظ المال والدين والنفس والعرض. وذاكَ بالذات ما يريد الكُفّارُ أخذَه من المسلمين، ولكنَّ أكثَر العرب والبربر وغيرهم من أبناء المسلمين يجودون بحُرُماتِهم تلك لأعداء الله تبجيلاً لهم ومَحبَّةً لِما هم عليه ﴿هَا أَنتُمْ أُولاَءِ، تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ!﴾ [آل عمران 119]

ليس القصدُ من هذا الكلام بَغضَ الغير مسلمين ومعاداتَهم بدون سبب بيِّن، بل يجب احترامُهم وخاصَّة أهلَ الكتاب فإنّ لهم عند الله حُرمةً لا يجوز إنكارُها بحال، ولا إجبارُ أحدهم على الدخول في الإسلام بل تكفي الدَّعوة إليه. ولكن لا بُدّ أن يتحابَّ المسلمون فيما بينهم لا لسبب سوى أنَّهم مسلمون، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تَدخُلون الجنَّة حتى تُؤمِنوا! ولا تؤمنوا حتَّى تَحابُّوا! أوَلا أدُلُّكم على شَيء إذا فَعلتُموه تَحابَبْتُم؟ أَفشوا السلامَ بينكم!»[2] فالحبُّ في الله من الإيمان، بل هو أساسُه الذي يقوم عليه.

يقول الله بعد أعظم آية في القرآن ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إذْ لا جَدْوَى من فرضه عُنوةً ولا يحقُّ ذلك لأنّه ليس من الدين الذي هو يُسْر ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ!﴾ ببُلوغ الرسالة كاملةً ووُضوحِها ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ فبدأ بالبراءة من الطواغيت إزالةً لضَررها، وأعتاها الوطَن وما ينبثق عنه من قوانين كُفريّة، عندئذٍ يُمكن جَلبُ المَنفَعة فقال ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّه، فَقَد اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى!﴾ الآصِرة القويّة التي لا تنقَطع ﴿لا انفِصَامَ لَهَا؛ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ!﴾ ثمَّ بيَّنَ تعالى أنّها الوَلاءُ الحقّ فقال ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا؛ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من الإثم والعُدوان والتعاوُن عليهما ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى البرّ والتّقوى والتعاوُن عليهما ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ!﴾ عليهم يتعارفون وفيهم يتحابّون ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ!﴾ فيَظلّون على مُنكَراتهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ؛ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ!﴾ [البقرة 256-257]

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ذلك، فعن البراءِ بن عازب قال: كُنا جُلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال «أيُّ عُرَى الإسلام أوثقُ؟» قالوا "الصلاةُ" قال «حَسَنةٌ وما هي

[1] خرجه الترمذي في الديات وأبو داود والنسائي وله شاهد عند الشيخين عن ابن عَمرٍو.

[2] خرجه مسلم في الإيمان وأبو داود والترمذي ابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

بها!» قالوا "الزكاة" قال «حسنةٌ وما هي بها» قالوا "صيامُ رمضان" قال «حسَنٌ وما هو به» قالوا "الحجّ" قال «حسنٌ وما هو به» قالوا "الجهاد" قال «حسنٌ وما هو به!» قال «إن أَوثق عُرى الإيمان أن تُحبَّ في الله وتُبغض في الله!»[1] وقد ادّخر الله تعالى على ذلك جزاءً لن يَسعَد به إلا قليلون، فقد قال رسول الله «إن الله يقول يومَ القيامة: أينَ الْمُتحابّون بجلالي؟! اليومَ أُظلُّهم في ظلّي يومَ لا ظِلَّ إلا ظلّي!»[2] وقال صلى الله عليه وسلم «سَبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظلّه يومَ لا ظلّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادل وشابٌّ نشأ في عبادة ربِّه ورجلٌ قلبُه مُعلَّق في المساجد ورَجلان تَحابَّا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورَجلٌ طَلَبَته امرأةٌ ذاتُ مَنصِب وجَمال فقال "إني أخاف الله!" ورجلٌ تَصدَّق؛ أَخفَى حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تُنفق يَمينه، ورجلٌ ذَكر الله خاليًا ففاضَت عيناه!»[3] فلمّا كان الوَلاء والبراء تجسيدًا لكلمة 'لا إلهَ إلا الله' في توحيد الأمَّة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ؛ أُمَّةً وَاحِدَةً! وَأَنَا رَبُّكُمْ؛ فَاعْبُدُونِ!﴾ [الأنبياء 92] فاجتَمعوا على محبَّة الله ورسوله ومحبَّة بعضهم بعضًا وظلُّوا على الفطرة فأظلّهم الله الذي لا إلهَ إلا هو في ظلِّه الذي لا ظلَّ إلا ظلُّه؛ فالتوحيدَ، التوحيد!

يقول الله جلّ ثناؤه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ، لِتَعَارَفُوا؛ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ! إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ!﴾ ثم ذكر الأعرابَ لما هم عليه من حَميَّة قبَليّة فقال ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ: آمَنَّا! قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَكِن قُولُوا "أَسْلَمْنَا" وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حتى يكونَ وَلاؤكم في الدين لا في الوطن ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لا يَلِتْكُمْ﴾ أي لا ينقُصْكم ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ! إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا! وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا في سبيل الوطن أو غيره ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم، ولما كان هذا الكلام لا يقبَلُه الناس من غيرهم لأنّه قد يكون تَهديدا ورَدعًا لَهم قال تعالى ﴿قُلْ: أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ

---

[1] خرجه أحمد ح18188 والطيالسي وابن أبي شيبة والمروزي عن البراء، وحسّنه الأرناؤوط.

[2] خرجه مسلم في البر والصلة والدارمي ومالك وأحمد عن أبي هريرة.

[3] خرجه البخاري في الأذان ومسلم والترمذي والنسائي ومالك وأحمد عن أبي هريرة.

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟!﴾ ليَعلَموا أنَّ الدين وحي من عند الله وأنّهم أسلموا وليسوا بمؤمنين بعد، فرضوا بذلك وقاموا يعتدُّون و﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ كأنهم فعلوه من أجلك وتفضُّلاً به عليك ﴿قُلْ: لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ! بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ!﴾ [الحجرات 13-17] مُوالين في الله مُعادين فيه، فإنّما جاء الإسلام ليكون الصالحون أولياءَ وليتبرّؤوا من الكفّار.

فالحميَّة الوطنيّة والقتالُ تحت رايتها العُمِّـيَّة من أعمال الجاهليَّة! وقد بلغنا عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: كُنا في غَزاةٍ فكَسَعَ رَجلٌ من المُهاجرين رجُلا من الأنصار فقال الأنصاري "يا لَلأنصارَ!" وقال المهاجريُّ "يا لَلمُهاجرين!" فسمع ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال «ما بالُ دَعوَى الجاهليّة؟!» قالوا "يا رسولَ الله، كسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار" فقال «دَعوها، فإنها مُنتنَة!»[1] عَفِنة كريهَةٌ رائحتُها، تَنبَعث من رِجس في قلوب مَريضة! فنداءُ الأنصاريِّ الأنصارَ والمُهاجريِّ المهاجرين ارتدادٌ إلى الوَلاء القبائلي الجاهلي الذي صَرمَه الإسلامُ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح 26] يدلّ هذا على أنه لا يجعل في قلبه حميَّةَ الجاهليّة إلا كافرٌ بالله!

لذا نَهى النبيُّ عنها ومنعها صلى الله عليه وسلم منعًا مؤبَّدا، فقال في حَجّة الوداع «إنّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ؛ كحُرمَة يومِكم هذا في بَلَدكم هذا في شَهرِكم هذا! وسَتلقَون ربَّكم فَسيسْأَلُكم عن أعمالكم! ألا، فلا تَرجعوا بَعدي ضُلاَّلا؛ يَضرِب بعضُكم رِقابَ بعض! ألا، لِيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ؛ فلعلّ بعضَ مَن يُبَلَّغُه أن يكون أوعَى له من بعضِ مَن سَمِعَه!»[2] فالْمُوالاة الوطنيَّة ضلالٌ وكُفرٌ وَهدمٌ لأصل الإيمان كما بيّنه رسول الله بقوله «أوثَقُ عُرَى الإيمان: الحبُّ في الله والبَغضُ في الله!»[3] والله تعالى يقول ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ؛

---

[1] خرجه البخاري في التفسير ومسلم والترمذي. والكَسْع: ضربُ دُبرِ الإنسان بصدْر القَدم.

[2] خرجه البخاري في المغازي ومسلم وأبو داود وأحمد عن أبي بكرة الأسلمي.

[3] صحيح خرجه ابن أبي شيبة في 'المصنّف' ح3367 وأحمد والبيهقي في 'الشُّعَب' عن البراء.

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ: أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ! وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ!﴾ [التوبة 71-72] ولكنّ القومَ تشبَّهوا بأعداء الله و«مَن تَشبَّه بقومٍ؛ فهو منهم!»[1] فوالَوهم وظَهر الفسادُ وعمّ وطمّ ﴿وَالَّذينَ كَفَرُوا؛ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ! إِلاَّ تَفْعَلُوهُ؛ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ!﴾ [الأنفال-73] وهذا ما نشاهدُه من اختلاط الأمر حتى كاد الحق يخفى رأسا!

فإن قيل بعد هذا "كان يكفيك التنبيهُ على إصلاح الراعي في إطار الواقع، كما عليه العلماء، دون ما حاجةٍ إلى جعل الوطن صنمًا يجب كسرُه، وإلا فكيف تتصوَّر أن يعيش الناس خارجَ الدَّولة؟" فنقول: لقد مرَّ مرارًا أن العلماء ليسوا أُسوةً في حدّ ذاتهم وأنَّهم يصيبون ويخطئون، وإنَّما المعتَبر ما يبلِّغونَه من علم أخذوه عن النبي صلى الله عليه وسلَّم ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ، وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ؛ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟! وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ؛ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف 169-170] فالعالِم عالِمٌ ما دام مُستَمسكا بالكتاب والسنَّة فإن ابتَعد عنهما فليس بعالِم، معنى هذا أن العالِم عالم ما دام يعلَم فإن جهِل أمرًا فإنّه لا يصحّ أن يسمَّى فيه عالِما. على هذا فمن أصاب في شيء فذاك وله أجران، وإلا فلا يُقبَل قولُ من أخطأ كائنًا مَن كان. وممّا أخطأ فيه أكثرُهم، إلى حدٍّ يكاد يكون إجماعا، قَبولُهم لِمبدأ الوطن والدولة وما ينبَثق عنهما. فلمّا قامَ خيارُهم يَبتغون الإصلاحَ في إطار الأنظمة السائدة غاب عنهم أنّها شرٌّ كلُّها لا خيرَ فيها أصلاً؛ فذهبت جُهودُهم وفاتَهم الإصلاحُ وإن نالَهم القَهرُ من طَرف الطُّغاة، إلا أن في قيامِهم في وجوه الظَّلَمة إيقاظًا للناس من غَفلَتِهم ونُهوضًا بالهمم للبحث في التَّخلُّص من وطأتهم. مهما يكن ففي قيام هؤلاء خيرٌ، فنرجوا من الله تعالى أن يُجازيهم بما صبروا ولا يؤاخذَهم بما أخطؤوا.

---

[1] خرجه أبو داود في اللباس وأحمد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

الحقُّ أن لا فَرق بين دولَة تزعُم أنَّها مسلِمة ودولة علمانيَّة رأسماليَّة تدعو إلى التملُّك وطغيان المال والتهتُّك والانحلال أو إشتراكيّة تدعو إلى الشِّرك والشَّركة في كل شيء حتى النساء. نعم الدُّول الغَربيّة شرِّيرةٌ لأنّها تُريد علَنا هدمَ الدين والعقل والعِرض ولا ترقُب في مواطنيها إلاًّ ولا ذِمّة، ولكن الدُّول التي تدَّعي الإسلامَ كذلك تعمل على إفساد الدين والعقل والعِرض والمال وإن لَم تجرُؤْ على التصريح به، وسيّان في هذا مَن حَسُن قصدُهم ومن يُراوِغون ويُنافقون. أعني أنّه لا فرق بين مَن يريد بناءَ دولَةٍ 'إسلاميَّة' وبين من لا يريد من استيلائه على الحُكم سوى التسلُّط على البلاد والعباد، لا فرق بين هذا وذاك إلا في الظّاهر وإلا فكلاهما لا يتصوَّر عيشاً خارجَ الدَّولَة التي تُهيمِن هيمَنةً مُطلَقة على الوَطن بما فيه وبمَن فيه. وبما أن الدَّولة مجرَّد تصوُّر وتوهُّم فإنَّه لا يصحُّ أن توصَف بالإسلام فيقال عنها أنَّها 'دولَةٌ إسلاميَّة' هذا مُناقِضٌ لأبسَط مبادئ الدين؛ فالغيرُ عاقل لا يكون مكلَّفا، فما بالُك بأمر غيرِ مَوجود أصلا، أيصحُّ أن يكون العدَمُ إسلاميّا؟! وهو مع ذلك مناقض للتَّوحيد في الألوهيّة وفي الربوبية على سواء، لَما يُضفي الناسُ على الدَّولة من حُرمة وتقديس يمنَحانها هيمَنة مطلقة على التديُّن، هذا من جهة الألوهيّة، ومن تكفُّل بالأرزاق والرِّقاب والأعراض والعقول والأموال، وهذا من جهة الربوبيّة. وإلاّ فالمسلِم لا يجوز لَه أن يتصرَّف إلا في إطار تعاليم الإسلام، فكيف يسمَح مسلِمٌ لنَفسه بحمل الناس على التَّسليم لأنظمة أفرَزَتها عقولُ الكفّار في قديم الزمان وحادثِه، وإن حلاَّها البَعض بصِبغة يدَّعي أنَّها إسلاميَّة؟! إنَّما المُخاطَب بالإسلام هم العُقلاء من بني آدَم، ولا يوصَف بالإسلام إلا مَن أسلَم منهم لله تعالى. والذي لا ينقَضي منه العجبُ كيف غابت هذه الحقيقة عن العلماء المخلِصين الذين حاوَلوا جُهدَهم الإصلاحَ في نطاق الأنظمة الموجودة، وكأنَّهم يريدون من الدَّولَة والوَطن أن يُسلِما، ففشلَت جميعُ محاولاتهم، بل وازداد الأمرُ غُموضا والوَضعُ تعقُّدا، فرفع كلُّ مدَّعٍ بوقًا ينادي به أن لا سبيلَ للفَلاح إلا بإصلاح الدَّولة ومُساعدة رجال السياسة على خِدمة المواطنين بزعمهم، على أنَّ مُعظَم هؤلاء أذنابٌ وليسوا برؤوس وإن كانوا ممَّن يدَّعي

العِلمَ، ولَو استقاموا في أنفُسهم لكانوا حرِيّين بالاستِماع والاتِّباع، ولكن رامُوا المحالَ حين رَموا عن قوس زور واحتيال.

متى يستقيمُ الظلُّ والعودُ أعوجُ؟! وهلْ ذَهبٌ صِرفٌ يُساويهِ بَهرَجُ؟!

سؤالا استِنكار ونَفي ينطبِقان تمامًا على العلماء المخلِصين الغيورين على الدين، الذين يريدون إصلاحَ المجتَمَع بنيّة حسنَة ولكن لا بالوسائل اللائقة، يريدون إصلاحَ أمرٍ فاسدٍ من أصلِه، وكأنهم يبتَغون إقامَة ظلٍّ عُود أعوَج. فمهما أرادوا إقامة المجتَمع المبني على وَهم الوطن والدَّولة فلن يتأتّى لهم ذلك أبدا. الدَّولَة كالبَهرَج، كمعدن مُذهَّب يظنُّه الناس ذَهبًا وما هو بذَهب، ولكن إذا وقع بين يدَي ناقد بصير عالِم بالمعادن خبير فحينَها يظهَر عوارُه ويسقُط مِقدارُه؛ فأوَّل قدَم للإصلاح بيان زَيف الدَّولة. ثم يأتي البيت الثاني وهو قولُه:

ومن رامَ إخراجَ الزكاةِ ولَمْ يَجدْ نِصاباً يُزكِّيه، فمِن أينَ يُخـرَجُ؟

هذا في علماء السُّوء، وهم من أبعد الخلق عن الصَّلاح وإن ادَّعوا أنَّهم حُماة الدين، وما هو عندهم إلا ذَريعة يتوسَّلون بها إلى مَصالِحهم. إنَّما الظواهر دلائل السرائر، فيكفينا أن نرى ما يَحضَون به في الوطن من رِعاية من قبَل الدَّولة –وقد رُفعت رواتِبُهم في بلاد كالجزائر في هذه السنوات الأخيرة، فهي تفوق المعدَّل الوطني للموظَّفين. كيف يمكنُ لقوم تلك حالُهم أن يكون مُصلِحين، وما بلَغوا نِصابَ الصَّلاح في أنفُسهم؟!

ابدأ بنفسك فَانـهَها عن غَـيِّها فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك تُسمَع إن وَعظتَ ويُقتَدَى بالقول منك، ويُـقبَلُ التعْليم
لا تَـنه عن خُلُـق وتأتي مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عَـظيمُ

لَم يسلَم من العلماء أحدٌ في أمر الدَّولة والوطن، فيما أعلَم. وأعظَمُهم خطأً الرسميّون، أعني مُفتيّي الجمهوريّات أو المملكات فمَن دونهم من موظَّفي وزارات الشؤون الدينية ومُدرِّسي الشريعة إلى أئمّة المساجد؛ كل هؤلاء لا يتكلَّمون عن الدَّولة إلا بخير. وسببه أنَّها وليُّ نعمَهم، لا يقبِضون رواتبَهم إلا من طرف الحكومة، أي من الأموال التي بينتُ لك مصادرها وهي الجبايةُ

الجائرة، التي تمنع الناس من الزكاة الشرعيّة، والعقوباتُ الماليّة والثرواتُ الطبيعيّة التي تستقطبها الدَّولة فتستولي عليها برمَّتها وتمنع منها أصحابَها الذين هي ركازٌ لَهم؛ وهذا يكفي للتشكيك في نزاهة هؤلاء العلماء الذين يمتدحون الدَّولة ولا يخطُر ببال أحدهم أن ينتَقدها ولو بشطر كلمة. ولو افترضنا أن مصادر رواتبهم كانت حلالاً، فمن المَعلوم أن اليد التي تطعِم لا تُعضّ، فلا محالَة لا ينتَقدون من يُغدِق عليهم الأموال ويجعل لهم الجاه بين الناس، أعني الدَّولة، مهما ظلم بحال. فعلماء الدَّولة إمّا ساكتون عن حقّ يجب أن يقال أو متكلِّمون بباطل لا يجوز أن يُقال، وأكثر كلامهم بين ذلك في مسائل من معاملات لا صلةَ لها بصميم الدين. هذا جوابًا على تصويبك العلماءَ وأنّ إقرارَهم على إطاعة السياسيين إحقاق لباطلهم.

وأما جعلُ الوطن صنماً يُعبَد، فأعوذ بالله أن أكون أنا الذي جعلت الوطن صنما، بل ذلك فعلُ مَن اخترَعوه أو استوَرَدوه ثم فرضوه على الناس، وذلك فعلُ مَن قبله من الناس ورضوا به آلِهةً فقدَّسوه ونزّهوه وعبَدوه. ألا ترى أنّ مَن مات منهم في سبيل الوطن سمَّوه شهيدا؟! هكذا لا تتوقَّف الدعاية الوطنيّة في استعمال العبارات الدينيَّة الشريفة لمقاصدها الماديَّة الإلحاديّة الكُفريَّة. لقد منح أكثرُ الناس الدّولةَ أعظمَ صفات الربوبيّة من حياة وعلم وإرادة وقدرة وكلام وسمع وبصر وإحياء وإماتة ورزق ومنع وعطاء ونفع وضرّ وإسعاد وإشقاء، وما إلى ذلك من صفات لا تليق إلا بجلال الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرا. وكأنّهم جعلوا الأرض عرشًا لآلهة الدَّولة والبشرَ عُبّادًا لها يتفانَون في خدمتِها. ولا تخفى تلك التضرُّعات التي يوجِّهها المواطنون إلى الدَّولة كلَّما حلَّت بهم مصيبةٌ عسى أن تكشِفها عنهم، ومتى احتاج بعضُهم إلى شيء عسى أن تتكرَّم به الدَّولةُ عليهم. وهم في ذلك موقِنون أنَّهم لا حقَّ لهم في دعاء دولَتهم ولا ضمانَ لهم في استِجابتِها إلا لكونهم مواطنين مخلِصين صالِحين لا ربَّ لهم سوى الدَّولة!

إذا فهمت هذا علمت أنّه لا إصلاحَ بالمعنى الشَّرعي كما بيّنتُه آنفا؛ الوطن شرٌّ لا خيرَ فيه ليُصلَح. فالواجب إذًا التَّخلُّصُ من هذا الصَّنم، ولكن ليس بإسقاطه عُنوةً ليقوم محلَّه نظامٌ شرٌّ منه. وإن نهض له أولئك الذين يدَّعون إقامة ما يسمّونه الدولة الإسلامية، فقد مرَّ بيانُ أنّه ليس

من الإسلام شيءٌ اسمه 'دولة إسلامية' هذا تناقُض في حدِّ ذاته، فإنَّه لا يمكن الجمع بين الله والدَّولة، فإمّا الوطن وإمّا الإسلام ﴿وَقَالَ اللَّهُ: لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ! إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ؛ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ!﴾ [النحل 51] فالإسلام دين الله الذي بعث به أنبياءَه إلى البشريَّة جمعاء، فهو ليس حِكرًا على قوم بل يعمُّ الناسَ جميعاً والأرض قاطبةً ولا يعترف بالحدود ولا بالشعوب ولا بالأجناس، بل الأرض كلُّها لله، وليست عبارة عن أوطان متجاورة، بل هي أرض واحدةٌ تحت سماء واحدة ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ!﴾ [الكافرون 1-6] فمُحال أن تكون وِراثة الأرض على أساس الجنسية ولكن بالتَّقوى، والناس في هذا كلُّهم سواء لا فضلَ لأحد على غيره ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ؛ لِتَعَارَفُوا! إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ!﴾ [الحجرات 13] صحيح أن الإنسان لا يخلق إلا في بيئة معيَّنة وجهة معيَّنة بين قوم معيَّنين، هذا واقع، ولكن لا يمنعه هذا من التعرُّف إلى غيره من بني البشر على ما هم عليه من أمور يتَّفق معهم فيها أو لا، ثم يبقى المعيار الوحيد في التفاضل بين الناس هو تقوى الله تعالى. وقد بلغنا عن رسول الله أنّه قام في إحدى خطَب حجة الوداع فقال «يا أيها الناس، ألاَ إن ربكم واحد وإن أباكم واحد! ألا لا فضلَ لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى!»[1] فلا مَوضعَ ولا محلَّ لحدود الوطن السياسيَّة إلا في أذهان مَن رضُوا لأنفُسهم بأن يعامَلوا كما تُسام الغنم في مرابضها!

وعليه فمن واجب كلِّ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكفُر بالوطن ويتخلَّص منه. ولكن لا بالوسائل التي يستَعمِلُها السياسيّون، لا بمواجهة العنف بالعنف، فإنّ العنف دوامة شرّ لا حدَّ لها. فالضعيف الذي يُقهر اليوم قد يقوَى غدًا فيقهَرُ مَن قهره مجابَهةً ثم يقهَرُه أشدّ لكي يشفي غليلَه ويمسح عن نفسه عارَ هزيمة الأمس، ثم يقهرُه ثالثةً حتى يأمَن من أن يقوم في وجهه أبدا.

---

[1] خرّجه أحمد ح23536 عن أبي نضرة: حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق..، صحّحه الأرناؤوط.

تلك حال العنف، مَن استعمَله، وإن كان مظلوما، فكأنّه يريد إطفاءَ النار بصبِّ الوَقود عليها، فلا تزداد النار إلا تأجُّجا. ولمّا كان الضدُّ هو الذي يغلب ضدَّه، فالعُنف لا يغلبُه إلا الرِّفقُ والصبر، تلك هي الطريقة الوحيدة للقضاء على الشرّ. أعني الابتعاد عنه واستبداله بالخير من كل الجهات حتى يعمَّ الخيرُ وينعدم الشرّ من جُذوره.

لا يكون التَّخلُّص من طامَّة الوطنيَّة إلا بمَحض المُسالَمة، أي بالكُفر بالدَّولة والتَّبرُّء منها سيرًا على خُطَى إبراهيم الذي قال لقومه ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا! فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا!﴾ [مريم 48-49] فاعتزال المسلمِ المواطنين وما يعبدونَه من دون الله واجب لأنَّه أصل الإيمان وأساسُه الذي لا يقوم بدونه شيءٌ من أعمال العبد ﴿قُلْ: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ؛ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ! وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ! وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ! وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ؛ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ!﴾ [الكافرون 1-6] لست أقول بأنّ المواطنين كفّار بحال كفارِ قريش، ولكنَّهم مشركون كما كان الناس بعد بعثة عيسى عليه السلام حيث قص الله علينا ما جرى بين الفتيَة أصحاب الكهف وقومهم فقال ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الكهف 16] أي اعتَزلتموهم واعتَزَلتم ما يعبدون ولكنَّكم لَم تعتزلوا اللهَ الذي كانوا يعبدونَه وهم به مشركون. فكذلك لا بدّ للمسلم الذي يعقل عن الله من التبرّؤ من قوم يشركون بالله شيئًا يسمونَه الوطن، وإن كانوا مُتظاهرين بأركان الإسلام؛ ليست المسألة واضحة من أوَّل وهلة إلا مَن أفاق من وهمه وشاهد الأمور على حقيقتها.

فإن قيل: وكيف يكون هذا، كيف يمكن اعتزال الدَّولة وقد سيطرت على كل شيء؟ نقول: حاشى لله أن يمكِّن تعالى أمرًا موهوما كالدَّولة من السّيطرة على كل شيء، هذا غلوٌّ في العبارة أو بقيَّة وَهم لَم يزل في ذهنك. وشفاؤُه أن تُدرِك حقيقةً أنَّ أمَّك قد ولدتك حرًّا وأنَّك عبدٌ لله فقط لا لأحد غيرِه، وأن تعتَزل الدّولة، فتستقيل من منصبك إن كنت فيها موظَّفا، وأن لا تشارك في شيء مما يتَّصل بها من قريب أو بعيد، وبأن توطِّن نفسَك على السياحة في أرض الله

الواسعة وإن لَم تبرَح مكانَك، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم «كُن في الدنيا كأنك غَريبٌ ، أو عابِرُ سَبيلٍ»[1] وعن ابن عباس أن عمر دَخل على رسول الله وهو على حَصيرٍ قد أثَّرَ في جَنبِه فقال "يا نَبيَّ الله، لَوِ اتَّخَذتَ فِراشًا أَوثَرَ مِن هَذا!" فقال صلى الله عليه وسلم «ما لِي ولِلدُّنيا؟! ما مَثَلي ومَثلُ الدُّنيا إلاّ كَراكِبٍ سارَ في يومٍ صائِفٍ، فَاستَظَلَّ تَحتَ شَجَرَة ساعَةً مِن نَهار، ثُم راحَ وتَرَكَها!»[2]

يكمُن خلاصُك من رقِّ الجنسيَّة ومن ضيق الحدود في مجرَّد يقينك بأنَّك عبدٌ لله حرٌّ بين الناس تسيح في أرض الله وقد تكفَّل تعالى برزقِك؛ ففي السماء رزقُك والأرض جميعا لك مسكن ومرتع، ولكن اررضَ بالدُّون ولا تعتَدي على ممتلَكات الغير الشَّرعية، فالله لا يحب المعتدين، واستأذن عند الحاجة من أصحابها تجد في الناس الخير الكثير. ربِّ نفسَك على القلّة والخشونة تجد لهما حلاوةً لا يحلُم بها أهلُ التَّرف والبذخ. وإن لَم تصدِّق ما أقول لك فها أنا ذا أذكُر لك مثالاً قريبا يزيل عنك كلَّ ريب: فإن أنت أردت التلذُّذَ بأبغض طعام إليك فأمسك عن الأكل لمدة يومين وستجد شهيًّا ما كنت تستقذره، وإن أردت التلذُّذ بالنَّوم على الأرض من دون حائل فاسهر لمدَّة يوم وليلة وستستَعذب النومَ على التُّراب. اعلَم أنَّ أقل الناس صبرًا إذا زُجَّ به في السِّجن وجد في نفسه جلَدًا يتحمَّل به الأذى والقلَّة، وأقلّهم شجاعةً إذا زُجَّ به في الحرب ظهرت منه جُرأةٌ لم يكن يتصوَّرها هو من نفسِه، لكن بعد زمن قد يطول أو يقصُر، ريثما يرى الأمرَ على حقيقته. ثم مَن عوَّد نفسَه التقشُّفَ وجد اللذَّةَ لا في الأكل والنَّوم فحسب ولكن أيضا في البَساطة وقلَّة الكُلفة وراحة النَّفس، فيهنأ بفضل الوقت ويصرِفُه فيما ينفَعُه في دينه ودنياه.

فامتلِك نفسَك يا أخي، واربَأْ بها أن تُسلِّمها لمن لا يستحقُّها ولا يعرف قدرَها. أم مَن يرعاها وقد ضيَّعتها وأنت صاحبُها ولا نفسَ لك سواها؟! وانهض لهذا الآن لا غدًا ولا بعدَ حين، فلا حياةَ لك سوى هذه الحياة وما يدريك لعلّ حتفَك قد حان فتمُت وأنت مكبَّل بحبال الوطنيَّة

---

[1] خرجه البخاري في الرقاق والترمذي وابن حبان وأحمد عن عبد الله بن عمر.

[2] خرّجه أحمد ح2608 عن ابن عباس، والترمذي عن ابن مسعود في الزهد وصحّحه.

الموهومة فتُبعَث مع المشركين والعياذ بالله، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم «يُبعَث كلُّ عبد على ما ماتَ عليه؛ المؤمنُ على إيمانه والمُنافق على نفاقه!»[1] فإذا امتلكت نفسَك من جديد فهذا ربُّك عزَّ وجلّ يعرض عليك الصفقةَ الرابحة ويقول ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ: يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ؛ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ! وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟!﴾ ولا أحدَ أصدقُ وعدًا من الله ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ!﴾ وتمَّت كلمتُه تعالى صدقًا وعدلا، ثم وصف هؤلاء المؤمنين الذين تحرَّروا من رقِّ العباد وقدَّموا أنفسَهم إلى رب العباد فقبلَها منهم واشتراها، مع أنَّه خالقُها ومولاها، فقال سبحانه ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ؛ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ!﴾ [التوبة 111-112] فتلك خصال المؤمن حقًّا وأوصافُهم: توبةٌ مع عبادة مع حمد مع سياحة مع ركوع مع سجود مع أمر بمعروف ونهي عن منكَر مع حفظ لحدود الله.

ثم انتبه إلى ذكر صفة السياحة هنا، فمعناها أن لا تُقرَّ السياسيِّين والوطنيين وغيرَهم من مجانين على ما سطروه من حُدود تُحيط بأوطانهم فقَسموا بها أرضَ الله بغير حقّ وجعلوها حواجزَ بين عباده؛ ذلك ظُلم للناس. وقد بلغ الأمرُ بالطغاة إلى أن أوجبوا على الخلق حملَ بطاقات التَّعريف الوطنيّة كلَّما خرجوا من بيوتهم ومنعوهم عن الخروج من حدود الوطن إن لَم يكن معهم جواز سفَر، فلا يحقُّ لإنسان أن يسيح في أرض الله ما لم تأذَن له الدَّولة. لَم يحدُث هذا قطُّ في تاريخ البشريَّة ولَم يبلُغ الطُّغاة في أيّ زمن ما بلَغوه من بَغي رجال السياسة على العباد في هذا العصر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ! مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس 23] فلا تقلْ "أنا في أرض الجزائر أو فرنسا أو السعوديّة.." لا تعتَرفْ بتلك الحواجز والبطاقات والجوازات؛ سرْ في أرض الله وقل للناس ما ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا؛ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ!﴾ [الأعراف 128] في الدنيا

[1] خرجه وابن حبان في البعث والبغوي والحاكم وهو عند مسلم بغير الزيادة عن جابر بن عبد الله.

والآخرة، ولا يكون تقيًّا إلا مَن كفر بالطاغوت وآمن بالله ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ؛ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ! فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، لاَ انفِصَامَ لَهَا؛ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ!﴾ [البقرة 256] جاء في بعض كتب الأوائل أن الملِك إسكندر المقدوني ذهب لزيارة دْيُوجين الحكيم الزاهد فوجدَه مُستَلقيًا على ظهرِه يتشمَّس، ليس بينه وبين الأرض حائل، فقام إسكندر مُعترِضا بين ديوجين والشَّمس وأظلَّه بشخصِه وقال "أراك في فاقة كبيرة! هل لك من حاجة؟" قال "لا، وتَنحَّ عن شمسي!" فعجِب الحاضرون من جُرأة ديوجين على مَلِكهم فالتفتَ إسكندر إليهم قائلا "لو لم أكن الملِكَ إسكندر لَوددتُ أن أكون ديوجين!" الحكيم الزاهد أكبر من أعظم ملك في تاريخ البشر، والتَّقي أعظم من أعظم حكيم زاهد؛ فامتَلِك نفسَك تَملِك العالَم برمَّته، ولن يكون ذلك إلا بتَرك الدّنيا. هكذا التحرُّر والراحة من الدنيا وأعبائها وأبنائها، فمَن كان كذلك لَم يقوَ عليه أحدٌ من الطُّغات لأنّه لا مَمسكَ لهم عليه.

إنّ الحياة للحُرِّ حَقٌّ واجِـــب ... والْحقُّ أغلبُ قاهرُ السُّـــلطانِ
ما للقويِّ إذا تَـــجاوَز حَدَّه ... يبغي التسلُّطَ بالحَكيم يَدانِ!

الهجرة

حدَّثني عبدُ الرزاق الحلبي عميدُ الجامع الأمَوي كتابةً، وقد كنت أرجو لو كان سماعا، لكن كان لِقائي به إبّان شنِّ أمريكا وحُلفائها –وكانوا أكثر من ثلاثين دولة من بينِها العديد من الدول العربيَّة– هجومَها الوحشي على أهل العراق. كنتُ حينها بدمشق فدخلت على الشيخ عبد الرزاق مكتبَه وطلبت منه أن يحدّثني بخبر مُسنَد عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وكانت ضحوَة الخميس ثاني رجب 1411 غداةَ الهجوم الأمريكي على بغداد فقال حينها "يا أخي، البال مشغول..." واعتذر على عدم إمكانِه تحقيق مطلَبي. قضيت بعدها أيّاما بدمشق ثم غادرتُها إلى اللاّذقيّة لأستقلَّ سفينة للعودة إلى الجزائر، لكن حصل لي ولجماعة كانوا معي متاعب لما وصلنا إلى الاسكندريَّة. قد منعتنا وزارة الداخلية بمصر من النزول وما ذاك إلا لأجل أن الدولَ التي

ننتسب إليها، أي الجزائر وفلسطين والسودان وتونس والمغرب لَم تلتَحق بالحِلف ضدّ العراق وراءَ أمريكا! فبقِينا محبوسين بالسفينة لمدَّة أسبوع. وكانوا يريدون رَدَّنا في نفس السفينة إلى اللاَّذقيّة، أي الإلقاءَ بنا في أيدي المخابَرات السورية ليعبَثوا بنا كما يشاؤون، فلَم نقبل ذلك لا أنا ولا غيري من رُفقائي. وبعد أيام من الأخذ والردّ عرضتُ على أحد ضباط الشرطة الذين كنا نتباحث معهم سُبلَ الخروج من مأزَقِنا أن يطلُبوا من السلُطات الليبيَّة أن تدَعنا نعبُر حدودَها وأن يُرافِقنا حرسٌ من الجيش أو الشُّرطة إلى معبَر السَّلّوم، حتى يأمن المصريّون أنّنا لَن نمكُث في أرضهم. لم يُجبني الضابطُ بشيء حينها إلا أنَّه وجد العرض جيّدا، وبعد يوم رجع إليّ وأخبرني أنَّه الحلّ وأنّ الليبيّون قبِلوا أن نعبُر أرضَهم، فحجَزوا لنا حافلَة ودفَّعونا أُجرتَها كاملةً وأجبرونا على إطعام الحُرّاس الذين كُلِّفوا بمرافقتنا!!

وبعدما رجعت إلى الجزائر أخبرت صديقا لي بما حصل وأنَّه ظلَّ اجتماعي بعبد الرزاق الحلبي ذا مرارة حيث لم أحظَ بسماع حديث مسنَد منه، فدلَّني على الكتابة للشيخ عبر البريد ففعلت وذكَّرتُه بما كان بيننا بمكتبِه في المسجد الأموي. فأجابني في شهر ذي القعدة من تلك السنة قائلا "إلى الأخ صخر... هذا حديثًا –كذا– أرويه سَماعًا عن عبد الله الهَرَوي قال حدثنا توفيق الهبري عن يوسف بن إسماعيل النَّبهاني عن أبي الخير عابدين عن والده أحمد بن عابدين عن محمد بن عابدين عن شاكر العقاد العمري عن أحمد العطار عن إسماعيل العَجْلوني قال حدّثنا عبد الغني النّابُلسي عن محمد بدر الدين الغَزّي عن والده محمد نجم الدين عن زكريا الأنصاري قال حدّثنا أحمد بن حَجَر العَسْقلاني قال حدثنا إبراهيم بن أحمد التَّنُوخي عن أحمد بن أبي طالب الحجّار عن الحسين بن المبارك الزَّبيدي عن عبد الأوّل بن عيسى السِّجْزي عن عبد الرحمن بن محمد الداودي عن أحمد بن حَمُّويَه السَّرَخْسي عن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مَطرٍ الفرَبْري قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري رحمه الله قال حدثنا الحُمَيدي عبدُ اللهِ بن الزُّبير قال حدثنا سفيان قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال أخبرني محمد بن إبراهيم التَّيْمي أنه سمع عَلقَمة بن وَقّاصٍ اللَّيْثي يقول سمعتُ عُمَر بنَ الخَطَّاب رضي الله عنه على المِنبَر قال: سمعتُ رسولَ الله صلى

الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمالُ بالنّيّات، وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى؛ فمَن كانت هِجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، فهِجرتُه إلى الله ورسوله! ومَن كانت هجرته لِدنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكِحُها، فهِجرتُه إلى ما هاجر إليه!»[1]"

مِن الغريب جدّا أنَّ العلماء لا يكادون يَضَعون كتابًا إلاَّ وجاؤوا فيه بهذا الخبر، ومع أنّ سببَ وُروده ومَدارَه على الهجرة فإنّهم جَعلوه حاكمًا على الأعمال كلِّها إلاّ الهجرة! ذلك لأنَّها في نظرِهم لَم تَعُد مشروعة فضلا عن أن تكون واجبة؛ وهذا من أغرَب الأمور، ولكن لا غَرابةَ، فلَقد عملَ التقليدُ عملَه ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعد. يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا!﴾ [التحريم 6] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كُلّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رَعِيَّتِه؛ الإمامُ راعٍ ومَسؤولٌ عن رَعيّته، والرَّجُل راعٍ في أَهلِه وهُو مَسؤولٌ عن رعيَّتِه، والْمَرأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيتِ زَوجِها ومَسؤُولة عن رعيّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِه ومَسؤُولٌ عن رعيته!»[2] وعليه، فلا عُذرَ لأحد في إهمال نفسه أو أهله بحجَّة أن النظام الذي فرضته الدّولة يحول بين الناس في مجال التربية مثلا. بل واجبُ كل فرد الرِّعاية لما هو مُكلَّفٌ به، لا من قبل الدَّولة، ولكن من قبل الله تعالى الذي جعلَه في ذلك الموضع وكلّفه؛ فرَبُّ البيت مجبورٌ على أن يُعلِّمَ أهلَه وأولادَه حُدودَ الله، وأن يَحجُزَهم عن الوُقوع في الحرام، وأن لا يُطعِمَهم إلا حلالاً طيِّبا.

ونرجع فنُذكِّر بأنّ أكثر ما يقع فيه الناسُ من حرام في هذا الزمان أكلُ الرِّبا الذي هو كبيرةٌ من كبائر الذُّنوب كما سبقَ بيانُه. وليس ذلك من العيشِ، بل هو الْمَوتُ بعينه لقول الله جلَّ وعلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ، إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا!﴾ [النساء 29] فالآيةُ تدلُّ على أنّ أكل المال بالباطل قَتلٌ للنفس. ففي كلِّ معصية مَوتٌ كما أنَّ في كل طاعةٍ حياةً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا،

[1] خرجه البخاري في أوّل صحيحه ومسلم وأصحابُ السنن وغيرُهم.

[2] خرجه البخاري في الجمعة ومسلم عن عبد الله بن عمر.

اسْتَجِيبُوا لِلَّه وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ!﴾ [الأنفال 24] ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَاب، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ!﴾ [البقرة 179]

وإنَّ مِن قَبيل ذلك القتلِ تَرْكَ الذُّرِّية بدون تعليم للدين ولا تحذير ولا تخويف من عَواقب مُعايَشة الكفّار، وقد نهى الله تعالى عن هذا فقال ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَق؛ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ! إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا!﴾ [الإسراء 31] والإملاقُ هو والفقر والْحاجَة. فالخوفُ إذَن على الأولاد من الفَقرِ ليس حُجَّةً، خاصَّةً وقد ضمِنَ الله تعالى الرِّزقَ لكلٍّ مِن ربِّ البيت وأهله وأولاده فقال ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ!﴾ فلا عُذرَ في تركهم ينشَؤون في الحرام ويأكلون الرِّبا ويَخوضون في حدود الله مع الكفَّار، وإلاّ كانوا مِثلَهم ومنهم.

فإن قيلَ: وكيف يستَطيع ربُّ العائلة شِراءَ بيتٍ يُؤويها فيه بدون أن يستَدين، ولا أحدَ يُسلِف إلاَّ بفائدة؟ فجوابُه أنّ الكِراء مُتوفِّر ولا حاجة للشراء أو البناء خاصَّة لِمَن لا يملك ما يكفيه من دراهم. ثم إن أبى إلا التَّملُّك فهناك مَن يُسلِف بغير فائدة، بشرط أن تُوصلَ الرَّحمُ ويُعطَى الجارُ حقَّه ويُبَرهن كلٌّ على أمانَته. فإن تعذَّرَ هذا كلُّه فليَذهب حيث السَّعة! أفلَم يَعُد الناسُ يَستَطيعون الحياة إلاّ داخلَ هذه المجموعات الكثيفة الْمُلحدةَ والتي استَعبدها شرذمةٌ مستبدَّة بغير حقّ؟ ﴿قُلْ: لِمَنِ الأَرْضُ وَمَن فيهَا، إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ: للَّه! قُلْ: أَفَلا تَذَكَّرُونَ؟! قُلْ: مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ سَيَقُولُونَ: لِلَّه! قُلْ: أَفَلاَ تَتَّقُونَ؟! قُلْ: مَن بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْه إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ: لِلَّه! قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟! بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ!!﴾ [المؤمنون 84-90]

الحقُّ ما جاء به محمّدٌ من ربِّه، وأمّا هؤلاء، فكاذبون! فالأرضُ أرضُ الله والْمُلك ملكُه وهو تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ، أي خالقُه ومُربِّيه؛ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟!﴾ [الزمر 36] بلى والله ربِّي وهو حَسبي ونعمَ الكيلُ. فلا حاجةَ بأحدٍ إلى معصيَة الله إن أراد أن يعيشَ حياةً كريمةً، قال النبي صلى الله عليه وسلم «أيها الناسُ، اِتَّقوا الله وأَجْمِلوا في الطَّلَب؛ فإنَّ نفسًا لَن تَموتَ حتّى

تَستوفِيَ رزقَها، وإن أَبطَأَ عنها. فَاتَّقوا الله، وأَجْمِلوا في الطَّلب: خُذُوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حَرُمَ!»[1] واسمَع كيف أقسمَ الله على هذا فقال ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ! فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ!!﴾ [الذاريات 22-23]

أنا إن عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوتاً ... وَإذا متُّ لَسْتُ أُعدَمُ قَـــبرا

هِــمّتي هِــمَّةُ الْــمُلوكِ، ونَفْسي ... نَفسُ حُرٍّ تَرى الْمَذلَّةَ كُفْرَا

وإذا ما قنعتُ بالقوتِ عُمري ... فَلماذا أزورُ زَيداً وعَمْرَا؟!

مَن قرأ سورةَ الأعراف بتمعُّن علمَ أنّ أشدّ الناس بُعدًا عن الحقّ سكّان المُدن الكبيرة التي يستَقرّون فيها فيحسبون أنّهم في أمان فيغفَلون عن دينهم وما خُلقوا لَه. فمن أوائل سورة الأعراف قول الله سبحانَه ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ!﴾ [الأعراف 3] إلى قوله ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا؛ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ!﴾ [الأعراف 58] ثم ذكر نوحا فهودا فصالحا فلوطا فشُعيبا مع قومهم من أهل القُرى فقال تعالى بعد ذلك ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ! أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ؟! أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ؟! أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟! فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ! أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ؟! وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ؛ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ! تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ؛ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ! وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ!!﴾ [الأعراف 96-102] فأمثلُ طريق للسلوك يبدأ بمغادرة القُرى والهجرة إلى حيث يعبد العبدُ ربَّه.

---

[1] خرجه ابن ماجه في التجارات عن جابر بن عبد الله، ورواه ابن حبان في الزكاة، وقال الأرناؤوط: وإسناده صحيح على شرط مسلم. وخرجه الحاكم والبيهقي.

بذلك أرسل الله موسى إلى بني إسرائيل، لقد أمرَه تعالى أن يقول لفرعون بأن يُطلقَ سراحَهم، من ذلك قولُه عزّ وجل ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ: إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ؛ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ!﴾ [طه 47] فقال موسى لفرعون ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ؛ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ!﴾ [الأعراف 105] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ: آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ؟ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا!﴾ [الأعراف 123] أي ليُهاجروا ويتركوني وَحدي بلاَ عبيد فما خلَقنا اللهُ ليَستعبدَنا غيرُنا من خَلقه، بل إنّما خلقنا تعالى لنَعبُدَه هو وحدَه لا شريكَ له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ! إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ!﴾ [الذاريات 56-58] ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؛ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؟! يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى!﴾ [إبراهيم 10] فمَن عَلم أنَّ الله قد كَفَلَ الرزقَ وأَوجبَ عبادتَه، فلينهض كما فعل إبراهيمُ خليلُ الله حين يئِسَ من دَعوَةِ قومه فتركهم وضلالَهم وقال ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، وَأَدْعُو رَبِّي؛ عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا!﴾ [مريم 48] وليعتزِلْ هذه 'الحضارَة' برُمَّتها، قومَها وآلِهتَها التي يَعبدونها وشقاءَها الحقيقيَّ وملاذَّها الوَهْميَّة، وليقنَع بالعيش البسيط، فأرضُ الله واسعة.

واسمَع قولَ خالقك ورازقك تبارك وتعالى ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ؛ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ!﴾ قال سعيد بن جبير إذا عمل في أرض بالمعاصي فاخرجوا[1] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ! وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا؛ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ: الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ! وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا؛ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ! وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ!﴾ [العنكبوت 56-60] في قول الله تعالى ﴿لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ إشارةٌ إلى ترك الاهتمام بالرِّزق إذ أنَّه قد قُدِّر، فكأنَّه جلّ وعزّ يقول: لا تَحملوا هَمَّ الرِّزق، فذاك عليَّ!

---

[1] 'حلية الأولياء' ج4-ص284.

أما مَن صبرَ وتورَّعَ وتعفَّف فمَكثَ بين الناس يتحمَّل أذاهُم ويَنشُر الدينَ بينهم ويأمرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنكَر، فذاك من بقيَّة السلف الصالح كما قال الله تعالى ﴿فَلَوْلاَ كَانَ﴾ هَلاَّ كان أي ألا يكون قد بقِيَ فيكم ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ التي مَضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي أهلُ مُراقبة ومُحاسبة وخَشية من سَخط الله تعالى ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ!﴾ قد بَقَوا فيكم وهم مَوجودون ولكنَّهم قليلون، بقَوا ينهَون ويأمُرون والناسُ عنهم مُعرضون وبهم يسخَرون ولَهم يحتَقرون وإيّاهم يضطَهِدون ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ!﴾ [هود 116]

مَن كان من الذين ينهَون عن الفساد الذي عمَّ الأرض في هذا الزمان فذلك فهو المسلم وهو المُهاجر حقًّا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المسلم مَن سَلِمَ المُسلمون من لسانه ويَده! والْمُهاجر من هَجر ما نَهى الله عنه!»[1] وسلامةُ المسلمين من المُتفرِّد في مجتمعٍ أهلُه كفّار هو أن لا يفعَل ولا يقول إلا ما يُحمَد عليه أَسلافُه وأتباعُه من الصالحين. أمّا مَن عجز عن هذا وتثاقَل عن الفِرار بعيدًا عن الكُفّار وثبَّطه شيطانُه وخذَلَته نفسُه ولامَه أهلُه ورهَّبه 'النظامُ' ورغَّبه، فإنّه حَكم على نفسه بالهَلاك فسيَبقى رَهينَ حَمَأَةِ الْملاذِّ المشبوهة والمُحرَّمة، مُستغرِقًا في خدمة هذا الْمُجتمَع الضالّ، مُجتَهِدًا في العمل على بقائه ودوام إفساده، حتى يقضيَ الله عليه الْموتَ؛ فيُرسِلُ تعالى إليه مَلائكةً ليقبِضوا نفسَه ولَن يرأفوا بها وهو لَم يرحَمها.

لقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ؛ قَالُوا: فِيمَ كُنتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ! قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا! إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ؛ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا! وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ يَغيظُ به مَن غادرَهم ﴿وَسَعَةً﴾ في العَيش، وإلاَّ ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ! وَكَانَ اللَّهُ

[1] خرجه البخاري في الإيمان وباقي الستّة إلا الترمذي عن عبد الله بن عَمرو.

غَفُورًا رَّحِيمًا!﴾ [النساء 97-100] فهذا أمرٌ بالْهِجرة والأمرُ يقتضي الفَوريَّةَ، خاصَّةً وقد ظهرَ كُفرُ الْمُجتمعات عَلَناً.

وانتبه إلى قوله سبحانَه وتعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ!﴾ فمعناه أنّ الله يُجيرُ كلَّ مَن خَرج مِن أجلِه وهاجَرَ إليه فيُكرِمه ويُعطيه ما لا يتصوَّره العقلُ بشرط أن تكون النيَّة حسنَةً. ومن مليح شعر الشافعي في هذا الَمعنى:

ما في الْمَقام لِذي عقلٍ وذي أدبِ ... من راحة فدَعِ الأوطانَ وَاغتَرِبِ
سافِرْ تَجِـــدْ عِوَضاً عمَّن تُفارِقُه ... وَانصَبْ فإنّ لَذيذَ العَيش في النَّصَبِ
إنّي رأيتُ رُكودَ الماءِ يُـــفسدُهُ؛ ... إن ساحَ طابَ وإن لَم يَجرِ لم يَطِبِ
والتِّـــبرُ كالتُّرْب مُلقًى في أماكِنه ... والعُود في أرضه نَوعٌ مِن الحَطَبِ
فإن تَـــغرَّبَ هذا عَلاَ مَطلَـــبُه ... وإن تغرَّب ذاك عَـــزّ كالذَّهَبِ

والتِّبر الذّهَب والعود هو الطِّيب كالذي ينبُت في جُزر القَمر وجاوَى وأندُنيسيا والهند. ولقد قصّ النبي علينا ما جرى لِرَجلٍ قد كان أسرَف على نفسه ثم تداركته رحمة الله فختَم حياتَه بالهجرة إلى الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم «كان فيمَن كان قبلَكم رَجلٌ قَتَلَ تِسعةً وتسعين نَفسا. فسَأَلَ عن أَعلَمِ أهلِ الأرض فَدُلَّ على راهِبٍ. فأتاهُ فقال "إنّه قَتلَ تِسعةً وتسعين نَفسا؛ فهل له مِن توبة؟" فقال "لا!" فقَتلَه فكمَّلَ به مِائةً. ثم سأل عن أَعلَم أهلِ الأرض فدُلَّ على رَجل عالِمٍ، فقال "إنّه قتل مائةَ نفس؛ فهل له من توبة؟" فقال "نعم، ومَن يَحولُ بينَه وبين التَّوبة؟! انطَلِقْ إلى أَرضِ كذا وكذا؛ فإنَّ بها أُناسا يَعبُدون الله. فاعبُدِ اللهَ مَعهم، ولا تَرجِعْ إلى أرضِك فإنَّها أرضُ سوءٍ!" فَانطَلَقَ حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الْمَوتُ؛ فاختصمت فيه ملائكةُ الرَّحْمةِ وملائكةُ العَذاب، فقالت ملائكةُ الرحمة "جاء تائبا، مُقْبِلا بقلبه إلى الله!" وقالت ملائكةُ العذاب "إنّه لَم يَعمَلْ خيرًا قَطُّ!" فأتاهم مَلَكٌ في صورَة آدَمي، فجَعَلوه بَينهم فقال "قِيسوا ما بَين الأَرْضَيْنِ؛ فإلى أَيَّتِهِما كانَ أَدنَى فَهو لَه!" فقاسوه فوَجدوه أدنَى إلى الأرض التي أرادَ، فقَبَضَتْه

مَلائكَةُ الرَّحمة!»[1] وفي رواية «فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب فأوحى الله إلى هذه -يعني الأرض- أن "تَقَرَّبي!" وأوحى الله إلى هذه أن "تَباعَدِي!" وقال "قِيسوا ما بينهما!" فوُجِدَ إلى هذه أقرَبَ بِشِبْرٍ؛ فَغُفِرَ له»[2]

فرحمة الله قريبٌ ولكن على العبد أن يتوب إليه تعالى قبل أن يفوتَه الأوان ﴿قُلْ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ، لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ! وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ! وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن والسنّة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ!﴾ ومن قَبْلِ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ: يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ، وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ!﴾ [الزمَر 53-56]

قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا، إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ؛ رَبَّنَا، لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ!﴾ [إبراهيم 37] فكان سببُ هجرَته إقامةَ الصلاة، لذا كانت الهجرةُ واجبةً مهما هُدِّدَت الصلاة ولَم يستَطع المسلمون إقامتَها والدفاعَ عنها لقلَّة أو لغير ذلك من الأسباب. ثم الهجرَة من صميم التَّوبة وهي سبيلُها، ومن رحمة الله تعالى أن لَم تنقطِع الْهِجرةُ وأنّها باقيةٌ إلى يوم القيامة، وهذا ما بيَّنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقولِه «لا تَنقَطِعُ الْهِجرةُ حتى تَنقَطِعَ التَّوبَةُ! ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تَطلُعَ الشمسُ من مَغربِها!»[3] ولكن مع هذا فجمهور العلماء يرَونَ أنَّ الْهِجرةَ لَم تعُد مشروعةً لِسوءِ فهمهم لحديث رسولِ الله صلى الله عليه وسلم

[1] خرجه مسلم في التوبة عن أبي سعيد الخدري.

[2] خرجه البخاري في أحاديث الأنبياء عن أبي سعيد الخدري.

[3] خرجه أبو داود في الجهاد وأحمد والدارمي عن معاوية، وعند النسائي في البيعة وأحمد وابن حبان عن عبد الله بن وَقْدَانَ قال: وفدتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد كُلُّنا يطلُب حاجة، وكنت آخرَهم دخولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت "يا رسول الله، إني تركتُ مَن خلفي وهم يزعُمون أنَّ الهجرة قد انقطعت" قال «لا تنقطع الهجرة ما قوتِلَ الكفارُ!»

«لا هِجرةَ بَعدَ الفَتح، ولكن جِهادٌ ونِيَّة!»[1] والصوابُ أن لا مُعارضةَ بين الحديثين، فالهجرة التي انقطعت بلا شكّ إنّما هي الهجرة من مكَّةَ إلى الْمَدينة، وذلك بعد فتح مكَّة. أمَّا الهجرة من بلاد الكفر فِرارًا بالدّين وطلبًا للرّزق الحلال فباقيةٌ إلى يوم القيامة.

يقول ربُّنا جلّ وعلا ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا "آمَنَّا!" وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟! فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ! أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ! مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّه، فَإِنَّ أَجَلَ اللَّه لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ! وَمَن جَاهَدَ، فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسه؛ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ!﴾ [العنكبوت 2-6] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن خافَ أَدْلَجَ، ومَن أدلَج بَلَغَ الْمَنزِل! أَلا إنّ سِلعَةَ الله غَالِيَة؛ أَلا، إنّ سِلعَةَ الله الْجَنَّة!»[2] والإِدْلاجُ هو السَّيرُ مِن آخرَ الليل أي قَبلَ الفَجر.

فإن قالَ قائلٌ: إن كانت الْهِجرَةُ واجبةً فإلى أينَ، وكيف ستكون الحياةُ خارجَ 'الاقتصاد العالَمي' ومَرافقه التي أصبحت ضروريَّةً لا يستَطيع الإنسانُ العيشَ خارِجَها؟ تَلَوْنا عليه قولَ إبراهيم عليه السلام ﴿الَّذِي خَلَقَنِي؛ فَهُوَ يَهْدِينِ! وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ! رَبِّ، هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ!﴾ [الشعراء 78-83] فالْمَرافق لا تُفيد شيئًا إذا قَضى الله أمرًا، بل التّوكُّل أوْلَى وأجدر. ألم يبلُغك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «يَدخُلُ الْجنَّة من أُمّتي سَبعون أَلفًا بِغَير حِساب» قالوا "ومَن هم يا رسولَ الله؟" قال «همُ الذين لاَ يَكتَوُون ولا يَستَرْقُون، وعلى رَبِّهم يَتوكّلون!» فقام عُكَّاشَةُ فقال "اُدْعُ اللهَ أن يَجعلَني منهم!" قال «أنت منهم!» فقام رَجلٌ فقال "يا نَبيَّ الله، اُدعُ الله أن يَجعلَني مِنهم!" قال «سَبَقَك بها عُكَّاشَة!»[3]

---

[1] خرجه البخاري في الجهاد ومسلم عن ابن عباس.

[2] خرجه الترمذي في صفة القيامة عن أبي هريرة، وقال: حسن غريب.

[3] خرجه مسلم في الإيمان عن عِمران بن حُصينٍ، ورواه أيضا هو والبخاري عن ابن عباس، وانفرد البخاري به عن أبي هريرة. وعُكّاشَة هو ابنُ مِحْصَنٍ الأسَدي كان من سادات الصحابة وفُضلائهم.

أَلَمْ تري الحَضْرَ، إذْ أهلهُ　　　بنُعمَى، وهلْ خالدٌ مَن نَعمْ؟!

فعلى العاقِل أن يتدارك أمرَه ويَفطِمَ نفسَه من رَضاع ثَديِ العاجلَة، وأن يترفَّع عن التَّذلُّل والامتِهان للخلق، وأن يتَّبع ما جاءَت به رسلُ الله تعالى ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلاَّ﴾ أي ألم يأته النبَأ بأنَّه لا ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى؟! وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى؟! وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى؟! ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى؟! وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى؟! وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى؟! وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا؟! وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ، الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى؟! وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى؟! وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى؟!..﴾ [النجم 36-48]

أمّا معنى قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ فالإغناءُ إنَّما هو أن يَجعلَ الله تعالى الغِنَى في قلب عبده كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس الغِنَى عَن كَثرَةِ العَرَضِ ولَكنَّ الغِنَى غِنَى النَّفسِ!»[1] وأمّا الإقناء من الله فهو تَمليكُ عبدِه وإعطاؤه ما يَقتَنيه. والاستغناء أفضل من الاقتناء لقول النبي صلى الله عليه وسلَّم «مَن كانت الآخرةُ هَمَّهُ، جَعَل الله غناه في قَلبه وجَمَع له شَملَه وأَتَتهُ الدنيا وَهي راغِمَةٌ. ومَن كانَت الدُّنيا هَمَّه، جَعَل الله فَقرَه بَين عَينَيْه وفَرَّقَ عليه شَملَه، ولَم يَأته مِن الدنيا إلا ما قُدِّرَ له!»[2] أمَّا الْمُقتنَياتُ فسوف يُحاسَب عليها العبدُ يومَ العرضِ الأكبر على الله ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ!﴾ [التكاثر 8] وهي عوارِضُ زائلة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ، وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ! وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ!﴾ [النحل 96]

ودَعِ الْمَطارِفَ والْمَطِيَّ لأَهلِها　　　وَاقْنَعْ بِأَطْمارٍ ولِبْس نِعال
فهُم وأنتَ وفَــقرُنا وغناهُمُ　　　لا يَستقِرُّ ولا يَدوم بِحال
مَن لا يُراقِب ربَّه ويَخافُــهُ　　　تَبَّت يَداه وما له مِن وال!

قد ظَهر الفساد وتحقَّقت الْمَخاوف وحلَّت الوُعود فآنَ للناسِ أن يَرجعوا إلى صَوابِهم ويتواضعوا لله ربِّهم ويتوكَّلوا عليه تعالى حقَّ التوكُّل، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

[1] خرجه البخاري في الرقاق ومسلم عن أبي هريرة.

[2] خرجه الترمذي في صفة القيامة عن أنس بن مالك.

«لَو أَنَّكم كُنتم تَوَكَّلون عَلى الله حَقَّ تَوَكُّله، لَرُزقتُم كما يُرزَقُ الطَّيرُ؛ تَغدُو خِماصًا وتَروحُ بِطانا!»[1] تُغادرُ أوكارَها بُكْرَةً وهي جياعٌ فترجع عَشيّةً وهي شِباعٌ؛ فلا تدَّخروا! ﴿وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟! أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ؟!﴾ [النمل 64] ليس الرزقُ بيد الدَّولة حتى تنتظروا منها أن تُغيثَكم، بل هذا وَهْم! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والَّذي نفسي بِيَده، لأَن يَأخُذَ أَحَدُكم حَبلَهُ فيَحتَطِبَ على ظَهرِهِ، خَيرٌ لَه مِن أن يَأتِيَ رَجُلاً أَعطاه اللهُ مِن فَضلِه فَيَسأَلَه؛ أَعطاهُ أو مَنَعَه!»[2]

وما الدَّولة إلاّ هؤلاء المُوظَّفون الذين يمنّون إذا أعطَوا ولا يمتنعون أن يأخُذوا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يُوشِكُ أن يَكون خَيرَ مالِ الْمُسلِم غَنَمٌ، يَتبَعُ بِها شَعَفَ الْجِبالِ ومَواقِعَ القطْرِ؛ يَفِرُّ بدِينِه مِنَ الْفِتَنِ!»[3] وشَعَفُ الجبال هي شِعابُها حيث الماء. وقال صلى الله عليه وسلم «احفَظِ اللهَ يَحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَك! إذا سَأَلْتَ فَاسأَلِ اللهَ، وإذا استَعَنتَ فاستَعِن بِالله! وَاعلَمْ أنّ الأُمّةَ لو اجْتَمَعَت على أَن يَنفَعوك بِشيءٍ، لَم يَنفَعوك إلاَّ بِشَيءٍ قد كَتَبَه اللهُ لَكَ! ولَوِ اجْتَمَعوا على أن يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ، لَم يَضرُّوك إلاّ بِشيءٍ قد كَتَبه الله عَليك؛ رُفِعَتِ الأَقلاَمُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ!»[4]

أُقسِم بالله لَـــرَضْخُ الـــنَّوَى — وشُربُ ماءِ القلَبِ الْمالحَة
أعَـــزُّ للإنسان مِن حِرْصِه — ومِن سؤال الأَوْجُهِ الكالحَة
فَاستَغْنِ باليَأسِ تَكُن ذا غِنًى — مُغتَبِطاً بالصَّـــفقَة الرابِـــحَة
اليأسُ عِـــزٌّ والتُّـــقَى سُؤْدَدٌ — ورَغْـــبَةُ النفسِ لَها فاضِحَة
مَـــن كانتِ الدنيا بِه بَـــرَّةً — فإنَّـــها يَـــوما له ذابِـــحَة!

---

[1] خرجه الترمذي في الزهد وصححه، ورواه ابن ماجه وأحمد عن عمر بن الخطاب.

[2] خرّجه مالك في الجامع عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، والبخاري والنسائي من طريقه.

[3] خرجه مالك في الجامع والبخاري وأبو داود النسائي، عن أبي سعيد الخدري.

[4] خرجه الترمذي في صفة القيامة وصحّحه ورواه أحمد عن عبد الله بن عباس.

قال كان محمد بن كعب: الدنيا دارُ فَناء ومترل بُلغة؛ رغِبت عنها السُّعداءُ، وأسرعت من أيدي الأشقياء. فأشقى الناسِ بها أرغبُ الناس فيها، وأسعدُ الناسِ فيها أزهدُ الناس بها. هي الْمُعذِّبة لِمَن أطاعَها الْمُهلِكة لِمن اتَّبَعها الخائنَة لمن انقادَ لَها. علمُها جَهلٌ وغناؤها فَقرٌ وزيادتُها نُقصانٌ وأيّامُها دُوَل![1] فسَلِ الله وادعُهُ واضْرَعْ إليه تبارك وتعالى كَي يربطَ على قلبك ويَهُوّنَ عليك ترْكَ ما أنت فيه من عادَة، كما فعلَ بالفتية الذين اعتزَلوا قومَهم حين تبيَّن لهم أنَّهم على باطل وذلك قوله تعالى ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ، إِذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؛ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِه إِلَهًا، لَقَدْ قُلْنَا إِذَن شَطَطًا! هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا، اتَّخَذُوا مِن دُونِه آلِهَةً! لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ؛ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟!﴾ فتقبَّلهم الله تعالى وآواهُم فقال ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أي أمّا الآن وقد هَجَرتم هؤلاء المشركين وآلهتَم ووحَّدتُموني ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ؛ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِه، وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا!﴾ [الكهف 14-16]

فانتَبه جيّدا لقول الله تبارك وتعالى ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا!﴾ واعتَبره، فهل عرفتَ الآنَ أين الْمَرافِق التي كنتَ تظنُّ أنّها لا تكون إلا داخلَ المجتَمعات الْمُتحضِّرة؟ فلا تكوننَّ من الْمَغرورين وكن ذا فُتوَّة وَهشِّم رؤوسَ الأصنامِ التي لا تضرُّ ولا تنفع وابدَأ بنفسك فسلِّمها إلى ربِّها كما كان إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمْ! قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ!﴾ [البقرة 131] ثم بعدما تمكَّن من نفسه فغلبها انبَرى لأصنام قومه فكَسرَها وهشمها وجعلَها جُذاذًا ﴿قَالُوا: مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ! قَالُوا: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ!﴾ [الأنبياء 59-60]

أقوى الورَى وأشدُّهم في عَقده ... مَن صيَّر الأصنامَ فيه جُذاذا
هجرَ الوَرَى مُتفَـــرِّداً مَعْ ربِّه ... لَمْ يتَّخذْ غيرَ الإلَـــه مَعاذَا
لَم يَبغِ إلا الرحْـــمنَ مُهَيمِـــناً ... فأقامَـــه في خَـــلقِه أُستاذا

---

[1] 'حلية الأولياء' ج3-ص213.

فياحبَّذا فتيةٌ كأصحاب الكهف وإبراهيم، وياحبَّذا رجالٌ من جنس مُحمّد والْخُلفاء الراشدين والصحابة، أو غيرُهم ممّن نَعتَهم الله تعالى لنا في كتابه العزيز فوصفَهم بأنَّهم مُعظَمَ أوقاتهم ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ وهي المساجدُ التي يُعبد فيها بأحبِّ الطاعات وهي الصلوات الخَمس والجُمُعات ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ فبُنيَت بإذنه تعالى ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أمَر أن يَجهَر فيها بالتَّكبير والتحميد وتِلاوة القُرآن باسمه 'الرَّحمن' ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ يُصلّي له في مَساجده جَماعَةً ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ في الأوقاتِ الخَمسِ والتي هي الصبح غُدوَةً وباقي صلواتِ اليوم والليلة، فأَفردَ الغُدُوَّ وجَمَع الآصالَ ﴿رِجَالٌ﴾ هم الرِّجالُ ذَوُوا المروءَة والفُتُوَّة والنَّجدة والصِّدق والصَّبر والأمانَة والعِفَّة والعَفاف، وهم الذين ﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فليسوا نُسَّاكًا مُتعبِّدين مُتَمَسكِنين يأكلون من صَدَقات الناس، بل هم تُجَّارٌ وأُمراء وأصحابُ وظائف وحِرَف وصناعات، يأكلون ويُطعمون من عمل أيديهم ويسعَون بين الصلوات في طَلب الرِّزق الْحَلال مُتوكِّلين على الله، فلا يُلِحُّون في طلَب الفَضل من الدُّنيا ولا يَنهَمِكون في مَلاذِّها، بل يأخُذون منها قَدرَ حاجَتِهم حتَّى لا يُلهيَهم ذلك عن ذكر ربِّهم سُبحانَه ﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾ مُعلَّقةً قلوبُهم بالجماعة رُوّادَ المساجد لا يَتَوانَون في الدَّعوة إلى الله، لا يَفتُرون عن أمر الأهلِ والجيران والْمَعارِف بالصَّلاة جَماعَةً حيثُ أَمَر تعالى؛ قيامًا عليهم بالتَّذكير بها ليَبقَوا مُحافِظين عليها ما عاشُوا. لا يُلهيهم طلبُ الرِّزق عن إقامةِ الصلاة ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ التي تشمل الدَّعوة والأمر بالَمعروف والنهي عن الُمنكَر والجهاد والهجرة والتِّجارة والطهارة والأنكِحة والفرائض والحقوق وصدقَةَ الأموال والآداب الشرعيّة، وكلّ ما يطرأ على المسلم في خاصَّة نفسه ومع الناس، قائمين بذلك لأنّهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ لعلمِهم بأنَّ حياتَهم الدنيا فانية وأنّهم سيُرَونَ يومَ القيامَة أعمالَهم، ما أظهَروا فيها من أفعالٍ وأقوالٍ وما أضمَروه من نَوايا وأحوال، فأشفَقوا من الْمَعاد لكَونهم بشَرًا ضُعفاءَ البنية كَثيري الخطأ والنّسيان. لذا أكثَروا من فعلِ الخيرات عسى أن يَغفرَ الله لهم ما أسلَفوه ويحفَظهم فيما يستَقبلُهم من باقي أعمارِهم، فهم يعملون رهبةً ممّا هنالك ورغبةً ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ فيأخُذوا أجرَهم على ما تقبَّلَ الله

منهم مِن صلاة وزكاة وصَوم وحجٍّ. ومع أنّ هذا كلَّه من فَضل الله عليهم فقد تتوالى عليهم رحماتُه ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ فيُحِلّ عليهم رِضوانَه فيَدخُلوا به جنَّةَ الخُلد، ولولا فَضلُ الله ما قَامَت أعمالُهم بأدنَى نِعمةٍ مِن نِعمِه جلَّ جلالُه ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ!﴾ [النور 36-38]

فالعاقل مَن لَم يركَن إلى الدُّنيا وأهلِها، فإنَّها متاع الغُرور وإنَّهم أعوانٌ للعدوّ عليه، علِموا ذلك أم لَم يعلَموا، فيكونون أسباب الهلاك مِن حيث لا يشعُرون. وذلك لما هم عليه من اتِّباع للهوى وركض وراء الملاذّ، قلَّما يوجد فيهم مَن يصدُق فضلا عمَّن ينصَح. مَن رغِب فيما عند الله تعالى آثرَ الوحدة والوَحشة لينظر في نفسه كيف يقتَلع منها جذورَ الشر ويقطَع أسباب الهلاك، فإذا فعلَ وجد أن أوَّل ذلك الحِرصُ والطَّمع. قال الحارث بن أسد الْمُحاسبي: تعاهَد يَا أخي قلبَك بأسْباب الآخرَة وعرِّضه لذَلك، وصُنْهُ من أَسبَاب الدّنيا ومِن ذِكرٍ يَجُرُّ إلى الحِرْص والرَّغْبَة. ولا تَأذَن لقلبك في استِصْحَاب مَا يَعسُر طَلَبُه ويَنطَفِئ نورُ القلب من أجْله وكن في تأليف مَا بَينه وبَين مَحْمُودِ العواقب حَرِيصا. وخَوِّف نفسَك عُقوبةَ ما في يَدَيْك من الدنيا وقلَّة أدائك لِما يَجبُ عليك فيه من الشّكرُ. واستكثِر مَا في يَديك لِما تَعلَم من ضَعْف شُكرِكَ، فتَشتَغِل النفسُ بما في يَديْها عن الفِكر في أَمر الدنيا والمحبة للزِّيَادَة منها. فَإذا أَجْمَمتَها مِن ذِكر الزِّيادة من الدُّنيا وحَمَلتَها على درجَة الخَوف ممّا في يَديها، قَنعَتْ ورَضِيَت وعَفَّتْ عَن طلب الدنيا بالحِرص والرغبَة، ورَجَعَت إلى الآخرة بالحِرص عليها والرَّغْبة فيها فإنّ النَّفس مَبنيَّة على أَساس الطَّمع.

ومَخرَجُ الحرص والرغبة مِن الطمع، وبِنَاء الأنفُس قائِمٌ على قَواعِد الطَّمَع، أما الطّمع في الدنيا فيَستَعمِل أَداةَ الطمعِ في طَلَب الزِّيادَة مِن الدنيا، وأما الطمع في الآخرة فيَستَعمل أداةَ الطمع في طلَب الزيادة من أعمال الآخِرة بالحِرص عليها والرغبَة فيهَا. قيل لحكيم "فما آلةُ الطمع وجِماع آفاته؟" قالَ "الشَّرَهُ والحِرْص وهَيَجانُ الرغْبة؛ فعلى أَيِّها أوْقَعت النفسُ طَمَعَها أحضَرَت أداتَها وجَمعَتْ آلَتَها وجَدَّت في طَلَبِها." فَإذا قَهرَت صاحِبَها على مُوافقَة هَواهَا استَعْبَدَتْهُ فأذْهَلَتْه

وأَذَلَّتهُ وأدهَشَتْه وأَتْعَبَته وطَيَّشَتْ عَقلَه ودَنَّسَتْ عرضَه وأَخْلَقَتْ مُروءَتَه وفَتَنته عَن دينه، وإن كانَ عالماً لَبيبا عَاقلاً كَيِّسا فَطِناً فَصيحا حَكيماً فَقيها؛ لَوَّثَته وأسقَطَتهُ وفَضَحَته. فاحْتمَل لها ذلك كلَّه وهو الأَريبُ العالمُ الأديب، فصيَّرَتْه بعدَ العلم جاهلاً سَفيها أَحْمَقَ خَفيفا. وذلك أَنّها سَقَته من مُوافقَة هَواها كأسًا سُمًّا صِرْفا، فاستمالَتْه فَمال بعِلْمه وعَقله وفَهْمه ونَفاذِ حكمَته وبَصَره، فأجْراه مَجرَى هَوَى نَفسه، فعَجَّلت له الفَضيحة في عَاجل الدنيا عند حُكمائها وعُقلائها وأَسقطَتْه من عَين الله وأَعيُن عِبادِه من أهلِ البَصائر، وأخَّرَت له آجلَ النَّدامَة الطَّويلة عندَ مُفارقَة الدنيا وفي عَرَصات القيامة.

فَإذا قطَع عليها العبدُ الطمَع من أسباب الدنيا وغَلَب بعَقله هَواها، رَجَعَت بطَمَعها إلى أسباب الآخرة لا مَحالَة، لأنّها بُنيَت على الطَّمع. فإذا تَجرَّدَت من أسباب الدنيا وأَقبَلت على نَفسها بالإياس من المخْلوقين رَجعت برَغبَتها وطَمَعها إلى أَسباب الآخرة، فجدَّت في طلبها واجْتهَدت وعَزَفَت عن الدنيا وبايَنت الهَوَى وخالَفت العدُوَّ وتَبعَت العلمَ وكانت مَطِيَّةً للعقل صابرةً على مُرِّ ما يَدُلّ عليه الحَقُّ فنَجَت وأَنجَت.[1]

والحقُّ أفضَلُ ما قَصدتَ سَــبيلَهُ ... واللّهُ أكرَمُ مَن تَزورُ وتَنــتَجعْ
فامهَدْ لنفسِك صالحاً تُجزَى به ... وانظُرْ لِنَــفسك أيَّ أمرٍ تــتَّبِع
وامْنَعْ فؤادَكَ أن يميلَ بك الهوَى ... وَاشدُدْ يدَيك بحَبلِ دينك والورَع
وَلئن طَمعتَ لَتُصرَعنّ، فلا تكُن ... طَمعاً، فإنّ الْحُــرّ عَبدٌ ما طَمع
إنّا لنلْقَى الْمَرءَ تَــشرَهُ نفسُه ... فيَــضيق عنهُ كُلُّ أمْرٍ مُــتَّسع
والْمَرءُ يَمنعُ ما لَديه ويَــبتَغي ... ما عند صاحبه ويَغضَبُ إن مُنِع
ما ضَرَّ مَن جَعَلَ التُّرابَ فِراشَهُ ... ألاّ يَنــامَ على الحَريرِ إذا قَــنِع!

---

[1] 'آداب النفوس' ص46-48، دار الجيل، بيروت.

النفس

إذا تأكَّد الإنسان من ضرر الناس عليه تمكَّن بسهولَة من هَجرهم، ولكنّ عُزلَتَه لا تعني خَلاصَه، بل سيبقى أسيرَ نفسِه وإن ترك الأوطان وفارق الخِلاّن، ولا سبيلَ لَه من التَّخلُّص من نفسه بالهُجران. وإن كانت نفس العبد أعدى أعدائه في الحقيقة، فإنَّ إصلاحها أمرٌ عظيم، فهو أمرُّ الجهاد وأطولُه وأدقُّه وأشكلُه. وعند الفكرة نعلَم يقينًا أن النفس هي حجر العثرة الذي لا يكاد يتجاوزه العبد، فلو كانت طيِّبةً زكيَّة ما احتاج صاحبُها إلى هجر الناس، بل ولا جاز له ذلك في أغلب الأحيان، لكون الناس في حاجة إليه لأنَّه التِّرياق الذي به حياتُهم، والملح الذي إذا فُقِد فسد البلاد والعباد.

بلغنا عن ذي النون المصري أنه قال "الناس كلُّهم موتَى إلا العلماءَ، والعلماء كلهم نيام إلا العاملِين، والعاملون كلُّهم مُغتَرّون إلا الْمُخلِصين، والمخلصون على خَطَر عظيم؛ قال الله عزّ وجل ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب 8]"[1] المسألة كل المسألة في الصِّدق! قال أبو العباس ابنُ العَريف مُعقِّباً: قلتُ: والعَجَب ثم العَجب مِن أربعة، أحدُهم عاقلٌ غيرُ عالِم؛ أما يَهتَمُّ بمعرفة ما بين يديه، أما يتعرَّف ما هو مُطَّلِع عليه عند الموت بالنظرِ في هذه الدلائل والعبر والاستماعِ إلى هذه الآيات والنُّذُر والانزعاجِ لهذه الخَواطِر والهَواجِس وحَبْسِ النفس؟! قال الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ؟! مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ! أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟! كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً! وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا! وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ! ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ؛ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ

---

[1] رواه البيهقي في 'شعب الإيمان' ر6868 وابن عساكر في 'تاريخ دمشق' وابن العريف في 'محاسن المجالس' ص104-105 طبعة أ. بلاثيوس، غوتنر، باريس.

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ! وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ!﴾ [الروم 8-12] وقال تعالى ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟!﴾ [المطففين 4-5] والثاني من عالِمٌ غيرُ عاملٍ؛ أما يتذكَّر ما يعلم ممّا يَلقى بين يديه من الأهوال العظام والعَقَبات الصِّعاب؟! وهذا هو النبأ العظيم الذي أنتم عنه مُعرضون –يريد قولَه تعالى ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص67-68]. والثالث من عامل غيرِ مُخلص؛ ألا يتأمَّل قولَه تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا، وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا!﴾ [الكهف 110]. والرابع من مُخلص غيرِ خائف؛ أما ينظُر في مُعاملاته جلَّ جلالُه مع أَصْفيائه وأوليائه بينه وبين خَلقه حتى يقولَ لأكرم الخلق صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ! بَلْ، اللَّهَ فَاعْبُدْ! وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ!﴾ [الزمر 65-66] الآيات ونحوها، حتى كان النبي يقول «شَيَّبَتني سورةُ هود وأخواتُها»[1] يُريد قولَه ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ!﴾ [هود 112]

ثم جُملة الأمر وتفصيلُه ما قال ربُّ العالَمين في أربعِ آيات من الكتاب العَزيز: قولُه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ؟!﴾ [المؤمنون 115] ثم قال جل اسمه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ! إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ!﴾ [الحشر 18] ثم قال جل من قائل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا!﴾ [العنكبوت 69] ثم أكمل الكلَّ فقال وهو أصدقُ القائلين ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ! إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ!﴾ [العنكبوت 6][2] انتهى كلام ابن العريف، قلت: وهذه الآية جاءت قبل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ من سورة

[1] خرّجه الحاكم في التفسير عن ابن عباس قال: قال أبو بكر الصديق لرسول الله "أراك قد شِبْتَ؟" قال «شَيَّبتني هود والواقعة و﴿عمَّ يتساءلون﴾ و﴿إذا الشمس كُوِّرت﴾» وصححه ووافقه الذهبي، والترمذي وحسَّنه، وجاء بلفظ «شيبتني هود وأخواتها» رواه البزار عن أنس عن أبي بكر، والطبراني في 'الأوسط' عن مسروق عن أبي بكر، وفي 'الكبير' عن سهل بن سعد وعن عقبة بن عامر وعن أبي جُحيفة، والبغوي في 'شرح السنّة' عنه، والبيهقي في 'شعب الإيمان' عن أبي علي السري.

[2] 'محاسن المجالس' ص104-105 طبعة أسين بلاثيوس، غوتنر، باريس.

العنكبوت والتي مَطلعُها ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا "آمَنَّا" وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟! فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ!﴾ والتي آخرُها ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فذكر الله فيها قَصص الأنبياء وكيف قابَلوا الفتَنَ بالصبر الجهاد في ذاته تعالى وكانوا محسنين، فهداهم الله وخرجوا منها بالظَّفَر المبين.

قال يحيى بن معاذ الرازي: أيها الْمُريدون طريقَ الآخرةِ والصدقِ والطالبون أسبابَ العبادةِ والزهد، اعلَموا أنه مَن لم يُحسِن عقلَه لم يُحسن تعبُّدَ ربِّه، ومَن لم يَعرف آفةَ العمل لم يُحسِن يَحترز منها، ومَن لم تصحَّ عنايتُه في طلب الشيء لم ينتفع به إذا وجدَه. واعلموا أنكم خُلقتم لأمر عظيم وخَطر جَسيم، وأن العلم لم يُرَدْ ليُعلَم إنما أريد ليُعلم ويُعمَل به، لأن الثوابَ على العَمَل بالعلم يَقَعُ، لا على العلم. ألا ترى أن العلم إذا لم يُعمَل به عادَ وَبالاً وحُجَّة؟! وانظروا ألاّ تكونوا، ممّن قد ترَكوا لذَّة الدنيا ونَعيمَها ثم لا يَصدُقُ طَلَبُكم بالآخرة؛ فلا دنيا ولا آخرة! وفكِّروا فيما تَطلُبون، فإنّ مَن لم يعرف خَطرَ ما يَطلُب لم يَسهُل عليه الجَهْدُ في جَنب طلَبه. واعلَموا أنه من لم يَهُن عليه الخلقُ لم يَعظُم عليه الرَّبُّ، ومن لم يكن طلبُه في طريق الرَّغبة والرَّهبة والشَّوق والمحبة كان مُتحَيِّرًا في طلَبه مُخَلِّطًا في عَمَله، لا يَجد لذَّةَ العبادة ولا يَقطَع طريقَ الزَّهادة. فاتَّقوا الله الذي إليه مَعادُكم وَانظُروا ألاّ تكونوا ممَّن يَعرِفُهم جيرانُهم وإخوانُهم بالخير والإرادة والزهادة والعبادة، وحالُكم عند الله على خِلاف ذلك، فإن الله إنما يَجزيكم على ما يَعرفُ مِنكم لا على ما يعرفه الناسُ. ولا تَكونوا مِمّن يُولَع بصَلاح الظاهر، الذي إنما هو للخَلق ولا ثواب له بل عليه العقاب، ويَدَعُ الباطِنَ الذي هو لله وله الثواب ولا عقاب عليه![1]

هذا كلام نفيس وموعظة عزيزة من أحد أحسن الناس بيانا وأتمهم برهانا، من رجل كابَد العبادات وعلم ما فيها من علل وجاهد النفس وعلم ما فيها من عيوب وآفات، وأن العلمَ كلَّ العلم أن يعرفَ العبد كيف يعبد ربَّه وما الذي يجعل عبادَته صحيحة خالصة مقبولَة فيتفادى ما يدخل عليها من عيوب وعلل تُميتُها في حينها أو بعد حين. وهو علم بتهذيب النفس وتصفية

---

[1] 'حلية الأولياء' ج10-ص55.

القلب من الصفات المذمومة وتنبيه على ما يعرض للعبادات والمعاملات من الآفات المهلكة كالكِبْر والرياء والعُجب، وتعريف بالطرق المخلِّصة من ذلك؛ لذا كان أنفعَ العلوم وأجلَّها. فإن لَم يبحث العبد في عيوب نفسه وعلل أعماله ظنّ أنَّه سيبلُغ شيئًا بنفسه بينما هو قد ضلَّ السبيل وهلك ولَم يدرِ، أليس ذلك قول الله لنبيّه محمد ﴿قُلْ: لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف 188] أي لا أملك من نفسي لنفسي شيئًا على الإطلاق، ولا أملك إلا ما شاء الله تعالى أن يملّكني إيّاه.

قال شُعيبٌ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود 88] أصلُ التَّوفيق التقارب والتلاؤم رغم المفارَقة، فهو تفعيلٌ من الوِفاق، حيث يأتي العبدُ مَحابَّ الله وِفقَ ما شَرعه تعالى فتصلُح له العبادة ويتقبَّلها منه ربُّه، قال أبو حامد الغزالي: يصير الفكر موافِقا للطبع فيميل القلبُ إليه، ويعبَّر عن السبب الذي أوقَع الْمُوافَقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بـــ'التوفيق'، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعةٌ نافعة في الآخرة.[1] فانظُر إلى دقَّة كلام شعيب وبراعة بيانه، ولا غَروَ فإنّه عليه السلام خطيبُ الأنبياء، جاء مرّتين بصيغة النفي والإثبات فقال ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ لا قصد لي سواه ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ والتي هي من جنس 'لا إلهَ إلا الله' ليعلَموا أنَّه لا يريد إلا خيرَهم، ومهما أراد أن يُصلِح فإنّه لا يأتي إلا بما يوفِّقه الله له، ما من سبيل إلى الخير إلاَّ بتوفيق منه تعالى. ليست العبوديَّة تكلُّفًا يختَلقه العبد من عند نفسه، وإنَّما هي تكليف من الله تعالى له. وإلى ذلك يشير قول النبي في القرآن ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص 86] فالقيام بالعبادات إن لَم ترافقْه معرفة بالربوبيَّة كان اعتدادًا بالنَّفس، وكما قال ابن القيّم: لقد أجمع العارفون بالله أن التوفيق هو أن لا يَكِلَك الله إلى نفسك وأن الخُذلان هو أن يخلِّيَ بينك وبين نفسك.[2]

---

[1] 'إحياء علوم الدين' ج4-ص60، دار المعرفة، بيروت.

[2] 'مدارج السالكين' ج1-ص413، دار الكتاب العربي، بيروت.

لذا قال النبي «دَعَوات الْمَكْرُوب: اللهمَّ رحمتَك أرجو؛ فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرفَةَ عين، أَصلِحْ لي شَأني كلَّه، لا إلَهَ إلا أنت!»[1] فجاء صلى الله عليه وسلَّم بكلتا صيغتي الحصر: 'كل' و 'لا.. إلاّ' عملا بقول الله تعالى له ﴿وَاصْبِرْ﴾ فهذا تكليف ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ وهذا تعريف ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وهذا تخفيف ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل 127-128] وهذا تشريف. فبيَّن تعالى أن الصَّبر مع المعرفة من الله تعالى وأن ذلك عين التَّقوى والإحسان وأنّ مآله القَبول.

العبد من حيث نفسه لا علمَ له ولا قول ولا قوَّة له ولا حَول ولا قُدرةَ له ولا طَول، ولكن بالله ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء 79] بل عيوب النفس تكدِّر الأعمال حتى تكون كأنّها معاصٍ فقد قال أبو يزيد البِسطامي "إن في الطاعات من الآفات ما لا تَحتاجون إلى أن تَطلُبوا المعاصي!"[2] لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم «لا حول ولا قوة إلا بالله: كنزٌ من كنوز الجنة»[3] فالله تبارك وتعالى مصدَر كل خير والنفس مصدر كلّ شرّ ما لَم تستقِمْ وتزكُ، قال أبو القاسم القُشَيري: سمعت أبا عليّ الدقّاق يقول: جاءني إنسان، وقال "جئتُك من مسافة بعيدة" فقلتُ "ليس هذا الحديث من حيثُ قطعُ المسافَة ومُقاساة الأسفار؛ فارِقْ نَفسَكَ ولو بخُطوَة، فقد حصل مَقصودُك!" ويُحكى عن أبي يزيد أنّه قال: رأيتُ ربّي في المنام، فقلت "كيف أجِدُك؟" فقال "فارِقْ نفسَك وتعال!"[4]

وصدق أبو الفضل أحمد ابن عطاء الله السكندري، فقد قال في الحكمة 244 من حكَمه "لولا مَيادين النفوس ما تحقَّق سَيرُ السائرين، إذ لا مَسافة بينك وبينه حتى تَطويَها رِحلتُك ولا قُطعةَ بينك وبينه حتى تَمحُوَها وَصْلَتُك" كيف يكون بينك وبين بارئك مسافةٌ وهو تعالى يقول ﴿وَلَقَدْ

[1] خرَّجه أحمد ح20447 وأبو داود عن أبي بكرة وحسَّنه الأرناؤوط.

[2] رواه أبو نعيم في 'حلية الأولياء' ج10-ص36.

[3] خرّجه أحمد ح21424 والنسائي في 'الكبرى' عن أبي ذر وصحّحه الأرناؤوط، وله شواهد عدّة.

[4] نقلهما الطبري بسنده في تفسيره ج23-ص470، مؤسسة الرسالة.

خَلَقْنَا الإِنسَانَ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ!﴾ [ق 16] فعلمنا أنه تعالى أقرب إلينا من مجرى الدم الذي يسلُكه الشيطانُ كما أخبرنا رسول الله بقوله «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1] فالله أقرب إلينا من كل قريب ولكنّ نفس العبد تُريه البُعد. لا مسافة بينك وبين ربك تعالى إلا حجُب نفسك الكثيفة وعلائق دُنياك المُحيفة، فلا سير في الحقيقة إلا بخَرق تلك الحُجب وقطع تلك العلائق؛ هذا هو السير إلى ربِّ العزَّة. فما حالَ بيننا وبينه تعالى إلا توهُّم النَّفس، فلو غِبنا عنها لحَلَلنا بالحضرة القدسيَّة. ولكن لا يمكن الغيبة عن النَّفس إلا بموتها، لذا قال الحسين بن منصور لِمَن حكموا بموته:

اُقْــتُلوني يا ثِــقاتي ... إنّ في قَــتْلي حَياتي
ومَــماتِي في حياتِي ... وحياتِي في مَــماتِي
أنا عِندي مَحْوُ ذاتِي ... مِن أجَلِّ الْمَكْرُمات
وبَقائي في صِــفاتي ... مِن قَبيحِ السَّــيِّئات!

قال ابن عَجيبة: موت النَّفس في مخالفة عوائدها، قال الشيخ أبو مدين "مَن لَم يَمُتْ لَم يَرَ الحقَّ" وقال الشيخ أبو العباس المرسي "لا دخول على الله إلا من بابَين؛ إما بالفَناء الأكبر الذي هو الموتُ الطَّبيعي أو بالفناء الأصغر الذي تَعنيه هذه الطائفة" وقال بعضُهم "لا يَدخل على الله مَن لا يموت أربعَ مَوتات: الموت الأحمر وهو مخالفة النفس، والموت الأسود وهو احتمال الأذَى من الخلق، والموت الأبيض وهو الجوع، والموت الأخضر وهو لِبْس الْمُرَقَّعات. قال الشاطبي رضي الله عنه "واعلم أن طريق الحق تعالى ليس فيها مفازة ولا متاهة بل هي منازل وأحوال قد جعل الله لجميعها أعواناً وأنصارا، وهو سبحانه يَصدُق وعدَه وينصر عبدَه ويَهزِم الأحزاب

[1] خرجه البخاري في الأطعمة ومسلم والترمذي وابن ماجه والدارمي وأحمد، عن علي بن الحسين عن صَفِيَّة زَوجَ النبي.

وحده، وإنما المفاوِز والمسافات في الركون إلى المألوفات واتِّباع العادات وفي مسامحة النفس والوقوف مع الحس والحدَس وعند كشف الغطاء يتبين ذلك."[1]

قال الشيخ ابن العربي الحاتِمي: إن لأهل الله أربعَ مَوتات؛ موت أبيض وهو الجوع وموت أحمر وهو مخالفة النفس في هواها وموت أخضر وهو طرْح الرقاع في اللباس بعضها على بعض وموت أسود وهو تحمُّل أذَى الخلق بل مُطلَقِ الأذى. والطائفة تسمِّي الجوع في الموتات الأربعة الموت الأبيض وهو مناسبٌ للضِّياء. وإنما سَمّت لِبْسَ الْمُرقَّعات موتًا أخضرَ لأن حالتَه حالةُ الأرض في اختلاف النبات فيه والأزهار، فأشبَهَ اختلافَ الرِّقاع. وأما الموت الأسود لاحْتِمال الأذى، فإن في ذلك غَمَّ النفس، والغمُّ ظُلمةُ النفس والظلْمَة تُشبِه في الألوان السَّواد. والموت الأحمر مخالفة النفس، شبيه بحُمرة الدم فإنه من خالَف هواه فقد ذبح نفسه.[2] ولكن إياك إياك أن يتطرَّق إلى ذهنك ردُّ هذا الكلام بسبب أن هذه الأعمال والألوان لا أصل لها في الشرع، نعم لا أصل لها من حيث الألفاظ ولكن لا شكّ أن لها حكما من حيث تطبيق الشرع ذاته. فهي من الرمزيّة التي تقرِّب المعاني، ثم ليس الأمر في طرح الرِّقاع على الثوب ولكن في التقلُّل من الدّنيا بصفة نهائيّة حتى لا يهُمّ مَن عزفت نفسُه عنها بالرجوع إليها بعد تركِها.

ترمز تلك الموتات إلى تملُّك العبدِ نفسَه من حيث تحمُّل الجوع والتقشّف ومخالفة الهوى وتحمُّل الأذى، ولا يكون مجموع ذا جَدوى إلا بحِراسة الخواطر وإدامة الفكرة والصَّمت. قال شقيق البَلخي "متى أغفلَ العبدُ قلبَه عن الله والتفكر في صنعه ومِنَّته عليه ثم مات مات عاصيا، لأن العبد ينبغي له أن يكون قلبُه أبدا مع الله يقول: يا رب، اِعطني الإيمانَ وعافني من البلاء واستُرني من عيوبي وارزقني واجعل نعمك متوالية علي! فهو أبدا متفكِّر في نعم الله عليه، فالتفكر في منة الله شكر والغفلة عنه سهو"[3] قال يحيى بن معاذ الرازي "فِكرتك في الدنيا تُلهيك عن ربك

---

[1] 'إيقاظ الهمم بشرح الحكم'، ص246، موقع الوراق.

[2] 'الفتوحات المكية' ج1-ص256.

[3] رواه أبو نعيم في 'حلية الأولياء' ج8-ص71.

وعن دينك فكيف إذا باشرتها بجميع جوارحك؟!"[1] وقال مظفر "الجوع إذا ساعدته القناعةُ مزرعةُ الفكرة وينبوع الحكمة وحياة الفطنة ومصباح القلب، يحاسب الله المؤمنين يوم القيامة بالمنة والفضل ويحاسب الكفار بالحجة والعدل"[2] سُئل علي بن بكّار هل كان إبراهيم بن أَدْهَم كثيرَ الصلاة فقال: لا ولكن صاحبَ تفكُّر، يجلس ليلَه يتفكَّر! وعن إبراهيم بن بشار قال: سألتُ إبراهيم بنَ أدهم عن العبادة فقال "رأس العبادة التفكُّر والصمت إلا مِن ذِكر الله."[3] وقال بشر بن الحارث "لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوا الله!"[4]

التَّفكُّر والتأمُّل من خصال الأنبياء والصالحين، ولقد صحَّ عن عائشة أنَّها قالت عن رسول الله أنَّه في بَدْء أمْرِه: حُبِّبَ إليه الخَلاء، وكان يخلو بغار حِراءٍ فيتحنَّث اللياليَ ذواتِ العَدد[5] وبقي صلى الله عليه وسلّم على ذلك، فقد بلغنا عنه أنَّه كان مُتواصِلَ الأحزان دائمَ الفِكرة ليست له راحةٌ، لا يتكلَّم في غير حاجة، طويلَ السَّكْت[6]، واذكُر قولَه صلى الله عليه وسلم «سَبعةٌ يُظلُّهم الله في ظِلّه يومَ لا ظِلّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادل وشابٌّ نشأ في عبادة ربِّه ورجلٌ قلبُه مُعلَّق في المساجد ورَجلان تَحابَّا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورَجلٌ طَلَبَته امرأةٌ ذاتُ مَنصِب وجَمال فقال "إني أخاف الله" ورجلٌ تَصدَّق؛ أَخفَى حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تُنفق يَمينه، ورجلٌ ذَكر الله خاليًا ففاضَت عيناه»[7] فهذا الأخير من الذين يذكرون الله في الخلوة أي في مكان خالٍ لا

[1] 'حلية الأولياء' ج10-ص54.

[2] 'حلية الأولياء' ج10-ص361.

[3] 'حلية الأولياء' ج8-ص17.

[4] 'حلية الأولياء' ج8-ص337.

[5] خرجه البخاري في بدء الوحي ومسلم والترمذي ومالك وأحمد عن أبي هريرة.

[6] رواه الطبراني في 'المعجم الكبير' ح414 وأبو نُعيم في 'معرفة الصحابة' والبيهقي في 'شُعب الإيمان' والبغوي في 'شرح السنّة' عن الحسن بن علي قال: سألتُ خالي هند ابن أبي هالة التميمي وكان وصّافا عن حلية النبي صلى الله عليه وسلم... وفيه رجلٌ من مكّة لَم يُسمَّ.

[7] خرجه البخاري في الأذان ومسلم والترمذي والنسائي ومالك وأحمد عن أبي هريرة.

يطّلع عليهم أحد من الخلق، خاليةً قلوبهم من صخَب الدنيا ونَصَبِها، فلمَّا تحقَّق عظمةَ الخالق تعالى خشع لذلك وفاضت عيناه بالدموع وبكَى من خشية مولاه. وبلغنا عن محمد بن واسع أنّ رجلا من البصرة ركِب إلى أمِّ ذَرّ بعد وفاةِ أبي ذرٍّ يسألها عن عبادة أبي ذَر فأتاها فقال "جئتُكِ لتُخبريني عن عِبادة أبي ذر رضي الله تعالى عنه" قالت "كان النهارَ أجمعَ خالياً يتفكَّر" وعن ابن أبي رُواد قال: قال عمر بن عبد العزيز "الكلامُ بذِكر الله حَسنٌ، والفكرةُ في نِعَم الله أفضلُ العبادة"[1].

بهذا يتَّضح لك، يا أخي، أن التَّفكُّر عبادة. ولكنَّ الناس قد غفِلوا عنه وأضاعوه منذ زمن بعيد، أمّا في هذا الزمان وما يحمله من تعقيدات وعوائق لا حصرَ لها قد اتسعت وتسلّلت حتى عمَّت جميعَ زوايا النفس البشرية، فكدَّرت عليها صفاءَها وشتَّتها في هَمِّها فغفلت عن أجلِّ حقائق الكون والنفس، وأهمل الناسُ عبادةَ التفكُّر واعتدّوا بتعدد مشاغلَ مَوهومة. ثم أكثر مَن حاولَ النُّهوض بهذه العبادة سَرعان ما يترُكها لفقده الصبرَ عليها في أغلب الأحيان، وقد يبقى على شيء من المثابرة على أدائها ولكن ليس على الوجه الذي يُرجى منه الأثرُ الفعَّال الذي لا تَفي لإدراكه هفَّةُ قلب في زمن مّا.

الآن وقد علمت ضرورةَ التَّفكُّر فاعلَم أن أهمَّ ثمراته معرفةُ النَّفس. قد بلغنا من حكمة الماضين وجاء في الآثار قولُهم "مَن عرَفَ نفسَه؛ عرف ربَّه" وإن لَم يثبُت أنَّه حديث إلاَّ أنَّه حقٌّ يقين ومصداقُه قول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ! وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَد! وَاتَّقُوا اللَّهَ؛ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ! وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ!﴾ [الحشر 18-19] فهذا يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس، وأنّ نسيانها دليل على نسيانه تعالى.

دَواؤُك فيك وما تَـــشْعُـــرُ	ودَاؤُك منك وتَـــستَـــنكِرُ
وتَحسَبُ أنَّـــك جِرْمٌ صَغيرٌ	وفيكَ انطَوَى العالَمُ الأكبَرُ

[1] الأثران في 'حلية الأولياء' ج1-ص164، ج5-ص314.

وأنت الكِتابُ الْمُبينُ الذي بأَحرُفِه يَظهَرُ الْـــمُضمَرُ!

أكثر الناس غافلون عن هذه الحقيقة التي هي مفتاح العلوم كلّها. وقد دلَّنا الله على هذا فقال ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ثم دلَّنا تعالى على المسلَك فقال ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ؟! مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى؛ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ! أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟! كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ. اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!﴾ [الروم 7-11] فالعلمُ الظاهر لا يكفي للمعرفة ولا ينفع في الدين، بل على العبد أن ينظُرَ فيما حولَه بحواسِّه لينتَقلَ بعدها بعقله إلى ما وراءَ السَّطح ثم ليَعبُرَ إلى باطن الأمور ويغورَ فيها بلُبِّه إن كان ذا لبّ.

بلغنا أنّ عَمْرَو بن العاص قال مرَّة "قد قال الله لأولي الألباب أن يعتزلوا" فقال ابنُه عبد الله: قد جاء تأويل هذه بآية ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ؛ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ!﴾ [الأعراف 170][1] فانظر إلى فقه عبد الله بن عمرو بن العاص، وإن كان أبوه من دُهاة العرب إلا أنَّه ليس الدَّهاء ولكن الفقه! ذلك لأنَّ أولي الألباب ما يعتزلون الناسَ إلاَّ لإصلاح أنفسهم، ثم يأتي إصلاحُ الناسِ فيما بعد. وبيانُه ما جاء قبل تلك الآية وهو قول الله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ؛ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ "سَيُغْفَرُ لَنَا!" وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ!﴾ [الأعراف 169] هُم ضُلاّل ويحسبون أنَّهم على شيء بمجرَّد انتسابهم إلى كتاب مُنزَّل، وأمَّا أولوا الألباب فأمرُهم مُختلف؛ فهم المُعتصمون بكتاب الله، المستَمسكون بما فيه، الحريصون على إقامة الصلاة التي هي صلاحُ الجميع في الدارين.

[1] رواه عبد الله بن وهب في 'الجامع' باب العزلة، رقم 414، دار ابن الجوزي.

ولكم أثنى الله على أولي الألباب! فمن ذلك قوله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ؛ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا! وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ!﴾ [البقرة 269] ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ!﴾ [يوسف 111] ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟! إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ!﴾ [الرعد 19] ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ؛ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ!﴾ [إبراهيم 52] ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ؛ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ!﴾ [ص 29] ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ؛ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ!﴾ إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا؟! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ!﴾ [الزمر 18-21] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ، الَّذِينَ آمَنُوا؛ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا!﴾ [الطلاق 10] فما أنزِل الذِّكرُ إلا إلى أولي الألباب؛ وما انتفع به غيرُهم. وكفى بها خصلة لا يدانيهم فيها غيرُهم.

لُبّ كل ثَمَرة قلبُها، كلُبّ الجَوْز. ومنه اللُّباب وهو الخالص من كل شيء كلُباب القمح ولُباب الإبل، أي خيارُها.[1] فأغلى ما في الشيء لُبُّه، وكذلك لبُّ الرجُل هو أحسنُ ما في باطنه، وهو شيءٌ فوق العَقل. ومنه فخير البشر أولو الألباب، فهم صَفوَةُ الله من بني آدم وخيار الناس على وجه الأرض.

واللبُّ حاربَ تركيباً يُجاهدهُ	والناسُ في الدَّهرِ مثلُ الدهرِ قسمانِ
خيرٌ وشرٌّ وليلٌ بعدَه وَضَـــحٌ	فالعقلُ والطبعُ حتى الموتِ خَصمانِ

وكما مدح الله أولي الألباب فقد نعى على غيرهم الغافلةَ عن النظر والتدبر في كونه، فقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟! فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ!﴾ [الحج 46] مصيرُ أولائك إلى النار ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ: لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

[1] 'تهذيب اللغة' للأزهري، مادّة 'لبب'.

لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف 179] لا يرون ما في الكون من آيات تدلُّ على كمال الله وجماله وجلاله الذي من شأنه أن يدفع بالنَّفس إلى السَّعي في إرضائه تبارك وتعالى، فالكون عَونٌ على الطاعة ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف 105]

وإنّما ينمو اللُّبّ وينضُج بالتَّفكُّر، وهو عبادة ورياضة شرعيّة، ينطلق فيها قلب العبد وعقلُه عبر ملكوت الله وداخلَ النّفس ليرقى في فضاء الإيمان ومقامات العبودية، فيكتشف أغوارَ نفسه وأطوار الخلق المتجدِّد وأنوار الفيض الرحماني الْمُمدّ فيظهر له جليًّا كمال الله تعالى وجمالُه وجلالُه وحكمته من خلقه وأمره وشرعه ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ!﴾ [فصلت 53]. ولقد أمرنا الله بالتفكُّر في الكون وفي النفس والتدبر في القرآن، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ!﴾ [البقرة 219] ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ: أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا!﴾ [سبأ 46] ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ! وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر 21] ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟!﴾ [النساء 24] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ! إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ؛ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ!﴾ [يونس 24]

لقد نوَّه الله بالحكمة فقال تبارك وتعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ؛ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا! وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ!﴾ [البقرة 269] فاعلَم أن الحكمةَ وليدة التفكُّر، وهو حركَة العقل المنظَّمة الموافقة للطبيعة والفطرة، لا ما يسمّونَه اليوم فكرًا بالمعنى المشوَّه الذي لا يُبدي من الأمور إلاّ ما تَوافق عليه الناسُ وإن كان غلَطًا محضا. التَّفكُّر الذي نقصِدُه هو ما كان عليه نبيُّنا صلى الله عليه وسلَّم من طول الفكرة واستِدامة الصَّمت من قبل الوحي حتى نزل عليه الروحُ الأمين، ومن بعدِه حتى فتح الله له فهمًا في القرآن وإدراكا لحقائق الوَقائع بحيث يضع

الحُكم الموافق للمسألَة كلَّما عرض عارض، وذلك استجابةً لدعاء أبيه إبراهيم وهو يرفَع القواعد من الكعبة إذ قال ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ؛ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ!﴾ [البقرة 129] فالله حكيم آتى محمَّدا الحكمةَ وأمرَه بأن يعلِّمها الناسَ، قال الطبري في بيان معنى الحكمة المذكورة في الآية: الصواب من القول عندنا في 'الحكمة' أنها العلم بأحكام الله التي لا يُدرَك علمُها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم والمعرفة بها وما دلّ عليه ذلك من نظائره، وهو عندي مأخوذ من 'الحُكم' الذي بمعنى الفَصل بين الحق والباطل، بمنزلة 'الجِلسة والقِعدة' من 'الجلوس والقعود'، يقال منه "إن فلانا لَحكيمٌ بيِّنُ الحِكمة" يعني به أنه لبيِّن الإصابة في القول والفعل.[1]

قال السكَندري في الحكمة 12 من حكَمه "ما نفع القلبَ شيء مثل عُزلة يدخل بها ميدان فكرة" فمَن أسعفته نفسُه للتفكُّر فليتفكّر فيما بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال «يا عِبادي، إنّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي، وجَعَلتُه بَينكم مُحرَّما؛ فلا تظالَموا! يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ، إلاَّ مَن هَديتُه؛ فَاستَهْدوني أَهدِكم! يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلا مَن أَطعَمتُه؛ فَاستَطعِموني أُطْعِمْكم! يا عِبادي، كلّكم عَارٍ إلا مَن كَسَوتُه؛ فَاستَكْسوني أَكْسُكُم! يا عبادي، إنّكم تُخطِئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أَغْفِر الذُّنوبَ جَميعا؛ فَاسْتَغفِروني أَغفِرْ لكم! يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني! يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا! يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا! يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الْمِخْيَط إذا أُدخِل البَحرَ! يا عبادي، إنّما هي أعمالكم، أحصيها لكم ثم أُوَفِّيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله

---

[1] 'جامع البيان في تأويل القرآن' ج3/ص98.

ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه!»[1] الظُّلم وَضعُ الشيء في غير موضعه الذي يليق به، لذا لَم يظلم الله أحدًا من عباده حيث خلق كلَّ واحد حسب ما يقتضيه ما قدَّره الله له وذلك قولُه عز وجلّ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف 19] لا قبلَ عملِهم ولا بعدَه، وهذا موضع تدبُّر والحديث موضوع تفكُّر، فقد كان أبو إدريس الخَولاني إذا حدَّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه!

التفكُّر الذي يريده الله منَّا أن ننظُر إلى الأشياء التي تُحيط بنا، سواءً كانت محسوسة أو معقولَة أو مسموعة وإن فاقت العقل، وفي بواطننا كما هي وبكل بساطة. فهو عبارة عن الْتِفات القلب وتركيز العقل وصبّ الهمَّة على مُشاهدة آيات الله في خَلْقه ليتجاوز العبدُ ظواهرَ الأمور إلى أغوارِها، ولترتقي نَفسُه إلى أعلى وأكمل مراتبها. ولا يُمكن الوصول إلى هذا الإدراك إلا بالمجاهدة القائمة على البصيرة واليقظة ونبذ التَّقليد. ويشمَل التفكُّر النظرَ في آيات الله الكونية في الآفاق وفي الأنفس، والتدبُّرَ لآياته المسموعة من كتابه العزيز وأحاديث نبيّه الكريم صلى الله عليه وسلّم، فإنّها وسائل لتزكية النفس وتربيتها لتصبح متماسكةً ولا تبقى أمور الدين عبارةً عن أقوال رثَّة وشؤون العبد عبارة عن أنسجة هشَّة، وليكون العقل قويًّا لا مستودَعا خاويا، والقلب سليمًا وإلا غابت عنه حقيقة العبودية.

قال الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ!﴾ [الذاريات 56] قال مجاهد "إلا ليعرِفوني"[2] هو تأويل في غاية الحُسن ومصداقُه قول الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ؛ لَيَقُولُنَّ: اللَّهُ!﴾ [الزخرف 87] فمَعرِفتُهم بالله ناتجة عن خلقهم، ولكن هذا أوَّل قدم في المعرفة التي لا حدَّ لَها. وقد بيَّنا أنَّ معرفتَه تعالى لا تتمُّ إلا بمعرفة النَّفس، مَن عرَفَ نفسَه فقد عرف ربَّه؛ فأعظَم حكمة يمكِن للإنسان إدراكُها هي معرفةُ نَفسه. ولا سبيل إلى معرفة النفس إلا بالتفكُّر، قال الله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ؟!﴾ أي إلا من جهلها ولَم يتعرَّف عليها فلم

---

[1] خرّجه مسلم في البر والترمذي والبخاري في 'الأدب المفرد' وأحمد عن أبي إدريس عن أبي ذر.

[2] ذكره البغوي واستَحسَنه في 'معالم التنزيل' ج7/ص380، دار طيبة.

يرعَها بالتفكُّر فيها بل أهمَلَها ترتَع في مَساويها، ثم قال تعالى ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ؛ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمْ! قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ!﴾ [البقرة 130-131] مَفاد هذا الكلام أن مَعرفة النفس من صميم ملَّة إبراهيم بل وأصلُها. وإن أردت دليلا على هذا فاذكُر ما حصل له وهو يتأمل في خلق الله ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ؛ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ، رَأَى كَوْكَبًا قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لا أُحِبُّ الآفِلِينَ! فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ! فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ! فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ؛ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ!﴾ [الأنعام 75-79] ارتَقَى إبراهيم من مَظهَر إلى مَظهَر حتى انتَهَى إلى الْمُظهِر سبحانه، وأيقَن بأن تلك الأمور الهائلة لها مُوجِدٌ قد فَطرها، فحَنف عليه السلام، أي مالَ عن قومه وشِركِهم، ومن هنا سُمِّيت ملَّتُه 'الحنيفيَّة السَّمحة' أي المِلَّة المائلة إلى الحقّ من دون تشدّد ولا حرج.

وكذلك تُذْهِل آياتُ الكون الفسيح عَقلَ الْمُتأمِّل بما يحويه من مشاهد عَظَمَة وبديع صَنْعة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ؛ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ! فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ!﴾ [آل عمران 190-191] لما كُشِف لهم في آيات الكون من جميل الإبداع وعَظَمَة الخَلْق الذي تفنى الأعمار قبل الوقوف على ما فيها من أسرار أو تحصي ما فيها من عجائب الأطوار. هذا معنى تدبُّر آيات الكون، أي العُبور من ظواهرها المحسوسة إلى بواطنها المَدسوسة لإدراك الحقائق العُظمى التي وراء هذا الكون العظيم فتتحوّل منه إلى استشعار عَظَمَة الْمُكوِّن، فإذا صادف التَّوفيقُ واستدامت الفكرة في الخلوة انتَقل العبدُ من هذا الشهود إلى شهود أعلى منه وهو أن يرى الكون بالْمُكوِّن كما قال بعضُهم "ما رأيت شيئاً إلا شاهدتُ الله

بعدَه" وقال غيرُه "ما رأيت شيئاً إلا شاهدتُ الله فيه" وقال غيرُه "ما رأيت شيئاً إلا شاهدتُ الله قبلَه"، وأنشد بعضهم:

من رأى الْمُكَوِّن بالكَون؛ عَـــزِّه في عَمَى البَصيرة!
ومَن رأى الكونَ بالمكوِّن؛ صادَفَ علاج السَّريرة!

ذلك لأنَّ المطلوب الأهمَّ من عبادة التفكُّر إنَّما هو التعرُّف على الله تعالى. ذاك هو المقصَد الأسمى والغاية القُصوَى من التفكُّر، وما سلك العابدون طريقاً إلى ربهم أسرع ولا أرحب من التفكُّر. فتعويد القلب على التفكُّر في آيات الله التي بثَّها تعالى في الآفاق وفي الأنفس وفي الكتاب الحكيم، وعلى النظرِ بعينه في آثار أسمائه تعالى وصفاته وحكمة أفعاله، يُنبت في القلب معاني التوحيد، ويُفيد العبدَ معرفة الرب وجلال عظمته. فيحمله على إحسان العمل لله وإدامته كما قال وهب بن منبه "ما طالت فِكرة امرئ قطُّ إلا فَهِم، وما فَهِم إلا عَلِم، وما علم إلا عمِل!"[1] فمآل التَّفكُّر فَهْمٌ موصِل لعلم، وعلم محفِّز على عمل: دوائر يوصل بعضُها إلى بعض بلا توقُّف لظاهر علم بغياب عن اعتداد بعمل.

بالتفكُّر تحيَى العِبادة وتسري روحُ الوَحي في الشعائر من صلاة وتلاوة وذِكْر وصيام وغيرها سرَيانَ الماء في الجسد؛ فتنجلي للعبد مقاصدُ الشريعة وتتفجَّر لَه ينابيع العبودية فيجتمع بالعلم العملُ بلا ريب ولا مَلَل، فلا يُدرِك الخمودُ العقلَ ولا الفُتورُ القلب. لأنّ التفكّر يطرق كلَّ بابٍ يوصل إلى حقيقة الإيمان فينتقل الفِكر من الحِس إلى المَلَكوت ومن المُلك إلى الشهادة ومنها إلى الغيب، ومن الدُّنيا إلى الآخرة ومن الخلق إلى الخالق سبحانه وتعالى، فيحصل من ذلك نُضج اللُّبّ أي اجتماع عبادة الباطن بعبادة الظاهر وحركة القلب باتِّقاد العقل ونشاط الجسد لاتِّحاد ظاهر العبدِ بباطنه، وإلى هذا أشار مَن قال:

رقَّ الزُّجاج وراقَت الخمرُ وتشابَها فتشاكَلَ الأمرُ
فكأنَّـــما خَمرٌ ولا قَدَحٌ وكأنَّما قَدَحٌ ولا خَمرُ

---

[1] نقله الغزالي في 'إحياء علوم الدين' ج4–ص425.

ذلك حين يضمحلُّ الفارقُ الموهوم بين الجسد والرُّوح، فيصير العبد متماسكًا في ذاته باتِّصاله ببارئه تعالى. وإلاّ فكيف يوحِّد الله مَن لم يتَّحد هو في كِيانه؟! فدوائر التفكُّر ومجاريه متنوعة، وكذا الواردات من أنواره؛ فإذا سرح العبدُ في أسماء الله سبحانَه وصفاته وتأمَّل آثارها في الخلق وموجباتها من إجلال وتعظيم واستغراق في جَماله، انبَسَط وانشرح صدرُه لما يرى من واردات أنوار الإحسان والعفو والستر والرحمة، فإذا هو أطال التأمُّلَ في معاني أسماء البطش والقهر والجبروت، انقبض خوفاً وضاق صدرُه وذابت نفسه لرُؤية عيوبها وطول تقصيرها ودناءةَ ذنوبها، في مُقابل جمال الله وفَضْله، وجلاله تعالى وعدله.

فمَن وفَّقه الله استغلَّ الأوقاتَ المباركةَ التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «اُطلُبوا الخيرَ دَهْرَكم وتَعرَّضوا نَفَحاتِ رَحمةِ الله عزّ وجَلّ، فإنّ لِلَّه نَفحات من رَحمته يُصيبُ بها مَن يَشاء من عِباده؛ وسَلوا الله أَن يَستُرَ عَوراتكم وأن يُؤَمِّن رَوعاتِكم!»[1] فمن تلك الأوقات السَّحَر ومواسم الخير كرمضان والحج والأعياد، وكذلك السَّعي لطلب الخُلوة من حين لآخر في البيت أو خارجَه. فليحرص العبد على أن يفرِّغ نفسَه بالتَّخلّي عن الناس في مكان هادئ بعيد عن الضوضاء والصخب، وإن قصد مكانًا خارجَ المدينة فليكن موضعًا رحباً وفضاءً واسعا يرى فيه من عجائب الخلق من سماء مرفوعة وأرض ممدودة ونجوم ساطعة وأشجار وأنهار ما يُعجِبُ القلبَ ويهيِّئ لعبادة التفكُّر؛ فيعطي الحواسَّ حقَّها ممّا يحيط به من مَشاهد القدرة والإبداع، ويساعد العقل على الانطلاق خارجَ اهتماماته الدنيويّة المحدودة ويمنح القلب السكون الذي يلزَمه. عندها يدرِك العبد أن الكونَ لا نهايةَ لَه ولا حدّ وأنَّ الدنيا جزء منه فهي لا تنتَهي مطالبُها، فما بقي عليه إلا أن يضع لها الحدودَ التي بيَّنها لنا الله خالقُ السماوات والأرض على لسان نبيِّه.

نَصَبت لنا دونَ التَّــفكُّر، يا دُنــيا ... أمانيَّ، يَفنَى العُــمرُ من قبلِ تَفنَى
متى تنقَضي حاجاتُ مَن ليس واصِلاً ... إلى حاجَة حتى تَــكونَ له أُخرَى؟!

---

[1] خرجه البغوي في فضل التلاوة من 'شرح السنّة' واستَغربه، والطبراني في 'المعجم الكبير' وأبو نُعيم في 'معرفة الصحابة' والبيهقي في 'شُعب الإيمان' عن أنس، وحسّنه الألباني في'الصحيحة'.

لا بدَّ للعبد من وقفة صدق مع نفسه ليتأمَّلها ولينظر في حالها حتى يتعرَّف عليها كما ينبَغي ويتمكّن من أن يبني للتوبة سدًّا مَنيعًا يحول بينَه وبين تبعات ما أسلَف فيما مضى من أيّام غفلَته، وأن يضع لَها أساسًا راسخا تثبُت عليه أعمالُه القابلَة. وإلاَّ فكيف يقابل قول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِه! هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ؛ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ! فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ، هُوَ مَوْلاَكُمْ؛ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ!﴾ [الحج 77-78] وهذا متَّصل بملَّة إبراهيم القائمة على التَّفكُّر والتأمُّل كما مرَّ بيانُه منذ قليل، ويقتضي امتثالَ جميعِ ما أمر الله به والانتهاء عن كل ما نهى تعالى عنه، أي "مجاهدة النفس في طاعة الله وردّها عن الهوى، ومجاهدة الشيطان في ردِّ وسوسته والظَّلَمة في رد ظلمهم والكافرين في رد كفرهم"[1] وقال عبد الله بن المبارك أن الجهاد هنا هو جهاد النفس والهوى[2]، على أنَّه كان رحمه الله من المجاهدين بالسيف والمال كذلك، وهذا موافق لقول النبي في إحدى خُطَب حجة الوداع «ألا أخبرُكم بالمؤمن: مَن أمِنَه الناسُ على أموالهم وأنفسهم! والمسلمُ: من سلِم الناس من لسانه ويده! والمجاهد: من جاهد نفسَه في طاعة الله! والمهاجر: من هجر الخطايا والذنوب!»[3] فقد بيَّن صلى الله عليه وسلَّم مَن المؤمن ومن المسلم ومَن المجاهد ومَن المهاجر على الحقيقة، وهذا باقٍ فينا لازم علينا إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها. فليس لأحد أن يقول أن الهجرة قد انتهت مَشروعيَّتُها، بل التي انتَهت إنَّما هي الهجرة إلى المدينة. وكذا الجهاد، ثم لا جهادَ بالسَّيف صحيحٌ إن لَم يكن سليلَ جهاد للنَّفس كما ينبَغي.

---

[1] بتصرُّف من كلام القرطبي في 'الجامع لأحكام القرآن' ج12–ص99.

[2] نقله ابن الجوزي في ' زاد المسير' ج4–ص401.

[3] خرجه أحمد ح24004 عن فَضالة بن عُبيد وابن حبان وأصلُه في الترمذي وصححه الأرناؤوط.

يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ!﴾ [الرعد 11] إن خيرا فخير وإن شرًّا فشرّ، فمَن أراد أن يحسُن أمرُه فما عليه إلا أن يسلُك سبيل الإحسان ثم ييسِّرُه الله عليه. فليس الأمرُ بالدَّعاوَى العريضة مع الإعراض عن الحقّ، بل يجب حملُ النَّفس على فعل الخير وإجبارُها عليه وإن ثَقُل عليها وذلك في كل الحالات، حتى يسهُل عليها ويُصبح لها خُلُقا. وإلاّ فمَن ظلَّ غافلا عن نفسه وظنَّ أنَّه سوف يستَيقظ يوما مَّا وقد أصبح صِدّيقا فهو مُغالطٌ لها. بل مَن أراد أن يكون صِدّيقًا عليه بالسعي لاكْتِساب مَكارِم الأخلاق كما دلَّنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بقوله «إنّ الصِّدقَ يهدي إلى البِرّ وإن البرَّ يهدي إلى الجَنّة وإنّ الرجلَ لَيَصْدُقُ حتى يَكون صدِّيقا. وإن الكَذب يَهدي إلى الفُجور وإنّ الفجور يهدي إلى النار وإنّ الرَّجل لَيَكْذِبُ حتى يُكْتَبَ عند الله كَذّابا!»[1] فبتحرّي الصدق يبلُغ العبد مقام الصديقيّة، وأما مَن كان الكذب دَيدنَه فلا يكون إلا كذّابا. وبلغنا عن أبي الدرداء أنّه قال "إنما العِلمُ بالتَّعلُّم، والْحِلْمُ بالتَّحلُّم، ومَن يَتحرَّى الخيرَ يُعْطَهْ ومَن يَتوَقَّى الشرَّ يُوقَهُ!"[2] وذاك من قولِ النبي «مَن يَستَعْفِفْ يُعفَّه الله ومَن يَستَغْنِ يُغْنِه الله ومَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه الله! وما أُعطِيَ أَحَدٌ عَطاءً خَيرا وأوسَعَ من الصَّبر!»[3] وذاك معنى قولِ الله جلّ وعلا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا؛ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا! وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ!﴾ [العنكبوت 69]

من هنا لّما قال ذاك الرجل للنبي "أوصِني" قال صلى الله عليه وسلم «لا تغضب!» فردَّد مرارا قال «لا تغضب!»[4] فما دلَّه على غير ذلك، وما نهاه عن الغضب إلا لكونه غضوبًا. فمَن عملَ بهذا فتصبَّر أمدَّه الله بقُوتِ التقوَى وربَط على قلبِه وثبَّت قدمَه بفضلِه، وذاك هو الغِنى الحقيقي

[1] خرجه البخاري في الرقاق ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

[2] خرجه البيهقي في 'شعب الإيمان' ر10739. والطبراني في 'الشاميين'، وحسَّنه الألباني في 'الصحيحة'.

[3] خرجه البخاري في الزكاة وباقي الجماعة عن أي سعيد الخدري.

[4] خرجه البخاري في الأدب ومسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة.

كما بيَّنه رسول الله بقوله «ليس الغنَى عن كَثْرَة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غنَى النَّفس!»[1] وتلك هي القوّة حقيقة كما علَّمنا صلى الله عليه وسلم بقوله «ليس الشَّديدُ بالصُّرْعة؛ إنَّما الشديد الذي يملك نفسَه عند الغضب!»[2] فليس القويُّ مَن يغلِبُ الناس وإنّما القويُّ مَن لا تغلبُه نفسُه.

لكن ما هذه النَّفس التي ما فتِئَ الناس يتكلَّمون حولها وهم لا خبرَ عندهم عنها؟ كنتُ قلت عند الكلام في معالِم الدين أنَّ نفسي هي ما أعنيه بقولي 'أنا'. كان هذا قبل أن نبلُغَ فهمًا نستَطيع به قولَ ما سنقولُه الآن، وهو أنَّ نفسي ليست المقصودَ من قولي 'أنا' لكنّها الصِّلة بين عالَم الأمر وعالَم الخلق ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس 7] أي في عالَم الشهادة، فالنَّفس تسويةُ الروح في الكون الذي هو عَرشُه، ويبقى الروح متزّها عن الحلول خارجًا عن الزمان والمكان، ولا يضاف إلى الإنسان إلا مَجازا لأنه في الحقيقة من أمر الرّحمن جلّ وعلا. أمّا قولي 'أنا' فتعبير أملاه عليّ شعوري بتلك اللُّحمة بين مادَّتي ومَدَدي، أي بين الروح وكوني، ذاك هو جسَدي وهو ابن جسد آدم الذي سجد له الملائكة. نَفْسي من نَفَس الرّحمن، هي نفخُه تعالى من روحِه في صورتي الطينيّة.

وما الخَلقُ في التِّمثال إلا كثَلجَة	وأنت لَها الْماءُ الذي هو نابعُ
فما الثلج في تَحقيقنا غيرُ مائه	وغير أنّ في حكم دَعَتْه الشَّرائعِ
ولكن بذَوبِ الثَّلج يُرفع حكمُه	ويُوضَع حُكم الماءِ والأمرُ واقع

الروح من عالَم الأمر، متزّهٌ عن التشكُّل وعن الحلول بالصورة، غير ملتَصق بجسدي ولا حالٌّ بهيكَلي. بل بين جسدي والروح توجد نفسي، فهي أمرٌ ثالثٌ لا من عالَم الأمر ولا من عالَم الشهادة؛ هي الصلة بينهما والبرزَخ بين عالم الأمر وعالَم الخلق. أمّا إنّــيَّتي فأمرٌ معقول غير محسوس ولا حقيقة له في الخارج، فما 'أنا' غير تعبير لما بين المُلك والشهادة من حيث كينونَتي. فلمَّا كانت إنّــيَّتي لا تعدو أن تكون شعوري بصلةَ الروح بالكون في تعبيري وشهادتي، فكلّ ما

[1] خرجه البخاري في الرقاق ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

[2] خرجه البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود وأحمد عن أبي هريرة.

يلزَمني في حياتي الدنيا هو أن أوفِّق بين الروح والكون من حيث وُجودي الخاص الذي لا يشاركني فيه أحد أبدا. وظيفتي أن أوفِّق بين زمن طبيعتي ووقت نفسي، وهذا أصعب الأمور تحقيقًا لأنَّ نفسي تتوهَّم البقاءَ لما فيها من صلة بالروح ولكنها غفلت عن كون صورتي فانية مُضمحلٌ في كل آن وحين. هذا الفرق بين نفسي وجسدي عائق عظيم، فوقت نفسي يفوقُ زمان جسدي الذي هو تحت الإرادة الكونيَّة وهي كلمةُ الله التي لا يجاوزُها بَرٌّ ولا فاجر، وبينَما نفسي تتردَّد بين الروح وجسدي فمرَّة تنبَسطُ حتى تملأ الكون بما فيه من مكان وزمان بل وتفوق ذلك كلَّه لغلبَة الروح، وتارةً تنقبِض حتى تكون كالذَّرّة لغلبَة الجسد. فكثيرًا ما تطغى إنّيتي، وذلك حين لا توافق زمان جسدي بل تفضِّل أمرَ الروح الذي ليس للزمان ولا للمكان عليه سُلطان، ولا تريد أن تشعُر بزمَن الجسد الذي يمرّ بلا توقُّف جريًا إلى الفناء، بل وقت النفس هو الغالبُ عليها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق 16] لا يعبأُ الإنسان إذا ما ندَّت به النفسُ لتعلُّقها بالدنيا ولشرهها وتعطُّشها للمعارف والتجارب المتجدِّدة والمشاعر الغريبة؛ تختبر الكونَ بنَهَم.

كلَّ يوم لك ارتحالٌ جديد ومَسير للمَجد فيه مُــــقامُ
كُلُّ وقت ما لم تُفِدْهُ خَسارٌ ونَفسُك ما لم تُقمها تُلامُ
وإذا كانت النفوسُ كِــــباراً تعبتْ في مُرادها الأجسامُ!

الحاصل أن صِلة الروح بالصورة هي النَّفس، والإنيَّة هي الإنسان أي قولي 'أنا' كعبارة عن قَبولي ورضائي عن نفسي واعتِدادي بها، وهذا من سُلطان الله على عباده وقُدرَته تعالى على الخَلق بحيث لا أحد يردُّ ما منحه الرحمنُ من إيجاد في عالَم الشهادة. فالروح هو الروح لا يتعدَّد ولا يتجزّأ ولا يحلُّ بالصوَر ولا يتَّحد بها ﴿قُلْ: الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء 85] ليس من عالَم الخَلق، وأمّا الجسد فمركَّب من عناصر ثلاث وهي التراب والماء والنار وذلك قولُ الله ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرّحمن 14]، والفخار تراب وماء ونار، فإذا نُفِخَ فيه الروح، وهو العنصر الرابع، حيِيَ وصار إنسانًا، أي عُنصُرًا خامسًا يفوق كل تلك العناصر من حيث الكيفيَّة،

فهي فيه لكونه مركّبا منها ولكنّها ليست ما كانت عليه من قبل اجتماعِها فيه، كيف وقد صارت إنسانا واكتسبَت الحياة والشعور والمعرفة؟! إذا استوت الروح على الجسد ظهرَ الإنسان، كما أن استِواءَ الرجل على فرسِه يُظهِر الفارِس، ولكن كل إنسان مخلوق من نَفَس الرحمن الذي يريد التَّفرُّدَ بالظُّهور في الأكوان بحيث لا يشبِهه إنس ولا جانّ ولا حيوان. لذا رضي كل مَخلوق بما أعطاه الله، ثم يبقى على الإنسان السَّعي للموافقة بين الخُلُقُ والخَلْق في انتِظام حتى تصلُح التركيبة للدوام وإلا طرأ تغيير الخلق وغلَب الشيطان.

لا سبيل إلى ائتلاف الروح بالجسد إلا بتزكية النَّفس، أي بانتظام الأنفاس. لذا جاء في القرآن بَتْرُ المد في 'أناْ' كما في قوله تعالى ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ﴾ [النحل 2] ﴿إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف 188] ﴿وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام 79] كما تشير إليه السكون فوق ألف المدّ في رسم المصحف. هذا حتى لا يتعدَّى ألفُ 'أنا' حركةً واحدة؛ فائتلافُ الروح بالجسد في قَبض الألف عن المدّ، حتى لا يتعدّى الإنسان طورَه ولا يعتدّ بألف الأنا وإلاّ لقال ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا؛ فَاعْبُدْنِي!﴾ [طه 14] في هذا إشارة صريحة إلى أن المدد في الحقيقة ليس أكثر من نَفَس، وإلى قِصر لُبث الروح في الجسد وأنّه لا يتعدَّى النفَسَ الواحد، فمهما استَغرقت حياةُ المرء من سنين فمردُّها إلى نَفس واحد لا أكثَرَ ولا أقلّ. ثم مع الموت تنفصل النفسُ عن الجسد ولكن لا لتعود روحًا كما كانت قبل خلقِه أوّل مرَّة، ولكن لتصير برزَخًا كما هي حقيقتُها فتمكُثَ في البرزخ الذي هو عالَمها في انتظار رجوعها إلى ربِّها الذي هو 'أنا' فإن كانت أمّارة عادت لوّامة وإن كانت صبّارة رجعت مطمئنّة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً!﴾ [الفجر27-28] وربُّها صاحبُها، فعليه أن يُطمْئِنَها ويُكلِّفها في تلطُّف وإن كانت لا تطيعُه إلا بعد جُهد لا فتورَ فيه ورياضة مريرة، فهي أمةٌ وربّة في آن واحد، ومن هنا قال محيي الدين ابن العربي:

الربُّ حقٌّ والعَـــبدُ حَـــق — يا ليت شعري؛ مَنِ الْمُكلَّف؟!
إن قلتَ "عبدٌ" فذاك مَيْتٌ — أو قلتَ "ربٌّ" أنَّى يُكَـــلَّف؟![1]

[1] 'الفتوحات الكيّة' ج1-ص15، دار الكتب العلمية، بيروت.

مصدر الحَيرة في إدراك ما إذا كانت النَّفس هي الحاكِمة على الإنيَّة، وقد شهد الله عليها بقوله تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ!﴾ [يوسف 53] أمْ أنَّ الإنّية هي التي لها الحكم على النفس. والحقُّ أنّ الإنيَّة حاكمة على النفس وذلك قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ!﴾ [البقرة 57] ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ!﴾ [هود 101] ومن حيث أنّها المتصرِّفة فيها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة 207] أي يبيعُها، وهي المكلَّفة بها ﴿لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ [النساء 84] وهي المسؤولة عنها ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ؛ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة 105] فالإنيَّة ربُّ النفس من هذه الناحية. ومن جهة أخرى النَّفس حاكمة على الإنيَّة أيضا لأنَّها هي مَن يُحاسبُها كما قال الله ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا!﴾ [الإسراء 14] فهي ربُّها من هذه الوجهة ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ!﴾ [القيامة 2] ذلك إن لَم تكن الإنيَّة أتاحت للنفس بلوغَ كمالها الفِطري وهو كمال الإنسان. فالربُّ حق والعبد حقّ، لا شك في هذا؛ ولا يكتسب العبدُ حقيقتَه إلا من لَدُن ربِّه...

الوِرد

أصل مادّة ورد لغةً مُوافاة الشيء ومعاهدتُه من حين لآخر، كوُرود الماء للشُّرب. ومنه الوِرد بكسر الواو كقول الله ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود 98] شبَّه تعالى فرعونَ بالراعي السوء الذي يقود قطيعَه إلى الماء ليروُوا، ولكن بدَلَ أن يأخذَهم إلى الماء قادهم إلى النار فازدادوا ظَماً وحريقا، فالوِرد هنا مُعاودة الموضع الكرَّةَ بعد الأخرى. ومنه تلاوة القرآن المرّة بعد المرة، سواءً كان في الصلاة أو خارجها، فيسمَّى كلُّ جزء منه وِردًا كما يدلّ عليه ما بلغنا عن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «مَن فاته شيءٌ من وِرده –أو قال من جُزئه– من الليل فقرأه ما بين صلاةِ الفجر إلى الظُّهر؛ فكأنما قرأه من ليلته»[1] سُمِّي كذلك لِما هو عليه من تكرار ومراجعة، وقد بلغنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سئل أيُّ

[1] خرّجه أحمد ح220 وصححه الأرناؤوط.

العمل أفضل فقال «الحالُّ الْمُرتَحِل» قيل "وما الحال المرتحل؟" قال «صاحبُ القرآن؛ يَضرِب مِن أوَّل القرآن إلى آخِره ومِن آخره إلى أوّله: كلَّما حلَّ ارتحل!»[1] فرُجوع صاحب القرآن إليه لتلاوتِه يشبِه الوارد الذي يقصد الماء. فالوِرد المقصود هنا ما يلزَمه العبدُ من ذِكر في أوقات مخصوصة.

ليس الذِّكر مجرَّد تحريك اللسان بأسماء الله وصفاته أو بوصف آلائه، ولكنَّه حال يشعُر فيها العبد بمعيّة مولاه تعالى. إن فهمت هذا فاعلَم أن الخَلوة التي يُشيد بها الصوفيّة ليست من البدع، بل هي من صميم ديننا الحنيف، فعن عُقبة بن عامر قال: قلتُ "يا رسولَ الله، ما النجاةُ؟" قال «أَمْسِكْ عليك لِسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ على خَطيئتك!»[2] فأمره بالخلوة والصَّمت والتَّفكُّر، لأنَّ في ذلك نجاة المؤمن لما يساعده على ترك مشاغل الدنيا للتفرغ لتزكية النَّفس ولذكر الله ومُناجاته باليقظة في جميع الأوقات وبحضور القلب في الصلاة، وأن يخلو العبد بنفسه ليخلُو بربِّه كما فعل لوطٌ عليه السلام حين ترك قومَه وقال ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي؛ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ!﴾ [العنكبوت 26] تلك هي سبيل الهجرة إلى الله: تأمُّل في النفس، ذاك العالَم الداخلي، لِمُحاسبَتِها ومُجاهدَتِها بقصد تزكيَتِها فيزداد العقل صفاءً ليصبح مِنظارًا لعالَم الشهادة ويزداد القلبُ جلاءً فيصبح مرآةً للمَلكوت.

علاوةً على التمكُّن من عبادة التفكر والتأمُّل و التفرُّغ للذكر فإن للخُلوة فوائدَ كثيرة، منها: لِين القلب بعدَ قسوَته وحِفظُ البصَر والسَّمع بتجنُّب ما حرّم الله النظرَ إليه وسَماعَه، ومنها تَجنُّبُ آفات اللسان وعثراته الكثيرة، والبُعد عن الرياء والسُّمعة والمداهنة، والزهد في الدنيا

[1] خرّجه الدارمي في فضائل القرآن عن زُرارة بن أوفَى مرسلا، ومدارُه على صالح المري وهو رجل صالِح من قُرّاء البصرة وزُهّادها، ولكنَّهم أجمَعوا على ضَعفه في الحديث. ورواه الترمذي عن ابن عباس وضعَّفه أشدَّ، وهو عند البزّار والبيهقي في 'الشعب' والطبراني في 'الكبير' وابن نصر في 'قيام الليل'. ورواه الحاكم وذكر أن له شاهدا عن أبي هريرة، والله أعلَم.

[2] خرّجه الترمذي في الزهد وحسّنه ووافقه الأرناؤوط وصححه الألباني ورواه أحمد.

والخَلق، للتخلّي عن السلوك السقيم والتحلّي بالخُلُق الكريم. وذلك بالتنقيب عن أحوال النفس وعيوبها وآفات الأعمال وعِلل العبادات والأحوال فيرى العبدُ بوضوح تلك الأعراض وينظُر في طريق مداواة تلك الأمراض، عملا بقول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ! وَاتَّقُوا اللَّهَ؛ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ!﴾ [الحشر 18] إلى أن يبلُغ العبد بعد طول الممارسة وتوفيق الله تعالى مستوًى رفيع من الوعْي فيدرك ما لا تدركه الحواسُّ ولا العقل عادةً، بلغنا عن أبي سعيد الخدري أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمن، فإنه يَنظُرُ بنورِ اللّه»، ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ!﴾ [الحجر 75][1] وقد بلغنا عن أنس بن مالك أنه قال: دخلتُ على عثمان بن عفّان وكنت قد لقِيت امرأةً في طريقي فنظرتُ إليها شَزَرا وتأملت محاسِنَها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت "يدخل عليّ أحدُكم وأثرُ الزِّنا ظاهرٌ على عينيه! أما علمتَ أن زِنا العينين النظرُ؛ لتتوبَنّ أو لأُعزِّرنَّك!" فقلت "أَوَحْيٌ بعدَ النبي؟!" فقال "لا، ولكن بصيرةٌ وبرهانٌ وفراسةٌ صادقة!"[2] وقوله "شَزَرًا" أي نظرًا إليها بمؤخر العين كنظر المباغض، لا الطامع، فاعتَبر وكن حذِقًا يكفِك القليل...

بالتفكُّر يبتعد العبد عن شَغَب الحياة وهَرَجها ومَرجها إلى فضاء الهدوء وصفاء الذهن ليرى حقيقةَ مشاكله وأسباب همومه بوُضوح، ويعلم أنَّ الدنيا لا تستحق كلَّ ما عاناه وأنَّه قصَّر في حقِّ آخرتِه التي إليها مردُّه ومثواه؛ فيرتِّب أفكاره على ذلك ويخطِّط أهدافَه ويُشحِّن قواه ويشحِّذ همَّته ويقوّي شجاعته واستعدادَه بتجديد صِلته بربه وتوكُّله عليه وتسليمه له تعالى، ويعلم أن الإنسان يستطيع أن ينجو إلا بالفرار إلى الله تعالى كما قال نوح لقومه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ؛ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ!﴾ [الذاريات 50] وذلك بالدخول في الخَلوة للتفكُّر الذي يُنمِّي تركيز العبد وانتباهَه ليتجاوز الْمُؤثِّرات الخارجيَّة التي تُقلقُه وتُزعِجه إلى الطمأنينة والهدوء والسكينة المتمثِّلة في ذكر الله، وتلك هي الإنابة التي وصفها الله بقوله تعالى ﴿قُلْ: إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ

---

[1] خرجه الترمذي في التفسير واستَغربه.

[2] ذكره الغزالي في 'إحياء علوم الدين' ج3/ص25، دار االمعرفة، بيروت.

أَنَابَ؛ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ!﴾ [الرعد 27-28] فإذا اعتاد العبدُ التفكُّر والذِّكر الذي يليه في الخلوة نال أغلى ما يبتغيه عاقل وهو التَّقوى، وحينها يكون ذاكرًا في كل أحواله محفوظا كلّما غدا أو راح ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا؛ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ!﴾ [الأعراف 201] ومن أعجب العجب أن يكون الشيطان نفسُه سببًا لذكر الله! وفي الدعاء ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ؛ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ. وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ؟! وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ؛ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ!﴾ [آل عمران 135-136]

تكون الخلوة في مكان مُريح نظيف هادئ، خالٍ مما يشتِّت الانتباه من صُور وضوضاء وأصوات، ولتكن الجلسة في البدْء لمدَّة النصف ساعة يوميا، وليكن أوّل الجلسة للخروج من التوتر والقلق والانفعالات وذلك بالاسترخاء والتنفس البَطيء العميق. وليكُن التنفُّس بالبَطن لا بالصَّدر لينفُذَ الهواء إلى أسفل الرئة، وذلك بأن يجلبَ الهواء بنفخ البَطن ويُخرجه بقَبضه ولا يُحرِّك صدرَه. وليكُن إخراجُ النَّفَس أطولَ من إدخاله مع التركيز على مَخرَجه من الأنف أوَّلا فيشعُر بالرُّطوبة والدِّفْء عند خروج النَّفَس وبالبُرودة والجفاف عند دخوله، وكأنَّ كل زَفرَة موت وكلُّ شَهقَة حياة. لكن، على عكس ما يبدو، فليست القوَّة في الشَّهقة التي هي الحياة، بل القوَّة في الزَّفرة التي هي المَوت. يمكُث العبد على ذلك مركِّزًا انتباهَه على أرنبَة أنفه والشعور بالرطوبة والدِّفء عند الزفير وبالبرودة والجفاف عند الشهيق فلا يغادرُ طَرَف أنفه ولا يسهو عن عدِّ أنفاسه؛ بذلك تتبدّد الخواطر السلبية.

فإذا خطر بباله شيءٌ فلا يتْبَعه بفكره ولا يرُدَّه، بل ليدَعه يمرُّ مرَّ السحاب في السماء وليَمكُث في عدّ أنفاسه بالتَّركيز دون شدَّة على طَرف الأنف مع الحَضور التامّ بــ'الآن' و'الهُنا' وهما ظَرفا الزمان والمكان، فيدرك الإنسان أنَّه هنا الآن. وذلك بأنّ وجودَه حسًّا ومعنًى ليس إلا في 'الآن' و'الهُنا' وما خرج عنهما فوَهمٌ لا حقيقة لَه، وهذه هي اليقظَة بحيث لا يعزُب عنه لحظةً أنَّه في

هذا المكان بالذّات في هذا الوقت بالذّات، فلا يغيب عن نَفسه ولا يذهب مع خواطِره ولا يذكُر شيئًا إطلاقا.

حتى إذا مضى عليه بُرهةٌ وشعرَ أنّ عروقه قد استَرخت وثبتَ جَسدُه، أعني بأن يكون قائمَ الظّهر في جلوسه كأنّه صفْحة واحدة ولكن دون شَدٍّ للعضلات، ليكون وسطًا لا رَخوًا ولا صَلبا، بحيث يحلّ مكانَ التشنُّج والقبض سهولة في المفاصل. أقول: حينئذ يأخُذ العبدُ في الذِّكر، وأوَّلُه بأن يُصدر من جوف بَطنه ثلاثةَ أحرف سهلَة لا تحتاج إلى حركة اللسان ولا كثير حركة من الشفتين: وهي 'العين' الحَلقيَّة و'الفاء' الشفَويَّة و'الواو' الجَوفيَّة ويصدرَ إلى عقله الأمرَ الملحَّ المتكرِّرَ الذي لا يخامرُه أدنَى تردُّد بالعَفْوِ. ولقد بلغنا عن عائشة أنها قالت: قلت "يا رسولَ الله أرأيتَ إن وافقت ليلة القدر، ما أقول فيها؟" قال «قولي: اللهم إنك عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ؛ فاعْفُ عنّي!»[1] ومعنى العفو تَرك الأمر على حالِه ليرجِع إلى أصلِه من تلقاء نَفسه ودون تدخُّل، لذا يقال للشيء الذي أُهمِل حتّى درسَ وغاب أنّه عفا. وليس من معنى العفو الكثرة والزيادة كقولهم عفا الثّوب إذا طال، بل المعنى ترك الأمر على ما هو عليه، ومنه قول النبي «أَحْفوا الشوارِبَ وأَعفوا اللِّحَى»[2] أي اتركوها تنبتُ كما شاء الله ولا تتعرَّضوا لَها، ومنه ترك العُقوبة ومنه العافية وهي بقاء الصحَّة والهناء، ومنه الاستعفاء وهو طلب عدم التدخُّل في أمر مّا، ومنه قول الله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف 199] أي خُذْ ما عفا من أموال الناس أي ما زاد عن حاجتهم، واقبَل ما تيسَّر من أخلاقهم بلا تكلُّف منهم ولا تشدُّد عليهم؛ روى الطبري بسنده عن أمَيّ بن ربيعة الصَّيرفي قال: لما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما هذا يا جبريل؟» قال «إن الله يأمرك أن تعفوَ عمَّن ظلمك، وتعطيَ من حرمك، وتصل من قطعك!»[3] وقال الله تعالى

[1] خرجه الحاكم في الدعوات وصححه وبن ماجة وأحمد وصحح الأرناؤوط.

[2] خرَّجه الترمذي في الأدب وهو عند الجماعة عن ابن عمر.

[3] 'جامع البيان في تأويل القرآن' ج13-ص330، مؤسسة الرسالة، وكذا تفسير ابن أبي حاتم.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران 159] أي لا تؤاخِذهم بما فعلوا وسَلِ اللهَ سِترَ عيوبهم. فكان ذلك دأبه صلى الله عليه وسلّم كما تشهد سيرتُه.

وقد بلغنا عن علي بن أبي طالب أنه قال: وجدنا في قائم سيف رسولِ الله صلى الله عليه وسلم «اُعْفُ عَمَّن ظَلَمَك، وَصِلْ مَن قَطعَك، وأحْسِن إلى من أساءَ إليك، وقُلِ الحقَّ ولَو على نَفْسِك!»[1] وقال رسول الله «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه حاسبَه الله حِسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته!» قالوا "لِمَن، يا رسول الله؟" قال «تُعطي مَن حَرَمَك وتَعفو عمَّن ظلَمَك وتَصِلُ من قَطَعَك!»[2] وقال صلى الله عليه وسلم «ألا أدلُّكم على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة: تعفو عمَّن ظلمك وتُعطي من حرمك وتَصل من قطعك!»[3]

إذا تبيَّن للعبد هذا من معاني العَفو فليذكُر قولَ عباد الله الصالحين ﴿رَبَّنَا، لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا! رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا! رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا! أَنتَ مَوْلاَنَا، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ!﴾ [البقرة 286] واذكُر قولَ الله لهم على كل سؤال «قد فعلتُ»[4] واذكُر قوله تعالى ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا!﴾ [البقرة 109] ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا! أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ؟!﴾ [النور 22] ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا!﴾ [النساء 149] ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ؛ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ!﴾ [آل عمران 134]

---

[1] أورد ابن الأثير في اللواحق من 'جامع الأصول' ح 9318 وقال: أخرجه رَزينٌ.

[2] خرّجه الحاكم في التفسير عن عُقبة بن عامرٍ وصحَّحه وله شاهد عن أبي هريرة.

[3] خرجه البيهقي في 'السنن الكُبرى' ح21621 عن علي بن أبي طالب.

[4] خرجه الحاكم في الدعوات وصححه وبن ماجة وأحمد وصحح الأرناؤوط.

قال النبي صلى الله عليه وسلم «الرَّاحِمُونَ يرحَمُهم الرحمن؛ ارحَمُوا مَن في الأرض يرحمْكم من في السماءِ! الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مِن الرحمن، فَمَن وصلَهَا وَصَلَهُ الله، ومن قطعها قطعهُ الله!»[1] وشاهدُ الرَّحمة إنَّما هو العَفو، فإذا تمكَّن هذا الخُلق من كيان العبد صحّ له أن يسأل العفوَ من الرحمن تعالى، وذلك ما بلغنا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّه قام على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عامَ أوَّلَ على المنبر ثم بكى، فقال «سَلُوا الله العَفْوَ والعافيةَ، فإنّ أَحدا لم يُعطَ بعد اليقين خيرًا من العافية!»[2] ثم بعد ذلك يأخذ العبد في تأمُّل نِعم الله لاستِجلاب الرضا، وذلك بأن يستعرض ما يخطُر بباله من نِعم الله عليه فيُكثر من حمد ربِّه عليها بقوله "الحمد لله، الحمد لله"؛ يلفظُها عند كلّ نفَس، مستَشعرا إعانَة الله له على ذلك ليفنَى اعتدادُه بنفسه في مُشاهدة النعم وأنّ المدد من الله وحدَه، فيظلّ يتقلَّب في رياض الخلوة من خاطر إلى وارد ومن فكر إلى ذكر ومن ذاكر إلى مذكور؛ فيفنَى ذِكرُه وإنِيَّتُه في مذكوره سبحانَه وتعالى ليكون بالله لا بالنَّفس...

وأطْيبُ أوقاتي منَ الدهرِ خلوةٌ يَقرُّ بِها قلبي ويَصفو بِها ذهْـــني
وتأخُذُني من سَورَةِ الفكرِ نشوَةٌ فأخرُج من فَـــنٍّ وأدخُلُ في فَنّ
ويفهمُ ما قد قال عقلي تصوُّري فنَقلي إذاً عنّي، وسَمعي بها منّي

***

قالوا "أفضلُ العبادات عَدُّ الأنفاس مع الله" يعنون اليقظةَ والحضورَ مع الله تعالى في كل وقت، لا لِكون عدّ الأنفاس عِبادةً في حَدّ ذاتِها ولكن لكونه ظَرفًا يليق بالعبادات ويُعطيها صفاءَها وصِدقَها وحلاوَتَها، وخاصّة في الصلاة كما سيأتي بيانُه في محلِّه، وحينها تعلَم أنّ مَن راقبَ تنفُّسَه في صلاتِه فتح الله له أبوابَ الخشوع. عدُّ الأنفاس يسير لِمَن يسَّره الله له، وذلك لكثرَتها، فقد سبق أن قلنا أن الإنسان الوسَط يحتاج إلى حوالَي عشرين ألف نفَس في اليوم. فلمّا كُنا

---

[1] خرّجه الترمذي في البر والصلة وصحَّحه وأبو داود وأحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

[2] خرجه الترمذي في الدعوات وأحمد، وحسَّنه الترمذي ووافقه الأرناؤوط. وله شواهد كثيرة.

نحتاج إلى تلك الكمِّيات الهائلة من الهواء جعلَ اللهُ الأرضَ برُمَّتِها تسبَح في الهواء الذي نتنفَّسُه، ثم لَم يكِل تعالى التنفُّسَ إلينا بل جعلَه تلقائيًّا غيرَ إرادي، وإلاّ لاستَحال العيشُ أصلا. وما دُمنا في موضِع ذِكر نعم الله علينا، فاعلَم أنّ الماء ثاني ما يأتي بعدَ الهواء، وهو متوفِّر بكثرة، فإنَّه يغطّي أربعةَ أخماس الكرة الأرضيَّة، ولا حاجةَ لصناعة الإنسان للاستفادة منه إلاّ أن تكون حَفرَ بئر أو شَقَّ مجرًى. ثم يأتي ثالثا الطعام الذي نحتاج إليه أقلَّ من الهواء والماء، لذا جعلَه الله قليلاً جدّا، ويحتاج في الغالِب إلى صناعةٍ لإنتاجه وتحصيلِه وتحضيره. فاعتبرْ في نعَم الله تزدَدْ إيمانا بإذنه تعالى. وإن صَعُبَ عليك عدُّ أنفاسِك فاذكُر الموتَ وأنت مستَشعِر أنّ أنفاسَك معدودة لا تزيد ولا تنقُص، فإن سَهوتَ عن العدّ فالله لا يسهو ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا!﴾ [الإسراء 84] قال ابن عباس: نعُدّ أنفاسَهم التي يتنفّسون في الدنيا؛ فهي معدودة كسنِّهم وآجالهم.[1] فكلُّ نفَس يُقرِّبُك من الموت:

ما هـــذه الأيّـــامُ غـــيرُ مراحِـــلٍ ... تُطوَى وأنفاسِ النُّفوس خُطاها!
كيف البَـــقاءُ بِهذه الـــدار الَّـــتي ... مَن قد بَـــناها للفَـــناء بَناها؟!
يَـــهوَى الأنامُ بها البَـــقاءَ وإنَّـــما ... شاء الإلَـــهُ بقاءَهم بِـــسواها
حتى إذا بلَـــغت نِـــهايةَ سَـــيرِها ... ألقَت عَصاها واستقرَّ نَـــواها

من وفَّقَه الله لليقَظة في شيء قليل جدّا من تلك العشرين ألف نفَس، فقد أشرَف على أعلى مقامات الذِّكر ودقَّ بابَ معيَّة الله. وذلك بأن يُركِّز الذّاكر على الشهيق والزَّفير، وهما حركتان تلقائيَّتان لا إراديَّتان ولا شُعوريتان، كما نعلَمه جميعا، فيأخُذ في التنفُّس وكأنّه يقوم بعمل إرادي شُعوري لا يُمكِنه الغفلَةُ عنه وإلاّ تعطّل جَلبُ الهواء إلى الجِهاز وهلَك. إذا فكّر الذّاكِر في كيفيَّة تنفُّسه ومراحلها عند كل شَهيق وزَفير، فقد أقحَم نفْسَه في عالَمٍ غير ذاك الذي اعتادَه، حيث التّنفُّس تِلقائيّ لا كُلفَةَ فيه، عندها تتزعزَع يقينيّاتُه وتضطَربُ حالُه ويقع في حَيرَة ودَهشة. وبعد وقت قصير يجد نفْسَه مشغولا جدًّا بالتنفُّس فلا يستَطيع التّفكُّرَ في شيء غيرِه. مع أنّ اهتمامَه بذلك لا فائدةَ فيه لأنّ التنفُّسَ تِلقائيٌّ ولا حاجةَ في الحقيقة إلى إرادتِه ولا التّفكُّر فيه، فيكون

[1] نقله الطبري بسنده في تفسيره ج18-ص253..

الذاكر متكلِّفا بأمر لا كُلفَةَ فيه ولا فائدةَ إلا كفُّ الفِكر عن سائر الأمور لنقَطع الصلة بالمُحيط وليخلُوَ البال من الخواطر؛ وهذا هو المطلوب من قبل الشُّروع في ذِكر الله وحدَه لا شَريك له.

الحاصل أنّ الذاكرَ قد أصبَح مشغولا جدّا بأمر لا ضرورةَ فيه ولا يُفيدُه شيئًا، فيغيب عن نَفْسه وعن العالَم ويخرُج من العادة إلى حالَة غير عاديّة ومن اليَقظَة العامّة النِّسبيّة، والتي هي الشعور بكل ما حولَه، إلى يقَظة أدقّ وأشدّ لا تهتمُّ إلا بشيء واح وهو الأنفاس ولكن انتباهًا يفوق كلَّ انتباه لكونِه مركَّزا على أمر وحيد لا شيءَ سواه، وبما أنّ التنفُّسَ لا يحتاج إلى انتباه أصلا، فمحلُّ الانتباه في الحقيقة لا شيء؛ يبقى البال خاليا عندئذٍ ويغيب الذاكر عن نفسه وعن الكون مِن حوله، ويدخل في حالَة من الوَعي تفوق الحالَة العاديّة ولكن لا لشيء؛ وتلك هي اليقظة التي يتكلَّم عنها الصوفيّة، وعندَها يشرَع في ذِكر الله خارِجَ العالَم وبغير نفسه بل بالله تعالى ويفنى الذاكرُ في المذكور ويتحقّق قول الله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ!﴾ [الرحمن 26-27].

برَغمي أُطيلُ الصدَّ عنها إذا نأتْ	أُحاذِر أسماعاً عليها وأعيُنا
أتاني هَواها قبلَ أن أعرِف الهوى	فصادَف قلباً خالياً فتمَكّنا!

مِن ذلك أن تَخلُو في موضعٍ مُركِّزًا على النفَس من بَطنك ولا تفكِّر في شيء ألبتّة، فإذا أردت الذِّكر القلبي، أي بغير تحريك للسانك، فاعلَم أن خيرَه 'لا إله إلا الله'. فأخرِجْ ما استَطعتَ من جوفك مِن هواء مُرفِقًا إيّاه بقول 'لا إله' ثم اجلِبْ النفَس إلى بطنك بقولِ 'إلا الله'؛ لتكون 'لا إله' مع الزَّفير و'إلا الله' مع الشهيق، لأن الأولى نَفيٌ يليق به الطَّرحُ بعيدا والثاني إثبات ولكنَّه استثنائي لإمكان الفناء عند كل نفَس فيمتَنِع الشهيق لتوِّه، ومن جهة أخرى فالأفضل في التّنفُّس البَطني أن يكون الزفير أطولَ من الشهيق، و'لا إله' أطوَل من 'إلا الله'. تلك أنجع صفات الذِّكر بالقَلب فاحفَظْها وابقَ ما شاء الله على حالك، دونَ أن يغيب عنك أن كل ما يخطُر في خلوتك ببالك فالله على خِلاف ذلك.

وذلك لأنّ الذاكر متعرّض للخواطر على اختلافِها، فمنها ما هو إلهامٌ من قبَل الله تعالى ومنها ما هو من حديث النفْس ومنها ما هو من وسوسة الشيطان ومنها ما هو من لَمَّة الملَك، وهناك علوم لا يُدرِكُها إلا القليل من عباد الله، منهم مَن سلك على يد شيخ صوفي مربٍّ قد قطَع تلك الفجاج وحلّ بتلك المقامات. قال أبو بكر الكلاباذي: اِعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال. والأحوال مَواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا مَن صحَّح الأعمال. وأوّلُ تصحيحِ الأعمال معرفةُ علومها، وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه: من الصلاة والصوم وسائر الفرائض، إلى علم المعاملات من النكاح والطلاق والْمَبايعات وسائر ما أَوجب اللهُ تعالى وندب إليه وما لا غناءَ به عنه من أمور المَعاش، وهذه علوم التعلّم والاكتساب.

فأوّل ما يلزم العبدَ الاجتهادُ في طلب هذا العلم وإحكامه على قدر ما أمكنه ووسِعه طبعُه وقَوِيَ عليه فهمُه بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة على طريق الكتاب والسُّنة وإجماع السلف الصالِح عليه، القدرَ الذي يتيقّن بصِحّة ما عليه أهلُ السنة والجماعة. فإن وُفِّق لِما فوقَه من نفْي الشُّبَه التي تَعترِضُه مِن خاطر أو ناظِرٍ فذاك، وإن أعرض عن خواطر السوء اعتصاما بالجملة التي عرَفها وتَجافَى عن المناظر الذي يُحاجُّه فيه ويجادِله عليه وباعَدَه، فهو في سَعة إن شاء الله عزّ وجل، واشتغل باستعمال علمِه وعمِل بما علِم.

فأول ما يلزمُه: علمُ آفات النَّفس ومَعرِفتُها ورياضتُها وتهذيبُ أخلاقِها، ومكائدِ العدوِّ وفتنةِ الدنيا وسبيلِ الاحتراز منها؛ وهذا العلم: علمُ الحكمة. فإذا استقامت النفسُ على الواجب وصلَحت طِباعُها وتأدَّبت بآداب الله عز وجل مِن زَمِّ جَوارحِها وحِفظ أطرافها وجَمْع حَواسِّها، سَهُل عليه إصلاحُ أخلاقِها وتَطهيرُ الظاهر منها والفراغُ مما لَها وعزوفها عن الدنيا وإعراضها عنها. فعند ذلك يُمكن العبدَ مراقبةُ الخواطرِ وتطهيرُ السرائر؛ وهذا هو علم المعرفة. ثم وراء هذا علومُ الخواطر وعلوم الْمُشاهدات الْمُكاشفات، وهي التي تختصُّ بعلم الإشارة. وهو العلم الذي تفرّدت به الصوفيةُ، بعد جمعها سائرَ العلوم التي وصفناها.

وإنما قيل ’علمُ الإشارة‘ لأنّ مُشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يُمكن العبارةُ عنها على التحقيق، بل تُعلَم بالْمُنازَلات والْمَواجيد. ولا يعرِفُها إلاّ مَن نازَل تلك الأحوالَ وحلَّ بتلك المقامات. روَى سعيد بن الْمُسيَّب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله فإذا نطقوا به لم يُنكِرْه إلا أهل الغِرَّة بالله»[1] وعن عبد الواحد بن زيد قال: سألتُ الحسنَ عن علم الباطِن فقال: سألتُ حُذَيفةَ بنَ اليمانِ عن علم الباطن فقال: سألتُ رسول الله عن علم الباطن فقال «سألت جبريلَ عن علم الباطن فقال: سألت الله عز وجلّ عن علم الباطن فقال: هو سِرٌّ من سرّي أجعلُه في قلب عبدي، لا يقف عليه أحدٌ من خلقي!»[2] قال أبو الحسن بن أبي ذر في كتابه ’منهاج الدين‘: أنشدونا للشِّبلي:

علمُ التصوُّف علمٌ لا نفادَ له — علم سُـــنّي سَماوي رُبـــوبي
فيه الفوائد للأرباب يعرفها — أهل الجَزالة والصُّنع الخُصوصي

ثم لكل مقام بَدءٌ ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة، ولكلّ مقامٍ علمٌ وإلى كل حالٍ إشارةٌ ومع كل مقام إثباتٌ ونَفيٌ. وليس كلُّ ما نُفيَ في مقام كان مَنفيا فيما قبلَه، ولا كلّ ما أُثبت فيه كان مُثبَتا فيما دونه، وهو كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا إيمان لِمَن لا أمانةَ له»[3] فنفَى إيمانَ الأمانة لا إيمان العَقد، والمخاطَبون أدرَكوا ذلك إذ كانوا قد حلُّوا مقامَ الأمانة أو جاوَزوه إلى ما فوقَه، وكان عليه السلامُ مُشرِفا على أحوالِهم فصرَّح لهم. فأما من لم يشرف على أحوال السامعين وعبَّر عن مقام فنفَى فيه وأثبت، جاز أن يكون في السامعين من لم يَحِلّ

[1] خرَّجه أبو شجاع الدَّيلَمي في ’الفردوس بمأثور الخطاب‘ موقوفًا، ر802، الكتب العلمية. وقال العراقي في ’المُغني في تخريج أحاديث الإحياء‘: رواه أبو عبد الرحمن السُّلَمي في ’الأربعين له التصوّف‘ من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

[2] لم أعثر له على سند غير هذا الذي ذكره الكلاباذي، على أنَّه كان عالِما بالحديث وطُرقه.

[3] خرَّجه أحمد ح12166 عن أنس بن مالك قال: ما خطبنا نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم إلا قال «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دينَ لمن لا عهد له!» وهو عند ابن حبان وحسَّنه الأرناؤوط.

ذلك المقام وكان الذي نفاه القائلُ مثبَتا في مقام السامِع، فيسبِق إلى وَهْم السامع أنه نفى ما أثبته العلمُ؛ فخطَّأ قائلَه أو بدَّعه وربما كفَّره.

فلما كان الأمر كذلك اصطَلحت هذه الطائِفة على ألفاظ في علومها تَعارَفوها بينهم ورَمزوا بها، فأدركه صاحبُه وخفيَ على السامع الذي لم يحلّ مقامَه. فإما أن يُحسِن ظنَّه بالقائل فيَقبلُه ويَرجِع إلى نفسه فيَحكُم عليها بقُصور فَهمِه عنه، أو يَسوء ظنُّه به فيُهَوِّس قائلَه ويَنسُبه إلى الهَذيان، وهذا أسلمُ له مِن رَدِّ حَق وإنكارِه. قال بعض المتكلِّمين لأبي العباس بن عطاء "ما بالُكم أيها المتصوِّفة قد اشتَققتُم ألفاظا أَغربتُم بها على السامعين وخرَجتم عن اللِّسان المُعتاد؛ هل هذا إلاّ طلَبٌ للتَّمْويه أو سِتر لعَوار الْمَذْهَب؟" فقال أبو العباس "ما فعَلنا ذلك إلا لغَيرتنا عليه لعِزَّته علينا كَيلا يشربَها غيرُ طائفَتنا!" ثم اندفع يقول

أحسنُ ما أُظـــهِره ونُظهـــره — بادئُ حقٍّ للقلوب نُشْعِره
يُخبِـــرُني عني وعنه أُخْـــبِره — أكسوه مِن رَونقه ما يَستُره
عن جاهل لا يستطيع يَنشُره — يُفسِدُ معناه إذا ما يَـــعبُره
فلا يُطبِق اللفظَ بل لا يَعشُره — ثم يُـــوافي غيرَه فيُـــخبِره
فيَظهَر الْجَهلُ وتَبدو زُمَـــرُه — ويَدرُس العلمُ ويَعفو أَثَـــرُه

وأنشدونا أيضا له:

إذا أهـــلُ العِـــبارة ساءَلـــونا — أجَـــبْناهم بأَعْـــلام الإشارَه
نُشـــير بِها فنَجعلُها غُـــموضًا — تَـــقصُر عنه تَرجَـــمَة العِباره
ونَشهَـــدُها وتَـــشهدُنا سُرورا — لَه في كلِّ جارحَـــةٍ إثـــارَه
تُرَى الأَقوالُ في الأَحوال أَسرَى — كأَسْر العاكفين ذَوي الخَسارَة[1]

واعلَم أن الخواطر تتغذّى من الخيال فتأخذ منه، تبدأ ضئيلةً محتشِمة ثم تكبُر حتى تصير وَهمًا ثم تتفاقم حتى تُصبحَ هَمّا ثم تعظُم لتكون حتما لازمًا لا مفرَّ ولا خلاصَ منه! فمَن كانت مُخيّلتُه

---

[1] انتهى النَّقل من 'التعرّف لمذهب أهل التصوف' ص89/86، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة.

قويَّةً ظنّ الخاطرَ مثلَ الجبل الراسي لا يتحرّك، ومَن ضعُفت مخيّلته رآه مثل السحاب يأتي ثم يذهب، واذكُر قولَ الله ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل 88] فالخاطرُ شاطِر، خَليعٌ قد أتعب أهلَه ومؤدِّبيه دهاءً وخُبثا، هو قاطع طريق فلا تُتبعْه فِكرَك ودَعه يَمضي وكأنّه لَم يكن. ولكن اِحرِصْ على التقلُّل من الشواغل في حياتك العاديّة لتَخِفَّ عليك وطأةُ الخواطر، فقد بلغنا عن عيسى عليه السلام أنه قال «لا تَكنِزوا لكم كُنوزًا على الأرض حيثُ يُفسِد السّوسُ والصَّدأُ وحيث يَنقُب السارِقون ويَسرِقون، بلِ اكنِزوا لكم كُنوزًا في السماء حيثُ لا يُفسِد سوسٌ ولا صدأٌ وحيث لا يَنقُب سارقون ولا يَسرِقون؛ لأنّه حيث يكون كنزُك هناك يكون قلبُك أيضا![1] قال الغزالي: عِلاج دفع الخواطر الشاغِلة قطعُ مَوادِّها، أعني النُّزوعَ عن تلك الأسباب التي تنجَذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك الموادُّ لا تنصرِفُ عنها الخواطر؛ فمن أحبَّ شيئا أكثرَ ذِكرَه. فذِكرُ المحبوب يهجُم على القلب بالضرورة، لذلك ترى أن مَن أحبَّ غيرَ الله لا تصفو له صلاةٌ عن الخواطر.[2] معنى هذا تركُ ملاذِّ الدنيا ومشاغلِها التي تُثقِلُ كاهِلَ الفِكر. إلاّ أنّ حركة الفِكر لا تهدأ، وتدفُّقُ الخواطر لا ينقَطع وإن قلَّ، فنصف دوائه في ترك الدنيا ونصفُه تجاهُلُ العبد الخاطرَ إذا وردَ وتركيزه على النفَس في موضع من جسده، كطرَف الأنفِ مثلا، فيشعُر بالحرارة عند إخراج النفَس مرفوقًا بـــ'لا إله' وبالبرودة عند إدخال النفَس الجديد مرفوقًا بـــ'إلا الله' ليحصُل المقصودُ ويدخل في عَدِّ الأنفاس ثم يخرُج منه إلى الخَلق الجديد بـــ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن 29]، ثم يخرج منه إلى الفناء عن النفس بـــ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ؛ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ!﴾ [القصص 88] وقد زالت عنه الأوهام.

حاصل ما قلناه أنّ للوِرْد مراحلَ: أوَّلُها استرخاءُ الجسم لخروج العضلات والأعصاب والعروق من تشنُّجها، ثم جَمْع الوعي على الجسَد ليستَقيم الظَّهرُ في الجلوس، قال أبو القاسم القُشيري يَصِف شيخَه الدقّاق: كان الأستاذ أبو علي رحمه الله لا يستَنِد إلى شيء، وكان يوماً في

[1] 'إنجيل متّى' الإصحاح السادس 19-21.

[2] 'إحياء علوم الدين' ج1-ص162، دار المعرفة، بيروت.

مَجمَع فأردتُ أن أضعَ وِسادة خلفَ ظهْرِه لأني رأيته غيرَ مُستند. فتنَحَّى عن الوِسادة قليلا فتوهَّمت أنّه توقَّى الوسادة لأنه لم يكن عليها خِرقَةٌ أو سجّادة، فقال "لا أريد الاستناد!" فتأمَّلتُ بعدَها حالَه؛ فكان لا يَستَنِدُ إلى شيء.[1] ذكر القشيري هذا في باب الأدب من رسالته، وهو كما ترى أدب مع الله لا مع الناس، أبو علي الدقّاق لم يكن يتَّكئ أبدًا، بل يظلّ ظهرُه مستَقيما لتلقّي المدَد الرحماني في كل حالاته، وهذا دليل رسوخ قَدمه في الطريق، وهو يدلُّ على قوَّة ظاهرِ الشيخ والتي هي دليل على قوّة باطنِه. فالذي يديم الجلوسَ للتفكُّر في الخلوة لا بدّ من أن يكونَ ظهرُه قويًّا حتى يقيمَه لمدَّة طويلة دون انحِناء فيفسح المجال لأحشائه كي تأخُذ قِسطَها الأوفر من الخلوة والفكر والذّكر.

ثم يأتي جَمعُ الوعي على النفَس في المنخارين ليكون متدفِّقًا بسهولة: لعلاقة النفْس بالنفَس وأنَّه أوَّل الرّزق وأكثرُه؛ فالشهيق جلْب النافع وهو غذاء والزفير دفع للمُضرّ وهو طَرح فضلات، لذا وجبت زكاة كل نفَس. كل شهيق غِذاء للنفس وكل زفير تطهير لها، وفي كل شهيق حياتُها وفي كل زفير موتُها، إلا أن يكون الزفير في ذكر الله، فحينها يكون حياةً بالله كما قال رسول الله «يُصْبِح على كل سُلامَى مِن أحدِكم صدقةٌ؛ فكلُّ تسبيحة صَدَقة، وكل تحميدة صَدَقة، وكلُّ تهليلة صدقة، وكلُّ تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونَهْي عن المنكَر صدقة. ويُجزِئ من ذلك ركعتان يركعُهما من الضُّحى!»[2] وقال صلى الله عليه وسلم «إنه خُلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاث مائة مَفصِل. فمن كبَّر اللهَ وحمد الله وهلَّل الله وسبَّح الله واستغفر الله، وعزَل حجَرًا عن طريق الناس أو شَوكةً أو عَظْما عن طريق الناس، وأمَر بمعروف أو نَهى عن منكر، عددَ تلك الستين والثلاث مائة السُّلامَى؛ فإنه يمشي يومئذ وقد زَحْزَح نفسَه

[1] 'الرسالة القشيرية' ص316.

[2] خرجه مسلم في صلاة المسافرين وأبو داود وأحمد عن أبي ذر الغفاري.

عن النار!»[1] وليقيِّد الذِّكر بالأنامل كما سنبيِّنُه عند ذكر التسبيح بعد الصلاة في صفة الصلاة إن شاء الله تعالى.

ثم يأتي جمعُ الوعي على الذِّكر، أي الانتقال من التفكر إلى التذكُّر، وهذا هو المطلوب. قال ابن عطاء الله في الحكمة 47 من حكَمه "لا تَترُكِ الذكرَ لعدَم حُضورك مع الله فيه؛ لأنّ غفلتَك عن وُجودِ ذِكره أشدُّ مِن غفلَتِك في وُجودِ ذِكره! فعسَى أن يرفَعك مِن ذكرٍ مع وُجود غَفلةٍ إلى ذِكر مع وُجود يَقَظة، ومِن ذكر مع وجود يقظَة إلى ذكْر مع وُجود حُضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكْر مع غَيبَةٍ عمَّا سِوَى المَذكور ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ!﴾ [إبراهيم 20]" هذه هي مراحل الذِّكر في الخلوة من أوَّلِها إلى آخرِها.

خير أوقات الذكر بعد صلاة الفجر إلى أن تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب. هذان الوقتان هما أفضل أوقات اليوم وقد أمر الله بذكره فيهما فمن ذلك قوله ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب 42] ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران 41] ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف 205-206] وقوله ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق 39-40] أي بعد الصلاة، وخاصّة صلاتَي الفجر والعصر كما بيّنه النبي بقوله صلى الله عليه وسلم «لأن أقعُد مع أقوام يذكرون الله من بعد صلاة الفجر إلى أن تطلُع الشمس أحبُّ إليَّ من أن أُعتق أربعة من بني إسماعيل، ديّة كلِّ رجل منهم إثنا عشر ألفا! ولأن أقعدَ مع أقوام يذكرون الله من بعد صلاة العَصر إلى أن تغرب الشمس أحب إليّ من أن أعتق أربعة من بني إسماعيل؛ دية كل رجل منهم اثنا عشر ألفا!»[2] الذكر أفضل ما يفعل العبد

---

[1] خرجه مسلم في الزكاة والترمذي والبخاري في 'الأدب المفرَد' عن عائشة وأبو داود عن بريدة.

[2] خرجه أبو يعلى ح3392 عن أنس، قال الهيثمي: ورواه أبو داود مختصرًا، وفيه محتسب أبو عائد، وثّقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. 'مجمع الزوائد' 16944.

في هذين الوقتين، لذا كثيرا ما كان رسول الله لا يقوم من مُصلاَّه الذي يصلي فيه الصبحَ حتى تطلُع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام[1] أي قضَى وقت طلوع الشمس وغروبها في ذكر الله.

وليحرص العبد على أن يكون وِردُه مستمَدًّا من كتاب الله، وليبدأْه بالتأمل في القرآن. فإذا أراد التسبيح ذكرَ مثلاً قول الله ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ: الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ!﴾ [الجمعة 1] وليقل: سبحان الملك القدوس العزيز الحكيم! وعند التحميد يذكر قولَه تعالى ﴿قُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى! آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ؟!﴾ [غافر 64-65] وليقل: الحمد لله رب العالَمين! وعند التكبير ﴿وَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء 111] وليقل: الله أكبر كبيرا! وعند التَّهليل ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ! لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ؛ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ. لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!﴾ [القصص 88] وليقل: ما جاء في الآية. وعند الاستغفار ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح 10] وليقل: أستَغفر الله إنَّه غفّار! وعند الصلاة على النبي ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ؛ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا!﴾ [الأحزاب 56-57] وليصلِّ عليه...

واعلَم أنّ ذِكر الله ليس موقوفا على الوِرد أو الخَلوة ولا مقصورًا على القلب والأفواه، ولكنَّه يشمَل كلَّ حالٍ يكون فيها العبد حاضرًا مع مولاه مُطيعا له تعالى عاصيًا لهواه. فقد يكون الطاعمُ ذاكرًا متى استَحضر قولَ الله ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنعام 142] وقد يكون الماشي في الطريق ذاكرًا كلَّما استدام قول الله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور 30] وقد يكون المتكلِّم مع غيره ذاكرًا لله متى راقب قولَه تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ!﴾ [ق 18] وقد يكون الإنسان ذاكرا لله متى حفظَ جوارحَه عملا بقول مولاه ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ!﴾ [فصلت 20] مُشفقا مما سيلقاه يوم

---

[1] خرجه مسلم في المساجد وأبو داود والترمذي والنسائي وأحمد عن جابر بن سَمُرة.

يتحقَّق قول الله ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ!﴾ [يس 65] الذِّكر أن يكون فكرُ العبد وكلامُه وحركاتُ وسكناتُه في مراقبة الله وآدابُه وتصرُّفاتُه فيما يُرضيه تعالى. وبالجملة يكفي قولُه تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ؛ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟! لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ؛ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟!﴾ [فاطر 3] كيف تدَّعون النِّسيان وأنتم في نعمتِ الله تتقلَّبون؟! ومَن تجرَّأ فما أشدَّ وطأة قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ؛ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ؟!﴾ [فاطر 3]

تَمتَّعْ مِنَ الدُّنيا فإنَّــكَ فــانٍ ... وإنَّكَ في أيدي الحوادث عانِ
ولا تَــنظُرنَّ اليومَ لَهوًا إلى غَدٍ ... وما لغَدٍ من حادثٍ بــأَمانِ!
فإنِّي رَأَيْتُ الدَّهرَ يُسْرِع بالفتَى ... ويَنقُــلُه حالَــينِ يَختَــلِفانِ
فأمّا الذي يَمضي فأحلامُ نــائمٍ ... وأَمَّا الذي يبقَــى له فأَماني!

عمل اليوم والليلة

إذا عرف العبد نفسَه وهجر الخلق وعزف عن الدنيا لَم يجد أنيسا إلا الله تعالى، ولكن بشرط أن يذكُره، وإلاّ ظلَّ في عَمًى لا يفارقه إلى يوم القيامة فالله يقول ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى!﴾ [طه 123] بلَغنا عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكَرني! فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذَكرني في مَلإٍ ذكرته في مَلإٍ خيرٍ منهم! وإن تقرَّب إلي بشبرٍ تقربتُ إليه ذِراعًا! وإن تقرَّب إلي ذراعا تقرّبت إليه باعًا! وإن أتاني يَمشي؛ أتيته هَرْولة!»[1] وذلك قولُه عزّ وجل ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ، وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ!﴾ [البقرة 152]

قلنا فيما سبق أنَّ الذِّكر علمٌ وعمَل وحال، وأنَّه غير مقصور على اللسان، ولكن لا يستَغني إنسان عن الذّكر باللسان، فإنَّه يؤنس النَّفسَ بِمعية الله ويطرد الشيطان ويُرضي الرحمن ويزيل

[1] خرّجه البخاري في التوحيد ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد.

الهمَّ والغَمّ ويجلِب الأُنسَ والسُّرور والبَسْط، ويَحطُّ الخطايا ويؤمّن العبد من الحسرة يوم القيامة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما اجتمع قومٌ فتفرَّقوا عن غير ذِكرِ الله إلاَّ كأنما تفرَّقوا عن جيفةِ حِمار وكان ذلك الْمَجلسُ عليهم حَسرةً!»[1] أي نَدامة.

وذلك لأن ذِكر الله ذُخرٌ يلقاه العبدُ في آخرَته. وبما أنّ الدُّنيا مزرَعة الآخرة، فمَن بذَر اليومَ حصدَ غدا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقيتُ إبراهيم ليلةَ أُسرِيَ بي فقال: يا محمدُ، أَقرِئْ أُمّتَك منّي السلامَ، وأَخبرْهم أن الجنَّة طيِّبةُ التُّربةِ عَذبَةُ الماءِ، وأنَّها قَيعانٌ وأن غِراسَها ’سبحان الله‘ و’الحمد لله‘ و’لا إله إلا الله‘ و’الله أكبر‘!»[2] قال ابن الأثير: قولُه قِيعان؛ جمع قاع، وهو المكان المستوي الواسع في وطاء من الأرض يعلوه ماء السماء، فيمسكه ويستوي نباتُه. وقولُه: غِراسها من الغراس مصدر؛ غرسَ الشجرة غَرْسا وغِراسا: إذا نصبها في الأرض.[3] لَم يقل إبراهيم: بَذْرتُها بل قال: غِراسُها، فالغِراس غير البَذر، وقد أصاب ابن الأثير في بيانه للغِراس أيَّما إصابة، وذلك لأنَّ كلَّ كلمة شجرةٌ والذِّكر أطيبُها، كما بيَّنه الله لنا بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً؟! كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا؛ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ! وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ، اُجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ؛ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ! يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ؛ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ!﴾ [إبراهيم 24-27] فكلُّ كلمة ذِكر شجرةٌ مغروسة في الجنَّة.

---

[1] خرجه أحمد ح 9040 والحاكم عن أبي هريرة وصحَّحه الأرناؤوط، وله شاهد عن جابر وأبي سعيد.

[2] انفَرد به الترمذي في الدعوات وقال "حسن غريب من هذا الوجه"، وهو قويٌّ لأنّ له شاهدين: عن أبي أيوب الأنصاري عند أحمد ح 23598، وعن ابن عمر عند الطبراني في ’المعجم الكبير‘ ح 13354.

[3] ’جامع الأصول‘ ج4-ص379، الحلواني/الملاح/دار البيان.

بلغنا عن عبد الله بن بُسر أن رجلا قال "يا رسولَ الله، إنّ شرائع الإسلام قد كَثُرَت عليّ، فأخبرْني بشيءٍ أتَشَبَّثُ به!" قال «لا يَزالُ لسانُكَ رَطْبا من ذِكر الله!»[1] فدلَّه على مداومة الذِّكر باللسان، وتلك السنّة فقد بلغنا عن عائشة أنها قالت: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يذكُر الله على كلِّ أحيانه![2] أي في جميع أوقاته. لذا فسنورِد فيما يلي مجموعةً طيِّبة من الأذكار التي بلغتنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يحسُن أن يستَعملها العبد في يومه وليلَته ليكون لسانُه رطبا من ذِكر الله كما أمر الله ورسولُه. إلاّ أنّنا لن نذكُر تخريجَها ولا اسم الصحابي الراوي لكثرَتها، وهي بالجملة في كتب الحديث وبخاصّة كتاب 'عمل اليوم والليلة' للنسائي وسَمِيِّه لتلميذه ابن السُّني و'الحصن الحصين' للجزَري و'الأذكار' للنووي وغيرها من مصنَّفات في هذا الفنّ، والله الموفِّق لا مُوفِّقَ سواه.

قل "اللهم فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة، ربَّ كلِّ شيء ومليكَه؛ أشهد أن لا إله إلا أنت: أعوذ بك من شر نفسي وشرِّ الشيطان وشِركه وأن أقترِف على نفسي سُوءًا أو أجرَّه إلى مسلم" قُلْها إذا أصبحتَ وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك! مَن قال "بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم" ثلاث مرات لم تصبه فجأةُ بلاءٍ حتى يُصبِح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي. من قال حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات "رضيت بالله رباًّ وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا" كان حقا على الله عز وجل أن يرضيه يوم القيامة. من صلى على النبي حين يصبح عشرا وحين يمسي عشرا أدركته الشفاعةُ يومَ القيامة. من قال حين يصبح "اللهم ما أصبح بي من نِعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدَك لا شريكَ لك؛ فلك الحمد" من قالها حين يصبح فقد أدّى شكر يومه ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته.

---

[1] خرجه الترمذي في الدعوات وابن ماجه والحاكم وأحمد وصححه الأرناؤوط.

[2] خرجه مسلم في الحيض وأصحاب السنن إلا النسائي وعلّقه البخاري.

ويقول في المساء "أمسَينا وأمسَى الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير! ربِّ أسألك خيرَ ما في هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك مِن شرِّ ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، ربِّ أعوذ بك من الكسَل والهرم وسوء الكِبَر، وأعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر" وإذا أصبح قال "أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير! ربِّ أسألك خيرَ ما في هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك مِن شرِّ ما فيه وشر ما بعده، ربِّ أعوذ بك من الكسَل والهرم وسوء الكِبَر، وأعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر"

إذا كان جُنحُ اللَّيل أو أمسَيتم فكُفّوا صبيانَكم، فإنّ الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهبَ ساعةٌ من الليل فخَلّوهم وأَغلقوا الأبوابَ واذكُروا اسمَ الله، فإن الشيطان لا يفتَح بابا مُغلَقا. وأَوكوا قِرَبَكم وَاذكُروا اسمَ الله، وخَمِّروا آنيتَكم واذكروا اسم الله، ولو أن تَعرِضوا عليها شيئا، وأَطفئوا مَصابيحَكم. ويستحب أن يتوضأ قبل أن يأوي إلى فراشه وينفضه، وإذا أخذ مضجعَه قال "الحمدُ لله الذي كفاني وآواني، وأطعمني وسقاني، الحمد لله الذي منَّ عليَّ فأفضَلَ والذي أعطاني فأجزلَ، الحمد لله على كل حال!" ثم قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ؛ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ! وَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ! لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ؛ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا؛ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ!﴾ [البقرة 285-286] مَن قرأ سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ..﴾ [الملك 1] كلَّ ليلة مَنعَه الله بها من عذاب القبر. وإذا استيقظ من آخر الليل قبل صلاة قيام الليل ينظر إلى السماء ويقرأ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ؛ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ! فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ!﴾ [آل عمران

190-191] ثم يجمع كفيه وينفُث فيهما ويقرأ سورة الإخلاص ﴿قُلْ: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ..﴾ وسورة الفلق ﴿قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ..﴾ وسورة الناس ﴿قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ..﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه؛ يفعل ذلك ثلاث مرات، ثم يقرأ آية الكرسي ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة 255] ويقول: الله أكبر أربعا وثلاثين مرّة وسبحان الله ثلاثا وثلاثين والحمد لله ثلاثا وثلاثين –وهو من حديث علي أنّ فاطمة عليها السلام شكت له ما تلقَى من عمل البيت، فانطلقَت فلم تجد النبيَّ صلى الله عليه وسلم ووجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبرته عائشة بمجيء فاطمة قالت: فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم إلينا وقد أخذنا مضاجعَنا فذهبتُ لأقوم فقال «على مكانكما!» فقعد بيننا حتى وجدتُ بَردَ قدَميه على صَدري وقال «ألا، أُعلِّمُكما خَيرا مما سَألتُماني؛ إذا أخذتما مضاجعكما: تُكبِّرا أربعًا وثلاثين وتُسبِّحا ثلاثا وثلاثين وتحمُدا ثلاثا وثلاثين؛ فهو خير لكما من خادِم!»[1] ثم يضطجع على شقه الأيمن ويقول "باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فارحمْها وإن أرسلتها فاحفَظها بما تحفظ به عبادَك الصالحين" ثم يقول قبل أن ينام "اللهمَّ أسلمتُ نفسي إليك وفوّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رَغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجَا منك إلا إليك؛ آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ ونبيِّك الذي أرسلت"

وإذا فارَقَه النَّوم وأصابه الأرَقُ فليقُل "اللهم غارت النجومُ وهدأت العيون وأنت حيٌّ قَيّوم لا تأخذُك سِنةٌ ولا نوم؛ يا حيُّ يا قيوم، أهدئ ليلي وأنم عيني!" وعند الفزع في نومه يقول "أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون" وإذا استيقظ أثناءَ النوم وأراد أن يتحول إلى جنبه الآخر فليقل "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله

[1] خرّجه البخاري في المناقب وابن حبان والبزار والطيالسي عن ابن أبي ليلى.

الحمد وهو على كل شيء قدير! والحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ اللهم اغفر لي!" أو دعا استُجيب له، فإن توضأ قُبلت صلاتُه. وإذا استيقظ من النوم قال "الحمد لله الذي أحيانا بعدَ ما أماتنا وإليه النشور" و"الحمد لله الذي ردَّ عليَّ روحي وعافاني في جسَدي وأذن لي بذكره!" وإذا رأى في نومه ما يحبُّ فليحمَد الله ولا يحدِّث بما رأى إلا مَن يُحبّ، وإذا رأى ما يكرَه فلينفُث ثلاثا عن يساره وليتعوَّذ بالله من الشياطين ومن شرّها ثلاثا ولا يذكرُها لأحد، وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه؛ فإنها لا تضرُّه.

عند اللبس يبدأ باليمين وقال "بسم الله"، وإذا نزعه بدأَ بالشِّمال وقال "بسم الله". وإذا لبس ثوبا أو نعلا جديدا يقول "الحمد لله الذي كساني هذا ورَزَقَنيه مِن غير حولٍ مني ولا قوة! اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيرَه وخير ما صُنع له وأعوذ بك من شرِّه وشر ما صنع له!" ومَن رأى على صاحبه ثوبا جديدا فليقُل له "تُبلي ويُخلف الله تعالى!"

مَن قُدِّم له طعام فليقُلْ "اللهم باركِ لنا فيما رزَقتَنا وقنا عذابَ النار؛ بسم الله!" وليأكل مما يليه بيمينه وإن نسي أن يذكر الله في أول طعامه فليقل متى تذكَّر "بسم الله أوَّلَه وآخرَه!" وإذا فرَغ من الأكل ليقل "الحمدُ لله كثيرًا طيِّبا مبارَكا فيه، غيرَ مَكْفيٍّ ولا مُودَّعٍ ولا مُسْتَغْنًى عنه؛ رَبَّنا!" وإذا شرب ماءً أو غيرَه قال "بسم الله!" وأمّا اللبن فيقول "بسم الله، اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه!" وذلك لكون اللبن تجسيدًا للعلم، فوافق أمر الله تعالى ﴿ وَقُلْ: رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا!﴾ [طه 114]

إذا أراد دخولَ الخلاء يقول "اللهم إني أعوذ بك من الخبَث والخبائث!" وقدّم الرجلَ اليُسرى. وسترُ ما بين أعيُن الجنِّ وعورات بني آدم إذا دخل الكَنيف أن يقول "بسم الله" فإذا أراد نزع لباسه لقضاءِ حاجته قليقل "بسم الله" ولا يُطيل المُكث في الكنيف، وإذا خرج منه قدَّم الرجل اليُمنَى وقال "الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني" ويحسن الوُضوء بعد الخروج من الخلاء ليكون دائمًا على طهارة.

وإذا خرج من بيته يقدِّم رجلَه اليسرى ويقول "باسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضِلَّ أو أَزِلَّ أو أُزِلَّ أو أَظلِمَ أو أُظلَم أو أَجهَل أو يُجهَل عليّ!" إذا دخل بيته قدم رجلَه اليمنى وقال "اللهم إني أسألك خيرَ الْمَولِج وخيرَ الْمَخرِج؛ بسم الله ولَجْنا وبسم الله خَرجنا وعلى الله ربنا توكَّلنا!" ثم يسلِّم على أهله فإنها بركة عليه وعلى أهله، يفعلُ ذلك وإن لَم يرَ في البيت أحدا

مَن خرج متوجِّهًا إلى المسجد لصلاة الصبح قال بعد دعاء الخروج من البيت ثم زاد "اللهم اجعلْ لي في قلبي نوراً وفي لساني نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا ومن فوقي نورا ومن تحتي نورا وعن يميني نورا وعن شمالي نورا ومن بين يدي نورا ومن خلفي نورا واجعل لي في نفسي نورا وأعظم لي نوراَ" فإن رأى مُنكَرا غيَّرَه بما استَطاع بيده أو بلسانه أو بقلبه ولا يمرُّ وكأنَّه لَم يرَ شيئًا، بل أقلُّ أحواله أن يأسَف لما رآه من منكَر وليقُلْ إذا عجَز "حسبُنا الله ونِعمَ الوكيل!" وعند الغضب يكظِم ما استطاع ويقول "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فإذا خاف قومًا فليقُل "اللهم نجعلُك في نُحورهم ونَعوذ بك من شُرورهم!" وإذا استصعب عليه الأمر قال "اللهم لا سهلَ إلاّ ما جعلتَه سهلا؛ وأنت تجعل الحَزَن إذا شئت سهلا!" فإن وقع له ما لا يحب قال "قَدَّرَ اللهُ، وما شاء فعل!" ولا يقولنَّ "لو فعلتُ كذا لكان كذا!" فإن لو تفتح عمل الشيطان. إذا رأى مبتلى يقول "الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضّلني على كثير ممن خلق تفضيلا!"

فإذا بلَغ المسجد قدَّم رجلَه اليُمنى وقال "السلام عليك أيّها النبي ورحمةُ الله وبركاتُه! اللّهُمَّ افْتح لي أبواب رحمتك!" وإذا خرج فليقل "اللهم إني أسألك من فضلك!" وليسلّم على الجماعة الذين يجد بينَهم موضعا، وليصلِّ ركعتَين قبل أن يجلِس في أي وقتٍ كان، إلا أن يكون الناس قد دخلوا في الصلاة خلف الإمام أو أن يقوم المؤذِّن لإقامة الصلاة، فحينَها لا تجوز له صلاةٌ إلا المكتوبة التي شُرِع فيها، وستأتي الأدلَّة على ذلك في مواضعِها إن شاء الله تعالى.

إذا أصاب العبدَ كربٌ فليقُلْ "اللهم رحمتَك أرجو، فلا تَكلْني إلى نفسي طرْفةَ عين وأصلِح لي شأني كلَّه؛ لا إله إلا أنت!" أو "لا إله إلا الله العظيمُ الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا

إله إلا الله رب السماوات وربُّ الأرض، ربُّ العرش الكريم!" وإذا نابَه شيءٌ قال "يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث!"] ومَن أصابتُه مُصيبة فليقُل "﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة 156] اللهم أَجرني في مُصيبتي وأَخلِف لي خَيرا منها!" وإذا نزل به همٌّ أو غَمّ أو حُزن يقول "اللهم إني عبدُك ابنُ عبدك وابن أَمَتك ناصيَتي بيَدك، ماضٍ فِيّ حُكمُك، عَدلٌ فيّ قضاؤُك؛ أسأَلُك بكلِّ اسمٍ هو لك سَمَّيتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علَّمتَه أحدًا من خَلقك أو استَأثرتَ به في علمِ الغَيب عندَك أن تَجعلَ القرآنَ العظيمَ رَبيعَ قَلبي ونورَ صَدري وجَلاءَ حُزني وذَهابَ هَمّي!"

مَن شاهد طلوع القمر يقول "أعوذ بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب" إذا رأى الهلال يقول "اللهم أهِلّه علينا باليُمن والإيمان والسلامة والإسلام! ربي وربك الله!" إذا عصَفت الريح يقول العبد "اللهم إني أسألك خيرَها وخير ما فيها وخير ما أُرسلَت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشرِّ ما أرسلت به!" وإذا رأى سحابًا ناشئا في أُفُق السماء يترك العملَ، وإن كان في صلاةٍ خَفَّفَ، ثم يقول "اللهمّ إنّي أعوذ بك من شَرِّها!" فإن مُطِرَ قال "اللّهم صَيِّبا هَنيئا!" وإذا سمع الرعد قال "سُبحان الذي يُسبِّح الرَّعدُ بحمدِه والملائكةُ من خيفَته؛ إن هذا لوعيدٌ شديد لأهل الأرض!" وإذا سمع الصواعق يقول "اللهم لا تقتُلنا بغضَبك ولا تُهلِكنا بعَذابك وعافِنا قبل ذلك" وعند نزول المطر يقول "مُطِرنا بفَضل الله ورحمته، اللهم صَيِّبا نافعا" وإذا كثُر المطر وخشي منه الضَّرر قال "اللهم حوالَينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظِّراب وبطون الأودية ومنابت الشجر!" والظَّرب التلُّ الصغير.

إذا عطس يضع ثوبه أو يده على فيه ويخفض صوته ويقول "الحمد لله" وليقل له من سمِعه صاحبه "يرحمك الله" فيردُّ "يَهديكم اللهُ ويُصلِحُ بالَكم" وإذا تَثاءب يَكظِمُ ما استطاع، فإن غلبه وضع كفه الأيسر على فمه، ولا يُحدِثْ صوتًا. إذا دخل السوق يقول "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير!" وإذا كان في مجلس تكلَّم فيه فليقُل قبل أن يقوم قبل أن يقوم "سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت؛ أستغفرك وأتوب إليك!"

مَن رأى ما يعجبه فليقل "ما شاءَ الله لا قوَّةَ إلا بالله، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات" إذا وقع بيَده أوَّلُ الثمَر يقول "اللهم بارِك لنا في ثَمَرنا وبارك لنا في صاعِنا وبارك لنا في مُدِّنا!" ثم يعطيه أصغر من يحضُر من الصبيان وإذا اشترى دابة أو سيارة ونحوهما يقول "اللهم إني أسألُك خيرَها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرِّها وشر ما جبلتها عليه!"

إذا أراد العبد أن يُسافِرَ استَخار الله، وليُحافظ على الاستخارة عند كلّ أمر مهمّ، وسيأتي بيان ذلك في موضعه من ذكر صفة الصلاة. ويُستحبُّ الخروج للسفر يومَ الخميس وأن يكون أول النهار وليصلِّ في بيتِه ركعتين قبل الخروج فما خلَّف عبدٌ أهلَه أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد السفر. وعند الوداع يقال للمسافر "أَستَودِع الله دينَك وأمانتَك وخَواتيم عَملك" ويرد المسافر بقوله "أستودعك الله الذي لا تَضيع وَدائعه!" فإذا ركب على الدابَّة أو السيارة أو غيرها من وسائل النَّقل فليقُل "الله أكبر الله أكبر الله أكبر! سُبْحانَ الذي سَخَّرَ لَنا هَذا وما كُنّا لهُ مُقْرِنين وإنّا إلى رَبِّنا لَمُنقَلِبون، اللهم إنا نسألُك في سفرنا هذا البِرَّ والتقوَى ومِن العَمل ما تَرضَى، اللهم هوِّن علينا سَفرَنا هذا واطْوِ عنَّا بُعدَه، اللهم أنت الصاحِبُ في السَّفَر والخَليفَةُ في الأهل، اللهمَّ إني أَعوذ بك من وَعثاء السفَر وكَآبَة المَنظَر وسوءِ المُنقَلَب في المال والأهل، ومن الحَوَر بعدَ الكَوَر ومن دعوة المظلوم!" ويستحب له الذِّكرُ والدُّعاء طوالَ سفرِه؛ لأنّ ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوةُ الوالد ودعوة المسافِر ودعوة المظلوم. فإذا علا شرَفاً أو صعَد ثنيَّة كبَّر وإذا هبَط سبَّح وإذا عثرت دابته يقول "بسم الله" وإذا نزل مترلا يقول "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق!" فإذا أقبل الليل وهو مسافر يقول "يا أرضُ، ربِّي وربُّكِ: الله! أعوذ بالله مِن شرِّك وشر ما فيك وشَر ما خُلق فيك وشر ما يَدُبُّ عليك، أعوذ بكَ من أَسَدٍ وأَسْوَدَ ومن الحيَّة والعَقرب ومِن ساكن البَلد ومِن والد وما ولد!" وإذا رأى قريةً أو مدينة يريد دخولَها يقول "اللهم ربَّ السموات السبْعِ وما أَظْلَلْنَ والأرَضين السَّبع وما أَقْلَلْنَ وربَّ الشياطين وما أضْلَلن وربَّ الرياح وما ذَرَين، أسأَلُك خيرَ هذه القَرية وخيرَ أهلِها وخيرَ ما

فيها، ونَعوذ بك من شرِّها وشر أهلِها وشر ما فيها!" وعند العودة من السفر يقول "آيِبون تائِبون عابدون، لرَبِّنا حامِدون!" ولا يدخُل على أهلِه ليلاً، ويَبدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين.

مَن أصابه مرضٌ فليصبِر وليحتَسب وليرتَقِ إن شاء، فأنفع الرُّقية وأكثرها تأثيرا رقية الإنسان نفسَه بقراءة الفاتحة أو آية الكُرسي أو غير ذلك من القرآن، ومن الرُّقى النافعة قول العبد على نفسِه أو على غيره "باسم الله أَرْقِيك مِن كلِّ داء يُؤْذيك ومن شرِّ كُلِّ نفس وعَين، باسم الله أرقيك والله يَشفيك!" وإذا اشْتكى الشيءَ منه، أو كانت به قَرْحة أو جُرْح بَلَّ إصبعَه بِريقِه ثم وضعها بالأرض ثم رفعها وقال "بسم الله؛ تُرْبةُ أرضِنا برِيقَة بعضِنا، يُشْفَى سقيمُنا بإذن ربِّنا!" وإذا اشتكَى ألَمًا في جسده يضع يده على موضع الألَم ويقول "بسم الله!" ثلاثا، ويقول سبعًا "أعوذُ بعزَّة الله وقُدرته مِن شَرِّ ما أَجِدُ وأُحاذِرُ!"

في زيارة المرضى واصطِناع المَعروف خيرٌ كثير لما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يومَ القيامة: يا ابنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني! قال: يا ربِّ، كيفَ أعودُك وأنت ربُّ العالمين؟! قال: أمَا علمتَ أنّ عبدي فُلانا مَرِضَ فلم تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنَّكَ لو عُدتَهُ لوجَدتني عنده؟ يا ابنَ آدم، اِستَطْعَمْتُكَ فلَم تُطعِمْني! قال: يا ربِّ، كيف أطعِمُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! قال: أمَا علمتَ أنه اِستَطعَمَكَ عبدي فُلانٌ فلم تُطْعِمْهُ، أمَا علمتَ أنَّكَ لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدم، اِستَسقيْتُكَ فلم تَسْقِني! قال: يا ربّ، وكيف أسقيكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! قال: اسْتَسقَاك عبدي فُلان فلم تَسْقِه، أما إنَّك لو سَقَيْتَهُ وجدتَ ذلك عندي!»[1] فإذا دخل على المريض يقول "لا بأسَ، طَهورٌ إن شاء الله!" ويستأذِن المريض ليُعوِّذَه فيَمسَح بيده اليمنى على بدنه قائلاً "اللهم ربَّ الناس أَذهِب البأس، واشْفِ أنت الشّافي، لا شفاء إلا شفاؤُك، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَما!"

وإن يئِسَ أحدٌ من العيش لِمرض عُضال أو حادث أصابَه فلا يجوز له أن يتمنَّى الموت ولكن يقول "اللهم أحْيِني ما كانَت الحياةُ خيرًا لي، وتَوَفَّني إذا كانت الوفاةُ خيرا لي!" وليداوِم ذِكرَ الله

---

[1] خرّجه مسلم في البر والبخاري في 'الأدب المفرَد' وابن حبان عن أبي هريرة.

وبخاصَّة ’لا إله إلا الله‘، وكذا الاستغفار والتَّوبة والإنابة إلى الله والصلاة على نبيِّه الذي قال «مَن صلَّى عليَّ صلاةً واحِدة، صلَّى اللهُ عليه عَشْرَ صَلَوَات، وحُطَّت عنه عَشْرُ خَطِيآت، ورُفِعَتْ له عَشْرُ دَرَجَات!»[1] وليَعزِم على أنَّه إن مدَّ الله في عمرِه ليَعملنَّ صالحا وليكوننَّ من الشاكرين، وإن قدَّر الله موتَه في مرضه ذاك فليَرْضَ بقضائه تعالى وليُرحِّب بملَك الموت وليحرِصْ على أن يكون أشدَّ محبَّة لله إذا حلَّ به الموت، فقد دلَّنا رسولُ الله على هذا بقولِه «مَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كرِهَ لقاءَ الله كَرِه الله لِقاءَه!»[2] وإن لَم تكن أفعالُه في عافيتِه حسنة، فمحبَّةُ الله هنالك من أحسَن الأفعال على الإطلاق، وإن خاف شيئًا فليكُن سوءِ أعمالِه لا الله ربِّ العالمين، بل لِيَطمئنَّ له تعالى وليُسلِّم، وقد بلغنا أن رسولَ الله دخل على شابٍّ وهو في الموت فقال «كيف تَجِدُك؟» قال "واللهِ يا رسولَ الله أنّي أرجُو اللهَ، وإني أخافُ ذُنوبي!" فقال صلى الله عليه وسلّم «لا يَجتَمِعان في قلبِ عَبدٍ في مِثل هذا الْمَوطِن إلاّ أعْطاه اللهُ ما يَرْجو وآمَنَه ممّا يَخاف!»[3]

ذنوبي لإن فكَّرت فيها عظيمةٌ ورحْمةُ ربّي مِن ذنوبي أَوسَعُ
وما طَمَعي في صالِحٍ قد عَمِلتُه ولكنّني في رحمة الله أطْـمَعُ
مَليكي ومَولايا وربِّي وحافِظي وإنّي له عبدٌ أُقِـرُّ وأخضَعُ

يَحسُن جدًّا توجيهُ الْمُحتضَر، وهو الْمُشرِف على الموت، إلى القِبلَة. وذلك بأن يُوضَع في فِراشه على جَنبه الأيمن مُستقبِلا بصدرِه ووجهه القِبلة. وكذا تلقينُه الشهادةَ، بأن يقال له: يا فُلان، قُلْ ’لا إلهَ إلا الله، مُحمَّدٌ رسول الله‘! ولكن برِفْق ورحمَة ومن دون إكثار عليه لئلاّ يضجَر، ولا يُقال عندَه إلا خير، ويُذكَّر بسَعة رحمة الله ولا يُيأَّس ولا يُقنَّط وإن ساءت أفعالُه في أيامه الخالية، وليُتلَى عليه قولُ الله ﴿قُلْ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ؛ لاَ تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ!﴾ [الزمر 53] وبقول يعقوبَ لأبنائه

[1] خرجه النسائي في الصلاة وأحمد عن أنس وله شاهد عن عبد الله بن عَمرٍو.
[2] خرجه البخاري في الرقاق وباقي الجماعة إلا أبا داود عن أبي موسى الأشعري وله شواهد.
[3] خرجه الترمذي في الجنائز وقال: حسن غريب. وابن ماجه عن أنس بن مالك.

﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ؛ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ!﴾ [يوسف 87] والرَّوح هو الفرَج، فإنَّ علامة الإسلام لله الرَّجاءَ لفضلِه ورحمتِه تعالى، وإنَّ مِن أحسن الخواتِم حُسن الظَّن بالله والطَّمع في رحمتِه سبحانَه وتعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحْسِنُ الظنَّ بالله!»[1]

إلَهي أنت ذو فَضل ومَنٍّ ... وإني ذو الخطايا؛ فَاعفُ عنّي!
فظَنّي فيك يا ربِّي جَميلٌ ... فحقِّـــق يا إلَهي فيك ظَـــنّي
يظنُّ الناسُ بي خيرا وإنّي ... أَضلُّ الناس إن لَم تَعفُ عنّي!

وذلك لأنَّ رحمة الله لا يحدُّها شيءٌ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَمّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كتبَ في كتابه، وهو يكتُب على نفسِه، وهو وَضعٌ عنده على العرش: إنّ رَحْمَتي تَغْلبُ غَضبي!»[2] ومصداقُه من القرآن قولُه تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ!﴾ [الأعراف 156] ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا؛ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ!﴾ [غافر 7] خاصَّةً مَن كان يلفظُ آخرَ أنفاسه وهو مُضطرّ أحوَجَ ما يكون إلى ربِّه وأفقَرَ، فالله يستجيبُ لَه ويرحمُه إن شاء ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ؟!﴾ [النَّمل 62] الكيِّس يغتَنم كلَّ لحظَة يعيشُها ليتقرَّب إلى الله ويتوب إلى مولاه وذلك إلى أن يدركَه الموتُ، فقد بلغنا عن رسول الله أنه قال «إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرغرْ»[3] ﴿مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا؛ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا! وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا!﴾ [الفرقان 70-71] فالعاقل يكون طِوالَ حياته بين الخوفِ والرجاء، ولكن إذا

---

[1] خرجه البخاري في التوحيد ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

[2] خرجه البخاري في التوحيد ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

[3] خرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان وأحمد عن عبد الله بن عمر وحسَّنه الأرناؤوط.

أصابَته مُصيبَة، وموتُه الذي حلَّ به أعظَم المصائب، فلا بدَّ له حينئذ أن يُغلِّبَ رجاءَه على خوفِه، فيُحسنَ الظنَّ بالكريم الغفار الودود الرَّحيم ويستحضر أنه قادم على أكرم الأكرمين.

طامعٍ في رحْمة الله وما خاب عبدٌ طامع لَم يَـــيأسِ
يا إلَهي جُد عليّ بتَوبة يا كريما، قبلَ أخْذ الأنفُسِ!

الشيطان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان قد يئس أن يَعبُدَه المُصلّون، ولكن في التحريش بينهم»[1] لكنّه لم ييأس من التحريش وهو إثارة العداوة حتى يتقاتلَ المصلّون فيما بينهم. هذا والخبر يدلُّ بطريق التضمُّن على أنّه مَن لا يصلي فهو عبدٌ للشيطان، لذا أمر الله مَن شرَع في تلاوة كتابه أن يستجيرَ به تعالى من الشيطان، حتى لا يلتَبس عليه القرآن في الدنيا ولا يكونَ عليه حسرةً يومَ القيامة، فقال سبحانَه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ؛ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ!﴾ [النحل 98] أي إذا أردتَ القِراءة فابدَأْها بالاستِعاذة، والعِياذ هو طلب الحماية ممّا يضرُّ بالالْتِجاء والاعتصام، وهو كاللِّواذ، ومنه قول الْمُناجي:

يا مَن أَلــوذُ به فيما أُؤَمِّــلُه، ومَن أعــوذ به مِمّا أُحاذِرُه!

وقد بيّن رسولُ الله مَوضِعَ هذه الاستعاذةِ خاصَّةً، فكان إذا قام للصلاة كبّر ثم قال «سبحانك اللهُمَّ وبحمدك وتبارك اسْمُك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك! لا إلهَ إلا اللهُ، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله! اللهُ أكبَرُ كَبيرًا، الله أكبرُ كبيرًا، الله أكبرُ كبيرا! أعوذُ بالله السميعِ العليمِ من الشيطان الرجيم: مِن هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه!» ثم يقرأُ[2] يعني الفاتحةَ، لقوله صلى الله عليه وسلم «لا صلاةَ لِمن لَم يقرأْ بفاتحة الكتاب!»[3] ولكنّ ذلك مُقيَّد بحُضورِ القلب، وإلا لَم ينفَع صاحبَه كما بيَّنه الله بقوله ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ! إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا، إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا؛ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ!﴾ [الأعراف 200-201] فالإبصارُ لا يكون إلا بلُزوم التقوَى والتذكُّر عند أوّل المَسّ.

---

[1] خرَّجه الترمذي في البر والصلة ومسلم وابن حبان وأحمد عن جابر بن عبد الله.

[2] صحيح خرجه أبو داود في الصلاة وأصحابُ السنن وأحمد عن أبي سعيد الخدري ، وله شاهد عن جُبير بن مطعم خرجه ابن حبان في صفة الصلاة وابن ماجه وأحمد وحسّنه الأرناؤوط.

[3] خرّجه البخاري في الأذان ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، عن عُبادةَ بن الصّامِت.

الشيطانُ اسمُ جنس كما يُقال: الإنسان والحيوان. قيلَ هو من شاط أي هلَك، وقيل من شطَّ أي بَعُد، وقيل من شطن أي قَويَ. والصواب أنّه جامع لتلك المعاني كلّها، فهو كلُّ عات مُبعَد هالك سواءً كان من الإنس أو من الجنّ كما يدل عليه قول الله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ؛ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ! فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ!﴾ [الأنعام 112] وهُم كلُّ مَن أبعَده الله تعالى واستَعبدَه إبليسُ فكان عَوناً له على الناس ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ!﴾ [الشعراء 95]

يقول ربنا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ: اسْجُدُوا لِآدَمَ! فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ، كَانَ مِنَ الْجِنِّ، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ؛ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟!﴾ [الكهف 50] فإبليسُ اسمٌ عَلَمٌ وهو أبو شياطين الجنّ، ثم كثيرٌ من الإنس ينتَسبون إليه على أنّهم من حزبه، وكلُّهم أعداء للإنسان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ؛ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا! وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ! إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ؛ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا! إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ!﴾ [فاطر5-6]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ! قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا! أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ؟!﴾ [لقمان 21] وذلك ما سيظهر يومَ القيامة ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ! وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي! فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ! مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ! إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ! إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ!﴾ [المائدة 85] فوُعود الشياطين كلُّها كاذبة ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ. وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ؛ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا! وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [البقرة 268-269]

أوّلُ هذه العداوة سجدةٌ واحدة، لا أكثر؛ أمر اللهُ بها ولكنّ إبليس عصَى وأبَى، وقد أنبأنا الله بما حصَل في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ: اُسْجُدُوا لِآدَمَ! فَسَجَدُوا، إِلاَّ إِبْلِيسَ؛ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ!﴾ [البقرة 34] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ: إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ

مَّسْنُون! فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي؛ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ! فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ: يَا إِبْلِيسُ، مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ؟! قَالَ: لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ! قَالَ: فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ! وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ!﴾ [الحجر 28-35]

ولَمّا كان آدَمُ سببًا في خروج إبليس من رحمة الله وحلول اللعنة عليه، أراد أن يثأرَ لنفسه فعمل على إخراج آدم وزوجه من الجنَّة، قال الله ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي إبليسُ العاتي المُبعَدُ الهالك، إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ؟!﴾ [الأعراف 20-22] وكذلك ذُرِّيةُ آدم هي أيضا على خَطَرٍ من الشيطان ﴿قَالَ: رَبِّ، فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ! قَالَ: فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ! قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي، لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ! إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ!﴾ [الحجر 36-40] فهم على خطر عظيم من الشيطان وذلك من حينِ خُروجهم من أَرحامِ أمّهاتهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من بني آدم مَولودٌ إلاّ يَمَسُّه الشيطانُ حين يُولَد؛ فَيستَهِلّ صارخًا من مَسِّ الشيطان، غيرَ مَريمَ وابنها!»[1] لأنّ أمّ مريم لَمّا وضعَتها قالت ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ!﴾ [آل عمران 36] فسلِم مريمُ وعيسى من مَسِّ الشيطان. أمّا باقِي بني آدمَ فلا يُفارِقُهم الشيطان طِوال حياتهم، كما قال النبي «إنّ الشيطان يَجري من الإنسان مَجرَى الدَّمِ!»[2] فلا يَخلو عضوٌ من وسوَسته، وقال صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قَرينُه من الجن!» قالوا "وإيّاك، يا رسولَ الله؟" قال «وإيايَ، إلاّ أن الله أعانني عليه فأَسلَمَ؛ فلا يَأمُرني إلا بخير!»[3] فالقَرين الجِنِّيُّ الذي فإن كان مسلمًا كما كان قرينُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فذاك أخٌ في الدين وإن كان كافرًا فهو شيطان مَريد كما قال الله

[1] خرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ومسلم وأحمد عن أبي هريرة.

[2] جزء من حديث خرجه البخاري في الاعتكاف ومسلم عن علي زين العبدين عن صفية.

[3] خرجه مسلم في صفة القيامة والدارمي وأحمد عن عبد الله بن مسعود.

تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ؛ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ! وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ!!﴾ [الزخرف 36-37]

قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم يصلّي ذاتَ مرّة فسمِعوه يقول «أعوذُ بالله منك!» ثم قال «أَلعَنُك بِلَعنَة الله! أَلعَنُك بلَعنة الله! ألعنك بلعنة الله!» وبَسط يدَه كأنّه يَتناوَلُ شَيئًا. فلما فَرَغَ من الصلاة قالوا "يا رسولَ الله، قد سَمِعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمَعْك تقولُه قبلَ ذلك ورأيناك بَسَطتَ يدَك؟!" قال «إنّ عدُوَّ الله إبليسَ جاءَ بشهاب من نار ليجعله في وَجهي فقلتُ "أعوذُ بالله منك!" ثلاثَ مرّات، ثم قلتُ "ألعنُك بلَعنة الله التامَّة! ألعنك بلَعنة الله التامة! أَلعَنك بلعْنة الله التامّة!" فلَم يَستأخِرْ، ثم أردتُ أن آخُذَه. واللهِ لولا دَعوةُ أخينا سُليمانَ، لأصْبَحَ مُوثَقًا بها يَلعَبُ به وِلدانُ أهلِ المدينة!»[1] فإن جَسَرَ إبليس التَّعيس حتى تعرَّضَ لمحمّد رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم وحبيبه، فمَن دونَه من الناس على خطر كبير، أعاذني الله وإياك من شرِّه.

قد أنبأنا الله بذلك حيث قال الشيطانُ له تعالى ﴿فَبِعِزَّتِكَ، لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ!﴾ [ص 82-83] وبيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «قال إبليس: أَيْ ربِّ، لا أزال أُغوي بني آدم ما دامَت أرواحُهم في أجسادهم! فقال الربُّ عزّ وجل: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني!»[2] فلا جرَم أن يحذَرَه العالمون ولا يغترّوا به، فعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حَضرَت أبي الوفاةُ فجَلَستُ عنده وبيدي الخِرْقةُ، وهو في النَّزْع، لأَشُدَّ لحْيَيه. فكان يَغرقُ حتى نَظنُّ أن قد قَضَى، ثم يُفيق ويقول "لا، بَعْدُ! لا، بَعدُ!" بيَده. ففعَلَها مرّةً وثانيةً، فلمّا كان في الثالثة، قلتُ له "يا أَبَتِ، إيشْ هذا الّذي قَد لَهَجتَ به في هذا الوقت؟" فقال لي "يا بُنَيّ، ما تَدري؟" فقلتُ "لا" فقال "إبليسُ، لَعنَه الله، قام بِحِذائي عَاضًّا على أَنامِله، يقول: يا أحمدُ، فُتَّني! وأنا أقول: لا، بعدُ؛ حتى أموتَ!"[3]

---

[1] خرجه مسلم في المساجد والنسائي عن أبي الدرداء، وهو متَّفق عليه عن أبي هريرة.

[2] خرجه أحمد ح11255 عن أبي سعيد، وحسّنه الأرناؤوط وصحّحه الهيثمي في 'المجمع'.

[3] 'حلية الأولياء' ج9-ص194.

فلا يأمَننَّ ابنُ آدم إبليسَ إلى آخر رَمَق من حياته! ولن يسلَم من كَيده ما لَم يدخُلْ في ذمَّة الله وحِفظه. والصلاةُ هي ذاك الحِرز الْمَنيع كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «مَن صلَّى صلاتَنا واستَقبل قبلتنا وأَكل ذَبيحتَنا، فذلك المسلم الذي له ذمَّة الله وذمة رَسوله؛ فلا تُخفروا اللهَ في ذمّته!»[1] وإذا تولَّى الله عبدَه لَم يَضُرَّه شيءٌ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟!﴾ [الزمر 36] فمن حافظَ على صلاته كان في حفظ الله وهو عبدُه على الحقيقة، أي مِن جُملَة مَن قال الله عنهم لإبليسَ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ!﴾ [الإسراء 65] فأقرَّ إبليسُ بذلك واستثناهم فقال ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ!﴾ [ص 83] وإلاّ فقد روى أحمد بسنده عن مكحول عن أم أيمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا تَترُك الصلاةَ مُتَعَمِّدًا؛ فإنَّه مَن تَرك الصلاةَ متعمِّدا فَقد بَرئَت منه ذِمّة الله ورسوله!»[2] فيسلمه الله للشيطان ودمُه هَدرٌ ومالُه مُباح والعياذ بالله.

الْمَصائد

لقد أخبرنا الله تعالى عن الهُدهُد إذ قال لسُليمان ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ؛ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ، أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ!﴾ [النمل 24-25] ومعناه أن الشيطانَ زيَّن لهم السُّجودَ للشَّمس، فصدَّهم عن السبيل؛ فهم لا يهتدون إلى السجود لله تبارك وتعالى، وكذلك يُضِلّ الخلق فيزيِّن لكلٍّ منهم أعمالَهم ومُحدثاتهم فيعبُدون ما يَبتَدعون. فلا يفتُر أبدا عن الوسوسة لبني آدم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يَعقدُ الشيطانُ على قافية رأسِ أحدكم، إذا هو نام، ثلاثَ عُقَد؛ يَضرب كلَّ عُقدة؛ عليك ليلٌ طويلٌ فَارقُدْ! فإنِ استيقظَ فذَكرَ اللهَ انحَلّت عقدةٌ، فإن توضّأ انحلّت عُقدَةٌ، فإن صلَّى انحلت

---

[1] خرجه البخاري في الصلاة والنسائي وأحمد عن أنس.

[2] خرّجه أحمد ح27404 والبيهقي في 'الكبرى'وضعَّفه الأرناؤوط لأن مكحولا لم يسمع من أم أيمن، ورواه عبد الرزاق عن مكحول مرسلا، وله شواهد عن أنس وأبي ذر ومعاذ وغيرهم.

عُقَدُه؛ فأصبحَ نَشيطًا طيِّبَ النفس، وإلاَّ أصبح خَبيثَ النفس كسلانَ!»[1] مَن لا يُصلِّي الفجرَ جَماعة أصبح خبيثًا لا يَنقادُ لخير، شرِّيرا لا يأمرُ إلاّ بشرٍّ.

وقال صلى الله عليه وسلم «ما مِن ثلاثة، في قَرية ولا بَدْو، لا تُقام فيهم الصلاةُ إلاّ قد استحوَذ عليهم الشيطانُ؛ فعليك بالجماعة! فإنَّما يأكلُ الذئبُ القاصيَةَ!» قال السائب بن حُبيش الكَلاَعِي، أحدُ رُواةِ الحديث، "يعني بالجماعة: الصلاةَ في الجماعة!"[2] والقاصيةُ هُنا الشاةُ الْمُنفَرِدةُ البعيدة عن القَطيع، فإنَّها أوَّلُ ما يهجُم عليه الذِّئبُ. والمعنى أنّهم لَمّا تركوا الصلاةَ جماعةً استولى عليهم الشيطانُ وتسلّط عليهم فضلُّوا. وذلك ظاهرٌ في قول الله تعالى ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ؛ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ!﴾ [المجادلة 19] أي أنساهم الصلاةَ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ؛ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ؟!﴾ [المائدة 91] فنسيانُ العبدِ الصلاةَ دليل على قهر الشيطان لَه.

غايةُ الشيطان أن يَصُدَّ العبد عن الصلاة رأسا. مِن ذلك أنّ رجلاً نام ليلةً حتى أصبَح وفاتته صلاةُ الفَجر، فذُكر ذلك للنبيِّ، فقال صلى الله عليه وسلم «ذاك رجلٌ بال الشيطانُ في أُذُنه!»[3] ومِن ذلك قولُه صلى الله عليه وسلّم «إذا استيقَظ أحدُكم مِن منامه فتوضأ فَلْيَستَنثرْ ثلاثا، فإنّ الشيطان يَبيت على خَيشومِه!»[4] أي أعلَى أنفِه، فمَن توضَّأ لصلاة الصُّبح، فلْيُبالِغْ في الاستِنشاق ولْيَنثرْ بقوَّة.

فإن لم يستطع الشيطانُ صدَّ العبدِ عنها قطعَها عليه، كما بيَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولِه «أَقيموا الصُّفوفَ وحاذُوا بين الْمَناكِب وسُدُّوا الْخَلَلَ ولِينوا بأيدي إخوانكم ولا تذَروا

---

[1] خرجه مالك في جامع الترغيب في الصلاة، والبخاري ومسلم عن أبي هريرة.

[2] خرجه أبو داود في الصلاة وأحمد والنسائي وابن حبان والحاكم وصحَّحه، عن أبي الدرداء.

[3] خرجه أحمد والنسائي في قيام الليل عن ابن مسعود، قال: ذكر لرسول الله...

[4] خرجه البخاري في بدء الخلق ومسلم والنسائي وأحمد عن أبي هريرة.

فُرجاتٍ للشيطان، ومَن وَصَلَ صَفًّا وَصلَه الله ومَن قَطَعَ صفًّا قَطَعه الله!»[1] أي أقصاه وأبعده عن جماعة المسلمين لأنّه مَكّن الشيطان من الدخول في صفوفهم والعُثوِّ خلالَها كالذّئب الضاري في قَطيع الغَنم. لذا أمر النبي بالتلاصُق وضمِّ الصفوف فقال «رَاصُّوا صُفوفَكم وقارِبوا بينها، وحاذُوا بالأَعناق! فَوَالّذي نَفسُ محمد بِيَدِه، إنِّي لَأَرَى الشَّياطينَ تَدخُلُ من خَلَلِ الصَّفِّ كأنَّها الْحَذَفُ!»[2]

ومنه صَدُّه العبدَ عن الْخُشوع وتدبُّر القرآن، كما قال رسول الله «إذا نُودِيَ للصلاة، أَدبَرَ الشيطانُ لَه ضُراطٌ حتى لا يَسمَع النّداءَ! فإذا قُضِيَ النّداءُ أقبلَ، حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أَدبَرَ، فإذا قُضي التَّثْويب أقبلَ يَخطُر بين المرء ونفسه، يقول "اُذكُرْ كذا، اُذكر كذا!" لما لَم يكن يَذكُر حتى يظَلَّ الرجلُ إن يدري كم صلَّى!»[3] أي لا يدري كم صلى. وقال صلى الله عليه وسلم «التَّثاؤُب في الصلاة من الشيطان؛ فإذا تثاءَب أحدُكم فَلْيَكْظِمْ ما اسْتَطاع!»[4] وزاد في رواية «فإذا قال الرجل "آه آه!" إذا تَثاءب فإنّ الشيطان يضحَك في جَوفه!» ومن ذلك، ما بلغنا عن عثمان بن أبي العاص أنّه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلّم "يا رسولَ الله، إنّ الشيطان قد حالَ بيني وبين صلاتي وقِراءتي، يَلبِسُها عليَّ!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم «ذاك شيطانٌ يقال له خنزَبٌ؛ فإذا أَحسَسْتَه فتعوَّذْ بالله منه وَاتْفِلْ على يَسارك ثلاثًا!» قال: ففَعلتُ ذلك فأذهبَه الله عنِّي![5] وقالت عائشة أم المؤمنين: سألتُ رسولَ الله عن الْتِفاتِ الرَّجُل في الصلاة فقال «إنما هو

---

[1] خرجه أبو داود في الصلاة وأحمد عن ابن عمر.

[2] خرجه أحمد أبو داود في الصلاة وابن خُزَيمة عن أنس بن مالك. والحَذَف غَنَمٌ سُودٌ صغار.

[3] خرجه مالك في النداء للصلاة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

[4] خرجه الترمذي في الصلاة وصحّحه وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة، وأصله في الصحيحين ولكن لَم يذكُرا الصلاة. والزيادة في جامع الترمذي كتاب الأدب وصحّحها عن أبي هريرة.

[5] خرجه مسلم في السلام وأحمد. واللَّبس اختلاطُ الأمر.

اختِلاسٌ يَختَلِسُه الشيطانُ من صَلاة أحدِكم!»[1] والالتفات إساءَة أدب مع الله عظيمة، لأنّه تعالى مُقبِلٌ بوجهه على عبده في الصلاة كما سيأتي بيانه.

ومِن كيدِه استدراجُ العبد وجرُّه إلى التفريط في بَعضِ شُروطِها كالوُضوء، كما حصل ذاتَ مرّة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّما لَبِس علينا الشيطانُ القراءةَ من أجل أقوام يأتون الصلاةَ بغير وُضوء! فإذا أَتَيتُم الصلاةَ، فأحسِنوا الوُضوءَ!»[2] أو بالوسوَسة، كما قال صلى الله عليه وسلم «إذا صلَّى أحدُكم، فلم يَدْرِ زادَ أم نَقَصَ، فليسجُد سَجدَتَين وهو قاعدٌ. فإذا أتاه الشيطانُ فقال "إنّك قد أحدثتَ" فليقُلْ "كَذبتَ!" إلاّ ما وَجَد رِيحًا بأَنفه أو صَوتًا بأُذُنه!»[3] وعن ابن عباس أن رسول الله سُئِل عن الرجل يُخيَّل إليه في صلاته أنّه أَحدَثَ، ولَمْ يُحدِثْ. فقال صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان يأتي أحدَكم وهو في صلاته، حتى يفتح مَقعدَتَه، فيُخَيِّل إليه أنّه أَحدَثَ ولَم يُحدِث، فإذا وجدَ أحدُكم ذلك فلا يَنصرِفنَّ حتى يَسمَع صوتَ ذلك بأُذُنه أو يَجدَ رِيحَ ذلك بأَنفه!»[4] فلا يجوز لأحدٍ أن يقطَع صلاتَه لِمُجرَّد الوسوسة، فإنّها داءٌ عُضال؛ أعاذني الله وإيّاك منها!

ذاك دَأبُ الشيطان مع العبد في الصلاة، ولكنه لا ينقطع عن الوسوَسة أيضا خارجَها. فلا يزال يُثبِّطُه عن الجماعة، فيأتيه في صورة الناصح المشفق فيقول له "أعظَمُ ما كلَّفك الله به: صِلَةُ الرَّحِم! وعليك تَبِعاتٌ مِن رِعاية النفس والأهل والأولاد، فلا تُضيِّع شيئًا من تلك الحقوق. وفي الصلاة جماعةً تفريطٌ منك، وتفويتُ حظٍّ كبير من المنافع لهم وأقلُّها الاستئناسُ بحضورك بينهم، بخلاف الله تعالى، فإنّه غنيٌّ عنك، عليمٌ بحُسن نيَّتك، حليمٌ، كريم! ثم في العُمر سَعة، فاستَفرِغْ

---

[1] خرجه البخاري في بدء الخلق وأصحاب السنن. والاختلاسُ هو السَّلْب والاختِطافُ بسُرعَة.

[2] خرجه أحمد ح10912 عن أبي رَوح الكِلاعي وضعفه الأرناؤوط.

[3] خرجه أبو داود في الصلاة عن أبي سعيد الخدري.

[4] خرجه الطبراني في 'الكبير' ح11556 والبزار وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، 'مجمع الزوائد' ج1-ص245.

جُهدَك في تحصيل الدُّنيا ما دُمتَ قادرًا، ثم ترتاح عند الكِبر ويتسنّى لك التَّفرُّغُ للطاعة فتُصلي وتحجُّ ويَحسُن إسلامُك، وتفوز بمَرضاة الله وعِرفان خَلقه لجميلك!" وهذا كذِب، فأَولى الحقوقِ حقُّ الله تعالى ثمَّ رسولِه صلى الله عليه وسلَّم، والله كلَّفنا بالصلاة إذا بلغنا سِنَّ السابعة. ثم ما يُدري هذا اللَّعينَ أن في العمر فُسحةً؟ وما يُدريه أنك إذا شِبْتَ وهَرِمتَ حسُنت حالُك، بل قد قال الأوّلُ: مَن شبَّ على شيءٍ شابَ عليه!

وتارة يقول "كيف تُسوِّل لك نفسُك القيامَ بين يدَي ربِّ العالَمين وأنت على هذه الحال الذّميمة وصاحبُ هذه الذنوب العظيمة، ثم تقوم بغير خُشوع ولا تَقوى، ألا تستحْيي من الله؟ أصلِح حالَك أوّلاً ثمّ قُمْ فصَلِّ، وإلاّ فعُقوبتُك أَولَى مِن مَثوبتك!" وهذه مَكيدة أضرُّ من الأُولى لأنَّه جاء في زِيٍّ فقيهٍ. ومَن منّا لا يُخطئ ولا يُذنب والله يقول في الحديث القدسي «يا عبادي إنكم تُخطِئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا؛ فاستغفروني أَغفرْ لكم!»[1] وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «لو أنّكم لم تكن لكم ذنوبٌ يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لَهم ذنوب يغفرها لهم!»[2] والله يقول ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ؛ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ!﴾ [العنكبوت 45]

فمع أن الصلاةَ هي التي تَحول بيننا وبين معصية الله، فالشيطانُ يقول "دَع عنك الصلاةَ حتّى تَحسُن حالُك!" وهل رأَيتَ أحدًا ترَك الصلاةَ فحَسُنت حالُه قطّ؟! ثم من منّا لا يسهو في الصلاة؟! بل الشيطان هو الذي يوَسوِس في صدر العبد حتى لا يدري ما يقرأ كما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «إنّ أحدكم إذا قام يُصلّي جاءَ الشيطانُ فلَبَسَ عليه، حتى لا يَدري كم صلّى! فإذا وَجد ذلكَ أحدُكم فلَيسجُدْ سَجدتين وهو جالس!»[3]

وتارةً يقول الشيطانُ للعبد "لا تُصلِّ! فإنَّك لا تدري، لعلَّك تترُكها بعد حين، فيترتَّب عليك من الإثم ما لا يترتَّب عليك لو لَم تَكن صلَّيتَ رأسًا!" وهذه سَفْسَطَة أخرى وقول باطِلٌ كذلك،

[1] خرجه مسلم في البر والصلة وابن حبان عن أبي ذر الغفاري.

[2] خرجه مسلم في التوبة عن أبي أيوب، والحاكم عن أبي هريرة.

[3] خرجه البخاري في السهو ومسلم وأصحاب السنن ومالك عن أبي هريرة.

إذْ ليس مِن شرط الإسلام أن لا يكفُر العبد، ولكنَّ الإسلامَ التسليمُ لله تعالى وحدَه لا شريك له واتِّباعُ محمّد صلى الله عليه وسلم. وليس مِن شَرطِ الإسلام أن يبقَى العبدُ على ذلك، بل الله هو الهادي وهو المضلّ، ولكن مِن شرطه أن يخاف العبد أن يعود في الكفر كما بلغنا عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوةَ الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهُما وأن يُحبَّ الْمَرءَ، لا يحبه إلا للَّه، وأن يكرَه أن يَعودَ في الكُفر كما يَكره أن يُقذَف في النار!»[1] فالَمطلوب كَراهة العَودة إلى الكُفر، ولكلٍّ ما قدَّره الله مِن خاتِمة كما جاء ببيانه الكتاب والسنَّة.

وكذلك أيضا ليس من شرط التوبة عدمُ المعصية في المستقبل ولكنّ التّوبةَ العزمُ على ترك المعصية وعلى عَدَمِ العَود فيها، والمسلِم مهما بلغ مِن درجة في الإيمان فإنَّه يُخطئ ولا بدّ، قال النبي صلى الله عليه وسلم «إنّ عبدا أصاب ذنبا فقال: ربِّ، أذنبتُ فاغفرْ لي! فقال ربُّه: أَعَلِمَ عبدي أنّ له ربًّا يَغفرُ الذنبَ ويأخُذُ به؟! غفَرتُ لعبدي! ثم مَكثَ ما شاء الله ثم أصاب ذنبا فقال: ربِّ أصبتُ آخرَ، فاغفِره! فقال: أَعلِمَ عبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرتُ لعبدي! ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبا قال: ربّ، أصبتُ آخرَ فاغفِرهُ لي! فقال: أعَلم عبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرت لعبدي، غفرت لعبدي، غفرت لعبدي؛ فليعمل ما شاء!»[2] لا تظنَّ هذا كما يَفهَمُه الإباحيّةُ وأتباعُ المتشابه، فما قال الله ذلك إلاَّ لعبد قد بلغ أعلَى مقامات الإحسان حتى كاد لا يُذنِب، وكفى به تَقوًى أنَّه عُدَّت ذنوبُه:

ومَن ذا الذي تُرضَى سَجاياه كُلُّها؟! كفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ مَعايِبُه!

وقال غيرُه:

وأَقَلُّ الناسِ ذنباً قادرٌ عُدَّتْ ذُنوبُه!

---

[1] خرّجه البخاري في الإيمان وابن حبان والبيهقي في 'شعب الإيمان'.

[2] خرجه البخاري في التوحيد ومسلم وابن حبان وأحمد والنسائي في الكبرى عن أبي هريرة.

فذلك العبد من الْمُتَّقين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ؛ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ! وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ؟! وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا؛ وَهُمْ يَعْلَمُونَ!﴾ [آل عمران 135] يعلَمون أنَّ الله يُعاقب مَن أصرَّ ويغفر لِمَن استَغفَره، وهو قوله في الحديث القُدسي السابق «أَعَلِمَ عبدي أنّ له ربًّا يَغفرُ الذنبَ ويأخُذُ به؟! غفَرتُ لعبدي!» فكلَّما أذنب ذَنباً سارع إلى التوبة والاستغفار فيفرح به الرَّبُّ فرحًا لا نتصوَّرُه نحن الذين لا حصرَ لذنوبنا، لطَف الله بنا! فكأن الله يقول له: ابقَ على ما أنت عليه، فإنَّك على أحسن حال؛ سأغفرُ لك كلَّما استَغفَرتَني وسأتوب عليك كلَّما قصدتني! كما قال تعالى في حقّ المصطفى محمّد صلى الله عليه وسلَّم ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ!﴾ [الفتح 2] هذا لتَعلَم أن قول الشيطان"لا تُصلِّ! فإنَّك لا تدري، لعلَّك تترُكها!" قولٌ بأنَّ فِعلَها ذريعة إلى تركِها، وهذه سفسطة، إذ أنّ تركَها إنَّما هو عدَم فِعلِها لا القيامُ بها ثم جوازُ تركِها من بعد.

وقول الشيطان "فيترتَّب عليك من الإثم ما لا يترتَّب عليك لو لَم تَكن صلَّيتَ" قولٌ بأن عاقبة الحسنةِ سيِّئةٌ وهذا من أكذب الافتراءات. بل على العبد أن يُصلِّي وكما قال الله ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ؟!﴾ [الرحمن 60] ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا!﴾ [النمل 89] ثمّ لعلَّه يصلّي صلاةً واحدة ثم لا يعيشُ بعدها، فيُختَم له بالحُسنى بعمل قليل قد صدقَ اللهُ تعالى فيه. ثم مَن صلَّى لله ركعةً خيرٌ ممَّن لم يصلِّها؛ قالت عائشة: قلتُ "يا رسولَ الله، ابنُ جُدعانَ؛ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِم ويُطعِمُ الْمِسكينَ، فهل ذاك نافعُه؟" قال «لا ينفَعُه؛ إنه لَم يَقُل يومًا: رَبِّ اغفِرْ لي خطيئتي يوم الدين!»[1] فدلَّ هذا على أن صلاةَ ركعة في العمر خيرٌ من عَدَمِها. فإن قيل: أوليس الكفرُ مُحبطًا للعمل؟ قلتُ: بلى لكنَّه لا يُعدِمه، وحُبوطِ العمَل ليس انعدامَه، بل انعدامُ قيمته. وسيأتي تفصيلُ هذه المسألة بالذات في موضِعها في الفصل القادم عند الرّدِّ على كتاب 'الْمُغني'.

---

[1] خرجه مسلم في الإيمان وأحمد عن مسروق عن عائشة.

وأمّا أن يُؤجَر العبد على طاعة خالصة لوجه الله فلا شكّ في هذا، وإن كفرَ بعدَها، ذلك قولُه تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؛ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّه!﴾ [البقرة 110] ولكن بشرط أن يكون العملُ صوابًا خالصا، أي أن يكون العبد حين عمله متَّبعًا مؤمنًا يرجو الله واليومَ الآخر ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ؛ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة 6-8] فما من أحد إلا وسيرى ما قدَّم من خير، وإن كفرَ بعد إيمانه، فإن الله لا يظلِمُ أحدًا شيئا؛ ذلك معنى قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ؛ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ!﴾ [الأنعام 82] وقوله سبحانه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ!﴾ [الأنبياء 95] وقوله جلّ وعز ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا!﴾ [طه 112]

مَن عبد الله ولو مرَّةً في حياته ولَم يُشرِك به شيئا، فتلك العبادة لَن تزولَ من كتابه أبدًا وسيُجازيه الله عليها، وإن كفر بعدَها ومات على الكُفر، كما يبيِّنه قولُه تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ! وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ!﴾ [الأحقاف 18-19] سيُوفِّي الله المسلمين والكفارَ ما قدَّموا من خير ومن سوء، فما من نفس إلا وستجد كلَّ أعمالَها يومَ القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا!﴾ [آل عمران 30] فتأخُذ جزاءَها كاملا على أعمالها كلِّها؛ إن خيرًا فخير وإن شرّا فشر. كما جاء في الحديث القدْسي الذي يقول الله تعالى فيه «يا عبادي، إنّما هي أعمالُكم، أُحصيها لكم ثم أُوَفِّيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمَد الله ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه!»[1] ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ؛ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ!﴾ [غافر 17] فكل عمل كان خالِصا لوَجه الله فجزاؤُه عندَه تعالى ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ؛ فَلَن يُكْفَرُوهُ!﴾ [آل عمران 115] فلا

[1] خرّجه مسلم في البر والترمذي والبخاري في 'الأدب المفرد' وأحمد عن أبي إدريس عن أبي ذر.

أمّا مَن عملَ عمَلا يُريد به غيرَ الله، أو أراد به الله لكنّه أشرَك فيه تعالى غيرَه، وإن كان في ظاهره طاعة، فإن الله يُبطلُه ويُحبطه، فمن ذلك مَن يعمَل للدُّنيا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ!﴾ [هود 15] ومنه مَن يعمَل وهو كافر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ!﴾ [محمد 8] ومنه مَن يعمل وهو مشرك ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ؛ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ!﴾ [الأنعام 136] فلا يُكتَب لهؤلاء عملٌ صالح لأنَّه ليس خالصًا لله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ!﴾ [الحج 31] كذلك مَن عملَ عملا وهو كافر فلا أجرَ له عند الله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ: أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ؛ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ!﴾ [إبراهيم 18] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا!﴾ [النور 39] وقد تكون تلك حال مَن يُحافظُ بالإسلام ويستَمسك بشرائعه من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك من أعمال البرّ، فيدخُل على بعض أعماله الشِّركُ أو الرياء فتَبطُل وهو لا يدري. كما بلغنا عن بعض الناس؛ كان لا يفوتُه الصفُّ الأوَّل في المسجد لمدَّة ثلاثين سنة. فجاء يومًا متأخِّرا وقد امتلأ الصفُّ الأوَّل وما وجدَ غيرَ الثاني، فقام فيه وهو مُرتبك من نظر الناس إليه حيث فاتَه مقامُه المُعتاد. فاحتار واغتمَّ لكثرة خَجَله من الناس وعدمِ استحيائه من الله. لماّ فكَّر في شأنه خلُص إلى أن قال "علمتُ أني كنت مُرائيًا وأنَّ صلاتي باطلةٌ منذ ثلاثين سنة!" فليست العبرة في الظواهر فقط ولكن في البواطن المحرِّكة للظواهر.

قَطع الصلاة

الشيطان لا يَدعُ العبدَ من وَسوسته وتضليله ليترُك الصلاةَ. وإن عصاه العبدُ وأبَى إلا الصلاةَ، فإنَّه يسعى ليقطَعها عليه. والنبيُّ نفسُه لَم يسلَم من ذلك، فقد بلغنا أنّه صلَّى صلاةً فقال إثْرَها

«إنّ الشيطان عَرضَ لي فشَدَّ علَيَّ ليَقطعَ الصلاةَ!»[1] فشُرِعت السِّترة لاتِّقاء ذلك كما قال صلى الله عليه وسلّم «إذا صلَّى أحدُكم إلى سِترَة فليَدْنُ منها، لا يقطَعُ الشيطانُ عليه صلاتَه!»[2] وقال صلى الله عليه وسلم «إذا صلَّى أحدُكم إلى شيء يَستُرُه من الناس فأراد أحدٌ أن يَجتاز بين يديه فليَدْفَع في نَحْرِه، فإن أَبَى فليُقاتِلْه؛ فإنّما هو الشيطان!»[3] أي ما هو إلاّ شيطان مِن شياطين الإنس! وقال عليه الصلاة والسلام «لو يَعلَم الْمَارُّ بين يدَيْ المصلّي ماذا عليه، لكان أن يقِف أربعين خيرًا له من أن يَمرّ بين يديه!» قال أبو النَّضر: لا أدري أقال أربعين يوما أو شهرا أو سنة!![4] فالمُرور بين يدي المصلّي مَعصية وإثم عظيم لأنّه قَطعٌ لصلاتِه. فلا يجوز لأحد أن يقطع الصلاةَ قبل التشهُّد والتسليم، سواءً كان ذلك على الغير أو على النَّفس، فإنّه كَبيرة!

ومع هذا فالناس يقطعون الصلاةَ ولا يُبالون، وجلُّ العلماء لا يرون بذلك بأسًا وبه يُفتون، ولا مُستنَد لهم سوى فهمٍ خاطئ لقول النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أُقيمت الصلاةُ؛ فلا صلاةَ إلا المكتوبة!»[5] مع أن هذا الحديث إنما يدلّ على النَّهي عن الشروع في نافلة إذا أقيمت الفريضة، كما فهمَه القرطبي قال: الإقامةُ تَمنَع من ابتداء صلاة نافلة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أُقيمت الصلاة فلا صلاةَ إلا المكتوبة!» وغيره، فأما إذا شَرَع في نافلة فلا يقطعُها، لقوله تعالى ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ!﴾ [محمد 33][6] فليس في الحديث ما يُبيح قطعَ الصلاة، هذا واضح كالشمس!

---

[1] خرجه البخاري في العمل في الصلاة وغيرُه عن أبي هريرة.

[2] خرجه أبو داود في الصلاة والنسائي وأحمد عن سهل بن أبي حَثْمَةَ.

[3] خرجه مسلم في الصلاة وأبو داود وأحمد عنأبي سعيد الخُدري.

[4] خرجه البخاري في السترة والجماعةُ عن أبي جُهيم. وأبو النَّضر شيخُ مالك بن أنس.

[5] خرجه مسلم في صلاة المسافرين وأصحابُ السنن الأربعة عن أبي هريرة.

[6] 'الجامع لأحكام القرآن' ج1-ص166، عالم الكتب، الرياض.

ومع هذا فابن حزم، يقول: مَن سمِع إقامةَ صلاة الصّبح، وعلمَ أنه إن اشتغل بركْعتَي الفجر فاتَه من صلاة الصبحِ ولو التكبيرُ، فلا يحلُّ له أن يشتَغِل بها، فإن فعلَ فقد عصى الله تعالى. وإن دخل في ركعتَي الفجر فأُقيمت صلاة الصبح فقد بطَلت الركعتان، ولا فائدة في أن يُسلِّم منهما، ولو لم يبق عليه منهما إلا السلام -ثم ختم بعد نقاش طويل فقال- مَن بدأ في تطوُّع ركعتَي الفجر أو الوتر أو غيرهما فأُقيمت صلاة الصبح أو غيرها فقد بطَلت الصلاةُ التي كان فيها، بالنصوص التي ذكرناها -أي «إذا أقيمت الصلاةُ فلا صلاةَ» الخ- فإن قيل: قال الله ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ!﴾ [محمد 33] قلنا: نعم هذا حقّ، وما هو أبطلَها، ولو تعمّد إبطالَها لكان مُسيئا، ولكن الله عزّ وجل أبطلها عليه، كما تبطُل بالحدَث وبِمُرور ما يُبطِل الصلاةَ مرورُه ونحو ذلك.[1]

لقد جاء ابن حزم هنا، مع جلالته، بكلام غريب عن أصول ديننا المبنيِّ على التيسير في العبادة مَع إمضائها. يقول بأنَّ إتمام النافلة إذا أقيمت الفريضة مَعصية، وبأنّ الله هو الذي أبطل تلك الصلاة؛ ولا شك أن هذا سوءُ فَهم لكلام النبي صلى الله عليه وسلّم، فإنَّه لَم يقل "إذا أقيمت الفريضة بطَلت النافلة". ولقد خالفه ابنُ تيمية فقال: إن كان قد شرَع في النافلة وأقيمت الصلاةُ؛ أَتَمَّها إن رجا إتمامَها وإدراكَ الجماعة، وإن خَشِي إذا أَتَمّها أن تفوتَه الجماعةُ قَطَعها، في إحدَى الروايتين، لأن الفرائض أهمُّ؛ فإنّ الجماعة واجبة وإتمام النافلة ليس واجبا في المشهور. وفي الأخرى: يُتمُّها! لقوله تعالى ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ!﴾ [محمد 33].[2]

ما ذهب إليه ابنُ تيمية أقربُ إلى الصواب، ولكنّه أخطأ في قوله "إتمام النافلة ليس واجبا" بل هو واجبٌ، وهو قول أحمد بن حنبل الذي ذَكرَه في الرواية الأخرى: يُتمُّها، لقوله تعالى ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد 33]! فلا يجوز قَطع نافلَة قد شُرِع فيها، خاصّة وقد بيّن النبي أن في الأمر سَعةً فقال «إذا وُضِع العَشاء وأقيمت الصلاةُ، فابدَؤُوا بالعَشاء!»[3] أي بالأكل، وقال عليه السلام

---

[1] 'المحلى بالآثار' مسألة 308، ج3/ص104-112، الطباعة المنيرية، مصر.

[2] 'شرح العمدة' ج4-ص608، مكتبة العُبَيكان، الرياض.

[3] خرجه البخاري في الأذان ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة.

«إذا أُقيمَتْ الصّلاة فلا تَأتوها تَسْعَوْنَ وَأْتُوها تَمشُون، عليكم السَّكَينةُ؛ فما أدرَكتُم فَصَلُّوا وما فاتَكُم فأَتِمُّوا!»[1] لو كانت الإقامة مبطِلةً للنافلة لما حثّنا النبيُّ على إتمام الأكل والتَّمهُّل في إتيان الفريضة.

فسبحان الله، لِكلِّ صارمٍ نَبْوَةٌ ولكل جَواد كَبْوَة؛ فهذان عالِمان من جلّة علماء المِلّة، اجتَهدا في مسألة فلَم يُصيبا الحقَّ، نعم لهما أجرُ اجتهادِهما، ولكن مَن تشبَّث بخطئهما فهو مَوزور! ولو رجع المُقلِّدةُ إلى صحيح مسلم لوجدوا حديثَ «إذا أقيمت الصلاةُ فلا صلاةَ إلا المكتوبة» تحت باب "كراهَة الشُّروع في نافلة بعد شروع المؤذن" وهذه ترجمة واضحة لا تحتاج إلى تعقيب. فالنبي صلى الله عليه سلم لَم يمنع أحدًا من إتمام صلاةٍ قد شَرع فيها مِن قَبل الإقامة. أما إذا أُقيمت الصلاة فالظاهر أن الترجمة السالفَ ذِكرُها مَرجوحة حيث جاءت فيها الكراهةُ، والتحريمُ أولى لقول النبي «فلا صلاةَ إلا المكتوبة!» وهذا نهيُ تحريمٍ صريح. ويدلُّ عليه أن رجلا دخل المسجدَ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصلّي الصبحَ، فصلّى الركعتين ثم دخل مع النبي في الصلاة. فلما انصرف صلى الله عليه وسلم قال «يا فلانُ، أَيَّتُهما صلاتُك؛ التي صلّيت وحدَك أو التي صليتَ معنا؟!»[2] أي اختَر لنَفسك واحدةً منهما؛ فإن كانت الفريضةَ فنافِلَتك باطِلة وإن كانت نافلَتك فقد فاتتك الجماعة!

ولا وجهَ للتمسُّكَ بحديث أبي سعيد الْمُعَلَّى، فليس فيه أمرٌ بقطع الصلاة؛ قال: كنتُ أصلِّي في المسجد فدَعاني رسولُ الله فلم أُجبْه، فقلتُ "يا رسولَ الله، إني كنتُ أُصلِّي" فقال «أَلَم يَقُلِ اللهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ!﴾ [الأنفال 24]؟!» الحديث[3] فلَم يأمره النبيُّ بقَطع الصلاة وإنما أمرَه بالاستجابة ليُعلِّمه قَدرَ الفاتحة في صلاته تلك، مِن دون أن يقطَعها، ولَو مشى إلى النبي لَم يقطع صلاتَه، لا شكَّ في هذا، ولكنّ أبا سعيد لم يَستَجِبْ. فأبى رسولُ الله

---

[1] خرجه البخاري في الجمعة ومسلم عن أبي هريرة.

[2] خرجه أبو داود في الصلاة ومسلم والنسائي وابن ماجه عن ابن سرجس.

[3] خرجه البخاري في التفسير وأبو داود والنسائي، وسيأتي بتمامه في موضعه.

صلى الله عليه وسلّم إلاَّ أن يُعلِّمه، فقال له حين قضى صلاتَه «لَأُعلِّمَنَّك سورةً هي أعظمُ السُّوَرِ في القرآن...» وهي سورة الفاتحة، وهكذا بلغنا هذا العلمُ وانتشَر فنالَتنا تلك الْمنحةُ الجليلة بفضل حِلم النبي وحُسن تأديبه صلى الله عليه وسلم. وإلاّ فإنّه لا يُعقَل أن يأمُر النبيُّ أحدًا بقطع صلاتِه، فذلك نَهيٌ عنها يَدخُل في حُكم قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى؟!﴾ [العلق 9-10] معاذَ الله!

ويدل على هذا ما بلغنا عن طلحة بن عُبيد الله من خبَر الأعرابي الذي جاء يَسْأَلُ عن الإسلام، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «خَمْسُ صلوات في اليوم واللَّيلة» فقال "هل عليَّ غيرُهن؟" قال «لا، إلا أن تَطَوَّعَ» الحديث..[1] فالاستثناء هنا متَّصل لأنَّ النافلة والفرض جنس واحد، فمعنى الخبر: لا يجب عليك من الصلاة غيرُ الفريضة، ولكن إذا شرَعتَ في نافلَة تعيَّن عليك إتمامُها. فالحاصل أنّ إقامَة الفريضة لا تَقطَع نافلَةً قد شُرِع فيها، ولا وجهَ لقطع الصلاة عند خروج الإمام، إلاَّ أن يَمرَّ الإمامُ بين يدي المصلّين فيكونَ هو الذي قَطعها عليهم ويكون بذلك من أئمّة الضلالة ومن شياطين الإنس الذين يقطعون على الناس صلاتَهم، كمَن وصفه النبي بقوله «فإنّما هو شيطان!»[2] مع تفصيل في موضع الْمُتنفِّل بحيث لا يمنَع الإمام من اللِّحاق بالمحراب. فإن قيل: بل لا بأسَ في أن يقطع الْمُتطوِّعُ صلاتَه، ويرجع ذلك إلى الفارق بين النافلة والفرض، فإنه يجوز في هذه ما لا يجوز في تلك، كما قال ابن تيمية! فجوابُه أنّ الفرقَ بين النافلة والفريضة إنّما هو في الوجوب والتقييد والعدد والأجر، حيث أن الفريضةَ واجبةٌ ومقيَّدة بمواقيت وبعدد محدود، بخلاف التطوُّع فإنَّه مُستحبٌّ ومُطلَق فلا يُقيَّد بوقت ولا عدد، وهو أقلُّ أجرًا لحديث الوليِّ عند البخاري. أما في الكيفية والإتمام فلا فَرق بين النافلة والفرض، وإلا ما قال الله تعالى «أتِمُّوا لعبدي فَريضتَه مِن تَطوُّعه!»[3]

---

[1] خرجه البخاري في الإيمان ومسلم وأبو داود والنسائيّ ومالك وأحمد.

[2] خرجه مسلم في الصلاة وأبو داود وأحمد عنأبي سعيد الخُدري.

[3] خرجه أبو داود في الصلاة والنسائي والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

فإن قيل: ولكنَّه قد صحّ عن عائشة أنها قالت: دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذاتَ يوم فقال «هَل عندَكم شيءٌ؟» قلنا "لا" قال «فإني إذَن صائم» ثم أتانا يومًا آخرَ فقلنا "يا رسول الله، أُهديَ لَنا حَيسٌ" فقال «أَرينيه، فلقد أصبحتُ صائما» فأكلَ[1] فنقول: الحديث في صحيح مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيبة حدثنا وَكيع عن طلحة بن يحيى عن عمته عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين..، لكنه لا يصحُّ، فمَدارُه على طلحة بن يحيى بن طلحة بن عُبيد الله القُرَشي التَّيمي، قال البخاري "مُنكَر الحديث" ولَم يروِ له في الصحيح، وقال ابن عبد البر: طَلحة بن يحيى انفرد بهذا الحديث، وما انفرد به فليس بِحُجّة عند جميعهم لضَعفه![2] فإسنادُه واهٍ وإن كان في صحيح مسلم، ولقد تقدم بيان أن ليس كل ما فيه صحيح، وقد بيّنه هو نفسه في مقدّمته حيث تكلّم على التقسيم والأخبار المعلَّلة، فاعلَم هذا. وأما متنُه فغريب مُخالفٌ لقول الله ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة 187] وهذا أمرٌ مُتعيّن على مَن شرعَ في الصوم سواءً كان فرضًا أو تطوُّعا، وكذا للحديث القُدْسي «قال الله: كلُّ عمَلِ ابنِ آدم لَه، إلا الصيامَ؛ فإنّه لِي!»[3] وما كان للَّه فليس للعبد أن يقطَعه، ويُخالفه أيضًا هَدْيُ النبيِّ الذي كان إذا عمِلَ عملاً أتمَّه وداوَم عليه؛ فإنه لَمُستبعَد جدًّا أن يعقِد صلى الله عليه وسلّم صومًا ثم يُبطلُه لِحَيسٍ يُعرَض عليه.

وإلى هذا ذهب مالك وغيرُه كما نقله النووي قال: قال أبو حنيفة ومالك "لا يَجوز قطعُه ويأثَم بذلك" وبه قال الحسن البصري ومَكحول والنخَعي، وأوجبوا قضاءَه على مَن أفطر بلا عُذر.[4] وذلك ما بلغنا عن محمد بن الحسن الشيباني قال: أخبرنا مالك حدثنا الزُّهري أن عائشة وحفصة أصبحتا صائمتين مُتطوِّعتين، فأُهدِيَ لهما طعامٌ، فأفطرتا عليه. فدخل عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت حفصة "يا رسولَ الله إني أصبحتُ أنا وعائشة صائمتَين متطوِّعتين

---

[1] خرجه مسلم في الصيام وأصحاب السُّنن.

[2] 'التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد' ج12-ص79، مؤسسة القرطبة.

[3] جزء من حديث خرجه البخاري في الصيام ومسلم والنسائي عن أبي هريرة.

[4] 'شرح صحيح مسلم' ج8-ص35، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

فأُهدي لنا طعام فأفطرنا عليه" فقال لهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «اِقضيا يوما مكانَه!» قال محمد: وبهذا نأخذُ؛ مَن صام تطوُّعا ثم أفطر فعليه القضاءُ وهو قول أبي حنيفة والعامة قبلنا.[1] يعني بالعامّة عامّةَ العلماء. فهذا دليل على أنَّ النافلَة إذا شُرِع فيها صارت واجبةً.

أما خبرُ (الصائم المتطوِّع أميرُ نفسه، إن شاء صام وإن شاء أفطر) فهو شاذٌّ ومضطرب جدًّا حتى أنّه لا أحدَ يدري مَن سمعه من أم هانِئٍ. رواه الترمذي في الصوم عن شُعبةَ قال: كنت أسمع سِمّاك بن حَرب يقول: أحدُ ابنَي أمّ هانئ حدّثني فلقِيت أنا أفضلَهما وكان اسمه جَعدَة وكانت أم هانئ جَدّتَه، فحدثني عن جدته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلَ عليها فدعا بشراب فشرِب ثم ناولَها فشربت فقالت "يا رسول الله أما إني كنت صائمة!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الصائم المتطوع أمينُ -هكذا- نفسه؛ إن شاء صام وإن شاء أفطر!) قال شُعبة: فقلت له "أأنت سمعت هذا من أم هانئ؟" قال "لا، أخبرني أبو صالح وأهلُنا عن أم هانئ!"[2] فإن كان السامع جعدة فهو مجهول العين، وإن كان أبو صالح مولى أم هانِئ فإنَّهم تركوه إلا القطّان، وجاء أن السامِع ابنُها؛ فلا يمكن أن ينتَهضَ مثلُ هذا دليلا على شيء. والله أعلَم.

***

اعلَم، علَّمني الله وإياك ما ينفعنا ونفعنا بما علَّمنا، أن العبادات في الإسلام تَوقيفيّة، أي أنّها مبنية على المَنع والتَّحريم حتى يبيِّن الله ورسولُه مَشروعيّتَها وكيفيَّتها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اعْبُدُوا

---

[1] موطأ مالك برواية محمد بن الحسن رقم 362، دار القلم، دمشق. وهو في الموطّأ برواية يحيى، ورواه ابن حبان عن عمرة والبزار عن ابن عمر وابن راهويه عن عُروة وابن أبي شيبة عن ابن سعيد بن جبير.

[2] وخرجه أحمد ح26937 وضعّفه الأرناؤوط لجهالة جَعدة، قال المزي في 'التهذيب' قال البخاري: لا يعرف إلا بحديث واحد فيه نظر، وهو: هذا الخبر.اه، والنسائي في 'السنن الكبرى' ح3352 وقال: لم يسمعه جعدة من أم هانئ.اه، ورواه أيضا الحاكم ح1537 عن أبي صالح عن أم هانئ. وأبو صالح هو باذام، أو باذان، وثّقه بعضُهم، وقال النسائي: ليس بثقة! وقال أحمد: كان ابن مهدي ترك حديثه. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به! من 'تهذيب التهذيب' لابن حجَر، ج1-ص364، دار الفكر.

رَبِّكُمْ!﴾ [البقرة 21] وهذا أمر بعبادته تعالى ﴿اُعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ؛ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ!﴾ [الأعراف 73] والبيِّنة هي البُرهان والدَّليل على وجوب عبادة معيَّنة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ!﴾ [المائدة 15] هذا لبيان كيفيّات العبادات من طَرف الرسول بإذن من الله تعالى؛ فالعبادة لا بد أن تكون مأمورا بها، وما لم يثبت أنه مأمور به فليس بعبادة. لذا قلنا أنَّها توقيفيَّة، أي مَوقوفة على الشارع، ولا دخلَ لنا في شيء منها، إلا أن نقوم بها كما ينبغي. وأما العادات فإنها مبنيَّة على الإباحة حتى يأتي الدليلُ على مَنعها، لأنّ الله قد سخَّر لنا كلَّ ما في الأرض ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة 29] أي أنه تعالى جعلَه مُباحًا لا حَجْرَ فيه، وهو الأصل، إلا ما جاء بتحريمه الرسول من عند الله ﴿قُلْ: أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً؟! قُلْ: آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ؟! وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!﴾ [يونس 59-60] فلكل إنسان أن يقوم وينام ويسافر ويقيم ويتكلَّم ويلبَس ويأكل ويشربَ وينكح ويبيع ويشتَري كما يشاء، لأنَّ الله تعالى هو الذي أحلَّ ذلك مُطلقًا ﴿قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟!﴾ [الأعراف 32]، ولكن إذا جاء الشَّرع بتقييد شيء من ذلك أو بتحريمه كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ! إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ!﴾ [البقرة 172-173] وقال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا!﴾ [البقرة 275] هناك أمور أخرى قد حرَّمها الله، وأخرى قد قيَّدَها، فلا يجوز تعدّيها ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا!﴾ [الحشر 7] إلا في حالات ليس هذا موضعَ بسطها.

كما أنّ العادات والعفو فيها منبَثق عن رحمة الله بعباده عامَّة، فالعبادات والتَّوقيف فيها من نعم الله أيضًا، إلا أنّه تعالى اختصَّ بها مَن استجابَ لَه واتَّبع رُسلَه، دون سائر الخلق. فالعادات ليست من جنس الْمُباح الذي سخَّرَه الله للناس عامّةً ليتضرَّفوا فيه، بل هي من حُرماته التي حدَّها فيجب تَعظيمُها كما بيّنه تعالى في شعيرة الحج بقوله ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي

أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ؛ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ! ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ؛ ذَلِكَ، وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ!﴾ [الحج 28-30] فإذًا العبادات توقيفيَّة وليس للعباد التصرُّف ولا الخَوض فيها بالهوَى، بل لا يُشرَع في شيء منها إلا بإذنه الله وبالصفة التي يرضاها وبيَّنها على لسان رسولِه وبالإخلاص الذي لا يدع لغيره تعالى شقصًا منها.

إذا فَهمت هذا علِمتَ أنّ العبادات تنقسم إلى قسمين، لا ثالثَ لهما، وهما الواجب الذي فرضَه الله فيأثَم مَن لا يقوم به، والتطوُّع أو النَّفْل الذي حثَّ عليه تعالى ونَدب إليه دون إيجاب فقال ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ!﴾ [البقرة 184] وبلَّغنا الرسولُ صلى الله عليه وسلّم عن الله أنه تعالى قال «ما تقرَّب إلَيَّ عبدي بشيء أحبَّ إلَيّ مِمّا افترضتُ عليه، وما يَزال عبدِي يتقرَّبُ إلَيّ بالنَّوافل حتى أُحبَّه!»[1] فالتطوُّع في العبادة أو النَّفل، أو الْمَندوب كما يسمّيه الأصوليّون، بمثابة الواجب من حيث الحُرمة والأجر، بل هو ما ينقُل حبَّ الله تعالى من العمل إلى العامِل، وكفى بهذا مزيَّةً للتطوُّع. فهو متعلِّق بالواجب على أي حال، كما بيَّنه أبو إسحاق الشاطبي، قال: المندوب إذا اعتبرتَه وجدته خادما للواجب لأنه إما مُقدِّمةٌ له أو تكميل له أو تذكار به، كنوافل الصلوات مع فرائضها، ونوافل الصيام والصدقة والحج، وغير ذلك مع فرائضها.. فإذا كان كذلك؛ فهو لاحِق بقسم الواجب.[2] ووجه ذلك أن التطوُّع الْمُتمِّم للواجب يُصبِح، بكونه متمِّمًا للواجب: واجبا. كما بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «إنّ أوَّلَ ما يُحاسَب به العبدُ الصلاةَ؛ فإن وُجِدَ صلاتُه كاملةً، كُتبت له كاملة، وإن كان فيها نُقصان، قال الله تعالى للملائكة "اُنظُروا هل لعبدي مِن تَطوُّعٍ، فأكمِلوا له ما نَقص مِن فريضته!" ثم الزكاةُ ثم الأعمال على

[1] انفرد به البخاري في الرقاق عن أبي هريرة، وله شاهد عن عائشة عند أحمد.

[2] 'الموافقات في أصول الشريعة' ج1-ص239، دار ابن عفان، السعودية.

حسَب ذلك»[1] وذلك لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل كالدُّنيا، فلا سبيل إلى إتمام العبادات المفروضة إلا بما قدَّمَه العبد مِن تطوُّع في الدُّنيا؛ فصار التطوُّع واجبا من هذا الوَجه.

لذا كان النبيّ كثيرَ التَّطوُّع وكان يحيط الفرائض بالنوافل، سواء في الصلاة أو الصوم أو الحجّ. ففي الصلاة من ذلك ما يسمَّى بالرَّواتب، وأقلُّها ركعتان قبل الظهر وركعتان بعده، وركعتان قبل العصر، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العِشاء، وركعتان قبل الفجر. وسيأتي تقصيل ذلك بأدلَّته عند الكلام على صلاة التَّطوُّع، إن شاء الله. إلاّ أنَّه يجب الفصلُ بين النافلة والفريضة حتى لا تدخُل هذه في تلك، وذلك بأن لا يُتبِع الفريضة بالنافلة مباشرةً ولا العكس. ويدلّ عليه ما بلغنا عن السائب بن يزيد قال: صلَّيت مع معاويةَ الجمعة في المقصورة، فلما سلَّمت قمتُ في مقامي فصلَّيتُ. فلما دخل أرسلَ إليَّ فقال "لا تَعُدْ لِما صنعتَ؛ إذا صلَّيتَ الجمعة فلا تَصِلْها بصَلاة حتى تَكلَّم أو تَخرج، فإن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم أمر بذلك أن «لا تُوصَلَ صَلاةٌ بصَلاة حتّى يَتكلَّم أو يَخرُج!»[2]

وأما الصوم، فعن عائشة أنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم في شهر ما يصوم في شعبان، كان يصومُه كلَّه إلا قليلا؛ بل كان يصومه كلَّه![3] وعن أبي أيوب الأنصاري أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «مَن صام رمضانَ ثم أتْبَعَه ستًّا من شَوّال كان كصيامِ الدَّهْر!»[4] فانظُر كيف احتاط النبيُّ فأحاط صومَ الفريضة بصوم النافلة، وذلك بصومه قبل رمضان

[1] خرَّجه الدارمي في الصلاة وصحّحه والحاكم وابن ماجة وأحمد عن تميم الداري وقال الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم. وله شاهد رواه أبو داود في الصلاة وابن ماجة وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أنس بن حكيم الضبي عن أبي هريرة، ورواه النسائي والترمذي عن حريث بن قبيصة عن أبي هريرة، والنسائي عن يحيى بن يعمر عن أبي هريرة.

[2] خرجه أبو داود في الجمعة ومسلم وأحمد.

[3] خرّجه النسائي في الصيام، ومسلم وابن حبان بنحوه.

[4] خرجه مسلم في الصيام والترمذي وابن ماجة والدارمي وابن حبان.

وبعدَه. ولكن مع الفصل بين التَّطوُّع والفريضة، حتى لا يدخُل هذا في ذاك، كما يدل عليه ما بلغنا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تَقدَّموا شهرَ رمضان بصيامٍ قبلَه بيوم أو يومين، إلا أن يكون رجلٌ كان يصوم صَومًا فليَصمْه!»[1] وأما العيد فصيامُه حرام كما بلغنا عن أبي سعيد قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صَوم يوم الفطر والنحر.[2] هكذا يكون صيام رمضان الذي هو الفريضة مستقلاً، ومفصولا عمَّا قبلَه وما بعدَه من صوم تطوُّع.

وكذلك في الحجّ، فالنبي صلى الله عليه وسلّم كان يُقدِّم بين يدَي فريضة الحجّ العمرةَ، والتي ليست فرضًا. على أنّها سنّة مؤكَّدة، كما دلَّ عليه حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة: أواجبةُ هي؟ قال «لا، وأن تعتَمِروا هو أفضل!»[3] قال الترمذي: وهو قول بعض أهل العلم، قالوا: العمرة ليست بواجبة وكان يقال "هما حجان: الحج الأكبر يوم النحر والحج الأصغر العمرة" وقال الشافعي: العمرة سنّة لا نعلم أحدا رخَّص في تركها وليس فيها شيء ثابت بأنها تطوُّع. وهو كما قال ودليلُه ما بلغنا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة!»[4] لذا لَم يفصِل النبي صلى الله عليه وسلَّم بين العمرة والحج كما فعل في الفصل بين تطوّع الصلاة والصوم وفريضتهما. على أنَّه قرن في حجَّته بين الحج والعمرة فلم يحلَّ بينهما، ولكنَّه قال «لو استَقْبَلتُ من أَمري ما استدْبَرتُ ما أَهديْتُ، ولولا أنّ مَعي الْهَديَ لأحلَلْتُ!»[5] ويدلُّنا هذا على أنَّ التحلُّل من العمرة والفصل بينها

---

[1] خرجه الترمذي في الصوم وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان وأحمد وصححه الترمذي وقال الأرناؤوط: على شرط الشيخين.

[2] خرجه البخاري في الصوم ومسلم وأبو داود وابن ماجة.

[3] انفرد به الترمذي في الحج وقال: حديث حسن صحيح. على أنّهم تكلَّموا في صحّته من عدمها.

[4] خرّجه الترمذي في الحج قال: في الباب عن سُراقة بن جُعشُم وجابر بن عبد الله. وحديث ابن عباس حديث حسن. قلت: والحديث بشواهده عند الجماعة غير البخاري.

[5] خرجه البخاري في الحج ومسلم وأبو داود النسائي عن جابر بن عبد الله.

وبين الحج أفضل، وهو التمتُّع لقوله تعالى ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ!﴾ [البقرة 196]

لنَعدْ إلى الكلام في التطوُّعات التي يقدِّمها العبدُ وضرورتها لتكميل العبادات الْمَفروضة عليه، وما من شكّ أنّ جُلَّ الفرائض التي نؤدّيها ناقصة؛ فعلى هذا يكون التَّطوُّع واجبا بالتَّبع من باب "ما لا يتِمُّ الواجب إلا به فهو واجب". ولا يكون هذا ممكنًا إلا إذا كانت الفرائض والنوافل جنسًا واحدا، ولا بدّ. وعليه فلا يجوز التصرُّف في عبادة مّا أذِن فيها الله بدَعوى أنّها من النافلة، بل لا فرق بين النَّفل والفرض إلا في زَمن الوجوب، بحث تجبُ الفريضة لِحلول ميقاتِها والنافلةُ إنما تجبُ بالشُّروع فيها "مَن شرع في عبادة مفروضة فرضا عينيا أو كفائيا، كالصلاة والصوم، فإنه يجب عليه القيامُ بها على الوجه المشروع باستيفاء أركانها وشرائطها حتى تبرأ الذِّمة. فإذا أفسَدها، فعليه أداؤها في الوقت، أما بعده فعليه فعلُها تامّة... أما ما شُرع فيه من التطوُّع فإنه يجب إتمامُه، وإذا أفسده يقضيه وُجوبا، وهذا عند الحنفية والمالكية. أما الشافعية والحنابلة فقد قالوا: يُستحَبُّ إتمامُ النَّفل الذي شُرع فيه، كما يستحب قضاءُ ما أفسده بعد الشروع فيه من النوافل، وهذا في غير التطوُّع بالحج والعمرة، حيث يجب إتمامُهما إذا شُرع فيهما."[1] والصواب أن وجوب الإتمام ليس خاصًّا بالحج بل هو عامّ في العبادات كلِّها؛ فمَن شرع في شيء منها تقيَّد به ووجب عليه أداؤُه كاملا.

العبادات شعائرُ الله ومحارمه تعالى، والقاعدة فيها أنَّ الشُّروع في إحداها يوجِبُ إتمامَها سواءً كانت فرضًا أو نفلا. لا بدَّ من الرُّجوع إلى تأصيل الأصول التي تقوم عليها شريعتُنا والأصلُ في مسألتِنا هذه قولُ الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ!﴾ [الحج 6] فعمَّ كلَّ شَعيرة، أي كل ما جعله الله للتعبُّد كالصلاة والصدقة والصوم والحج وغير ذلك من القُرُبات، فريضةً كانت أو نفلاً. قال الطبري: إنّ الله نَهى عن استحلال شعائره ومعالِم حدوده وإحلالِها نَهيًا عامًّا مِن غير اختصاصِ شيء من ذلك دون شيء، فلم يَجُزْ لأحد أن يُوجِّه معنى ذلك إلى الخصوص إلا

[1] 'الموسوعة الفقهية' ج5-ص288، وزارة الشئون الإسلامية الكويتية، دارالسلاسل، الكويت.

بِحُجّة يَجب التسليمُ لَها، ولا حُجّةَ بذلك![1] قال ابن العربي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابي في تعليم ما بُني عليه الإسلام، فذكر الفرائضَ فقال "هل على غيرها؟" قال عليه السلام «لا، إلا أن تَطَوَّعَ»[2] فسمى ما زاد على الفرائض تطوُّعا. فالفرض عُبوديَّةُ اضطرارٍ لأن المعصية تتحقَّق بتركه، وما عداه فعبوديةُ اختيار. لكنه مُختار في الدخول فيها ابتداءً، فإذا دخل فيها، عندنا، لَزِمَته أحكامُ عُبودية الاضطرار ولا بدَّ، وليس له أن يَخرُجَ عن حُكمِها حتى يَفرُغَ من تلك العبادة. ولهذا لما قال له "هل على غيرها؟" قال له عليه السلام «لا» يعني أنه ما فرضَ اللهُ عليك ابتداءً من عنده إلا ما ذكرتُه لك «إلا أن تَطَوَّعَ» إلا أن تشرَع أنت في أمثالِها ممّا رغَّبَك الحقُّ فيه. فإن تطوَّعت ودخلتَ فيها؛ وجبَ عليك الوفاءُ بها، كما وجبَ في فروضِ الأعيان. فهذا معنى قوله «لا، إلا أن تَطَوَّعَ» فيجبُ عليك ما أوجبتَه على نفسك. وفي هذا الباب دخل النَّذْرُ وأمثالُه قال تعالى ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ!﴾ [محمد 33][3]

ويشهد لهذا قولُ الله تبارك وتعالى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ! يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى!﴾ [البقرة 263-264] والصدقة المقصودة هنا إنما هي التطوُّع وإلاَّ ما فاضلَها قولُ المعروفِ والمَغفرةُ، ومع ذلك فقد نهى عن إبطالِها. وكذلك قولُه تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ!﴾ [البقرة 96] أي سواءً كانا فرضًا أو تطوُّعا كما رواه الطبري بسنده عن ابن عباس قال "من أحرَم بحجّ أو بعُمْرة فليس له أن يَحِلّ حتى يُتمَّهما!" وذِكرُ العُمرة في هذه الآية يدلُّ على التَّطوُّع، وإلا فالعمرة واجبةٌ مرَّة في العمر لأنها داخلة في الحج، لا يصحُّ بدونها كما قال صلى الله عليه وسلم «دَخلت العمرةُ في الحج لأَبَدِ أَبَدٍ!»[4] والله يقول ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران 97] مرَّةً في العُمر. ولا خلافَ أن مَن

---

[1] تفسير الطبري ج9-ص465.

[2] من حديث خرجه البخاري في الإيمان والجماعة غيرَ الترمذي وابن ماجه، عن طلحة بن عُبيد الله.

[3] 'الفتوحات الكيّة' ج2-ص239، دار الكتب العلمية، بيروت.

[4] خرجه مسلم في الحج وأبو داود وابن ماجه عن جابر والنسائي والترمذي عن ابن عباس.

كان قد أدَّى فرضَ الحج ثم ظهر له أن يشرَع بعد ذلك في تطوُّع بحجٍّ أو عُمرة، لزِمه أداءُ المناسك كلِّها كما تُؤدَّى في الفرض تَمامًا، فإن أخلَّ بشيء يوجب الفديةَ في الفرض وجبت عليه الفدية كفّارةً وإن كان متطوِّعًا. فتعيَّن إتمامُ كلّ عبادة قد شُرِع فيها سواءً كانت فرضا أو نفلاً، وأنّه يَحرمُ قَطعُها.

ويدلُّ عليه بخصوص الصلاة ما بلغنا عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن أصابه قَيْءٌ أو رُعاف أو قَلَس أو مَذْيٌ، فلينصرف، فليتوضَّأ ثم لِيَبْنِ على صَلاتِه وهو في ذلك لا يتكلَّم!»[1] وإن كان الخبر ضعيفا من حيث الصناعة، إلاَّ أنَّ له شواهدَ وآثاراً موقوفة تعضُدُه، منها ما رواه مالك في المُوطَّأ عن نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا رعَف انصرف فتوضأ ثم رجع فبنَى و لم يتكلَّم.[2] وهذا سندٌ في غاية الصحَّة وابنُ عمر من أتبَع الصحابة للسنَّة كما هو معروف. وبلغنا عن عليّ أنه قال: بينما نَحن مع رَسول الله صلى الله عليه وسلم نُصلّي إذ انصَرفَ ونَحن قِيامٌ، ثم أقبَلَ ورأسُه يَقطُر فَصلَّى لنا الصلاةَ، ثم قال «إني ذَكرتُ أنِّ كُنتُ جُنُباً حين قُمتُ إلى الصلاة، لَم أغتَسِلْ؛ فَمَن وَجَد مِنكم في بَطنِه رِزًّا أو كان علَى مِثلِ ما كُنتُ

[1] خرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة، والدارقطني وقال: ليس بشيء، وقال ابن حجر: وفي الباب عن ابن عباس رواه الدارقطني وابن عدي والطبراني ولفظه «إذا رعَف أحدكم في صلاته فلينصرف فليغسل عنه الدمَ ثم ليُعِد وضوءَه وليستقبل صلاته» وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك، وعن أبي سعيد الخدري ولفظُه «إذا قاء أحدكم أو رعف وهو في الصلاة أو أحدث فلينصرف فليتوضأ ثم ليجئْ فليبْنِ على ما مضى» رواه الدارقطني وإسنادُه ضعيف أيضا فيه أبو بكر الداهري وهو متروك، ورواه عبد الرزاق في مصنَّفه موقوفا على علي وإسنادُه حسن، وعن سلمان نحوُه. وروى الموطأ عن ابن عمر أنه كان إذا رعف رجع فتوضأ و لم يتكلم ثم رجع وبنَى، وللشافعي من وجه آخر عنه قال: من أصابه رُعاف أو مَذْيٌ أو قيء انصرف وتوضَّأ ثم رجع فبنى. 'التلخيص الحبير' ج1-ص655، الكتب العلمية.

[2] كتاب الطهارة.

عليه، فَلينصَرِفْ حتى يَفرُغَ من حاجَته أو غُسله، ثم يَعود إلى صَلاته!»[1] أي التي علَّقها بعينها وَلْيَبن على ما سبق منها فيُتمَّها. وإن كان هذا الحديث أيضا معلولا سندًا فإنَّ له شواهدَ صحيحة عن أبي بكرة وأبي هريرة وأنس، وقد بلغنا عن علي موقوفا بسند جيِّد أنَّه قال: إذا وجد أحدُكم في بطنه رِزاً أو قَيئا أو رُعافا فلينصَرِفْ فليتوَضَّأْ ثم لِيَبنِ على صلاته، ما لَم يتكلَّم.[2] والرِّزّ: الصوت الخفي، ويريد به هنا قرقَرة البطن. قال البيهَقي: وفي كل هذا إن صحَّ دَلالة على جَواز الانصِراف بالرِّز قبل خروج الحدَث ثم البناء على ما مضَى من الصلاة.[3] ويشهَد لهذا كلِّه قولُ رسول الله «لا صلاةَ بحضرة الطعام ولا هو يدافِعه الأخبثان!» أي البَول والغائط فنفاها أو نَهى

---

[1] خرجه أحمد ح632 عن مُحمد بن الْحَنفية عن أبيه وفيه ابن لَهيعة، وهو ثقة لكن اختلط، وضعَّفه الأرناؤوط. ورواه أبو داود بسنده إلى أبي بكرة أن "رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل في صلاة الفجر فأومَأ بيده أن مكانَكم! ثم جاء ورأسُه يقطر فصلى بهم." –ثم قال أبو داود:– حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد بن سلمة بإسناده ومعناه وقال في أوله "فكبر" وقال في آخره "فلما قضى الصلاة قال «إنما أنا بشر وإني كنت جُنُبا»" قال أبو داود: رواه الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال "فلما قام في مصلاّه وانتظرنا أن يكبِّر انصرف ثم قال «كما أنتم»" قال أبو داود: ورواه أيوب وابن عون وهشام عن محمد مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "فكبر ثم أومأ بيده إلى القوم أن اجلسوا! فذهب فاغتسل" وكذلك رواه مالك عن إسمعيل بن أبي حكيم عن عطاء بن يسار أن "رسول الله صلى الله عليه وسلم كبَّر في صلاة" قال أبو داود: وكذلك حدَّثَناه مسلم بن إبراهيم حدثنا أبان عن يحيى عن الربيع بن محمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه "كبَّر".اه، وقد روى حديثَ أبي بكرةَ أحمد وابنُ خُزيمةَ وصحَّحه الأرناؤوط والأعظمي. ورواه أحمد عن أبي هريرة ح9785 وصحَّحه الأرناؤوط. ورواه الدارقُطني عن أنس ح1378 وصحّحه الهيثمي في 'المجمَع' عند الطبراني في 'المعجَم الأوسط'.

[2] خرَّجه الدارقطني ح584 والبيهقي في 'السنن الكبرى' وابن أبي شيبَة عن عاصم بن ضَمرة عن علي موقوفا بسند جيِّد قال ابن أبي حاتم في 'العلل' رقم 59: قال أبي "أنا أرضى أن يكُون هذا". وله شواهد عن ابن عمر وسلمان وأحمد مرفوعا.

[3] 'السنن الكبرى' رقم3520، ج2-ص256، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد.

عنها صراحةً، وكذا قولُه صلى الله عليه وسلم «ثلاثٌ لا يَحلُّ لأحد أن يفعلَهنّ: لا يَؤمَّ رجلٌ قومًا فيَخصَّ نفسَه بالدعاء دونَهم، فإن فعلَ فقد خانَهم؟ ولا يَنظُرَ في قَعْر بيتٍ قبلَ أن يستأذِن، فإن فعل فقد دخل؟ ولا يصلّي وهو حَقِنٌ حتى يَتخَفَّف!»[1] وجاء في رواية «حاقِن» بمدّ الحاء، من الحَقْن وهو الجَمع، ومعناه هنا مَنعُ الفضَلات التي اجتَمعت في البَطن من الخروج، وهو دَفع الأخبثَين في الحديث السابق. فقد دلَّ هذا كلُّه على أنَّه لا يحلُّ لأحد الدخولُ في الصلاة ولا الاستمرار فيها عند ورود بَول أو غائط، بل يقضي حاجتَه قبل الشروع في الصلاة، وإن كان فيها علّقها وقضى حاجتَه واستأنف وضوءَه ثم يعود إلى صلاته من حيث علّقَها، ولا يقطَعُها.

ومن ذلك أنَّ النبيَّ كان يومًا يصلّي بأصحابه فخلَع حِذاءَه فوضعَه عن يساره، فلما رأى القومُ ذلك أَلقَوْا نعالَهم، فلمّا قضى صلاتَه قال «ما حَملَكم على إلْقائكم نعالَكم؟» قالوا "رأيناك أَلقَيت نَعلَيْك فألْقَينا نعالنا!" فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم «إنّ جبريلَ أتاني فأخبرني أنّ فيهما قَذَرًا؛ فإذا جاءَ أحدُكم إلى المسجد فَلْيَنظُر، فإن رأى في نَعلَيْه قَذَرًا أو أَذًى فَليَمسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فيهما!»[2] فاكتفى النبيُّ بخَلعِ الحذاء وأتمَّ صلاتَه، لأنَّه دخل فيها بنيَّة أنَّه على طهارة كاملة؛ وهذا أصلٌ.

ينبني عليه أنّه لا يَحلُّ قَطُّ قطعُ صلاةٍ قُد شُرع فيها، فرضًا كانت أو نفلا، وإن لَم يتحقَّق شرطُ الطهارة في الواقع لِمَن ظنَّ أنَّه على طهارة. فلا يصحُّ القول بأنَّها لا تنعَقد لعدم الطهارة، بل قد انعَقدت بمُجرَّد ظنِّ الطَّهارة وبالنيَّة وبتكبيرة الإحرام، فلا يجوز حلُّها إلا بالتسليم بعد التشهد والصلاة على النبي، لقوله صلى الله عليه وسلَّم «مِفتاحُ الصلاة الطُّهورُ وتَحريمُها التكبيرُ وتَحليلُها التَّسليم»[3] فمُجرَّد ظنِّ الطُّهور كافٍ للصلاة لأنَّه وُسْعُ النَّفس، وإلاَّ لوقع الناس في

---

[1] خرجه أبو داود في الطهارة والترمذي وأحمد عن ثوبان، وصححه الأرناؤوط.

[2] خرجه أبو داود وأحمد والدارمي وابن خُزيْمَة في صحيحه عن أبي سعيد الخُدْري.

[3] خرجه أبو داود في الوضوء والترمذي وقال: هو أصح حديث في الباب وأحسن، ورواه ابن ماجه والدارمي وأحمد عن محمد بن الحنفيّة عن أبيه علي بن أبي طالب، وحسَّنه الأرناؤوط.

الوسوسة لعدَم تحقُّق طَهوريَّة ماءٍ أو لغيرها. وتُعلَّق الصلاةُ في حينِ تذكُّرِ الإخلال بالطُّهور فيُجدَّد ويُرجَع إلى الصلاة لتُتَمَّم ولا تُقطع أبدا.

لذا لَم يجعل الله تعالى علينا مِن حرج في الصلاة إذا اضطُررنا لحركةٍ مّا، ولا بأس بالحركة في الصلاة عند الضرورة. فمَن نابَه شيءٌ كأن يُطرقَ بابُه لحادث خَطِرٍ مَثلاً أو خشيَ أن يَفقد خُشوعَه فليفتَحْ الباب وليرجِع إلى صلاتِه ليُتمَّها، أو كأن يريد أحدٌ أن يمُرَّ أمامه فليردَّه لقول النبي «إذا صلَّى أحدُكم إلى شيءٍ يستُرُه مِن الناس فأرَاد أحدٌ أن يَجتازَ بين يديه؛ فَلْيَدْفَعه! فإن أَبى فلْيُقاتلْه؛ فإنّما هو شَيطان!»[1] أو كأن يشرعَ في نافلَة في مُقدّمة المسجد ثم يخرج الإمامُ من مَقصورته لأداء الفريضة فلا يجد ممرًّا إلا بين يديه، فواجبُه أن يدنوَ من جدار المسجِد ليُتيح للإمام المرورَ من ورائه بدليل ما بلغنا عن عبد الله بن عمرِو بنِ العاص قال: هَبَطْنا مع رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِن ثَنِيَّةِ أَذاخِرَ، فَحَضَرَت الصلاةُ، فصَلَّى إلى جدارٍ فاتَّخَذَه قِبلَةً ونَحنُ خَلفَه فَجاءت بَهمَةٌ تَمرُّ بَين يَدَيه فما زَال يُدارِئُها حَتى لَصَق بَطنَه بالجِدارِ ومرَّت مِن وَرائِه![2] وأَذاخرِ مَوضع بين مكة والمدينة.

أما أن يقوم عبدٌ بين يدي رَبِّ العالَمين يُناجيه كما قال النبي «إنّ أحدَكم إذا قام في صلاته، فإنه يُناجِي ربَّه!»[3] فلا يُعقَل أن يُعرِض عن الله بغتةً وقد أقبل تعالى عليه بوَجهه الكريم، كما قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل إذا قام يصلي أقبلَ اللهُ عليه بوجهه، حتى ينقلِب أو يُحْدِث حَدَثَ سُوءٍ!»[4] ليس الحدَث هنا ما ينقُض الوضوءَ، فما في الريح والغائط والبول من سُوء، ولكن سمّاه 'حدثَ سوء' لأنَّه أمرٌ مُحدَث في الدين ومُخالِف لِما شَرَعه الله لنا، فهو داخِل في قول النبي

---

[1] خرجه البخاري أبواب سُترة المُصلّي ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

[2] خرجه أبو داود في الصلاة واستدلَّ به على هذا الحكم وهو جيِّدٌ جدًّا.

[3] خرجه البخاري في الصلاة ومسلم والدارمي وأحمد عن أنس بن مالك.

[4] حسن خرجه ابن ماجه في الصلاة، وابن خُزيمة والمروزي في 'الصلاة' عن حُذيفة.

«شرُّ الأمورِ مُحدَثاتُها: وكلُّ بدعَة ضَلالَة!»[1] وقوله «مَن أَحدَث في أمرِنا هذا ما ليس منه؛ فهو رَدٌّ!»[2] وقولِه صلى الله عليه وسلم «مَن أَحدَثَ فيها حَدَثًا أو آوَى مُحْدِثا؛ فعليه لَعنَةُ الله!»[3]

فقَطْعُ الصلاة قبلَ إتمامها حدَثُ سوء أي بدعةٌ وتلبيسٌ من الشيطان استطاع أن يُزيِّنه لعدد هائل من حملة العلم ليفعلوه وليُفتُوا به غيرَهم ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ؛ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ!﴾ [التوبة 37] فهذا الذي بيَّنتُه لك هو الحقّ الذي لا يجوز مُخالفتُه، فإن جاءَك خلافُه فإنَّه لا يُتابَع أحدٌ على خطئِه مهما بلغ من العلم والجاه بين الناس، وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه وأحسن نُزُلَه ومَثواه "لا عُذرَ لأحد في ضلالَة ركِبها حَسِبها هدًى، ولا في هُدى ترَكه حسِبه ضلالةً؛ فقد بُيِّنت الأمورُ وثَبتت الحجّةُ وانقطع العُذْر!"[4] والعاقل مَن كان من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ!﴾ [الزمر 17] والله أعلَم ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

***

إنّ عداوة إبليس لشديدة وإن إغواءه لفَظيع؛ حتى أنه جعلَ أكثرَ بني آدم شرًّا منه! أُمِر هو بالسجود لآدَم بينما هم مأمورون بالسجود لله رب العالَمين. ثم ما أُمِرَ إلا بسجدة واحدة بينَما بني آدم مَأمورون بأربع وثلاثين سجدةً في كلّ يوم وليلة. ثم لا يزَال الشيطان يتحسَّر ويبكي على تلك السجدة إلى يوم القيامة، كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ فسَجَد، اعتَزَلَ الشيطانُ يَبكي؛ يقولُ: يا ويلَهْ، أُمِر ابنُ آدمَ بالسُّجود فسَجَدَ فله الجنّةُ، وأُمِرتُ بالسجود فأَبَيْتُ فلِيَ النّار!»[5] وأمّا تاركُو الصلاة من بني آدم، فإنَّ أحدهم قد يُعمَّر

---

[1] خرجه مسلم في كتاب الجمعة والنسائي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله.

[2] خرجه البخاري في الصلح ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة.

[3] خرجه البخاري في الفرائض ومسلم عن علي، ومسلم في الحج عن أنس وعن أبي هريرة.

[4] ذكره البربَهاري في 'شرح السنة' ص22، دار ابن القيم، الدمّام.

[5] خرجه مسلم في الإيمان وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة.

مَثلا سبعين عامًا فيُدعَى أكثرَ من مائَة ألف مرَّة إلى السُّجود لله فيتولَّى في كلّ مرّة، فيكون قد أبى أكثرَ من ثلاثة ملايين سجدة كلّها حقٌّ لله رب العالَمين، ثمّ هو لا يخاف اللهَ ولا يستحيي ولا يتأثّر ولا يتحسَّر ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ! وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي! فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ! مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ! إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ! إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ!﴾ [المائدة 85]

لا شكّ أنّ مَن هذه حالُهم فهم شرٌّ مكانًا من إبليس وأضلُّ عن سواء السبيل! لذا سارع اللعينُ بالتَّبرِّي من الإنسان في حين يقع في الخطيئة العُظمى وهي الكفر، وكما أخبرنا الله بقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ: اُكْفُرْ! فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ!﴾ [الحشر 16] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَمّا صوَّر الله آدمَ في الجنّة، تركَه ما شاء الله أن يَترُكه فجعَل إبليسُ يُطيفُ به، يَنظرُ ما هو؛ فلما رآه أجوَفَ، عَرف أنه خُلِقَ خَلقًا لا يتمالَك»[1] أي مُذَبذَبا لا يَملك نَفسَه. هذا ما ظَهر لإبليسَ، وقد غاب عنه أنّ الرحمن قد خلَق آدم على صورَته وأنّ مالِكَه وماسِكَه إنّما هو ربُّ العالَمين اللَّطيفُ الخبير و﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ!﴾ [فاطر 41]

يقول ربُّنا تبارك وتعالى في خواتم سورة الأعراف ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ طعنٌ يحرِّكُ النَّفسَ بالإغراء ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ!﴾ والْجَأ إليه يكفك شَرَّه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك ﴿عَلِيمٌ!﴾ بغياثك ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ اتَّخَذوا وقايةً تحفظهم من السوء ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ لَمّةٌ كَشهوة أو شُبهة أو غضب ﴿مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ إنسًا كان أو جانًّا ﴿تَذَكَّرُوا!﴾ أنه عدوٌّ وأن الملجأَ إلى الله ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ!﴾ يرَون مَصائدَه ومَواقع إغوائه وعواقبَ اتِّباعه ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أعداؤُهم في الحقيقة من شياطين الإنس والجنّ ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ يوفِّرون لَهم وسائل التضليل ﴿ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ!﴾ بل يُبالِغون في المكْر هِم ليلَ نهار ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ ترضاها فِطرُهم المنكوسة وقلوبُهم المحبوسة

[1] خرجه مسلم في البر والصلة وأحمد وابن حبان والحاكم عن أنس بن مالك.

وعقولُهم المعكوسة ﴿قَالُوا: لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا!﴾ هلاَّ اخترتها من عندك واخترعتَها؟! ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ من رَّبِّي!﴾ ما أنا إلا مُبلِّغ عنه، ليس لي أن أقول عليه تعالى غير ما يجيئني من عنده ﴿هَذَا﴾ الوحيُ ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ترَون به مَواقع الخير ومراتِع الشَّرّ ﴿وَهُدًى﴾ ونور ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وحياة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ!﴾ جاهدين في طلب علمه بالاستماع له وعدم الانشغال بغيره عنه ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ وإن كنتم أنتم القارئين ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ وكونوا آذانًا صاغية وأسماعًا واعية ﴿وَأَنصِتُوا﴾ وكُفُّوا النّفسَ عن حديثِها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ!﴾ فتحيى قلوبُكم وتعلمون أنّه الحق من ربِّكم فتخشعون في صلواتكم، وذلك قولُه تبارك اسمُه ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ فَامْلأْها بذكره ﴿تَضَرُّعًا﴾ في طلب العطاء منه تعالى ﴿وَخِيفَةً﴾ من نَفسك فاقبِضها ولا تدَعْها تنبَسط ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فإنَّ الله قريب يسمَع النَّجوى ويعلَم السرَّ وأخفى ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ذكرًا يملأ يومَك ﴿وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ!﴾ في صلاتك ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ بلغوا مقام الخشوع ﴿عِندَ رَبِّكَ؛ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه﴾ ولا فيها، فلا يدَعون أنفُسُهم تطغى؛ فالكبرياءُ لله وَحدَه ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ في صلواتهم ويُقدِّسونه ويُجلّونه عن كل تشبيه وتمثيل وتعطيل، فلا يقوم مع الله في قلوبهم شيءٌ ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ!﴾ [الأعراف 200-206] بكليَّتهم لا بالقوالب فقط وقلوبُهم فالتة في تدبير ما قد ضُمِن.

وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم «مَن أصبح منكم آمِناً في سِرْبِه، مُعافًى في جَسَدِه، عندَه قُوتُ يَومِه؛ فكأنّما حِيزَت له الدنيا!!»[1] وقوله «آمِنا في سِربه» أي لا يخاف على نَفسه، وروي بفتح السين «في سَرْبه»، وهو الطريق والمَسلَك، وقد يكون السَّرَب بفتحتين، وهو البيت. وحِيزت مِن حاز يحوز إذا ضمّ إلى نَفسه شيئًا، فالمَعنَى: مَن أصبح كذلك فقد جُمِعت له الدُّنيا بأسْرِها، فليعمَل على إسباغ تلك النعم بالشكُر لربِّه تعالى، وذلك بالصلاة والزكاة وشتّى أنواع

[1] خرجه الترمذي في الزهد وابن ماجه والبخاري في 'الأدب المفرَد' عن عُبيد الله بن مِحصَنٍ الخَطْمي الأنصاري، وحسّنه الترمذي والأرناؤوط، وله شاهد عند ابن حبان في الرقاق عن أبي الدرداء.

القُربات، لتتمّ النّعمة ولا تكون من الطيبات المُعجّلَة التي يتبَعها الحساب الشديد. وقد أخذ هذا المعنى أبو عبد الله الشافعي فقال:

إذا أصبَحتُ عِندي قُوتُ يَومي؛ فَـــخَلِّ الْهَمَّ عَنِّ يا سَعيدُ!

ولا تُخْطِـــرْ هُمومَ غَدٍ بِـــبالي؛ فإنّ غدًا لـــه رِزقٌ جَديدُ!

أُسَـــلِّمُ إن أرادَ اللّـــهُ أَمْـــرًا؛ فَأترُكُ ما أريدُ لِما يُـــريد!

المناظرة

كاد حَمَلةُ العلم يُجمعون على أنَّ المسلمَ مَن اكتفى بالنُّطق بالشهادتين، وإن ترك الواجبات كلَّها ورَكِب الُمحرَّمات كلَّها. ولكنّهم مع هذا يكادون يُجمعون على وُجوب قتل تارك الصلاة، مع لزوم تَغسيله والصلاة عليه ودَفنه بين الْمُسلمين. وهذا تناقضٌ لا ينقضي منه العجب! فما دامَ تركُ الصلاة لا ينقُض الإسلامَ عندهم فما وجهُ إهدارِهم دمَ مَن تَركها، ولا بُرهان لهم به لا في صريح القرآنِ ولا في صحيح السنَّة ولا عن أحد من الصحابة؟! بل الصريح أنّهم قد أخطؤوا السبيلَ على كثرَتهم، وساروا على غير السُّنة وخالَفوا الجماعة واعتَرضوا على ما كان عليه صالِحو هذه الأمَّة، وإن ادَّعَوا أنّهم هم أهل السنَّة والجماعة.

الأصلُ في هذه المسألَة أنَّ تَركَ الصلاة كُفرٌ أكبر، لأنَّها أصل أصول الدين وأنّ نصوص القرآن والسنّة قد صرَّحت بذلك و لم تدع لنا شكًّا فيه. وعملاً بقول النبي «البَيِّنَة على الْمُدَّعي واليمينُ على مَن أنكر»[1] فمَن ادَّعى أن هذه النصوص يجبُ أن تُحمَلَ على غير ظاهرِها فَلْيأتِ بما يُعارِضُها، مِن نصّ صريح ينقُضُها كلَّها أو فيه استثناءٌ أو تقييد أو تخصيصٌ. ولَم يأتِ لا في القرآن ولا في السنَّة ولا عن أحد من الصحابة ما يُعارضُ قولَ النبي «العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاةُ؛ فمن ترَكها فقد كَفر!»[2] وقد قرّر هذا المَروَزي كما سبق، قال: ذكَرْنا الأخبارَ المرويَّة عن النبي صلى الله عليه وسلم في إكفار تارِكها وإخراجه إياه مِن الْمِلّة وإباحة قِتال مَن امتنع مِن إقامتها، ثم جاءنا عن الصحابة مثلُ ذلك. و لم يَجئْنا عن أحد منهم خلافُ ذلك.[3]

لقد ردَّ على أولئك المعترضين جَماعةٌ من العلماء، وبِخاصَّةٍ مَن صنَّفوا في مسائل العقيدة كعبد الله بن أحمد والخلاّل وابن بَطّة والآجُرِّي واللاَّلِكائي، بل قد ردَّ عليهم البخاري ومسلِم في

---

[1] خرجه البيهقي في ’الكبرى‘ ح20990 عن ابن عباس، وهو في الصحيحين.

[2] صحيح خرجه الترمذي في الإيمان والنسائي وابن ماجه وابن حبان وأحمد والحاكم، عن بُريدةَ.

[3] ’تعظيم قدر الصلاة‘ ج2-ص925.

'صحيحَيهما' وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه في 'سُنَنهم'، عند ذكرهم لترك الصلاة في الردِّ على المرجئة. وقد أفرَد الْمَرْوَزي كتابًا سَمّاه 'تعظيمَ قَدر الصلاة' جاء فيه بالآيات والأخبار والآثار والحجَج الدّالَّة على كُفر تارك الصلاة فأجاد وأفاد، وكذا ابن قيِّم الجَوزيّة في 'رسالة حُكم تارك الصلاة'. وردّ عليهم أبو محمد ابنُ حزم في كتاب 'الْمُحلَّى بالآثار' فأطالَ مُناظَرَتَهم وفنَّد دَعاواهم، وكذا محمد بن علي الشوكاني في 'نيل الأوطار' الذي شَرح فيه 'مُنتقى الأخبار' لِمَجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن تَيميَّة، وكان هذا الأخير لا يَرى كُفرَ تارك الصلاة، وهو جدّ شيخ الإسلام أبي العباس أحمد ابن تيميّة الذي صرَّح مرارا بأن تارك الصلاة كافرٌ. أمّا أنا فقد ظهر لي أن أورِد نَصًّا يعارضُ كُفرَ تاركِ الصلاة، لأعَرِضه كاملا للبحث والنَّقْد بالتَّتبُّع.

وإنّ ممَّن خالَف السنّة في هذه المسألة وتبع الْمُرجئة، مُوفَّقَ الدين أبا محمد عبد الله بن أحمد بنَ قُدامة الْمَقدِسيَّ الحنبليَّ المتوفَّى عامَ 620 رحمه الله، على ما جاء في الكتابِ المنسوب إليه والذي يحمِل عنوان 'الْمُغنِيَ'، وهو شرحٌ مَبسوطٌ على مُختصَر أبي القاسم عمر بن الحسين بن إسحاق الْخِرَقي، أحدِ أعلام الحنابلة، أخذ عن أبيه وعن صالح وعبد الله ابنَي أحمد بن حنبل، وأخذ عنه ابنُ بطّة وغيرُه، توفّي بدِمشق سنةَ 334، رحمة الله عليه. وها أنا ذا أسوق ما جاء آخرَ كتاب الصلاة في 'الْمُغني' بصورته، إلاّ ما لا ضرورةَ فيه من تفريعات لا علاقةَ لها بمسألتنا، ثم أَردُّ عليه بعد ذلك فقرةً فقرةً. قال الْمُوفَّق[1]:

إنّ تارك الصلاة لا يَخلو إما أن يكون جاحِدًا لوجوبها أو غيرَ جاحد. فإن كان جاحدا لوُجوبها نُظِر فيه؛ فإن كان جاهلا به، وهو ممّن يَجهل ذلك كالحديث الإسلامِ والناشئ ببادية، عُرِّف وجوبَها وعُلِّم ذلك و لم يُحكَم بكفره لأنه معذورٌ. وإن لم يكن ممّن يَجهلُ ذلك، كالناشئ من المسلمين في الأمصار والقُرَى، لم يُعذَر و لم يُقبَل منه ادِّعاءُ الجهل، وحُكِمَ بكُفرِه، لأن أدلّة الوُجوب ظاهرةٌ في الكتاب والسنة، والمسلمون يفعلونها على

[1] 'المغني' بفصلين قبل صلاة الجنائز، ج4/ص347-353.

الدوام. فلا يَخفَى وُجوبُها على مَن هذا حالُه؛ فلا يَجحَدُها إلا تكذيبًا لله تعالى ولرسوله وإجماع الأمة، وهذا يصير مُرتدًّا عن الإسلام وحُكْمُه حكمُ سائرِ المرتدين في الاستتابة والقتل، ولا أعلمُ في هذا خِلافا. وإن تَرَكَها لمرض أو عَجزٍ عن أركانها وشروطها، قيل له أنَّ ذلك لا يُسقطُ الصلاةَ وأنه يَجب عليه أن يصلِّيَ على حَسَب طاقته. وإن تركَها تَهاونا أو كَسَلا، دُعيَ إلى فعلِها وقيل له "إن صلَّيْتَ، وإلاّ قَتلْناك!" فإن صلَّى وإلاّ وَجَب قَتلُه. ولا يُقتَلُ حتى يُحبَسَ ثلاثًا وَيُضيَّقَ عليه فيها ويُدعَى في وقتِ كلِّ صلاةٍ إلى فعلها ويُخوَّفُ بالقتل، فإن صلَّى وإلاّ قُتِلَ بالسيف. وبهذا قال مالكٌ وحماد بن زيد ووَكيعٌ والشافعي.. واختلفت الروايةُ "هل يُقتل لكُفره أو حدًّا؟" فرُوي أنه يُقتل لكفره كالْمُرتَدِّ فلا يُغسَّل ولا يكفَّن ولا يُدفَن بين المسلمين ولا يرثُه أحدٌ ولا يَرث أحدًا؛ اختارها أبو إسحاق بن شاقِلاَ وابن حامدٍ، وهو مذهب الحسنِ والنَّخَعي والشَّعبي وأيُّوبَ السِّختياني والأَوزاعي وابنِ المبارَك وحمّاد بن زيد وإسحاقَ ومحمدِ بن الحسَن، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «بين العبدِ وبين الكفر تركُ الصلاة» وفي لفظ عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنّ بين الرجل وبين الشرك تركَ الصلاة» وعن بُريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا وبينهم تركُ الصلاة، فمَن تركها فقد كفر» رواهُنّ مسلم[1]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «أوّلُ ما تَفقدون من دينكم الأمانةُ وآخرُ ما تفقدون الصلاةُ»[2]، قال أحمد "كلُّ شيء ذَهبَ آخرُه لم يبق منه شيءٌ"، وقال عمر رضي الله عنه "لا حَظَّ في الإسلام لِمَن ترك الصلاةَ"[3] وقال عليٌّ رضي الله عنه "مَن لَم يُصلِّ فهو كافِرٌ"[4] وقال ابن مسعود "مَن لم يُصلِّ فلا دينَ له"[1]، وقال عبد الله بن شَقيقٍ "لم

---

[1] ليس هذا الأخير في صحيح مسلم، بل خرجه الترمذي والنسائي وغيرُهما كما سبق قريبا.

[2] نقله الهيثمي في الفتن عن ابن مسعود وقال: خرجه الطبراني، وصحَّحه.

[3] خرجه مالك في الطهارة والمروزي في 'الصلاة' والخلال في 'السنَّة' والآجُرِّي في 'الشريعة'.

[4] خرجه المروزي في 'الصلاة' وابن أبي شيبة في 'المصنَّف' والخلال والآجرِّي.

يكن أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون شيئًا من الأعمال تركُه كفرٌ غيرَ الصلاة."[2] ولأنها عِبادةٌ يُدخَل بها في الإسلام، فيُخرَج بتركها منه؛ كالشهادة! والروايةُ الثانية "يُقتَل حدًّا مع الحُكم بإسلامه كالزاني الْمُحصَن"، وهذا اختيارُ أبي عبد الله ابن بَطَّة وأنكَر قولَ مَن قال أنه يَكفُر، وذكر أنَّ الْمَذهب على هذا، لم يَجد في المذهب خلافا فيه. وهذا قولُ أكثرِ الفقهاء وقولُ أبي حنيفة ومالِكٍ والشافعيِّ، وروي عن حُذَيفَة أنه قال "يأتي على الناس زمانٌ لا يَبقى معهم من الإسلام إلا قول 'لا إله إلا الله'" فقيل له "وما ينفَعُهم؟" قال "تُنجيهم من النار، لا أبا لك!" -ثم ساق، رحمه الله، أحاديثَ في حُرمة من قال 'لا إله إلا الله' للاحتجاجِ على أنّ تاركَ الصلاة مسلمٌ. ثم قال:- وروى -يعني الخلاّل- بإسناده في 'جامعه' عن عطاء عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صلُّوا على من قال 'لا إله إلا الله'). ولأنّ ذلك إجماعُ المسلمين، فإنَّا لا نعلم في عصر من الأعصار أحدًا من تاركي الصلاة تُرِك تَغسيلُه والصلاةُ عليه ودَفنُه في مقابر المسلمين ولا مُنِعَ وَرَثَتُه ميراثَه ولا مُنِع هو ميراثَ مُوَرِّثه ولا فُرِّقَ بين زوجين لِتَركِ الصلاة من أحدِهما، مع كَثرَة تاركي الصلاة. ولو كان كافرا لثَبَتَت هذه الأحكامُ كلُّها. ولا نعلمُ بين المسلمين خِلافًا في أنّ تاركَ الصلاة يَجبُ عليه قَضاؤُها، ولو كان مُرتدًّا لم يَجب عليه قَضاءُ صلاة ولا صِيام. وأما الأحاديثُ المتقدِّمة فهي على سبيلِ التغليظ والتشبيه له بالكُفّار، لا على الحقيقة، كقوله عليه السلام «سِبابُ الْمُسلِم فُسوق وقتالُه كفر»[3] وقولِه

---

[1] خرجه والمروزي في 'الصلاة' والخلال وابن بطّة في 'الإبانة' وابن أبي شيبة في 'المصنَّف'.

[2] خرجه الترمذي في الإيمان والحاكم.

[3] خرجه البخاري في الإيمان ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد، عن ابن مسعود.

«كفرٌ باللهِ تَبرُّؤٌ مِن نَسَبٍ وإن دَقَّ»[1] وقوله «من قال لأخيه "يا كافرُ!" فقد باءَ بِها أَحَدُهُما»[2]، وأشباه هذا ممّا أريد به التّشديد في الوَعيد، وهو أَصوَبُ القولين.

انتَهَى كلامُ الموفَّق ابن قُدامَة، وهذا حينُ الشُّروع في الردّ على هذا النص ونقضه، واللّٰهُ الْمُوفِّق ولا حولَ ولا قوّةَ إلا به وهو حسبي ونعم الوكيل. فنقول أولاً: 'الْمُغني' شرحٌ على مُختصر أبي القاسم الخِرقي، وقد ذكرَ الخِرقيُّ تاركَ الصلاة في مَوضعين منه؛ أحدهما آخرَ كتاب الصلاة، حيث عقد بابًا ترجمَتُه 'الحكم فيمَن ترك الصلاة' قال فيه: مَن ترك الصلاةَ وهو بالِغٌ عاقِلٌ، جاحدًا لَها أو غيرَ جاحد، دُعِيَ إليها في وَقت كلِّ صلاةٍ ثلاثةَ أيَّام، فإن صلَّى وإلاّ قُتِلَ. – والموضع الآخر في أوّل كتاب الْمُرتدّ ويقول فيه:- ومَن ارتدَّ عن الإسلام من الرّجال والنساء، وكان عاقلاً بالِغا، دُعِيَ إليه ثلاثةَ أيام، وضُيِّق عليه؛ فإن رجَع وإلاّ قُتل، وكان مالُه فَيْئًا بعدَ قَضاءِ دَينه. وكذلك، مَن ترك الصلاةَ دُعِي إليها ثلاثةَ أيام، فإن صلَّى وإلا قُتل؛ جاحِدًا تَرَكَها أو غيرَ جاحد.[3]

جَعَلَ الإسلامَ والصلاةَ شيئًا واحِدًا بقولِه في كِلا الموضعين "دُعِي إليه –أي إلى الإسلام– ثلاثةَ أيام،الخ." فتارِكُ الصلاة والْمُرتدِّ عنده سواءٌ؛ تُضرَب رَقَبَتهما ولا يُغسَّلان ولا يُصلَّى عليهما ولا يُدفَنان بين المسلمين ولا يرثُهما المُسلِمون مِن أهلهما. ولو رأى أنَّ قتل تارك الصلاة حدٌّ، كقتل المسلم الذي زنَى وهو مُحصَن، كما يقول ابن قُدامة، لذَكَره في كتاب الحدود لا في كتاب الرِّدّة. وممَّن شرح مختصرَ الخرقي شمسُ الدين محمدُ بنُ عبدِ الله الزَّرْكَشي، وإنّه يقول في هذا الْمَوضع: ظاهرُ كلامِ الْخِرَقي واختيارُ الأكثرين أنه يُقتل كُفرًا، وعلى هذا الروايةُ! هو كالمرتد؛ لا يُغسَّل ولا يُصلَّى عليه ولا يَرِثُه وَرَثَتُه من المسلمين إلى غير ذلك من أحكام المرتد.[4]

---

[1] خرجه أحمد ح6858 عن ابن عَمرو والدارمي بسند صحيح عن أبي بكر موقوفًا.

[2] خرجه مالك في الجامع والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، عن عبد الله بن عمر.

[3] 'مختصر الخرقي' ص35 و ص132، دار الصحابة للتراث، طنطا.

[4] الزَّرْكَشي 'شرح مختصر الخرقي' ج1-ص306، دار الكتب العلمية، بيروت.

النيَّة

قال الْمُوفَّق: تارك الصلاة لا يَخلو إما أن يكون جاحدا لوُجوبها أو غيرَ جاحد.

نقول: إنَّما المسألَة في إسلام أو كُفرِ مَن عصَى الله وخالَف أمرَه وأبى أن يُصلِّي، وليست فيمن أنكر وجوبَ الصلاة. وإلاّ فمَن أنكر معلومًا من الدين بالضّرورة فهو كافرٌ. فمَن ينكر مثلا أن الرِّبا حرام فهو كافرٌ وإن لَم يتعامل قطُّ بالرِّبا، ومن استحلَّ الخمرَ فهو كافرٌ وإن لم يشربها، لا خلاف في هذا. وكذلك مَن أدّى فرضًا ولكن بغير نيَّة التقرّب إلى الله فعملُه مَردود، فإن كان تركُه كُفرًا فإنّه يكفُر وإن عملَه. كمَن يصلي بنيَّة ترويض النفس ورياضة الجسم، كما يفعل كثير من الناس، فصلاتُه غير صحيحة لأنّ الله يقول ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ؛ أَلاَ، لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ!﴾ [غافر 2-3] وقال النبي صلى الله عليه وسلم «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنَى الشُّركاء عن الشرك؛ مَن عمِل عملاً أَشرَكَ فيه مَعِيَ غيري، تَركتُه وشِرْكَه!»[1] فكل عمل تَعبُّدي تشوبه نيَّةٌ زائدة عن التقرُّب إلى الله فإنَّه تعالى لا يقبَلُه.

وكذلك أيضًا مَن صلَّى صلاةً مفروضةً وهو جاحِدٌ لوُجوبها يكون كافرًا. فمَن اعتقد تقليدًا أن وقتَ صلاة الصبح إنما هو بعد طُلوع النهار، ثم أُخبِرَ بقول الله تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ!﴾ [طه 130] وبما جاء في السنَّة من أنّه وقتُها، ولكن أصرّ على أن وقتها بعد طلوع الشمس. ثم أُجبِر أخيرًا بالقوَّة على أدائها في وقتِها المشروع، فصلاَّها قَهرًا وهو في قَرارَة نفسه مُقتنِعٌ بأنَّه عاصٍ، لظنِّه أنّ وقتَها لَم يَحِن بعدُ. فهذا قد صلَّى الصُّبحَ في وقتِها الشَّرعي وهو مُنكِرٌ لِمَشروعيَّتها في ذلك الوقت، جاحِدٌ لكَونها حقًّا مَفروضًا عليه، فهل يَكون هذا مسلمًا؟ مَن قال نعم، فقد فَصل النيّة عن العمل وعَذر مُعاندًا قد قامت عليه الحجة. بل الصواب أنَّه كافرٌ قد كذّب بالحقّ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ؟!﴾ [العنكبوت 68] وهو مُنافق قد صلى مُكرَهًا رغمَ أنفه، ولا صلاةَ له ما دام قد أُكرِه عليها لقول الله تعالى ﴿لا

---

[1] خرجه مسلم في الزهد عن أبي هريرة.

إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ!﴾ [البقرة 256] إلا أنه مع هذا يدخُل في قول النبي صلى الله عليه وسلَّم «مَن صلَّى صلاتَنا واستَقبل قِبلتنا وأَكل ذَبيحتنا، فذلك المسلم!»[1] فيجب الكَفُّ عنه وتُجرى عليه أحكامُ الإسلام كلِّها وإن عُلِم يقينًا أنه مُنافقٌ؛ هذا في الدنيا والله يتولى أمرَه في الآخرة.

هذه أمثلة واقعة مُشاهَدة من فَصل العمل عن النيّة والعكس، وإلا فالبحث في سَريرة تارك الصلاة من التَّنطُّع الْمَذموم الْمَنهي عنه. فقد بلغنا عن إياد بن أبي حميد قال: سمعت مكحولا يقول فيمن يقول "الصلاةُ من عند الله ولا أُصلّيها، والزكاةُ من عند الله ولا أزكيها!" قال: يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل! وعن أيوب فيمن يقول "الصلاة من الله ولا أصليها": يُضرَبُ عُنُقه من ها هنا –وأشار إسحاق إلى قفاه– ليس بين الأئمة فيه خلافٌ![2] وروى المروزي بسنده عن مَعقَل بن عُبيد الله الْجَزَري أنّه قال: قلتُ لنَافعٍ -هو مَولى عبد الله بن عمر- "رجلٌ أَقَرَّ بما أنزَلَ الله تعالى وبما بيَّن نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال "أَتْرُكُ الصلاةَ، وأنا أَعرِف أنَّها حقٌّ من الله تعالى" -ما قولُك فيمن هذه حالُه؟- قال نافعٌ "ذاك كافرٌ!" ثُمّ انتزَعَ يدَه من يَدي غَضْبَانَ مُوَلِّيًا. وروى بسنده عن يعمر بن بشر قال: سمعت عبد الله بن المبارك قال "من أخَّر صلاة حتى يفوتَ وقتُها متعمِّدا من غير عُذْرٍ كَفَر" ثم قال: خالفني سفيان وغيره من أصحاب عبد الله وأنكروه فدخلوا على عبد الله فأخبروه أن "يعمر روَى عليك كذا وكذا" ولم يُنكره وقال "فما قلتَ أنت؟" فقال سفيان لعبد الله "إنه روى عليك كذا وكذا" فقال له عبد الله "فما قلت أنت؟" قال "إذا تركَها رداًّ لها.." فقال "ليس هذا قولي، قِستَ عليَّ يا أبا عبد الله!" وروى بسنده عن يَحيى بن مَعينٍ قال: قيل لعبد الله بن الْمُبارَك: إنَّ هؤلاء يقولون "مَن لم يَصُم ولم يُصَلِّ، بعد أن يُقرَّ به، فهو مؤمِن مُستَكمِلُ الإيمانِ؟!" قال عبد الله "لا نقول نَحن كما يقول هؤلاء؛ مَن ترك

---

[1] خرجه البخاري في الصلاة والنسائي وأحمد عن أنس بن مالك.

[2] رواهما إسحاق ابن راهويه. وأوردهما البوصيري في ’إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة‘ ج2-ص408، دار الوطن، الرياض. وابن حجر في ’المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية‘.

الصلاةَ مُتعمِّدًا من غير عِلّة حتى أَدخَلَ وقتا في وَقْت؛ فهو كافرٌ!"[1] هذا لتَعلَم أنّ النِّقاشُ والتَّفريعُ في نيَّة تارك الصلاة وما يُضمِره بَحثٌ عقيم، لا يُجدي المسألة شيئًا، بل ولا يَزيدها إلا تعقيدًا. لذا ردَّه هؤلاء السلَف وأنكروا على مَن خاض فيه.

قال ابن تيمية: مَن اعتقَد وجوبَ الصلاة مع إصراره على تركها، فقد ذكر عليه 'الْمُفَرِّعون' من الفُقهاء فروعًا لم تُنقَل عن الصحابة، وهي فروعٌ فاسدةٌ. فلا يُعرَف أن أحدًا يَعتقد وُجوبَها ويقال له "إن لم تُصَلِّ قَتَلْناك!" فيُصِرّ على تركها مع إقراره بالوجوب، فهذا لم يَقَع قطُّ في الإسلام. ومتى امتنع الرجل من الصلاة حتى يُقتلَ لم يكن في الباطن مُقرّا بوُجوبها، وهذا كافرٌ باتِّفاق المسلمين.[2] وقال في موضع آخر: مسألةٌ يمتنع وقوعُها، وهي أن "الرجل إذا كان مُقرًّا بوُجوب الصلاة، فدُعي إليها وامتَنع ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يُصلِّ حتى قُتل؛ هل يموت كافرا أو فاسقا" هذا الفرَض باطِل؛ إذ يمتنع أن يعتقد أن الله فرضَها ولا يفعلُها، ويَصبر على القتل؛ هذا لا يفعله أحد قطّ! ومَن ترك الصلاة فينبغي الإشاعةُ عنه بتركها حتى يصلِّيَ، ولا ينبغي السلامُ عليه، ولا إجابةُ دعوتِه. والمحافظ على الصلاة أقربُ إلى الرحمة ممن لم يصلِّها، ولو فعَل ما فَعل![3] وقال في موضع آخر: وأما الذين لم يُكفِروا بترك الصلاة ونحوها فليست لهم حجة إلا وهي متناوِلة للجاحد كتناولها للتارك؛ فما كان جوابَهم عن الجاحد كان جوابا لهم عن التارك مع أن النصوص علَّقت الكفر بالتولِّي.[4] أي بمُجرَّد تَركِ الصلاة، وبغضِّ النَّظر عن نيّة التارك لها، كقول الله تعالى ﴿فَلا صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى، وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى!﴾ [القيامة 31-32] فجعل التّولّيَ عنها نتيجةً للتَّكذيب.

---

[1] روى الآثار الثلاثة المروزي في 'تعظيم قدر الصلاة' ص563، دار الغقيدة، الإسكندريّة.

[2] 'مجموع الفتاوى' ج22-ص48، دار الوفاء.

[3] 'الفتاوى الكُبرى' ج5-ص318، بتحقيق الأخَوين عطّا، دار الكتب العلمية.

[4] 'مجموع الفتاوى' ج7-ص614.

وقال ابن القيِّم: لا يُصِرُّ على ترك الصلاة إصرارًا مُستمرًّا مَن يُصدِّقُ أن الله أمر بها أصلاً. يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجُلُ مصدِّقًا تصديقا جازما أن اللهَ فَرَضَ عليه كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ صلوات وأنه يُعاقِبه على تركِها أشدَّ العِقاب وهو مع ذلك مصرٌّ على تركِها؛ هذا مِن المستحيل قطعًا! لا يُحافظُ على تركها مُصدِّقٌ بفَرضِها أبدًا، فإنّ الإيمانَ يأمُرُ صاحِبَه بها. فحيث لم يكن في قلبه ما يأمُرُ بها، فليس في قلبه شيءٌ من الإيمان![1]

وقال الشَّوْكاني: الحقُّ أنه كافرٌ يُقتل؛ أما كُفرُه فلأنَّ الأحاديث قد صحَّت أنّ الشارِع سمَّى تاركَ الصلاة بذلك الاسم وجعل الحائلَ بين الرجل وبين جَواز إطلاق هذا الاسم عليه هو الصلاةَ، فتَرْكُها مُقتَضٍ لجواز الإطلاق. ولا يلزَمُنا شيءٌ من المُعارَضات التي أورَدَها الأوّلون - أي الذين لا يُكفِّرونَه، ثم قال بعد قليل- ولا مُلجِئَ إلى التأويلات التي وقع الناسُ في مَضيقها![2]

بلغنا عن عبد الله بن عتبة قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول "إن أناسا كانوا يُؤخَذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الوحيَ قد انقطع؛ وإنما نأخذُكم الآنَ بما ظَهرَ لنا مِن أعمالكم. فمَن أظهَر لنا خيرا أَمنّاه وقرَّبناه وليس إلينا مِن سَريرَته شيءٌ؛ اللهُ يُحاسِبُه في سَريرته. ومَن أظهر لنا سوءًا لم نَأمَنه ولم نُصَدِّقْه، وإن قال أنَّ سريرتَه حَسنة!"[3] فالحكم على الأشخاص إنَّما يكون بالنظر إلى تصرُّفاتهم بميزان الشريعة، وأمّا النيّات والسرائر فلا دخلَ لنا بها، وإنَّما حكمُها إلى الله، فهو وحدَه المطَّلع عليها، وذلك قولُه وتعالى ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ هذا حُكم الظاهر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وهذا في السرائر ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ!﴾ [التوبة 94]

وعلى هذا كلّه فالبحث عن نيَّته تارك الصلاة باطل، بل مثلُه كمثل مَن يقول "أنا أعلَم أن لا إله إلا الله وأنَّ محمّدا رسول الله، ولكن لا أرى نفسي مكلَّفا بالنُّطق بذلك، فهو سرٌّ بيني وبين

---

[1] 'الصلاة وحكم تاركها' ص31، دار ابن حزم، بيروت.

[2] 'نيل الأوطار' ج1-ص389، المكتبة العصريّة، صيدا-بيروت.

[3] خرجه البخاري في الشهادات والبيهقي في 'الكبرى' والطبراني في 'مسند الشاميين'.

ربّي، لا أحبُّ أن يطَّلع عليه أحد غيرُه." فهذا إمَّا جاهل يدَّعي المعرفة وإمَّا كافر يدَّعي الصدقَ والإخلاص، وليس بمنافق لأنَّ المنافق مَن أبدى شعائر الدين وأبطَنَ الكفر. فواجبُنا أن نخبِرُه بأنّ الله الذي يدَّعي أنّه يعلَم أن لا إلَه غيرُه قد أمرَه بالنُّطق بالشهادتين وأن مجرَّد المعرفة لا تكفي كما يدلُّ عليه قول الله جل وعلا ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح 26] قال مجاهد "كلمة التقوى: لا إله إلا الله"[1] فألزَمَها الله المؤمنين أي أوجب عليهم حَمْلَها وأوَّلُه النُّطق بها، وذلك قول الله تعالى ﴿قُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ؛ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ!﴾ فأمرَ بإظهار الشهادة له سبحانه ولأنبيائه باللسان وهو قوله ﴿قُولُوا﴾ ثم بيّن بأنَّ ذلك هو الإيمان وأن الإعراض عنه مُخالَفة وليس من الإسلام في شيء فقال ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ أي ونَطقوا بمثل ما نطقتُم به ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ مثلَكم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ فأعرَضوا أو أخلّوا بشيء من هذا ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ!﴾ [البقرة 136-137] أي بعيدون عن الحق مُعادون له.

فإذا علِم هذا وفهِمَه وأقرّ به أعلمناه بأن محمَّدًا الذي يدَّعي بأنَّه يعلم أنّه رسول الله قد أمره أيضا بالنُّطق بالشهادة فقال صلى الله عليه وسلّم «أُمِرتُ أن أُقاتِل الناسَ حتى يقولوا "لا إله إلا الله" فمَن قالها، فقد عَصَمَ منّي مالَه ونفسَه، إلا بِحقِّه، وحسابُه على الله!»؟[2] فقال: أُمِرتُ ونسب الأمر إلى الله تعالى، وهو أن ينطقوا بلسانهم بالشهادتين. فإن نطق هذا الإنسان بهما فهو مسلِم بنص السنَّة والكتاب، وإلا فهو كافر مُرتاب مُفتَر كذّاب. ما من شكّ في أن اعتقاد أن لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمّدا رسول الله أصلُ كلِّ خير، وهو المعرفة بالقلب ولا بدَّ منها، ولكن ذلك لا يكفي للدخول في الإسلام، بل لا بدَّ مع ذلك من عمل اللسان وهو النّطق بذلك بين الناس حتى يعلَموا بأنّ قائلها مسلم ويصلُح أمر الأمَّة. وكذلك الصلاة، فاعتِقادُ وُجوبِها ضروري ولكنَّه لا يكفي

---

[1] خرجه البخاري في الشهادات والبيهقي في 'الكبرى' والطبراني في 'مسند الشاميين'.

[2] ذكره البخاري في الأيمان تعليقًا.

لجعل العبد مسلِمًا بل لا بدَّ من الإتيان بها. فكما أن الله شرعَ التلفُّظَ بالشهادتين وجعلَه واجبًا وهو عمل القلب مع اللسان، فكذلك شرع الصلاة وجعلها عملا بالقلب مع جميع الأركان، وإلا فلا إيمان.

قتل تارك الصلاة

قال الْمُوفَّق: وإن تركَها تَهاونا أو كَسَلا، دُعيَ إلى فِعلِها وقيل له "إن صلَّيْتَ، وإلاّ قَتلْناك!" فإن صلَّى وإلاّ وَجَب قَتلُه.

نقول: الأفعال التي حدّد الله تعالى فيها عقوبةً ستّةُ أمور وهي: الزنا والقذف والسرقة والسُّكْر والرِّدة والحِرابة، والعقوبة في الأربعة الأولى كفّارة بخلاف الردّة والحرابة. هذه هي الحدود الشرعيَّة والله يقول ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ؛ فَلاَ تَعْتَدُوهَا!﴾ [البقرة 229] فلا يجوز إحداثُ حَدّ ليس في دين الله، أي لا يشهد له نصٌّ صريح في كتاب الله أو سنّة رسوله. ولا بدَّ في الحدِّ من نصٍّ، لأنَّ فيه إهدارًا لِحقوق العباد، ولا يكون ذلكَ إلاَّ بإذنٍ صريح مِن ربِّ العباد سبحانَه، وذلك صريح في قول النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله تبارك وتعالى قد حرَّم عليكم دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم إلا بحقِّها!»[1] أي بالحقّ كما قال الله تعالى ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ! وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا!﴾ [الإسراء 33] فيحقُّ له أن ينتَقِمَ من القاتل ولا شيءَ عليه.

هذا وإن الحدّ كفَّارَةٌ للذَّنب، كما بَلغَنا عن عُبادةَ بن الصامت، قال: كُنا عند النبي صلى الله عليه وسلم في مَجلس، فقال «بايِعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئًا ولا تَسرِقوا ولا تَزْنُوا!» وقرأَ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّه شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ؛ فَبَايِعْهُنَّ! وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ!﴾ [الصف 12] «فمَن وَفَى مِنكم فأَجرُه على الله،

---

[1] من حديث خرجه البخاري في الحدود ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر.

ومَن أصابَ من ذلك شيئًا فعُوقب به فَهو كفّارَتُه، ومَن أصابَ من ذلك شيئًا فسَتَرَه اللهُ عليه؛ إن شاءَ غَفَرَ له وإن شاء عذَّبَه!»[1] ظاهر الآية خاصّ بالنساء ولكن النبي بيّن أنّها تعمّ الرجالَ أيضًا.

نستخلص من هذا أن الحدّ الشَّرعي ما توفَّرَ فيه الشرطُ وهو الإسلامُ، والعِلَّة وهو الذَنب الْمُستَوجِبُ له بالنّص، والْمُقتضَى وهو الكفَّارةُ. وليس شيءٌ من هذه الأمورِ مُتوفِّرًا في تارك الصلاة، فإن قيل: بل يُقتَل لقول النبي «أُمِرتُ أن أقاتِل الناسَ حتى يشهَدوا أن لا إله إلا الله وأنّ مُحمدًا رسولُ الله، ويقيموا الصلاةَ ويُؤْتوا الزكاةَ! فإذا فعلوا ذلك؛ عصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم، إلاّ بِحَقّ الإسلام، وحِسابُهم على الله!»[2] فجوابُه أن النبي صلى الله عليه وسلّم إنما تكلَّم عن القتال لا القَتل، فالحديث واردٌ في الجهاد والدَّعوة إلى الله بعد التمكين في الأرض والتأييد بالسلطان النصير، كما مرّ بيانُه عند الكلام على المعراج وكيف أيّد الله تعالى رسولَه بعد تحقق شروط الدعوة بالسيف. وهذه شروط غير متوفِّرة منذ زمن بعيد، وإذا غاب الشرط استحال المشروط وتعذّر. فلا وجهَ لقَتل تارك الصلاة.

قال الْمُوفَّق: ولا يُقتَلُ حتى يُحبَسَ ثلاثًا وَيُضَيَّقَ عليه فيها ويُدعَى في وقتِ كلِّ صلاةٍ إلى فِعلها ويُخوَّفُ بالقتل، فإن صلَّى وإلاّ قُتِلَ بالسيف.

نقول: لا دليلَ على شيء من هذه الاستتابة ولا على حَبس تارك الصلاة وتخويفه قبلَ قتله. لكنهم قصَدوا بذلك إجبارَه عليها، والله لَم يأذَن لرسوله صلى الله عليه وسلّم أن يُرغِمَ أحدًا على الإيمان أصلاً فقال ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا! أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟! وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ!﴾ [يونس 99-100] ليس الإكراهُ من الدين في شيء ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ!﴾ [البقرة 256] لذا أقصَى الله من الدين كلَّ ما كان عُنوَةً

[1] خرجه البخاري في الحدود ومسلم والنسائي والترمذي.

[2] خرجه البخاري في الإيمان ومسلم عن عبد الله ابن عمر.

وغَصبًا وقَهْرا وذلك معنى قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ! وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ!﴾ القصص 56]

فالدَّعوة إلى الصلاة بالحَبس والتهديد بالقَتل لا تصحُّ شرعا، ولا يجوز قتلُ مَن أَبى الصلاةَ على يد جلاَّد! فإن قيل: بل على الاستتابة ثلاثا دليلٌ، وهو أنّ رجلاً قَدم على عمر بن الخطاب من قِبَل أبي موسى الأشعري فسَأله عن الناس فأخبره، ثم قال له عمرُ "هل كان فيكم من مُغَرِّبَةِ خَبرٍ؟" فقال "نعم، رجل كَفرَ بعد إسلامه" قال "فما فَعلتم به؟" قال "قرَّبناه فضربنا عُنقَه" فقال عمر "أفلا حبَستُموه ثلاثا وأَطْعمْتموه كلَّ يوم رَغيفا وَاستَتبْتموه لَعلّه يَتوبُ ويُراجِع أمرَ الله؟!" ثم قال عمر "اللهم إنّي لم أَحضُر ولم آمُر ولم أَرضَ إذ بَلَغني!!"[1] ليس هذا من ذاك، لأنَّ قتل المرتدّ حقٌّ لقولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن بدَّل دينَه فاقتلوه!»[2] ولكنَّه يسقُط بالعَود في الإسلام، لذا وجب حتماً استتابتُه والرِّفق به. ولكن ما تلك حالُ مَن لم يرَ الصلاةَ شيئًا من أوَّل أمرِه، فهذا ليس مرتدًّا، وحُكمُ هذا غيرُ حكمِ ذاك.

لَو أخذَ الكُفّار أحدَ المسلِمين فأكرهوه ولَم يتركوه حتى يقولَ كلمةَ الكُفر، فقالَها وهو في قَرارَةِ نفسه باقٍ على الإيمان؛ فإنّه لا يَكفُر لمجرَّد قوله ذاك. ودليلُه ما صحّ عندنا عن عمار بن ياسر أنه أخذه المشركون فلم يتركوه حتى سبَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فتركوه. ولما أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «ما وراءَك؟» قال "شرٌّ يا رسولَ الله، ما تُركتُ حتى نِلتُ منك وذَكرت آلِهتَهم بخير!" قال «كيف تَجدُ قلبَك؟» قال "مُطمئن بالإيمان!" قال صلى الله عليه وسلم «إن عادوا فعُدْ!»[3] وذلك قول الله ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ ثم

---

[1] رواه مالك في الأقضية عن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد القارئ عن أبيه والشافعي والبيهقي في 'السنن الصغير'.

[2] خرّجه البخاري في الجهاد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس.

[3] خرجه الحاكم في التفسير وصححه ووافقه الذهبي. ورواه عبد الرزاق والطبري في التفسير.

استثنىَ فقال ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمَان!﴾ ثم رجع فقال ﴿وَلَكِن مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا؛ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ!﴾ [النحل 106]

فكما أنّ إجبارَ المسلمَ على الكفر لا يجعلُه كافرًا إن كان قلبُه مطمئنًّا بالإيمان، فكذلك إجبارُ الكافر على الإسلام لا يجعلُه مسلمًا إن كانَ كارهًا. ولا يعارِض هذا قولُ رسول الله لرجلٍ «أَسلِمْ!» فقال الرجلُ "إني أجدُني كارها!" قال صلى الله عليه وسلم «أسلِمْ وإن كنت كارها!»[1] "فإنه لم يُكرِهْه النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام بل دعاه إليه، فأخبر أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة فقال له: أسلِمْ وإن كنت كارها، فإن الله سيَرزقك حُسنَ النيَّة والإخلاص!"[2] وتلك حال مُعظَم مَن يُدعى إلى الإسلام. فالنبي لَم يُهدِّده بالقَتل ولكن دعاه إلى الإسلام عملاً بقول الله تعالى ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ!﴾ [النحل 125]

إكفار تارك الصلاة

قال الموفَّق: يُقتل حدًّا مع الحُكم بإسلامه، وهذا اختيارُ ابن بطة وأنكَر قولَ من قال أنه يَكفُر.

نقول: لَم يذكر ابن قُدامة الْمَصدَر الذي نقلَ منه عن ابن بطّة، والذي عثرت عليه من كلامه مُناقِضٌ تمامًا لِما نَسبه إليه؛ ففي 'الإبانَة الكُبرى' وهو كتابٌ مُعتمَد مُتداوَل مشهور ثابتُ النسبة إليه، عقد أبو عبد الله عُبَيدُ الله ابن بَطَّة العُكْبَري باباً هذه ترجَمَته "كُفر تاركِ الصلاة ومانعِ الزكاة، وإباحةُ قِتالِهم وقَتلِهم إذا فعلوا ذلك" هذا لا يحتاج إلى تعقيب لِصراحته ووضوحه وسهولَة عبارته، وقد جاء ابن بَطَّة فيه بالأدلَّة على كُفر مَن ترك الصلاة، ثم قال: هذه الأخبارُ

---

[1] خرجه أحمد ح12080والبزار وأبو يعلى عن أنس، وصححه الأرنؤوط.

[2] قاله ابن كثير في 'تفسير القرآن العظيم' ج1-ص683، دار طيبة.

والآثار والسُّنَن عن النبي والصّحابة والتابعين كلُّها تدلُّ العُقلاءَ ومَن كان بقلبه أدنَى حَياءٍ على تكفيرِ تاركِ الصلاة وجاحدِ الفرائض وإخراجِه من الْملَّة. وحَسبُك مِن ذلك ما نزل به الكتابُ![1]
قال الموفَّق: وذَكر أنَّ المذهب على هذا، لم يَجد في المذهب خلافا فيه.

نقول: يقصد هنا المذهبَ الحنبلي، والصواب الذي لا مرية فيه أنَّ تارك الصلاة عند أحمد كافِرٌ، لَم أعثر على خلاف هذا عنه. قال الآجُرِّي: حدثنا ابن مَخلد قال حدثنا أبو داود قال سمعتُ أحمد يقول: إذا قال "لا أُصلِّي" فهو كافر![2] وقال عَبْدوسُ بن مالك العطّار: سَمعتُ أبا عبد الله أحمدَ بن حنبل يقول "مَن تَرَكَ الصلاةَ فقد كَفَرَ، وليس مِن الأَعمالِ شيءٌ تَركُهُ كُفْرٌ إلاَّ الصَّلاةُ؛ مَن تَرَكَها فهو كافِرٌ وقَد أحلَّ اللهُ قَتْلَه!"[3] وقال ابن نصر الْمَروَزي: حدثنا إبراهيم الْجَوزجاني قال: حدثني إسماعيل بن سعيد قال: سألت أحمد بن حنبل عن مَّن تَرك الصلاةَ مُتعمِّدًا قال "لا يَكفُرُ أَحدٌ بِذَنبٍ إلاَّ تارِكُ الصّلاةِ عَمدًا؛ فإن تَرَكَ صَلاةً إلى أَن يَدخُلَ وَقتُ صَلاةٍ أُخرَى يُستَتاب ثلاثًا!"[4] هذا الثابتُ عن أحمد مِن طُرُق متواترة، ولا أدري كيف يقول الْمُوفَّق خلافَه وقد انتَهت إليه إمامَةُ الحنابِلة في عصره! قال علاء الدين علي بن سليمان المِرداوي:

> وقال الشيخ تقي الدين -يعني ابنَ تيمية- قد فرض مُتأخرو الفُقهاء مسألةً يمتنِع وقوعُها وهو: أن الرجل إذا كان مُقرًّا بوجوب الصلاة فدُعي إليها ثلاثا وامتنع مع تهديده بالقتل و لم يُصلِّ حتى قتل، هل يموت كافرا أو فاسقا؟ على قولين. قال: وهذا الفرض باطِل إذْ يَمتنِع أن يَقتَنِع أن الله فَرضَها ولا يَفعلُها ويَصبِر على القَتل! هذا لا يَفعله أحد قطُّ! انتهى.
> قلتُ: والعقلُ يشهد بما قال ويقطع به وهو عينُ الصواب الذي لا شك فيه وأنه لا يقتل إلا كافرا! فعلى المذهب حُكمُه حكمُ الكُفّار، فلا يُغسَّل ولا يُصلَّى عليه ولا يُدفَن في

---

[1] 'الإبانَة عن شَريعة الفِرقَة الناجية ومُجانَبة الفِرق المذمومة' ج1-ص684، دار الراية، الرياض.
[2] 'الشريعة' لأبي بكر محمد بن حسين الآجُرِّي، ص108، دار الحديث، القاهرة.
[3] نقله ابن أبي يعلى في 'طبقات الحنابلة' ج1-ص228، الكتب العلمية.
[4] 'تعظيم قدر الصلاة' ج2-ص927.

مَقابرِ المسلمين ولا يَرث مُسلما ولا يرثه مسلمٌ؛ فهو كالْمُرتَدّ. وذَكر القاضي: يُدفن مُنفرِدا! وذكر الآجرّي أن من قتل مرتدا يُترَك بمكانَه ولا يُدفَن ولا كرامة![1]

قال الموفَّق: يُقتل حدًّا مع الْحُكم بإسلامه؛ وهذا قول أبي حنيفة.

نقول: لَم أجد في شيء ممّا بين يديّ من كتب الأحناف ما يعضُد ما قالَه الموفَّق هنا، بل المشهور عند الحنفيَّة أن تارك الصلاة إن جحَد فرَضيّتَها فهو كافر له حكم المرتدِّ فيقتل إن أصرَّ، وأما الغير جاحد لها فهو عندهم فاسق ولا يُقتَل بل يُضيَّق عليه ويُسجَن، وقد يُضرب حتى يسيلَ دمُه.[2] وقال أبو جعفر الطحاوي: قال أبو حنيفة وأصحابُه "من تَرك من المسلمين الصلاة على غير جُحودها لم يكن بذلك مرتدا وكان مأخوذا بها حتى يصليها."[3] ثم اذكُر ما أسلفنا بسطَه من حال أبي حنيفة في الدين ومن طعن أئمّة الحديث قاطبةً فيه، فقد دلُّوا على ضعف حديثه، على قلّته، وعلى وَهن أقواله ورأيه، بل قد رمَوه بالإرجاء وبالقول بخَلق القرآن، وهما تُهمتان شديدتان لا تدَعان لَمن اتُّهِم بهما بين المسلمين مقامًا بلهَ علماءِهم؛ أحسن أحوال أبي حنيفة أنّه من مُرجئة الفقهاء. إن صحَّ هذا فأبو حنيفة من الذين يؤخّرون العملَ عن الإيمان، بحيث لو فُقد العمل بقيَ الإيمان على حاله، وعليه فإنَّه لا يضرُّ تركُ الصلاة بالإيمان شيئًا ما لَم يرافقه جحود بها. إلاّ أن الْمُوفَّق نفسُه يذكر فيما جاء بعدُ مِن كلامه أنّ مُحمد بن الحسَن الشَّيْباني كان يرى تارك الصلاة كافِرًا. ولا يخفى على مَن عنده خبر بتاريخ الفقه أنَّ مُحمد بنَ الحسَن قد أخذَ جُلَّ علمِه عن أبي حنيفة، بل هو ناشِرُ علمِه. ومهما يكن فلست أعتدُّ بما جاء عن أبي حنيفة في هذه المسألة.

قال الموفَّق: يُقتل حدًّا مع الْحُكم بإسلامه؛ وهذا قول مالك.

---

[1] 'الإنصاف في معرفة الراجح' ج1-ص287، إحياء التراث، بيروت.

[2] 'حاشية ابن عابدين' ج4-ص67، دار الفكر، بيروت.

[3] 'مختصر اختلاف العلماء' ج4-ص393، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

نقول: الذي بلغنا عن مالك يقضي بخلافه، فقد ذكر هبةُ الله اللاّلِكائي مَن يقول بإكفار تارك الصلاة فقال: ومِن الفقهاء مالكٌ والأَوزاعي والشافعي وشَرِيك بن عبد الله النَّخَعي وأحمد وإسحاق، الخ[1] ولم أجد أدنَى ما يدلُّ على أنّ مالكًا قال بقَتل تارك الصلاة حدًّا في 'الموطَّأ' برواية يحي بن يحيى اللَّيثي، التي يُطلَق عليها اسمُ 'الموطَّأ' بغير قَيد، وهي أكثرُ الروايات اشتهارًا وتَداوُلا بين العلماء، وجُلّ شُروح الموطّأ عليها. هذا وقد صرَّح أكثر من واحد، منهم أبو بكر ابن العربي في شرحِه أن العُمدة في الفقه المالكي إنّما هو 'الموطَّأ' وعليه الفُتيا. فلا شك ولا خلاف في أنّها أوثقُ المصادر لأقوال الإمام مالك، ولقد جاء فيها ما لا يدعُ شكًّا في كُفر تارك الصلاة. مِن ذلك ما بلغنا عن مِحْجَنٍ الدِّيلي أنه كان في مَجلِسٍ مع رسول الله، فأُذِّن بالصلاة، فقام صلى الله عليه وسلم فصلّى، ثم رجع ومِحجنٌ في مَجلِسه لم يُصلِّ، فقال له رسول الله «ما مَنَعك أن تُصلّيَ مع الناس، ألستَ برَجُلٍ مُسلم؟» فقال "بلى يا رسولَ الله، ولكنِّي قد صلّيتُ في أهلي" فقال صلى الله عليه وسلم «إذا جئتَ فصلِّ مع الناس وإن كنتَ قد صلَّيتَ!»[2] فقولُ النبيّ «ألستَ برجل مسلم؟» واضحٌ صريحٌ في كُفر مَن لم يلتحِق بالجماعة للصلاة.

وروى مالك عن عُبادةَ بن الصامِت قال: سَمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «خَمسُ صلواتٍ كَتبهنَّ الله على العباد: فمن جاء بِهنَّ لم يُضيِّع مِنهنَّ شيئا استخفافًا بِحقِّهن كان له عند الله عهدٌ أن يُدخله الجنَّة، ومن لَّم يأت بِهنّ فليس له عند الله عهدٌ؛ إن شاء عَذَّبه وإن شاء أدخله الجنة!»[3] وقد غلط مَن ظنّ أن الْمُوازَنة تقع بين المصلّي والتارك. بل الصواب أنّها بين مَن صلَّى ولم يُضيِّع شيئا من حقّ الصلاة وبين مَن صلَّى وهو مُستخِفٌّ بشروطها ساهٍ فيها لا يخشَع. وقد بيّن محمد بنُ نصرٍ المروزيُّ هذا بوُضوح فروى بسندٍ صحيح عن عبادة قال: سَمِعتُ رسول الله يقول صلى الله عليه وسلم «مَن جاء بالصلوات الخمس قد أكملهُنّ، لم يَنقُص مِن

---

[1] 'شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة' ج1-ص716، دار البصيرة/دار الريان، الجزائر.

[2] خرجه مالك في النداء للصلاة، والنسائي وأحمد.

[3] خرجه مالك في النداء للصلاة والنسائي وأبو داود وأحمد، عن عُبادة بنِ الصامِت.

حقهن شيئا؛ كان له عند الله عهدٌ أن لا يعذِّبَه! ومَن جاء بِهِنّ وقَد انتَقَص من حقِّهن شيئا، فليس له عند الله عهدٌ؛ إن شاء رحِمَه وإن شاء عذَّبه!» ثم قال: فقال «من جاء بهنّ قد انتقص مِن حَقِّهِنّ» فأخبر أنه قد أتى بِهنّ ناقصاتٍ مِن حُقوقهن[1] أي أنّ النَّقصَ من شرط الصلاة نَقْضٌ لعهدِ الله. أمّا مَن تركها رأسًا فلا ذِكرَ له في الحديث، بل هو مَعلومُ الكُفر، لا نقاشَ فيه. ويزيدُنا وُضوحا ما جاء في الموطَّأ عن مالك أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «استقيموا، ولن تُحصوا واعمَلوا! وخيرُ أعمالِكم الصلاةُ؛ ولا يُحافِظُ على الوُضوء إلا مؤمن!»[2] فدلَّ على أن مَن أضاعَ أحدَ شُروط الصلاة فليس بمؤمن، أي فهو كافر.

وروى مالك عن نافعٍ مولى عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عُمّاله "إنّ أهمَّ أمرِكم عندي الصلاةُ! فمَن حفِظها وحافَظ عليها؛ حَفِظ دينَه! ومَن ضيَّعها فهو لِما سواها أضْيَعُ!"[3] وهذا واضحٌ جدّا لا يحتاج إلى تعقيب. وروى مالك عن هِشام بن عُروَةَ عن أبيه أن الْمِسْوَرَ بن مَخْرَمَة أخبره أنه دخل على عمرَ بن الخطّاب مِن الليلة التي طُعِن فيها، فأيقَظَ عمرَ لِصلاة الصُّبح، فقال عمر "نَعَمْ، ولا حظَّ في الإسلام لِمَن تَرَك الصلاةَ!" فصلَّى وجُرْحُه يَثْعَبُ دَمًا[4] أي يسيل منه دَمٌ كثيرٌ. يدلُّ هاذان الأثران على حِرص عمرَ بن الخطّاب، شَهيدِ المحراب رضي الله عنه، على الصلاة وعلى تعظيمِه إيّاها طولَ عُمره وخِلالَ خلافَته كلِّها وحتى آخرِ رَمق من حياته؛ علمًا منه بأن لا إسلام بدون صلاة.

ومَن نَظر في 'الموطّأ' وجدَ الرواية عن عُمرَ كثيرةً جدّا، تلي الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ذلك لأنّ مالكًا كان يعتمد على أقوال عمر أكثر من أي صحابيّ آخر، قال علي بن أحمد بن حزم الأندلسي: حدّثنا أحمد بن عمر العذري ثنا علي بن الحسن بن فهر ثنا القاضي أبو

---

[1] 'تعظيم قدر الصلاة' ح899 وابن حبان في الصلاة، وصححه الأرناؤوط.

[2] ح65، وهو صحيح رواه ابن ماجه والدارمي وأحمد وابن حبان والحاكم عن ثوبان.

[3] وُقوت الصلاة ووصله المَرْوَزي في 'تعظيم قدر الصلاة' عن ابن عباس عن عمر.

[4] الطهارة والبيهقي في 'الكبرى' والطبراني في 'الأوسط' والمروزي في 'الصلاة'.

الطاهر محمد بن أحمد الذُّهَلي ثنا جعفر بن محمد الفريابي حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثني الهيثم بن جَميل -البغدادي- قلت لِمالِك بنِ أنسٍ "يا أبا عبدِ الله، إن عندنا قوما وَضعوا كُتبا يقول أحدُهم: حدّثنا فلان عن فلان عن عمر بن الخطاب بكذا، وحدثنا فلان عن إبراهيم بكذا، ونأخذ بقول إبراهيم!" قال مالك "صحَّ عندهم قولُ عمر؟" قلتُ "إنما هي رواية، كما صحّ عندهم قول إبراهيم!" فقال مالك "هؤلاء يُستَتابون!"[1]

أي عليهم أن يرجِعوا عن فعلِهم ذلك وإلاّ عوقِبوا! لا لتسويتهم إبراهيمَ النَّخَعي بعُمر بن الخطاب، فهذا بعيد، ولكن لتسويتهم عبدَ الله بنَ مسعود بعمر. ذلك لأنّ إبراهيم مِن حَملة علم ابن مسعود، والذي هو مِن جِلَّة الصحابة بلا خلاف، ولكنّ عمرَ أجلُّ منه عند مالك وعندنا. هذا لتعلَم أن مالكًا لَم يكن ليُورِدَ كلامَ عمَر ثم يعرضُ عنه، فما مِن شكّ أنّه كان يرَى أنَّ من ضيَّع الصلاة فهو لِما سواها أضْيَعُ وأن لا حظَّ في الإسلام لِمن تَرك الصلاة. ثُمّ أحرَى وأولَى بعالِم ربّانيٍّ كمالكٍ أن لا يَنقُلَ شيئًا من أحاديث الرسول الصحيحة الصريحة عن ظاهرِها وحقيقتِها. ولو رأى أنَّ بعضها يحتَاج إلى تعقيب لبيّنه، كما هي عادتُه في الموطَّأ.

قال الموفَّق: يُقتل حدًّا مع الْحُكم بإسلامه؛ وهذا قول الشافعيّ.

فنقول: العُمدَة في أقوال الشافعي كتابان وهما 'مُختصَرُ الْمُزَني' وكتاب 'الأمّ' برواية الربيع، فقد حويا 'المذهبَ الجديد' الذي استقرَّ عليه الشافعي بمِصر، وهو قاضٍ على 'الْمَذهبَ القديم' الذي دوَّنه ببغداد مِن قبلُ. فلا يُعوَّل على ما أخذ به الْمَشارِقة من الشافعيَّة كالبَيهقي والماوَردي والشيرازي ومن تبعهم في مسألة تارك الصلاة كالنووي وابن حجر، فإنهم خالَفوا الشافعيَّ. قال إسماعيل بن يحيى الْمُزَنيُّ:

قال الشافعيُّ: يُقال لِمَن تَرَكَ الصلاةَ حتى يَخرُجَ وقتُها بِلا عُذْرٍ "لا يُصلِّيها غيرُك؛ فإن صلَّيتَ وإلا اسْتَتَبْناك، فإن تُبتَ وإلاّ قَتلناك كما يَكفُر! فنقول: إن آمنتَ وإلا قتلناك!" قال الْمُزَني: قال -الشافعي- في المرتدِّ: إن لم يَتُب قُتِلَ ولم يُنتظَر به ثلاثًا لقول النبيِّ صلى الله

[1] 'الإحكام' ج6-ص272، دار الحديث، القاهرة. وذكره ابنُ القيِّم في 'إعلام الْمُوَقِّعين'.

عليه وسلم «مَن تَرَكَ دِينَهُ فاضْرِبوا عُنُقَه!»[1] وقد جعل تاركَ الصلاةِ بلا عُذْرٍ كتارك الإيمانِ؛ فله حُكْمُهُ في قياس قولِه لأنه عنده مثلُه ولا يُنتظر به ثلاثًا.[2]

وكتب عنه تلميذُه، المِصريُّ الآخَر، الربيعُ بن سليمان الْمُرادي يقول:

قال الشافعي رحمه الله تعالى: مَن ترك الصلاةَ المكتوبة ممّن دخل في الإسلام قيل له "لِمَ لا تُصلّي؟" فإن ذكر نِسيانًا قلنا "فَصَلِّ إذا ذَكَرتَ!" وإن ذكر مَرَضًا قلنا "فَصلِّ كيف أَطَقْتَ؛ قائمًا أو قاعدا أو مُضطَجعا أو مُومِيًا!" فإن قال "أنا أُطيقُ الصلاةَ وأُحسِنُها ولكن لا أُصَلِّي وإن كانت عليَّ فَرْضًا!" قيل له "الصلاةُ عليك شيءٌ لا يعمَلُه عنك غيرُك ولا تكونُ إلا بعَمَلك، فإن صلَّيتَ وإلاَّ استتبناك، فإن تُبتَ وإلاّ قَتَلْناكَ" قُلنا "إن صلَّيتَ وإلا قَتلناك، كمَا يَكْفُرُ!" فنقول "إن قَبلتَ الإيمانَ وإلاّ قتلناك!"[3]

أرأيت كيف يجعل الشافعيُّ الصلاةَ هي الإيمانَ؟! فمَن ردَّها فقد ردَّ الدينَ كلَّه، بِغَضِّ النظَر عمّا يُكِنُّه في صدرِه؛ وهذا هو الحقُّ الذي لا مِريَةَ فيه كما رأيناه سابقا. وأخيرا قال أبو جعفر الطحاوي: قال بعضُ حُفّاظ قولِ مالك "إن من مذهب مالك أن مَن ترك صلاةً متعمِّدا لغير عُذر حتى خرَج وقتُها فهو مرتدّ ويُقتل إلا أن يُصلِّيَها" وهو قولُ الشافعي.[4] قد قطع الطحاوي بهذا لأنَّه عالِمٌ بمذهب الشافعي فقد كان شافعيًّا أخذ عن خاله الْمُزَني ثم تحوَّل منه إلى المذهب الحنفي. في هذا كفايةٌ للدّلالَة على صحّة مَذهب سلفِنا الصالِح وأئمَّتنا الأعلام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشَّيباني وأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي وأبي عبد الله مالك بن أنس الأصْبَحي، نقلاً من أوثَق المصادر التي بين أيدينا؛ فإنَّهم وإن اختَلَفوا في الفروع فلا خِلافَ بينَهم في الأصول، والصلاةُ أصلُ الأصول. فالحاصلُ أن مُجرَّد ترك الصلاة في شريعتنا كفرٌ أكبر مُخرِجٌ عن

---

[1] خرجه البخاري في الجهاد وأصحاب السنن وأحمد عن ابن عباس بلفظ «مَن بَدّلَ دينَه فاقتُلوه!»

[2] 'مختصر المزني' ص34، دار المعرفة، بيروت.

[3] 'الأمّ' ج2-ص563، دار الوفاء، المنصورة.

[4] 'مختصر اختلاف العلماء' ج4-ص393، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

الإسلام، فما تارك الصلاة بِمُسلِم مهما ادَّعاه هو أو غيرُه، بل حُكمُه واضحٌ وُضوحَ الشمس لِمَن أبصَر!

صدق الأئمّةُ، لكنّ أتباعَهم من علماء الأُمَّة خالَفوهم وذهبوا يدَّعون غيرَ ذلك. وكما قال الشيخ محيي الدين بن العربي: فلتعلم أن الشيطان قد مكّنه الله من حَضرَة الخيال وجعل له سُلطانا فيها، فإذا رأى الفقيهَ يَميل إلى هوًى يعرف أنه يُرْدي عند الله، زيَّن له سُوءَ عَمله بتأويلٍ غَريب يُمَهِّد له فيه وَجهاً يُحسِّنه في نَظره ويقول له "إن الصَّدرَ الأوّلَ قد دانوا الله بالرَّأي وقاسَ العلماءُ في الأحكام واستنبَطوا العِللَ للأشياء وطَردوها وحَكموا في المسْكوت عنه بما حَكَموا به في المَنصوص عليه للعِلَّة الجامعة بينهما" والعلة من استنباطه. فإذا مهَّد له هذه السبيلَ جَنح إلى نَيل هَواه وشَهوته بوجه شَرعي في زَعْمه، فلا يزال هكذا فعلُه في كل ما لَه أو لِسلطانه فيه هوَى نفسٍ، ويَردُّ الأحاديثَ النبويَّة ويقول "لو أن هذا الحديث يكون صحيحا!" وإن كان صحيحا يقول "لو لم يكن له خبرٌ آخر يعارِضُه، وهو ناسخ له، لقال به الشافعي!" إن كان هذا الفقيه شافعيا أو "لقال به أبو حنيفة" إن كان الرجل حنَفيا، وهكذا أقوال أتباع هؤلاء الأئمة كلهم ويرون أن الحديث والأخذ به مَضلَّة، وأن الواجب تقليد هؤلاء الأئمة وأمثالِهم فيما حكَموا به، وإن عارضت أقوالُهم الأخبار النبوية؛ فالأولى الرجوعُ إلى أقاويلهم وتركُ الأخذ بالأخبار والكتاب والسنة. فإذا قلت لهم قد رُوِّينا عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال "إذا أتاكم الحديثُ يعارض قولي فاضرِبوا بقولي الحائطَ وخذوا بالحديث؛ فإن مذهبي الحديث!" وقد روينا عن أبي حنيفة أنه قال لأصحابه "حرامٌ على كلِّ مَن أفتى بكلامي ما لم يعرف دليلي!" وما روينا شيئا من هذا عن أبي حنيفة إلا من طريق الحنفيين ولا عن الشافعي إلا من طريق الشافعية، وكذلك المالكية والحنابلة فإذا ضايقتَهم في مجال الكلام هرَبوا وسكتوا. وقد جرى لنا هذا معهم مرارا بالمغرب وبالمشرق فما منهم أحد على مذهب مَن يزعُم أنه على مَذهَبِه.[1]

---

[1] 'الفتوحات الكيّة' ج5-ص102، دار الكتب العلمية، بيروت.

ردّ خبر

قال الْمُوفَّق: رُوِي عن حُذيفةَ أنه قال "يأتي على الناس زمانٌ لا يبقَى معهم من الإسلام إلا قول لا إله إلا الله" فقيل له "وما ينفعهم؟" قال "تُنجيهم من النار."

نقول: هذا جزءٌ من حديث صحَّ مرفوعًا عن حُذَيفة، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «يَدرُسُ الإسلامُ كما يَدرُسُ وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدرَى ما صِيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صَدَقَةٌ! ولَيُسرَى على كتاب الله عزّ وجل في ليلة، فلا يَبقَى في الأرض منه آيةٌ! وتَبقَى طَوائفُ مِن النَّاس؛ الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ، يقولون "أدركْنا آباءَنا على هذه الكلمة 'لا إله إلا الله'، فنحن نَقولها!» فقال له صِلَةُ بن زُفَرٍ "ما تُغني عنهم 'لا إله إلا الله' وهم لا يَدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نُسُكٌ ولا صَدَقة؟" فأعرضَ عنه حُذيفة. ثُمّ رَدَّها عليه ثلاثًا، كلَّ ذلك يُعرِض عنه حُذَيْفَةُ، ثم أَقبَلَ عليه في الثالثة فقال "يا صِلَةُ، تُنجِيهم مِنَ النار!" ثلاثًا[1].

استدلَّ المُوفَّق بهذا الحديث لإثبات إسلام تارك الصلاة. ولا عَلاقةَ له بِمَسألتِنا ولا دليلَ فيه على شيء منها لأنّه خاصٌّ بآخر الزمان، حين يُرفَع العلمُ ويذهب الدين ولا يبقى منه سوى 'لا إله إلا الله'. أمَّا عصرُ الموفَّق، وهو القرنُ السابع، فقد كان من أحفلِ القُرون بالعُلماء. ثمّ ها نحن في القرن الخامس عشر، وهذه أصواتُ المؤذِّنين ترتفع خمسَ مرات في كل يوم وليلة، ومَن شاء أن يعلَم شيئًا من أمور الدين فما عليه إلاّ أن يفتِّش في الكُتب المتوفِّرة وهي كثيرة كيفًا وكمًّا ومِن السَّهل جدًّا اقتناؤُها. ومن لم يتمكّن من ذلك، فأهلُ الذِّكر كُثُرٌ بحمد الله فليسألْ مَن شاء منهم. وقد وافق الألبانيُّ الموفَّق فاستدلَّ بهذا الأثر على إسلام تارك الصلاة فقال: في الحديث فائدة فقهية هامة، وهي أن شهادة أن لا إله إلا الله تنجي قائلها من الخلود في النار يوم القيامة، ولو كان لا يقوم بشيء من أركان الإسلام الخمسة الأخرى كالصلاة وغيرها. ومن المعلوم أن العلماء اختلفوا في حكم تارك الصلاة خاصة، مع إيمانه بمشروعيتها؛ فالجمهور على أنه لا يكفر بذلك، بل يفسق وذهب أحمد إلى أنه يكفر وأنه يقتل ردة، لا حدا، وقد صح عن الصحابة أنهم

---

[1] صحيح خرجه ابن ماجه في الفتن والحاكِم والبيهقي في 'الشُّعب' والبزّار.

كانوا لا يرون شيئا من الأعمال تركُه كفرٌ غيرَ الصلاة، رواه الترمذي والحاكم. وأنا أرى أن الصواب رأي الجمهور، وأن ما ورد عن الصحابة ليس نصا على أنهم كانوا يريدون بالكفر هنا الكفر الذي يخلَّد صاحبه في النار ولا يحتمل أن يغفره الله له. كيف ذلك وهذا حذيفة بن اليمان، وهو من كبار أولئك الصحابة، يرد على صلة بن زفر وهو يكاد يفهَم الأمر على نحو فهم أحمد له، فيقول "ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة؟" فيجيبه حذيفة بعد إعراضه عنه "يا صلة تنجيهم من النار!" ثلاثا. فهذا نص من حذيفة رضي الله عنه على أن تارك الصلاة، ومثلها بقية الأركان، ليس بكافر، بل هو مسلم ناج من الخلود في النار يوم القيامة. فاحفظ هذا فإنه قد لا تجده في غير هذا المكان.. بيد أن هنا دقيقة قلَّ مَن رأيتُه تَنبّه لها أو نبَّه عليها، فوجب الكشف عنها وبيانها؛ فنقول: إن التارك للصلاة كسلا إنما يصح الحكم بإسلامه، ما دام لا يوجد هناك ما يكشف عن مكنون قلبه، أو يدلُّ عليه، ومات على ذلك قبل أن يُستَتاب كما هو الواقع في هذا الزمان. أما لو خُيِّر بين القتل والتوبة بالرجوع إلى المحافظة على الصلاة فاختارَ القتل عليها فقُتِلَ، فهو في هذه الحالة يموت كافرا ولا يُدفن في مقابر المسلمين ولا تَجري عليه أحكامهم. لأنه لا يُعقَل، لو كان غيرَ جاحد لها في قلبه أن يختار القتلَ عليها، هذا أمرٌ مستحيل معروف بالضرورة من طبيعة الإنسان، لا يحتاج إثباته إلى برهان.[1]

فهذا الألباني الذي يدَّعي التمسُّكَ بالنصوص الصحيحة يلجأ إلى التأويل ويذهب إلى رأي الجمهور ويخالف الصحابة، بل ويخرق إجماعَهم حين يستَثني واحدًا منهم وهو حذيفة ابن اليمان ويدَّعي أنّه لا يرى كُفرَ تارك الصلاة. وهذا باطلٌ فحذيفة هو مَن قال "أوَّلُ ما تَفقدون من دينكم الْخُشوعُ وآخرُ ما تفقدون من دينكم الصَّلاةُ. ولتُنقَضنَّ عُرَى الإسلامِ عُروَةً عُرْوة ولَيُصلِّيَنَّ النساءُ وهُنّ حُيَّضُ ولَتَسْلُكُنّ طَرِيقَ مَن كان قَبلَكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذّة وحَذوَ النَّعلِ بالنعْل؛ لا تُخطِئون طريقَهم ولا يَخطَأنَّكم. حتى تبقَى فِرقتان مِن فِرَقٍ كثيرة، فتقول إحداهما: ما بالُ الصلواتِ الخمسِ، لقد ضلَّ مَن كان قبلَنا؛ إنما قال الله تبارك وتعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ

[1] 'السلسلة الصحيحة' ج1–ص86.

النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود 114] لا تُصلُّوا إلاَّ ثلاثًا! وتقول الأُخرَى: إيمانُ المؤمنين بالله كإيمان الملائكة؛ ما فينا كافرٌ ولا مُنافق! حقٌّ على الله أن يَحشُرَهما مع الدَّجَّال!!"[1] فكفى بهذا شهادة على كُفر تاركي الصلاة عند حُذيفة كما جاء به القرآن والسنَّة كغيره من الصحابة رضي الله عنهم. ثم يجود الألباني بدقيقة "قلَّ مَن تنبَّه لها، وهي: لَو خُيِّر بين القتلِ والتوبة بالرجوع إلى المحافظة على الصلاة فاختارَ القتل عليها فقُتِلَ، فهو في هذه الحالة يموت كافرا" وما هذه بدقيقة وإنَّما هي مُراوَغة غليظة قد سبقَه إليها الفقهاءُ وتصدَّى لها علماء الملّة وردّوها على مَن افتَرضها، وقد مرَّ ذِكرُها فيما سبق ولا بأس بإعادتها.

قال ابن تيمية: مسألةٌ يمتنع وقوعُها، وهي أن "الرجل إذا كان مُقرًّا بوُجوب الصلاة، فدُعي إليها وامتَنع ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يُصلِّ حتى قُتل؛ هل يموت كافرا أو فاسقا؟" هذا الفرَض باطِل؛ إذ يمتنع أن يعتقد أن الله فرضَها ولا يفعلُها، ويَصبِر على القتل؛ هذا لا يفعله أحد قطّ![2] وقال في موضع آخر: مَن اعتقَد وجوبَ الصلاة مع إصراره على تركها، فقد ذكر عليه 'الْمُفَرِّعون' من الفُقهاء فروعًا لم تُنقَل عن الصحابة، وهي فروعٌ فاسدة. فلا يُعرَف أن أحدًا يَعتقد وُجوبَها ويقال له "إن لم تُصَلِّ قَتَلْناك!" فيُصِرّ على تركها مع إقراره بالوجوب، فهذا لم يَقَع قطٌّ في الإسلام.[3] وقال الشَّوْكاني: الحقُّ أنه كافرٌ يُقتل؛ أما كُفرُه فلأنّ الأحاديث قد صحَّت أنّ الشارِع سمَّى تاركَ الصلاة بذلك الاسم وجعل الحائلَ بين الرجل وبين جَواز إطلاق هذا الاسم عليه هو الصلاةَ، فتَرْكُها مُقتَضٍ لجواز الإطلاق. ولا يلزَمُنا شيءٌ من المُعارَضات التي أورَدَها الأوّلون -أي الذين لا يُكفِّرونَه، ثم قال بعد قليل- ولا مُلجِئَ إلى التأويلات التي وقع الناسُ في مَضِيقها![4]

---

[1] خرجه الحاكم في الفتن وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الطبري في 'الآثار' وابن أبي شيبة.

[2] 'الفتاوى الكُبرى' ج5-ص318، بتحقيق الأخَوين عطّا، دار الكتب العلمية.

[3] 'مجموع الفتاوى' ج22-ص48، دار الوفاء.

[4] 'نيل الأوطار' ج1-ص389، المكتبة العصريّة، صيدا-بيروت.

الحاصل أن الحديث لا ينطَبِقُ لا على أهل زمانه ولا على أهلِ زَمانِنا نحن، وإنّما هو في حقّ أهلِ آخرِ الزمان، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويَثبُت الجهل ويُشربَ الخمرُ ويظهرَ الزنا!»[1] وذاك حين يُرْفع القرآنُ ولا يبقى من السنّة شيءٌ، فلا يُدرىَ ما الصلاة ولا الزكاة أي لا يُدرَك لَهما صورةٌ ولا مَعنىً. ولا مَحالَة سوف يكون أسعدَ الناس يومئذٍ مَن بقيَ معه شطرُ الشهادة الأوّلُ 'لا إله إلا الله' ولا شكّ أنّه يُنجيه من النار بدليل الحديث نفسه، ولعُموم قول الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ!﴾ [التغابن 16] وقوله تعالى ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا!﴾ [الطلاق 7] ولكن ليست تلك حال مَن كان القرآن والسنّة بين أيديهم.

ساق الموفَّق بعد هذا أحاديثَ في حُرمة 'لا إله إلا الله' ثم قال: وروَى الخلال عن عطاءٍ عن عبد الله بن عُمر قال: قال رسول الله (صلوا على من قال لا إله إلا الله).

نقول: هذا أمرٌ بالصلاة على أي مخلوق تلفّظ بـــ'لا إله إلا الله' دون استثناء، وهذا كاف للدلالة على بُطلان هذا الخبر وأنّه كَذِبٌ لا تجوز نِسبَتُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم أصلاً؛ لكنَّه جاءَ مُسنَدًا في عدد من المصادركمعجَم الطبراني الكبير و'حِلْية الأولياء' لأبي نُعيم و'السنن' للدارَقُطني، فلا بدّ من تَتبُّع طُرُقه لِيَتبيَّن أمرُه جليًّا، عملاً بقولِ الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ؛ فَتَبَيَّنُوا!﴾ [الحجرات 6] وسأكتفي بما في سنن أبي الحسن الدارَقُطْني، فإنه يقول في كتاب العيدين: باب صفة مَن تجوز الصلاة معه والصلاة عليه:

حدَّثنا محمد بن إسماعيل الفارسي حدثنا أبو عمرو محمد بن عبد الله البصري بحلب حدثنا حجاج بن نصير حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلوا على من قال لا إله إلا الله وصلوا خلف من قال لا إله إلا الله)

حدثنا ابن صاعد وابن مَخلد قالا: حدثنا العلاء بن سالم حدثنا أبو الوليد المخزومي حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلوا على من قال لا إله إلا

[1] خرجه البخاري في العلم ومسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أنس بن مالك.

الله وصلوا وراء من قال لا إله إلا الله) **حدثنا** محمد بن عمرو بن البُختري وآخرون قالوا: حدثنا محمد بن عيسى بن حيان حدثنا محمد بن الفضل حدثنا سالم الأفطس عن مجاهد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلّم مثلَه سواءً.[1]

الظاهر من هذه الأسانيد أن مدار الخبر على عبد الله بن عمر، وعنه عطاء بن أبي رباح ونافع ومجاهد، وهؤلاء تابعون أئمَّة مُعتَبرون، فهذه مُتابَعة تامّة يصلُح عندها الاعتبار. إلاّ أنها سَرعانَ ما تضعَف إلى أن تصيرَ لا شيءَ، فلا أحد ممن أخذ عنهم صرَّح بالسماع بل كلُّهم عنعَنوا، وكما قيل "العنعنة قرينَة التدليس" وهذه علَّة عمَّت الطبقة دونَهم، ثم إذا ذَهبنا ننظُر عن كَثب وَجدنا في الإسناد الأوَّل عثمان بن عبد الرحمن، قال أبو الحجّاج الْمِزّي: عثمان بن عبد الرحْمَن بن عمر بن سعد بن أبي وقاص القُرَشي الزُّهري الوَقّاصي... و-روى عن- عطاء بن أبي رباح... قال يحيى بن مَعين "ليس بشيء" وقال أبو حاتم "متروكُ الحديث، ذاهب" وقال البخاري "ترَكوه" وقال أبو داود "ليس بشيء" وقال النَّسائي "ليس بثِقة ولا يُكتب حديثُه!"[2] لاحِظ أن عثمان هذا مِن أحفاد سعدِ بن أبي وقاص أحدِ العشرة المُبشَّرين بالجنّة!

وأما الإسناد الثاني ففيه أبو الوليد الْمَخزومي، قال ابن حجر العسقلاني: خالد بن إسماعيل بن الوليد المخزومي، أبو الوليد: عن هشام بن عروة وابن جريج وجماعة، وعنه العلاءُ بن مسلمة وسعدان بنُ نصر وجماعة، قال ابن عَديّ "كان يضع الحديث على الثقات" وقال الدارقطني "متروك" وقال ابن حبان "لا يجوز الاحتجاج به"... وقال أبو نُعيم "روى عن عبيد الله بن عمر مَناكير"[3] قلتُ: وهذا الخبرُ من مناكيره!

وأما الإسنادُ الثالث ففيه محمد بن الفضل، قال الْمِزِّي: محمد بن الفضل بن عطيّة بن عمر بن خالد العَبْسي... قال إبراهيم بن يعقوب الجَوزْجاني: كان كذّابا؛ سألتُ ابنَ حنبل عنه، فقال

---

[1] 'سنن الدارقطني' ج2-ص56، بتحقيق عبد الله يماني، دار المعرفة، بيروت.

[2] 'تهذيب الكمال' ترجمة رقم 3837، مؤسسة الرسالة، بيروت.

[3] 'لسان الميزان' ج3-ص315، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

"ذاك عجَبٌ، يَجيئُك بالطامّات!" ...وقال إسحاق بن راهَوَيْه: قال لي يحيى بن يحيى "كتبتُ عن محمد بن الفضل كذا ثم مزَّقْتُه!" وقال عمرو بن علي "متروكُ الحديث، كذّاب!"..وقال أبو داود "ليس بشيء"، وقال النَّسائي "كذّابٌ"، وقال ابن حِبان "يَروي الْمَوضوعات عن الأثبات؛ لا يَحِلّ كَتبُ حديثه إلاّ على سبيل الاعتبار!"[1]

فقد رأيتَ بأمِّ عينك بأنَّ (صلّوا على مَن قال لا إله إلا الله) ليس من كلام النبي ولكنّه نَبأ مُفترًى مِن وضع الكذّابين، وإن كثرت طُرُقُه. ولقد تعرَّضَ له النُّقاد، فهذا ابن الْجَوزي يقول في غُضون كلامِه على عِلل 'الحديث في الصلاة خلف كل بَرٍّ وفاجرٍ': قد رُويَ عن علي وابن مسعود وابن عمر وأبي هريرة وأبي الدَّرداءِ وواثِلَةَ بن الأَسْقَعِ، وهذه الأحاديث كلُّها لا تصِحّ؛ أما حديث علي ففيه الحارث، قال ابن المديني "كان كذّابا" وفيه فُرات بن سليمان، قال ابن حبان "مُنكَر الحديث جدّا، يأتي بما لا شك أنه مَعمول!" وأما حديث ابن مسعود ففيه عمر بن الصبح قال ابن حِبّان "كان يضع الحديث" وأما حديث ابن عمر فله خمسة طرق، ففي طريقه الأوّل عثمان بن عبد الرحمن، قال يحيى "ليس بشيء، كان يكذب" وقال البخاري والنسائي والرازي وأبو داود "ليس بشيء" وقال الدارقطني "متروك"، وفي الطريق الثاني محمد بن الفضل، قال أحمد "ليس حديثه بشيء؛ حدّث عن أهل الكذب" وقال يحيى "كان كذّابا" وقال النسائي "متروك الحديث"، وأما الطريق الثالث ففيه وهب بن وهب، وكان يضع الحديث على الثقات؛ لا يحِلّ كَتبُ حديثه إلا على سبيل الاعتِبار، وقال ابن عَدي "له أحاديثُ موضوعة" -وفي الرابع: عثمان بن عبد الله؛ كذلك، قاله ابن حبان وابن عدي-[2] وفي الطريق الخامس أبو الوليد المخزومي واسمُه خالد بن إسماعيل: قال ابن عدي "كان يضع الحديث على الثقات!" وأما حديث أبي هريرة ففي طريقه الأوّل عبد الله بن محمد بن يحيى، قال أبو حاتم الرازي "متروك الحديث" وقال ابن حبان "لا يحل كتْب حديثه" وفي طريقه الثاني أشعث وهو مجروح وبقية لا يقوم على روايته وقال

---

[1] 'تهذيب الكمال' ترجمة رقم 5546.

[2] سقط من المطبوعة، فأضفتُه من 'فيض القدير' للمُناوي ج4–ص268، دار الكتب العلمية.

الدارقطني "ومكحول لم يَلقَ أبا هريرة" وأما طريقه الثالث ففيه معاوية بن صالح قال الرازي "لا يُحتجّ به"، وأما حديث واثِلةَ ففيه عُتبة بن اليقظان قال علي بن الحسين "لا يُساوي شيئا" وفيه الحارث بن نبهان قال يحيى "ليس بشيء" وقال النسائي "متروك" وقال ابن حبان "لا يحتج به" وقال الدارقطني "وأبو سعيد مجهول" وأما حديث أبي الدرداء فقال العُقيلي في الطريق الأول "إسنادُه مجهول غير محفوظ" وقال الدارقطني في الطريق الثاني "لا يثبُت إسناده؛ ما بين عباد وأبي الدرداء ضُعفاء" قال العقيلي "وليس في هذا المتن إسنادٌ يثبُت!" وقال الدارقطني "ليس فيها ما يثبت إسنادُه!" وسئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث (صلّوا خلف كل برّ وفاجر) فقال: ما سمعنا بهذا!!"[1]

فإن قلت: ما بالُ الدارَقُطني يورِد الخبرَ في ’سُننه‘ من ثلاث طُرق ولا يُبيِّن أنَّه مَوضوع؟ فنقول: بل قد قال بعد حديثين منها "ليس فيها شيءٌ يَثبُتُ" أي ليس في أحاديث الباب ما يصلُح أن يكون دليلاً على جواز الصلاة على كلّ من قال ’لا إله إلا الله‘. ثم اعلَم أن الدارَقطني لَم يضَع ’سنَنَه‘ ليُعمَل بما فيها كما فَعل أبو داود والترمذي وغيرُهما، ولكن ليبيِّن ضَعفَ أحاديث احتجّوا بها أو صِحّةَ أُخرى أعلّوها، وضعها لتكون مِحَكًّا لمعرفة الثابت من غيره. قال عبد الفتاح أبو غُدّة في وَصف هذه السُّنن: لَم يؤلِّف هذا الكتابَ على غِرار تأليف أبي داود والنسائي...فهي مؤلَّفةٌ، في نظَر مؤلِّفيها، لبيان ما عليه العَمَل. وكتابُه مؤلَّفٌ لبيان ما في ’السنن‘ من الْمَغامِز والعِلَل. فتباينت بُنيةُ كتابِه عن بُنيتها مُباينةً شديدة، واختَلَفت الغاية من تأليفه عن الغاية مِن تأليفها. فحقُّه أن يكون عُنوانُه واسمُه ’السُّنن الْمَعلولة‘![2]

---

[1] ’العِلل الْمُتناهية‘ ج1/ص418-425، الكتب العلمية، بيروت.

[2] ’السنّة النبوية وبيان مدلولِها الشرعي‘ المطبوعات الإسلامية، حلب.

ومِن جِنسِه قولُ (صَلّوا على كل مَيِّت، وجاهِدوا مع كلِّ أمير)[1] فقد تعاقب في سنده ثلاثةُ نَفَر، أوّلُهم كذّاب والثاني غيرُ ثِقة والثالث رجل صالِح ولكنَّه مُنكَرُ الحديث. أما مِن حيثُ الْمَتنُ، فقد نهى الله رسولَه أن يُصلِّيَ على المنافقين، مع أنَّهم كانوا يُصلّون ويأتون بكل شعائر الدين، ولَما تُوُفِّيَ رأسُ الْمُنافقين عبدُ الله بن أُبَيٍّ بن سَلول، جاء ابنُه إلى رسول الله فقال "يا رسولَ الله أعطِني قميصَك أُكَفِّنْه فيه وصَلِّ عليه وَاستَغفِرْ له!" فأعطاه صلى الله عليه وسلم قميصَه وأمَرَه أن يُكفِّنَه فيه ثم قام يُصلِّي عليه، فأخَذَ عمرُ بنُ الخطاب بثَوبِه فقال "تُصلِّي عليه وهو مُنافق، وقد نَهاك الله أن تَستغفِر لهم؟!" قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «إنما خَيَّرَني الله فقال ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ؛ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ!﴾ [التوبة 80]؛ سأزيده على سبعين!» فصلَّى عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابةُ، ثم أنزل الله عليه ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا! وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ! إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ!﴾ [التوبة 84][2] "ثم انعَقد إجماعُ الصحابة والعلماء من بعدهم على أنّ الصلاة على المنافقين منسوخة وكذا الاستِغفارُ للكفّار بعد موتِهم على الكفر"[3] لقد تبيّن جليًّا بُطلانُ خبر (صلّوا على من قال لا إله إلا الله) وأنّه مِن وَضع الْمُرجئة الضُّلاّل ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ!﴾ [الأنعام 26] وعليه فالصلاةُ على مَن مات على الكفر حرامٌ، وتاركو الصلاة كفّار فلا تصحُّ الصلاةُ عليهم ولا تَجوزُ لأحد.

ألستَ مُنتَهِياً عن نَحتِ أَثْلَتِنا؟ وَلَستَ ضائرَها ما أَطَّتِ الإبلُ!
كَناطِحٍ صَخرَةٍ يوماً لِيُوهِـــنَها؛ فَلم يَضُرَّها وأَوهَى قَرنَه الوَعِلُ!

---

1 رواه ابن ماجه وقال السِّندي: في إسناده عُتبة ابن يقظان وهو ضعيف، والحارث بن نبهان مُجمَع على ضَعْفه، وأبو سعيد هو المصلوب كذّاب. 'سنن ابن ماجه' ص358، دار الفكر.

2 خرجه البخاري في التفسير والجنائز ومسلم والترمذي وأحمد عن عبد الله بن عمر.

3 قالهُ محمد بن الوزير في 'الروض الباسم' ج1-ص201، عالم الفوائد، مكة.

شأن 'لا إله إلا الله'

بلغنا عن ثابت البُناني عن أبي أيوب الأزدي أن نَوفًا البِكالي اجتمع بعبد الله بن عمرو ابن العاص فقال نَوف "لو أن السموات والأرض وما فيهما وُضِعَ في كَفّة الميزان ووُضعت 'لا إله إلا الله' في الكفة الأخرى؛ لرَجَحَت بهن! ولو أن السموات والأرض وما فيهن كُنَّ طَبَقاً من حديد فقال رجلٌ 'لا إله إلا الله' لَخَرَقَتهُنَّ حتى تنتهيَ إلى الله عز وجل!" فقال عبد الله بن عمرو: صلَّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب فعَقَّبَ مَن عقَّب ورَجَع مَن رجع، فجاء صلى الله عليه وسلم وقد كاد يَحْسِرُ ثِيابَه عن رُكبتَيه فقال «أبشِروا مَعشرَ المسلمين، هذا ربُّكم قد فتحَ باباً من أبواب السماء؛ يُباهي بِكم الملائكةَ، يقول: هؤلاء عِبادي قَضَوْا فَريضةً وهُم يَنتَظِرون أُخرَى!»[1] وقولُه عقَّب من التعقيب وهو المُمكث في المسجد بعد الصلاة انتظارًا للتي تليها. انظُر، يرحمْك الله، ما بين كلام التابعي نوفٍ بن فَضالة البِكالي ربيبِ كعب الأحبار وما بين كلام الصحابي الجليل عبد الله بن عَمرو، فالفارق بينَهما إنَّما هو في الدقَّة، فبينما ظلَّ نوفٌ في عمومِ 'لا إله إلا الله' يحوم، إذ دخلَ به عبد الله بن عمرٍو أغوارَ 'لا إله إلا الله' فبيَّن له أنَّ تحلِّيها في إقامة الصلاة، وأنّ الله تعالى قد فتح لَهم بابًا اخترَق السبع الطباق. فما أعجبَ هذا الحديث وما أدقَّ فقهَ عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمُعاذ بن جبل «ما مِن أَحَدٍ يَشهَد أن لا إِلَهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحمّدًا رسولُ الله؛ صِدقًا من قَلبه إلاَّ حَرَّمَه اللهُ على النّار!» قال مُعاذٌ "يا رسولَ الله، أفلا أُخبرُ به الناسَ فيَستَبشرُوا؟" قال «إذَن يَتَّكِلوا» وأَخبَر بها معاذٌ عِند مَوتِه تَأَثُّمًا[2] أي خُروجًا من إثم كِتمان العِلم. ولقد خشيَ أنسُ بن مالك، وهو راوي حديث مُعاذ بن جبل، أن يَتَّكِلَ الناسُ على الشهادتين ويدَعوا العملَ والطاعةَ. فعن مَعبَدِ بن هِلال العَترِيِّ قال: اجتَمعنا ناسٌ من أهل البَصرَة

---

[1] خرَّجه أحمد ح6750 وابن ماجة والبزار وأبو نعيم في 'حلية الأولياء' وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وقوله: كاد يَحْسِرُ ثِيابَه عن رُكبتَيه أي كاد يكشِف عنهما من شِدَّة إسراعه.

[2] خرجه البخاري في العلم ومسلم عن أنس بن مالك.

فذَهبنا إلى أَنَس بنِ مالك وذَهَبنا معنا بثابت البُنانيِّ يسأله لنا عَن حَديث الشَّفاعَة، فإذا هو في قَصرِه فوافَقناه يُصلِّي الضُّحَى، فاستَأذنَّا فأَذِنَ لنا وهو قاعِدٌ على فِراشِه فقُلنا لثابِت "لا تسأَلْه عن شيء أوَّلَ مِن حَديث الشفاعَة!" فقال "يا أبا حمزةَ، هؤلاء إخوانُك مِن أهل البَصرَةِ جاؤُوك يسألونَك عن حَديث الشفاعة!"

فقال أنس: حدَّثنا مُحمّدٌ صلى الله عليه وسلم قال «إذا كان يومُ القيامَة ماجَ الناسُ بعضُهم في بَعض، فيَأتون آدَمَ فيقولون: اشفَع لنا إلى ربِّك! فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم؛ فإنه خَليلُ الرحمن! فيأتون إبراهيم فيقول: لستُ لَها، ولكن عليكم بموسَى؛ فإنه كَليمُ الله! فيأتون موسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه رُوحُ الله وكَلِمَتُه! فيأتون عيسى بن مريم فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمُحمّد! فيأتوني فأقول: أنا لها! فأَستَأذِنُ على ربِّي فيُؤذَنُ لي، ويُلهِمُني مَحامِدَ أَحْمَدُه بها، لا تَحضُرُني الآن، فأحْمَده بتلك الْمَحامد وأَخرُّ له ساجدًا. فيقول: يا محمّدُ، ارْفَعْ رأسَك، وقُل يُسمَعْ لَكَ وسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشفَّعْ! فأقول: يا رَبِّ، أُمَّتي، أمَّتي! فيقول: انطَلِقْ، فأَخرِجْ منها مَن كان في قَلبِه مِثقالُ شَعيرَةٍ مِن إيمان! فأَنطَلِقُ فأَفعَل. ثم أعودُ فأَحْمَدُه بتلك الْمَحامدَ ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فيُقال: يا محمدُ، ارفَعْ رأسَك وقُل يُسمَع لك وسَل تُعطَ واشفَعْ تُشَفَّعْ! فأقول: يا ربِّ، أُمّتي، أمتي! فيقول: انطَلِقْ، فأَخرِجْ منها مَن كان في قَلبه مِثقالُ ذَرَّةٍ أو خَردَلَة مِن إيمان؛ فأَخرِجْهُ! فأنطلِقُ فأفعلُ. ثم أعود، فأحْمَده بتلك المحامد ثم أخِرّ له ساجِدا، فيقول: يا مُحمّد، ارفَع رأسَك وقُل يُسمَع لك وسلْ تُعط وَاشفَع تُشفّع! فأقول: يا رَبّ، أمّتي، أمتي! فيقول: انطلِق فأَخرِجْ مَن كان في قَلبه أَدنَى أَدنَى أَدنَى مِثقالِ حَبَّةِ خَردَلٍ مِن إيمانٍ فأَخرِجْهُ مِن النار! فأَنطلق فأفعل»

فلمّا خَرجنا مِن عندِ أنسٍ، قلتُ لبعضِ أصحابنا "لو مَرَرْنا بالْحَسَن -هو البصري- وهو مُتَوارٍ -مُختَفٍ- في مَترِلِ أبي خَليفَةَ، فأتَيناه فسلَّمنا عليه فأَذِنَ لنا، فقلنا له "يا أبا سَعيد، جئناك مِن عند أخيك أَنَسِ بن مالِك، فلم نَرَ مثلَ ما حَدَّثنا في الشفاعة!" فقال "هيهْ!" فحَدَّثناه بالحديث، فانتهَى إلى هذا الموضع، فقال "هِيه!" -أتِمُّوا الحديثَ- فقُلنا "لَم يَزِدْ لنا على هذا!" فقال "لقد حدَّثَني،

وهو جَميعٌ، منذُ عِشرين سنة؛ فلا أَدري أَنسيَ أم كَرِهَ أن تتَّكلوا"، قلنا "يا أبا سَعيد، فحدِّثْنا!" فضَحِكَ وقال "خُلِق الإنسانُ عَجولا؛ ما ذَكَرتُه إلاَّ وأَنا أُريدُ أن أُحَدِّثَكم! حدَّثني كما حَدّثكم به قال «ثُمّ أَعودُ الرابِعَةَ، فأَحْمَدُه بتلك الْمَحامِد ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا مُحمَّد، ارفَعْ رأسَكَ وقُلْ يُسمَعْ وَسَلْ تُعطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ! فأقول: يا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فيمَن قال 'لا إِلَهَ إلاَّ الله!' فيقول: وَعِزَّتي وجَلالِي وكِبريائِي وعَظَمَتِي؛ لأُخرِجَنَّ مِنها مَن قال 'لا إِلَهَ إلاَّ الله!'»[1]

إنَّ النبي صلى الله عليه وسلّم يقول في المرّات الثلاثِ الأولى "يا رَبّ، أمّتي، أمتي!" فيُجيبه الله تعالى في كل مرّة ويقول "انطلِق فأَخرِجْ.." ثم يَطلب في الرابعة أن تتعدّى شفاعتُه إلى مَن ليسوا مِن أمّته فيقول "يا رَبِّ، ائْذَن لِي فيمَن قال: لا إِلَهَ إلاَّ الله!" فلا يُجيبُه الله إلى ذلك بل يتولّى سبحانَه الإخراجَ بنفسه فيقول "لأُخرجنَّ منها.." وعند مسلم زيادةُ «قال "ليس ذاكَ لك!"»[2] فالقومُ ليسوا من أمَّة محمد أُمّةِ الإجابة وإن قالوا 'لا إِلَهَ إلاَّ الله' فاليهود والنصارى وغيرهم يقولونها، فشفع الله فيهم بنفسه.

قد حصلَ ما كان مُعاذ وأنس يَخشَيانه فاتَّكلَ الْمُرجئةُ على هذا الحديث ولا دليلَ فيه. بل وفهِم محمد الألباني من حديث جاء فيه أنّ الله سيُخرِج من النار مَن لَم يقلْ 'لا إلهَ إلاّ الله' أصلاً أنهم مُسلمون! وهو ما بلغنا عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا خَلَصَ المؤمنون من النار وأمِنوا؛ فَوَ الذي نفسي بيده ما مُجادلةُ أحدِكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشدَّ من مُجادَلة المؤمنين لربِّهم في إخوانهم الذين أُدخِلوا النار! يقولون "ربَّنا، إخوانُنا؛ كانوا يُصلُّون معنا ويصومون معنا ويَحُجّون معنا ويجاهدون معنا، فأدخلتهم النار؟!" فيقول "اذهبوا فأخرِجوا مَن عَرفتُم منهم!" فيأتونَهم فيَعرِفونهم بصُوَرِهم؛ لا تأكُل النارُ صُوَرَهم، لم تغْشَ الوجهَ: فمنهم مَن أخَذَته النارُ إلى أنصاف ساقَيْه ومنهم من أخذته إلى كعبَيه؛ فيُخرِجون منها بشَراً كثيرا فيقولون "ربَّنا، قد أخرجنا مَن أمرتنا!" قال: ثم يعودون فيتكلّمون، فَيقول

[1] خرجه البخاري في التوحيد ومسلم.

[2] خرجه مسلم في الإيمان بنفس سياق البخاري والزيادةُ ثابتةٌ فلا بد من حمل الحديث عليها.

"أَخرِجوا مَن كان في قلبه مثقالُ دينارٍ من الإيمان!" فيُخرجون منها خَلْقاً كثيرا. ثم يقولون "ربَّنا لَم نَذَرْ فيها أحَدا ممَّن أمرتنا!" ثم يقول "ارجعوا، فمَن كان في قلبه وَزْنُ نصفِ دينار فأخرِجوه!" فيُخرجون خَلْقاً كثيرا، ثم يقولون "ربَّنا، لَم نَذَرْ فيها ممّن أمرتنا!" حتى يقولَ "أَخرِجوا مَن كان في قلبه مثقالُ ذَرَّة!" فيُخرجون خَلْقاً كثيرا» قال أبو سعيد: فمن لم يصدِّق بهذا الحديثِ فليقرأْ هذه الآيةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً؛ يُضَاعِفْهَا، وَيُؤْتِ مِن لَّدُنهُ أَجْرًا عَظِيمًا!﴾ [النساء 40] قال النبي صلى الله عليه وسلم «فيقولون "ربَّنا، قد أخرجنا من أمرتَنا؛ فلم يبقَ في النار أحدٌ فيه خيرٌ!" ثم يقول اللهُ "شفَعتِ الملائكةُ وشفعت الأنبياءُ وشفع المؤمنون، وبقِيَ أرحمُ الراحمين!" فيقبِضُ قَبْضَةً من النار -أو قال: قَبضتينِ- ناساً لم يعمَلوا للَّه خيرا قَطُّ، قد صاروا حُمَمًا. فيُؤتَى بهم إلى ماءٍ يُقال له 'الحياة' فيُصَبُّ عليهم فيَنبُتون كما تنبُتُ الْحِبَّةُ في حَميلِ السَّيْل؛ قد رأيتموها إلى جانب الصّخرةِ وإلى جانب الشجَرَة، فما كان إلى جانب الشمس منها كان أخضَرَ، وما كان إلى جانبِ الظِّلِّ كان أبيضَ! فيَخرُجون من أجسادهم مثلَ اللُّؤْلُؤِ وفي أعناقهم الخاتَمُ 'عُتَقَاءُ اللَّه' فيقال لَهم "اُدخُلوا الجنَّةَ، فما تمَنَّيْتم ورأيتم من شيءٍ فَهْوَ لكُم ومِثْلُهُ معه!" فيقول أهلُ الْجَنّة "هؤلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ؛ أدخَلهم الجنَّةَ بغير عَمَلٍ عمِلوه ولا خيرٍ قدَّموه!" فيقولون "ربَّنا، أعطيتنا ما لَم تُعْطِ أحداً من العالَمين!" فيقول "فإنّ لكم عِندي أَفضلَ منه!" فيقولون "ربَّنا، وما أفضلُ من ذلك؟" فيقولُ "رِضائي عنكم؛ فلا أَسْخَطُ عليكم أبَدًا!»

بنَى الألباني على هذا الحديث رسالةً قال فيها: ولقد توهَّم بعضُهم أن المراد بالخير المنفي تجويز إخراج غيرِ الموحدّين من النار.. والخلاصة أنّ حديثنا هذا حديثٌ عظيم، من ذلك دلالتُه القاطِعة على أنّ تارك الصلاة مع إيمانه بوجوبها لا يخرُج من المِلَّة ولا يُخلَد في النار مع الكفرة

والمشركين![1] هذا غلطٌ عظيم؛ بل إن في تاركي الصلاة ممّن يشهدون أن 'لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله' خيرًا، وأقلُّه نفسُ هذه الشهادة التي كانوا يأتون بها، بينما عُتقاء الرحمن «ناسٌ لم يعمَلوا لِلَّه خيرا قَطُّ» لا بالقَول ولا بالجوارح ولا بالقلب، فهم قومٌ من مُختلَف بِقاع الأرض ومن مختلَف الأزمِنة، ولا خبرَ عندهم عن أية شريعةٍ فضلاً عن أن يكونوا مسلمين أو أهلَ كتاب.

وإنّما أخرجهم الله من النار بَمحض رحمته ليس إلاّ، ولا حَجْر عليه تعالى، كما هو واضحٌ جدًّا في قوله ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ!﴾ [الأحزاب 24] مع أنّه تعالى قال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا!﴾ [النساء 145] فإن شاءَ عفا وإن شاء عاقَب، ولا نسْخَ بين الآيتين بدليل قوله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ؛ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ! إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ؛ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ!﴾ [هود 107] فَمَن شاء إخراجَه من النار أخرجه تعالى ولا يُبالي. بل قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تزال الجنة تَفضُلُ حتى يُنشِئَ الله لَها خَلقًا فَيُسكِنَهم فَضلَ الْجَنّة!»[2] وهذا كلُّه خارجٌ عن شريعتنا. فليس في مسألة 'عُتقاء الرحمن' إذًا دليلٌ على شيء من شريعتنا إلا أنّ ﴿اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج 18] وأنّه تعالى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران 74] وأنه ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء 23] لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «واللهِ ما أدري، وأنا رسولُ الله، ما يُفعل بي ولا بكم!»[3] فَـ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ!﴾ [الروم 4]

أداء الشهادتين

[1] وقال الألباني عن الحديث السالف: صحيحٌ، رواه أحمد والنَّسائي والترمذي، الخ. انظُر رسالَة 'حكم تارك الصلاة' ص47-51 و91، المكتبة الإسلامية بعمّان، ومَن نظرها بتمامها وجد فيها طامّات تدع الحليمَ حيران! وهي مُستلَّة من 'السلسلة الصحيحة'

[2] خرجه البخاري في التوحيد عن أنس ومسلم في صفة الجنة عن أبي هريرة.

[3] خرجه البخاري في التعبير والنسائي في الكبرى وعبد الرزاق وأحمد عن أم العلاء الأنصارية.

لا تَخفَى حُرمةُ 'لا إله إلا الله' على مُسلِم ولا يَجهَلُ حقَّها أو يشكُّ في أنّها لُبُّ الدين أحدٌ في قلبِه أدنَى خير؛ هي عُنوان الإسلامِ وجماعُه. ولكن الإسلامُ ما استَخبَرَ عنه جبريلُ بقوله «يا مُحمَّدُ، أَخبِرْني عن الإسلام!» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الإسلامُ أن تَشهَدَ أن لا إله إلا اللهُ وأنّ مُحمّدا رسولُ الله، وتُقيمَ الصلاةَ، وتُؤتِيَ الزكاةَ، وتَصومَ رمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ إنِ استَطَعتَ إليه سَبيلا» فقال جبريلُ عليه السلام «صدقتَ!»[1] فأوّلُ الإسلام الشهادتان ولكن لا بدَّ من بقيَّة أركانِه والتي هي الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، وقد قيل لوهب بن منبِّه "أليس مِفتاحُ الجنة 'لا إله إلا الله'؟!" قال "بلَى، ولكن ليس مفتاحٌ إلا له أسنان؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لَم يُفتح لك!"[2] وأعمالُ البِرِّ هي أسنان مفتاح الجنَّة وعلى رأسها الصلاة، كما بلغنا عن حُمران بن أبان مولى عثمان بن عفان عن عثمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مَن علم أن الصلاة حقٌّ واجبٌ دخلَ الجنة»[3] أي علِمَ وعمِلَ بما علِم وإلاّ فنعوذ بالله من علم لا ينفَع!

وهذا الحديث يبيِّن ما بلغنا من قول النبي صلى الله عليه وسلم «مَن مات وهو يعلم أنه لا إلهَ إلا الله؛ دَخل الجنةَ!»[4] أي ماتَ وهو يدري بأنّ الله الذي هو الإلهُ الحقّ قد أمرَه بالصلاة والزكاة والصوم والحج، ونهاه عن المنكر والفحشاء والبغي، فصدَّق بهذا والتَزَمَه في كل لَحْظة طوالَ حياته؛ مَن فعلَ، دخلَ الجنّة! لَم يقل النبي: مَن مات وهو يقولُ 'لا إله إلا الله'، وما عليه أن يترك ما شاءَ من واجبات وأن يركَبَ ما شاء من مُحرَّمات! ليس الأمرُ كيفَما اتَّفَق، بل الذين يقتَصِرون من الإسلام على قولِ 'لا إله إلا الله' لا تُقبَل شهادتُهم، بل تُرُدّ وتكون حُجَّةً عليهم كلَّما تلَفَّظوا بها وهُم مُعرِضون عن دين الله ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ؛ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ!﴾ [آل عمران 167]

---

[1] خرجه مسلم في الإيمان عن ابن عمر، وهو متَّفَق عليه من حديث أبي هريرة.

[2] علَّقه البخاري في الجنائز، والبيهقي في 'الأسماء' وأبو نُعيم في 'الحلية' من طريق ابن راهويه.

[3] خرَّجه أحمد ح423 والحاكم والبيهقي والبزار، وقال الهيثمي ح1595: رجاله موثقون.

[4] خرجه مسلم في الإيمان وأحمد عن عثمان بن عفان.

لذا ردَّ الله شهادةَ الْمُنافقين، ثم شهد عليهم بأنَّهم كاذبون فيها فقال تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا "نَشْهَدُ؛ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّه!" وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ! وَاللَّهُ يَشْهَدُ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ!!﴾ [المنافقون 1] فقولُهم "إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّه" حقٌّ في نفسه ولكنّ الله أبطلَه لأنّهم غيرُ صادقين فيه. كما أخبرنا تعالى عنهم بقوله ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا "آمَنَّا" وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا "إِنَّا مَعَكُمْ؛ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ!"﴾ [البقرة 14] لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، صِدْقاً من قلبه، إلا حرَّمه الله على النار!»[1] والصِّدقُ أن يَستَوِيَ عَلانيةُ الإنسان وسرُّه وأن يُصدِّقَ فعلُه قولَه. وكما سبق بيانُه، الإيمان تصديقُ الْمُخبرِ بالفعل، أي بفعل ما يقتضيه إخبارُه من قيام بما أمر به وكفٍّ عمّا نَهى عنه؛ هذا شرطٌ لازم في الدين، وإلاّ فهو دَعوَى كاذبة تستوجب مَقتَ الله سبحانَه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأفواههم ولَم تؤمِن قلوبُهم وجوارِحُهم ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ؟! كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ!!﴾ [الصف 2-3] فلا تُقبَل شهادةُ مَن يكذِّبُ قولَه عملُه.

وكذلك لا تُقبَل شهادةٌ لم يأتِ بها صاحبُها في حينها وفي مَوضعها، وإن كانَ صادقًا. فلَو أنَّ قاضيًا مثلاً، حدّد مَوعدا يَجتمِع فيه بالخُصوم والشهودُ والكُتّاب للفَصل في قضيَّة ذاتِ خطَر، وإذا بأحدِ الشهود يمتنع ويحدِّد من عنده موضعا وزمانا غيرَ الذي قرّره القاضي. فلا جَرمَ أن القاضي لن يقبلَ منه ذلك، بل يُرسِلُ إليه الشُّرطةَ ليأتوا به رغمَ أنفه إلى الْمَحكمَة في اليوم الْمُقرَّرِ وفي الساعة الْمُحَدَّدة بالضَّبط. هكذا الشأنُ في الْمُجتمعات كلِّها؛ إذا استَدعى قاضٍ أحدَ الناس إلى المحكمة للشهادة لزِمَه الحضورُ حتمًا في الوقت الْمُحدَّد للإدلاء بشهادته. بل وقد أوجب الله تحمُّلَ الشهادة والاستجابةَ على مَن طُلب منه حضورُ أيِّ عَقد، ما لم يكن حرامًا، وإن كانَ عقدَ بيع، حيث يقول تعالى ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا!﴾ [البقرة 282] فمن باب أولَى أن يستَجيب لأَدائها في زمن لاحقٍ إذا اقتضى الأمرُ ذلك. وهذا معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلاَّ الْمُصَلِّينَ؛ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ إلى

[1] خرجه البخاري في العلم عن أنس والترمذي وأحمد.

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ؛ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ!﴾ [المعارج 19-35] فالصلاة وفاءٌ كلُّها، ألا ترى كيف جمَعت الأمانةَ والعهد والشهادة؟! فهي تحمُّلٌ للشهادة وتعاهدٌ لها وأداء لَها في وقتِها، وبلغنا عن أبي الدَّرداء قال: لا إيمانَ لِمَن لا صلاةَ له، ولا صلاة لمن لا وضوءَ له.[1]

إذا علمتَ خطرَ الشهادة، ووُجوبَها تَحمُّلاً وأداء، فاعلَم أنّ 'لا إله إلا الله' أعظَمُ شهادة، وأن الأذانَ للصلوات الخمس إنّما هو اِستدعاءٌ إلى بيت الله الذي هو المسجد للإدلاء بالشهادة له تعالى بالألوهية الحقَّة وللنبي محمّد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الصادقة. فأَولَى الْمَواضع بهذه الشهادة الجَلسةُ الأخيرة في الصلاة حيث رُكنُها الأعظم. قال عبد الله بن مسعود: كُنا نقول في الصلاة قَبلَ أن يُفرَضَ التَّشهُّدُ "السلامُ على الله، السلام على جبريل وميكائيل" فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «لا تقولوا هكذا؛ فإنّ الله عزَّ وجلّ هو السَّلام! ولكن قولوا "التحياتُ لله...»[2] فقولُه "يُفرَضَ التَّشهُّدُ" دليلٌ على أنّ الصلاة لا تصِحُّ بدونه، وكونُه آخرَها دليل على أنه أعظمُ أركانِها وأنّه المقصودُ بالذات منها، إذ أنّه ليس بعدَه إلا الدعاء والتسليم. فلا عبرةَ باختلاف الفقهاء في كون التشهد هل هو فرض أم سنّة، ويعضد هذا ما أشار إليه ابن القيم في مقدمة أحد كتبه إذ قال "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ كلمةٌ قامت بها الأرض

---

[1] خرجه اللالكائي في 'الاعتقاد' ر1536 والمروزي في 'الصلاة' عن أبي الدرداء موقوفًا، والخلال في 'السنة' وابن بطّة في 'الإبانة' عن أبي بكر بن حُويطب يرسِله وهو معضل، والطبراني في 'الكبير' عن سعد بن عمارة، وكانت له صُحبة، موقوفا بلفظ "لا صلاة لمن لا وضوء له ولا إيمان لمن لا صلاة له" وقال الهيثمي: رجالُه ثِقاة. وجاء في مُسنَد الربيع بن حبيب عن أبي عُبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس مرفوعا، ولكنَّه مرجع غير موثوق عند أهل السنَّة لأنَّه من كُتب الإباضيَّة، وممّا يلفت الانتباه أنّ أسانيدَه تكاد تكون كلُّها عن أبي عُبيدة عن جابر بن زيد عن أحد الصحابة، والله أعلم بحالِه.

[2] الحديث خرجه النسائي في صفة الصلاة، والدارقُطني في الصلاة ح1343 وصحّحه.

والسماوات... وعليها نُصبت القبلة..."[1] أشار إلى الصلاة بالقبلة، ليُفيدَنا بأن أهمّ مَقاصد الصلاة الشهادةُ لله بأنّه لا إله سواه سبحانه وتعالى. فإذا علمت أنّ الصلاة لا تصحُّ ولا تُقبَل إلا بشهادة أن 'لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله' فكذلك لا تَصحُّ ولا تُقبَل شهادةٌ بأن 'لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله' إن لم يعضُدها التشهُّد في الصلاة.

عمل العامَّة

قال صاحبُ المُغني: ولأنّ ذلك إجماعُ المسلمين؛ فإنّا لا نعلم في عصر من الأعصار أحدًا من تاركي الصلاة تُرِك تَغسيلُه والصلاةُ عليه ودَفنُه في مَقابر المسلمين، ولا مُنعَ وَرَثتُه ميراثَه ولا مُنع هو ميراثَ مُوَرِّثه، ولا فُرِّقَ بين زوجين لِترك الصلاة من أحدهما، مع كَثرَة تاركي الصلاة. ولو كان كافرا لثبَتَت هذه الأحكامُ كلُّها.

نقول: إن صاحب كتاب 'المُغني' يَستخلُص من جُملَة هذه الظواهر الغريبة عن الدين إجماعًا على أنّ تارك الصلاة مسلم. مع أنّه قد ذكر في أوّل كلامه أن في المسألة خلافًا وبسطَه، ثم هو يُنكر هنا أن يوجَد فيها مخالفٌ! كيف والخِرقي صاحب المتن نفسَه يُخالفُ هذا، فإنّه يقول في كتاب الردّة "ومَن ارتدَّ عن الإسلام قُتل وكان مالُه فَيْئاً بعدَ قَضاءِ دَيْنه، وكذلك مَن ترك الصلاةَ!"[2] ففي نفس الكتاب الذي هو يشرحه تصريحٌ بأن تارك الصلاة يُقتَل كالمُرتدّ، لا حدّا، وتُصادَر أموالُه ولا يرثه أهلُه؛ فأيُّ إجماعٍ هذا؟ وهاكَ كلامَ ابنِ القيِّم في ردِّه مثلَ هذه المُجازَفة، فإنّه يقول: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سَمِعتُ أبي يقول "ما يدَّعي فيه الرجلُ الإجماعَ فهو كذِبٌ؛ مَن ادّعَى الإجماعَ فهو كاذبٌ! لعلّ الناسَ اختلفوا، ما يُدريه، ولَم يَنتَه إليه؟ فليقلْ: لا نعلم الناسَ اختلفوا، أو: لَم يَبلُغْني ذلك!" -ثم قال ابنُ القيّم- هذا لفظُه، ونصوصُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أَجَلُّ عند الإمام أحمد وسائرِ أئمة الحديث من أن يُقدِّموا عليها تَوهُّمَ إجْماعٍ

---

[1] 'زاد المعاد في هدي خير العباد' ج1/ص34، الرسالة بيروت/ المنار الكويت.

[2] 'مختصر الخرقي' ص132.

مَضمونُه عَدَمُ العلم بالْمُخالِف. ولو ساغَ لتعطَّلت النصوصُ وساغ لكلِّ مَن لَم يعلمْ مُخالِفًا في حُكمِ مسألةٍ أن يُقدِّم جَهلَه بالْمُخالِف على النصوص![1]

هذا على مَن يدَّعي إجماعاً في مسألَة لَم يبلُغه فيها خِلاف، فإنّه لا تصحُّ دَعواه لأنّ عدمَ العلم بالشيء ليس علمًا بعَدَمه. وهَبْ جَدلا أن صاحب 'المغني' لَم يعلَم في المسألة خلافًا، فقد تقرَّر فيما سبق أن الإجماع إنّما هو ما اتَّفَق عليه الصحابة كلُّهم، وأنّه من السنَّة التي لَم يبلُغنا نصُّها عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وأمّا ما تواطأت عليه الدَّهماءُ وأجمَعت عليه فليس من السنَّة في شيء. وكيف تصحُّ الصلاة على تاركي الصلاة وقد نهى النبيُّ عن عيادة أهل البدع وعن اتِّباع جنائزِهم وعن الصلاة عليهم، وذلك قولُه صلى الله عليه وسلم «القَدَرِيَّة مَجوس هذه الأمة: إن مَرِضوا فلا تَعودوهم، وإن ماتوا فلا تَشهَدوهم» وفي رواية «إنّ مجوس هذه الأمة الْمُكذِّبون بأقدار الله؛ إن مرِضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تَشهَدوهم وإن لقِيتموهم فلا تُسلِّموا عليهم!»[2]

وقد تقرّر أن الصحابة على ضِدِّ ما ادَّعاه صاحِب 'المغني'، فإنّهم لا يُجيزون الصلاةَ على من مات على الكفر ولا الاستِغفارَ له. بل ومِن أصول السنة أنّ مَن تبِع جِنازة مُبتدِع لم يزل في سَخَط الله حتى يَرجِع! كما ثبت عن سفيان بن عُيَينة والفُضيل بن عِياض[3]. هذا وقد نقلَ صاحب 'المغني' أواخرَ كتاب الجنائز آثارا عن السلَف مصرِّحةً بالنَّهي عن الصلاة على أهل البِدَع، قال: قال أحمد "مَن اِستقبَل قِبلتَنا وصلّى بصلاتِنا، نصلّي عليه ونَدفنُه"[4] هكذا حملَ ابنُ

---

[1] 'إعلام الْمُوقِّعين عن ربِّ العالَمين' ج1-ص42.

[2] حسن أخرَج الأوَّل أبو داود في السنَّة عن أبي حازم عن ابن عمر. وأبو حازم شيخ لكنَّه يدلّس وقد عنعن، ووصلَه ابن حبان في 'الضُّعفاء' عن أبي حازم عن نافع عن ابن عمر. والثاني حسن ابن ماجه عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير ثقة ولكنّه مُدلّس، وقد عنعن، والله أعلَم.

[3] انظر 'ذم الكلام وأهله' للهَرَوي ج5-ص144، مكتبة العلوم والحكم، المدينة. و'شرح السنَّة' للبربهاري ص60، دار ابن القيم، الدمام، وغيرهما من كتب السنَّة.

[4] 'المغني' ج5-ص65.

حنبل حديثَ النبي على ظاهره حيث قال صلى الله عليه وسلم «مَن صلَّى صلاتَنا واستَقبل قِبلَتَنا؛ فذلك المسلمُ!»[1] فأقصَى تاركي الصلاة ممَّن يصلَّى عليه ويُدفَن مع المسلمين، وذلك لجعلِه الصلاةَ شرطًا للصلاة عليه ودَفنه، وإذا سقط الشَّرطُ بطُل المشروط. وقد ساق في موضع آخر قولَ ابن حنبل في شُهود جنائز المُبتَدِعة قال: قال أحمد "لا أشهدُ الجَهْميَّة ولا الرافضة، ويشهده مَن شاء، قد ترك النبيُّ صلى الله عليه وسلم الصلاة على أقلّ من هذا؛ الدَّين والغُلول وقاتِل نفسِه!" وقال "لا يُصلَّى على الرافِضي" وقال أبو بكر بن عياش "لا أصلِّي على رافضي ولا حَروري" وقال الفِريابي "مَن شتَم أبا بكر فهو كافر، لا يصلَّى عليه!" قيل له "فكيف نصنع به، وهو يقول: لا إلهَ إلا الله؟" قال "لا تَمسّوه بأيديكم، ارفعوه بالخشب حتى تُواروه في حُفرته!" وقال أحمد: "أهلُ البدع لا يعادون إن مَرِضوا، ولا تشهد جنائزهم إن ماتوا!"[2]

إنما يدلُّ هذا كلّه على أنَّ السَّلف الصالح كانوا ينهَون عن الصلاةِ على أهل الأهواء وعن شهودِ جنائزهم. ومِن هؤلاء الإمامُ أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، فإنَّه كان يرى أهلَ الأهواءَ كُفَّارًا من أهل الكتاب لا تجوز الصلاة خَلفَهم قال: ما أُبالي صلّيتُ خلفَ الجَهْمي والرافِض أم صلَّيت خلفَ اليَهود والنَّصارَى، ولا يسلَّم عليهم ولا يُعادون ولا يُناكَحون ولا يُشهَدون ولا تُؤكلُ ذبائحُهم![3] ولكننا لا نوافقُه على هذه الجملة الأخيرة، فأصحاب البدع في أسوء أحوالهم أهلُ كتاب ولا يمكن لأحد أن يترع عنهم هذا الحكم، وحكمُ أهل الكتاب في شرع الله أنَّ ذبائحهم ونساءهم حلال. وأمّا الصلاة خلفَهم فلا، سأل رجلٌ سفيانَ الثوريَّ قال "على بابي مسجدٌ إمامُه صاحبُ بدعة" قال "لا تُصلِّ خلفَه" قال "تكون الليلة المطيرة وأنا شيخ كبير؟!" قال "لا تصل خلفه!"[4] وبخاصَّة الشيعة الروافض الذين

---

[1] جزء من حديث خرجه البخاري في الصلاة والنَّسائي وأبو عوانة وابن أبي شيبة عن أنس بن مالك.

[2] 'المغني' ج5-ص62.

[3] 'خلق أفعال العباد' ص35، دار المعارف، الرياض.

[4] 'حلية الأولياء' ج7-ص28.

يستَحلّون أعراض أهل السنَّة ويلعنون الصحابة ويكذبون على الله ورسوله وأهل بيته. وأما الجهميَّة فالذين ينفون أن يكون لله صفات أو أن يُرى في الآخرة ويقولون بأن القرآن مخلوق وأن العباد لا إرادة لهم بل الله يجبرهم على أفعال ثم يجازيهم عليها، إلى ما هنالك من ضلالات خرجوا بها عن الإسلام. فعن حبيب بن عمر الأنصاري عن أبيه قال: سألت واثِلة بن الأسقع وهو صاحبُ النبي عن الصلاة خلف القدَري فقال "لا تصلِّ خلفه!"[1] وهناك مَن لا نقطَع بكُفرهم لعدم فُحش خطئهم في اعتقادهم، ولكنّ قطعَ بعضهم بضَلال وكُفر مَن يخالِفهم من المسلمين، فذلك كفرٌ في حد ذاته لقول رسول الله «من قال لأخيه "يا كافِرُ!" فقد باءَ بها أَحَدُهُما»[2] وقوله صلى الله عليه وسلم «إن العبدَ إذا لَعنَ شيئا صعدت اللعنةُ إلى السماء، فتُغلَقُ أبوابُ السماء دونَها! ثم تَهبِط إلى الأرض، فتُغلق أبوابُها دونها! ثم تأخُذ يَمينًا وشِمالا؛ فإذا لَم تَجِدْ مَساغًا رَجَعتْ إلى الذي لُعِن! فإن كان لذلك أهلاً، وإلا رجَعت إلى قائلها!»[3]

ولكن انتبه فمن مبادئ السنَّة والجماعة الصلاةُ خلفَ الإمام الفاسق، ما لَم يكن مُبتَدعًا يضلِّل المسلمين وما دامت صلاتُه صحيحة، وإن كان مُجاهرًا بالفُسق من الذين يَحلقون لِحاهم أو المدمنين على التدخين أو شاربي الخمر حتّى؛ فإنَّه الأحوَط، وإن كان في المسألة خلافٌ بين الفقهاء ولَم يصحَّ فيها حديثٌ. قال مُهنَّى: سألت أحمد عَن الصلاة خلف كل بر وفاجر؟ قال "مَا أدري مَا هَذَا ولا أعرف هَذَا؛ مَا ينبغي لنا أن نصلي خلفَ فاجر!" وأنكر هَذا الكلام، وقال يعقوب بن بختان: سئل أحمد عَن الصلاة خلف كل بر وفاجر؟ قال "مَا سمعنا بهذا!"[4] وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألتُ أبي عن الصلاة خلف أهل البِدع قال "لا يصلَّى خلفهم مثل

---

[1] رواه ابن بطّة في 'الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية' ج2-ص260.
المؤلف : أبو عبدالله عبيدالله بن محمد بن بطة
[2] خرجه مالك في الجامع والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، عن عبد الله بن عمر.
[3] حسن خرجه أبو داود في الأدب والبيهَقي في 'شعب الإيمان' والبزار عن أبي الدرداء.
[4] نقله ابن رجب الحنبلي في 'فتح الباري' ج4-ص184، دار ابن الجوزي، الدمام.

الجُهمية والمعتزلة" ونقل بسنده عن كيع بن الجرّاح أنَّه قال عن الصلاة خلف الجهمية "لا يصلّى خلفهم"[1] وقال الشافعي: مَن صلى صلاةً من بالغ مسلم يقيم الصلاةَ أجزأته ومن خلفَه صلاتُهم، وإن كان غيرَ محمودِ الحالِ في دينه، أيَّ غايةٍ بلغَ يُخالِفُ الحمدَ في الدين، وقد صلى أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم خلفَ مَن لا يَحمَدون فَعالَه مِن السلطان وغيره؛ أخبرنا مسلم عن بن جُريج عن نافع أن عبد الله بن عمر اعتزل بمِنًى في قتالِ ابن الزبير، والحجاجُ بمنى فصلّى مع الحجاج. قال وأخبرنا حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسن والحسين كانا يصلِّيان خلفَ مَروان فقال "أما كانا يصلِّيان إذا رجعا إلى منازلِهما؟" فقال "لا واللهِ، ما كانا يزيدان على صلاة الأئمة."[2] وبلغنا عن نافع مولى ابن عمر أنّه قال: قيل لابن عمر زمنَ ابنِ الزبَير والخوارج والخشبية "أتُصلِّي مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضُهم يقتُل بعضا؟" قال "مَن قال: حيَّ على الصلاة! أجبتُه، ومن قال: حي على الفلاح! أجبتُه، ومَن قال: حي على قَتْلِ أخيك المسلِم وأَخْذِ مالِه! قلتُ: لا!"[3]

قال ابن تيمية: أما الصلاة خلف المبتدع فهذه المسألة فيها نزاع وتفصيل؛ فإذا لم تجد إماما غيرَه، كالجمعة التي لا تقام إلا بمكان واحد وكالعيدين وكصلوات الحج خلف إمام الموسم، فهذه تُفعل خلف كلِّ بَر وفاجر باتفاق أهل السنة والجماعة. وإنما تَدع مثلَ هذه الصلوات خلف الأئمة أهل البدع كالرافضة ونحوهم ممن لا يرى الجمعة والجماعة. إذا لم يكن في القرية إلا مسجدٌ واحد فصلاته في الجماعة خلف الفاجر خيرٌ من صلاته في بيته منفرِدا؛ لئلا يُفضي إلى ترك الجماعة مطلقا. وأما إذا أمكنه أن يصلي خلف غير المبتدع فهو أحسن وأفضل بلا ريب. لكن إن صلى خلفه ففي صلاته نزاع بين العلماء، ومذهب الشافعي وأبي حنيفة: تصحُّ صلاته، وأما مالك وأحمد ففي مذهبهما النزاع وتفصيل. وهذا إنما هو في البدعة التي يعلم أنها تخالف

[1] 'السنة'، ج1/ص103-115، دار ابن القيم، الدمام.

[2] 'الأم' ج1-ص159، دار المعرفة، بيروت.

[3] 'السنن الكبرى' ر5088 وأبو نعيم في 'الحلية'.

الكتاب والسنة مثل بدع الرافضة والجهمية ونحوهم.[1] أما إذا كان الإمام يُخرِج الصلاةَ عن وقتِها فهذا لا يُتابَع بل الواجب صلاتُها في البيت جماعةً أو منفَردا إن لَم يكن معه أحد، ثم إعادتُها خلفَ الإمام الفاجر، كما صح عن أبي ذر الغفاري قال: قال لي رسولُ الله «كيف أنتَ إذا كانت عليك أُمراءُ يؤخِّرُونَ الصلاةَ عن وقتها أو يُميتون الصلاةَ عن وقتها؟» قلت "ما تأمرني؟" قال «صلِّ الصلاةَ لوقتها، فإن أدركتَها معهم فصلِّ، فإنها لك نافلة!»[2]

مرّ معنا أنّ النبيَّ الرؤوفَ الرّحيمَ صلى الله عليه وسلّم، قد صلّى على عبد الله بن أُبَيٍّ المنافِق ولكنّ الله نهاه بعدها عن الصلاة على الكفار والمنافقين، واستقرَّ الأمر على الحظْر المطلَق الْمُأبَّد بقوله تعالى ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِه؛ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّه وَرَسُولِه وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ!﴾ [التوبة 84] وقولِه جلَّ ذِكرُه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ!﴾ [التوبة 113] وقد ذكرَ ابنُ الوزير اليمني ما اتُّفق على نَسْخِه وصار غيرَ مشروع وإن كان النبيُّ صلى الله عليه وسلّم قد فعلَه مِن ذي قَبل، فقال: جُملة ما أجمع العلماء على نسخِه؛ استقبالُ بيت الْمَقدس والكلامُ في الصلاة وحُكمُ الْمَسبوق وتركُ الصلاة في الخوف وصلاةُ الجمعة قبل الخُطبة والصلاةُ على المنافقين وتحريمُ زيارة القبور على الرجال وجوازُ الاستغفارُ للكفّار بعد موتِهم على الكفر...[3] فقد نهى الله تعالى عن الاستِغفار للكفَّار والصلاة عليهم وزيارة قبورهم واستقرَّ الحكمُ على ذلك إلى يوم القيامة.

إنّه لَمن الغريب جدًّا أن صاحبَ 'المغني' لَم يستدلَّ على مشروعيّة صلاةِ الجنازة على تاركي الصلاة لا بالقرآن ولا بالسنّة ولا بأقوال العلماء الْمُعتَبَرين، وإنّما استدلّ على ذلك بظاهرة فشت بين عامَّة الناس. فجعلَ عُرفًا درجَ عليه السُّوقةُ وعُلماءُ السُّوء وحُكّامُ الجَوْر إجماعا من قبيل

[1] 'مجموع الفتاوى' ج23-ص355

[2] خرّجه مسلم في الإيمان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد، وله شواهد.

[3] 'الروض الباسم في الذّبّ عن سنة أبي القاسم' ج1-ص201.

الأدلّة الشرعيّة. والصواب أن عُرْف الناس لا يكون دليلاً شرعيًّا أبدًا، وإلا لضاع الشرع منَّا كما ضاع من اليهود والنصارى إلى الأبد. فإن قيل "بلى، إجماعُ الناس دليلٌ شرعي بصريح قول النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويدُ الله مع الجماعة»[1]" فجوابُه أنّ الحديث ثابتٌ صحيح، ولكن ليس معناه بذاك. فالأمّة هنا إنّما هي أمّةُ الإجابة لا أمّة الدّعوة، وأمّا الجماعةُ فهي مَجموع مَن تحلَّوا بالسَّمع والطاعة، أي المُسلمين المُقيمين للصلاة. فمعنى أمّة الإجابة، كما يدلّ عليه اسمُها، أنهم قومٌ تجمَعهم الاستجابةُ لله وللرسولِ، لا يجمعهم شيءٌ سوى ذلك. ويقتضي هذا حتمًا أنّه مهما وقع من أحدِهم خطأٌ رجع إلى الصواب بأدنى تنبيه؛ فيستَحيل أن يَجتَمِع هؤلاء على ضلالَة!

تلك إذَن أمّةُ الإجابة المتمسِّكة بالوحي المحمَّدي، المعتصِمة بالعُروة الوُثقَى. وأما أُمّة الدّعوةِ فعامّةُ البشر الذين لم يستجيبوا لله وللرسول بعد، وهؤلاء قومٌ لا يجمعهم سوى المصالِح العاجلة وما فيها من ضلالات وفساد كبير كما قال الله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ، فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ؛ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ؟!﴾ [القصص 50] فهذا صريح في أن لا أحدَ أَضلُّ ممَّن أعرَض عن شرع الله الذي في القرآن والسنَّة واتَّبعَ هواه، فإنَّه لا يعلَم إلى الحق دليلاً ولا يهتدي إلى الخير سبيلا، فلا تنفَعه آراؤه ولا تصرُّفاته لا هو ولا غيرَه، ومَن أطاعَه هلَك مع الهالكين.

لقد بيَّن رسول الله ذلك كلَّه فقال صلى الله عليه وسلم «إنّ الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا، يَنتَزعُه من العِباد، ولَكن يَقبِضُ العلمَ بِقبضِ العُلماء؛ حتّى إذا لَم يُبقِ عالِمًا اتَّخَذ الناسُ رُؤوسا جُهَّالا، فسُئِلوا فأَفْتَوا بغير عِلم؛ فضلُّوا وأَضلُّوا!»[2] ولا يخلو مِن هؤلاء الغاوين عَصرٌ ولا مِصر منذ زمن بعيد و﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ!﴾ [النساء 114] ثم لا يزال أكثرُ الناس تبعًا لَهم من دون الحقّ الذي جاء به رسُلُ الله ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ

[1] صحيح رواه الترمذي في الفتن عن ابن عمر وله شاهدٌ عند أحمد عن أبي بصْرة الغفاري.

[2] خرجه البخاري في العلم ومسلم عن عبد الله بن عَمرو بن العاص.

أَضَلُّ سَبِيلاً!﴾ [الفرقان 44] ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا!﴾ [الإسراء 89] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ!﴾ [الأنعام 103] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ!﴾ [الأنعام 111] ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ!﴾ [الأعراف 17] ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ!﴾ [الأعراف 102] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ!﴾ [هود 17] فلا خيرَ في الكثرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم في حديث القيامة «ثم يُقال: أخرِجوا بَعثَ النار! فيُقال: من كَم؟ فيقال: من كُلِّ ألفٍ تسعَمائةٍ وتسعةً وتسعين!»[1] واحدًا في الألف. وعلى هذا، فكثرةُ أتباع أمرٍ مّا خيرُ دليل على أنّه غيرُ صواب: فإمّا أن يكون خطأً وإمّا أنَّه ضلال مُبين.

فلا تُسيءْ فهمَ قولِ النبي صلى الله عليه وسلم «إن أمتي لن تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم!»[2] فعن إسحاق بن راهويه يقول في حديث رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله لم يكن ليجمعَ أمَّة محمدٍ على ضلالة فإذا رأيتم الاختلافَ فعليكم بالسواد الأعظم» فقال رجل "يا أبا يعقوب مَن السواد الأعظم؟" قال إسحاق: لو سألتَ الجُهّال مَنِ السوادُ الأعظم قالوا "جماعةُ الناسِ" ولا يعلمون أن الجماعة عالمٌ متمسِّك بأثَر النبي صلى الله عليه وسلم وطريقه، فمَن كان معه وتَبعه فهو الجماعةُ ومن خالفه فيه؛ ترك الجماعة![3] إذا فهمت هذا فاعلَم أنَّ أمّة الإجابة لَم تظهر قطُّ ظهورَها في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، وإنّ من المُعجزات الباهرة ومن أعلام النبوَّة أن ظَهرت بتلك الكَثرة؛ فالصحابة من جنود الله ومن آياته تعالى على صدق رسالَة محمّد كما يدلّ عليه قوله جلّ ثناؤُه ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ! هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ! لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ! وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ؛ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ!﴾ [الأنفال 62-63] لذا كان الحجّة والبرهان والدليلُ فيما كانوا عليه دونَ غيرهم من الخلق في أي زمان ومكان.

---

[1] خرجه مسلم في الفتن عن عبد الله بن عَمرٍو.

[2] خرَّجه ابن ماجة في الفتن وأحمد والحاكم أنس بن مالك وله شواهد.

[3] 'حلية الأولياء' ج9-ص238.

ولقد قرَّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم ذلك في أواخر حياته كما بلغنا عن العِرْبَاض بن ساريةَ قال: وَعَظَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومًا بعد صلاة الغَداةِ مَوعظةً بَليغَة، ذَرَفَت منها العُيونُ ووَجلت منها القلوبُ، فقال رجل "إنّ هذه موعظةُ مُودِّع؛ فماذا تَعهَدْ إلينا، يا رسولَ الله؟" قال «أُوصيكم بتَقوَى الله، والسَّمعِ والطاعة، وإنْ عبدٌ حَبَشيّ! فإنّه مَن يَعِشْ منكم، يَرَى اخْتلافًا كثيرًا. وإيّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّها ضَلالةٌ! فمَن أدرَك ذلك منكم، فعليه بسُنَّتي وسُنة الْخُلفاء الرّاشدِين الْمَهديِّين؛ عَضُّوا عليها بالنَّواجذ!»[1] فهكذا نهى النبيُّ عن المُحدَثات أي عن القَول على الله خلافَ ما جاء به، ثم أَلْحقَ بسنّته ما سنَّه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، وقد سنُّوا سُنَنًا مَرضيَّة ووافَقهم عليها الصحابةُ. فما بلغنا من اتّفاق الصحابة على أمر من الشَّرع، فذاك الإجماعُ الذي أقرَّه الله تعالى بقوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا!﴾ [النساء 115] سبيلُ المؤمنين التي لا يحلُّ الخروجُ عنها ولا يجوزُ اتباعُ غيرِها إنما هي إجماعُ الصحابة، فلا عبرَة بدعاوَى الإجماع الأخرى ولا قيمةَ لها في شريعة محمد صلى الله عليه وسلَّم.

لم يبلُغنا فيما أعلَم عن أحدٍ من الصحابة أنَّه صلّى على أحد مات وهو تاركٌ للصلاة من بعد أن نهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ!﴾ [التوبة 113] ويدلُّ عليه ما بلغنا عن محمّد ابن سيرين بسند صحيح قال "ما علمتُ أحدا من أصحابنا تركَ الصلاة على أحدٍ من أهل القبلة"[2] ومحمد ابن سيرين تابعي جليل وهو مَولَى أنس بن مالك، وقولُه "أصحابنا" يعني به حتمًا الصحابةَ والتابعين. ومِن قياس العَكس نعلَم أنّه: ما عَلِمَ أن أحدًا منهم صلَّى على أحد مِن غير أهل القِبلَة.

---

[1] صحيح خرجه الترمذي في العلم وأحمد وأبو داود والدَّارمي.

[2] خرجه عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن ابن سيرين رقم 6413 وابن أبي شيبة واللالكائي.

الحاصل من هذا أنّ أصحاب القرن الأوّل والثاني، واللذين هم خيرُ قُرون هذه الأمّة، كانوا يصلّون على المُصلّين، ولا يُصلّون على أحد ترَك الصلاة. ثمَّ سحبَ الذين تَلَوهم هذا الحُكمَ على الْمُبتَدعة وإن كانوا مُصلّين، فمِن ذلك قولُ الفُضَيل بن عِياض "مَن عظَّم صاحِبَ بِدعة فقد أعان على هَدمِ الإسلام، ومَن تبسَّم في وَجه مُبتَدِع فقد استخَفَّ بما أنزلَ الله عزّ وجل على محمد صلى الله عليه وسلم، ومن زوَّج كَريمتَه مبتدعًا فقد قَطع رَحِمَها، ومن تَبِع جنازة مُبتَدِع لم يَزَل في سَخَط الله حتى يرجِع!"[1] وذلك مُقتَضى قولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم «الْمَدينة حَرَمٌ ما بين عِيرٍ إلى ثَوْرٍ، فمَن أَحدَثَ فيها حَدَثًا أو آوَى مُحْدِثا؛ فعليه لَعنَةُ الله والْمَلائكة والناسِ أجمعين!»[2] وهو قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ؛ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ! خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللّعنة ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ!﴾ [البقرة 161-162]

هذا وقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه كان إذا دُعِيَ إلى جنازَة سَأَلَ عنها؛ فإن أُثنِيَ عليها خيرًا قام فصلّى، وإن أُثنِيَ عليها شرًّا قال لأهلِها «شأنُكم بها!» ولم يُصلِّ عليها[3] وأُتِي صلى الله عليه وسلم مرّةً بجَنازة ليُصلّيَ عليها فقال «هل عليه من دَين؟» قالوا "لا" فصلّى عليه، ثم أُتِي بجَنازة أخرى فقال «هل عليه من دَين؟» قالوا "نعم" قال «صلُّوا على صاحبكم!» فقال أبو قتادة "عليَّ دَينُه يا رسولَ الله!" فصلّى عليه رسول الله[4]. يدل الحديثان على أن الصلاة على المسلم الصالِح فرضُ كفاية وللأعيان الخيارُ فيها، وعلى مشروعيَّة السؤال عن حال الْميِّت.

السؤال عن حال الميِّت واجب، فتاركو الصلاة في مجموع البلاد الإسلامية أكثرُ من المصلين بأربعة أضعاف، حسبَ ما أخبرني أحدُ الموظَّفين بوزارة الشؤون الدينيّة بتُركيا. والواقع يفوق

---

[1] نقله البَربَهاري في 'شرح السنّة' ص60، دار ابن القيم، الدمّام.

[2] خرجه البخاري في الفرائض ومسلم عن علي ورواه مسلم في الحج عن أنس وعن أبي هريرة.

[3] صحيح خرجه ابن حبان في الجنائز، وأحمد والحاكم.

[4] خرجه البخاري في الحوالات والنسائي عن سلمة بن الأكوع، وله شواهد كثيرة.

هذا بكثير. ويكفي حَزرُ عدد مَن يدخلُ المساجدَ عند الأذان؛ فإنّها تبقى غيرَ آهلة، مع أن الشوارع تظلُّ مُكتظّة بالناس وكأنهم لم يسمعوا النداءَ إلى الصلاة، اللهمَّ إلاّ المملكة السعوديّة. فمَن قال "بل كثير من المصلين مَن لا يحضُر الجماعةَ ولكنه يصلّي في بيته!" فأنا أسأله: أتَعدُّ من المُصلّين مَن يسمَع الأذانَ وهو قريبٌ من المسجد فيَمرُّ ولا يأتي الصلاة، بل يُؤخّرها إلى حين يفرُغ ممّا هو فيه أو يرجع إلى بيته، أتعدُّ هذا مُصلّيا؟! وسيأتي جوابُه في فصل خاصٍّ ببيان أن الجماعة رُكنٌ في الصلاة وأنّ تَركَها خروجٌ من الدين، وأنها المقصودة من قول النبي «مَن فارَق الجماعةَ شبرا فمات، إلاّ مات مَيتَةً جاهليّة!»[1]

الصلاة على الميِّت شفاعةٌ له عند الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلّم «جئناك شُفعاءَ فاغفرْ له!»[2] ولكن الشفاعة لا تكون إلا بإذن منه تعالى لقوله ﴿مَن ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِندَهُ إلاَّ بِإذْنِه؟!﴾ [البقرة 255] وقد حصرَها فيمَن كانوا مُصلّين فقال ﴿لاَ يَمْلكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا!﴾ [مريم 87] وقد سبق بيانُ أن الصلاة هي العهد بين الله وعباده عند الكلام في فضل الصلاة فراجعه إن شئت. وعليه فصلاة الجنازة بلا تحرٍّ، مع أنّ أكثرَ الناس غير مُسلمين، شفاعةٌ سيِّئة في أغلب الأحيان والله يقول ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصيبٌ مِّنْهَا، وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفلٌ مِّنْهَا!﴾ أي إثمٌ من جرّائها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقيتًا!﴾ [النساء 85] فالسؤالُ عن حال الْميّت مُتعيّن على المسلمين وعلى أئمَّة المساجد خاصّةً، فمن كان ممّن يعتادون المساجد صلّوا عليه فرضَ كفاية، وإلاّ فالصلاةُ عليه حرامٌ كالصلاة على اليهودي أو النصراني، ولا فرقَ.

فهلاّ تناصح الناسُ في ذات الله فتركوا الصلاة على مَن لا يُصلّي؟! وإذًا لارتدَع الكفار من تاركي الصلاة ولرجعوا إلى صوابهم ودخلوا في الدين. وهذا خلاف ما قيل لي من أن ذلك لا يزيد الكافرين إلاّ نُفورًا، وإن كان كما قيل؛ فليزدادوا نُفورًا وليموتوا بغيظِهم. أخبرني بعضُهم

---

[1] خرجه البخاري في الفتن ومسلم عن ابن عباس، وأصحاب السنن عنه وعن أبي ذر.

[2] رواه أبو داود في الجنائز عن أبي هريرة وحسّنه ابن حجر وصححه شاكر.

أن عبد اللطيف سلطاني، وكان من جلَّة علماء الجزائر، جيء إلى مسجده بجنازة ليصلِّي عليها، فلمّا دخل سأل أهلَها عمّا إذا كان صاحبُها من المصلّين فأُخبِر أن لا فغضب غضبا شديدا وأبى أن يصلّي عليه وقال "أخرِجوه عنّا وألقوه في وادي الحَرّاش!" وهذا كلام في غاية الغِلظة فوادي الحراش نهر شرقيِّي الجزائر العاصمة تصبُّ فيه فضلات الناس وأوساخُهم. قال ذلك حِفظًا لحُرمة الدين وحِرصًا على كرامة المصلّين وقياما بحق المسجد، وإهانةً لذاك الذي مات على الكفر وزجرًا لأمثاله من الأحياء عسى أن يتوبوا.

فمَن تجرَّأ بعد عِلمه بهذا وقام يُصلِّي على الكفّار، فقد تعرَّضَ لسَخط الله الذي يقول ﴿مَا كَانَ﴾ أي لا يَحقُّ ﴿لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى من بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ! وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ؛ تَبَرَّأَ مِنْهُ!﴾ وكفَّ عن الاستِغفار له ولكنه ظلَّ يتحرَّق حُزنا عليه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ!﴾ [التوبة 113-114] الأوَّاه مَن يُكثِر قولَ 'أوَّه' و'آه' وهي آهَةُ حُزن الْمُصاب وتَّوجُّعِ الْمُتألِّم، وذاك وَجْدُ إبراهيم على أبيه الذي هلَكَ ولَم يملك له شيئا. فإنَّه لا يحلُّ لأحد أن يقومَ يُصلّي على كافرٍ مات أبدًا، وإن كان أمًّا أو أبا أو ابنًا أو بنتًا أو أخًا أو أختا، فذلك لا ينفَع الميّتَ ويضرُّ بمَن صلّى عليه. وحقّا، فيا لَها من مُصيبة مُضاعَفة ومن لَوعة لا تبرَد، بل تزدادُ حُرقةً، أن يموتَ أخٌ على الكُفر فلا تجوز الصلاة عليه ولا يحلُّ الترحُّم عليه ولا القيامُ على قبره، آهٍ آه، إنّا لله وإنّا إليه راجعون!!

قَضاء الفَوائت

قال الْمُوفَّق: ولا نعلمُ بين الْمسلمين خِلافًا في أنّ تاركَ الصلاة يَجِبُ عليه قَضاؤُها. ولو كان مُرتدًّا لم يَجب عليه قَضاءُ صلاةٍ ولا صِيام.

نقول: وهذا احتجاجٌ مِن جنس الذي قبلَه ومِن قلب لِموازين الشَّريعة، وإلا فمَن قرَّر أن عمل العامّة دليل شرعيّ مُلزِم؟! أوَ إن كثُر العاملون ببدعة وطال العهدُ بها صارت سنَّة؟! هيهات

هيهات، فالبدعة لا تصير سنّة أبدا، بل تبقى ضلالةً إلى أبد الدهر! ومع هذا فإنك قلّما فتحت كتابَ فقه إلا واصطدمتَ في أبواب الصلاة بباب اسمُه 'قَضاء الفَوائِت'. ولا شكّ أنّه بابٌ منحوس، وأوّلُ أماراته اسمُه الْمَنكوس، والقوم يتخيلون أنهم في الحاصل وهم في الفائت!

القضاء في اللغة هو انقطاعُ الشيء وتَمامُه، وكلُّ ما أُحْكِم عَمَلُه أو أُتمَّ أو خُتِمَ أو أُدِّيَ أداءً أو أُوجِبَ أو أُعْلِمَ أو أُنفِذَ أو أُمْضيَ؛ فقد قُضي.[1] كما في قول الله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ!﴾ [الأحزاب 36] لأنّ الأمر قد حُسِمَ فلا مَجالَ للاختيار، وفي قوله تعلى ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ...﴾ [القصص 29] أي أتمّه، وقوله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ!﴾ [الإسراء23] أي حكمَ حُكما لا يُردُّ، وفي قوله سبحانه ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ؛ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ!﴾ [الجمعة 10] فقضاءُ الشّيء إحكامُه والانتهاء منه ، فلا يلحَقه استدراكٌ ولا تغيير ولا تبديل، فما انقضى فقد تمَّ وانحَسم ومضى.

وأما 'الفَوائِت' فجمع فائتة، والفَوْتُ لُغةً: ذهابُ الشيء وتعذُّر إدراكه، تقول "فاتَني الأمْرُ فَوْتاً وفَوَاتًا، أي ذَهَبَ عَنِّي"[2] كما في قول الله ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا؛ فَلاَ فَوْتَ، وَأُخِذُوا من مَّكَان قَرِيبٍ﴾ [سبأ 51] أي نَهضوا للهَرب ولكنهم لَم يسبِقوا فأُدرِكوا ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّـــيِّئَات أَن يَسْبِقُونَا؟!﴾ [العنكبوت 4]

ومَن يغتنِمْ يومًا يجدْه غَنيمةً ومَن فاتَه يومٌ فليس بِعائد!

وعليه فقولُهم 'قَضاءُ الفَوائِت' يعني إدراكَ ما يتعذَّر إدراكُه ويستَحيل، فأدخَلوا في الدين الْمُطالَبة بفعل الْمُحال؛ وهذا لا يصحُّ لا عقلا ولا شَّرعا. واسمع بماذا يبرّرون هذه التسمية؛ يقول قائلُهم "لم نقُل الْمَتروكات، ظنًّا بالمؤمنين خيرا؛ لأن ظاهر حالِ المسلم أن لا يتركَ الصلاة!"[3] لقد قصَدوا بالفوائت الصلوات الْمَتروكات، وسمَّوها بغير اسمِها "ظنًّا بالمؤمنين خيرًا"؛ وهذا اعترافٌ

---

[1] نقله ابن منظور عن الأزهري في 'لسان العرب' ج15-ص186.

[2] قاله ابن سيدَه في 'المحكم' ج9-ص540، دار الكتب العلمية.

[3] 'حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح' ج1-ص285، بولاق، مصر.

منهم بأنّ مَن فاتته الصلاة فقد تركَها وأنّ تركها كُفر، وأنّها لا تفوت إلاّ مَن لَم يقضِها في وقتها، ولو قضاها لم تَفُته. وكما قيل في المثل السائر " اللي فات مات، واللي طاح راحْ!"

أرادوا أيضًا أن يُفرِّقوا بين أداء الصلاة وقضائها، فسمَّوا بالأوّل فعلَها في وَقتها وبالثاني فعلَها بعد خُروج وَقتِها. ولا أصل لهذه الْمُبايَنة، فلا فرقَ بين الأداء والقضاء شرعًا، فكلاهما يعني فعلَ العبادة في وقتِها الواجب، إلا أن الأداء أقرب من الإيتاء، فهو ألصَق بالعبادة المتعدّية إلى الغير. يقول الله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ﴾ أي شرَعتُم فيها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أثناءَها، لا بعدَها كما يظنُّ أكثرُ الناس، لقوله تعالى ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ وهذا من صُلب الصلاة ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ وذَهب العارِضُ كالخَوف أو المرض ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ فاجتَمعوا لها خلفَ إمامكم في بيت الله ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا!﴾ [النساء 103] فلا يُفوِّتُها مَن كان يؤمن بالله وايوم الآخر مهما حالَ دون إقامتِها على الصورة الكاملة. وهذا يدلُّ على أن عبادة الصلاة موقوفةٌ على توقيت مُحدَّد ومَحدود بحيث أنها لا تكون صلاةً إلاّ فيه.

وهذا المعنى، الذي هو التَّوقيت، واردٌ على كلّ الشعائر التي قيَّدها الله بمواقيت؛ فالزكاة واجبةٌ، أي واقعة، لوقتها لقول الله ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ!﴾ [الأنعام 141] والحجُّ واجبٌ أي واقع لوَقته لقوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة 197] والصومُ واجبٌ أي واقِعٌ لوقتِه لقوله سُبحانَه ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ؛ فَلْيَصُمْهُ!﴾ [البقرة 185]

والوجوب هو الوُقوعُ لُغةً وشرعا. وأمّا ضابطُ الفَوريّة في العبادات الموقوتة فقولُه تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ؛ قُلْ: هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ! وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى؛ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ!﴾ [البقرة 189] فبيّن وجوبَ إتيان العبادة من بابِها، وهو أوّلُ دخول وقتِها، والنَّهيَ عن إتيانها مِن ظهرها، أي في آخر وَقتِها أو بعدَ انقضائه واستحالَة إدراكها.

الذي حدَّد تلك المواقيت إنما هو الله سبحانه وتعالى، فبذلك أرسَل جبريل عليه السلام إلى محمَّد. قال صلى الله عليه وسلم «أمَّني جبريلُ عند البيت مرّتين؛ فصلّى الظُّهرَ في الأُولَى منهما

حين كان الْفَيءُ -أي الظِّلّ- مثلَ الشِّراك، ثم صلّى العصرَ حين كان كلُّ شيءٍ مثلَ ظلّه، ثم صلّى الْمَغربَ حين وَجَبَت الشمس -أي غرُبت- وأفطر الصائمُ، ثم صلى العِشاء حين غاب الشَّفَق – هو الحُمرة أوَّلَ الليل- ثم صلّى الفَجرَ حين بَرق الفجرُ وحَرُمَ الطعامُ على الصائم. وصلَّى الْمَرّةَ الثانيةَ الظُّهرَ حين كان ظلُّ كل شيء مثلَه، لِوقتِ العصر بالأمسِ، ثم صلى العصرَ حين كان ظلُّ كلِّ شيء مِثلَيْه، ثم صلى المغرب لوقته الأول، ثم صلّى العِشاء الآخرةَ حين ذهب ثُلُثُ الليل، ثم صلَّى الصُّبحَ حين أَسفَرَت الأرضُ. ثم التفت إِلَيّ جبريلُ فقال: يا محمدُ، هذا وقتُ الأنبياء مِن قبلِك؛ والوقتُ فيما بين هذَيْن الوَقتَين!»[1] فتبيَّن أنّ لكلّ صلاة ظَرفا زمَنيًّا، إذا حَضَرَ وجبَت إقامتُها فيه، وإن خرج فلا صلاة.

ثم اعلم أن الزمان في شَعيرة الصلاة أهمُّ مِن المكان وفضلُ الوقتِ أعظمُ منه في البِقاع وإن شرُفَت، فإنَّ أبا ذَرٍّ الغفاريّ سأل النبيَّ عليه الصلاة والسلام فقال "يا رسولَ الله، أيُّ مَسجدٍ وُضِع في الأرض أَوّلَ؟" قال «المسجدُ الْحَرام» قلتُ "ثم أيٌّ؟" قال «المسجد الأقصَى» قلتُ "كم كان بينهما؟" قال «أربعون سنة، ثم أينما أدركَتْك الصلاةُ بَعدُ فصَلِّهْ؛ فإنَّ الفَضلَ فيه!»[2] يعني أنَّ مُطلَق الفَضل إنما هو في حُلول الوقت، وأن لا خيرَ في صلاة في المسجد الحرام أو الأقصى أو النبوي إذا فات وقتُها، مع أنّ هذه المساجد أحبّ البقاع إلى الله تبارك وتعالى.

وانظر كلَّ ما شرعَه الله حِفاظًا على مواقيت الصلاة. فما شرعَ تعالى التيمُّمَ إلا لذلك فقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا، لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ! وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا! وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً، فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً؛ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ! إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا!﴾ [النساء 43] فقد جعل تعالى التُّرابَ مُطهِّرا لِمَن عَجَز عن الوُضوء أو الغُسل، لعَدم الماء أو لعلّة، حتى لا يَخرُج وقتُ الصلاة فتفوتَه إلى الأبد.

[1] خرجه الترمذي في أول الصلاة وأبو داود وأحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس.

[2] خرجه البخاري في أحاديث الأنبياء وأحمد.

قال رسولُ الله «جُعلت لِيَ الأرضُ مَسجدا وطَهورًا؛ أينما أدركَ رجلٌ من أُمّتي الصلاةَ؛ صلَّى!»[1] وكان صلى الله عليه وسلم في سَفر فنَزل مَترِلا فدعَا بالوَضوء فتوضّأ، وأُذِّن للصلاة فصلَّى بالناس، فلمَّا قضَى صلاتَه فإذا هو برجُل مُعتزِل لم يُصلِّ مع القوم قال «ما مَنَعَك، يا فلانُ أن تُصلِّيَ مع القَوم؟» قال "أصابَتني جَنابةٌ ولا ماءَ!" قال «عليك بالصَّعيد؛ فإنَّه يَكفيك!»[2] أي اقصِد تُرابًا فتطهَّر به وصلِّ.

وما شُرِعت صلاةُ الخوف إلا لحُرمة الوقت، قال الله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى؛ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ! فَإِنْ خِفْتُمْ؛ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا!﴾ [البقرة 238-239] نزلت الآية لَمّا أُخِّرت العصرُ يومَ الخَندق والمسلمون مُحاصَرون من طرَف المشركين الذين تحزَّبوا عليهم ليُبيدوهم ويستأصِلوهم. كانوا في خوف شديد جدًّا، ولكنَّ الله أبى عليهم إلا أن يُقيموا الصلاةَ لوقتها وإن كانوا في حالَة قِتال وذُعر شديد. لم يقبَل تعالى منهم غيرَ ذلك!

وكذا صلاةُ المسافر، إنما شُرعت لِحُرمة الوقت، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ؛ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا!﴾ [النساء 101] ظاهرُ العلّة الخوفُ، ولكن قد بلغنا من وجوه أنّ النبي صلّى صلاةَ الْمُسافر بمِنًى وغيره ركعتين[3]، أي في حَجَّته وهو آمِنٌ؛ فالسفَرُ، والذي هو الضَّربُ في الأرض الواردُ في الآية، أيضا علَّةٌ للقَصْر كالخوف. وإذا جاءت السنَّةُ الثابتَةُ بزيادة بيان على ظاهر القرآن، فالواجب الأخذ بها. ولقد صدَق سعيدُ بن جُبَيْر، فقد حدَّث ذاتَ مرّة عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلم فقال رجلٌ "في كتاب الله ما يُخالفُ هذا!" فقال سعيد "لا، أراني أُحدِّثك عن رسولِ الله وتُعرِّض فيه بكِتاب الله؟! كان رسولُ اللهِ أعلمَ بكِتابِ الله مِنك!!"[4]

---

[1] خرجه النسائي عن جابر بن عبد الله.

[2] خرجه البخاري في التيمم وغيره عن عمران بن حصين. والوَضوء هو الماءَ الذي يُتَوَضّأُ به.

[3] خرجه مسلم وابن حبان وأبو عَوانة عن عبد الله بن عُمر.

[4] خرجه الدارِمي في المقدّمة، باب السنّة: قاضية على كتاب الله.

ثم ما شُرعت صلاةُ المريض إلا لِحُرمة الوقت، قال الله عزّ وجلّ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ!﴾ [النساء 103] وقد بلغنا عن عبد الله بن مسعود أنه رأى الناسَ يَضُجُّون بالذِّكر والدُّعاء في المسجد، فقال "ما هذه الضَّجّة؟" قالوا "أليس الله تعالى يقول ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾؟" قال "إنّما يعني بهذا الصلاةَ المكتوبة؛ إن لم تستَطِعْ قائمًا فقاعِدًا، وإن لم تَستطِعْ فَصلِّ على جَنبِك!" فالمرادُ بذِكر الله في الآية نفسُ الصلاة، لأنّ الصلاة ذكرٌ لله تعالى وقد اشتملت على الأذكار المفروضة والمسنونة.[1] فقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ..﴾ يعني إذا عَزمتُم فصلّوا قيامًا، فإن عجزتم عن القيام لِمرَضٍ أو عِلَّة قاهرة فصلّوا قعودًا، فإن عجزتم عن القُعود فصلّوا على جنوبِكم. وهذا ما بيّنه النبيُّ لِعمران بن حُصَين، قال: كانت بي بَواسير، فسألتُ النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال «صَلِّ قائمًا، فإن لم تستَطِع فقاعِدًا، فإن لم تَستطعْ فعلى جَنْب!»[2]

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: الذي أذهب إليه وأقول به أن الله قد رفع عن المسلم المكلَّف الحرج في دين الله وأمره أن يتّقي الله ما استطاع، فَلْيُصَلِّ الْمَريضُ على قدر استطاعتِه وكما تيسَّر له، ورفْعُ الحرَج عنه الذي يضرُّ به في الزيادة من مرضه، ولا يترك الصلاة أصلاً ولو سَقَطَ عن استطاعته الإتيانُ بجميع الأركان وجميع الشروط المصحِّحة لصلاة الصَّحيح. فإن خِطاب الشارع إنما يُكلِّفه على حاله الذي يَقدِر عليه، فإن الله ما كلّف ﴿نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة 286] وما آتاها، وخفَّف عنها أكثرَ من هذا بقوله تعالى ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق 7] مُتَّصِلا بقوله تعالى ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق 7] فكأنه يقول وإن أعطاها وفعلته بمشقة هي عسر في حق المكلَّف، فكان اليُسر قولَه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج 78] فما أشدَّ رِفقِه بعِباده![3]

---

[1] قاله القُرطُبي في 'الجامع لأحكام القرآن' ج5-ص374، عالم الكتب، الرياض.

[2] خرجه البخاري في الجمعة وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد.

[3] 'الفتوحات الكيّة' ج2-ص145، الكتب العلمية، بيروت.

وبناءً على ما سبق من آيات وأحاديث، فالوقتُ آكَدُ فُروضِ الصلاة. لذا قُدِّم على شروطِها كالطَّهارة والسِّترة واستِقبال القِبلة وتَسوية الصفوف وسَتْر العَورة، بل وعلى بعض أركانِها كالطُّمَأنينَة والقِيام. قال ابن تيمية: لا يَجوز تأخيرُ الصلاة عن وقتها لِجنابة ولا حَدَثٍ ولا نَجاسَة ولا غيرِ ذلك، بل يُصلِّي في الوقت بَحسَبِ حالِه. لأنَّ فِعلَ الصلاة في وقتها فَرْضٌ، والوقتُ أَوْكَدُ فَرائِضِ الصلاة![1]

ولكن للصبي والناسِي والنائم وفاقدِ الوَعْي حكمٌ خاصّ بهم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم «رُفِع القَلَمُ عن ثلاثة؛ عن النائِم حتى يَستَيقظَ وعن الصَّبيّ حتى يَبلُغَ وعن الْمَجنون حتى يَعقِل!»[2] وعلَّة هذا الحكمِ في حقِّهم أنهم ينقُصُهم تَمامُ العَقل الذي هو مَناط التكليف. إلا أنّهم مع ذلك لا يخرجون عن توقيت خاصٍّ بهم، وذلك قولُ النبي "حتى يَستَيقِظَ النائم"، "حتى يَبلُغَ الصبيّ"، "حتى يَعقِل الْمَجنون".

فتوقيتُهم الشرعي هو حين يكتمِل وَعْيُهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلّم «مَن نَسِيَ صلاةً، فَليُصلِّ إذا ذكرها؛ لا كفَّارةَ لَها إلاّ ذلك!»[3] ولو أخّر أحدُهم الصلاةَ عن حين اكتمال وَعيِه أَثِم، وإن خرج وقتها العامُّ فقد فاتته وكفرَ بتركها. ذلك واضح في قول عبد الله بن مسعود: أقبَلنا مع رسول الله زَمَنَ الْحُدَيْبِيَة، فقال رسول الله «مَن يَكْلَؤُنا؟» فقال بِلالٌ "أنا!" فناموا حتى طلعتِ الشمسُ، فاستيقظ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال «افعَلوا كما كنتم تفعلون!» ففعلنا، قال «فكذلك فافعلوا لِمَن نامَ أو نَسِيَ!»[4] وقد بيّن أبو هريرة ما فعلوه هنالك، قال: عرَّسنا مع نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلم نَستيقِظ حتى طلعت الشمسُ. فقال النبي «لِيَأخُذْ كلُّ رَجُل برأس راحِلَته؛ فهذا مَنزِلٌ حَضَرَنا فيه الشيطانُ!» ففعلنا، ثم دعا بالماء فتوضّأ ثم صلَّى

---

[1] 'مجموع الفتاوى' ج22/ص27-30.

[2] خرجه أبو داود في الحدود والترمذي والنسائي عن علي، وأبو داود وأحمد عن عائشة.

[3] خرجه البخاري في مواقيت الصلاة ومسلم وأبو داود.

[4] خرجه أبو داود في الصلاة وأحمد. أي توقَّفوا لقَضاء اللَّيل، وهو التعريس.

سجدتين ثم أُقيمت الصلاةُ فصلّى الغداةَ.[1] فكان وقتُ الصبح في حقِّهم حينَ استيقَظوا من نومِهم ذاك، لذا صلَّوا الرّاتِبةَ ثم الفرضَ كعادتِهم.

لا يجوز تأخير صلاةٍ أو تقديمُها، إلاّ ما كان من جَمع للحاجِّ بين الظُّهر والعصر بعَرَفة كما فعل رسولُ الله[2] أو بين المغرب والعِشاء بمُزدَلِفة كما فعل صلى الله عليه وسلم[3] أو لمُسافر كما جمع صلى الله عليه وسلَّم بين الظُّهرَين وبين العِشاءَين في غَزوة تَبوك[4] ويجوز ذلك لِمُقيمٍ لِشدَّة خوف أو مرَض أو حرٍّ أو بَردٍ أو مَطَر، كما جاء بأدلّته في كتب الحديث. أما جمعُ الصلاتين أو الصلوات لغير عُذر كما يفعَل أكثَر الناس، فمنكَرٌ عظيمٌ وتعدٍّ لحدود الله. وأما الحائض والنُّفَساءِ فالصلاةُ ساقطة عنهما. وقد اتَّفق أصحابُ الحديث على خبَر عائشةَ أنها سُئلت "ما بالُ الحائِض تَقضي الصَّومَ ولا تَقضي الصلاةَ؟" فقالت "كان يُصيبُنا ذلك، فنؤمَرُ بقضاء الصوم ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة!"

لقد خصَّ ابن حَزْم لردّ بدعة قضاء الفوائت بحثا مُطوَّلا جاء فيه بما يُثلِج الصدر من أدلّة الشرع والعقل، يقول: مَن تعمَّد ترْكَ الصلاة حتى خرجَ وقتُها، فهذا لا يقدِر على قضائها أبدًا؛ فليُكثِرْ من فِعل الخير وصلاةِ التّطَوُّع وليُثَقِّلَ ميزانَه يومَ القيامة، ولْيَتُبْ ولْيَستَغفِرِ اللهَ![5] وقد أيَّده أحمد ابنُ تيميّة فقال: تاركُ الصلاة عَمدًا لا يُشرَع له قَضاؤها ولا تَصِحّ منه، بل يُكثِر من التطوُّع، وكذا الصومُ...وليس في الأدلة ما يُخالف هذا، بل يوافقه![6] وقال محمد بن علي الشوكاني: تَمسَّك بدَليل الْخِطاب مَن قال "إنَّ العامِد لا يقضي الصلاة" لأنّ انتِفاءَ الشَّرط

---

[1] خرجه مسلم في المساجد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد.

[2] خرجه مسلم في الصلاة وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله.

[3] خرجه البخاري في الحج وغيره عن أسامة بن زيد

[4] خرجه مسلم في صلاة المسافرين عن مُعاذ وعن ابن عباس.

[5] 'المُحلى بالآثار' كتاب الصلاة، ج2-ص10، الكتب العلميّة، بيروت.

[6] 'الفتاوى الكبرى' ج5-ص320، بتحقيق الأخوين عطّا، دار الكتب العلمية.

يستلزِم انتفاءَ الْمَشروط، فيلزَم منه أنّ مَن لم يَنسَ لا يصلِّي. وإلى هذا ذهب داود وابنُ حَزمٍ وبعضُ الشافعيّة.[1]

ولعلّ الشوكاني يشير بقوله "بعض الشافعيّة" إلى عِزّ الدين بن عبد السلام السلمي، الملقَّب بسُلطان العلماء وإمام الشافعية في زمانه، فإنّه أيَّد ما ذَهب إليه ابنُ حَزم وخالَفَ جُمهور أصحابه، وبيّن بالاعتبار وبالدليل السَّمعي والعقلي أن 'قضاء الفوائت' عملٌ غير مَعقول ولا هو مَشروع، قال:

قال أهلُ الظاهرِ وبعضُ العلماء "مَن تعمَّد ترْكَ الصلاة أو الصيام **لا**[2] يلزَمُه القضاءُ، لأنّ القضاءَ وَرَدَ في الناسِي والنائِم، وهما مَعذوران، وليس الْمُتعمِّدُ في معنى المعذورِ" ولِما قالوه وجهٌ حَسَنٌ؛ وذلك أنَّ الصلاةَ ليست عُقوبةً من العقوبات حتى يقال "إذا وجبت على المعذور فوجوبُها على غيره أوْلى" لأنّ الصلاةَ إكرامٌ من الله تعالى للعبد، وقد سماه جليسا له، وأقربُ ما يكون العبد من ربه إذا كان ساجدا. ولا يستقيم مع هذا أن يُقال "إذا أُكرِم المعذورُ بالْمُجالسة والتقريب، كان العاصي الذي لا عُذرَ له أَوْلَى بالإكرام والتقريب" وما هذا إلا بِمثابَة مَن يُرتِّبُ الكرامةَ على أسباب الإهانَة، فيقول "إذا كفَفتُ عن عقوبة الإعفاء كان الكفُّ عن حَدّ الزُّناة وقُطّاع الطريق وشَرَبة الخَمر والجُناة على النفوس والأطراف أولى"؛ وهذا قَطعٌ للمُناسَبة بين الأسباب ومُسَبَّباتِها![3]

---

[1] 'نيل الأوطار' ج2-ص435.

[2] لقد أضفتُ لام النفي التي أُسقِطت في المطبوعة وفاتت المُحقِّق، وكذا في طبعة مؤسّسة الريان ص192، وغيرهما من الطبعات التي اطَّلعتُ عليها. والواجب حتمًا إثباتُها، لأن المعنى لا يستقيم بدونها ولأنّ نَفي إمكان القضاء هو مذهب أهل الظاهر. ويؤكِّده ما نقلَه ابنُ العراقي عنه فإنّه يقول: اختار الشيخ عزُّ الدين بن عبد السلام من الشافعية أنّه **لا** يجب القضاءُ، كقول ابن حزم –اه من 'طرح التثريب' ج1-ص328، مكتبة الباز، مكّة– فأثبت لامَ النفي كما ترى.

[3] 'قواعد الأحكام في مصالح الأنام' ج2-ص6 بتحقيق محمود الشنقيطي، دار المعارف بيروت.

فإذَن ليس في دين الله شيء اسمُه 'قضاء الفوائت' بل هو بدعة ومُنكَر قد تداوله الفقهاءُ، وإنّ «مَن أَحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ!»[1] والله هو مَن حدَّ مواقيتَ الصلاة و﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ؛ فَلاَ تَعْتَدُوهَا!﴾ [البقرة 229] ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ!!﴾ [الطلاق 1] مَن أخرج الصلاة عن وقتها لغير عُذر شرعيّ فقد توعَّده الله بقوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ!﴾ [الماعون 4-5] وقال جلّ وعزّ ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ؛ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا!﴾ [مريم 59] وقد بلغنا عن عبد الله بن مسعود أنه قيل له "إن الله يُكثِر ذكرَ الصلاةِ في القرآن" ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون 4] و﴿عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج 23] و﴿عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام 92/المعارج 34] فقال ابن مسعود "على مواقيتها" قالوا: "ما كُنّا نُرَى ذلك إلاّ على التَّرك!" قال "ذاك الكفر!!"[2]

أُسلُكْ بُنَيَّ مَناهجَ الساداتِ	وتَخَلَّــقَنَّ بأشْرفِ العاداتِ
لا تُلهِيَنَّك عن مَعادك لَــذَّةٌ	واذكُرْ حُلولَ مَنازلِ الأمواتِ
أقِمِ الصلاةَ لِوَقتِها بِطُهورِها؛	فمِن الضَّلال تَفاوُتُ المِيقاتِ!

بلغنا عن يحيى بن مُعاذ الرازي أنّه قال "الفَوت أشدُّ من الموت؛ لأن الفوت انقطاعٌ عن الحقِّ، والموت انقطاعٌ عن الخلق!"[3] على أن الموت لا يُدفَع إذا حلَّ والفَوت لا يجوز لأحد، وكلاهما لا يُتدارك بحال، فمَن فوَّت على نفسِه صلاةً لم يقضِها أبدَ الدّهر ﴿قُتِلَ الإنسَانُ؛ مَا أَكْفَرَهُ!﴾ إلى قوله ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ!!﴾ [عبس 17-23] قال ابن الرومي يُسائل السُّلطان:

ماذا يقولُ امرُؤٌ قال الإلَــهُ لهُ:	مَنِ اجْتَبَيتَ لِتَحديد الْمَواقيتِ؟
مَن ذا تُقيمُ مواقيتَ الصلاةِ به	حتى يقومَ على رَغم الطواغيتِ؟
لو كان حقَّك ما رَعيت مَوْقِتَهُ	إلا بأعْــيُن نُــظَّام اليَواقيتِ!

---

[1] خرجه البخاري في الصلح ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة عن النبي عليه السلام.

[2] خرجه الطبري في تفسيره ج18-ص216.

[3] رواه أبو عبد الرحمن السلمي بسنده في 'طبقات الصوفية' ص101، دار الكتب العلمية.

لكنَّ حقِّيَ خسَّسْتَ الرقيبَ له فوَقتُه الدهرَ مأخوذٌ بتَنحيتِ!
ماذا يكون جوابُ المَرءِ حينئذٍ؟ أعاذنا اللّه مِن لُؤمٍ وتبكيتِ!

كبائر الذنوب

قال الموفَّق: الأحاديث الْمُتقدِّمة على سبيل التَّغليظ والتشبيه له بالكفار لا على الحقيقة كقول النبي «سِبابُ الْمُسلِم فُسوقٌ وقِتالُه كُفر» وقوله «كفرٌ بالله تَبرُّؤٌ مِن نَسَبٍ وإن دَقَّ» وقوله «مَن قال لأخيه "يا كافرُ" فقد باءَ بِها أحدُهما»[1] وأشباهِ هذا مِما أريد به التشديد في الوعيد؛ وهو أَصوَبُ القولَين.

نقول: الصوابُ عند صاحب 'المغني' إخراجُ هذه النصوص، الْمُتضافِرةِ المتظاهرةِ على نفس المَعنى، من نِطاق الأَحكام الْمُلزِمة إلى فُسحة الوَعْظ وترقيق القُلوب. وهذا الفَهم غلَط، ولو كان صوابًا لسقط مَدلول نصوص الأحكام برُمَّتها ولساغ لكلٍّ مَن شاء أن يُحيلها عمّا أراده اللهُ منها ولَتعطَّل الدينُ جملةً. يقول الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا!﴾ [التغابن 16] لا سبيل إلى تقوى الله إلا بالسَّمع وبالطاعة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَاحْذَرُوا!﴾ أي أن تسمَعوا وتُطيعوا لغير الله ورَسوله ﴿فَإِن تَوَلَّيتُمْ﴾ وذَهبتُم تبحَثون عن معنًى ما بلغَكم عن الله ورسوله في غير القرآن والسنّة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ!!﴾ [المائدة 92] ما عليه إلاّ إبلاغُكم رسالَة الله بصورة لا تَفتَقر إلى زيادة بيان من أحد بعدَه! ومُبين على وزن مُفعِل مِن بانَ أي ظهرَ واتَّضَح وتميَّز، فمعنى ﴿الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ هو إيصالُ خِطاب الله جلَّ ذِكرُه الذي يُظهِر الهُدى ويوضِّح السبيل ويفرِّق بين الحقِّ والباطل ويميِّز ويباعِد بينَهما.

تلكَ رسالَة الله تعالى إلى الناس؛ تُظهِر حقائق الأمور بوُضوح تامّ كي لا تلتَبس على أحد بعد أن بيَّنها رُسُلُه للناس ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ: لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ!﴾ [النساء 165] تلك بالذات هي وَظيفةُ رَسول الله؛ واجبُه إيصالُ رسالةِ ربِّه تعالى إلى الناس

[1] قد تم تخريج هذه الأحاديث الثلاثة عند إيراد كلام ابن قدامة بتمامه أوَّلَ الفصل.

ليَفهموها عنه جميعا، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ: لِيُبَيِّنَ لَهُمْ!﴾ [إبراهيم 4] أي هُوَ، مِن غير حاجة إلى غيره. فالنبي مُبلِّغٌ عن الله مبيِّنٌ لما يُريده تعالى من عباده، كما هو ظاهر في قوله صلى الله عليه وسلم «إنّه لم يكن نَبيٌّ قَبلي إلاّ كان حقاً عليه أن يَدُلّ أُمَّته على خَيرِ ما يَعلمه لهم، ويُنذرَهم شَرَّ ما يعلمه لهم!»[1]

وإنّ محمدا رسولَ الله لأعلَمُ وأفهَمُ وأصدقُ وأشفَقُ وأنصَحُ وأفصح مَن بلّغ عن الله تعالى! فلا حاجة بنا إلى مُترجمين عنه صلى الله عليه وسلّم، بل ما على الناس إلا الاستماع والطاعة والاتِّباع. وقد سبق بيانُ أنّه مهما ثبت عن نبيِّنا خبرٌ بشُروطه الْمُقرَّرة لدى الْمُحدِّثين، وجبَ أخذُه بِمُقتضَى ظاهِرِه اللُّغويّ فورًا وبلا تَوقُّف، ولا يجوزُ انتظارُ قول القائلين فيه. فإذا جاء بعد ذلك مَزيدُ علم فأهلا وسهلا بِمَزيدِ العلم، أما إخراجُ النصوص عن مُقتضاها لقول عَمرٍو أو زيد فلا!

النهي عن ذلك واضحٌ صريح فالله تعالى يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ!﴾ [الحجرات 1] قال ابن عباس: لا تقولوا خِلافَ الكتاب والسنّة![2] ولقد نهى النبيُّ عن تَعقُّب أقواله نهيًا صريحا، فقال صلى الله عليه وسلّم رادِعًا وزاجرا «دَعوني ما تركتُكم؛ إنما هلَك مَن كان قبلَكم بسُؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم؛ فإذا نَهَيتُكم عن شيءٍ فَاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فَأْتوا منه مَا اسْتطَعتُم![3]»

أما الأخبار التي ساقَها الموفَّق، فقد نهى أحمد بن حنبل عن تأويلها قال: «سِباب المسلم فُسوق وقتاله كفر» و«مَن قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدُهما» و«كَفرَ بالله مَن تبرّأ من نسب» ونحوُ هذه الأحاديث مما قد صحَّ وحُفِظَ؛ فإنّا نُسَلِّم له وإن لم نعلم تفسيرَه، ولا نتكلَّم فيه ولا نُجادِل

---

[1] جزء من حديث خرجه مسلم في الإمارة وابن ماجه وأحمد عن عبد الله بن عَمْرٍو.

[2] خرجه الطبري في تفسيره ج22-ص272.

[3] خرجه البخاري في الاعتصام ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

فيه ولا نفسِّر هذه الأحاديث إلا بمثل ما جاءت![1] فخالَفه الْمُوفَّق وأوَّلها وأخرَجها عن مُراد الله ورسوله. والله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ! فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً!﴾ [النساء 59] وما عدا هذا فباطلٌ كما بيّنه محمّد بن قيِّم الجَوزيّة بقوله:

هذا الموضع مما يغلط فيه كثيرٌ من الناس غَلَطًا قَبيحا؛ فإنّ الْمَقصودَ فَهْمُ مُرادِ الْمُتكلِّم بكلامه. فإذا قيل: معنى اللفظِ كذا وكذا؛ كان إخبارًا بالذي عَنَاه الْمُتَكلِّمُ. فإن لم يكن هذا الْخَبرُ مُطابقًا؛ كان كَذبًا على الْمُتكلِّم! فقول القائل: نَحملُه على كذا أو نتأوَّله بكذا، إنّما هو من باب دَفعِ دَلالَةِ اللّفظ على ما وُضِعَ له. فإنَّ مُنازِعَه لَمّا احتَجَّ عليه به ولَم يُمكنهُ دَفعُ وُرودِه، دَفَعَ مَعناهُ وقال: أَحملُه على خِلافِ ظاهِرِه![2]

لا يلجأ إلى التأويل إلا مَن عَجز عن دَفعِ لَفظِ النص لثبوت نَقله وتداوُله بين الناس، وإلا لكان إخفاؤُه أهونَ من تجشُّم التحريف ومن تَّعرُّضه لفضيحة دفع معناه والكشف عن سوء فهمه لكلام أفصح العرب، خاصَّةً وأن هذا لا يفوت مَن سلم من آفة التقليد. تحريفُ النص عن ظاهره حرامٌ قطعًا وتشبُّه ببني إسرائيل ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِه وَيَقُولُونَ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا! وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ! وَرَاعِنَا! لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا! وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا! لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ؛ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً!﴾ [النساء 42] أي أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفُرون ببعضه ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟! فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا! وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ! وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ!﴾ [البقرة 85]

إذا فهمتَ هذا، فاعلم أنّ قَول رسولِ الله «كفرٌ بالله؛ تَبرُّؤٌ من نَسَبٍ وإن دَقَّ» واضحٌ لا يحتاج إلى زيادةِ بيان، وهو من القرآن الذي نُسخَت قراءتُه وبقيَ حُكمُه. فقد بلغنا عن عمر بن

[1] من 'رسالة أصول السنّة' في ترجمة عبدوس بن مالك، 'طبقات الحنابلة' ج1-ص244.

[2] 'الصواعق الْمُرسَلة' ص31-32، المكتبة العصريّة، بيروت.

الخطاب أنه قال في أواخر حياته في إحدى خُطب الجمعة: كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن ﴿لاَ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَن تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ﴾ أو ﴿إِنّ كُفْرًا بِكُمْ أَن تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ!﴾[1] قالها في جَمٍّ غَفير من الصحابة و لم يُعترَض عليه. ذلك لأن للرَّحم حقًّا أوجبه الله تعالى على نفسه كما أخبر به النبيُّ قال «خَلَقَ الله الْخَلْقَ، فلمَّا فَرَغَ منه قامَت الرَّحِمُ فأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحمنِ، قالَت "هذا مَقامُ العائذِ بكَ مِن القَطيعَة!" قال "ألا تَرضَيْنَ أن أَصِلَ مَن وَصَلَك وأَقطَعَ مَن قَطَعَك؟" قالَت "بَلَى يا ربِّ" قال "فَهُو لَكِ!"»[2] ومن قطعه الرحمنُ انصرمت حبالُه، إلاّ أن يتوب إلى الله ويُجدّدَ إيمانَه ويصلَ ما أمر الله به أن يوصَل ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ!﴾ [المائدة 39]

وأمّا حديثُ «من قال لأخيه "يا كافرُ!" فقد باءَ بها أحدُهما» فإنّ الأُخوّة الواردة هنا تقضي بأنهما مسلمان؛ فإمّا أن يكون الْمَقول فيه مُنافقًا في حقيقة الأمر، فلا شيءَ على القائل لأنه أصاب الحقَّ، وإمّا أن يكون الْمَقول فيه مُسلِمًا فيكون القائل معارِضًا لله الذي هدى صاحبَه للإسلام، وقد بيَّن هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله «لا يرمي رجلٌ رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدَّت عليه إن لم يكن صاحبُه كذلك!»[3] لأنّ مُعارضة الله كفرٌ بلا خِلاف، وقد أخبرنا النبي أنّ «رجلا قال: واللهِ لا يغفر اللهُ لفُلان! وإن الله تعالى قال: مَن ذا الذي يتألّى علَيّ أن لا أغفر لفلان؟! فإنّي قد غفرتُ لفلان وأحبطتُ عملَك!»[4] والتألّي مَأخوذٌ مِن 'ألاَّ' وهو هنا قسَمٌ على إقصاء أحدِ عباد الله من رحمته تعالى، وهذا تعدٍّ سافرٌ يستَوجب إحباطَ عمل صاحبه، أي كُفرَه هو. وعلى مَن فعلَ هذا أن يتوب ويُجدّدَ إيمانَه.

---

[1] من حديث طويل خرجه البخاري في الحدود وابن حبان وأحمد عن ابن عباس عن عمر.

[2] خرجه البخاري في الأدب ومسلم وأحمد عن أبي هريرة.

[3] خرجه البخاري في الأدب ومسلم وأحمد عن أبي ذرٍّ الغفاري.

[4] خرجه مسلم في البر والصلة عن جندب بن عبد الله البَجلي.

وأمّا حديث «سبابُ الْمُسلِم فُسوقٌ، وقتالُه كُفرٌ» فقد رواه البخاريُّ في كتابِ الإيمان، تحت بابٍ هذه صورتُه: خَوفُ الْمُؤمِنِ مِن أن يَحبط عملُه وهو لا يَشعُر. وقال إبراهيمُ التَّيْمي "ما عرَضتُ قَولِي على عَملي إلاّ خَشيتُ أن أكون مُكذِّبا!" وقال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ "أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلُّهم يَخافُ النِّفاقَ على نفسه؛ ما منهم أحدٌ يقول أنّه على إيمان جبريلَ وميكائيلَ!" ويُذكَر عن الْحَسن "ما خافَه إلاّ مُؤمِنٌ، ولا أمِنَه إلا منافقٌ!" وما يُحذَرُ مِن الإصرار على النِّفاق والعِصيان من غير تَوبةٍ لقول الله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران 135] حدَّثنا مُحمدُ بنُ عَرعَرَةَ قال: حدّثنا شُعْبَةُ عن زُبَيد قال: سألتُ أبا وائلٍ عن الْمُرجِئَة، فقال: حدَّثني عَبدُ الله أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قال «سِبابُ الْمُسلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُه كُفْرٌ!» انتهى.

ما عقد البخاريُّ هذا البابَ إلاّ للردِّ على الْمُرجِئَة، كما بيَّنه ابن حَجَر، قال: هذا البابُ مَعقُودٌ للرَّدِّ على الْمُرجِئة خاصَّةً![1] وهذا ظاهر جَليّ، فلمّا سئل أبو وائل شَقيقُ بن سلَمةَ صاحبُ عبد الله بنِ مسعود عن الْمُرجئة روى هذا الحديثَ. فأراد البخاري إذَن أن يُبيّن بأنّ الْمُرجئة بالإضافة إلى فصلِهم الأعمالَ عن الإيمانِ، فهم يُرجِّحون الرجاءَ في الله على خَوفه تعالى، فجاء بما يخالفُ قولَهم مِن آثار السلف الصالِح، ثم ساق الحديث دليلاً على أنّهم على غير الجادَّة.

الرجاء لا يعني شيئًا إن لَم يسبقه الخوفُ والحذَر كما جاء في قول الله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا؛ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ! قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ؟!﴾ [الزمر 9] ذلك لأن العلم بالله يقتضي خشيَتَه تعالى كما هو واضح في قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ!﴾ [فاطر 28] والأدلّة على هذا كثيرةٌ جدًّا، منها قوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ: ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ!﴾ [البينة 8] وقال جلَّ وعلا ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ!﴾ [الرحمن 46] لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسَلّم «واللهِ ما أدري، وأنا

[1] 'فتح الباري' ج1-ص110.

رسولُ الله، ما يُفعل بي ولا بكم!»[1] وقال صلى الله عليه وسلّم «يا أُمّةَ محمد، والله لو تعلمون ما أعلمُ لَضحِكتم قليلا ولَبكَيتم كثيرا!»[2] وقال صلى الله عليه وسلم «أمَا والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له!»[3] فلا يكون الرجاء إلا إذا سبقَه الخَوف، ولا يصحُّ الخوف بلا رَجاء، وحاصلُهما: تَقوى الله تعالى حقَّ التَّقوى.

ليس يرجو اللهَ إلا خائــفٌ مَن رجا خافَ ومَن خاف رجا!
قلَّما يَنجو امرُؤٌ مِن فِــتنَةٍ عَجَباً مِمَّن نَجَا كَيفَ نَــجَا؟!

وأراد البُخاريّ أيضًا أن يبيِّن بحديث «سباب الْمُسلِم» أن العملَ من الإيمان. فالسبُّ من أعمال اللسان وهو مع ذلك فُسوق، والقتالُ من أعمال الجوارح وهو كُفر؛ حملَ الحديثَ على حقيقته بدون تأويل، وإلا ما استقام له دليلاً للردِّ على المرجئة. وعليه فمَن سَبَّ مُسلِما ظُلما فقد فَسقَ ومَن قتلَ مُسلِما ظُلما فقد كَفَر حَقيقةً وحبِطَ كلّ ما أسلَفه مِن عمل صالِح. والإحباطُ نتيجةٌ وسببُه الرِّدّة أو الكفر أو الشِّرك أو النفاق أو الفسوق.

ثبتَ عن أُسامةَ بنِ زيد أنه قال: بعثَنا رسول الله إلى الحُرَقَة مِن جُهَينة فصبَّحنا القومَ فهزَمناهم ولَحقتُ أنا ورَجلٌ من الأنصار رجُلا منهم، فلما غَشَيناه قال "لا إلهَ إلا الله!" فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنتُه برُمْحي حتى قتلتُه. فلما قدمنا، بلَغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال لي «يا أسامةُ، أقتلتَه بعد ما قال ’لا إله إلا الله‘؟!» قلتُ "يا رسولَ الله، إنما كان مُتعَوِّذًا!" قال «أقتلته بعد ما قال ’لا إله إلا الله‘؟!» قال أسامة: فما زال يُكرِّرها عليّ حتى تَمنَّيت أنّي لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم![4]

---

[1] خرجه البخاري في التعبير والنسائي في ’السنن الكبرى‘ عن أم العلاء.

[2] خرجه البخاري في الكسوف عن عائشة وخرجه عن أبي هريرة وأنس وكذا مسلم وغيرُهما.

[3] خرجه مسلم في الصيام ومالك وأحمد عن عمر بن أبي سَلَمةَ.

[4] خرجه البخاري في الديات ومسلم، وقولُه: مُتعوِّذًا أي عائذًا ومُحتميًا بها من القتل، ليس إلاّ.

حَيرةُ أسامةَ وحُزنُ النبي صلى الله عليه وسلّم يرجعان إلى قول الله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا؛ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ، خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا!!﴾ [النساء 93] اعلَم أوّلا أنّه لم يأتِ في القرآن وعيدٌ بمثل هذه الشِّدَّة، والمؤمن هنا مَن أظهر الإسلام كما قال رسول الله صلى الله عليه «لزَوال الدنيا أَهوَنُ عِند الله مِن قَتلِ رَجُلٍ مُسلم!»[1] فهذا لا يَدَع شُبهَةً في كُفرِ قاتِلِ الْمُسلِمِ ظُلمًا، وقد أكّده النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح «كلُّ ذنب عسى الله أن يغفره إلا مَن مات مُشركا، أو مؤمنٌ قتَل مؤمنًا مُتعمِّدا!»[2] أمّا توبةُ الْمُشرك فمَرْجوَّة جدًّا ويكفيه أن يَدخُل في الإسلام، وأما توبةُ القاتل ظُلمًا فإني لا أَعلَم لها وجهًا!

سُئل عبد الله بنُ عبّاس عن "رَجل، قَتل مؤمنًا مُتعمِّدا، ثم تابَ وآمَن وعمِل صالحًا ثمّ اهتَدَى" قال "وَيحَكَ، وأنَّى له الْهُدَى؟! سَمِعتُ نَبِيَّكُم يَقول «يَجيءُ الْمَقتولُ مُتَعَلِّقاً بالقاتِلِ فيقول "يا ربِّ، سَلْ هذا: فِيمَ قَتَلَنِي؟!"» والله، لقد أَنزَلَها الله عزّ وجلّ على نَبِيِّكم صلى الله عليه وسلّم وما نَسخَها بعدَ إذْ أنزلها!" وَيحك، وأنّى له الهُدى؟!"[3] ويشهدُ له ما بلغنا عن أنس قال: قَدِمَ على النبي صلى الله عليه وسلم نَفَرٌ مِن عُكَلٍ فأسلَموا. فَاجتَوَوا الْمَدِينَةَ، فأَمَرَهُم أن يَأتوا إبلَ الصَّدقةِ فيَشرَبوا من أبوالِها وأَلْبانِها، فَفعلوا فَصَحُّوا. فارتَدُّوا وقَتَلوا رُعاتَها واستاقُوا الإبلَ. فبَعَثَ في آثارهم فأُتيَ بهم، فَقَطَع أَيدِيَهم وأَرجُلَهم وسَمَل أَعيُنَهم، ثُمّ لم يَحسِمْهُم حتى ماتُوا![4]

فلَم يستَتِبْهم النبيُّ، بل حكمَ فيهم بأشنع القتلات لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا: أَن يُقَتَّلُوا أَوْ﴾ أي وَ ﴿يُصَلَّبُوا أَوْتُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ؛ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ!﴾ [المائدة 33] بعد موهم، فبيّن تعالى أنّه ليس حدًّا وأنّ تعدّيَهم على المسلمين ارتدادٌ وكفرٌ. ولو كان

---

[1] صحيح خرجه النسائي في تحريم الدّم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

[2] خرجه أبو داود في الفتن وابن حبان عن أبي الدَّرداء، ورواه النسائيُّ في الدم وأحمد عن معاوية.

[3] خرجه أحمد ح1941 والنسائي والترمذي عن سالم بن أبي الجَعْد عنه وصححه الأرناؤوط.

[4] خرجه البخاري في الْمُحاربين، ومسلم وغيره. قوله اجتَوَوا المدينة أي لم يوافقهم جوُّها.

قتلُهم حدًّا لَم ينَلْهم في الآخرة عذابٌ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم في وَصف الحدود الشرعية «مَن أصابَ من ذلك شيئًا فعُوقب به؛ فَهو كفّارتُه!»[1] ولا تلحَقُه في الآخرَة تَبعة.

وعليه فقول الله ﴿وَالَّذينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّه إلَهًا آخرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلكَ يَلْقَ أَثَامًا: يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقيَامَة وَيَخْلُدْ فيه مُهَانًا، إلاَّ مَن تَابَ...﴾ [الفرقان 68-70] فهذا الاستثناءُ ثابت لمن أشرك ولمن زنَى، أما من قتل مسلمًا مُتعمِّدًا فاستثناؤه منسوخٌ بقول الله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمنًا مُّتَعَمِّدًا؛ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالدًا فيهَا، وَغَضبَ اللَّهُ عَلَيْه، وَلَعَنَهُ...﴾ [النساء 93] وسورة النساء نزلت بعد الفرقان فهي ناسخة لها. وكذا قوله تعالى ﴿إنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفرُ أَن يُشْرَكَ به، وَيَغْفرُ مَا دُونَ ذَلكَ لمَن يَشَاءُ﴾ [النساء 48] فإنّها مُقيَّدة بالآية 93 من نفس السورة، فإنّها نزلت بعدها، لذا قال عبد الله بن مسعود عنها "إنها لَمُحكَمَة، وما تَزدادُ إلاّ شدَّةً!"[2] ثم لا حَجرَ على الله بعد ذلك فإنّه ﴿يَغْفرُ لمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ! وَللَّه مُلْكُ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا وَإلَيْه الْمَصيرُ!﴾ [المائدة 18] ﴿إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُريدُ!﴾ [المائدة 1] ﴿إنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ!﴾ [الحج 18]

فإن قيل: أليس في شريعتنا أن الله يغفر الذنوبَ جميعا؟ وأهلُ السنّة والجماعة، الذين يظهَر أنّك تنتمي إليهم، فإنهم لا يجعلون الكبيرةَ كُفرًا! قلتُ: هنا مسألتان: إحداهما أنّ الله يغفر الذنوب، وهذا حقّ، ولكنه لا يعني أنه تعالى يُعدمها. فما قضاه الله كائنٌ أبدًا ﴿إذَا قَضَى أَمْرًا فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ "كُنْ!" فَيَكُونُ!﴾ [مريم 35] ولا ينعدمُ. والأفعالُ التي قضاها على أيدي عباده مُخلوقةٌ كما يدل عليه قوله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات 96] أي وخلَق أعمالَكم؛ فكل ما تحقّق وجودُه من أعمال فإنّه يبقَى أبدًا. وحسناتُ العباد وسيِّئاتُهم أعمالٌ، فلا تَنعدم بعد حُدوثها.

---

[1] جزء من حديث خرجه البخاري في الحدود ومسلم.

[2] خرجه الطبري في تفسيره بسنده عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود، ج9-ص68.

ولكن قد يقع على الحسنات الإحباطُ، كما سبق قريبًا، فمَن كان مسلمًا ثم ارتدَّ ومات على الكُفر، أحبَط الله عملَه لقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ: فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ!﴾ [البقرة 217] ومعنى هذا أن أعيانَ أعمالهم باقيةٌ ولكن لا وزن لها. ويوضِّحه قول الله ﴿قُلْ: هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً؟! الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا! أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ؛ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا!﴾ [الكهف 103-105] وإقامةُ الوزن هي إعطاؤُه قيمةً، فلمَّا لَم يُقم الله لأعمالهم وزنًا فذلك يعني أن لا قيمَة لها، وذلك قولُه تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ؛ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا!﴾ [الفرقان 23] الهَباءُ هو تلك الأجرام الصغيرة التي يُظهِرُها شعاعُ الشمس عبرَ الكُوّة في البيت المظلم، فهي مَوجودة ولكنّها لا تزن شيئًا ولا قيمةَ لها. ويزيدنا بيانًا قولُ الله تبارك وتعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ: أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ؛ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ!﴾ [إبراهيم 18] فالأعيان موجودةٌ ولكنّ القَدْر والقيمة والوزْن مَفقودة. فما أحبَطه الله من الحسنات لا ينعدم ولكن يذهب أثرُه فلا تبقى له قيمة.

والسيئاتُ أيضًا كالحسنات لا تنعدم، ولكن يذهب أثرُها وإن بقيت أعيانُها موجودة، ويدلّ عليه قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم «اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأَتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِق الناسَ بِخُلُق حَسن!»[1] فالحسنة تَمحو السيِّئة أي تُخفيها ولكن لا تُعدمها. ومَحْوُ الشيء في اللغة هو إخفاءُ عينه حتى لا يُرَى، كما في قول الله ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ؛ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء 12] آية النهار هي الشَّمس وهي ظاهرةَ بمعنى مُظهِرة كما في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل 13] أي مُبيِّنةً مُوضحةً مُظهِرة. فالليل والنهار لا يغيِّران في وجود الأشياء شيئا، لكن في ضوء النهار يُرى كل شيء وفي الليل لا تُرى الأشياء بل تنمَحي، وكذا الشمس فهي ظاهرة طوالَ الشهر، إمّا عَينًا وإما أثرًا من وراء الغيم، بينما القمر يختفي في آخره فلا يُرى له أثر، ويُسمَّى ذلك الْمُحاق من الْمَحق كما في قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ

[1] خرجه الترمذي في البر والصلة وحسّنه والدارمي وأحمد عن أبي ذر.

الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ!﴾ [البقرة 276] يتَّضح من هذا أن أعيان الأعمالِ باقيةٌ، لكنّها قد لا تُرى وقد تتغيَّر قيمَتُها.

لا شكّ أنَّه سيتجلَّى لكلِّ واحد منّا يومَ القيامة كلُّ ما كان مِن أعمالِه بكل وُضوح، كما بيَّنه رسول الله بقوله «يُدْنَى الْمؤمنُ يومَ القِيامة مِن ربِّه عَزَّ وجلّ حتّى يَضَع عليه كَنَفَه، فيُقرِّرُه بذُنوبِه فَيقول "هَل تَعرِفُ؟" فيقول "أَي رَبِّ، أَعرِفُ!" قال "فإنِّي قَد سَتَرتُها عليك في الدُّنيا وإِنِّي أَغفرُها لك اليَومَ!" فيُعطَى صَحيفَةَ حَسَناته. وأما الكُفّارُ والْمُنافقون فيُنادَى بِهم على رُؤوسِ الخَلائِقِ "هَؤلاء الَّذين كَذَبُوا على الله!!"»[1] أُنظُر كيف كرَّر صلى الله عليه وسلم ذِكرَ المَغفرة بثلاث عبارات، والتي هي وَضْع الكَنَفِ والسَّتر والغُفران، والتي تعود كلُّها إلى عدم المُشاهدة مع بقاء العَين. فالذنوب إذن لا تنعدِم ولكن غاية ما هنالك أنَّها تُصيبُها المغفرة فتغيب عن الشُّهود، أو تفقد قيمتَها فلا يؤاخَذ صاحبُها عليها. ذلك بأنَّ ما سبق لَه أن كان ودخل في الوجود فإنّه لا ينعدِم بل كلُّ الأمور متصلةٌ بعضها ببعض، بحيث لا يكون ما سيكون إلا لكَون ما سبَقَه قد كان. وهذا مِن باب الأسباب والمسبَّبات، فما كانَ سببا لشيء لا يمكن أن ينعَدم وإلاَّ لانعدَم هو أيضًا، وحينَها لا يثبُت شيء في الوُجود في حينه فضلاً عن بعدَه.

إذا فهمتَ ما تقدَّم علِمتَ أنّ الأعمال، حسنَها وسيِّئها، باقِيَةٌ لا تنعدم. ثم اعلَم أنَّها على صِنفين؛ منها ما لا يطَّلِع عليه إلاّ الله الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، ومنها ما يطَّلِع عليه الخلقُ أيضًا. فما لم يعلمُه إلا الله فذاك الذي قد تنالُه المغفِرة كما في حديث الكَنَف وفي قول النبي «ومَن أصابَ مِن ذلك شيئًا فسَتَرَه اللهُ عليه» أي مِن الناس فلَم يرَوه فذاك «إن شاءَ غَفَرَ له وإن شاء عذَّبَه!»[2] وأما ما اطّلع عليه الناسُ فلا يُغتَفَر لأنّهم يشهَدون عليه في الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ!﴾ [غافر 51] حين يختصمون ويفضح بعضُهم بعضًا كما في قوله تعالى ﴿قَالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُوا: أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ! وَقَالَ الَّذينَ

[1] خرجه مسلم في التوبة وأحمد وابن ماجه عن عبد الله بن عمر.

[2] خرجه البخاري في الحدود ومسلم عن عُبادة بن الصامت.

اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا!﴾ [سبأ 32-33]

ثم اعلَم أن الله يَكرَه إعلانَ المعصية ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا! إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا!﴾ [النساء 148-149] فإنه تعالى يُحبُّ من عبده إبداءَ الخير لا الشَّر، وإن كان مَظلومًا، فبالأحرى أن يَكرَه تعالى المَعصيةَ المُجاهَرَ بها. لذا حذّرَ النبي من هَتْكِ الأستار فقال «كلُّ أمَّتي مُعافًى إلا الْمُجاهِرين! وإنّ مِن الْمُجاهَرة أن يَعمَل الرجلُ باللَّيل عَمَلا ثم يُصبِح وقَد سَتَرَه اللهُ عليه فيقول "يا فلانُ، عَملتُ البارِحَةَ كذا وكذا!" وقَد باتَ يَستُرُه ربُّه ويُصبِحُ يَكشِفُ سترَ الله عنه!»[1] فالجهر بالمعصية استخفافٌ بحق الله وظُلمٌ للناس بِنشر الشرّ بينهم، لذا كان سِترُ الله عبدَه مُلازمًا لستر العبدِ نفسَه. هذا في حق النفس، وكذلك مع الغير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن سَتَر مُسلما؛ سَتَرَه الله يومَ القيامة!»[2] فالسِّترُ مَطلوبٌ أبدا.

إن أذنبَ أحدٌ ذنبًا و لم يطَّلع عليه غيرُ الله، غفرَه تعالى له إن صحَّت التوبةُ بشروطها من إقلاع عن المعصية وعزْم على عدَم العَود وندَم وتضرُّع إليه تبارك وتعالى واستقامة. أما مَن ظلم أحدا من خلق الله فذاك تفتَقرُ توبتُه إلى شرطٍ زائد، وهو ردُّ المَظلمة إلى صاحبه أو تَمكينُه من نفسه ليقتصَّ حقَّه. وإلا فهو الْمُفلس حقًّا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم «أتدرون ما الْمُفلِس؟» قالوا "المفلس فينا مَن لا دِرهمَ له ولا متاعَ" فقال «إن المفلس مِن أُمّتي يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا وقَذف هذا وأكلَ مالَ هذا وسفَك دمَ هذا وضرب هذا؛ فيُعطَى هذا مِن حَسناته وهذا من حسناته، فإن فَنِيَت حسناتُه قبلَ أن يُقضَى ما عليه، أُخذ مِن خطاياهم فطُرِحَت عليه ثمّ طُرِح في النار!»[3] فلا يُغتَفر ظُلم أحدٍ مهما بلغَ، وقد جاءَ رجلٌ

[1] خرجه البخاري في الأدب ومسلم عن أبي هريرة.

[2] خرجه البخاري في الجنائز ومسلم عن عبد الله بن عمر.

[3] خرجه مسلم في البر والصلة والترمذي وأحمد وابن حبان عن أبي هريرة.

النبيَّ وهو يَخطُب على المنبر فقال "أرأيتَ إن قاتلتُ في سبيل الله صابِرًا مُحتسبًا غيرَ مُدْبرٍ، أَيُكَفِّرُ الله عنِّي سيِّئَاتِي؟" قال «نعم، إلاّ الدَّيْنَ!»[1]

قال رسول الله «لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة؛ حتى يُقادَ لِلشّاة الجَلْحاءِ مِن الشاةِ القَرناء!»[2] فما نطحَ كبشٌ أقرَن آخرَ لا قَرنَ له، إلا مُكِّن المَظلوم في الآخرة. وذلك لأن لا يَضيع حقُّ أحد من خَلق الله ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ: أَتَيْنَا بِهَا؛ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ!﴾ [الأنبياء 47] وقاتِلُ النفس وقاطِع الرَّحم والداعي بالكُفر، ظُلمُهم مُتعدٍّ إلى الغير في أمور ثلاثة قد عظَّمها الله، وهي النفس والرحم والدِّين، ليست ذنوبُهم من جنس المستورة فتُغتفَر. وخاصَّة قاتل النَّفس، فقد قال صلى الله عليه وسلَّم عنه «يَجيءُ الْمَقتولُ مُتَعَلِّقًا بالقاتِل فيقول: يا ربِّ، سَلْ هذا فِيمَ قَتَلَني!»[3]

قال الشيخ محيي الدين ابن العربي: انظر يا وليي في أغراضك النفسية إذا عرضت لك ما حكمُها في الشرع، فإذا حكم عليك الشرع بالفعل فافعله أو بالترك فاتركه. فإن غلب عليك بعد السؤال ومعرفتك بحكم الشرع فيه بالترك ولم تتركه واعتقدتَ أنك مخطئ في ذلك فأنت مأجور من وجوه؛ من بحثك وسؤالك عن حكم الشرع فيه قبل إمضائه ومن اعتقادك أوّلا في الشرع حتى سألت عن حكمه في ذلك الأمر ومن اعتقادك بعد العلم بأنه حرام يجب تركه ومن استنادك إلى أن الله غفور رحيم يعفو ويصفَح بطريق حُسن الظن بالله، ومن كونك لم تقصد انتهاكَ حُرمَة الله ومن كونك معتقدا لِسابق القضاء والقدر فيك، بإمضاء هذا الأمر كمسألة موسى مع آدم عليه السلام. فهذه وجوه كثيرة أنت مأجور من جهتها في عين معصيتك، وأنت مأثوم فيها من وجه واحد وهو عينُ إمضاءِ ذلك الأمر الذي هو هوَى نَفسك. وإن زاد إلى تلك الوجوه أنّك يسوؤُك ذلك الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم «المؤمن من سرته

---

[1] خرجه النسائي في الجهاد عن أبي هريرة وأحمد عن ا بن جحش والنعل الحِذاء.

[2] خرجه مسلم في البر والصلة والترمذي وابن حبان وأحمد عن أبي هريرة.

[3] خرجه أحمد ح1941 والنسائي والترمذي عن ابن عباس وصحّحه الأرناؤوط.

حسنته وساءته سيئته»[1] فبَخٍ على بَخٍ! وهذا كله إنما جَعله الله للمؤمن إرغاما للشيطان الذي يزيِّن للإنسان سوءَ عمله؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء فوعد الله بالمغفرة وهي السِّترُ الذي يجعله الله بين المؤمن العاصي وبين الكُفر الذي يُرْديه عند وُقوعِ المعصية فيعتقد أنّها معصية ولا يُبيح ما حرَّم الله، وذلك من بَركة ذلك السِّتر ثَمَّ، ثُمّ مغفرة أخرَى وهو ستر خَلف سترَين: سترٌ عليه في الدنيا لَم يَمضِ فيه حدُّ الله المشروع في تلك المعصية وإن سَتَر عليه في الآخرة لم يُعاقِبْه عليها. فالستر الأوَّل مُحقَّق في الوقت قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة 268] فهذه المغفرةُ لأمره بالفحشاء، والفضلُ لما وعدَ به الشيطان من الفقر في قوله تعالى ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ويَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ﴾ [البقرة 268] فأراح الله المؤمن حيث ناب عنه الحق سبحانه في مدافعة ما أراد الشيطان إمضاءَه في المؤمن، فدَفع الله عن عبده المؤمن وعدا إلَهياً دفعَ به وَعْدا شيطانيا، والله لا يُقاوَم ولا يُغالَب. فالمغفرة متحقِّقة والفضل مُتحقق، وباءَ الشيطانُ بالخُسران المبين. ولهذه الحقيقة أمرَنا الله أن نَتَّخذه وَكيلا في أمورنا، فيكون الحق هو الذي يتولَّى بنفسه دَفعَ مَضارِّ هذه الأمور عن المؤمنين، وما غرضُ الشيطانِ المعصيةُ لعينها وإنما غرَضُه أن يَعتادَ العبدُ طاعةَ الشَّيطان، فيَستَدْرِجَه حتى يَأمُرَه بالشِّرك الذي فيه شَقاوَةُ الأبَد. وذلك لا يَكون إلا برَفعِ السِّتر الاعتِصامي الحائل بين العبد والشِّرك والله تعالى يَقولُ الْحقَّ وهو يَهدي السّبيل.[2]

المسألة الأخرى: قولُك أن الكبيرةَ ليست كُفرًا عند أهل السنّة والجماعة. فهذا قولُك، أما هم فيقولون: لا نُكفِّرُ مسلمًا بكبيرة! والفارق بين العبارتين عظيم. فأهلُ السنّة والجماعة إنما هم أصحابُ الحديث، اتّخَذوا هذه التسمية أواخرَ القرن الثاني ليتَميَّزوا بها عن الْمُبتَدعة الذين ظَهروا في القرن الأوَّل كالخوارج والروافض والنواصب وما انبَثق عنهم من فِرَق ضالّة كالمُرجئة والمُعتَزلة وغيرهِم، يُؤكِّدون بذلك حِرصَهم على اتِّباع سنّة النبي المصطفى والأربعة الخلفاء وإجماعِ

---

[1] آخر جزء من حديث صحيح خرجه الترمذي في الفتن والحاكم وابن حبان وأحمد عن ابن عمر عن أبيه بلفظ «مَن سرَّته حسنتُه وساءَتْه سيئتُه فذلكم المؤمن».

[2] 'الفتوحات الكيّة' ج5-ص104، الكتب العلمية، بيروت.

الصحابة الحُنفاء بلا تأويل ولا تعطيل، مع لُزومِهم الجماعةَ، التي أوَّلُها آدمُ وآخرُها آخرُ مسلِم قبلَ قيام الساعة، والتي هي متمثِّلة في المُحافظين على الصلاة في مواقيتها حيث يُنادَى بها، كما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «ما مِن ثلاثة في قَرية فلا يُؤَذَّنُ ولا تُقام فيهم الصلواتُ إلاّ استحوَذ عليهم الشيطانُ! فعليك بالجماعة؛ فإنَّما يأكلُ الذئبُ القاصيَةَ!» قال ابنُ مهدي: قال السائب -هو ابن حُبيشٍ الكَلاَعِي، أحدُ رُواةِ الحديث- "يعني الجماعةَ في الصلاة!"[1] هؤلاء هم أهلُ السنة والجماعة وهم الفرقة الناجية، وأرجو أن أكونَ منهم بِمَنِّ الله تبارك وتعالى.

الذي عليه هؤلاء أنّ الكبيرةَ كُفر، لأنّ النبي سماها كُفرًا، ولكنّ صاحبَها لا يُسمَّى كافرًا ما لَم يستحِلَّها ويَستدِمْها، فإن فعلَ سُمِّيَ كافرا. لأن مَن لا يستحلُّ الكبيرةَ تُرجَى توبتُه لدوام اعترافِه بحُدود الله وإن انتَهَكها لضَعفه عند شَهوة أو لجهله عند شُبهة ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ فتظُنّوا أنكم كَفرتُم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ فيغفِر لكم إذا استَغفرتموه ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا!﴾ [النساء 27-28] لا يتمالَك نفسَه دائمًا.

ثم مَن اقتَرف إثماً مرّةً فإنه لا يصحُّ أن يوصَف به لمُجرَّد فِعله، كَمَن كذَب مرَّة فلا يصحُّ أن يسمَّى كاذبا، وإنّما نقول أنّه كذَبَ وكفَى. وهذه قاعدة عند أهل اللغة وهي عريقة في الشرع أيضا، أنّ اسمَ الفاعل لا يُطلَق إلا على مَن استدام الفعلَ أو تبنّاه واطمأنّ له. فلَو سُمِّيَ كلُّ مَن ارتكبَ مخالَفةً كافرًا لَعاقَه هذا عن التوبة، إمّا بأن تُضرَب رقبَتُه أو بأن يقنُطَ فيتمادى في كُفره. أمّا مَن أغرَق في الكبيرة، بل ومَن أدمَن على الصغيرة واستهانَ بها فقد بان استهزاؤه بحدود الله. وإن كان متمسِّكا ببعض الشعائر، فإنّ ذلك لا يمنع مِن تسميته كافراً كما قال الله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ: الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ!﴾ [المطفّفين 1-5] الويل وعيدٌ يخصُّ الكفار، ومع أنّه تعالى سمّاه تطفيفًا تقليلاً له، إلا أنّ تكرارَه جعلَه كُفرا.

لا يخفى أن الناس يأتون كبائر كثيرةً ثم يتوبون منها كثيرًا. فلَو أطلِق الكُفرُ على كل مَن ارتَكب كبيرةً لَخرَج الناس جميعًا من دين الله بلا رَجعة. ودليل هذا قولُ رسول الله صلى الله

[1] خرجه أحمد ح27554 وأبو داود والنسائي عن أبي الدرداء، وحسّنه الأرناؤوط.

عليه وسلم في حَجّة الوداع لِمَن كانوا معه، وكانوا كثيرين جدًّا «لا ترجعوا بعدي كُفّارا؛ يَضرِب بَعضُكم رِقابَ بَعض!»[1] فحذَّرهم مِن أن يعودوا في الكُفر وبيَّن أنّ ذلك قتالُ بعضِهم بعضًا، والله يقول ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا!﴾ فسمّاهم تعالى مُؤمنِين، ولكن في حينِ ابتداء القتال بينهم، فإن تمادَوا وجب الفصلُ بينهم بالعَدل بمُساندة المُحقّين ضدَّ المُبطلين وهو قولُه تعالى بعدها ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى؛ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي؛ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ!﴾ [الحجرات 9] لأنّها طَغت وأَبَت الصُّلحَ الذي أمر به الله على يد رسوله، وذلك منها إصرارٌ على الكُفر الخَفّي الذي جرَّ إلى المُقاتلة أوّلاً وإعلانٌ له سافرٌ وهو مُحادّة لله ورسوله، فوَجب على المسلمين التَّحالُفُ لقتَالها. لذا سمى رسولُ الله مَن فعلوا ذلك كُفّارًا، مُحِّذرا إيّاهم من الوقوع في الفتنة رأسًا، وإن هم وقعوا، وقد وَقَعوا، من التمادي فيها والإغراق في المقاتلة لأن ذلك كفرٌ بَواح.

هذا وقد بلغنا عن رسول الله من وجوه لا تدَع ريبًا أنّ مَن أتى كبيرةً فقد كفرَ فيما بينه وبين الله، بمُجرَّد ارتكابها، وأنه لو مات كذلك لَمات على الكُفر. ولكنَّه مع ذلك لا يُسمَّى كافرًا ما دام مُظهِرا لشعائر الدين، فقد سألَ رجل جابرَ بن عبد الله الأنصاري "هل كنتم تدْعون أحدا مِن أهل القبلة مُشرِكا؟" قال "مَعاذَ الله!" ففزِع السائلُ لذلك قال "هل كنتم تدْعون أحدا منكم كافرا؟" قال "لا!"[2] وإن كانوا قد حصل بينهم الاقتتالُ ووقعوا فيما حذّرهم النبيُّ منه، ذلك لقول الله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ؛ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا!﴾ [النساء 31]

قال رسول الله «اجتَنبوا السَّبعَ الْمُوبِقات!» قالوا "يا رسول الله وما هُنّ؟" قال «الشِّرك بالله والسِّحر وقتلُ النفس التي حرّم الله إلا بالحق وأَكْل الرِّبا وأكلُ مالِ اليتيم والتَّولِّي يومَ الزَّحْف

---

[1] خرجه البخاري في الديات عن جرير ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة.

[2] رواه أبو يعلى رقم 2317 عن أبي سفيان وصححه حسين أسد، دار المأمون، دمشق.

وقَذْف الْمُحصَنات المؤمنات الغافلات!»[1] الموبقَة هي الذنب المُهلِك كما في قوله عليه السلام «كلُّ الناس يَغدو فبايعٌ نفسَه؛ فمُعتِقُها أو مُوبِقُها!»[2]

ومن الكبائر مثلاً الربا، وهو أن تُسلفَ أحدًا شيئًا وترجو بذلك ربحا دُنيويًّا؛ هذا هو الرِبا. فإمّا أن تسلِّف لوجه الله بغير مُقابِل فتكون من المُحسنين، وإمّا أن تبيعَ وإمّا أن تُؤجِّر فتقبِض على استعمال ما تُعطي لِمدَّة. فالأمر كما ترى واسع، ولكنّ الناس ضَيَّقوا على أنفُسهم حتى كاد يكون التعامل بالنقود ربًا كلَّه لما صار إليه العالَم مِن هيمنة أصحاب الأموال. ثم ليس الربا في النقود والطُّعوم فقط وليست علَّته 'النّقْدية والطَّعمِيّة' كما يقال، بل كلُّ سلَف يَجلِبُ فائدةً دُنيويّة، أياًّ كان نوعُها، فهو رباً.

إلى مثل هذا يشير ما بلغنا عن أنَس بن مالك، فإنه قال لأهل القرن الثاني "إنكم لتعملون أعمالا هي أدقُّ في أعيُنكم من الشَّعر؛ إنْ كنا لَنعدُّها على عَهد النبي صلى الله عليه وسلم مِن الْمُوبِقات!"[3] فكَم كانوا حَريصين على دينهم لا يتلاعبون به!

قال البيهقي: رُوِّينا عن فُضالة بن عُبيد أنه قال "كلُّ قَرْض جرَّ مَنفَعَةً فهو وَجهٌ مِن وُجوه الربا!" وروّينا عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن سلام وغيرِهم في معناه، وروي عن عمر وأَبَيِّ بنِ كعب -ثم ساق بسند صحيح- عن نافع أنه سمع عبد الله بن عمر يقول "مَن أسلَف سَلَفاً فلا يشترط إلا قضاءَه!"[4] ذلك لأن ما زاد عليه فهو ربا. ولكن قد فشا هذا بصورة مُريعة جدًّا والناسُ لا يُلقون إليه بالا.

---

[1] خرجه البخاري في الوصايا ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة.

[2] من حديثٍ خرجه مسلم في الطهارة والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي مالك الأشعري.

[3] خرجه البخاري في الرقاق والدارمي وأحمد.

[4] 'السنن الصغير' كتاب البيوع باب القرض رقم 1549 ورواه مالك في الموطّأ والدارقُطني.

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «الصلاة الخمسُ، والجمُعة إلى الجمعة كفّارة لِما بينهُنّ، ما لم تُغْشَ الكَبائر»[1] لأنّ الذنوب الكبائر لا تُذْهبها الكفّارات، بل لا بدَّ لها من توبة نَصوح، وكما قال عبد القادر الجيلاني "التوبة: قَلبُ دَولة!" وقد ذكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم مرّةً الكبائرَ فقال «الإشراكُ بالله وعقوقُ الوالدين وقتلُ النفس» وكان مُتّكئاً فجلس فقال «ألا وقَولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّور! ألا وقولُ الزور وشهادة الزور!» فما زال يقولها حتى قالوا "لا يسكُت!"[2] فالمشرك كافرٌ بلا خِلاف، وكذا قاتلُ النفس والعاقّ، كما مرَّ بيانُه آنفًا، وكذلك شاهِد الزور، وخاصّة مَن يتلفّظ بالشهادتين مع تركه لشعائر الدين وعلى رأسها الصلاة.

فالكبيرة كُفرٌ، وهو ما نصَّ عليه البخاري في الباب المذكور آنفًا حيث قال: خَوفُ الْمُؤمِن من أن يَحبط عملُه وهو لا يَشعُر، أي أنّه يقترفُ كبيرةً فيكفُر بها دون أن يعلَم، ونقَل عن ابن أبي مُلَيكة قولَه "أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي، كلُّهم يَخافُ النِّفاقَ على نفسه!" هذا لعلمهم بأن الإسلامَ تسليم لله ولِرسوله مع كلِّ نَفَس، وأنه حالٌ من الإذعان والسَّمْع والطاعة، وأنّه بيعَةٌ تتجدَّدُ في كل آن وحين، وقد تنتَقِض بغفلَة. فدينُ الْمَرء مُعرَّضٌ للذَّهاب في أيّة لَحظة بمُخالَفة واحدة كفعلِ كبيرة أو ترك شعيرة. الدّنيا مملوءة بالمَخاطر والعاقل من أخذَ حذرَه فيها، قالت أمُّ سلَمة: ما خرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من بيتي قَطُّ إلا رَفعَ طَرْفَه إلى السماء فقال «بسم الله، رَبِّ أَعوذُ بك أَن أَضِلَّ أو أُضِلَّ أو أَزِلَّ أو أُزِلَّ أو أَظلِمَ أو أُظلَم أو أَجهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ!»[3] فالمُسلِم حقيقةً هو مَن دامَ وَجلُه من أن يَزلّ أو يضِلّ، يَحذَرُ أعداءً قد أحكَموا مُحاصَرتَه ونصبوا له كمائنَ لا تُحصى.

إنّي بُليتُ بأَربَعٍ، ما سُلِّطـــوا   إلاّ لأَجْل شَـــقاوَتي وعَـــنائي:

---

[1] خرجه مسلم في الطهارة وهم والترمذي عن أبي بكرَةَ، ورووه هم والنسائي عن أنس.

[1] خرجه وأبو داود في الأدب والنسائي والترمذي وابن ماجه والترمذي عن أبي هريرة.

[2] خرجه البخاري في الأدب ومسلم والترمذي عن أبي بكرَةَ، ورووه هم والنسائي عن أنس.

[3] خرجه وأبو داود في الأدب وباقي الأربعة وأحمد، وهو حسن وضعّفه الأرناؤوط.

إبليسُ والدُّنيا والخَلقُ والْهَوَى؛   كيف الخَلاصُ وكلُّهم أعدائي؟!

كيف يهنَأ بالدنيا مَن علِم أنّها تنتهي بِموتِه وأنَّ مصيرَه إما إلى نَعيم مُقيم أو عذاب أليم. وصدق من قال "طريقُ الجنة حَزَنٌ برَبْوَة، وطريقُ النار سَهْلٌ بِسَهْوة!" فالجَنَّة خَفيَّة، كما يدلُّ عليها اسمُها، وهي عالية وطريقُها وَعرَةٌ ضيِّقة وعليها عقباتٌ لا تُحصَى. والنار ظاهرة، كما يدلّ عليها اسمُها، وطريقُها سهلةٌ رَحْبة مُنحدِرة تَنصبُّ فيها. من هنا قال الحسن البصري "ليسَ العَجبُ ممّن عَطب كَيْفَ عطَب، إنما العجبُ ممن نَجا كَيْفَ نجا؟!" فالأحمق مَن عمِل للدُّنيا وأمِن أهلَها والكيِّسُ مَن اغتَنم الدُّنيا لِعمارة آخرتِه واجتَهد في خلاص نفسه فخاف اللهَ ورَجا.

كيف يَلــتَذُّ بالْحياة لَــبيبٌ   فَــوَّقَتْ نَحوَه الْمَنــيَّةُ أَسْهُمْ؟!
ليس يَدري متى يُــفاجيه منها   صائبٌ يَقصِفُ الظُّهورَ ويَقْصِمْ
فإذا ما انقَضت سنوكَ ووَلَّت   فَصَلَ الحاكِمُ القضاءَ فأَبْــرَمْ
ما لِغُصْني ذَوَى وكان نَــظيرًا   ولِظَهري انْحَنَى وكان مُــقوَّمْ
ولِدَهري أدالَ شَــرْخَ شَــبابي   بِمَشيبٍ عند الحِسان مُــذَمَّم
فأنا اليومَ عن هَــواهُنَّ سالٍ   وقَديما بِــهِنَّ كُــنتُ مُتَــيَّمْ
نَحن في مَنزل الــفَناء ولكن   هو بابٌ إلى البَــقاء وسُــلَّم
ورحَى الْمَــوْتِ تَستَديرُ علينا   أبدًا تَطحَن الْجَميعَ وتَــهْشِم
وأنا مُــوقِنٌ بــذاك عَــليم   وفَــعالي فَعالُ مَن ليس يَعلَمْ
وكذا أَمْــتَطي الْهُــوَيْنا إلى أن   أُتَــوَفَّى فــعندَ ذلك أَنــدَم
فَــعسى مَن له أُعَــفِّرُ وَجهي   سَــيَرى فاقَتِي إليه فَــيَرحَمْ
وإلَــيه ضَراعَــتِي وابْــتِهالي   في مُــعافاة شَيبَتِي من جَهنَّم
فــشَفيعي إليه حُسْنُ ظُنوني   ورَجائي له وأنِّــي مُــسْلِمْ

ما دام لا أحدَ يسلَم من الخطأ والخطيئة، فلا بدَّ للعبد من أن يزِلّ ويَكبو وأن تتقلَّب حالُه في اليوم الواحد مرّات عديدة. هذه هي الحقيقة، ولا يُنكِرُها إلا مُنافِق كما أشار إلى ذلك أبو

القاسم الجُنَيد بقوله "الصادقُ يتقلَّب في اليوم أربعين مرّة، والْمُرائي يثبُت على حالة واحدة أربعين سنة!"[1] ومِصداقُه قولُ رسول الله «واللهِ إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرة!»[2] فكان صلى الله عليه وسلم يُجدِّد إسلامَ وجهِه لله في اليوم الواحد سبعين مرّة لقوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ: أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ، إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ! وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ!﴾ [هود 1-3] أي كرِّروا الرُّجوعَ إليه والتوبةَ بين يدَيه والاستغفارَ منه دَومًا ولا تَملُّوا فتقعوا في الكُفر.

قال أبو الفضل أحمد بن عطاء الله السَّكَندَري في مُراسلة لبعض إخوانه: عليك بتجديد التَّوبة ولو عُدتَ في اليوم سبعين مرَّة. فالتَّوبة عينُ كلِّ رُتبَة ومَقام، أوّله وآخره، باطنه وظاهره. لا مزيَّة لِمن فقَدها، ولا فقْدَ لِمَن وجدَها؛ مِفتاحُ كل خَير ظاهرٍ وباطنٍ، روحُ الْمقامات وسببُ الوَلايات. ولوِ استْوَت توبَةُ القُطب والصّالح لاستْواء مَقامهما لم يرتَفع عنه رفيعُ المقام لِرفعة شأنه ولعَظيم إيقانه. لَم يَجعَل الحقُّ سبحانَه وتعالى رُتبةً دونَها، إلاّ الظُّلمَ فقال سُبحانه وتعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ؛ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ!﴾ [الحجرات 11] فالتوبة مَطلوبَة مِن كُلّ رسولٍ ونبيّ وصِدّيقٍ ووَلِيّ وبارٍّ تَقيّ وفاجرٍ غَويّ وكافرٍ شَقيّ. وتَجدُ ذلك في كتابِ اللهِ تعالى، قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء 1] فتَقواه بالتَّوبةِ إليْه والندَم بين يدَيه. فأهلُ الشُّرورِ تَوبتُهم بالخُروجِ من شرورِهم، وأهلُ الخُيورِ توبتُهم بعدَم الوُقوف مع خُيورِهم، وِرداً كانتْ أو وارِدا، كِلاهُما مع عَدم الوُقوف معهُما واحِد ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ؛ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج 78] وإنّ مِن مِلّة إبراهيمَ عَدَمَ الوُقوفِ مع الفانِيات والانقِطاعَ عن نظَرِ الكائِنات؛ قالَ الله سُبحانَه وتعالى مُخْبِراً عنه ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ!﴾ [الأنعام76][3]

---

[1] خرجه القُشيري بسنَده ’الرسالة القشيريّة‘ ص246، الكتب العلمية.

[2] خرجه البخاري في الدعوات وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

[3] مُلحَق بالحكم العطائيَّة، ص91، طبعة الكيالي، دار الكتب العلمية.

فالتَّوبة مطلوبةٌ أبدًا لأنَّها في الحقيقة رجوع إلى الله وإلى الإسلام من جديد، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ!﴾ [آل عمران 102] أي احذَروا أن يأتيَكم الموتُ وأنتم مُقيمون على مَعصية الله ولَم تتوبوا منها فتُقبَض أرواحُكم على الكفر. ثم بعدما أمرنا بالاعتصام بحبله تعالى وبالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر، بيَّن ما يوجب الكُفرَ قال ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ؛ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ! فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ؛ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟! فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ!﴾ [آل عمران 105-106] واضحٌ أن التَّفرُّق والاختلافَ هما الكُفر بعينه هنا وإن ظنَّ جمعٌ من العلماء أنّهما رحمة.

فإن قيل أن ذلك ليس كفرا ولكنَّ غاية ما فيه أنَّه فسوق، قلنا: نعم، وهو كذلك والله تعالى يقول ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة 84] والفسوق نوع من الكُفر كالعصيان، والعصيان ضَلال ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا!﴾ [الأحزاب 36] أي بيِّنا ظاهرًا لا غُموض فيه ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ!﴾ [النساء 14] والعذاب المهين في القرآن خاصٌّ بالكفار بدليل تخليده في النار هنا، ويؤكِّدُه قولُه تعالى ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ؛ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا!﴾ [الجن 23] أي أنَّ مَن كان طوالَ حياته عاصيًا لله فهو كافر، وذلك قول النبي «يُبعَث كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه!»[1] فإن مات على المعصية بُعث عاصيًا.

وعليه فمَعنى قول النبي صلى الله عليه وسلّم «شَفاعَتِي لأَهلِ الكَبائِر من أُمّتِي»[2] أنه يشفَع للذين اقتَرفوا السيِّئات ثم تابوا من بعد ذلك واستَغفَروا، فقد رجَعوا إلى الإسلام وماتوا عليه فعسى الله أن يتوب عليهم ويرحَمهم ويُشفِّعَ فيهم حبيبَه المصطفى الشفيع المشفَّع صلى الله عليه وسلَّم، وأولئك الذين يُرجى لَهم النجاة يوم القيامة وإلا فلا. لذا قال الله تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا

[1] خرجه مسلم في الجنة وابن حبان والحاكم عن جابر بن عبد الله.

[2] خرجه أبو داود في السنّة وأحمد عن أنس بن مالك.

أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ!﴾ [النور 31] فلَم يستَثنِ رسولاً ولا نبيّا ولا صدِّيقًا ولا وليًّا ولا صالحا ولا برًّا ولا فاجرًا ولا عاصيًا ولا فاسقًا ولا مُشرِكا، فكلُّ أولئك يشمَلُهم اسمُ الإيمان لعموم الآية كما يدلُّ عليه قول ربِّنا ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف 106] فشهد تعالى للمُشركين بشيء من الإيمان وإن كانوا مُشركين، وليس لنا أن نعتَرض عليه تعالى في شيء فالأمر كلُّ له سبحانَه وتعالى ﴿قُلْ: أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلْ: اللَّهُ!﴾ [الأنعام 19] فما دام الله قد شهِد للمشركين بالإيمان مع شِركهم فما لنا لا نشهَد معه سبحانه وتعالى على ذلك، أوليس الكلُّ عبادُه؟! ﴿قُلْ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ؛ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا!﴾ [الإسراء 96] فالحاصل أن الخَلقَ كلَّهم مُطالَبون بالتَّوبة، كلاًّ على حسب مقامِه وقُربه من الله سبحانَه وتعالى.

فليحذَر العبد المعصيةَ، وإن وقع فيها، ولا بدَّ أن يقع فيها، فليُسارِع إلى التوبة لتَوِّه. وذلك قوله لآكلي الرِّبا وللناس جميعًا ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ! وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ؛ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ! وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ –وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ؟! وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ!﴾ [آل عمران 132-136] وقال جلّ وعلا في الشِّرْك وقَتْلِ النفس التي حرَّم الله والزّنا ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا؛ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا! إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ؛ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا! وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا!﴾ [الفرقان 68-71] فالتوبة إقلاع وندم وعمل صالح يأتي بع العبدُ بدلَ سيئاته، وكما يبدِّل الله تعالى سيِّئات عباده في الدنيا حسناتٍ بتوفيقهم إلى التوبة والعمل الصلِح، فكذلك يوم القيامة يبدِّل سيِّئاتهم حسنات. وذلك ما بلغنا عن أبي ذرٍّ الغِفاري قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «إنّي لأعلم آخرَ أهلِ الجنة دُخولاً الجنَّةَ وآخرَ

أهل النار خروجًا منها: رَجلٌ يُؤتَى به يومَ القيامة فيقال "اعرِضُوا عليه صِغارَ ذنوبه وارفَعوا عنه كِبارَها!" فيُعْرضُ عليه صغارُها فيقال له "عملْتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا! وعملَت يومَ كذا وكذا، كذا وكذا! " فيقول "نعم" لا يستطيعُ أن يُنكرَ وهو مُشفقٌ من كِبار ذنوبه أن تُعرضَ عليه، فيقال له "فإنَّ لك مَكانَ كلِّ سيئة حسنة!" فيقول "ربِّ، قد عملْتُ أشياءَ لا أراها هاهنا!"» قال أبو ذرّ: فلقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ضَحِكَ حتى بدَت نَواجذُه.[1]

فارجُ، يا أخي هذه الرَّحمة، واحرِصْ على التَّوبة ولا تموتنَّ إلا وأنت مسلم.

يا ربِّ، إنْ عَظُمت ذُنوبي كَثْرةً فلقد عَلمتُ بأنَّ عَــفْوَك أعْظَمُ
إن كان لا يَــرْجوك إلا مُحْسنٌ فَبِمن يَلوذ ويستجير الْمُجْــرِمُ؟!
أدْعُوك ربِّ، كما أَمرتَ تَضرُّعاً فإذا رَدَدْتَ يدي فمَن ذا يَرْحم؟!
ما لي إليك وَسِــيلةٌ إلا الــرَّجا وجَــميلُ عَــفْوِك ثُمّ أنّي مُسْلمُ

قال رسول الله «بادِروا بالأعمال فِتَناً كقِطع الليل الُمظلم! يُصبِح الرجل مؤمنا ويُمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا؛ يبيع دينَه بعَرَضٍ من الدنيا!»[2] أي أكثِروا من الأعمال الصالحة قبل حلول ابتلاءات تطغى معها الدنيا وأهلُها ويخفَى عندها الحقُّ، فيقعَ الناس في الكفر وهم لا يشعرون. وعن أبي الدرداء قال: كان عبد الله بن رَواحة يقول "إنّ مَثَل الإيمان مثلُ قَميصك! بينما أنت وَقَدْ نَزَعتَه إذ لَبِستَه، وبينما أنت قَد لَبِستَه إذ نَزَعته!"[3] يعني أن العبد يؤمن ثمَّ يُسلَب الإيمانَ فيَكفرُ، ثم إذا وفّقه الله رجع إلى الإيمان من جديد. وإنما هذا بفعل العبد لا بنيَّته، وإلا فإنّه لا يُتصوَّر من عاقل أن يقول لنفسه "تعالَيْ نكفُرْ قليلا!" ولكنّ العبدَ يفعَل مَعصيةً مَّا فيَذهَب معها إيمانُه، فإن هو أقلَع ورجع وتاب عاد في الإسلام من جديد.

---

[1] خرجه مسلم في الإيمان والترمذي وابن حبّان وأحمد وأبو عوانة.

[2] خرجه مسلم في الإيمان والترمذي وأحمد عن أبي هريرة والترمذي عن أنس وابن ماجه عن أبي أُمامة.

[3] خرجه الطبري في 'تهذيب الآثار' رقم 2639 بسند صحيح وفيه يحيى بن صالح الوُحاظي، روى عنه الستّة إلا النسائي، وهو من شيوخ البخاري وقد روى عنه في الصحيح بلا واسطة.

وكما أن العبد يخرُج من الكفر إلى الإيمان فكذلك يخرج من الإيمان إلى الكفر، وكما أن الإيمان يزيد وينقُص فالكُفرُ يزيد وينقُص، وقول الله في هذا واضح ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا؛ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً!﴾ [النساء 137] فالمسلِم إذا نقص إيمانُه حتى يجرُؤَ على اقتراف كبائر المَعاصي؛ وقعَ في الكُفر، بدليل قول النبي «لا يَزني الزاني حين يزني وهو مُؤمن، ولا يسرِق حين يَسرق وهو مُؤمن، ولا يَشرَبُ الْخَمرَ حين يشربُها وهو مُؤمِنٌ؛ والتَّوبَةُ مَعروضَةٌ بَعدُ!»[1] قال عِكرِمة: قلتُ لابن عباس "كيف يُترَعُ الإيمانُ منه؟" قال "هكذا!" وشَبَّك بين أصابعه ثم أخرَجَها "فإن تابَ، عادَ إليه؛ هَكذا!" وشبَّك بين أصابعه.[2] ويؤكِّدُه ما جاء في رواية أخرى «إذا زنَى الرجلُ خرجَ منه الإيمانُ؛ كان عليه كالظُّـــلّة، فإذا أقلَع رَجَع إليه الإيمان.»[3] والظلَّة هي السحابة، شبَّهها به ليبيِّن حقيقةَ انتفاء الإيمان عن صاحب الكبيرة.

لا يُعارض هذا ما بلغنا عن أبي ذرّ الغِفاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتاني آتٍ مِن ربي فأخبرني أنه مَن مات مِن أمَّتي لا يشركُ بالله شيئا دَخل الجنة. قلتُ: وإن زنَى وإن سرَق؟ قال: وإن زنى وإن سرق!»[4] أي مَن فعل ذلك في حياته من قبلُ، ثمّ تابَ وتَحقَّق بالإخلاص ومات عليه أخيرًا، وهو قوله في الحديث قبلَه «التَّوبَةُ مَعروضَةٌ بَعدُ!» لتشمَل كلَّ أنواع الكُفر، وذاك قولُ الله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ! وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ! وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ! أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ؟! وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ!﴾ [المائدة 73-74] فدعاهم إلى الإيمان من جديد بالتوبة ممّا قالوا. وهو بالضبط معنى قوله تعالى ﴿قُلْ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ، لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ

---

[1] خرجه مسلم في الإيمان والبخاري عن أبي هريرة، وله شواهد عن عائشة وابن عباس وابن عمر...

[2] خرجه البخاري في الحدود، وعِكرِمة تابعي مشهور كان ملازمًا لعبد الله بن عباس.

[3] خرجه وأبو داود في السنّة والترمذي في الإيمان معلّقًا عن أبي هريرة.

[4] خرجه البخاري في الجنائز ومسلم والترمذي وأحمد عن أبي ذرٍّ الغِفاري.

اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ! وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ! وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ!﴾ ومن قبلِ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ: يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ! وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ!﴾ [الزمر 53-56] فالله لا يفتأُ يدعو عبادَه الذين كفروا بعد إيمانهم ليرجعوا إلى الدين من جديد، والذين لَم يؤمنوا قطّ ليدخُلوا في الدين، وإلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ؛ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ! خَالِدِينَ فِيهَا؛ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ!﴾ [البقرة 161-162]

هكذا يجب فهمُ ما بلغنا عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بايِعوني على أن: لا تُشركوا بالله شيئًا ولا تَسرقوا ولا تَزْنوا ولا تَقتُلوا أولادَكم ولا تأتوا ببُهتان تَفتَرونه بينَ أيديكم وأرجلِكم ولا تَعصُوا في مَعروف! فمن وَفَّى منكم فأجرُه على الله، ومَن أصابَ من ذلك شيئًا فعُوقِبَ في الدنيا فهو كفّارةٌ له، ومَن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستَرَه الله فهو إلى الله؛ إن شاء عفَا عنه وإن شاء عاقَبه!» قال: فبايعناه على ذلك.[1] معنى الحديث أن مَن اجتَرح شيئًا من هذه الكبائر التي ذكرها النبي، فأُقيم عليه الحدُّ فعُوقب فقد خرج من ذنبه وعاد إلى الإسلام من جديد، ولكن بشرط أن يُحدثَ توبةً مع الحدِّ الذي يُقام عليه، فيندَم على ما صنع ويستغفرِ الله ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ؛ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا!﴾ [النساء 110] وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إنّ التوبةَ من الذَّنب؛ الندَمُ والاستغفارُ!»[2] حينها يرجع العبد إلى ما كان عليه من إيمان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «التائبُ من الذَّنب كمَن لا ذنبَ له»[3] وإلا فلن يكونَ الحدُّ كفّارةً له. وأمّا مَن أصاب كبيرةً فلَم يره أحدٌ من الناس، فأمرُه

---

[1] خرجه البخاري في الإيمان ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد.

[2] خرجه أحمد ح26322 والبيهقي في 'شعب الإيمان' عن عائشة وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

[3] حسن خرّجه ابن ماجه في الزهد ورواه الطبراني في 'الكبير' عن عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، 'المجمع' ح17526.

إلى الله ولا علاقةَ لذلك بكونه من المسلمين أو من غيرهم كما يدلّ عليه قوله تعالى في الكُفار ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ!﴾ [آل عمران 127-128] وجاءت جملةُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معترضةً لنعلَم أن الأمرَ لله من قبلُ ومن بعد، ومن ذلك قولُه تعالى في المنافقين ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا!﴾ [الأحزاب 24] فتلك مشيئة الله ورحمتُه تعالى يُدخِل فيها مَن يشاء ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ!﴾ [الأنبياء 23]

فالكلُّ عبادُ الله وكلٌّ مُعرَّض لمغفرته تعالى ولعقابه، فمَن مات على معصية وهو مُصرٌّ عليها ولَم يتب منها مات على الكفر والعياذ بالله. وما هذا بقول الخوارج الذين يكفّرون الأعيانَ بالكبيرة، بل الذي نقوله هو أنّ الكبيرةَ كُفرٌ وأن صاحبها كافرٌ بارتكابها، فيما بينَه وبين ربِّه، ولكن ليس للناس أن يُسمّوه كافرًا ما دام مُظهرًا للإسلام، فإنَّهم لا يعلَمون خفيَّ أمره وما تنطوي عليه الحوادث. فقد يكون صاحبُ الكبيرة مضطَرًّا أو مُكرَها والله تعالى يقول ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ!﴾ [الأنعام 119] فذاك لا لَومَ عليه، بل ولا حرجَ على مَن أُجبِر على الكُفر في أن ينطق به للضرورة كما بيّنه الله لنا بقوله ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّه مِن بَعْدِ إِيمَانه، إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ، وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا؛ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ!﴾ [النحل 106] ومعنى الآية أن كلّ مَن كان مؤمنًا بالله ثم ارتدَّ وكفرَ وهان عليه كفرُه وطاب له فقد غَضِب عليه الله وله عذاب عظيم، ولكن لا حرجَ على من أُجبِر بالقوّة على الكفر ما دام قلبُه مطمئناً بالإيمان. ومَن اقتَرف كبيرةً دون أن يُجبرَه أحدٌ عليها، بل لشَهوةٍ فقط، فلا شيءَ يَحول بينَه وبين التوبة، وقد يكون قد تاب منها في حينه ونحن لا نعلَم. فإذا حكمنا على هؤلاء بالكفر لمجرَّد ما يظهر منهم اضطَرب أمرُ الدين. وإلاّ فإنَّه لا يخلو أحدٌ من الناس من معصية كما بيّنه رسول الله بقوله صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده، لو لم تُذنِبوا؛ لَذَهبَ

الله بكم! ولَجاءَ بقومٍ يُذنبون، فيَستغفرون الله؛ فيَغفرَ لهم!»[1] فنَعم، الكبيرةُ خروجٌ من الإيمان ولكنّها ليست خروجًا عن الإسلام، ما دام صاحبُها مستمسكًا بدينه.

وكذلك الأمر في ترك الصلاة، وهو في حدِّ ذاته كفرٌ بلا شكٍّ، فمَن صلَّى فهو مسلم ومَن ترك فقد كفر، فيما بينَه وبين ربِّه، فإن رجع فصلَّى فقد عاد إلى الإسلام. أمّا نحن فلا نُعاملُه إلا كواحد من المسلمين ما دام مُحافظًا على الصلاة ظاهرًا. وذلك ما بيّنه ابن تيميّة قال: إن كثيرا من الناس، بل أكثرهم في كثير من الأمصار لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس ولا هم تاركوها بالجملة بل يصلون أحيانا ويدعون أحيانا؛ فهؤلاء فيهم إيمان ونفاق وتجري عليهم أحكامُ الإسلام الظاهرة في المواريث ونحوها من الأحكام. فإن هذه الأحكام إذا جرت على المنافق المحض كابن أبَيٍّ وأمثالِه من المنافقين فلأن تجري على هؤلاء أولى وأحرى. وبيانُ هذا الموضع مما يزيل الشبهة: فإن كثيرا من الفقهاء يظنُّ أن مَن قيل هو كافر فإنه يجب أن تجري عليه أحكامُ المرتدِّ ردةً ظاهرة؛ فلا يَرث ولا يُورَث ولا يُناكَح، حتى أجْرَوا هذه الأحكامَ على مَن كفَّروه بالتأويل من أهل البدع. وليس الأمر كذلك؛ فإنه قد ثبت أن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمنٌ، وكافرٌ مُظهِرٌ للكفر، ومنافقٌ مظهرٌ للإسلام مُبطِنٌ للكفر. وكان في المنافقين مَن يعلَمُه الناسُ بعَلامات ودَلالات بل مَن لا يَشكُّون في نِفاقه، ومَن نزل القرآنُ ببَيان نفاقه كابن أبَيّ وأمثاله، ومع هذا فلما مات هؤلاء ورِثَهم وَرَثَتُهم المسلمون، وكان إذا مات لهم ميِّتٌ آتَوهم ميراثَه وكانت تُعصَمُ دماؤُهم حتى تَقوم السُّنّة الشرعيّةُ على أحدهم بما يُوجِب عقوبَتَه.[2]

إذا فهمت هذا علمتَ أنّ المعصيةَ الكبيرة كُفرٌ فيما بين العبد وبين ربِّه، ثم يرجع أمرُ صاحبها في كل الأحوال إلى الله ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ، ذِي الطَّوْلِ؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ!﴾ [غافر 3] ورحمة الله أوسَع من ذنوب عباده ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!﴾ [البقرة 284]،وصدق مَن قال:

---

[1] خرجه مسلم في التوبة وأحمد عن أبي هريرة.

[2] 'الإيمان الأوسط' ص 163-164، دار طيبة، الرياض.

لا ذَنبَ أعظمُ مِن ذنبٍ يقاومُ عَفـــــــــــــــــــــوَ اللهِ الذي يأتيه مُعتَقِدا
وكلُّ ذنبٍ بجنبِ العَفو مُحتقَـــرٌ عفوُ الإله لا يُخصِّصُ به أحدا
ورحمةُ اللهِ حقٌّ وهيَ قدْ وسعتْ مَن أوجد اللهُ مِن خَلقٍ وإن جَحَدا
قدْ أخبرَ اللهُ عَن سلطانِ رحمتِه بأنه مِـــثلُ علمِ اللهِ فاعتـــقدا

واعلَم أنّ العبد ما يتقلَّبُ بين الإسلام والكُفر إلاّ لانطواءِ قلبه على شيءٍ من النِّفاق. والنِّفاق إظهارُ الإيمان وإبطان الكُفر، وذلك بأن يكون المَرْء كافرًا في الحقيقة ولكنه لا يحبُّ أن يَظهَر كُفرُه للناس، فيتظاهَر بينهم بالإيمان. فمَن كانت سريرته غيرَ مُوافقَة لعلانيّته؛ فهو كاذب في دَعواه الإيمانَ، ومَن كانت تلك حالُه فلا مطمع له في قَبول أعماله في الدنيا ولا في نجاته في الآخرة إلا أن يشاء الله تعالى.

لا يَطمعَنَّ في حُسنِ عَفْوك طامِعٌ حتَّى يُماثِل سرُّه إعْـــلانَه!

ليس من شرط النفاق أن يعلَم المنافقُ أنَّه منافق، كما أنّه ليس من شرط الكفر أن يعلَم الكافر أنّه كافر. فقد يكون المرء كافرًا ولكنَّه لا يعلَم ذلك أو لا يعتَرف به ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إلى قوله ﴿وَقَالُوا "لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ!"﴾ [الملك 6-10] فالقوم يقرُّون يومَ القيامة بأنَّهم لا علمَ لهم بحقيقة ما بعث الله به أنبياءَه، فكفروا وتصرَّفوا في دنياهم كيف شاؤوا فاستَوجبوا مقتَ الله وهم لا خبرَ عنده بذلك كلِّه. وإلاّ فمَن صدَّق بما جاء به محمَّد وعلِم يقينًا أنَّ بعض ما يقوم به من أعمال يُغضب اللهَ وأنّ ذلك سيُفضي به إلى جهنَّم لانتَهى عن كُفره ولاستقام.

وقد وصف الله تعالى مَن هذه حالُه فقال ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا "آمَنَّا!" بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا؛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ! يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِه يَقُولُونَ "إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا؛ فَخُذُوهُ! وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ؛ فَاحْذَرُوا!" وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ؛ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ!﴾ [المائدة 41]

فالمنافِق هو مَن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، إمَّا بدافعِ الخوف أو الحياء من الناس أو المُخادعة لَهم. وليس هذا بخاصّ بصَدر الإسلام كما يظنُّ الأكثرون، بل المنافقون كثيرون لا يخلو منهم مُجتمَعٌ منذ أن أرسل الله أوَّل رسول وإلى أن يأتي أمرُه تعالى. بل ما مِن شك أنهم أكثرُ عددا في هذا الزمان منهم في أي زمن مضَى، إذ أنّه قلَّما يسلَم أحدٌ منّا من خصال أربع مُجتَمعةً، وهي التي بيّنها رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقوله «أربعٌ مَن كُنّ فيه كان مُنافقًا خالِصا، ومَن كانت فيه خَصلَةٌ منهنّ كانت فيه خصلةٌ مِن النِّفاق، حتى يَدعَها؛ إذا اؤتُمِنَ خانَ وإذا حَدَّثَ كَذَب وإذا عاهَدَ غَدرَ وإذا خاصَمَ فَجرَ!»[1]

أضف إليها ما فصّله الله من حال المنافقين ومَبدأَها ومُنتهاها في قوله تعالى ﴿بَشِّرِ الْمُنَافقينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَليمًا! الَّذينَ يَتَّخذُونَ الْكَافرينَ أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنينَ! أَيَبْتَغُونَ عندَهُمُ الْعزَّةَ؟! فَإِنَّ الْعزَّةَ للَّه جَميعًا! وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الْكتَاب أَنْ إِذَا سَمعْتُمْ آيَات اللَّه يُكْفَرُ بهَا وَيُسْتَهْزَأُ بهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَديث غَيْره؛ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ! إِنَّ اللَّهَ جَامعُ الْمُنَافقينَ وَالْكَافرينَ في جَهَنَّمَ جَميعًا؛ الَّذينَ يَتَرَبَّصُونَ بكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّه قَالُوا: أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ؟! وَإِن كَانَ للْكَافرينَ نَصيبٌ قَالُوا: أَلَمْ نَسْتَحْوذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ منَ الْمُؤْمنينَ؟! فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقيَامَة وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ للْكَافرينَ عَلَى الْمُؤْمنينَ سَبيلاً! إِنَّ الْمُنَافقينَ يُخَادعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَة قَامُوا كُسَالَى؛ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَليلاً! مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذَلكَ: لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاء! وَمَن يُضْلل اللَّهُ فَلَن تَجدَ لَهُ سَبيلاً!﴾ ثم حذّر فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخذُوا الْكَافرينَ أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنينَ! أَتُريدُونَ أَن تَجْعَلُوا للَّه عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبينًا؟! إِنَّ الْمُنَافقينَ في الدَّرْك الأَسْفَل منَ النَّار؛ وَلَن تَجدَ لَهُمْ نَصيرًا! إِلاَّ الَّذينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا باللَّه وَأَخْلَصُوا دينَهُمْ للَّه؛ فَأُولَئكَ مَعَ الْمُؤْمنينَ! وَسَوْفَ يُؤْت اللَّهُ الْمُؤْمنينَ أَجْرًا عَظيمًا! مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بعَذَابكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ؟! وَكَانَ اللَّهُ شَاكرًا عَليمًا!﴾ [النساء 138-147] لا تحتاج هذه الآيات إلى تعقيب، فهي في غاية الوضوح، فقِف عندَها واعتَبرها مَلياّ.

---

[1] خرجه البخاري في الإيمان ومسلم عن عبد الله بن عمرو.

وقال الله تعالى مَن أظهَر الإسلامَ وهو مُعرِضٌ عن القرآن والسنّة فهو منافق، علمَ ذلك أم لم يعلَمه. كما أخبرنا الله بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ؟﴾ ثم هم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ، وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ! وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إلى القرآن ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ إلى سنَّته ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا!﴾ فمَن تحاكَم إلى غير القرآن والسنّة فهو منافقٌ، إلى قوله تعالى ﴿فَلَا، وَرَبِّكَ! لَا يُؤْمِنُونَ، حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا!﴾ [التوبة 60-65] فنفَى اللهُ الإيمانَ عمّن تردّدَ في الحُكم بالقرآن والسنّة، إذ أن قوله تعالى ﴿لَا يَجِدُوا..﴾ نَهيٌ للمسلم من أن يكون في قلبه شيءٌ من التردُّد عن اتّباع ما قاله النبيُّ صلى الله عليه وسلّم. مثلُ هذا مُخرجٌ من الدين وإن أظهر صاحبُه الإسلامَ، لقول الله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ؛ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ!﴾ [المائدة 44] قال السُّدِّي "ومن لم يحكم بما أنزلتُ فترَكه عمدًا وجارَ وهو يعلم فهو من الكافرين!" وقال عبد الله بن مسعود "ذاك الكُفر!"[1]

كلُّ مَن أظهر الإسلامَ ثم تولَّى الكفارَ ووافقَهم على استهزائهم بديننا فهو مُنافِق، وكُلّ مَن أظهر المَودَّةَ للمسلمين وأكنَّ لَهم البغضاءَ ووالَى الكفَّار فهو مُنافق، وكَم من مُتحاكِمٍ إلى الكُفّار يحسَب أنّه مؤمنٌ ولا يعلَم أنه مُنافق، وكم من متردِّدٍ عن الصّدَقة يحسب أنّه مؤمنٌ وهو في الحقيقة منافق ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ: لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ! فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ؛ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ! بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ، وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ!﴾ [التوبة 75-77]

هذا الفَهمُ لِمَعنى الكبيرة وحُكمِ صاحبها هو الفهمُ السليم لما جاءنا به محمّد صلى الله عليه وسلّم وتناقلَه علماء الملّة، وليس من قول الخوارج ولا من قول المُعتَزلة؛ فلا هو منزلة بين المنزلتين ولا هو كفرٌ دونَ كفر. فكل كبيرةٍ تعمَّدها صاحبُها فهي كفرٌ، وهو فيما بينه وبين الله كافر ما

[1] خرجهما الطبري بسنده في تفسيره ج10-ص357.

دام متلبِّساً بها، بل وما دام لَم يتُب منها. وكذا مَن أعرضَ عن طاعة الله ورسوله وإن كان في أمرٍ مّا، فذاك خروجٌ عن الإيمان وإن ادّعى صاحبُه أنّه مسلم ووافقناه على ذلك ﴿وَيَقُولُونَ "آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا" ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ؛ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ!﴾ [النور 47] فدعوى الإيمان والطاعة لا تستقيم لِمَن يُعرض ويَعصي، بل لا يكون الإسلامُ الذي هو إيمانٌ وطاعة إلا بالإيمان والطاعة. هذا هو الحقّ ولكنّ الناس لا يقبَلون هذا الحُكمَ ويردُّونَه ويستبشعونَه ويمقتونَ قائلَه. وما أُتوا إلا من قِبَل سوء معرفتهم بالنفاق، وأنّ الْمُنافِق لا يعلَم ضرورةً أنّه مُنافِق، ويكفي أنّ الله قد ذكرهم أوائلَ سورة البقرة فقال ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ!﴾ [البقرة 13] لا يعلمون أنّهم سُفهاء لا يعقلون، فذلك شأنهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ!﴾ [المنافقون 7] ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ!﴾ [المنافقون 8] فواجبنا شرعًا أن نعامل المنافقين بما عاملهم به رسول الله إذ قال «إنّ العَهدَ الذي بيننا وبينهم الصلاةُ؛ فمن ترَكَها فقد كفر!»[1] فالصلاةُ هي العهدُ، كما بيّنته لك من قبل، فمَن تركها لَم يَعُد منافقًا بل دخل في حُكْمِ الكُفّار جِهارا.

وإلى ذلك أشار أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي بعدما روى بسنده إلى أبي جعفر محمد بن علي بن حسين أنه سُئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» فقال أبو جعفر "هذا الإسلام!" ودوَّر دارَةً واسعة وقال "هذا الإيمان!" ودَوّر دارة صغيرة في وسَط الكبيرة قال "والإيمانُ مقصورٌ في الإسلام. فإذا زنَى أو سرق؛ خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يُخرجه من الإسلام إلاَّ الكُفرُ بالله!" قال أبو عبد الله المروزي: واحتجوا بقول الله تبارك وتعالى ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ "آمَنَّا!" قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا؛ وَلَكِن قُولُوا "أَسْلَمْنَا!" وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ!﴾ [الحجرات 14][2] فبيَّن أن دائرة الإيمان أضْيَقُ من دائرة الإسلام، فمَن أتى كبيرةً خرج من الإيمان إلى الإسلام لِما هو عليه من إظهار شعائر الدين،

[1] خرجه النسائي في الصلاة والترمذي وابن ماجه وأحمد عن بريدة بن الحُصيب.

[2] 'تعظيم قدر الصلاة' ج2-ص510، مكتبة الدار، المدينة.

فإن هو ترك حتى ذلك فقد أعلَن كفرَه كما قال محمّد الباقر "ولا يُخرِجه من الإسلام إلاَّ الكُفرُ بالله!" أي أن يجهَر بالكفر بالقول أو بترك شعائر الإسلام.

أمّا المسلم الصادِق الكيِّس الفَطِن فيتجنّب ذَرائعِ الْمَعاصِي رأسًا ولا يُخاطِر بنَفسه فيقَع في كبيرة فيُصيبه الْمَوتُ وهو فيها فيحقّ عليه قولُ الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ؛ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ؛ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ!﴾ [آل عمران 91] فليس الإسلام وِراثةً ولا تقليدا ولا دعوى، ولكنّه امتثال لأمر الله الشَّرعي ومُسارعة وخضوع لرب السماوات والأرض العزيز الغنيّ عن عباده ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا "آمَنَّا" وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟! فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ!﴾ [العنكبوت 2-3]

بلغنا عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يخطُب فيقول "أيها الناس من أَلَمَّ بذنب فَلْيستْغفِر الله ولْيَتُب، فإن عاد فليستغْفر اللهَ وَليتُبْ، فإن عاد فليستغفر الله وليتب؛ فإنّما هي خطايا مُطَوَّقة في أعناق الرجال، وإنّ الهَلاك كلَّ الهلاك الإصرارُ عليها" وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال "ما على ظهرها مِن بشر لا يَخاف على إيمانه أن يذهبَ إلا ذهب" وعن مجاهد بن جبر قال "مَن لَم يتُب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين"[1]. فما مِن أحد يدخُل في دين الله بصِدق إلا وهو معرَّضٌ في كلِّ لَحظة للخروج منه وإن لم يشعُر وإن لَم يُرِد. فالإسلام حالةٌ لا تستقرُّ، بل هو تجديدٌ مُستمرّ لميثاق الله وعَهده، وتَوبة وأوبة بعد حَوبَة. لذا كان النبي صلى الله عليه مسلَّم يستعيذ بالله من الكَوَر بعدَ الحَوَر[2] وهو الرجوع من الخير إلى الشرّ ومن الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية. لذا أشفقَ العالمون من أن يعودوا في الكفر بعد الإيمان ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ؛ يَا بَنِيَّ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ: فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ!﴾ [البقرة 132] وقال يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ، قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ! فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ

---

[1] 'حلية الأولياء' ج5-ص296، ج5-ص125، ج3-ص294.

[2] خرّجه النسائي في الاستعاذة والترمذي وابن ماجه وأحمد عن ابن سرجس وصححه الأرناؤوط.

وَالأَرْضِ، أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ!﴾ [يوسف 101] ولَمّا لَم يكن أحدٌ في مَأمَن من أن يَموت على الكُفر قال الله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ!﴾ [النور 63] فليزَم العبد أوامر ربِّه ليسلَم من المعاطب والمصائب.

***

انتهى ما قصدتّه من ردّ على ما جاء في 'الْمُغنيَ'، وما اختَرتُه إلا لكونه أحاط بالمسألة من جوانبَ شتَّى مما مكَّنني من دراستِها وإيضاحها. وهو مع ذلك ذو شأنٍ عند الفقهاء، وعُمدة في الإفتاء إلى يومنا هذا. يقول ابنُ رجب الحنبلي عن الكتاب وعن صاحبِه: بلغني من غير وجه عن الإمام أبي العباس ابن تيمية، رحمه الله تعالى، أنه قال "ما دَخل الشامَ بعد الأوزاعيِّ أفقهُ من الشيخ الْمُوفَّق!" وانتَفعَ بتصانيفه المسلمون عُموماً وأهلُ المذهب خصوصاً، وانتشرت واشتهرت بحُسن قَصدِه وإخلاصه تصانيفُه، ولا سيَّما كِتابُ 'الْمُغني' فإنّه عَظُم النَّفع به وكثُرَ الثناءُ عليه.[1]

هذا وقد كتب ابنُ قُدامة رسالة مُتداوَلة، قَصَر الإسلامَ فيها على أهل القِبلة، وهم المصلّون، وأقصَى تاركي الصلاة من دائرة الإسلام. وهذا هو مَذهبُه في تارك الصلاة حقيقةً، لأنّ الرسالة في الاعتقاد و'الْمُغنيَ' في الفقه، ومسألةُ تاركي الصلاة عقَديّةٌ بالدرجة الأولى. فإنّه يقول: ولا نَجزم لأحد من أهل القِبلة بجنّة ولا نار، إلا من جَزم له الرسولُ صلى الله عليه وسلم، لكنّا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء. ولا نُكْفِر أحدا من أهل القبلة بذنب ولا نُخرجه عن الإسلام بعمل.[2] وهذا اعتقادُ أهل السنّة والجماعة وكلامُهم؛ يُسمّون الْمُسلمين 'أهلَ القِبلَة' عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم «مَن صلَّى صلاتَنا واستَقبل قِبلَتَنا؛ فذلك المسلمُ!»[3] بصيغة الحَصر، فمَن

---

[1] 'ذيل طبقات الحنابلة' ج2-ص105، دار الكتب العلمية.

[2] موفَّق الدين عبد الله ابن قدامة المقدسي 'لُمعَة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد' ص37، دار ابن حزم.

[3] جزء من حديث خرجه البخاري في الصلاة والنَّسائي وأحمد عن أنس بن مالك.

فمَن لم يفعل فليس مسلِما. هذا هو الصواب وما خالَفه خطأ وتباب كما بيّنه ابنُ أبي داود بقوله:

ولا تُكْفِرَنَّ أهلَ الصلاةِ وإن عَصَوْا — فكلُّـــهم يَعصي وذو العَرشِ يَصفَحُ
ولا تَعتقدْ رَأيَ الْخَـــوارجِ إنّـــه — مَقـــالٌ لِمَن يَهواه يُرْدي ويَفـــضَحُ
ولا تَـــكُ مُرْجِـــيًّا لَعوبًا بدينِـــه — ألاَ إنّما الْمُرجيُّ بالـــدّينِ يَمـــزَحُ
وقُل إنّما الإيـــمانُ قَوْلٌ ونِـــيَّةٌ — وفِـــعْلٌ على قَولِ النَّبِـــيِّ مُصَـــرَّحُ
ويَـــنقُصُ طَورًا بالْمعاصي وتارةً — بطاعَـــته يَنمي وفي الوَزْنِ يَـــرْجَحُ
ودَعْ عَنك آراءَ الرجالِ وقَـــولَهُم — فقَولُ رَسُولِ اللهِ أَزكى وأَشْـــرَحُ![1]

الشُّبهة

جرى بيني وبين جماعة من موظَّفي وزارة الشؤون الدينية في زاوية الشيخ عبد القادر العثماني بطولقة، قرية بالجزائر قيربة من بسكرة، نقاشٌ حول الصلاة وكفر تاركيها فقال لي أحدُهم "ألا ترى أن قولَك بكُفرهم تنفيرٌ لهم؟!" قلت: تنفير ممَّ؟! إن كان من الدين فقد نَفروا وخرجوا من المِلَّة بتركهم الصلاة، وإن كان تنفيرًا من شيء غير الدين والمِلَّة فلا أدري ما هو! فأخذَ يسرُد أقوالَ المالكيَّة وأنَّهم لا يكفِّرون لِمُجرَّد التَّرك، فأخبرتُه بأنَّ مالكًا كان لا يراهم إلا كفَّارًا وأنَّ العلماء الذين ينتسبون إليه مُخالفون له، فما زادَه قولي وأصحابَه إلا استكبارًا في أنفسهم واحتِقارًا لي. ولكن كما قال محيي الدين بن العربي: لقد انتُسِخَت الشريعةُ بالأهواء، وإن كانت الأخبار موجودة مسطَّرة في الكتب الصحاح، وكتبُ التواريخ بالتجريح والتعديل موجودةٌ والأسانيدُ مَحفوظةٌ مَصونَة من التغيير والتبديل، ولكن إذا تُرِك العملُ بها واشتغَل الناس بالرَّأي ودانوا أنفسَهم بفَتاوَى المتقدِّمين مَع مُعارَضَة الأخبار الصِّحاح لَها، فلا فرقَ بين عَدمِها ووُجودِها إذ لم يَبقَ لها حُكمٌ عندهم. وأيُّ نَسخٍ أَعظمُ من هذا؟! وإذا قُلتَ لأحدهم في ذلك

[1] 'قصيدة ابن أبي داود عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني' ص20، دار طيبة، الرياض.

شيئا يقول لك "هذا هو المذهب!" وهو واللهِ كاذبٌ، فإن صاحب المذهب قال له "إذا عارض الخبرَ كلامي، فخُذْ بالحديث وَاترُك كلامي في الحُشِّ؛ فإن مذهبي الحديث!" فالله يأخذ بيد الجميع.[1]

كان الشيخ الموفَّق مِن جلّة علماء الأمّة ورأسَ الحنابلة بالشام ولكنه غلِط في 'الْمُغنِي' وصرّح بإسلام تارك الصلاة، ثم استَدرك في 'لُمعة الاعتقاد' فأقصى تارك الصلاة من الإسلام. وكذلك فعلَ أبو جعفر الطَّحاوي في 'مُشكل الآثار' ثمَّ استَدرك نفسَه في 'العقيدة'. وقد أخطأ جَمٌّ غفير من العلماء الأعلام في هذه المسألة الأصل، منهم: أبو حاتم ابنُ حبّانَ في 'صحيحه' وأبو بكر البَيهَقي في 'السنن الكبرَى' وأبو سليمان الخطَّابي في 'معالم السنن' وأبو الحسن الماوَردي في 'الحاوي الكبير' وأبو حامد الغزالي في 'إحياء علوم الدين' وأبو بكر بن العربي وأبو بكر الْجَصّاص كلاهُما في 'أحكام القرآن' وأبو الوليد ابن رُشد في 'بداية المجتهد' وأبو البركات ابن تيميَّة في 'مُنتقى الأخبار' وأبو زكريا النَّووي في 'شرح الْمُهذَّب' وفي 'شرح صحيح مسلم' وأبو الفضل ابن حَجَرٍ في 'فتح الباري'... وإنما أُتِي هؤلاء مِن جِهتين: إحداها فرارُهم من تكفير المسلمين، مع أن القول بأن ترك الصلاة كفرٌ ليس إكفارًا لأحد، بل هو تسميةُ الشيء باسمه، ليس إلاّ:

والفعلُ منسوبٌ إلى أهلِه كالشيء تدعوه بأسْمائِه!

وكذلك أيضا مشروعيَّة الكلام عن تارك الصلاة ليعلَم الناسُ بأنَّه تاركٌ للصلاة. وليس هذا من الفضيحة ولا كشف السِّتر عن المسلم، كيف وتارك الصلاة كافر؟! بل بيانُ حالِه واجبٌ لأنّ الأمر يتعلَّق بالإسلام والكُفر. وما دام حُكمُه حكمَ الكفّار ما لا يصلّي، فيلزم الإخبارُ بهذا ونشرُه ليعلَمه الناس فيتعاملون معه على أنّه كافر غير مسلم فلا يُزوَّجوه مثلا. قال ابن مُفلح: وسئل أيضًا –يعني ابن تيميّة– عن غِيبة تارك الصلاة فقال "إذا قيل عنه أنه تاركٌ للصلاة، وكان تاركَها فهذا جائز، وينبغي أن يشاع ذلك عنه ويُهجَر حتى يصلِّي" وقال الشيخ تقي الدين في

[1] 'الفتوحات الكيّة' ج5-ص103، دار الكتب العلمية، بيروت.

'المستتر' "ويُذكَر أمرُه على وجه النصيحة".[1] أي على وجه النصيحة للمجتَمَع المسلم، ثم نصيحةً لَه عسى أن يتوب؛ فهذه شبهة ولا أساس لها شرعا.

والشُّبْهة الأخرى خَوفُهم من تفريق الأُمة إذا هم صرَّحوا بأن تسعةَ أعشار سكّان البلدان الإسلامية كفّار. ففضّلوا دَعوَى إسلامِ قَومٍ كفَرة تَبلُغُهم "حيَّ على الصلاة" في اليوم عشْرةَ مرّات فلا يستَجيبون. حِرصُهم هكذا على تكثير السواد قد غيَّبَ عنهم حقيقةً أساسيّة وهي أن الأُمَّة أمَّتان: أمَّة دَعوة وأمّة إجابة، وأنّ التي يجب الحِرصُ على وُجودِها ووَحدتها إنَّما هي أُمَّة الإجابَة.

فحاصل ما فعلوه أنّهم جاوزوا الحدَّ حيث هوَّنوا من قدر الصلاة وأوَّلوا النصوصَ وأخرجوها عن مَضمونها، ثم ظلموا المصلّين حيث أجبروهم على مُعايشة الكفّار دون تمييز، ثم ظلموا أخيرًا تاركيها حيث أخفَوا عنهم كُفرَهم ثُمّ حكَموا بقَتلِهم ولَم يدَعوا لهم مَجالاً للتوبة، فخالَفوا تمامًا قولَ الله فيمن أضاع الصلاةَ ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا!﴾ [مريم 60]

نعم تارك الصلاة ضالّ، ولكنَّ له حقًّا على المسلمين وعلى العلماء منهم خاصّةً، وهو أن يُدعوه إلى الإسلام وأن يعرِضوا عليه التوبَة مِرارًا بالتَّذكير بلا تَوانٍ. ليدعوه بالحكمة والتَّلطُّف وتأليف قَلبِه وبالتَّرهيب والترغيب وبتلاوة القرآن وتعليم السنَّة وأدلَّة العقل، حتى يقتَنِع أنَّه إن فاءَ إلى رُشدِه وصلَّى فقد دخل في الإسلام بَعد الكُفر، وإن هو حسُنَ إسلامُه عفَا الله عنه ولَم يظلمه شيئًا؛ فلا يُكلَّفُ بقَضاء ما أضاعَ منها ﴿بَلَى! مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّه وَهُوَ مُحْسِنٌ؛ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّه، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ!﴾ [البقرة 112] وهو ما أكّده رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقوله «مَن أَحسن في الإسلام؛ لم يُؤاخَذ بما عَمِلَ في الجاهليَّة، ومَن أساءَ في الإسلام؛ أُخذَ بالأوَّل والآخِر!»[2] فحقُّ بني آدم كلِّهم على المسلمين، إظهارُ الدين لَهم ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي؛ أَدْعُو

---

[1] 'الآداب الشرعية' ج1–ص245، دار البيان بيروت.

[2] خرجه البخاري في استتابة المرتدّين ومسلم وأحمد وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود.

إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي! وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ!﴾ [يوسف 108] وقال تعالى مُثنيًا على مَن اتَّبَع الرسول ودعا إلى الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ: إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟!﴾ [فصلت 33] فليقولوا للناس: كونوا أنتُم أيضًا من المسلمين تُفلحوا!!

ممّا قصَّ الله علينا في كتابه ما جرى لبني إسرائيل لَمّا ذهب نبيُّه موسى ليكلِّمه تعالى واستخلَف عليهم أخاه هارونَ، ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي، وَأَصْلِحْ، وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ!﴾ [الأعراف 142] فلمّا ذهب موسى لِميقات ربِّه، ارتدَّ بنو إسرائيل وكفروا بالله وعَبدوا العجلَ. لقد حذّرهم هارون ولكنّه لَم يعزم بما يكفي، فوصفَ العجلَ بأنَّها فتنةٌ واكتفَى بذلك إلى أن يرجعَ موسى ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ: يَا قَوْمِ، إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ! وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ؛ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي! قَالُوا: لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى!﴾ [طه 90-91] فكانت نتيجة لينه أن عَبدوا العجل وتَمرَّدوا وكادوا يقتلونه ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي! أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ! قَالَ﴾ هارونُ ﴿ابْنَ أُمَّ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي! فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ!﴾ [الأعراف 150] فردَّ عليه موسى ﴿قَالَ: يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ! أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟ قَالَ﴾ هارونُ ﴿يَا ابْنَ أُمَّ، لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي، إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي!﴾ [طه 92-94]

خَشي هارون أن يكون السببَ في تفريق بني إسرائيل، وعلَّلَ مَوقفَه بحِرصه على وَحدة الأمّة. ولكنَّ موسى واجههم بالحقيقة وجهرَ لهم بأنّهم قد كفَروا، ثمّ أمرَهم بأخشَى ما كان هارونُ يَخشاه؛ أمرَ مَن لَم يكفُر منهم بقتال مَن كفَر ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ!﴾ أي أشرَكتم بالله فعبدتُم من دونه عجلاً! ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ؛ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ! ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ؛ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ!﴾ [البقرة 54] فكانت تلكَ توبةً للذين لَم يَعبُدوا العِجلَ خاصَّةً، لأنّهم وقعوا في الفتنة أيضا وعصَوا بسُكوتهم عمَّن كفَرَ ولم ينهَوهم عن مُنكَرهم. تدارَك موسى الأمرَ فتبرَّأ من عمَلهم جميعًا واستَغفرَ اللهَ

لنفسه ولأخيه هارونَ الذي اجتهدَ ﴿قَالَ: رَبِّ، اغْفِرْ لِي وَلأَخِي، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ؛ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ!﴾ [الأعراف 151]

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ!﴾ [يوسف 111] ليُدركوا أنَّه جلّ وعلا ما أرسل إليهم رُسُلَه إلا ليعلَموا كيف يعبدونه، وأنَّهم إن رَفَضوا ذلك فلا خيرَ فيهم، بل زَوالُهم وهلاكُهم خيرٌ من بقائهم؛ إذ لا خيرَ في قَوم لا تُقامُ فيهم الصلاة! فعوَضَ أن يَدْعوَ علماءُ الأمّة تاركي الصلاة للدُّخول في دين الله، فيكونون بذلك دُعاةَ خيرٍ، تغاضَوا وفرَّطوا وتَرَكوا الوضعَ على ما هو عليه. فعايَش الْمُسلمون الكفَّار وساكَن الأبرارُ الفجّارَ وامتزجَ النورُ بالظُّلمات واختلَط الْهُدَى والضلال وحلَّت الفتن وتوالَت المِحن وظَهر الفساد وفشا الظُّلم. فلَم يزَل حَبلُ الدين يَرِقُّ وعُروَة الإيمان تدقُّ إلى أن كادت تنفَصِمَ بالكلِّيَّة في زماننا هذا. وانظُرْ كيف عمَّت الفتَن والشُّبُهات والْتبَسَ الأمرُ فحُرِّم الحلالُ الطيِّبُ وأُحِلَّ الحَرامُ، وصار الْمَعروفُ مُنكَرًا والْمنكَر معروفا ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؟! سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!!﴾ [الجاثية 21]

لكنّي أُلاحظ أنَّ في عصرنا هذا أكثرُ مَن يقولون بكفر تاركي الصلاة عُلماءُ المملكة السعوديّة، ومعلوم أنَّ أكثرَهم وهّابيون وأنهم أشدُّ الناس اتباعًا لابن تيميّة. وفي المقابل نجد القائلين بإسلام تاركي الصلاة منتَشرين في باقي البلاد المسمّاة إسلاميّة حيث يعبث الطُّغاة الكفرة الذين مكَّنهم المستعمرون من الاستيلاء على السُّلطة فظلُّوا منذ ذلك العهد متشبِّثين بمقاعدهم، لا همَّ لَهم سوى إحكام القبضة على الناس بالترهيب فيعِدون وبالترغيب فيتوعَّدون مَن نازعهم بالقتل والسجن، وتلك حال مُعظم البلاد المسمّاة إسلاميّة. فلم يجرُؤْ العلماء هناك أن يُفتوا بكفر تاركي الصلاة، وإلا لافتضح الحكَّام قبل العوامّ، فإنَّهم لا يصلّون إلاّ إذا حضرت التلفَزة. ومَن وافقَهم على كفرهم ومنكَرهم من العلماء أغدقوا عليهم الأموال وأحاطوهم بالجاه، هذه ظاهرة تنبئ عن أثر البيئة في العلماء، والله الوكيل.

القول الحق

لقد بلغنا عن رسول الله أنّه قال «إنّه مَن ترك الصلاة فقد كفر» وقال «إن بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة» وقال «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» وقال «من ترك الصلاة متعمِّدا فقد كفر جهارا» وقال «عُرَى الإسلام وقواعد الدين ثلاث عليهن أسُّ الإسلام، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم: شهادة أن لا إله إلا الله والصلاة المكتوبة وصوم رمضان» وقال «لا تشرِكوا بالله شيئا وإن قُطِّعتُم أو حُرِّقتُم أو صُلِّبتم. ولا تَترُكوا الصلاة تَعمُّدا، فمن تركها متعمدا فقد خرج من الملة» وقال «لا سهمَ في الإسلام لمن لا صلاةَ له» وقال «لا إيمان لمن لا أمانةَ له ولا صلاة لمن لا طُهور له ولا دين لمن لا صلاة له» وقال «من ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان» وقال «من ترك الصلاة متعمدا كتب الله اسمه على باب النار ممن يدخلها» وقال «واللهِ يا معشر قريش لتقيمُنَّ الصلاة ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلا فيضرب أعناقكم على الدين!» وقال «أربعٌ فرضهن الله في الإسلام فمن أتى بثلاث لم يغنين عنه شيئا حتى يأتي بهن جميعا: الصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت» وقال «من ترك صلاة متعمدا أحبط الله عمله وبرئت منه ذمة الله حتى يراجع الله عز وجل توبة» وقال «لا تترك الصلاة متعمدا فإنه من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ورسوله» وغير ذلك من أحاديث صريحة في أنّ ترك الصلاة كفر قد سقناها فيما سبق مع بيان رواتها ومواضِعها من كتب الحديث.

قال أحمد بن أبي بكر البوصيري في 'باب تكفير من ترك الصلاة من غير عذر': عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من ترك الصلاة مُتعَمِّدا فقد برِئت منه ذِمة الله» قال مكحول: من برئت منه ذمة الله فقد كفر. رواه إسحاق وفي إسناده راو لم يسمَّ. وعن إياد بن أبي حميد قال: سمعت مكحولا يقول فيمن يقول "الصلاةُ مِن عند الله ولا أُصلّيها، والزكاةُ من عند الله ولا أزكيها!" قال: يستتاب، فإن تاب وإلا قُتِل، رواه إسحاق، وإياد هذا مجهول. وعن أيوب –هو السختياني البصري سيد العلماء– فيمن يقول "الصلاة من الله ولا أصليها": يُضرَبُ

عُنُقه من ها هنا -وأشار إسحاق إلى قفاه- ليس بين الأئمة فيه خلاف! رواه إسحاق بن راهويه. قال البيهقي في الكبرى: روينا عن عمر بن الخطاب أنه قال "لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة" وعن علي "من لم يصل فهو كافر" وعن عبد الله بن مسعود "من لم يصل فلا دين له". قلت: ولِما تقدّم شواهد، منها حديث مُعاذ في مسند أحمد، وحديث جابر في الصحيح والسنن الأربعة، وحديث بُريدة في مسند أحمد والسنن الأربعة وابن حبان والحاكم، وحديث أبي الدرداء في ابن ماجه والبيهقي، وحديث عبد الله بن شقيق عن الصحابة في الترمذي، وحديث ابن عباس في مسند أحمد والبزار، وحديث أنس في ابن ماجه والبيهقي، وحديث أبي هريرة في البزار، وحديث ابن عمر في الطبراني، وحديث أبي أمامة في ابن حبان، وحديث عمر بن الخطاب في الأصبهاني، وحديث علي بن أبي طالب في ابن أبي شيبة وتاريخ البخاري، وحديث عبد الله بن عمرو في مسند أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وحديث سعد بن أبي وقاص في البزار، وحديث نوفل بن معاوية في الطيالسي وابن حبان، وحديث أم أيمن في مسند أحمد وعبد بن حميد.[1]

أما علماءُ المِلَّة فقد فَهِموا أدلَّةَ إكفار تارك الصلاة كما جاءت واتَّخذوها براهين قاطعةً على أنّه غير مسلِم، وقد بيَّن جماعةٌ منهم هذه المسألة في مؤلَّفاتهم. فمن هؤلاء عبدُ القادر الجيلاني قال: تاركُ الصلاة يَكفُر عند إمامنا أحمد، إذا تركها جاحدًا لوُجوبها، ووَجَب قتلُه؛ لا خلافَ في مذهَبه. وأمّا إن تَرَكَها تَهاوُنًا وكسَلا مع اعتقادِه وُجوبَها ودُعي ليَفعلَها فلم يفعلْها حتى تضايَق الوقتُ الذي يَليها؛ كَفَرَ، وقُتِل بالسَّيف لكُفرِه بعد أن يُستتابَ ثلاثة أيّام؛ كالْمُرتدِّ في الحالَتين. ويكون مالُه فَيْئًا يُوضَع في بيت مالِ المسلمين، ولا يُصلَّى عليه ولا يُدفَنُ في مقابر المسلمين.[2]

هذا كلامُه، لا يدع للريب مَنفذًا، وهو إمامُ أهل الإرادةِ والسُّلوك السُّـــنِّي في عصره ومِن بَعده. ومما يجدُر التنبيهُ عليه أنّ الموفَّق ابن قُدامة قد لَقيَ الشيخ عبدَ القادر وأخذ عنه العلمَ وشهِد له بالإمامة. يقول ابنُ قدامة: دخلنا بغدادَ سنةَ 561، فإذا الشيخُ عبدُ القادر مِمّن انتهت إليه

---

[1] 'إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة' ج2/ص408-410، دار الوطن، الرياض.

[2] 'الغُنية لطالبي طريق الحقّ' ج2/ص296-297، دار الجيل، بيروت.

الرئاسة بها عِلمًا وعَملاً ومالاً واستِفتاءً. وكان يَكفي طالِبَ العلم عن قَصدِ غيرِه مِن كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسَعَةِ الصَّدر. وكان مِلءَ العينِ، وجَمعَ الله فيه أوصافًا جميلة وأحوالاً عَزيزة، وما رأيتُ بعدَه مِثلَه![1] ولكن لَم يمنَعْه ذلك مِن أنَّه خالَفَه في مسألة ترك الصلاة في كتاب المُغني كما مرَّ بيانُه، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله الرَّحمن الْمُستعان!

وممّن صرّح بكفر تارك الصلاة إمامُ المُفسِّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَري، عند تفسير قول الله تعالى ﴿خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا! إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ [الآية مريم 59-60] قال: لو كان الذين وَصَفهم بأنَّهم ضيَّعوها مؤمنين، لم يَستَثْنِ منهم مَن آمن وهم مؤمنون! ولكنّهم كانوا كُفّارًا، لا يُصلُّون للَّه ولا يُؤدّون إليه فَريضةً، فَسَقَةً، قد آثَروا شَهَواتِ أَنفُسِهم على طاعة الله! وقد قيل "إنّ الذين وَصَفَهم اللهُ بِهذه الصفةِ قومٌ من هذه الأمّة يكونون في آخر الزَّمان!"[2]

ومنهم إمامُ الْمُحَدِّثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري، فإنّه قد عَقد في 'مَواقيت الصلاة' من 'جامعه الصحيح' بابَين هذه صورتُهما: /بابٌ/ إثمُ من فاتته العصرُ: حدّثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الذي تَفوته صلاةُ العصر كأنَّما وُتِر أهلَه ومالَه»[3] قال أبو عد الله ﴿يتِرَكُمْ﴾ [محمد 35] "وَتَرْتَ الرَّجُلَ، إذا قتَلتَ له قَتِيلا أو أخَذْتَ له مالاً" /بابٌ/ مَن تَرك العصرَ: حدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا هشام قال حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي قِلابة عن أبي الْمَليح قال: كناّ مع بُرَيدةَ في غَزوة في يومٍ ذي غَيم فقال: بَكِّروا بصلاة العصر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مَن ترك صلاة العصر فقد حبِط عملُه»! ولم يزدْ البخاري شيئًا اكتفاءً بظاهرِ الحديث وبقول الله ﴿أُولَئِكَ

---

[1] 'ذيل طبقات الحنابلة' ج2-ص247، دار الكتب العلمية.

[2] 'تفسير الطبري' ج18/ص216-217.

[3] وهو في مُوطّأ مالك في وقوت الصلاة.

لَمْ يُؤْمِنُوا؛ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ!﴾ [الأحزاب 19] فمَن فاتَته الصلاة بغير تعمُّد فقد حلَّت به أكبرُ مُصيبة، ومَن تَرَكها مُتعمِّدًا فقد كفر وخرج من الدين.

لقد سبق بيان إجماع الصحابة على أن مجرَّد ترك الصلاة كُفر. وهاكَ المزيد، فقد سُئِلَ الصحابيُّ جابرِ بن عبدِ الله فقيل له "ما كان يُفرِّق بين الكفر والإيمان عندَكم من الأعمال في عهد رسول الله؟" قال "الصلاةُ!"[1] وقال الْحَسنُ البَصري التابعي: بلغني أنَّ أصحابَ رسول الله كانوا يقولون "بين العبد وبين أن يُشرِك فيَكفُر أن يَدَع الصلاةَ مِن غير عُذْر!"[2] وقال التابعي عبد الله بن شَقيقٍ "كان أصحابُ مُحمد صلى الله عليه وسلم لا يَرَون شيئا من الأعمال تركُه كفرٌ غيرَ الصلاة!"[3] وقال إسحاق بن راهَوَيهْ وهو من أقران أحمد بن حنبل مُعاصرةً وعلمًا وإمامة: قد صحَّ عن رسول الله أنّ تاركَ الصلاة كافِرٌ، وكذلك كان رأيُ أهلِ العلم مِن لَدُن النبي إلى يومِنا هذا أنّ: تارك الصلاة عَمْدًا من غير عُذرٍ حتى يَذهَب وقتُها كَافِرٌ! وذَهابُ الوقتِ أن يُؤخِّر الظُّهرَ إلى غُروبِ الشمس والمغربَ إلى طُلوعِ الفَجر![4]

وقد بلَغتنا نصُوص إكفار تارك الصلاة عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو بكر الصدّيق وعمر بنُ الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة ومُعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدَّرداءِ والبَراء بن عازب وبلال بن رباح وحُذَيفة بن اليمان، وغيرهم، رضي الله عنهم. ومِن التابعين: الخليفةُ الخامس عمرُ بن عبد العزيز ومُجاهد وعِكرِمة وعَطاءِ بن أبي رباح وسعيد بن جُبَير وجابر بن زَيد وعَمرو بن دينار وإبراهيم النَّخَعي والقاسم بن مُخيمِرة والحسن البصري وعبد الله بن شَقيق. ومِن الفقهاء: مالكٌ والأَوزاعي والشافِعي ومحمد بن الحسَن وشَريك بن عبد الله النخَعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن

---

[1] 'شرح أصول اِعتقاد أهل السنة' ج1-ص716، وخرجه ابن نصر في 'تعظيم قدر الصلاة'.

[2] ذكرهم اللالِكائي 'شرح أصول الاعتقاد' ج1-ص716، وابن بطة في 'الإبانة الكُبرى'.

[3] خرجه الترمذي في الإيمان، وخرجه الحاكم في الإيمان عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة.

[4] قاله ابن نصر المروزي: سمعتُ إسحاقَ يقول:..، 'تعظيم قدر الصلاة' ج2-ص929.

راهَويه وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلْبي وأبو عُبيد القاسمُ بن سلاّم وعبد الله بن المبارك والحَكَم بن عُتْبَة وأيوب السِّخْتياني وأبو داود الطَّيالسي وداود بن علي الظاهري وأبو بكر بن أبي شَيبةَ وزُهير بن حَرْبٍ[1]. ومن المالكيّة ابن حبيب كما سيأتي قريبا، ومن الشافعيّة أبو الطيب بن سلمة الضبي البغدادي كما قال النووي: في ومن غرائب أبي الطيب بن سلمة أنه قال: يكفر تارك الصلاة وإن اعتقد وجوبها.[2]

قال الشيخ محيي الدين بن العربي في حكم من منع الزكاة ولم يجحد وجوبَها: ذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن حكمَه حكم المرتد فقاتلهم وسبى ذريَّتهم، وخالفه في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأطلق من استُرِقَّ منهم، وبقول عمر قال الجمهور. وذهبت طائفة إلى تكفير من منع فريضةً من الفرائض وإن لم يجحد وجوبها.. فمن منع الزكاة وهو مُقِرٌّ بها أنها واجبة عليه فهو ظالم غير كافر، إلا في الصلاة خاصةً فإن تاركها كافر، فإن الشرع سماه كافرا بمجرد الترك.[3]

فالشيخ ابن العربي الحاتمي يرى بأنَّ تارك الصلاة كافر لأنَّ النصوص جاءت بذلك، وبهذا قال جُمهورُ أصحابِ الحديث، وجُمهور الظَّاهريَّة والحنابلة، وأبو طالب المكي في 'قوت القلوب' وابنُ حَزم في 'الْمُحلَّى' والْمُنذري في 'الترغيب والترهيب' وابن تيمية وابن القيِّم وابن الحاج العبدري في 'المدخل'. ومن الْمتأخِّرين الشَّوكاني ووَلِيُّ الله الدِّهلوي ومحمّد صديق القِنَّوجي ومحمد رشيد رضا وسيد سابق وعبد العزيز بن باز ومحمد بن صالح بن العُثَيمين وغيرُهم... وبالجملة فكلُّ مَن ساق آيةً أو حديثاً وردا بكُفر تارك الصلاة فاكتفى بظاهر الآية أو الخبر ولَم يتأوَّله؛ فذاك قولٌ منه بكُفر تارك الصلاة.

---

[1] 'الترغيب والترهيب' للمُنذِري ص107، دار ابن حزم. و'الشريعة' للآجُرِّي ص109، دار الحديث. و'شرح أصول الاعتقاد' للاَّلِكائي ج1-ص716، البصيرة/الريان.

[2] 'تهذيب الأسماء واللغات' ج2-ص246، الطبعة المنيرية، القاهرة.

[3] 'الفتوحات الكيّة' ج8-ص269، طبعة عثمان يحيى، الهيأة المصرية للكتاب، القاهرة.

هؤلاء مَن بلغَهم قولُ الله ﴿فَلا صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى!﴾ [القيامة 31-32] فعلموا أنّ الصلاةَ مُقتضَى التصديق وأن التولّي مقتضى التكذيب، وبَلغَهم قوله سبحانَه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ!﴾ [الروم 31] فعَلموا أنّ تركها شِركٌ بالله، وذاك قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم «إنَّ بين الرجل وبين الشِّرك والكُفر تركَ الصلاة!»[1] وبلغهم قولُه عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة 15] فعَلموا أنّه ليس مؤمنا مَن لا يصلّي، وبلغهم قولُه تعالى ﴿وَيْل يَوْمَئِذ لِّلْمُكَذِّبِينَ! وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: ارْكَعُوا! لا يَرْكَعُونَ؛ وَيْل يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ!﴾ [المرسلات 47-49] فعَلموا أنّه لا يترك الصلاة إلاّ مَن وقع بين تكذيبَين اثنين: أحدُهما تكذيبُه بوجوبها والآخَر بكونه كافرًا، وسمعوا قولَه جلّ جلالُه ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ فعَلموا أنَّ تاركي الصلاة قد أدبَروا وتولّوا لقوله بعدَها ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعاريج 15-23] فالنار المُلتَهبة تنزع جلدَ الرؤوس ولا تَنالُ المُحافظين على الصلاة، لأنّها الفُرقان بين الحق والباطل وبين الإخلاص والشرك وبين الإيمان والكفر وبين الهُدى والضلال وبين الطاعة والمعصية وبين المعروف والمنكر وبين الوَلاء والبَراء وبين العفَّة والفَحشاء.

يقول شاه وليُّ الله الدِّهلوي: الصلاة مِن أعظم شعائر الإسلام التي إذا فُقِدت ينبغي أن يُحكَم بفَقده، لقوّة الْمُلابسة بينها وبينه. والصلاة أيضا هي المحقِّقة لمعنى إسلام الوجه لله. ومَن لم يكن له حظٌّ منها فإنّه لم يبُؤْ من الإسلام إلاّ بما لا يُعبَأُ به![2] الظاهر أنّه أخذ هذا المعنى من قول الله تعالى ﴿قُلْ: مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ! فَقَدْ كَذَّبْتُمْ؛ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا!﴾ [الفرقان 77] فلا قيمةَ عند الله لقوم لا يُقيمون للصلاة وَزنًا. وهذا من دقيق الفقه في القرآن.

كذلك يلزم أن ينظُر المسلم في القرآن. بنيَّة فهمه والعمل به، وإلا فــ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاك أَثِيم! يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا؟! فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ! وَإِذَا عَلِمَ

[1] خرجه مسلم في الإيمان وأصحاب السنن والدارمي وأحمد، عَن جابر بن عبد الله.

[2] 'حجّة الله البالغة' ص421، دار المعرفة.

مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا، اتَّخَذَهَا هُزُوًا؛ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ! مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ! وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا! وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ! وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ!!﴾ [الجاثية 7-10] ولكنّ جُمهور العلماء، ومنذ دهور، يرفُضون أن ينظروا في القرآن والسنَّة بقصد فهمهما والحكم بما فيهما، فلا جرَمَ أن غاب عنهم عِظَمُ شأن الصلاة وأن راحوا يرمونَ ربانِيِّي ملَّتنا بقلَّة الفَهم.

فاتّهم أنّ الذي نَهى عن جَعل تاركِ الصلاة في عِدادِ المسلمين إنَّما هو ربُّ العالَمين، وأنّ أوَّل مَن امتَثلَ لأمره رسولُه الصادِقُ الأمين ثم الصحابةُ الغُرُّ المَيامين ثم خيارُ التابِعين وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين. فليَحذرْ مُخالِفوهم من شقّ عصا المسلمين وخَرق الإجماع واتِّباع غير سبيل المؤمنين، وإلاَّ ولاَّهم الله الْمَغضوبَ عليهم والضالِّين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ؛ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى!!﴾ [النساء 115] وقد حصل ذلك، فعَذَل صالِحي الأمَّة مَن هو أحقّ بالعَذل واللَّوم.

وكم مِن مُليمٍ لَم يُصَبْ بِمَلامَةٍ ومُشْبَعٍ بالذَّمِّ ليس له ذَنبُ!

***

تستوقِفنا هنا مسألة، وهي ما أشار إليه ابن القيم، قال: فِعلُ ما يُحبُّه الله أحبُّ إليه مِن تَرك ما يكرهه. لأن فعل المأمور مقصود لذاته وترك المنهي مقصود لتكميل فعلِ المأمور، فهو مَنهيٌّ عنه لأجل كونه يُخِلُّ بفعل الْمَأمور أو يُضَعِّفه ويُنقصه كما نبَّه سبحانه على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يَصُدّان عن ذكر الله وعن الصلاة. فالْمَنهيّات قَواطِع ومَوانع صادَّةٌ عن فعل المأمورات أو عن كَمالِها. فالنهيُ عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه.[1]

فإذا فهِمت أنّ المَأمورات مقصودةٌ لذاتِها لأنَّها مَحابُّ الله تعالى، فاعلَم أنه ليس الكافر مَن ترك الصلاة فقط، بل وكذلك أيضًا من تَرك غيرَها من أركان الإسلام. فقد قال النبي صلى الله

[1] بتصرّف في مواضع لبيان القصد بوضوح، وانظر إن شئت الفوائد ص120، الكتب العلمية.

عليه وسلم «بُنِيَ الإسلامُ على خَمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة والحجِّ وصوم رمضان»[1] فمهما أُخلّ بشيء من هذه الشعائر فقد أُخلَّ بالإسلام كلِّه، ومهما أُضيعَ شيءٌ منها فقد ضاع الإسلامُ كلّه.

بلغنا عن سعيد بن جُبير أنه قال "مَن ترك الصلاة مُتعمِّدا فقد كفر، ومن أفطَر يوما من رمضان متعمدا فقد كفر، ومَن ترك الحج متعمدا فقد كفر، ومن ترك الزكاة متعمدا فقد كفر!"[2] وقال ابن رجب الحنبلي: ذهب طائفةٌ من أهل الحديث إلى أن مَن ترك شيئا من أركان الإسلام الخمس عمدا أنه كافر. ورويَ ذلك عن سعيد بن جبير ونافع والحكَم، وهو رواية عن الإمام أحمد اختارها طائفة من أصحابه، وهو قول ابن حبيب من المالكية.. وقد رُوي عن عمر أنه ضرب الْجِزية على من لم يَحُجّ وقال "ليسوا بمسلمين!".. وقال ابن عيينة "المرجئة سَمَّوا تَرك الفرائض ذنبا بمنزلة رُكوب المحارم. وليس سواءً، لأن رُكوبَ المحارم مُتعمَّدا من غير استحلال معصيةٌ وتركَ الفرائض من غير جهل ولا عذر هو كُفر!"[3]

قال الذهبي عن ابن حبيب: محدّث الأندلس، شيخ! يروي عن ابن المبارك وأبي إسحاق الفزاري، روى عنه: أبو داود في 'السنن' وجعفر الفِريابي في مصنفاته.[4] فهو من كبار حملة علم مالك وقولُه يقوّي ما بلغنا عنه. ولقد بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنّه قال في ترك صوم رمضان عمدًا بغير عذر «عُرَى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أُسِّس الإسلام، مَن ترك

---

[1] خرجه البخاري في الإيمان ومسلم والنسائي والترمذي عن عبد الله بن عمر.

[2] خرجه اللاَّلَكائي 'شرح أصول إعتقاد أهل السنة' ج4-ص829.

[3] 'جامع العلوم' ص44، دار المعرفة. ونافع هو مولى ابن عمر، والحكم هو ابن عُتيبة الكوفي. وانظر 'مجموع فتاوى ابن تيميّة' ج7/ص302-303، بتحقيق الباز والجزار، دار الوفاء.

[4] 'سير أعلام النبلاء' ج12-ص108. وقال الزِّرَكلي: عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي الألبيري القرطبي (174-238) عالِمُ الأندلس وفقيهُها في عصره، كان عالما بالتاريخ والأدب، رأسا في فقه المالكية، له تصانيف كثيرة قيل تزيد على ألف، 'الأعلام' ج4-ص157.

منهن واحدة فهو بها كافرٌ حلالُ الدم: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان!»[1] وقولُ الله صريحٌ في تارك الحج عمدًا بغير عُذر ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ!﴾ [آل عمران 97] وكذا في تارك الزكاة عمدًا بغير عذر ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ؛ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ!﴾ [فصلت 6-7]

بلغنا عن عَمرو بن عثمان الرَّقِّي قال: كنت عند سفيان بن عيينة فجاءه رجل فقال "يا أبا محمد ما تقول؛ الإيمان يزيد وينقص؟!" قال "يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقَى معك منه شيء!" وعقد بثلاثة أصابع وحلَّق بالإبهام والسبّابة قال "فإنّ قوما يقولون 'الإيمان كلام' قد كان القولُ قولَهم قبلَ أن تنزل أحكامُ الإيمان وحدودُه؛ بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس أن «يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها حقَنوا بها دماءهم وأموالَهم إلا بحقها وحِسابُهم على الله» فلمّا علم الله صِدقَ ذلك من قلوبهم أمرَهُ أن يأمُرَهم بأن يُقيموا الصلاةَ فأمرهم ففعلوا، ولو لم يفعلوا ما نَفعهم الإقرارُ الأوَّلُ. فلما علِم الله تعالى صِدْقَ ذلك مِن قلوبهم أمرَه أن يأمرَهم أن يهاجِروا إلى المدينة فأمرهم ففعَلوا، ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا الصلاة. فلما علم الله صدقَ ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرَهم أن يرجعوا إلى مكة فيقاتلوا آباءَهم وأبناءَهم حتى يُقِرُّوا بِمِثْلِ إقرارِهم ويَشهَدوا بمثل شهادَتهم حتى أنّ الرجُلَ ليَجيءُ بالرأس فيقول "يا رسولَ الله، هذا رأس الشيخِ الضالِّ" -قلتُ: يعني أباه- فأمرهم ففعلوا ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرارُ الأولُ ولا الصلاةُ ولا الهجرةُ. فلما علم الله صِدْقَ ذلك مِن قلوبهم أمرهم أن يطوفوا بالبيت تعبُّدا ويحلُقوا رؤوسَهم تذلُّلا ففعلوا، ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرارُ الأولُ ولا الصلاةُ ولا الهجرةُ ولا الرجوعُ إلى مكة. فلما علم الله صدقَ ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم أن يؤتوا الزكاة قليلَها وكثيرَها، فأمرهم ففعلوا ولو لم يفعَلوا ما نفعهم الإقرارُ الأول ولا الصلاةُ ولا الهجرةُ ولا الرجوعُ إلى مكة ولا طوافُهم بالبيت ولا حَلقُهم رؤوسَهم. فلما علم الله ما تتابع عليهم من

[1] خرجه أبو يعلى ح2293 والطبراني في الكبير عن عبد الله بن عباس وحسّنه الهيثمي.

الفرائض ومُثولِهم لها قال له: قل لهم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا!﴾ [المائدة 3] فمَن ترَك شيئا من ذلك كسَلا أو مُجُونا أدَّبناه عليه وكان عندنا ناقصَ الإيمان، ومَن ترَكَها عامدا كان بها كافرًا: هذه السنة؛ أبلغ عني مَن سألك مِن المسلمين!"[1]

لقد تواتَر عن الصحابة أنّهم كانوا يعُدّون تاركي الزكاة كُفّارًا. قال أبو هريرة: لَمّا تُوُفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر وكَفَرَ مَن كَفر مِن العرب، قال عمر بن الخطاب "كيف تُقاتلُ الناسَ وقد قال رسول «أُمِرتُ أن أُقاتِل الناسَ حتى يقولوا "لا إله إلا الله" فمَن قالها، فقد عَصَمَ منّي مالَه ونفسَه، إلا بِحقِّه، وحسابُه على الله!»؟" فقال أبو بكر "واللهِ لأُقاتِلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإنّ الزكاة حقُّ المال! والله لو منعوني عَناقا كانوا يؤدّونَها إلى رسول الله لقاتلتُهم على منعها!" قال عمر "فواللهِ ما هو إلاّ أن قد شرح الله صدرَ أبي بكر فعَرفت أنه الحق!"[2] فوافق أخيرًا عمر وغيرُه أبا بكر على قتال مانعي الزكاة على أنَّهم مُرتدّون عن الدين، وفي رواية عن ابن عمر في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلّم قال «أُمِرتُ أن أقاتِل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة! فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءَهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابُهم على الله!» فالإسلام الذي يُخرج من الكفر ويعصِم الدماء هو السَّمع والطاعة والامتِثال ظاهرًا تذلُّلا وخُضوعًا لكلمة الله تعالى، وإلاّ فلا ولا كرامة!

وصف أبو هريرة تاركي الزكاة بأنَّهم كَفروا، كما قرّره أبو بكر مِن مُحاربَتهم على الكفر، وإن كانوا يصلّون وذلك قولُه "واللهِ لأُقاتِلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة!" ليُعلَم أن تاركي الزكاة كتاركي الصلاة في الكفر والخروج عن الدين، ووافقه عمر والصحابةُ وسمَّوهم مرتدّين. فمَن ترك رُكنًا من أركان الإسلام كَفر، إلا أن تركَ الزكاة والصوم والحج يحتمل التأويل لفَقد

---

[1] رواه أبو نعيم في ’حلية الأولياء‘ ج7-ص295.

[2] خرجه البخاري في الزكاة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك وأحمد.

النِّصاب أو لِمرض أو لِمانع مّا، بخلاف الصلاة، فإن تركها لا يحتمل التأويل إذ لا عُذرَ بحالٍ لعاقلٍ في تركها.

وذلك معنى قول النبي صلى الله عليه وسلّم «لا يَحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله إلا بإحدى ثلاث؛ النفسِ بالنفس، والثَّــيِّبِ الزاني، والمارِقِ من الدين التاركِ للجماعة!»[1] أي الخارج من الإسلام بتركه الصلاةَ مع الجماعة؛ فالأوَّلان يُقتَلان حدًّا والثالث رِدَّةً، عملاً بقولِه صلى الله عليه وسلم «مَن بدَّل دينَه فاقتلوه!»[2] فيُحكَم على تارك الصلاة بالكُفر بلا تردُّد بخلاف تارك الزكاة والصوم والحج فإنَّه يُنظَر في أحوالِهم للتحقُّق من وجود المانع الشرعي، وإلاّ فهم كفار. لذا لّما قيل لجابرِ بنِ عبدِ الله "ما كان يُفرِّق بين الكفر والإيمان عندَكم مِن الأعمال في عهد رسول الله؟" قال "الصلاة!"[3] وقال الحسنُ البَصري: بلغني أنَّ أصحابَ رسول الله كانوا يقولون "بين العبد وبين أن يُشرِك فيَكفُر؛ أن يَدَع الصلاةَ مِن غير عُذْر!"[4] وقال عبد الله بن شَقيق "كان أصحابُ مُحمد صلى الله عليه وسلم لا يَرَون شيئا من الأعمال تركُه كفرٌ غيرَ الصلاة!"[5]

إذا علمتَ أنّ ترْك أحَدِ أركان الإسلام كُفر، بانَ لك جليًّا فسادُ غيرِه من الأركان وأنّ الله لا يتقبَّلُه، لأنّ صاحبَه قد أفسَد حين أخلَّ بأصول الدين و﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ!﴾ [يونس 81] لذا لم تصحّ صلاةُ من لا يُزكِّي، ولا صلاةُ وزكاةُ مَن لا يَصوم، ولا صلاةُ وزكاةُ وصومُ مَن لا يَحُجّ وهو قادرٌ، لا شك في هذا في حقّ مَن أسقَط رُكنًا برُمَّته. بل ومَن أخَّر رُكنا عن موضعه أبطَل ما يليه، ومثالُه مَن أراد أن يقرِّب قُربانَ عيد الأضحى ولكنَّه لَم يصلِّ قبلَ نَحره

---

[1] خرجه البخاري في الديات ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، عن ابن مسعود.

[2] خرجه البخاري في الجهاد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس.

[3] 'شرح أصول اعتقاد أهل السنة' ج1-ص716، وخرجه ابن نصر في 'تعظيم قدر الصلاة'.

[4] ذكرهم اللالِكائي 'شرح أصول الاعتقاد' ج1-ص716، وابن بطة في 'الإبانة الكُبرى'.

[5] خرجه الترمذي في الإيمان، وخرجه الحاكم في الإيمان عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة.

فإن أُضحيته غير مَقبولَة كما بيَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «إن أوّل ما نبدأ في يومنا هذا أن نُصلّيَ ثم نرجع فنَنحَر؛ فمَن فعلَ ذلك فقد أصاب سُنّتنا! ومن نَحَر قبلَ الصلاة فإنّما هو لَحمٌ قدَّمه لأهلِه؛ ليس من النُّسْك في شيء!»[1] وهذا مفادُ قول الله تعالى ﴿قُلْ: إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ!﴾ [الأنعام 162] فلا نُسك إذ لا صلاة. لكنَّ الناس يأبَون هذا القَول، ويردُّه أكثرُ العُلماء بل ويلومون قائلَه. تلك حال الحقّ، فقلّما يتلقّاه الناس بالقَبول، وصدق مَن قال:

فإذا طلبتَ رِضَى النفوس بغَمْطِه شطَّ الضَّلالُ بها وعزَّ الْمَطلَبُ
أُحكُم بما شرع الإلَهُ ولا تَخفْ خَصمًا يَلوم ولا صديقا يَعتِبُ!

لقد أخطأَ جُمهورُ العلماء على كَثرَتِهم من وجوه كما ترى. ولكنَّهم لَم يقفوا عند هذا الحدّ، بل لَجُّوا في خَطئهم وشَطّوا فوَجدُوا في أنفُسهم على مَن صرَّح بكُفر تاركي الصلاة وعتَبوا عليهم ورمَوهم بقلَّة الفقه. ثم لم يكتَفوا بهذا، فأَخذوا يُدافعون عمَّن حرَّم الله الْمُدافعةَ عنه، وقد نَهى تعالى نبيَّه عن ذلك، فقال له ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ؛ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ! وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا!﴾ [النساء 105] فارجعْ في الحُكمِ فيهم إلى كتاب الله، فإنَّ الحقَّ فيه، وإيّاك أن تُخاصِمَ دِفاعًا عمَّن خانَ اللهَ ورسولَه.

ولقد نَهانا ربُّنا عن مُوالاة تاركي الصلاة فقال تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ﴾ أي لا وَلِيَّ لكم إلاّ ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وميزَتُهم أنَّهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ! وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا؛ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّه هُمُ الْغَالِبُونَ! يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ! وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ!﴾ ثم بيَّن أخصَّ ميزاتهم فقال ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَة، اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ وتلك حال تاركي الصلاة من هذه الأمَّة؛ فإنَّهم يستهزئون بالأذان ولا يعدّونَه شيئا، ويسخَرون ممّن يسارعون إلى المسجد ويعدّونهم حَمقَى مغفَّلين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ!﴾ [المائدة 55-58]

---

[1] خرجه الدارقطني في البيوع وقوّاه، ورُوي مرفوعا والصواب أنّه لم يثبُت فيه عن النبي شيء.

أي قليلو الإيمان فاسقون ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ؛ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ! وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة 81].

قد نَهى الله نُوحًا من قبلُ لَمّا أراد نجاةَ ابنه من عذاب الآخرة، بعد ما غَرِق في الطوفان جرَّاءَ كُفره. وهاكَ ما قصَّه تعالى علينا ممّا جرَى لَمّا ركب نوحٌ سفينةَ النجاة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ: يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ! قَالَ: سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ! قَالَ: لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ! وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ: يَا أَرْضُ، ابْلَعِي مَاءَكِ! وَيَا سَمَاءُ، أَقْلِعِي! وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ: بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ!﴾ بما فيهم ابنُ نوح، ولكنَّ نوحا أخذته الرَّحمةُ على ابنه فجرأ إلى الله ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ: رَبِّ، إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ!؟﴾ فعاتَبه الله ﴿قَالَ: يَا نُوحُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ! إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ! فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ؛ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ!﴾ فتراجع نوح عن ذلك وتاب ﴿قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي﴾ مُوالاتي لابني الكافر عطفًا عليه وطمعًا في رحمتك الواسعة ﴿وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ!!﴾ [هود 42-47] وذلك لَّما ذكَّره الله بما أوحى إليه من قبلُ وذلك قولُه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا! فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ، إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ، وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا؛ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ!﴾ [المؤمنون 27] فما كان لنوح أن يُخاطبَ الله في ابنه ما دام من الذين ظَلَموا.

و لم يسْمَح تبارك وتعالى لإبراهيم أن يستَغفرَ لأبيه، فقال ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ؛ تَبَرَّأَ مِنْهُ؛ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ!﴾ [التوبة 114] ولَم يأذَن جلَّ وعلا لمحمّد أن يستَغفر لأمِّه، قال صلى الله عليه وسلم «استَأذَنتُ ربِّي أن أَستَغفرَ لأُمِّي فلَم يَأذَنْ لِي، وَاستَأْذَنتُه أن أَزورَ قَبرَها فأَذنَ لي!»[1] ثم هذا أبو لَهَب وهو عمُّ النبي،

[1] رواه مسلم في الجنائز وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

لّما كانَ كافرًا عدوًّا لله ورسولِه دعا عليه الله من فوقِ سبع سماوات وأنزَل تعالى سورةً تُنادي عليه وعلى امرأته بالويل والتباب، وهو الهلاك، إلى يوم القيامة وهي ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ! سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ! وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ؛ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ!﴾ [المسد 1-5]

مَعلومٌ بالضَّرورة أن لَن يكون أحدٌ من العُلماءِ ولا غيرهم أحبَّ إلى الله من أنبيائه، عليهم أزكَى الصلواتِ وأتَمُّ التسليم، ولَم يُجزِ تعالى لنوحٍ أن يستَغفِرَ لابنِه، ولا سَمِح لإبراهيم أن يستَغفِرَ لأبيه، ولا أذِن لمحمّد أن يستَغفر لأمّه ولا لعمِّه أبي طالب بل وجعلَ عمَّه أبا لهب عِبرَةً إلى آخر الدَّهر. وهم مَن هم مِن أُولي العَزم من الرُّسُل، وهؤلاء الذين نُهُوا عن الاستغفار لَهم هُم أقربُ الْخَلق إليهم رَحِمًا وأحقُّ الناس بمودَّتِهم وشَفَقتِهم. فالاستغفارُ لأعداء الله والجدالُ عنهم مُنكَر وخطيئةٌ عظيمة ولا يحلُّ ذلك لأحدٍ قطُّ؛ كما هو ظاهر في قول الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى، مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ!﴾ [التوبة 113].

ثورة الألباني

وأخيرًا أريد أن أنبِّه على أمر لَطالَما تعجَّبت منه وتحيَّرت فيه، ألا وهو ثورة الألباني على كل مَن يقول بكُفر تارك الصلاة، وإنكارُه الذي أدّى به إلى الاجتراء على العلماء حتّى حوَّرَ أقوالَهم وغيَّرَ حُكمَهم فممّا قاله: ..يبدو لي جليا أن ابن القيم بعد بحثه القيم في التفريق بين الكفر العملي والكفر الاعتقادي وأن المسلم لا يخرج من الملة بكفر عملي، لم يستطع أن يحكم للفريق المكفِّر بترك الصلاة، مع الأدلة الكثيرة التي ساقها لهم، لأنها كلها لا تدلّ على الكفر العملي. ولذلك لجأ أخيرا إلى أن يتساءل "هل ينفعه إيمانه؟" و "هل الصلاة شرطٌ لصحة الإيمان؟" قلت: إن كل من تأمل في جوابه على هذا التساؤل يلاحظ أنه حادَ عنه إلى القول بأن الأعمال الصالحة لا تقبل إلا بالصلاة، فأين الجواب عن كون الصلاة شرطا لصحة الإيمان؟! أي ليس فقط شرط كمال فإن

الأعمال الصالحة كلها شرط كمال عند أهل السنة.. فلو قال قائل بأن الصلاة شرط لصحة الإيمان وأن تاركها مخلَّد في النار فقد التقى مع الخوارج في بعض قولهم هذا. ولعلّ ابن القيِّم بحَيْدَته عن ذلك الجواب أراد أن يُشعر القارئ بأهمـــيَّة الصلاة وأنه لا دليلَ على أنّها شرطٌ لصحة الإيمان، وعليه فإنّ تارك الصلاة كسَلا لا يكفَّر عنده.. وهذا ما فعله ابنُ تيميّة، حمل تلك الأدلّة هذا الحمل.. وذاك قوله "متى امتنع الرجلُ عن الصلاة حتى يُقتَل لم يكن في الباطن مُقرًّا بوجوبها، وهذا كافرٌ باتِّفاق المسلمين.. فمن كان مُصِرًّا على تركها حتى يموتَ لا يَسجُد لله سجدةً قطُّ فهذا لا يكون قطُّ مسلما مقِرًّ بوجوبها.. فأمّا من كان مُصِرًّا على تركِها لا يُصلّي قطّ ويموتُ على هذا الإصرارِ والترك فهذا لا يكون مسلمًا..." وعلى هذا المحمل يدل كلام الإمام أحمد أيضا، الذي شَهَرَ عنه بعضُ أتباعه المتأخِّرين القولَ بتكفير تارك الصلاة بلا تفصيل. وكلامه يدل على خلاف ذلك.. فقد ذكر ابنه عبد الله في 'مسائله' قال: سألتُ أبي رحمه الله عن ترك الصلاة متعمِّدا قال "..والّذي يترُكها لا يصلِّيها والذي يصلّيها في غير وقتها أدعوه ثلاثا؛ فإن صلّى وإلا ضربتُ عُنُقَه وهو عندي بمنزِلة المُرتدِّ..." قلتُ: فهذا نصٌّ من الإمام أحمد لم يُكفِّره بمجرَّد تركه للصلاة، وإنما بامتناعه عن الصلاة مع علمه بأنه يُقتل إن لم يصلِّ. فالسبب هو إيثارُه القتلَ على الصلاة؛ فهو الذي دلَّ على أن كفره كفرٌ اعتقادي."[1]

لَم يَحِد ابن القيم عن الجواب فإنَّه يقول: فيبقَى النظر في الصلاة؛ هل هي شرط لصحة الإيمان. هذا سرُّ المسألة، والأدلّةُ التي ذكرناها وغيرُها تدلُّ على أنه لا يُقبل من العبد شيء من أعماله إلا بفعل الصلاة فهي مفتاح ديوانه ورأسُ مالِ ربحه، ومُحالٌ بقاءُ الربح بلا رأسِ مال. فإذا خسِرَها؛ خسِرَ أعمالَه كلَّها، وإن أتى بها صورةً! أشار إلى هذا في قوله ومَن ضيَّعها، فهو لِما سِواها أضْيَعُ!"[2] وقوله أنّ أوّلَ ما يُنظَر فيه من عمل العبد الصلاةُ؛ فإن قُبلت منه نُظِرَ فيما بَقي

[1] 'حكم تارك الصلاة' ص67 إلى ص74، نشرها علي بن حسن الحلبي، المكتبة الإسلاميّة، عمّان.

[2] من كلام عمر، رواه مالك في وُقوت الصلاة عن نافع والبيهقي في 'الكُبرى' عن عُروة بن الزبير.

مِن عملِه وإن لم تُقبَل منه لم يُنظَر في شيء من عمله.[1] العجب أن يقَع الشكُّ في كُفرِ مَن أصرَّ على تركها ودُعيَ إلى فعلها على رؤوس الملأ وهو يرى بارِقةَ السيف على رأسه ويُشَدُّ للقَتْلِ وعُصِّبَتْ عيناه وقيل له "تُصلِّي وإلا قتلناك!" فيقول "اُقتُلوني؛ ولا أصلّي أبدًا!" ومَن لا يكفِّر تارِكَ الصلاة؛ يقول "هذا مؤمنٌ مُسلم؛ يُغسَّل ويُصلَّى عليه ويُدفَنُ في مَقابر المسلِمين!" وبعضُهم يقول "إنه مُؤمنٌ كاملُ الإيمان؛ إيمانُه كإيمانِ جبريلَ وميكائيلَ!" أفلا يستحي مَن هذا قولُه من إنكاره تكفيرَ مَن شهِد بكُفره الكتابُ والسنةُ واتفاقُ الصحابة؟!"[2] فانظر إلى جرأة الألباني وقوله "إنّ تاركَ الصلاة كسَلا لا يكفَّر عندَه" أي عند ابن القيم، والذي يقول "أفلا يستحيي مَن هذا قولُه؟!"

لقد أجاب ابنُ القيم عن مسألة: هل الصلاة شرط لصحة الإيمان، وبيَّن أنها الإيمانُ بعينه وأنَّ تاركها ليس بمؤمن ولا بمسلم، وأنَّ مَن خالف هذا فقد أنكَر تكفيرَ مَن شهِد بكُفره الكتابُ والسنةُ واتفاقُ الصحابة، وهذا كفرٌ في حدّ ذاته لأنَّه إنكارُ معلومٍ من الدين بالضرورة. ولكنَّ الألباني لا يريد فهمَ هذا، ثم انظر إلى قوله "الأعمال الصالحة كلّها شرطُ كمال عند أهل السنة" مَن يقصِد بأهل السنَّة يا تُرى؟! ومِن أين جاء بفكرة 'شرط كمال الإيمان' ولم يقل هذا أحدٌ من أهل السنَّة والجماعة؟! ولستُ أدري ما يقصده. بل الأساسُ عندهم أن الأعمال من الإيمان، فمَن ترك ما أمره الله به من طاعات وهو قادرٌ عليه، وعلى رأسها العبادات الخمس، فقد أبى طاعةَ الله وهو كافر بمجرَّد الإباء، وهذا هو كفرُ إبليسَ وفرعونَ وأكثرِ الأمم؛ هذا اعتقادُ أهل السنَّة والجماعة وفقًا لما في القرآن والسنَّة وإجماع الصحابة. ومع هذا فإنّ الألبانيَّ يقول "لو قال قائلٌ بأن الصلاة شرط لصحة الإيمان وأن تاركها مخلَّد في النار؛ فقد التقَى مع الخوارج!" لا نقول أنَّ الصلاة شرطٌ في الإيمان بل هي الإيمان بعينه كما بيّناه مرارًا، وأمَّا الحكم على تاركها بالخلود في

---

[1] رواه مالك في جامع الصلاة عن يحيى بن سعيد أنه قال: بلغني أن أول..، ووصله أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة «إنّ أوّلَ ما يُحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عَمَلِه: صلاتُه..» الحديث

[2] 'الصلاة وحكم تاركها' ص81-82، الجفان، قبرص/دار ابن حزم، بيروت.

النار فقد سبق أنَّ هذه مسألةٌ أخرى لا دخلَ لنا فيها، هي من شأن الله وحدَه لا شريك لَه ﴿قَالَ: النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ!﴾ [الأنعام 128] فإن شاء تعالى أن يخرج من النار مَن يشاء من الكفار ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ؛ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ!﴾ [آل عمران 128]

وأمّا كونُ الصلاةِ هي الإيمانَ، فذاك اعتقادُنا. وممّا يدلّ عليه ما ساقه أبو بكر الآجُرّي في باب 'كُفر مَن ترك الصلاة' من كتاب 'الشريعة' بسنده من أخبار وآثار إلى أن قال: ..عن معقل بن معقل الخَثعمي قال: أتى رجلٌ عليا وهو في الرَّحبة قال "يا أميرَ المؤمنين، ما ترى في المرأة لا تصلّي؟!" فقال "من لم يصلِّ فهو كافِر!" قال الآجرّي: هذه السنن والآثار في ترك الصلاة وتضييعها مع ما لم نذكره مما يطول به الكتاب، مثل حديث حُذيفة وقوله لرجل لم يُتِمَّ صلاته "لو مات هذا، لَمات على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم" ومثلِه عن بلال وغيرِه، ما يدلُّ على أن الصلاة من الإيمان، ومن لم يصل فلا إيمانَ له ولا إسلامَ. قد سمى الله عزّ وجل في كتابه الصلاةَ إيمانا، وذلك أن الناس كانوا يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن حُوِّلوا إلى الكعبة، وماتَ قومٌ على ذلك. فلما حُوِّلت القِبلة إلى الكعبة قال قومٌ "يا رسولَ الله، فكيف بمن مات مِن إخواننا ممن كان يصلّي إلى بيت المقْدِس؟" فأنزل الله عزّ وجل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ!﴾ [البقرة 143] يعني صلاتَكم إلى بيت المقدس[1] وقال هبةُ الله اللالِكائي: رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الصلاة من الإيمان، وروي ذلك من الصحابة عن عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي الدرداء والبراء وجابر بن عبد الله، وبه قال مِن التابعين مجاهد وسعيد بن جبير وجابر بن زيد وعمرو بن دينار وإبراهيم النخعي والقاسم بن مخيمرة، ومن الفقهاء ومالك والأوزاعي والشافعي وشريك بن عبد الله النخعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد القاسم بن سلام.[2]
والألبانيّ يقول: القول بأنّ الصلاة شرطٌ لصحة الإيمان قولُ الخوارج!

---

[1] 'الشريعة 'باب كفر من ترك الصلاة، ر277، ج1-ص305.

[2] 'شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة'، ج4-ص816، دار طيبة، الرياض.

وكذلك فعلَ مع ابن تيميّة الذي يقول "مَن كان مُصرًّا على تركها حتى يموتَ، فهذا لا يكون مسلمًا" وقال "من كان مُصرًّا على تركِها، لا يُصلّي قطّ ويموتُ على هذا الإصرارِ والترك؛ فهذا لا يكون مسلمًا" لكنَّ الألباني يريدنا أن نفهم من هذا أنّه "يموت مَقتولا بالسيف لإبائه الصلاةَ وتفضيله القتلَ عليها" ولم يقل ابن تيميّة "يُقتَل" كما ظنّ الألباني بل قال "يموت وهو تاركٌ للصلاة" وشتّانَ بين مَن يموت وهو عافلٌ عن الصلاة ومَن يُصرُّ على تَركِها ويقبَل أن يُقتَل بسبب تَركِه إياها. هذا مِن أبْعد الافتِراضات، وقد ردَّه ابن تيميّة في مواضعَ منها قولُه: لا يُعرَف أن أحدًا يَعتقد وُجوبَها ويقال له "إن لم تُصَلِّ قَتَلْناك!" فيُصِرّ على تركها مع إقراره بالوجوب، فهذا لم يَقَع قطُّ في الإسلام![1] وقال في موضع آخر: مسألةٌ يمتنع وقوعُها، وهي أن "الرجل إذا كان مُقرًّا بوُجوب الصلاة، فدُعي إليها وامتَنع ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يُصلِّ حتى قُتل؛ هل يموت كافرا أو فاسقا" هذا الفرَض باطِل؛ إذ يمتنع أن يعتقِد أن الله فرضَها ولا يفعلُها، ويَصبِر على القتل؛ هذا لا يفعله أحدٌ قطّ![2]

ويقول في موضع ثالِث: لا يُتصوّر في العادة أنّ رجُلا يكون مؤمِنا بقلبه مُقِرًّا بأن الله أوجبَ عليه الصلاة ملتزما لشريعة النبي صلى الله عليه وسلّم وما جاء به، يأمرُه وليُّ الأمر بالصلاة فيمتنع حتى يُقتل ويكون مع ذلك مؤمنا في الباطن قَطّ؛ لا يكون إلا كافرا! ولو قال "أنا مُقِرّ بوجوبها غيرَ أنّي لا أفعلها" كان هذا القول مع هذه الحال كذِبا منه. كما لو أخذَ يُلقي المَصْحف في الحُشّ ويقول "أشهدُ أنّ ما فيه كلامُ الله" أو جعل يَقتُل نبيًّا من الأنبياء ويقول "أشهد أنه رسول الله" ونحوُ ذلك من الأفعال التي تُنافي إيمانَ القلب. فإذا قال "أنا مُؤمن بقلبي" مع هذه الحال كان كاذِبا فيما أظهرَه من القول. فهذا الموضع ينبغي تدبُّرُه، فمَن عرَف ارتباطَ الظاهِر بالباطِن زالَت عنه الشبهةُ في هذا الباب وعلِم أن مَن قال من الفقهاء أنه "إذا أَقرَّ بالوُجوب وامتنَع عن الفعل؛ لا يُقتل، أو يقتل، مع إسلامه" فإنه دخلت عليه الشُّبهة التي دخلت على

---

[1] 'مجموع الفتاوى' ج22-ص48، دار الوفاء.

[2] 'الفتاوى الكُبرى' ج5-ص318، بتحقيق الأخَوين عطّا، دار الكتب العلمية.

الْمُرجئة والجَهميّة والتي دخلت على مَن جعل الإرادة الجازمة مع القدرة التامّة لا يكون بها شيء من الفعل. ولهذا كان الممتنعون مِن قتل هذا مِن الفُقهاء بَنَوه على قولِهم في "مسألة الإيمان" وأن الأعمال ليست من الإيمان. وقد تقدَّم أن جِنس الأعمال مِن لَوازم إيمان القلب وأن إيمان القلب التامّ بدون شيء من الأعمال الظاهِرة مُمتَنِع سواءً جعل الظاهرَ من لوازم الإيمان أو جُزءا من الإيمان.[1]

هذا ردّ ابن تيميّة على الألباني وأولئك الذين يفصِّلون ويحثون في نيَّة تارِك الصلاة، فقوله "مَن كان مُصرًّا على تركها حتى يموتَ فهذا لا يكون مسلمًا" يقع على كلّ مَن ترك الصلاة ومات على ذلك؛ فهذا لا شكَّ في كُفرِه. وعليه فلا يُغسَّل ولا تُحضَر جنازَتُه ولا يُدخَل المسجِدَ ولا يُصلَّى عليه ولا يُدفَنُ في مَقابر المسلِمين ولا يُترَّحم عليه إذا ذُكِر أبدًا.

وكذلك فعل الألباني مع أحمد بن حنبل فادَّعى فيما سبق أنه "شَهَرَ عنه بعضُ أتباعه المتأخِّرين القولَ بتكفير تارك الصلاة" وهذا افتراءٌ وظلمٌ صارخٌ لأنَّه باطل يخالف ما مرَّ بيانُه من أقوال أحمد الكثيرة الواضحة الصريحة في حُكمِه بالكُفر لِمُجرَّد ترك الصلاة، وليس فيما ساقه عنه أنّه كان يرى في المسألة تفصيلاً، وهاك ما في الأصل: قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي رحمه الله عن ترك الصلاة متعمِّدا، قال "يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «بين العبد وبين الكفر تركُ الصلاة» والذي يترُكها لا يصليها، والذي يصليها في غير وقتها أدعوه ثلاثا فإن صلَّى وإلا ضربتُ عنُقَه؛ هو عندي بمنزلة المرتدِّ، يستتاب ثلاثا فإن تاب وإلا قُتل"[2] وقال محمد بن نصر المروزي: حدثنا إبراهيم الجوزجاني قال حدثني إسماعيل بن سعيد قال: سألتُ أحمد بن حنبل عن مَن ترك الصلاة متعمِّدا قال "لا يَكفُرُ أحدٌ بذنب إلا تارِكُ الصلاة عَمدًا، فإن ترك صلاة إلى أن يدخل وقت صلاة أخرى يستتاب ثلاثا" وقال الشالنجي: سألتُ أحمد بن حنبل عن مَن ترك الصلاة والزكاة والصوم والجمعة والحج عمدا، وهو يَقدِرُ على ذلك و لم يمنعه من ذلك مرضٌ ولا خوف قال "أما

---

[1] 'الإيمان الأوسط' ص157، الشركة الجزائرية اللبنانية.

[2] 'مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله' مسألة ر191، ص55، المكتب الإسلامي، بيروت.

في الصلاة إذا تركها إلى أن يَدخل وقتُ صلاةٍ أخرى؛ يستتاب ثلاثا، فإن تاب وإلا.." يعني قُتل.[1] فانظُر كيف ساق أوَّلا الحديث الدالّ على كفره و لم يتأوَّله، ثم بنى عليه ما يليق من حكم بالاستتابة، والقتل كُفرًا إن أبى الصلاة، وهذا كلُّه من السنَّة لأنَّه كافرٌ يجب دعوتُه على تفصيل سيأتي فيما بعد. وهذا ما بلغنا عن أحمد بن حنبل من وجوه عن أقرب أصحابه مثل ابنيه عبد الله وصالح وأصحابه مُهنّى وعبدوس والكَوسج وغيرهم.

والألباني يدَّعي أن "بعض أتباع أحمد المتأخِّرين شَهَرَ عنه القولَ بتكفير تارك الصلاة"! بل وقد أقرَّ الألباني نفسُه بخلاف ما يقوله هنا، فإنّه قال فيما سبقَ أن نقلناه عنه: وذهب أحمد إلى أنه يكفر وأنه يقتل رِدّة، لا حدا.. وهذا حُذيفة بن اليمان يرد على صِلة بن زُفر، وهو يكاد يفهَم الأمر على نحو فهم أحمد له، فيقول "ما تُغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة؟" فيجيبه حذيفة بعد إعراضه عنه "يا صلة تُنجيهم من النار!" ثلاثا.[2] فَهْمُ أحمد الذي يَغيظُ الألبانيَّ إنَّما هو فهمُنا لما جاء به القرآن والسنَّة من أن تارك الصلاة كافر بلا تفصيل ولا نظر ولا توقُّف.

وأمّا قولُه "لم يُكفِّره –يعني أحمد– بمجرَّد تركه للصلاة، وإنما بامتِناعه عن الصلاة مع علمه بأنه يُقتل إن لم يصلِّ. فالسبب هو إيثارُه القتلَ على الصلاة؛ فهو الذي دلَّ على أن كفره كفرٌ اعتقادي." فجوابه سؤال واحد وهو أنّ إبليس تركَ سجدةً فقط ثم لَم يمُت بعدُ، أمعنى هذا أنَّه مسلم؟! قال المروزي: وسمعت إسحاق –يعني ابن راهويه شيخَه– يقول: ..واجتمع أهلُ العلم على أن إبليس إنما ترك السجودَ لآدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان في نفسه خيرا من آدم عليه السلام فاستكبر عن السجود لآدم فقال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ؛ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ!﴾ [الأعراف 12] فالنار أقوى من الطين، فلم يشك إبليس في أن الله قد أمره ولا جَحد السجود فصار كافرا بتركه أمرَ الله تعالى واستنكافه أن يَذُلَّ لآدم بالسجود له و لم يكن تركه استنكافا عن الله تعالى ولا جُحودا منه لأمره. فاقتاس قوم ترك الصلاة على هذا قالوا "تارك السجود لله تعالى وقد

[1] 'تعظيم قدر الصلاة' ص564-565، دار العقيدة، الإسكندريّة.

[2] 'السلسلة الصحيحة' ج1-ص86.

افترضه عليه عمدا وإن كان مُقرًّا بوجوبه، أعظمُ مَعصيَةً من إبليس في تركه السجود لآدم؛ لأن الله تعالى افترضَ الصلواتِ على عباده اختصها لنَفسه فأمرهم بالخضوع له بها دون خلقه، فتارك الصلاة أعظمُ معصيةً واستهانةً من إبليس حين ترك السجود لآدم عليه السلام" فكما وقعت استهانةُ إبليس وتكبُّرُه عن السجود لآدم موقع الحجة فصار بذلك كافرا، فكذلك تارك الصلاة عمدا من غير عُذر حتى يذهب وقتُها كافر. قال إسحاق: وقد كُفِيَ أهلُ العلم مَؤونَةَ القِياس في هذا بما سنَّ لهم النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده؛ جَعَلوا حُكمَ تارِك الصَّلاة عَمْدا حُكمَ الكافرِ! قال إسحاق: ولقد قال قوم من أهل العلم "إذا ترك الرجلُ الصلاةَ متعمِّدا حتى يذهب وقتها لم يكن كافرا حتى يموتَ على تركها فحينئذ تبيَّنَ كفرُه، لأن إبليس لم يسجُد لله السجدةَ التي أمره بها بعد تركِه إياها، فكذلك تارك الصلاة إذا ثبت على تركِها حتى يموت." قال إسحاق: هذا القول قريب من قول الطائفة التي رأت التركَ الجحدَ، وكيف يُتربَّص بشىء يَكونُ به كافرا بعدَ زمان ولا يتبيَّنُ كُفرُه إلا بمَوتِه؟! فلئن كان كافرا بتَركِها فقد كَفَرَ حين تَرَكَها، وإلا فإنَّ الموتَ لا يُحقِّق لأحد كُفرًا ولا إيمانا إلا ما تَقدَّم مِن فِعلِه. قال: ويَلزم قائلَ هذا أن قادَ كلامُه قولاً قَبيحا أن يقول "إن إبليس لو سجد السجدة التى تركها قبل أن يلقى الله أنه لم يزل مؤمنا من حين ترك السجود إلى أن سجد وندم" فليس هذا بقول! قال إسحاق: وهذا إنما احتجَّ كنَحو مَن رأَى التركَ الجُحود فاحتجَّ لنَفسه أنّ إبليس تَركَ السجودَ لآدم تَكبُّرا عن السُّجود الذي أمرَه الله تعالى، والتكبُّر عن أمر الله تعالى رَدٌّ على اللهِ، فمَن تكبَّر عن أَمرِ الله وصَغَّره فقد جَحَدَه؛ فإنَّما يَكفُر تاركُ الصلاةِ عمدًا إذا تركَها على هذه الجهة على التَّصغير لأَمرِ الله تعالى والتكبُّر عنه. انتَهى كلام إسحاق. قال أبو عبد الله المروزي: قد حَكينا مقالةَ هؤلاء الذين أَكفَروا تاركَ الصلاة مُتعمِّدا وحَكينا جُملةَ ما احتجُّوا به؛ وهذا مَذهَبُ جُمهورِ أَصحابِ الحديث.[1] وكان ينبغي أن لا يكون في المسألة خلافٌ أصلاً، كما بلغنا عن أيوبَ السِّخْتيانِي قال "تَركُ الصلاةِ كفرٌ لا يُختَلف فيه!" وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

[1] 'تعظيم قدر الصلاة' ص568-570، وروى المروزي أثر أيوب بسنده ص562.

خلاصة القول أن الألباني لَم يأتِ في هذه المسألة الخطيرة بشيء يوافق الشرع، كلامُه في غاية التُذَبذُب والاضطراب والتناقُض، بل هو في واقع الأمر تشويش وتشغيب. ولقد اتَّضَح لي بعد مدَّة، ممّا استَشففتُه من خلال ما قرأتُ له ولأتباعِه جماعةِ السلَفيّة، وشاهدته وعشته في الجزائر وفي فرنسا وغيرهما من بلاد المسلمين وغيرها، منذ أكثر من ثلاثين عاما من اشتداد الخِناق علينا نحن المسلمين ومن واقعِ الأمر الذي نعيشُه والرزايا التي تتوالى علينا من كيد الحكّام الكفّار وما انجرَّ عنه من تضييقٍ ومن ويلات كالسَّجن والتعذيب والتقتيل، بينَما الجماعة السَّلفيّة تَنعَم بالحريّة ورَغد العيش. حاصل ما جاء به الألباني أنَّه قدّم للناس وللأنظمة العَربية خاصّةً عقيدةً مخالفة لما عليه أهل السنَّة والجماعة، لا تدع شكًّا في أنَّه في الواقع مُرجئ، وإن حاول التبرُّء ورمى مَن يقول هذا فيه بالخروج. وإلا ما سَمِح له طاغيةُ الأردن بأن يقيم في مملكته ويتكلَّم ويكتب ويكثُر حوله الطلبةُ وينتشروا في البلاد فتعجَّ بهم المنابر وقنوات التلفزيون وبتواليفهم المكتبات. أما خوضُه في الأحاديث وتَجاسر في الحكم عليها فقد أحدثَ بذلك فتنةً عظيمة، والحقيقة أنه ليس بأهل لذلك لقلَّة فهمه ولقِصر باعه ولأنَّه مرجئ ساقطٌ عندنا بالمرَّة، بلغنا عن شُعبة أنّه قال لشريك القاضي "كيف لا تُجيزُ شَهادةَ المرجئة؟" قال "كيف أجيزُ شهادةَ قومٍ يَزعُمون أن الصلاة ليست من الايمان؟!"[1] وقال تقي الدين ابن تيمية: الطريقة الوسطى، التي هي دين الإسلام المحض، جهادُ مَن يستحقُّ الجهادَ مع كل أمير وطائفة هي أَولى بالإسلام؛ يطيعهم في طاعة الله ولا يطيعهم في معصية الله، إذ لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق. وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديما وحديثا، وهي واجبة على كل مكلَّف، وهي متوسطة بين طريق الحَرورية، وأمثالهم ممن يسلُك مسلك الوَرَع الفاسِد الناشئ عن قِلّة العلم، وبين طريقة الْمُرجئة، وأمثالهم مِمَّن يسلُك مَسلكَ طاعَة الأمراء مُطلَقا وإن لم يكونوا أبرارا![2]

صِحتُ في صَحبٍ بمجلِسهم بين مُثريهم ومُفْلِـــسِهم

---

[1] رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في 'السنة'،ج1-ص334، دار ابن القيم، الدمام.

[2] 'مجموع الفتاوى' ج28-ص508، دار الوفاء.

أَوَّلُــوا نَصَّ الدَّلــيل بِــما جاءِ في فُــتْيا مُقدَّسِـــهِم
جِئتُ مِن آيِ الكتاب ومِن خَبَـــرِ الهادي بِمُخْرِسِهِم
هل كِتابُ اللهِ تَــنسَخُــهُ نَــفَثاتٌ من مُوَسْوِسِهِم؟!
أو حَديثُ الْمُصطَفَى تَــبَعٌ لِهَــواهُم في تَــهَوُّسِهِم؟!

أهل الكتاب

رُوي عن عمر بن الخطاب أنه قال "لقد هَممتُ أن أكتُب في الأمصار بضَرب الجِزية على من لم يَحُجَّ ممّن يستطيع إليه سبيلا"[1] وهذا ضمٌّ لَتاركي الحجّ إلى أهل الكتاب، لأنّ الجزية خاصّة بهم كما في قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ!﴾ [التوبة 29] فإن ثبتَ هذا نَقلا فالواجبُ حتمًا سَحبُه على تاركي الصلاة، فهُم أولَى الناس به. وإلا فقد صحَّ عنه، رضي الله عنه وأرضاه، أنّه حين اختَلطَ الْمَجوسُ بالْمُسلمين اهتمَّ لذلك فقال "ما أدري كيف أصنعُ في أمرهم!" فقال عبد الرحمن بن عَوف: أشهد لَسمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «سُنُّوا بهم سنّةَ أهلِ الكتاب»[2] فكتب عمرُ إلى عُمّاله قبل موته بسَنة "فرِّقوا بين كل ذي مَحرَم من المجوس!" وأخذ الجزيةَ منهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم.[3] فلَم يذَر عمرُ عَبَدةَ النار الْمُعايشين للمُسلمين بغير حُكم شرعي، بل قيَّدهم بالشريعة وألحَقَهم بأهل الكتاب في الجزية فقط، لا في الأطعمة والأنكِحة، اتِّباعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإظهارا للدين الحقّ بين الناس جميعا.

يقول ربُّنا جل جلالُه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ! وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي القُرآن ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ! مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا

---

[1] رواه أبو طالب المكي في 'قوت القلوب' ج2-ص189، دار الكتب العلمية، والغزالي في 'إحياء علوم الدين' ج1-ص245، دار المعرفة، وابن رجب الحنبلي في 'جامع العلوم والحكم' ص44، دار المعرفة.

[2] رواه مالك في الزكاة عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه.

[3] خرّجه البخاري في أوّل كتاب الجزية وأبو داود والترمذي والدارمي وأحمد.

يَعْمَلُونَ!﴾ [المائدة 65-66] لقد جمع الله في هاتين الآيتين من سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل، اليهودَ والنصارى ومَن أوتوا القُرآنَ ولَم يُقيموه فجعلَهم تحت اسم 'أهل الكتاب'. قال الطبري: يعني تعالى ذكرُه بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يقول: وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم مِن الفُرقانِ الذي جاءَهم به محمد صلى الله عليه وسلم. فإن قال قائل "وكيف يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم مع اختلاف هذه الكتب ونسخِ بعضها بعضًا؟" قيل: إنها وإن كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متَّفقة في الأمر بالإيمان برُسُل الله والتصديق بما جاءت به من عند الله. فمعنى إقامتهم التوراةَ والإنجيل وما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم: تصديقُهُم بما فيها والعملُ بما هي متفقة فيه، وكل واحد منها في الحين الذي فُرِض العملُ به.[1] وعليه فكثير من الذين أوتوا القُرآنَ في ضلال.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «افترَقَت اليهود على إحدَى وسبعين فِرقةً، فواحِدَةٌ في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارَى على ثِنتَين وسبعين فِرقة، فإحدَى وسبعون في النار وواحدةٌ في الجنة؛ والذي نفسُ مُحمّد بيده، لتفترقنَّ أمّتي على ثلاث وسبعين فِرقة، واحدةٌ في الجنة وثِنتان وسبعون في النار!» قيل "يا رسولَ الله، مَن هم؟" قال «الْجَماعةُ!»[2] معنى الحديث، والله أعلم، أنّ الناسَ قد ضَلُّوا جميعًا قبلَ بعثة موسى عليه السلام وتفرَّقوا كثيرًا جدّا، وعددُ السبعين في لغة العرب ليس للتحديد فقط بل هو هنا لوصف الكثرة الكبيرة كقول الله ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ!﴾ [الحاقّة 32] وقوله تعالى ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً، فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ!﴾ [التوبة 80] ظلَّ الناس يفترِقون إلى أن بعث الله موسى، فاتَّبعَه مَن اتَّبعَه من بني إسرائيلَ وكوَّنوا الفرقَة النّاجيَة في

---

[1] 'جامع البيان' ج10-ص463، مؤسَّسة الرسالة.

[2] خرجه ابن ماجه في الفتن عن عوف بن مالك، ورواه أبو داود والترمذي وأحمد عن أبي هريرة بأسانيد حسنة.

مُقابل السبعين. ولكنَّهم لم يزالوا تَتجارَى بهم أهواءُ الفرقِ الضالَّة من جرّاء مُخالطتهم إياهم إلى أن التَحقَ أكثرُهم بهم، وبقِي قلّةٌ من أتباع موسى العاملين بالتوراة على الحقِّ؛ وذلك قولُه «افتَرقَت اليهود على إحدَى وسبعين فِرقةً، فواحِدَةٌ في الجنة وسبعون في النار».

لَم تزَل تلك الفِرقَةُ على خيرٍ إلى أن أرسَل الله إليهم عيسى بنَ مريم ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ [الصف 14] كفرَ من بقِيَ على يهوديّته بعد مَجيء عيسى، فصارت الفرق اثنتين وسبعين وهي: مجموعُ الفرق الضالّة، واليهودُ الذين بقَوا على يهوديّتهم، وأتباعُ عيسى وهم النَّصارى. ولكن لم يزل أصحاب تلك الفرقة تَتجارَى بهم الأهواءُ إلى أن التَحقَ أكثرُهم بالفرقِ الإحدى والسبعين الضالَّة، وبقِي أتباعُ عيسى بن مريم المتمسِّكون بالإنجيل على الحقِّ؛ وذلك قوله «وافترقت النصارَى على ثِنتين وسبعين فِرقة، فإحدَى وسبعون في النار وواحدةٌ في الجنة».

لَم تزَل تلك الفِرقَة بخير إلى أن بعثَ الله محمّدًا إلى الناس كافَّة، فكفرَ من بقِيَ على نصرانيّته ونشأت الفرقةُ الثالثةُ والسبعون وهم المسلمون ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ!﴾ [الأعراف 157] ولكن ما زال أفرادُها يلتَحِقون بتلك الفرق الضالَّة وبأهل الكتاب؛ وذاك قولُه «لتفترِقنَّ أمّتي على ثلاث وسبعين فِرقة!» ضلَّت كلُّها إلاّ واحدة؛ فالتفرُّقُ في المِلَل لا في المذاهب العَقائدية. لاحِظْ أنّ عدمَ ضمِّ النبيِّ اليهودَ والنصارى إلى الفِرق السبعين وعدَّه إيّاهم على حدَة يدلُّ على أنَّهم ليسوا كسائر الفرق الأخرى، لأنّهم أهلُ كتاب.

ومهما ازداد تفرُّق الناس وكثرت الأهواء والضلالات فيهم فستَبقى الفرقَة الثالثة والسبعون على الحقِّ إلى أن يأتيَ أمرُ الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلَّم «لا يزال من أُمّتي أمّةٌ قائمةٌ بأَمر الله، لا يضرُّهم مَن خَذلَهم ولا مَن خالَفهم حتَّى يأتِيَهم أمرُ الله وهم على ذلك!»[1] فالفِرق الثلاثُ والسبعون قد ضمّت البشريَّة جَمعاء، كما دلّ عليه قولُ الله

[1] خرجه البخاري في المناقب ومسلم عن معاوية، ومسلم وأبو داود والترمذي عن ثوبان.

لرسوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ!﴾ [سبأ 28] أي إلى كلِّ مَن عاصَرَك ومَن يأتي بعدَك إلى يوم القيامة. لذا وصفَ النبيُّ هؤلاء جميعًا بأنّهم أمّتُه فقال «لا يزال مِن أُمّتي» أي من أمّة الدّعوة، وهم البشريَّة «أمّةٌ قائمةٌ بأَمر الله» أي أمّة الإجابة، وهم أهل السنّة من المسلمين الدُّعاة إلى الله.

ويؤكّد ذلك قولُ رسول الله «إنه يُجاء برِجال مِن أمَّتي فيؤخذ بهم ذات الشِّمال فأقول "يا ربِّ أصيحابي!" فيقال "إنك لا تدري ما أَحدَثوا بعدَك!"»[1] وقد تقرَّر أنّ المبتدعة مَلعونون فلا يمكن أن يكونوا من أمَّة الإجابة، وقولُه صلى الله عليه وسلم «أعمارُ أمّتي ما بين ستين إلى سبعين، وأقلُّهم من يَجوز ذلك!»[2] أي أعمار مُعاصريه ومَن يأتي بعدَهم، على اختلاف مِللهم، فإنَّهم لا يعيشون طويلا، بخلاف الأمم السالفة الذين كانوا يُعمَّرون مائات السنين. وبهذا يتّضح قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم «كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُون الْجَنَّةَ إلاَّ مَن أَبَى!» قالوا "يا رسولَ الله، ومَن يَأبَى؟" قال «مَن أطاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ومَن عَصانِي فقَد أبَى!»[3] فمَن استجاب له مِن البشَر، أي أمَّة الدَّعوة، دخَل الجنَّة.

هكذا يجب فهمُ قولِ الله ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ: أَأَسْلَمْتُمْ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ!﴾ [آل عمران 20] لذا قال النبي «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين مِن قبلكم شِبرًا بشِبرٍ، وذِراعًا بذِراعٍ؛ حتى لو دَخلوا في جُحْرِ ضَبٍّ لاتَّبَعتُموهم!» قالوا "يا رسولَ الله، آلْيَهُودَ والنصارَى؟" قال «فمَن؟!»[4] وقد حصلَ هذا وتحقّق فارتدَّ كثيرٌ من نَسل المسلمين ونُكِسوا ورجَعوا إلى أمّة الدعوة من جديد؛ فوجبت دعوتُهم من جديد لأنهم عادوا كفّارا مِن أهل الكتاب.

---

[1] خرجه البخاري في التفسير ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد عن ابن عباس.

[2] رواه الترمذي في الدعوات وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة، وحسّنه الأرناؤوط.

[3] خرّجه البخاري في الاعتصام عن أبي هريرة وكذا أحمد.

[4] خرجه مسلم في العلم والبخاري في حديث الأنبياء وأحمد عن أبي سعيد الخدري.

سيمة أمَّة الدَّعوة الغالبة التَّفرُّقُ والتباغُض، وإن جمعتهُم الأوطان والمصالح ظاهراً كما قال الله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا، وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى!﴾ [الحشر 14] أمّا أُمَّة الإجابة فهم جماعة مُتحابّون وإن فرَّقتهم الأعصارُ والأمصار، هم إخوَة وإن لم تلتَقِ أشباحُهم في هذه الحياة الدنيا؛ إنّها أُمَّةُ الرُّسل والأنبياء والصالحين ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ؛ فَاعبُدون!﴾ [الأنبياء 92] الربُّ واحدٌ والدين واحد، فالأمّة واحدة وهي الأمَّةُ الأمُّ، مَن مَرَقَ منها عَقَّ ومَن شذّ عنها شذَّ في النار. تارَةً تكثُر ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ: فَآمَنُوا!﴾ [الصافّات 147-148] وتارَةً تقِلُّ، حتّى تَمثَّلَت في فَرد واحد، وكان اسمُه إبراهيم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً!﴾ [النحل 120] ذاك خليلُ الرحمن؛ كانَ الناسُ قاطبةً في شَقاء وضَلال وعلى باطِل، وكان هو وحدَه على الهُدى والحقِّ فقال لهم ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، وَأَدْعُو رَبِّي؛ عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا!﴾ [مريم 48] فلَم يَشقَ حين هَجَرَهم وباطِلَهم، بل أبدَلَه الله في الدنيا حسنةً وَجعلَ الرُّسُلَ والأنبياءَ مِن نَسلِه وجَعَلَ له لسانَ صِدقٍ في الآخرين.

لا يزال اليهودُ والنصارى والمسلمون يَختصِمون؛ كلٌّ يريد أن ينسُبَ إبراهيمَ عليه السلامُ إليه. ولَمّا كان أهلُ السنَّة هم الفرقة الثالثةَ والسبعين الناجية أمَّةَ الإجابة كإبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمْ! قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ!﴾ [البقرة 131] حكَم الله لصالِحهم وأعلَن أنّهم أَولى الناس به، قال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من فِرق اليهود والنصارى والصابئة والشيعة ومَن تبعَهم من ذُرّية المسلمين ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟ هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ! مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ!﴾ ثم حكم تعالى فقال ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَهَذَا النَّبِيُّ، وَالَّذِينَ آمَنُوا!﴾ ولم يقل: معه، ليَعُمَّ كلّ مَن اتَّبع رسولاً بحقٍّ؛ فدخل أتباعُ موسى إلى أن جاء ابنُ مريم، وأتباعُه إلى أن جاءَ محمّد،

وأتباعُه إلى أن يأتِيَ أمرُ الله، ثمّ ختَمها تعالى بالوَلاية الحقَّة فقال ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ!﴾ [آل عمران 65-68]

ارتداد أبناء المسلمين عن الدين ولُحوقُهم بأهل الكتاب سنَّة من سُنن الله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً!﴾ [الأحزاب 62] وقد مرَّ بيانُ أنّ ظاهرة ترك الصلاة آخر مَراحِل هذا الانتكاس. وفي الصلاة نفسها أوضحُ دليل، لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلم «لا صلاةَ لِمن لَم يقرأْ بفاتحة الكتاب!»[1] وأوّلُها حَمدٌ وثناءٌ وتَمجيد يتوسَّل به العبدُ إلى الله قبل شُروعِه في طَلَب الْهِداية منه تعالى. وذلك قولُه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ!﴾ والْمُنعَم عليهم هُم المذكورون في قولِ الله ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ: النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء 69] والصلاةُ أخصُّ خصائصِهم كما بيَّنه تعالى بقوله ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ؛ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا!﴾ [مريم 58] فطَلَبُ الْهِداية في الفاتحة إنما هو طلبُ اللُّحوقِ بِهؤلاء.

ولا يتمُّ دعاءُ المصلّي إلا بقوله بعد ذلك ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ!﴾ [الفاتحة 7] لأن مُرافقَة أهل النعيم من الأنبياءِ والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالِحين تقتضي مُفارَقةَ أصحابِ الجحيم الّذين وصفَهم الله تعالى بقوله ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ!﴾ [مريم 59] قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «إنّ المغضوبَ عليهم اليهودُ، والضالِّين النصارَى!»[2] عندها يُجيبُ الله المصلِّيَ ويقول «هذا لِعبدي، ولعبدي ما سأل!»[3] 'ما' هُنا للشَّرط ولِلاستِغراق؛ فالمعنى: له ما سأل بشَرط أن يسأله في الصلاة وأن يُداوِم عليه. فإن تحقّق منه هذا أَنعَمَ الله عليه وألحقَه بأوليائه وأعاذَه من اللُّحوق باليهود والنصارى إلى حين الصلاةِ القابِلَة.

---

[1] خرجه البخاري في الأذان ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، عن عُبادةَ بن الصّامِت.

[2] صحيح خرجه أحمد في المسند ح19276، وابن حِبان والترمذي عن عديّ بن حاتم.

[3] الحديث خرجه مسلم في الصلاة ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي.

حتّى أنّه لو حلَّ وقتُ الصلاةِ التي بعدَها ولَم يستَجب للمؤذِّن من غير حابِس قاهر، خرَج من الإسلام والتَحق بأهل الكتاب لتوِّه؛ رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «مَثَلُ المؤمِن ومثل الإيمانِ كمَثَل الفَرَس في آخِيَّتِه، يَجول ثم يَرجِع إلى آخِيَّته؛ وإن المؤمن يَسهو ثم يرجع إلى الإيمان!»[1] وآخيَّة المؤمن هي الصلاة.

ليس تاركو الصلاة من أبناء المسلمين بأفضلَ من غيرهم مِن أهل الكتاب، وإن ادَّعَوا ذلك فقد ادَّعاه اليهود والنصارى من قبل، بل وفي هذه الأمَّة أيضا ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ! وَقَالَت النَّصَارَى: لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ! وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ؛ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة 113] فكذلك يقول الذين لا يعلمون من أبناء المسلمين "تاركو الصلاة فينا خيرٌ لأن عندنا القرآن وما عند اليهود والنصارى فكُتُبٌ مُحرَّفة!" فيُقال: نعم لو أنّكم عَمِلتم بما فيه، ولكنّكم نَبذتموه وراءَ ظُهوركم، فانقلَبتم خاسرين وعاد القرآن حجَّةً عليكم كما قال النبي صلى الله عليه وسلّم «القرآنُ حُجّةٌ لك أو عليك!»[2]

فتاركو الصلاة ومن تَمَسّك بشيء من دين إبراهيم أو نوح أو إدريس، واليهودُ والسامِرة والصابئة والنصارى والشيعة والدُّروز والنُّصيريّة والبهائيّة والقُرآنيّون، وكل مَن معه أدنى شيءٍ ممّا جاءت به رُسلُ الله؛ هؤلاء كلُّهم أهلُ كتاب وهم سواءٌ: يضمُّهم نفسُ الحكم. ويدلّ عليه قولُ الله تعالى ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ؟! أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟!﴾ [القمر 43] الاستفهامان للإنكار، والمعنى أنّ كفّارَكم ليسوا بأحسَن حالاً من أهلِ الكتاب، ولا عهدَ لكم بأن لا يُصيبَكم ما أصابَهم. فالكلُّ قد جاءهم كتابٌ من عند الله ولكنَّهم أعرضوا عنه. ونفسُ الأسباب تُحدِث نفسَ المسبَّبات ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتَظرون ﴿إِلاَّ سُنَّتَ

---

[1] خرجه ابن حبان في الرقاق وأحمد، وضعَّفه الأرناؤوط لجهالة أبي سليمان الليثي وذكره ابن حبان في 'الثقاة' و لم يخبر عنه إلا أنه راوي الحديث. والآخيّة عُودٌ يُغرز في الأرض يُربَط به حَبل تُشدُّ إليه الدابة.

[2] خرجه مسلم في الطهارة، والترمذي والنسائي وابن ماجه أحمد، عن أبي مالك الأشعري.

الأَوَّلِينَ؟! فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً!﴾ [فاطر 43] فتاركو الصلاة ليسوا خيرا من أهل الكتاب ولا شرًّا منهم، بل هم مِن جُملَتهم، ليس إلاّ!

فإن قلت "وهل في ذلك مَزيَّة، أليس الكُفر مِلَّةً واحدة؟" فاعلَم أنّما الكُفر أحَد أنواع الخروج عن دين الله، وهناك العصيان والفُسوق والفجور والإلحاد والنّفاق والشِّرك، ثم تحت كل نوع أنواعٌ كثيرة. أما الإسلام، فإنّه دينٌ واحد لإلَه واحد وأمّة واحدة، قال الله ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ؛ فَاتَّقُونِ!﴾ وأمّا مَن خرجوا عنه ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا؛ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ!﴾ [المؤمنون 52-53] هم سبعون فرقَة، وضُمَّ إليهم أهلَ الكتاب، ثم تنقسم كلّ ملَّة إلى نِحَل كثيرة وكلُّ نِحلة إلى مذاهب شتّى، إلى ما لا نِهاية؛ فالكفر ليس مِلّة واحدة!

وأما الْمَزيّة التي اختصَّ بها تاركو الصلاة من هذه الأمّة فقولُهم 'لا إلهَ إلا الله محمّد رسول الله' وإن لهذه الكلمة وزنًا عند الله لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، ممّا يدلُّ على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلا مِن أمّتي على رُؤُوسِ الْخَلائق يومَ القيامَة، فيَنشُر عليه تسعَةً وتسعين سِجلاًّ؛ كلُّ سِجلّ مثلُ مَدِّ البَصَر، ثم يقول: أَتُنكِرُ مِن هذا شيئًا، أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظون؟ فيقول: لاَ يا رَبِّ! فيقول: أفلَك عُذرٌ؟ فيقول: لا يا رَبّ! فيقول: بلى، إنّ لك عِندنا حَسنةً؛ فإنه لاَ ظُلمَ عليك اليَوم! فتَخرُج بِطاقَةٌ فيها 'أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه' فيقول: اُحضُرْ وَزنَك! فيقول: يا ربّ، ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلاّت؟ قال: إنّك لا تُظلَم! فتُوضَع السِّجلاّت في كَفَّة والبِطاقة في كَفّة فطاشَتْ السِّجلاّت وثَقُلَت البِطاقة؛ فلا يَثقُل مع اسمِ الله شيء!»[1] وإن كان الأظهر عندي أنَّ قول النبي 'أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه' يشير إلى أنّه التشهُّد في الصلاة خاصَّةً كما صحَّ من وُجوه كثيرة،

[1] صحيح خرجه الترمذي في الإيمان وابن ماجه أحمد والحاكم ابن حبان عن ابن عَمرٍو.

إلاَّ أن مُطلَق قول ’لا إلهَ إلا الله محمّد رسول الله‘ له وزن عظيم لا يحقُّ إنكارُه وإن كان الناطِقُ به أجهَلَ الخلق بحدود الله. فانتَبه لهذا جيّدا!

شُمول الدين

يقول الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاته؟! أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ!﴾ [الأعراف 37] روى الطبري بسنده عن مجاهد، في قول الله ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: من أحكام الكتاب على قدر أعمالهم، وعن قتادة: من أعمالهم التي عملوا، وعن الضحاك: ينالهم نصيبُهم من العمل؛ يقول: إن عمل من ذلك نصيبَ خير جُزي خيرًا، وإن عمل شرًّا جُزي مثله.[1] فالكافرون يظَلّون مُخاطَبين بأحكام الدين وذاك معنى قوله سبحانه ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ؟!﴾ [الزخرف 5] أي أفَتَطمَعون أن نَترُككم بلا نَهْيَ ولا أمرَ ولا حُكم بدَعوَى أنَّكم غير مُستجيبين؟! كلاّ فاستباحَةُ الشيءِ المُحرّم لن تكونَ أبدًا إباحةً له!

فتركُ أهلِ الكتاب الصلاةَ لا يمكن أن يُبيح لهم الدّينَ بل يظلّون مُطالَبين بها وبسائر شعائر الإسلام، ولا يُسقِط عِصيانُهم شيئًا من خطاب الله لَهم. وذلك ما نَشهَدُه رغمَ أنوفِهم، فإنّهم يتصدَّقون ويصومون ويَحُجّون صورةً، ولكنَّهم إذا سُئلوا لِمَ يُعطون السائلين قالوا "صَدقةً على الوالدين!" وإذا سُئلوا لِمَ يُمسكون عن الأكل في شهر رمضانَ قالوا "وماذا يقول الناس؟!" وإذا سُئلوا لِمَ يَنحَرون يومَ العيد قالوا "ليفرَح الأولادُ!" الحاصلُ أن هذه الشعائر باقيةٌ فيهم بإذن الله ولكنَّها لا تُفيدُهم شيئًا، بل هي عندهم تقاليدُ من الأمور الدنيوية. يُقلِّدون آباءَهم، غيرَ متَّبعين للرسول ولا متقرِّبين إلى الله و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي

---

[1] ولكنّه لَم يختَره، وانظر إن شئت ’التفسير‘ ج12-ص411.

الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا، وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ!﴾ [هود 15-16] فهم يعمَلونَها ولكنَّها حابطَة لا يقيم الله لها وزنًا!

ذلك لأن الكُفّار مُخاطَبون بأصول الدين وفُروعه، وليس يُسقِط تركُهم الأصولَ شيئًا من الفروع في حقِّهم، بل يظلُّو مُطالَبين بشرائع الدين كلِّها. فما من أدَميٍّ إلا وهو مأمور بما أمرَ الله به على لسان محمَّد ومنهي عمّا نهى عنه تعالى، لأنَّ الله أرسَله إلى الناس كافَّةً فقال ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً!﴾ [الفرقان 1] وقال عزّ وجل ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا!﴾ [النساء 79] وبذلك أمر الله نبيَّه قال ﴿قُلْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً!﴾ [الأعراف 158] فقال صلى الله عليه وسلم «كان النبيُّ يُبعَث إلى قَومه خاصَّةً، وبُعثتُ إلى الناس كافَّةً!»[1] فتاركو الصلاة كغيرهم من أهل الكتاب والكفار يظَلّون مُكلَّفين بالدين كلِّه كما قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ!﴾ [سبأ 28] أي إلى الناس جميعًا ليمتَثلوا لك في كل صغيرة وكبيرة كما يدل عليه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً!﴾ [البقرة 208] أي اعتَنقوا الإسلامَ وأطيعوا الله ورسولَه في كلّ شرائعه.

فأهلُ الكتاب مأمورون باتِّباع محمَّد في كل زمان ومكان، كما قال الله ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ: أَأَسْلَمْتُمْ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ!﴾ [آل عمران 20] ويعمُّ هذا التكليف الأصولَ والفروعَ جميعًا كما يدلُّ عليه قولُ الله ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة 5] فأحلَّ لهم طعامَنا وهذا يعني أنّ طعامَ غيرنا حرامٌ عليهم؛ فهو خطابٌ منه تعالى لنا ولهم وتَشريعٌ في حقنا وفي حقِّهم، وكذا قولُه ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ!﴾ [البقرة 85] نزلت في يهود قُريظة والنضير بالمدينة، كانوا يتقاتَلون ويُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، فحرَّم الله تعالى ذلك عليهم،

[1] جزء من حديث أوَّلُه «أُعطِيتُ خَمسًا..» خرجه البخاري في الصلاة ومسلم والنسائي والدارمي وأحمد عن جابر وقد سبق.

وهذا تكليف لهم أيضا وإن كانوا قد كفروا بالنبي محمّد صلى الله عليه وسلم وأبَوا الدخولَ في الإسلام. ومن ذلك قولُ الله تبارك وتعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ؛ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ!﴾ [التوبة 29] وهذا تكليف من جنس الزكاة ولكنَّ الله لا يُزكّيهم به كما في قوله تعالى في حق المؤمنين ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا!﴾ [التوبة 103]

فالكلُّ مُخاطَب بالشَّرع، مع الفارق أنَّ مَن أسلَم أُثيب على كلّ طاعة، بينما الكافر لا يُثاب. ففروع الشرع في حقِّهم تكليفٌ بلا ثَواب وخِطابٌ بلا تشريف، ليظلّوا مَحكومين خاضعين للدين، شاؤوا أم أَبَوا. هذا الحُكم، أعني الواجبَ الذي يُعاقَب تاركُه ولا يُثابُ فاعلُه، يشتركون فيه مع المنافقين الذين أمرَهم الله بالصلاة والزكاة وغيرِهما، مع إخبارِه إيّاهم بأنه تعالى لن يتقبَّلَها منهم وأنَّها لن تنفعهم في العاقبة فقال ﴿قُلْ: أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ؛ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ! وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ!﴾ [التوبة 53-54] فلا وزنَ لأعمالهم. وإنما يتقبّل الله ممّن أسلم له وسلَّم لِرسوله ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا؛ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ!﴾ [التوبة 74] فصومُ رمضان بدون صلاة ليس من الإسلام في شيء، وكذا زكاة وحجُّ مَن لا يصلي.

ثم لا ينبغي نَهيُ مَن تلك حالُه مِن تاركي الصلاة عن غيرها من الأركان إن هم أجابوا إليها، فالصوم مثلا أصدقُ شاهد على بقاء شيء من الإيمان عندهم، وإن كانوا يصومون تقليدا أو رياءً أو حياءً من الناس. ولو لم يكن في قلوبهم من الإيمان شيءٌ لما صبروا على الجوع والعطش طولَ نهارهم، فهذا الإيمان لا ينبغي تجاهلُه لأحد كما بيَّنه الله تعالى بقوله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ!﴾ [المائدة 5] فإن قيل: وما الفائدةُ من صيامهم ما دام غيرَ مقبول؟ فجوابُه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد

قال «رُبَّ صائم حَظُّه مِن صيامه الجوعُ والعَطش، وربّ قائمٍ حظّه من قيامِه السَّهر»[1] أي كم من صائم ليس له من صيامه سوى الجوع العطش وليس للآخر من قيام غير السَّهر والتَّعب، فهم يكابدون المشاقّ ولا أجر لهم على شيء من ذلك بصريح هذا الحديث، ولكن ليس فيه نهيهم عن الصيام والقيام، بل فيه تنبيه وردعٌ لهم حتى يجتَنبوا مُبطلات تلك العبادات. ومن ذلك قول الله ﴿قُلْ: أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا؛ لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ! إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة 53] لم يقل تعالى له: قل لهم لا تُنفقوا فلن يُتقبَّل منكم! بل قال ﴿قُلْ: أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ فعدم قَبول الله للأعمال لا يقتضي منّا نهيَ أصحابها عنها بحال، فالطاعات ليست ممّا يُنهى عنه، بل يتعيّن تشجيعُهم عليها مع الحثِّ على القيام بسائر أركان الدين والأمر بها بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يكتمل بإذن الله.

الحاصل أنّ تركَهم بعضَ الفرائض لا يُسقط عنهم سائرَها، بل يبقَون مُطالَبين ومكلَّفين بها وبغيرِها، فيُعاقَبون على كلِّ شعيرة تَركوها وعلى كلِّ مَعصيةٍ اقترَفوها، ولا يُثابون على أيّة طاعة فعلوها، إذلالاً لهم وإبقاءً لَهم في دائرة الشَّرع وهيمَنَةِ الدين ﴿حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ!﴾ [البقرة 193] وأمَّا إذا تابوا وآمنوا وأتَوا بشعائر الدين كلِّها فعسى الله أن يتفضَّل عليهم ويُثيبَهم على ما فعَلوه من خير إبَّانَ تلاعُبِهم جَهلا وسفَهًا، بل ويُبدلُهم بكلِّ سيِّئة حسنةً من عنده لقوله تبارك وتعالى ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ! وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا! يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا؛ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا، فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا!﴾ [الفرقان 68-70]

فيبدِّل الله سيِّئاهم حسنات بفضلِه، إلاَّ قتل النفس كما سبق بيانُه، والله أعلَم. قال ابن كثير: تلك السيئاتُ الماضية تنقلبُ بنفس التوبة النصوح حسناتٍ، وما ذاك إلا أنه كلَّما تذكَّر ما مَضى ندمِ واسترجَعَ واستَغفر، فينقلِب الذنبُ طاعةً بهذا الاعتبار. فيومَ القيامة

[1] خرجه أحمد ح8843 وابن ماجه والحاكم وابن خزيمة عن أبي هريرة وصححه الأرناؤوط وغيره.

وإن وجدَه مَكتوبا عليه لكنّه لا يضرُّه وينقلب حسنةً في صحيفته، كما ثبتت السنةُ بذلك، وصحّت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى –ثم ساق عن أحمد بسنَده– عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّي لأعرِف آخرَ أهلِ النارِ خروجا من النار، وآخرَ أهل الجنة دخولاً إلى الجنة! يؤتَى برجل فيقول "نَحُّوا كبارَ ذُنوبه وسَلوه عن صِغارها!" قال: فيقال له "عملتَ، يومَ كذا وكذا، كذا! وعملت، يوم كذا وكذا، كذا!" فيقول "نعم!" لا يستطيعُ أن يُنكِرَ من ذلك شيئاً. فيقال "فإنّ لك بكل سيِّئة حسنةً!" فيقول "يا ربِّ، عَملتُ أشياءَ لا أَراها هَاهُنا!"» قال: فضحِك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدَت نَواجذُه.[1] يضحك النبيُّ من ذاك الذي لما رأى سيِّئاته تنقلب حسناتٍ طالَب بإظهار كبائرَها يريد بذلك مَزيدًا من الحسنات!

لذا لا يَنبَغي نَهيُ القوم عن قيامهم بشيء من شعائر الدين بحال، ومَن فعل ذلك فقد ضلَّ سواءَ السبيل وهدَم الدين من حيث لم يَدْرِ. بل يظلُّ القومُ مُطالَبين بالاستجابة لله وللرسول ما داموا في هذه الحياة الدنيا ويبقَى الأمل في توبتهم قائمًا والدَّعوةُ في حقِّهم واجبةً بالتَّذكير والإنذار والتَّبشير. فمِن واجب العلماء والدُّعاة أن يُشجِّعوا على تلك الطاعات وينبِّهوا على مَغزاها وشروطها وفوائدها لتَصلَح أحوالُهم شيئًا فشيئا.

لَمَّا علَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم مُعاذَ بنَ جَبل أصولَ الدَّعوة إلى الله قال له «اُدعُهم إلى شَهادة أن لا إله إلا الله وأنِّي رسولُ الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأَعلمهُم أنّ اللهَ قد افتَرَض عليهم خَمسَ صلوات في كلِّ يومٍ وليلة، فإن هُم أطاعوا لذلك فأَعلمْهم أنّ الله افترَضَ عليهم صَدَقَةً في أَمْوالِهم تُؤخَذُ مِن أَغنيائِهم وتُرَدُّ على فُقرائهم!»[2] يدلُّنا هذا الخبر على أنّ الشهادتين أوَّلُ ما يجِبُ على الناس، فإن هم تلفَّظوا بهما دُعوا إلى الصلاة، فإن هم

---

[1] 'تفسير القرآن العظيم' ج6-ص128، دار طيبة، وأخرج الحديث أحمد ح21530 وزاد: قال «فيقال له فإنّ لك مكانَ كلِّ سيِّئة حسنة!» ورَواه بغير هذه الزيادة مسلمٌ في الإيمان والترمذي.

[2] خرجه البخاري في الزكاة ومسلم عن عبد الله بن عباس.

أقاموها دُعوا إلى الزكاة. وعليه فمَن لَم يتشهَّد لَم تُعرَض عليه الصلاة لأنه ليس أهلاً لَها شرعًا، بل لا يزال يُنتظَر منه أن يُجيب إلى الشهادتين، فإن هو أجاب وتشهَّد وأعلَن إسلامَه عُرضتْ عليه الصلاة وكُلِّف بها. فإن هو صلّى عُرضت عليه الزكاة، وإن أبى لَم تُعرَض عليه الزكاة لأنه ليس أهلاً لَها بعدُ. ذلك لأن العبادة تشريفٌ من الله، فإذا لم يكن العبدُ بذاك المستوى من الزَّهْو بعبادة ربّ البرايا لَم تصحَّ عبادتُه ولَم تُقبَل، فلا ثوابَ.

بلغنا عن عَمرو بن عثمان الرَّقِّي قال: كنت عند سفيان بن عيينة فجاءه رجل فقال "يا أبا محمد ما تقول؛ الإيمان يزيد وينقص؟!" قال "يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقَى معك منه شيء!" وعقد بثلاثة أصابع وحلَّق بالإبهام والسبّابة قال "فإنّ قوما يقولون 'الإيمان كلام' قد كان القولُ قولَهم قبلَ أن تنزل أحكامُ الإيمان وحدودُه؛ بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس أن «يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها حقَنوا بها دماءهم وأموالَهم إلا بحقها وحِسابُهم على الله» فلمّا علم الله صِدقَ ذلك من قلوبهم أمرَهُ أن يأمُرَهم بأن يُقيموا الصلاةَ فأمرهم ففعلوا، ولو لم يفعلوا ما نَفعهم الإقرارُ الأوَّلُ. فلما علِم الله تعالى صِدْقَ ذلك مِن قلوبهم أمرَه أن يأمرَهم أن يهاجِروا إلى المدينة فأمرهم ففعَلوا، ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا الصلاة. فلما علم الله صدقَ ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرَهم أن يرجِعوا إلى مكة فيقاتلوا آباءَهم وأبناءَهم حتى يُقِرُّوا بمِثْل إقرارِهم ويَشهَدوا بمثل شهادَتِهم حتى أنّ الرجُلَ ليَجيءُ بالرأس فيقول "يا رسولَ الله، هذا رأس الشيخِ الضالِّ" -قلتُ: يعني أباه- فأمرهم ففعلوا ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرارُ الأولُ ولا الصلاةُ ولا الهجرةُ. فلما علم الله صِدْقَ ذلك مِن قلوبِهم أمرهم أن يطوفوا بالبيت تعبُّدا ويحلُقوا رؤوسَهم تذلُّلا ففعلوا، ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرارُ الأولُ ولا الصلاةُ ولا الهجرةُ ولا الرجوعُ إلى مكة. فلما علم الله صدقَ ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم أن يؤتوا الزكاة قليلَها وكثيرَها، فأمرهم ففعلوا ولو لم يفعَلوا ما نفعهم الإقرارُ الأول ولا الصلاةُ ولا الهجرةُ ولا الرجوعُ إلى مكة ولا طوافُهم بالبيت ولا حَلقُهم رؤوسَهم. فلما

علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض ومُثولهم لها قال له: قل لهم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا!﴾ [المائدة 3] فمَن ترَك شيئا من ذلك كسَلا أو مُجُونا أدَّبناه عليه وكان عندنا ناقصَ الإيمان، ومَن ترَكَها عامِدا كان بها كافِرًا: هذه السنة؛ أبلغ عني مَن سألك مِن المسلمين!"[1]

فالتكليف تشريفٌ والتدرُّج فيه توقيفٌ ولا يجوز للعبد تعدّيه وإلا فهو تطفيف مآلُه الخُسْر والحسرة والعار وسخَط من الغنيّ العزيز الجبار. أما أن يكون مُؤمنًا ببعض الكتاب كافرًا ببعضه، كأن يتخطّى الصلاة فيَترُكَها ويتعدّى إلى الزكاة، فذاك مُستَهزئٌ بالدّين يستأهِل النكالَ في الآخرة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟! فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ؛ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ!﴾ [البقرة 85] لكن إن أحدٌ ترك الصلاةَ وصام رمضان، فإنَّه لا يُنهى عن الصَّوم بل يذكَّر بالصلاة والزكاة حتى يتمَّ دينُه، فلا يُنهى عمَّا أجاب إليه ولكن يُؤمَر بما قبلَه من شعائر. فلا ينبغي أبدًا نَهيُ أهل الكتاب عن الصيام أو الصدقة أو غيرهما بحجّة أن الله لا يتقبَّل ذلك منهم.

الإبقاء على شعائر الدين ضرورة لا يجوز تضييعها بحال، وهو ظاهر في قوله الله ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ؛ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ للرُّهبان ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ لليهود ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ للمسلمين وهي التي ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا!﴾ [الحج 40] دون المعابد والكنائس التي فيها من الشرك ما لا يخفى على أحد. ولكن مع ذلك فقد أمر الله تعالى بالحفاظ عليها لما فيها من بقايا دين وإن قلَّت، فذلك خير من أن يذهب الدين من بينهم حتى لا يبقى له أيُّ أثر البتة. ثم يبني الداعي إلى الله على ما عند أهل الكتاب من بقايا خير كما قال شُعيب لقومه ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ!﴾ [هود 86] أي

[1] رواه أبو نعيم في 'حلية الأولياء' ج7-ص295.

طاعة الله وحظُّكم منه تعالى خيرٌ[1] فلا تُفرِّطوا فيما أنتُم عليه من أعمال بِرٍّ ولكن ازدادوا خيرًا بالتسليم لي والإسلام لله!

***

لا يعني الانتماء إلى أهل الكتاب حتما اعتناقَ اليهودية أو المسيحيّة أو غيرهِما من ديانات فيها أثارَةٌ مِمّا جاء به رسلُ الله، بل كلّ مَن انتَسب إلى الإسلام ولكنّه ترك الحكمَ بالقرآن والسنّة وأضاع شرائع الدين فقد التَحقَ بأهل الكتاب. وقد يكون هذا أصليًّا، كمن يُولَد في عائلة لا تأبَه بالصلاة ولا بغيرِها من أركان الإسلام ويبقى على ذلك. وقد يكون بالرِّدَّة، كمَن يترك بعضَ الشعائر بعد أن كان قائما بها، ويدلّ عليه ضَربُ عمرَ بنِ الخطاب الجزيةَ على تاركي الحجّ[2]. لقد كان كثير من السلف يعدّون أهلَ الأهواء، الغالين في بدَعهم المُكذِّبين لبعض الكتاب المُعارضين للسنّة، كانوا يعدّونهم كُفّارا، كما يدلُّ عليه قولُ البخاري "ما أُبالي صلّيتُ خلفَ الجَهْمي والرافِض أم صلَّيت خلفَ اليَهود والنَّصارَى! ولا يسلَّم عليهم ولا يُعادون ولا يُناكَحون ولا يُشهَدون ولا تُؤكلُ ذبائحُهم!"[3] وأمَّا هذه الأخيرة، أعني عدم أكل ذبائحهم فليست من الشَّرع، بل ذَبيحتُهم حلالٌ كما سيأتي بيانُه قريبا، لكنَّ البخاري على غِرار غيره من أئمّة السلف قال ذلك من باب الرَّدع والتشديد، لِينتَهوا ويتوبوا، ولكي لا يغترَّ بهم السُّذَّج من المسلمين. إلاّ أنَّ أئمّة السلَف مُجمعون على أنّ الانتقالَ إلى دين أهل الكتاب ممكن في كل زمان، وأنَّه ليس مُختصًّا بما قبلَ نزول القرآن، قال ابنُ تيميَّة: الصوابُ الْمَقطوعُ به أنّ كَونَ الرّجُل كِتابيًّا أو غيرَ كتابِيّ هو حُكمٌ مستقِلٌّ بنفسه لا بِنَسبه. وكلُّ مَن تديَّن بِدِين أهلِ الكتاب فهو منهم...كمَن هو في

[1] نقل الطبري بأسانيده في التفسير القولَ الأوّل عن مجاهد والثانيَ عن قتادة ج15-ص448.

[2] قاله ابن رجب في 'جامع العلوم والحكم' ص44، دار المعرفة.

[3] 'خلق أفعال العباد' ص35، دار المعارف، الرياض.

زماننا، إذا انتقل إلى دين أهل الكتاب فإنّه تؤكَل ذَبيحَتُه وتُنكَح نِساؤه، وهذا القولُ هو الثابتُ عن الصحابة، ولا أعلمُ بين الصحابة في ذلك نِزاعًا.[1]

كلام ابن تيميّة يخصُّ مَن دخل في دين أهل الكتاب من غير المسلمين، أمّا المسلم الذي يدخل في دين أهل الكتاب فقول الجمهور هو أنَّه كافر مرتدّ وأنّه ليس من أهل الكتاب، غيرَ أنَّ ما ذهبوا إليه مَردود بقول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ؛ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ! إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ فَتَرَى الَّذينَ في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فيهِمْ يَقُولُونَ "نَخْشَى أَن تُصيبَنَا دَائرَةٌ!"﴾ إلى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخذُوا الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَكُمْ هُزُوًا وَلَعبًا، منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ من قَبْلكُمْ وَالْكُفَّارَ، أَوْلِيَاءَ؛ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمنينَ!﴾ [المائدة 51-57] فالآيات تُخاطب المسلمين خاصَّةً وذلك قولُه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا﴾ فدلَّنا على أن من المسلمين مَن يكفُر ويرتدُّ ويدخُل في دين أهل الكتاب بمجرَّد موالاتِهم، لا باعتناق اعتقاداتهم والتلبُّس بطُقوسهم، ولكن باتِّخاذهم أولياء من دون المسلمين فقط. وهذا حاصلٌ مُشاهَد كثيرٌ، لا يكاد مَن هذه أوصافُهم يُحصَونَ كثرةً! نعم ما من شكّ أنَّهم كُفّارٌ مُرتدّون عن الإسلام ولكنَّهم مع ذلك دخلوا في حكم أهل الكتاب لبقاء أصل الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدَر ولعدم إعلانِهم الكفرَ أو الشرك المُطلقَين.

وعليه فخلافًا لما ذهب إليه جمهور العلماء منذ زمان، فليست تسمية أهل الكتاب خاصّة باليهود والنصارى فقط، ولكنَّها تشمَل كلَّ مَن آمَن ببعض الكتاب المُنزَّل وكفر ببعض، وسواء في ذلك القرآن والإنجيل والتوراة وغيرها وذلك قول الله تعالى ﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ!﴾ [المائدة 68] أي القرآن، فخاطب تعالى اليهود بإقامة التَّوراة والنصاري بإقامة الإنجيل وأتباع محمَّد بإقامة القرآن، ومعنى الإقامة هنا هي العمل بما في تلك الكتب. فتسمية أهل الكتاب تنطلق

[1] 'مجموع الفتاوَى' ج35-ص224.

على كل مَن وَرِث كتابًا سماويًّا والتزم النِّسبَةَ إليه ولكنَّه أعرض عن العمل بما فيه، كما جاء وصفُهم في قول الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَاب، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ؟! يَا أَهْلَ الْكِتَاب، لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ؟!﴾ [آل عمران 70-71] وقوله ﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَاب، لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ! وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ!﴾ [المائدة 77] وقوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا؛ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ!﴾ [البقرة 109] ومَن يُنكِر انطباقَ هذه الأوصاف كلِّها على تاركي الشرائع من هذه الأمَّة وعلى رأسها الصلاة؟!

فالواجبُ إذَن أن تضُمَّ نفسُ الأحكام الشرعيّة جميعَ أهلِ الكتاب بما فيهم تاركو الصلاة ممّن يشهد أن لا إلهَ إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله؛ ومعنى ذلك أنّه لا يَنبَغي الاستغفارُ لِمَن مات منهم ولا التّرَحُّمُ عليهم لأنّهم ﴿مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ؛ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ!﴾ [الممتحنة 8] ولا تحلُّ الصلاةُ عليهم ولا دفنُهم في مقابر المسلمين ولا زيارة قبورهم لقول الله ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا، وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ؛ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ!﴾ [التوبة 77-84] ولا يصحُّ تَزويجُهم الْمسلماتِ لعموم قوله تعالى الذي لا استثناءَ فيه ﴿وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا!﴾ [البقرة 221] وما أكثرَ شِركيّاتِ أهلِ الكتاب، ولا يَرِثون المسلمين من أقاربهم ولا يرثهم المسلمون من أقاربهم لقول رسول الله «لا يرثُ المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ!»[1] ولا تحلُّ لهم الزكاةُ لقوله صلى الله عليه وسلَّم لِمُعاذِ ابن جبل «فأَعلِمْهم أنّ الله افترَضَ عليهم صَدَقَةً في أَمْوالِهم تُؤخَذُ مِن أَغنيائِهم وتُرَدُّ على فُقرائهم!»[2] أي أنّها تُؤخَذ من مُسلميهم وتُعطَى لِمسلميهم

---

[1] خرجه البخاري في الفرائض والجماعة غير النسائي ومالك وأحمد عن أسامة بن زيد.

[2] خرجه البخاري في الزكاة ومسلم عن عبد الله بن عباس.

لا لغيرهم، فإسلام آخذ الزكاة شرطٌ في صحّتها، وتاركو الصلاة كفّار، فلا تبرأ الذّمّة بدفعها إليهم.

ولكن يَجوز أكلُ ذبائحهم وتزوُّج نسائهم، لقول الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ؛ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ وهذا تكليف لهم أيضًا كما سبق ﴿وَ﴾ أُحِلَّ لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ﴾ أُحلَّ لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وممّن التَحَقوا بهم من بعدُ ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ؛ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ!﴾ أي بنفس شروط نكاح المسلمات، ثمّ حذَّرنا تعالى فقال ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ﴾ أي مَن يجْحَد الإيمانَ الذي مع أهل الكتاب ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي فقد كفَر هو بإنكاره ما معهم من إيمان ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ!﴾ [المائدة 5]

فلا يجوز إنكار ما مع أهل الكتاب من إيمان البتّة، بل إن معهم إيماناً، لا ريب في هذا. ومما يدل عليه قولُ الله ﴿قُلْ: يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ!﴾ [السجدة 29] فلو لَم يكن معهم إيمان لما ذكرَه، ولكنّه غير نافع لأنَّه مُجرَّد عن الطاعات كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا!﴾ إن ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا!﴾ [الأنعام 158] أي لم تعمل بما جاء به الرسل من طاعات. فالإيمان الذي ليس معه خير هو الإيمان الذي لا يتقيَّد صاحبُه بالشريعة، فهو مَوجود ولكنَّه غير نافع، من قبيل قول الله تعالى ﴿قُلْ: بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ!﴾ [البقرة 93]

فقول الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ!﴾ [المائدة 5] خطابٌ للمسلمين حتى لا يُنكروا ما عند أهل الكتاب من إيمان ولا يكونوا مثلَهم، كما بيَّنه تعالى بقوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ! وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ! وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ؛ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ!﴾ [البقرة 113] حيث أنكروا الإيمانَ الذي معهم. أما قولُ الله ﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ يرضاه الله ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ!﴾ [البقرة 113] فمعناه أنّهم ليسوا على

الشِّرْعَة والإسلام الذي يُثيب اللهُ عليه. ولكن معهم إيمانٌ وإن قلَّ وشابَهُ كفرٌ وشركٌ كثير، وعندهم كتابٌ من عند الله وإن حَرَّفوه إلى حدّ بعيد ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ؛ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ!﴾ [المائدة 43] ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ!﴾ [المائدة 47]

فإذًا هذا الحكم، أعني مُطلقَ إيمان أهل الكتاب، من أشدّ المسائل الخطورة ولكنّ أكثر العلماء عنه غافلون، فالقولُ بأن أهلَ الكتاب لا إيمانَ معهم البتة قولٌ بغير علم، لا بل إنه كُفر كما تبيَّن، وعن قتادة أنّه قال: ذُكر لنا أنّ ناسًا من المسلمين قالوا "كيف نتزوّج نساءَهم وهم على غير ديننا؟" فأنزل الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ!﴾ فأحلَّ الله تزويجَهن على علم![1] وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا؛ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ!﴾ [المائدة 87]

إذا علمت هذا فاعلَم أن الله تعالى قد أمر أهلَ الكتاب بنفس الصلاة التي فرضَها علينا نحن معشرَ المسلمين ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ؛ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ!﴾ [البينة 5] وقال تعالى لبني إسرائيل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ!﴾ [البقرة 40-43] فما جاءَ الأنبياءُ إلا بالدين الذي عمودُه صلاتُنا هذه كما دلّ عليه قولُ جبريل حين علّم النبيَّ الصلاةَ بمواقيتها «يا مُحمدُ، هذَا وقتُ الأنبياء من قبلك!»[2] فالصلاةُ لم تُبدَّل، بل هي هي.

ولكن طالَ الأمدُ فأعرَض أغلَبُ أهل الكتاب عن الصلاة واعترَضوا على المُصلّين ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ! وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ! وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ!﴾ [البقرة 145] بل ويستَهزئون بها، كما هو مُشاهَدٌ، وقد بيّنه الله تعالى بقوله ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ!﴾ [المائدة 58] الحاصل أنَّ هذه الأمّةَ لم تختصّ بإقامة الصلاة ولا بترك إقامَتِها، فقد سبقَها إلى

---

[1] خرجه الطبري في تفسيره ج9-ص592، ولكنه لم يختَره للأسف مع أنّه حقيقةُ اللّفظ وظاهرُ السياق.

[2] حديث صحيح خرجه الترمذي في الصلاة وأبو داود وأحمد وابن ماجه عن ا بن عباس.

ذلك أممٌ، ثم توالت فيها أجيالٌ ولا خبرَ عند مُعظَمهم عن شأنها، ولسانُ حالهم يقول "لو كانت تنفَع وتركُها يضرُّ ما ترَكناها!" كما أخبرنا الله حكايةً عنهم حيث قالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْه!﴾ [الأحقاف 11] ولا خيرَ أعظم من الصلاة، كما بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلّم بقوله «الصلاة خيرُ موضوع؛ مَن شاء أَقلَّ ومَن شاء أَكثَرَ!»[1]

كثيرًا ما وجّه الله الخطابَ إلى أهلَ الكتاب في القرآن، من ذلك قولُه تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكتَاب، قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ منَ الْكتَاب وَيَعْفُو عَن كَثير؛ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّه نُورٌ وَكتَابٌ مُّبينٌ!﴾ [المائدة 15-16] وقال تعالى ﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكتَاب، تَعَالَوْا إِلَى كَلمَة سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ؛ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْركَ به شَيْئًا وَلاَ يَتَّخذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُون اللَّه. فَإن تَوَلَّوْا، فَقُولُوا: اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلمُونَ!﴾ [آل عمران 64] ففي هذا أمرٌ للنبيّ وللمُبلِّغين عنه في حقّ كلِّ مَن جاءَه كتاب من عند الله، ولكن تولَّى عنه تقليدًا للآباء أو كُفرًا به وإباءً. فعسى الله أن يشرَح صدورَ بعضهم للإسلام لأنَّهم كما أخبرَنا تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً؛ منْ أَهْل الْكتَاب أُمَّةٌ قَائمَةٌ يَتْلُونَ آيَات اللَّه آنَاءَ اللَّيْل وَهُمْ يَسْجُدُونَ! يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْم الآخر وَيَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَن الْمُنكَر وَيُسَارعُونَ في الْخَيْرَات، وَأُولَئكَ منَ الصَّالحينَ! وَمَا يَفْعَلُوا منْ خَيْر فَلَن يُكْفَرُوهُ؛ وَاللَّهُ عَليمٌ بالْمُتَّقينَ!﴾ [آل عمران 113-115] وأولئك هم الذين استَجابوا لنداء الإسلام ﴿وَإنَّ منْ أَهْل الْكتَاب لَمَن يُؤْمنُ باللَّه وَمَا أُنزلَ إلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إلَيْهمْ! خَاشعينَ للَّه، لا يَشْتَرُونَ بآيَات اللَّه ثَمَنًا قَليلاً! أُولَئكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبِّهمْ إنَّ اللَّهَ سَريعُ الْحسَاب!﴾ [آل عمران 199]

يقول الله وهو يَحثُّنا على إيصال الدَّعوة إلى أهل الكتاب في هذه الأمَّة، من تاركي الصلاة والزكاة وغيرهما، وإلى اليهود والنصارى وغيرهم ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ!﴾ على لسان النبي محمّد صلى الله عليه وسلَّم فآمن كثيرٌ من اليهود والنصارى كما هو مَعروف، وهم ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَابَ من قَبْله﴾ فلمَّا بلغهم القرآن إذا ﴿هُمْ به

[1] خرجه ابن حبان في البر والحاكم وأحمد عن أبي ذر الغفاري، وقد سبق تخريجُه.

يُؤْمِنُونَ!﴾ لأنَّه مُوافقٌ لما معهم ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ عرَفوا ذلك ﴿قَالُوا: آمَنَّا بِهِ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا؛ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ!﴾ مُطيعين على ما اقتَضَته الشريعة التي سبقَت ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ لأنَّهم أسلَموا مرَّتين واحتَملوا أذى إخوانهم من أهل الكتاب في سبيل الحقِّ وهو قولُه تعالى ﴿بِمَا صَبَرُوا، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ! وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا: لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ!﴾ مِن بني جلدَتنا، بل نتَّبِع العالمين وعلى رأسهم محمَّد رسولُ ربِّ العالَمين إلى الناس أجمعين! لذا الْتفتَ الخطابُ إلى النبي صلى الله عليه وسلَّم وأتْباعه ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ!﴾ فلا تخُصَّ قومَك، بل وصِّل الدَّعوة إلى الناس كافَّة، فإنَّك لا تَدري فيمَن يكون الخير ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ؛ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ!﴾ [القصص 51-56]

فدَعوة أهل الكتاب إلى الله من جديد واجبةٌ على كل مسلم، ولكن لا بالقَهر والغلَبة والعُنف بل بالشَّفقة والتلطُّف مع الصَّبر والصَّفح والعَفو والحكمة، لقول الله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ! فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ! وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ بما في ذلك دَعوتهم إلى الله ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ! وَقَالُوا "لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى!" تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ! قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ! بَلَى، مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ؛ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ! وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ!﴾ [البقرة 109-112] فواجبُ الوقتِ على المسلمين دَعوةُ الناسِ من جديد بالشَّفقة والبيان والحكمة والبرهان.

فإن قرُبت حالُ المسلمين من الكمال كما كَمُلت في عهد النبي صلى الله عليه وسلَّم والخلفاء الراشدين، وقام فيهم إمامٌ بالشروط التي مرّ بيانُها في الكلام على فرض إقامة الصلاة، وكانت عندهم شَوكة، حينها يضربون على تاركي الصلاة الذين يعيشون بينَهم الجزيةَ لقول الله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ، وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ؛ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ!﴾ [التوبة 29] وحتى هنا تحتمل معنى: كَي، وعليه فالجزيةُ مقصودة. غير أن هذا مُتعذِّرٌ منذ زمَن بعيد والسبب راجعٌ إلى نفس عدمِ إقامةِ الصلاة أي إلى فَقد أمور ثلاثة وهي: الإمامُ والجماعةُ والسلطانُ النصير مِن لَدُن الله تعالى.

لقد نجمت عن إضاعة الصلاة فتنٌ لا يجوز القتالُ معها، لِنَهي رسول الله عن ذلك في أحاديثَ كثيرة، منها قولُه صلى الله عليه وسلّم «ستكون فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ مِن القائم والقائمُ فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، مَن تَشرَّف لَها تَستشرفْه! فمَن وجد منها مَلجَأً أو مَعاذًا فَلْيَعُذْ به!»[1] وقال صلى الله عليه وسلم «إنّ بين يدَي الساعة فِتَنا كقِطَع الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمنا ويُمْسي كافرا، ويمسي مُؤمنا ويصبح كافرا! القاعدُ فيها خيرٌ مِن القائم، والْماشي فيها خيرٌ مِن الساعي؛ فكَسِّروا قِسيَّكم وقَطِّعوا أَوتارَكم وَاضربوا سُيوفَكم بالحِجارة! فإن دُخِلَ فَلْيَكنْ كَخير ابنَيْ آدَم!»[2] أي كُنْ المَقتولَ لا القاتِل. قال أحمد ابن تيميّة: في هذا الحديث أنه نَهيٌ عن القتال في الفتنة، بل أَمرٌ بما يَتَعذَّرُ معه القتالُ مِن الاعتزال أو إفساد السِّلاح الذي يقاتَل به، وقد دخل في ذلك المُكرَه وغيرُه. ثم بيَّن أن المكرَه إذا قُتل ظُلما كان القاتل قد باء بإثمه وإثم المقتول كما قال تعالى في قصّة ابنَي آدم عن المظلوم ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ؛ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ!﴾ [المائدة 29] ومعلوم أن الإنسان إذا صال صائلٌ على نفسه جاز له الدَّفعُ، بالسُّنة والإجماع، وإنما تنازعوا "هل يجب عليه الدفع بالقتال؟" على قولين، هما روايتان عن أحمد، إحداهما "يجب الدفعُ عن نفسه ولو لم يحضُر الصفَّ" والثانية "يجوز له الدفع عن نفسه". وأما الابتداء بالقتال في الفتنة فلا يجوز بلا ريب! والمقصود أنه إذا كان المُكرَه على القتال في الفتنة ليس له أن يقاتِل، بل عليه إفسادُ سلاحه وأن يصبِر حتى

[1] خرجه البخاري في الفتن ومسلم وأحمد عن أبي هريرة.

[2] خرجه أبو داود في الفتن والترمذي وابن ماجه وأحمد وصححه الأرناؤوط.

يُقتَل مظلوما، فكيف بالْمُكرَه على قِتال المسلمين مع الطائفة الخارجة عن شرائع الإسلام كمانِعي الزكاة والمرتدين ونحوِهم؟! فلا ريب أن هذا يجب عليه إذا أُكرِه على الحضور أن لا يقاتِل وإن قَتله المسلمون، كما لو أَكرهَه الكُفارُ على حُضور صفِّهم ليقاتِل المسلمين! وكما لو أُكره رجلٌ رجلا على قَتل مسلم معصوم، فإنّه لا يجوز له قَتلُه باتِّفاق المسلمين. وإن أكرهه بالقتل، فإنه ليس حِفظُ نفسه بقَتل ذلك المعصوم أولَى مِن العكس![1] أي أنّ الْمُكرَه على قتل غيره، ممَّن لا يحلُّ قتلُه، ليس بأولَى بالعَيش مِن ذاك الذي أُمِر بقَتله، فلا يفعَلْ بل لْيصبرْ وإن قُتِلَ هو. فقد نَهانا اللهُ ورسولُه عن القِتال في الفِتنة وأمرَنا بالاستسلام للقتل، لأنّ الاقتتال في الفتنة ليس على بيِّنة ولا هُدًى بل لا يكون إلا عن جهالَة أو بدافع دُنيوي، أي أنّه لا يخلو أن يكون قتالا لشُبهة أو شَهوة.

واعلَم أنّ ترك القتال في الفِتن أصلٌ من أصول السنة الُمجمَع عليها، كما بيّنه ابن تيمية وغيرُه في مواضعَ كثيرة. وذلك قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ! فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً! وَقَالُوا: رَبَّنَا، لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ!﴾ [النساء 77] قيل أنّ الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله، كانوا قد آمنوا به وصدّقوه قبل أن يُفرَض عليهم الجهاد، وقد فُرضَ عليهم الصلاة والزكاة، وكانوا يسألون الله أن يَفرِض عليهم القتالَ، فلما فُرِض عليهم القتالُ شقَّ عليهم ذلك.[2]

فليس الجهاد من قَبيل مصالح الناس المرسَلة، بل هو عبادةٌ محدودة بشروط وفرائض وآداب، يأذن الله بها إذا شاء. والمسلمون، ومنذ زمَن بعيد، مَمنوعون من القِتال لفَقدِ شروط الجهاد وللفتَن التي أصابتهم والتي لا تُحصى كيفًا ولا كمًّا. فالآيةُ الحاكمة فينا هي قولُ الله ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ!﴾ [النساء 77] لا آيةُ السيف كما يظنّ

---

[1] 'مجموع الفتاوى' ج28-ص539، بتحقيق الباز والجزار، دار الوفاء.

[2] قاله الطبري في تفسيره ج8-ص548.

العلماءُ والتي هي قول الله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ!﴾ [البقرة 216] أو قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ!﴾ [الحج 39] أو قولُه سبحانه ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ، فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ!﴾ [التوبة 5]

ولو افترَضنا أن الله منح مجموعةً من الناس حقَّ الجهاد وأيَّدهم بالسلطان النَّصير، فإنَّه لا يكون الجهاد حقًّا إلا على ظهور الخيل، دون المَرْكَبات والطائرات والبواخر، لِما بلغنا عن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنتُ جالسا عند رسول الله، فقال رَجُلٌ "يا رسولَ اللّه، أَذال الناسُ الخَيْلَ، ووضَعوا السلاح؛ قالوا: لا جهادَ، قد وضَعَت الحربُ أوْزارَها!" فأَقْبلَ صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال «كذَبوا؛ الآنَ جاءَ القتالُ! ولا تزالُ من أُمَّتي أُمَّةٌ يقاتلون على الحق، ويُزيغُ الله لهم قلوبَ أقوامٍ ويرزُقُهم منهم، حتى تقوم الساعةُ وحتى يأْتِيَ وعدُ الله! الخَيْلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وهو يُوحَى إليَّ أني مقبوضٌ غيرُ مُلَبَّث وأنتم تتَّبعوني؛ أَلاَ، فلا يضربْ بعضُكم رِقَابَ بعضٍ! وعُقْرُ دارِ المؤمنين الشامُ.»[1] الإذالة: الإهانة والابتذال، وأوزار الحرب: أثقالُها، وزاغ الشيء: إذا مال. والنواصي: جمع ناصية وهي شعر مُقدَّم الرأس، وعُقْرُ الدار: وسَطُها.

هذا ويقول الله ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ، فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ!﴾ [النساء 131] فإنَّه لا يكون الجهاد شرعيًّا إلا بأسلحة الحديد كالسيوف والرماح والقِسي غيرِها، دون الأسلحة الناريّة والقنابل الفتَّاكة التي تنسف بالناس وتُحرِقهم كأنَّ نارَ جهنَّمَ قد صُبَّت عليهم. فعن حمزة الأسلمي أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أَمَّرَهُ على سَرِيَّةٍ، وقال «إن وجَدتُم فُلانا، فأحرِقوه بالنار!» فَوَلَّيتُ فنَاداني فرجعتُ إليه قال «إن وَجدتُم فلانا فاقتُلوه ولا تُحَرِّقُوهُ؛ فإنهُ لا يُعذِّبُ بالنَّارِ إلاَّ ربُّ النار!»[2] وعن أبي هريرة أنه قال: بعثَنا رسول الله في بَعْثٍ فقال «إن وجدتم فُلانا وفلانا فأحْرِقوهما بالنار!» ثم قال صلى الله عليه وسلم حين

---

[1] خرجه النسائي في الخيل، وأصله في الأمهات وله شواهد عدّة.

[2] خرجه أبو داود في الجهاد والبيهقي في 'السنن الكبرى' وأبو يعلى وأحمد وصححه الأرناؤوط.

أردنا الخروجَ «إني أمرتُكم أن تُحرقوا فلانا وفلانا، وإن النار لا يعذِّب بها إلا الله؛ فإن وجدتموهما فاقتلوهما!»[1] فإنه لا يجوز قتلُ أحدٍ من الناس بالنار ولا تعذيبُه بها. بل ولا ينبغي ذلك حتّى مع أحقَر الحشرات، فعن عثمان بن حيان أنه قال: كنتُ عند أم الدَّرْداءِ فأخذتُ بُرغوثا فألقيتُه في النار، فقالت: سمعتُ أبا الدرداء يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يُعذِّب بالنار إلا رَبُّ النار!»[2] وعن عبد الله بن مسعود قال: كنّا مع رسول الله في سَفَرٍ فانطلقَ لحَاجَته، فَرَأينا حُمَّرَة معها فَرخَانِ فَأَخَذْنَا فَرخَيها فَجَاءت الحُمَّرَةُ فجَعَلَتْ تُعَرِّشُ، فَلمَا جاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قال «مَن فَجَعَ هذه بوَلَدِهَا؟ رُدُّوا ولدَهَا إليها!» ورَأى قَريَةَ نَمْلٍ قَدْ أحْرَقناهَا، فقال «مَن أَحرَقَ هذه؟» قُلنا "نحن" قال «إنَّهُ لا ينبغي أَنْ يُعَذِّبَ بعذاب النارِ إلا رَبُّ النَّار!»[3] ولا يحقُّ لِمَن أباح القتالَ بالنار من العلماء، وإن استدلّوا بما فعله بعضُ الصحابة، فقد عارضَهم عمَر وابن عباس وغيرُهما، أمَّا ما فعلَه بنو أميَّة فمن بعدَهم فلا يقوم دليلا على شيء من شرع الله تعالى. لذا فما تقوم به الجماعات الإسلاميّة المسلَّحة من قتل بالرصاص ومن تفجيرات ومن عمليّات انتحاريّة، فذاك أبعدُ شيءٍ عن الجهاد في سبيل الله، وإنّما هو تكالُبٌ على السُّلطة وركضٌ وراء المال والنفوذ، وربُّنا الرحمن المستعان عليهم.

فواجبُ المسلمين، وهذه حالُهم من ترك الجهاد بالسَّيف، استئنافُ الدَّعوة إلى الله من جديد. أي ابتداءً من أوَّل مَراحلِها، كما بيَّنه جماعةٌ من مُجتهدي الوَقت. قال بعض الدعاة: لا يختَلف وضعُ الدّعوة الإسلاميّة اليومَ عمّا كانت عليه في عهدها الأول، ألا وهو العهد المكِّيّ. نحن الآن يجب علينا أن نفعل ما فعل المسلمون الأوّلون تمامًا لأنّ ما يصيبُنا هو ما أصابَهم وما عالَجوا به مُصيبَتَهم هو الذي يجب أن نعالِج به مصيبتَنا!

---

[1] خرّجه البخاري في الجهاد والترمذي والدارمي وأحمد.

[2] خرجه البزار ح4121 والطبراني.

[3] خرجه أبو داود في الأدب، والحُمّرة طائر صغير كالعصفور.

أوَّلُ الإصلاح أن يُصلِحَ المسلمون أنفُسَهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ!﴾ [الرعد 11] ليَعوا أنّ الدعوةَ إلى الله من صميم الدين ومن مَقامات اليقين، وأنها أمانةٌ في عُنُق كلّ واحد من المُسلمين. ولا دَعوةَ بغير علم، وأوّل العِلم نَبذُ التَّقليدِ والتَّأويلِ والقولِ في الدين بغير تثبُّت ولا تمييز، وإعادةُ النظر في مسائل الناسخ والمنسوخ والحقيقة والمجاز وغيرها مما تحجّرَ من أصول وقواعد وفروع. ثم الإقبالُ على دراسة القرآن والسنّة وآثارِ السَّلَف الصالح، بأعيُن أحياء يعيشون في قَرنهم، فالرَّجلُ ابنُ وَقتِه! والتضلُّعُ من مَنابع الدين الحيّة قصدَ العمل بما جاء فيها والدعوة إلى الله بالحال قبل المقال. فمَن فقَّهه الله في الدين فقد تأهَّل لنَشرِ الخيرِ حولَه ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ؛ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ!﴾ [آل عمران 104] وكما أُثِر عن عمرَ بنِ الخطّاب: لن يُصلِحُ آخرَ هذه الأمَّة إلاّ ما أصلَح أوّلَها!

ما صلَح أوَّلُها إلا بفقه الدَّعوة وبالتدرُّج في التربية كمَن يدعون قومًا لا خبرَ عندَهم أصلاً عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة، وعملاً بقول الله ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ حُكماء عُلماء عاملين أتقياء، تُربّون الناسَ بصِغار العلوم قبلَ كبارها، تعطوهُم ما يُصلِحُ حالَهم وينفَعُهم في الدّنيا ويُسعدهم في الآخرة وتعاملوهُم كأنَّهم أولادُكم، فلا تُطعموا الرَّضيعَ منهم لَحمًا بل حليبًا عذبًا ولا تمنعوا الشابَّ القويَّ ما يلزَمه من غذاء مُركَّب، اعلَموا هذا ﴿بِمَا﴾ أنَّكم ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ غيرَكم وفي قراءة ﴿كُنتُمْ تَعَلَّمُونَ﴾ أي تتعلَّمون ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآنَ الذي فيه تبيانُ كلِّ شيء ﴿وَبِمَا﴾ أنَّكم ﴿كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران 79] وتتفكَّرون وتتدبَّرون وتتفقَّهون في الدين والدنيا. ثم اعلَموا أنّ الشَّدائد والْمِحَن مِن ضَروريّات دينكم ومِن سُنن الله في حفظ الملّة وتعزيز أمّة الإجابة في كلّ الأزمنة والأمكنة. خلافًا لما يظُنُّه أكثرُ العلماء والدعاة فضلا عن عامّة الناس، فالله يقول ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ﴾ أي مثلُ الذي أصابَ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ؟! مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا! حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ "مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟" أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ!﴾

[البقرة 214] ويقول تعالى ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ! وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ومن الذين التحقوا بهم من تاركي الصلاة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا! وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ!﴾ [آل عمران 186]

لا بُدّ في الدين من صلاة وزكاة وصَوم، ومن غضّ الطَرْف وما إلى ذلك من أعمال الجوارح، ولكن ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا! وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ!﴾ [البقرة 177]

الدين مع ذلك صبرٌ وعزيمة وشَجاعةٌ وعِفَّة وكَرم ونَجدة وفُتُوّة. ثم الابتلاءات علاماتٌ على مَتانته كما بلغنا عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: قلت "يا رسولَ الله، أيُّ الناس أشدُّ بَلاءً؟" قال «الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثل، فيُبتلَى الرجلُ على حَسَبِ دينه؛ فإن كان دينُه صَلبًا اشتدَّ بَلاؤه، وإن كان في دينه رِقَّة ابتُليَ على حَسب دينه! فما يَبرَح البَلاءُ بالعَبد، حتى يَترُكَه يَمشي على الأرض ما عليه خَطيئَة!»[1] فالاضطهادات والأزمات والصِّعاب هي التُّربة الصالحة والجوُّ الذي تنفَتح فيه أنواعُ العبادة كلِّها، وتتفرَّع وتَنمو فيتغَلغَل الإيمانُ في القلب ويحلو. تلك هي الحالُ اللاّئقةُ بالأمّة التي شرَّفها الله بحمل الرسالَة الإلَهيّة التي يحملُها المُصطَفَون من خلق الله والتي يتأهَّب لها ويتأهّل لنشرها أفرادٌ عبرَ الزمان.

فلا يكُنْ قصدُ الدُّعاة إلى الله الغَلبَةَ والتَّسلُّطَ على الغير والعُلوّ وبَسطَ النُّفوذ في الأرض والعيشَ الرغد. بل لِيَكن دافعُهم حبَّ الخَلق وتحبيبَ الله ورسوله إليهم ونُصحَهم وتنويرَ قلوبهم بالتَّبشير والتَّيسير. ولا يتسنّى ذلك إلا بالصِّدق مع الله وبالتواضع مع عِباده، وبِمُجاهدة النَّفس وهَضمِها والصَّبر على الأذى والإيثارِ والْمُروءة والعِفَّة والشجاعة

[1] خرجه الترمذي في الزهد وابن ماجه والدارمي وأحمد عن مُصعب بن سعد عن أبيه.

والنَّجدة والحكمة والحياء والأدب مع الله ورسوله والخلق. وإنما السبيل إلى ذلك التَّصبُّرُ والتَّحلُّم والتَّعفُّف والتَّقشُّف والتَّقلُّل والتَّبذُّل واليأسُ ممّا في أيدي الناس وإتعاب النَّفس ليرتاحَ الغير ومقابلَة الإساءة بالإحسان؛ هذه بعضُ خِصال الدُّعاة إلى الله، الذين يعمَلون لله على هَدْي رسول الله ابتغاءَ ما عند الله تبارك اسمُه.

***

بقيت مسألة وهي كيفية التعامل مع تاركي الصلاة من الجيران وأولي الأرحام، فنقول: فالله عزّ وجل يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ! تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ؟!﴾ [الممتحنة 1] العداوةُ من طَرَفهم أن يستَعملوا ضدَّكم العُنف والاضطِهاد والقوَّةَ والسُّلطان، ليَمنعوكم من إقامة الصلاة ومن الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكَر ومن الدَّعوة إلى الله، كما بيَّنه تعالى بعدَ آيات بقوله ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ! إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ؛ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ!﴾ [الممتحنة 8-9] فيَحرُم حينئذ الوَلاءُ والمخالَطة لأنَّ ذلك عَون على الظُّلم، بل يتحتَّم البَراءُ من هؤلاء الظَّلمة ومُجانبتُهم.

بلغنا عن عَمرو بن العاص قال: سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم جِهارًا غيرَ سِرٍّ يقول «إنَّ آلَ أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وَلِيِّيَ الله وصالِحُ المؤمنين؛ ولكن لهم رَحِمٌ أَبُلُّها ببَلالِها!» يعني أَصِلُها بصِلَتِها[1]، فلا يحلُّ للمسلم أن يقطَع رحمًا لأنّ ذلك مُنكر وفَساد كبير كما بيّنه الله تعالى بقوله ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ؟! أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ؛ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ!﴾ [محمد 22-23] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلَّم «إن الرَّحِم شُجْنَة من الرَّحمن؛ فقال الله: مَن وَصَلَكِ وَصلتُه

[1] خرجه البخاري في الأدب وله شاهد عند مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

ومَن قَطَعك قَطعتُه!»[1] وعن أسماءَ بنتِ أبي بكر أنها قالت: قدمَت أُمِّي وهي مُشرِكَةٌ في عَهد قُريش ومُدَّتِهم، إذْ عاهَدوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم، مع ابنِها فاستفتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقلتُ "إن أمِّي قَدِمَت وهي راغِبَة؛ أَفَأَصِلُها؟" قال «نَعم صِلِي أمَّك!»[2]

الحاصل أنه لا يجوزُ قطعُ صِلة الرحم، وأنَّه يجب صِلَة الأقارب من أولي الأرحام وإن كانوا من تاركي الصلاة. ولكن بشرط أن لا تكون منهم عداوةٌ لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، فإن كانت فهي قطيعةٌ منهم لا من المسلم. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِياًّ! إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ، لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً؟! يَا أَبَتِ، إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ؛ فَاتَّبِعْنِي، أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا! يَا أَبَتِ، لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا! يَا أَبَتِ، إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ؛ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا! قَالَ﴾ أبوه ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي، يَا إِبْرَاهِيمُ؟! لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ؛ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا! قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكَ! سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي؛ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا! وَأَعْتَزِلُكُمْ وَ﴾ وأعتزلُ ﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ!﴾ شركًا به تعالى ﴿وَأَدْعُو رَبِّي؛ عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا!﴾ [مريم 41-48] وقد وعَد إبراهيم أباه بأن يستَغفر له الله، ولكنَّه ترَك ذلك بعد ما علم منه أنَّه عدوٌّ للَّه تعالى، وقد أنبأنا ربُّنا جل جلالُه بما جرى، وبيَّن لنا الحكمةَ والحُكمَ المُستَقى من ذلك فقال ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى، مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ! وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ! فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ؛ تَبَرَّأَ مِنْهُ! إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ! وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ؛ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ!﴾ [التوبة 113-115] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

[1] خرجه البخاري في الأدب عن أبي هريرة.

[2] خرجه البخاري في الأدب ومسلم وأحمد وأبو داود.

فأمر الدين غدا ملتبسا على أكثر الخلق إلا على من رحم الله، وبات أهلُه غُرباء كما وعد رسول الله. فمَن يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

ترامَتْ بـــنا حادِثاتُ الزّمانِ تَـــرامِي القِسِيِّ بنُشّابِها
نصحتُ بني رَحْمي فما وعَوا نَـــصيحةَ بِـــرٍّ لأنسابِها
لقد رَكِبوا بَغْـــيَهُم، وارتَقوا غدّارةً تُردي برُكّابِـــها
ويا رُبَّ ألسِنَة كالسُّـــيوفِ تُقَطِّعُ أعنَاقَ أصحابِـــها
وكم دَهْيُ المرءُ مِن نفـــسه فَـــلا تُؤكَـــلَنّ بأنيابِها
فذا معزِلٌ بأقاصي البِـــلادِ مَـــفزَعٌ من شَرّ كلابِها
فأبعِد منها وخَـــلِّ الْمُـــنَى وقَطِّـــعْ علائقَ أسْبابِها
ومَا ينتقِصْ مِن شَبابِ الرّجالِ يَـــزِد في نُهاها وألْبابِها

أتينا على آخر ما منّ الله تعالى به من هذا المجموع في قدر الصلاة وحكم تاركيها والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وبه انتهى الكتاب والحمد لله الفتاح العليم العزيز الوهاب

وصل اللهم على الرحمة المهداة وخير البريات

محمد وسلم تسليما طيبا مباركا عميما

م

حكم الصلاة